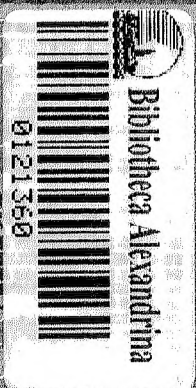
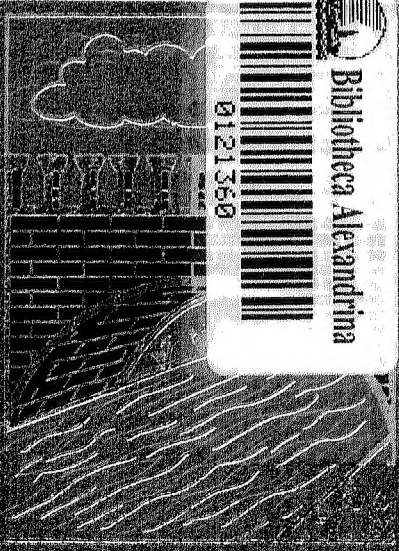
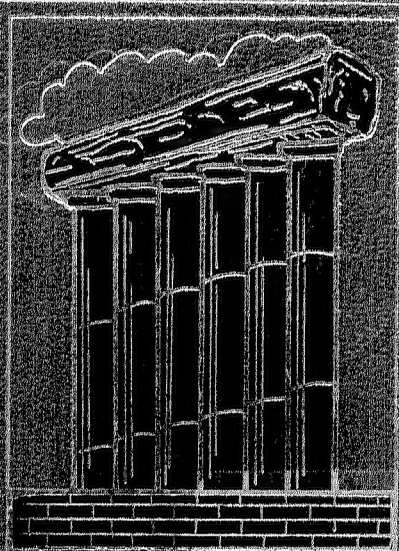
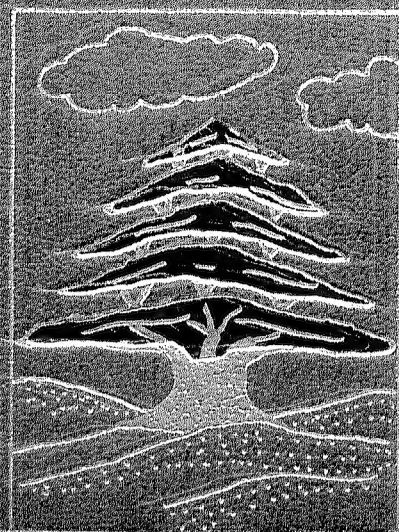


تَسْرِيجُ الْأَبْصَارِ
فِيمَا تَحْتَوِي لِبْنَانِ
مِنَ الْأَشَارِ

تأليف
الأب دهنري لامنس اليسوعي

(٢-١)

مكتبة دير مار يوسف
البيروت



تَسْبِيحُ الْإِبْرَصَانِ
فِي مَا يَحْتَوِي لِبْنَانُ مِنَ الْأَشْأَرِ

تأليف
الأب هنري لامينيس اليسوعي

الجزء الأول
في قسم لبنان الشمالي

نقلًا عن مجلة المشرق -

دار الرائد اللبناني

الحازمية - لبنان
ص.ب. ٩٣

تمهيد

لبنان غني بآثاره التي تشتمل عليها مدنه وقراه ، ولكن معظم هذه الآثار مجهول من الكثرة الكاثرة من أبناء شعبنا ، وهو ما حدا بالمؤلف الأب هنري لانس اليسوعي الى وضع مجموعة مقالات وأبحاث نشرها في مجلة « المشرق » بعنوان « تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار » ضمنها من الاخبار التاريخية والادوصاف الجغرافية ما يساعد على الكشف عن آثار لبنان وإلقاء الاضواء الساطعة عليها .

وقد رأت دار الرائد اللبناني انطلاقة من مبدأ الاهتمام بتاريخ البلاد ومآثر الاجداد أن تقدم الى الأجيال الجديدة هذه المقالات مرة ثانية منشورة في كتاب يحمل العنوان نفسه الذي نشرت المقالات في مجلة « المشرق » به ، ليطلعوا من خلالها على ما مر على مسقط رأسهم من أمم وشعوب مختلفة تركت بصماتها الحضارية في كل مكان منه ، ولتزودهم بقسط من المعرفة يندر أن يقعوا على مثله ، لا سيما وأن المؤلف الى جانب حديثه عن الرسوم والآثار فهو يهتم بالكلام على الأنهار والسواحل والوديان والاعوار والاحوال الجوية والحيوانات المفقودة والمعادن والسكان ومدى انتشارهم فيه واللغات التي كانوا يتكلمون بها .

من البديهي أن لا تشمل هذه البحوث والدراسات ، وقد وضعت مطلع هذا القرن ، ما اكتشف من آثار بعدها ، الا انها والحق يقال قامت بدور مهم وبارز هو أنها حفظت كثيرا من الرسوم والآثار التي درست بعد نشرها ، وكان لها فضل الابقاء على أخبار هذه الآثار وتعريفنا بها وانقاذها من النسيان والغياب في بطون التاريخ والازمنة ، ومن هنا ميزتها . وهذا هو الذي دفع بنا الى أن نبادر الى نشرها لتكون اسهاماً في المكتبة التاريخية اللبنانية وتعريفاً للأجيال اللاحقة بما فعلته الأجيال السابقة .

الناشر

الفصل الأول

قسم لبنان الواقع في شمالي بيروت

إذا ما خرج المسافر من بيروت سائراً نحو المشرق أول ما يلقاه في طريقه نهر بيروت . وهو مجرى ماء ربما اضحى في الشتاء سيلاً جارفاً . واكثر الكتاب المحدثين يرتأون انه هو النهر الذي دعاه بلينيوس الطبيعي نهر ماغوراس وانه كان من انهار الفينيقيين المقدسة دعوه بذلك اشتقاقاً من اسم الاله ماقار وهو اسم زحل بلغتهم (١) وقد عارض هؤلاء الكتبة غيرهم فانكروا ان نهر بيروت هو نهر ماغوراس المذكور (٢) واحتجوا لذلك بحجج لا يسعنا هنا بسطها

واذا اجتازت النهر وجدت في طريقك اوعلى مقربة من الطريق قرى ومزارع نظمتها حديثه العهد اللهم الأسن الفيل التي ورد ذكرها في تأليف الصليبيين مصفحة بسنسفيل (Senesfil) (٣) . ثم تقطع سهلاً مستطيلاً على سيف البحر يؤدي بك الى نهر انطلياس الذي بجواره موقع القرية المدعوة به

واسم انطلياس كما لا يخفى معرب وقد تضاربت في اصله الآراء فن العلماء من زعم انه نسب الى النبي الياس واهل القرية يعظمون هذا القديس ويكرمونه اي اكرام ويقدمون لكنيستته المشيدة في قريتهم النذور ويأنفون ان يحملوا باسمه واذا حلفوا كهوا الحث بايمانهم فليل ان الضيعة دُعيت لذلك باسم هذا النبي . ألا ان في هذا التفسير شبهة لانه لا يبين معنى أول لفظة « انطلياس » ولم يحاول بعد احد شرحها . وجاء في تقليد اهل لبنان ان انطلياس دُعيت باسم بعض المشاهير او المعبودات ولم يمكننا تحقيق ذلك

ولعل انطلياس مشتقة من الكلمة اليونانية (ἀνθραξ) اي مواز للشمس لان انطلياس تقابل المغرب بينما تواجه بيروت جهة الشمال . وهذا الشرح لا يتجاوز حد

(١) راجع تاريخ الفينيقيين Movers : *Phœnicier*, I, 262 et 666,

(٢) راجع مجلة العاديات , 1878, I, 13, Note 1, *Revue Archéologique*,

(٣) راجع *Colonies franques* p. 524, Rey :



جوار عطفة انطاليس - القارة والبع

آثار لبنان - صربا وجونية

الحُدُس والرجحان . وعلى كل حال انّ انطلياس قرية قديمة العهد يشهد بقدمها ما وجده علماء العاديات من الآثار الجليّة كعواميد ذوات حجر واحد من الرُخام المحبّب ونواويس وبقايا بنايات قديمة . فلا شكّ ان العمد يدلّ ان ثَمّت كان هيكل للعبادة كما ان النواويس المكتشفة تشهد بوجود مدفن قديم وبقايا الابنية تبين وجود القرية القديمة سواء تدعى بانطلياس او باسم آخر مفقود وموقع انطلياس حسنٌ جداً لا بدّ انه استلقت منذ قديم الزمان انظار الاهلين فسكنوه وعثّروه ولا نظنّ انّ قرأنا نسوا ما كتبه في اعداد المشرق (١٠٤:١) حضرة الاب زموّن بخصوص محطة انطلياس القديمة وما وُجد فيها من الآثار التي تقدّمت عهد التاريخ . والذي حمل الاقدمين على ايثار انطلياس وتفضيلها على ما سواها انما هو نهرا ذو الماء العذب الزلال الذي يولي البقعة المجاورة للضيعة نضارة وخصباً

وكانت السكّة الرومانية الواصلة بين نهر الكلب وبيروت تجدي سكّان انطلياس منافع جنة فتسهّل لهم نقل كل خيرات المدينة ولا غرو ان الرومان اقاموا هناك نُصباً للدلالة على المسافة بين بيروت والقرية التي نحن بصددّها وهي مسافة خمسة اميال اي نحو سبعة كيلومترات ونصف فهذا جلّ ما نعرفه الآن عن انطلياس . وقد زعم البعض ان هذه الضيعة هي مدينة لاونتوبوليس القديمة (١) وهو رأي واهن لا يمكن اثباته ببرهان صحيح . والصواب ان لاونتوبوليس كانت في جنوبي بيروت على طريق صيدا .

٢ صربا وجونية

ثمّ تعبر نهر الكلب الذي كان يدعوّه الاقدمون ليكوس ومعناه الذئب وتسير مدّةً فتصل الى ضيعةٍ موقعها شماليّ النهر تدعى صربا وهي منتصبّة فوق الصخور المشرفة على حوز جونية . وهو شرمٌ في البحر يُعدّ من احسن خلجان سورّة ولو اراد احدٌ ان يحوّل الى مرسىٍ لتهيأ له ذلك دون مشقّة . وليس في كل ساحل الشام من غزّة الى الاسكندرونة ميناء طبيعيّ سواء . وهو في جهته الشماليّة

عميق النور فلا بأس على السفن اذا أُلقت هناك مراسيها لان هذه الجهة الشمالية آمن من الجهة الجنوبية التي قعرها رملٌ . وخور جونية بمغزل عن الرياح الخطرة الشديدة الهبوب كريح الشمال وريح الجنوب والصباء . ومع كل هذه الخصائص بقيت جونية قرية لا يُعبأ بها مدة اجيال طويلة ولا علةً لذلك سوى صعوبة الوصول اليها وانحصار اطرافها بين جبال عالية تُطلّ عليها شرقاً ومضيقيّ نهر الكلب والعالمتين شمالاً وجنوباً . وعليه لم يكن لها ان تنبسط في السهول المجاورة وتُوسّع نطاق ارباضها كغيرها من المدن مثل بيروت وطرابلس وصور وصيداء .

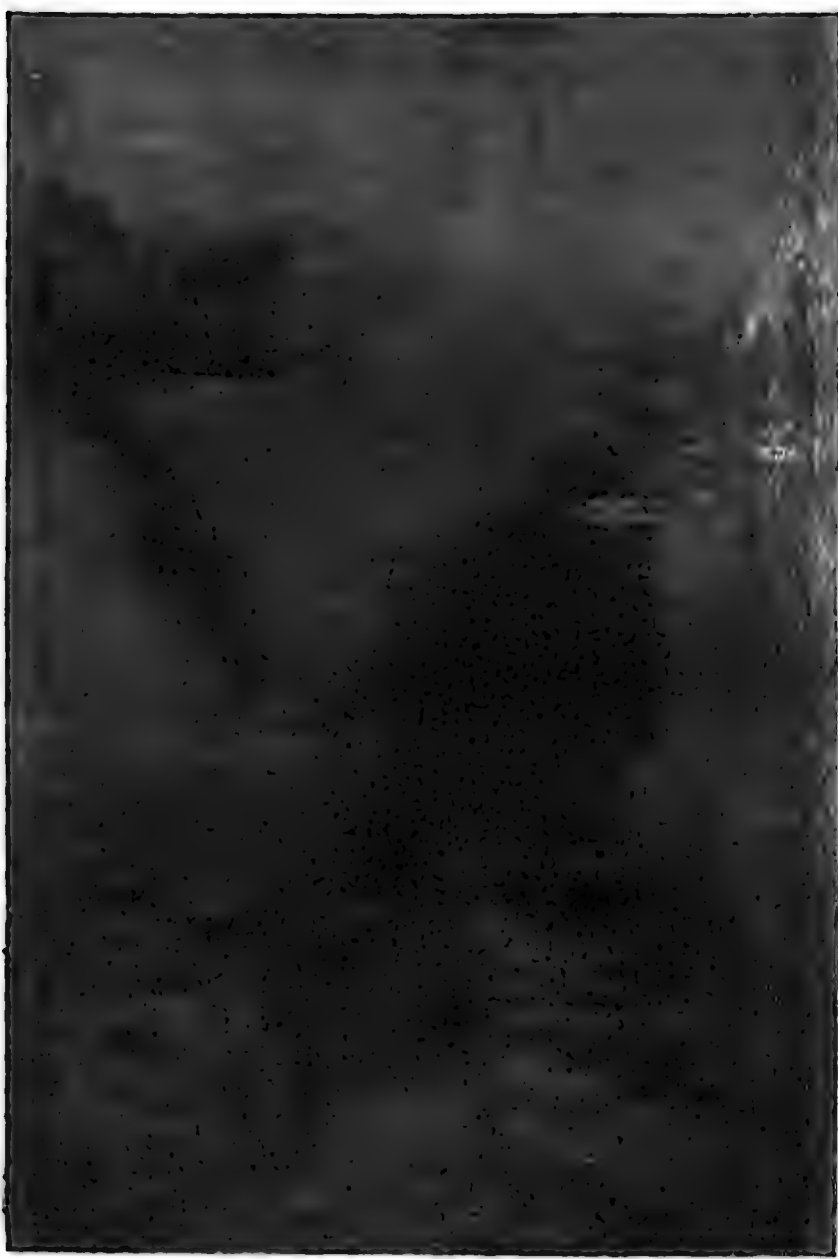
ورغمًا عن هذه العوائق قد اخذت جونية منذ أمدٍ قريب تحفل بالسكان وتزيد اتساعاً . وقد نالت نصيباً كبيراً من الخط منذ أنشئت السكة الحديدية على ساحل البحر ألا أنها تفتقر لترقي في معارج النجاح الى شيتين اعني الى مياه عذبة يجلبها اليها اهلها من احد الينابيع القريبة والى بعض تحسين سهل في مرفأها بأن يجعل له رصيف لنقل البضائع الى البر ونزول الركاب وتعميق بعض اطراف الخليج . فلو اخرج اهل جونية هذه المشروعات الى حيّز العمل اضحت بلدتهم من ابهج البلاد واشبه شي . مع صغرها بمرفأ نابولي الممدود من ابدع مناذه الدنيا

هذا ما يختصّ بنحور جونية أما البلدة نفسها فقد اشتق اسمها من خليجها فدُعيت به جونية جوناً او خوراً . ولها ذكر في تواريخ القرون المتوسطة . وكانت في ايام ياقوت الرومي من اعمال طرابلس (١) . وقال الادريسي (٢) وهو من كتبة القرن الثالث عشر : « ان جونية حصن على البحر واهله نصارى يعاقبة » . وذكر لها في محل آخر كورة (٣) وذلك مما يشير بنوع جلي الى اهميتها . وقد ورد ايضاً اسم جونية في تأليف الصليبيين وهم يدعونها جوينة (Juine) . أما قدماء الجغرافيين من اليونان والرومان فلم يرووا شيئاً عنها ولا عن صربا التي كانت تُعدّ من ارباضها متعلقة بها . ولذلك لم نر نحن ايضاً ان نفصلها عن بعضها

قال پلينيوس الطبيعي : « ان بين نهر ليكوس (نهر الكلب) ونهر ادونيس

(١) معجم البلدان (١٦٠ : ٢)

(٢) راجع طبعة غلدميستر ص ١٧



مدخل مقبرة الخليل

(نهر ابرهيم) مكاناً يُدعى پالِيلْيُوس (Palæbyblos) . وزاد عليه ايضاحاً اسطرابون الجغرافي قال: « اذا سرت من پيلوس (جبيل) جنوباً تلقى في طريقك اولاً نهر ادونيس ثم جبل كليمكس (ὄρος Κλειμᾶκος) ثم بعدها پالِيلْيُوس واخيراً نهر ليكوس » . فاذا اعتبرنا كلام اسطرابون لا نجد بين نهري الكلب و ابرهيم سوى محلّين احزا لهما في الزمان القديم شهرةً بعدد سكّانها وهما « برجا » و « جونية صربا » . وما من موقع الا هما يحسن ان يكون مربوطاً للسفن . وتعين المرافئ كما لا يُنفى من شأنه ان يبين موقع المدن الفينيقيّة القديمة لحقّ الفينيقيين بنفّ الملاحه وتفرّعهم للتجارة (١)

و اول ما يفيدنا اسطرابون انّ پالِيلْيُوس هذه في جنوبي جبل كليمكس فاذا تحقّقنا موقع هذا الجبل استدللنا ايضاً على مكان پالِيلْيُوس . ونظن ان الجبل المذكور هو الجبل المشرف على البحر في شمالي جونية بقرب المعاملتين وهو عبارة عن صخور مرتفعة يَرّ في وسطها طريق الساحل . وتسمية اسطرابون لها بكليمكس موافق جداً لان كليمكس (Κλειμᾶκος) باليونانية معناه المُرتقى والدّرج . وقد آثر بعض العلماء (٢) رأياً آخر في تعيين جبل كليمكس فقال انه هو الجبل المشرف على جونية الذي تعلوه قريتا حريصة وغسطا . وما فيه من المراقي الصعبة اشبهُ شيءً بدرج السلم فدّعي لذلك كليمكس . وكلا الرأيين محتمل فندع لقرائنا ان يرجحوا الواحد على الآخر . وبناء على هذين الرأيين لا بدّ من القول انّ پالِيلْيُوس هي صربا لوقوعها في جنوبي جبل كليمكس

ولا غرو ان يكون موقع جونية وصربا استلقت منذ القدم انظار الفينيقيين وهم في حاجة الى نقل بضائعهم بجرّاً . وعلاوةً على ذلك اننا نعلم ان اكثر المدن الفينيقيّة كانت مبنية في سالف الزمان على نُشور او على رؤوس تشرف على البحر كما ترى في جبيل وصيدا وبيروت وصور وهلمّ جرّاً . فلا ريب اذن ان صربا

(١) راجع مجلّة المباحث (Études, 1861, p. 524) وفيها مقالة ذات شأن في آثار سورّيّة للاب بوركنو اليسوعي . إلّا اننا لا نوافق كاتبها في رأيهِ عن پالِيلْيُوس . وسبأني ذكر هذا المبحث في معرض كلامنا عن برجا

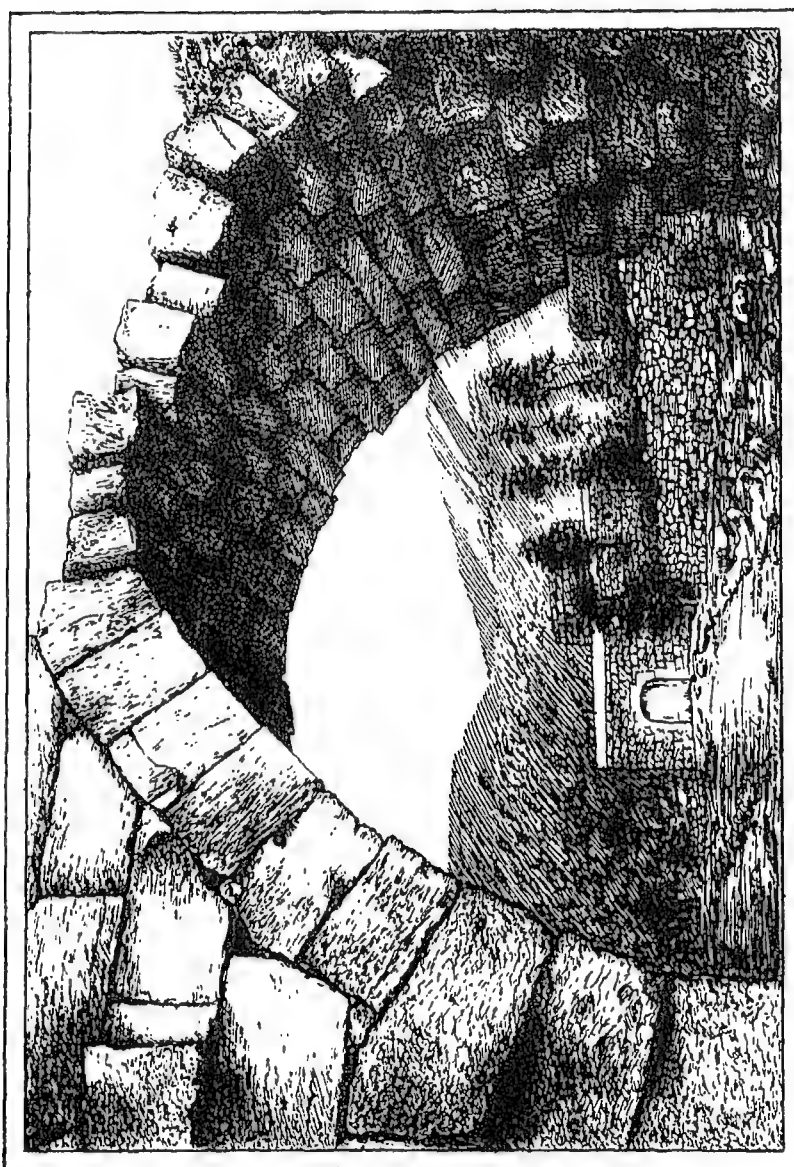
(٢) راجع مجلّة الماديات 15 et 3, I, 1878, Revue Archéolog.,

وجونية اصبحتا قديماً مقاماً للفينيقيين ومرفاً لسفنتهم وما وُجد في هذه السنين الاخيرة من الآثار القديمة بصربا يؤيد رأينا . إلا انّ البنايات الحديثة قد أفنت كثيراً من تلك البقايا الجليّة التي وصفها السيّاح منذ بضع عشر سنين . ومن هذه الآثار مغارة يكرم فيها اليوم القديس جرجس ويظهر انها كانت سابقاً هيكلًا لعبدة الاصنام . ومنها القبر المعروف بقبر بنت الملك وهو مدفن قديم . ومنها ايضاً قبور ومعاصر قديمة الى غير ذلك من الاخرية الدراسة ولكن اعظم هذه الآثار قلعة صربا التي لم يبقَ منها غير قسمها الاسفل وهو عبارة عن حجارة ضخمة تشبه حجارة دير القلعة . وكان سابقاً بجوار تلك العبادة اعمدة وروؤوس اعمدة وبقايا آخر من هيكل قديم (١) لانّ هذه القلعة كانت معبداً للوثنيين ولعلّها كانت مخصصةً لعبادة سيرابيس . وقد اشتق الكاتب كولن سكّليدي (Ceccaldi) اسم صربا من اسم سيرابيس اله هذا الهيكل . وقد اكتشف ايضاً في صربا وجونية على مسكوكات فينيقية وقناثيل وكتابات من حملتها كتابة يونانية في ركن بعض القناثيل كتب فيها (Ζεύς ἐπουράνιος) اي « المشتري السامي » فيظهر اذن مما تقدّم انّ وجونية وصربا سيّدتا في موضع مدينة قديمة يرجح انها باليبيلوس وكان معظمها فوق الصخور في محلّ صربا وكانت وجونية كمرافاً لها منذ أيام الفينيقيين

٣ نهر الكلب

ان طريق وجونية كما ذكرنا في مقالنا السابقة يقطع نهراً طالما ورد ذكره في تاريخ سواحل فينيقية وهو نهر الكلب . وليست خطارة هذا النهر بعمق غور مياهه او طول مسافة سيله لانّ اصله كما لا يُخفى من مغارة في سفح جبل جعيتا تبعد عن البحر ستة اميال فقط وتختلط مياهه عند خروجه بالمياه المنحدرة من اعالي لبنان من نبعي اللبن والعسل فيجري من ثمّ مرغياً مزبداً حتى ينتهي الى البحر فيصب فيه .

(١) وقد نقل البناؤون كثيراً من هذه الحجارة فانخذوها للبنايات المستحدثة كما فعلوا في دير القلعة . وهذا امر لا شكّ يؤسف عليه فاذا دأب الاهلون على خرّقهم في تحطيم هذه الرسوم لم يبقوا عملاً قليل في لبنان شيئاً من الآثار القديمة



جسر الماملتين الروماني

وانما لنهر الكلب شأن في تاريخ الفتوحات العظمى القديمة لأن عند مصبه مضيقاً لا بد من قطعه لمن حاول المرور في سواحل سورية ولذلك اضحى هذا المكان في كل الازمنة كما ذكر به اصطلت نيران الحروب بين الماوك الفاتحين وسكان البلد المدافعين عن وطنهم

وقد قدمنا ان اسمه باليونانية « Λύκος » اي ذئب فغرب بنهر الكلب . ولكن أتى له هذه التسمية وما سبب هذا اللقب ؟ نجيب ان الاقاصيص الشائعة بين العامة تروي عن اصل هذا الاسم اموراً غريبة منها ان كلباً هائلاً كالغول كان يحرس هذا الممر الحرج فلا يدع احداً يجتاز ما لم يحل له لغزاً يعرضه عليه . وهذه الرواية اشبه شيء بحكاية اليونان عن ابي الهول (Sphinx) الذي كان يفترس من لم يستطيع الى فك احاجيه سبيلاً . ومنهم من زعم ان النهر دُعي كلباً لان الوثنيين قديماً نصبوا هناك صنماً على هيئة كلب يعبدونه ويدعون انه اذا وافاهم العدو ينبح الكلب فيحذره من هجماته . ويقولون ان بعض الصخور المجاورة للنهر تمثل جسم هذا الصنم بيد ان رأسه قُطع فألقي في البحر . ولا نظن ان في هذه الاحاديث شيئاً من الصحة لان العلماء لم يبقوا بعد البحث على اثر للتمثال المذكور فضلاً عن ان الكتب الاقدمين لم يذكروا شيئاً من امره . والرأي الصواب عندنا ان النهر يُسمى ذئباً او كلباً لصخابة صوته عند انصبابه في البحر حيث تصطدم مياهه بالامواج المتلاطمة فيسمع له دوي عظيم (١) ويشبه هذه التسمية اسم الليطاني الذي دعاه القدماء نهر الاسد (Λέωντος ποταμός) فغرب بالليطاني وهو الذي يصب في البحر بين صور وصيدا . ويسمى عند مصبه نهر القاسية

وبالقرب من النهر آثار الطريق الرومانية التي نُحِتت في وسط الصخور المطلّة على النهر جنوباً وقيل ان مرقس اوريليوس انطونينوس الملك (٢) بين سنتي ١٢٧ و ١٨٠

(١) راجع Ritter : *Erkunde*, XVII, 92 ولهذا المؤلف تفسير آخر لا حاجة

لذكره هنا

(٢) قد وهم الشيخ طئوس الشدياق في اخبار الاعيان في جبل لبنان (ص ١٦) اذ نسب هذا المشروع الى انطونيانس قيصر في سنة ١٢٧ والصواب كما ذكرنا . والشاهد على ذلك كتابتان عند مضيق نهر الكلب يُذكر في الاولى عقيدة للطريق

وثر هذه الطريق ووسّعها فدعاها باسمه « Via Antoniniana »
 أما الجسر فكان سبقة الى بنائه انطيوخوس الاول المعروف بسوتير ملك
 سورية في سنة ٢٥٠ قبل المسيح ثم هُدم وأصلح مراراً (١) . والمعبر الذي يُعرف
 اليوم بالجسر القديم هو الذي اقامه السلطان سليم خان الاول فاتح الشام كما
 يُستدل على ذلك بكتابة عربية رُقمت في عهده ثم جدد بناءه امير لبنان الشهير
 بشير الشهابي الكبير . وقيل ان الجسر الباقي هو جسر ثانٍ نصبه الامير بشير
 بقرب الجسر الاول بعد هبوطه (٢)

ومن الاخرة القديمة ما تراه على الضفة الشمالية من الآثار وهي بقايا قناة عظيمة
 كان الرومان بنوها لنقل المياه الى السهول الواقعة بين نهر الكلب وجونية وقد
 اتخذها اصحاب الارزاق في ايامنا جلب الماء الى طواحينهم
 هذا على ان في جوار نهر الكلب آثاراً غير المذكورة آنفاً لها في تاريخ فينيقية
 اعظم شأن . ومن غريب الامور ان كثيرين من الكتبة الى اواسط هذا العصر
 انكروا وجود هذه العاديات (٣) مع انها مكشوفة للعيان يراها كل ابناء السبيل .
 وانما يعود الشرف لاثبات وجودها وبيان اهميتها للمرسل الشهير الاب مكسيميليان
 ريلو اليسوعي (٤) . فنقل رسوماً بكل دقة وبعثها لعلماء اوربة ليجدوها في شرحها
 وهذه الكتابات او الآثار القديمة عبارة عن خمسة عشر اثرًا اربعة منها خطوط
 اشورية بالقلم المساري وجُدت سنة ١٨٨٢ تحت القناة الرومانية فوق الحضيض باثني
 عشر مترًا على مقربة الجسر الجديد بميلة قليلة الى الشرق . لكن هذه الكتابات
 مطبوسة لم يُستخلص بعد منها فائدة تذكر

(١) ومن جملة من اصلحوا هذا الجسر سيف الدين ابن الحاج ارقطاي المنصوري سنة ١٢٩٢

(٢) راجع اخبار الاعيان ص ١٧

(٣) لو جمعنا كل ما كُتب في هذا الخصوص للمدافعة عن وجود كتابات نهر الكلب
 او انكار ذلك لحصل من هذا المجموع كتاب ضخم الحجم (راجع مجلة العاديات سنة ١٨٦١
 ص ٦٩) وما يزيدنا عجباً ان العلامة دي سوسي الكاتب الشهير لم يقتنع بوجودها مدة سنين
 كثيرة مع انه اجتاز بقرها في غضون سفره الى الشرق

(٤) Ritter, XVII, 534



مدخل مغارة حمينا ومنع قصر الكلب

امّا بقيّة الآثار فوقها على ضفّة النهر الجنوبية وهي احدى عشرة كتابة ما خلا الكتابتين اللاتينيتين المذكورتين سابقاً

١ فاوّل هذه الكتابات وردت على صفيحة قديمة كبيرة بالقلم المصري الهيروغليفي تتضمّن تقدمة للاله « فتاح » المصري . وهي الصفيحة التي نُقش عليها ذكر البعثة الفرنسية التي وردت الشام في سنة ١٨٦٠ وهذا الخطّ الفرنسيّ مع حداثة عهده كاد ان يُطمس رسمه مع بقاء كتابة مرقس اوريليوس بعد ستة عشر قرناً

٢ والكتابة الثانية بالقلم المسماي موقعها بجانب الطريق كالاولى وهي تتّصل صورة ملك اشوري رافعاً يده

٣ وبقرب هذه صورة اخرى اشورية توارى معظم رسمها فلا يُرى منها سوى الرأس

٤ واذا صعدت نحو عشرين متراً فوق الطريق القديمة المشرفة على السكّة الرومانية تجد صورة اخرى اشورية طامسة الاثر

٥ و٦ ثم هناك ايضاً كتابتان يونانيتان ذهب الدهر بحروفهما فلا يُرى منها الا اليسير . وقد زعم دليل بيديكير (١) ان احدهما لاتينية والصواب كما قلنا

٧ وتليها صورة اخرى اشورية

٨ ثم نُصب مصريّ يتّصل احد الفراعنة منتصباً يقرب قربانه لاله الشمس « راع »

٩ وفي تلك الجهات ايضاً كتابة اشورية مع صورة ملك وكلاهما قد صبر على غابر الدهر

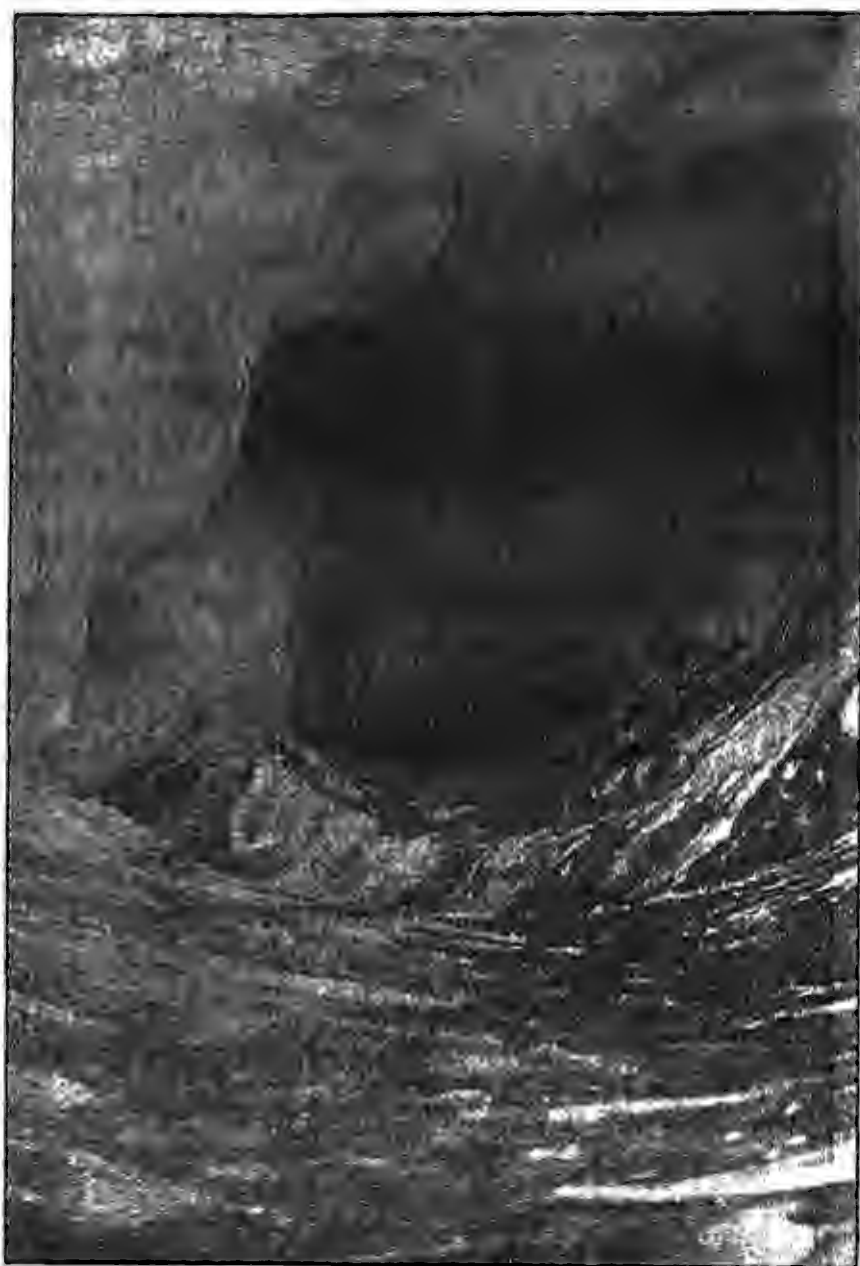
١٠ ثم رقيم مصريّ فيه صورة بعض الفراعنة والاله عمون

١١ واخيراً صفيحة مثقنة الرسم تتّصل ملكاً اشورياً ذا حية طويلة مجمّدة لابساً رداء سابغ الذيل وعلى رأسه تاج ملوك اشور وفي يده اليمنى مقصرة يسندها الى صدره

(١) راجع دليل بيديكير (الطبعة الرابعة الالمانية) (Baedeker, p. 331)

فأقدم هذه الكتابات هي الخطوط المصرية التي امر برقمها رعمسيس الثاني
 فرعون موسى المعروف عند اليونان بسيسوستريس وذلك في آخر القرن الرابع عشر
 قبل المسيح يصف فيها غاراته وفتوحاته العديدة (راجع المشرق ١: ٨٨٨ و ٨٨٩)
 أما الكتابات والصور الآشورية فقد اختلف العلماء في تفسيرها قيل ان احداها
 تمثّل سنجاريب ملك بابل الذي ذكرت التوراة غزوته وسوء منقلبته نحو سنة ٧٠١
 قبل المسيح . والمطلون ان بقية الصفائح تتضمن صور الملوك الآشوريين تغلات
 فلاسر الأول وسلمناصر الثاني واشور بنيبال . وفي كتاباتهم المكتشفة حديثاً في
 بابل قد بالغوا في وصف غزواتهم لاسيا فتوحهم للشام وقهرهم لسواحل فينيقية .
 فتكون اذاً هذه الصفائح دليلاً على مرورهم في هذا المضيق وتذكراً لغلباتهم
 وبقي هذا المضيق في يد ممالك شتى كثيرة الى ان اجتازهُ انطيوخوس الكبير
 والجا جيوش البطالسة ان يفرّوا امامه هاربين . وفي تاريخ الصليبيين تكرر ايضاً
 ذكر مضيق نهر الكلب ولم يكن للفرنجة مناص من عبوره في سيرهم على ساحل
 البحر . ومما يُجَبّر ان بلدين الأول لما سار من انطاكية الى اورشليم ليخلف اخاه
 غدفريد في الملك كاد يذوق في هذا الممر كأس المنيّة لولا حذقه وشجاعة فرسانه
 وجاء في معجم البلدان لياقوت (١٧: ٤) انه كانت قلعة فوق رأس نهر
 الكلب (١) ولا غرو ان ملوك الشام حصّنوا هذا المركز المنيع لدفع هجمات المعتدين
 ومن غريب ما ذكره الجغرافي اسطرابون ان اهل ارواد كانوا يقطعون نهر
 الكلب بسفّتهم فيصعدون الى داخل البلد . ولعلّه سُيِّه الامر على اسطرابون لأن
 هذا الشهر كثير الضخور لا يخلو من العقبات سوى عند مصبه . وليت شعري ما الفائدة
 من الصعود في نهر قصير المسافة لا ترى على جانبيه ضيعة مأهولة (٢) . ومن المحتمل
 ان هذا النهر كان واسع الاطراف عند مصبه فكانت السفن ترسو عنده كما في ميناء

(١) ويقول ياقوت ايضاً ان هذا الحصن يبعد ستة اميال عن المرداسية على مسافة ثمانية
 اميال من بيروت . وكذا ورد في ترجمة المشتاق للدريسي (١ ص ١٧ ed. Gildemeister)
 فيتضح من قولها ان المرداسية بين بيروت ونهر الكلب بيد انا نجل موقع المرداسية هذه .
 ويرى : المزداسية



باطن مغارة جيتا ومنبع نهر الكلب

فتصونها من الرياح الصغور المتصبية في جهتها الجنوبية . ولا يبعد أيضاً القول ان سفن البحارة الاقدمين كانت تنقل من ثمَّ خشب الارز بعد قطعه في قمم الجبال ودفعه على وجه المياه الى هذا المكان (١)

ويشرف على نهر الكلب من جانبيه قرية بلونة ودير طاميش والظاهر ان في مركزيهما كان هيكل للاصنام فتكون بلونة تصحيف اسم الاله ابلون (Ἀπόλλων) وطاميش منقولة عن اسم الالهة ارطاميس (Ἀρτεμις) وهي المعروفة أيضاً باسم ديانة . وقد وجدت أيضاً مدافن قديمة قريباً من عين طورة

٤ دير القلعة

ان آثار الاقدمين في مشارف لبنان ليست باقل شأنًا منها في سيف البحر فهياً بنا ايها القارئ اللبيب قبل تقصي البحث عن عاديّات الساحل نرقي الاعالي لاستقراء بعض هذه الآثار

وليس في جوار بيروت من هذا القبيل مكان اخضر شأنًا واحسن مقاماً من الابنية المعروفة اليوم بدير القلعة . وهذه الرسوم القديمة موقعها بقرب قرية مشهورة اسمها بيت مري تعلو فوق سطح البحر نحو ٧٣٠ متراً في شرقي بيروت على مسافة ١٨ كيلومتراً منها واليهما يتقاطر اهل المدينة في وقت اشتداد القيظ عند الساحل وبيت مري اليوم طريق يوصلها ببيروت تجري عليه العربات غير أن من يركبها يكابد عناء عظيمًا ويلتحف بثوب من الغبرة تثيرها قوائم الخيل ودواليب العربات . وما ذلك الا لقلة الاعتناء بتوثيق الطريق ورصّها بالحجارة . ففراراً من آفتها آثرنا مراراً الصعود الى بيت مري مشياً مع علمنا ان في المشي نفعا للصحة ونزهة للابصار فان العين تقر لهذه المناظر الجميلة والاذن ترتاح لصدح الطيور ويتنسّم المُنشَقُ الريح الطيبة في وسط غابات الصنوبر والشربين

وكان آخر مرة توقّفنا الجبل للبحث عن آثار دير القلعة في ٢٤ تشرين الاول سنة ١٨٩٩ صباح يوم هبّ نسيمٌ وصفا اديمه فما بلغ بنا المسير الى غايتنا حتى اخذنا نسرح الطرف في بقايا هذه العاديّات الخطيرة

والحق يُقال أنَّ من يسير بين تلك الرسوم الدائرة والطول الدارسة لا يلبث ان يدرك ما كانت عليه ابنيته القديمة من العظمة والبهاء قبل خرابها ولكن ترى ماذا كانت هذه العارة القديمة التي تُتني بها هذه الآثار الطامسة المنبثة على مسافة كبيرة . ذلك سوأل لا يُجيره كتب القدماء وتآليف المحدثين وانما تجيبنا عليه الحجارة نفسها فان لها لساناً ناطقاً فصيح المقال . وإن نطقها إلا بالكتابات العديدة التي حُفرت فيها . فاذا أعملنا فيها نظر الفكر وقابلنا بين الافادات المستخلصة من مضمونها وهندسة هذه الآثار القديمة ثم عرضنا ذلك على ما نعرفه من تعبدات الفينيقيين فلا جرم اننا نحصل على معرفة اصل هذه الابنية وغايتها ومجمل احوالها

ليس من اثر يفيدنا اسم دير القلعة القديم ولعلنا لا نتصل الى معرفته في المستقبل امّا اسمه الحالي فقد اطلقه العرب على آثار أخرى في انحاء سورية فانهم يدعون بالقلعة كل بناء متسع الارعاء واثق الاركان محكم البنيان . وقد اخبرنا احد فضلاء الرهبان الذين يسكنون الدير المجاور لهذه الاخربة ان اسم هذا المقام «بيروت العتيقة» وجده في صك لمبيع ملكه كُتب في القرن الثامن عشر . فان ثبت على دير القلعة هذا الاسم صح عن بيروت ما اخبره بطليموس الجغرافي عن جبيل اذ قال انه كان لها مقام يُدعى جبيل العتيقة (Palæbyblos) وإن موقعه بعيد عن الساحل (μεσόγειος) . وهذا قول اوردناه هنا على علّاته ولا نجعل ان آراء العلماء متضاربة في تعيين مكان بيروت العتيقة بل في وجوده لكن تقليد العامة ربما كان دليلاً يهتدي به العلماء لمعرفة الآثار القديمة

وعلى كل حال لا يسوغ ان ننسب هذه الابنية لعهد سبق زمن ظهور النصرانية فان اقدم كتابة وجدت في هذه الاخربة نشرها الرحالة ستزين (١) ذكر فيها الملك «اغريبا» ترتقي الى نحو القرن الاول بعد المسيح وقد وقفنا الله الى اكتشاف كتابة نُقشت في حجارة هذه المباني ورد فيها اسم القيصر اديان في بدء القرن الثاني للمسيح . وليس مرادنا بذلك ان هذا المقام

كان قبل ذلك خالياً من الآثار . كلاً . فأننا على يقين ان الفينيقيين شيّدوا فوق هذه المشارف معبداً كانوا يحجّون اليه او على الاقلّ مذبحاً او نصباً في غابة كانوا يقضرون عنده مناسكهم على مثال المشارف والانصاب التي ذكرها الكتاب الكريم (١) فنّ ثمّ نظنّ ان دير القلعة كان يقوم لبيروت مقام هيكل افقا لجليل ومقام هيكل بيتوكيكي (٢) (Bætocece) (حصن سليمان) لجزيرة ارواد . وكما انّ هذين المعبدين سبقا النصرانية فكذلك تقدّمها معبد دير القلعة . وما يؤيد رأينا اسم الاله الذي عبده الرومان في هذا الهيكل فكانوا يدعونه بعل مرقد (Baal) (Marcod) وهو بلاشكّ اسم فينيقي

اما بقايا الهيكل الماثلة الى يومنا هذا فليس فيها ما يدلّ على مثل هذا القدم كما ان الكتابات لا تنبئ بذلك . واذا قابلنا هيئة هذه البنايات والمواد المتخذة لها وطريقة بنائها وجدنا انها تدخل في حيز الابنية المعروفة بالجباريّة (cyclopéens) لضخمتها وكبرها . ولا يخالف هذا الهيكل من آثار عجيبة كاعمدة وحجارة عظيمة تضاهي بعض حجارة بعلبك وسوايها . لكن اصحاب العاديّات يتفقون اليوم على أنّ قدم الابنية لا يناسب دائماً عظمتها وكبرها بل ربّ بناء قديم صبر على مرّ الزمان بخلاف عمارة اخرى احدث منها ضخمة الحجارة اخنى عليها الدهر فطمس محاسنها

واذا اعتبرت هندسة ابنية دير القلعة لا ترى فيها شيئاً اختصّ به الفينيقيون دون غيرهم . والاخرى نسبتها الى الرومان لان منها تلوح طريقتهم في البناء ويمكن تعدادها بين الآثار الجليلية التي خلّفوها لنا في القرن الثاني والثالث للمسيح ونرجح كونها سبقت عهد هيكل بعلبك الكبير واذا تفقّدنا المباني المشيّدّة في قمّة هذه الربوة وقفنا على غايتها الدينية فانّ

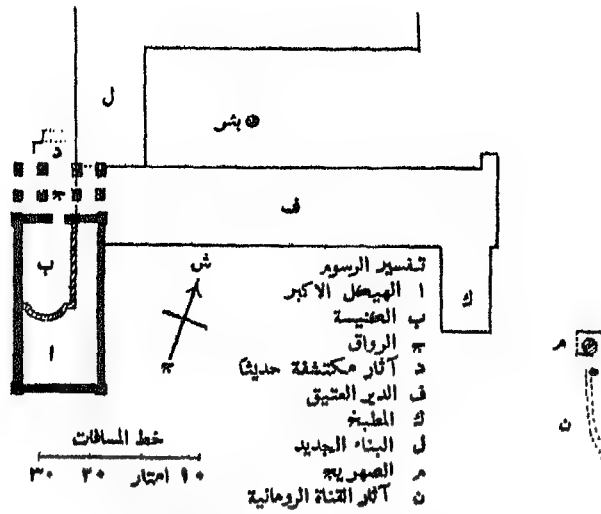
(١) راجع مثلاً سفر الملوك الرابع (١٧ : ١٠) حيث ورد عن بني اسرائيل قوله : « واقاموا لهم انصاباً وغيابات على كل اكمة عالية وثمت كل شجرة خضراء »
(٢) قد تفقّدنا آثار هذا الهيكل الذي وصفه العلامة راي ودوسو :

Rey : *Archives des Miss. scient.* III, 336 ; Dussaud : *Voyage en Syrie*, p. 15, Extrait de la Revue Arch. 1897.

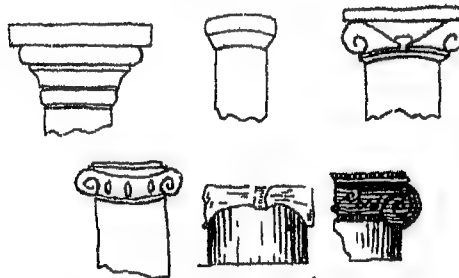
هناك خطأ صريحاً في هذا المعنى يُستفاد منها أنه بُني ثَمَّت هيكل على اسم بعل مرقد (١) اله تلك الناحية . وربما دُعي هذا الاله باسم يوناني (Μηνυρις) لم يستدل احد بعد الى معناه . والعلامة الخطير كرمون غاثو يظن ان هذه الكلمة تدل على اسم الاله الشخصي وان « بعل مرقد » لقبٌ عُرف به في هذا المكان . وألقابه كلها تنبئ بعظم شأنه عند الفينيقيين وسموه بين مصاف الالهة الفينيقيّة . ويؤخذ من احدى الكتابات المكتشفة هناك ان الهاً مجهولاً يدعى أرْمِثِنُوس (Ἀρέμθινος) يبحث المتعمدين له أن ينصبوا المذابح لبعل مرقد

ومعنى اسم هذا الاله وسبب تسميته بمرقد يُستخلص من اصل اسمه باللغة العبرانية وهي فرع من الفينيقيّة فان « مرقد » مصدر يشتق من فعل 776 اي رقص وعليه يكون بعل مرقد اله الرقص والبسط . ولا يبعد ان هذا الاله هو نفس اله الرقص المعروف عند المصريين باسم « بيس » (Bès) وان المصريين اتخذوه من الفينيقيين . ومن القابهِ التي دُعي بها في الكتابات انه ملك المآدب والولائم (٢) (Κοῖραβε Κώμων) ولعل هذا الوصف دليل على ان قدماء الفينيقيين كانوا يجتمعون بقرب هذا الهيكل للقُصْف وتوفير اسباب الهناء كما يصنع اليوم في تلك النواحي بعض اصحاب الملاهي يحذون بذلك دون ان يشعروا حذو اجدادهم بيتاً في ما سبق ان الاله المعبود في دير القلعة كان اسمه بعل مرقد . فلتنا استولى الرومان على الشام أدرجوا هذا الاله الفينيقي في مصف المهتم بل اعتبروه كأنه هو معبودهم الكبير « المشتري » لا يفرقه عنه إلا أسمه فشيّدوا له ذلك الهيكل العظيم الذي حجّه السورّيون والرومان معاً . والكتابات اللاتينيّة التي فيها ذكر « المشتري بعل مرقد » كثيرة . وكان اهل بيروت المدعوة في ذلك العصر

(١) والكتابات منها يونانيّة على صورة تقدمة (Κυρίῳ γενναίῳ Βαλμαρκώδῃ) او (Θεῷ Βαλμαρκώδῃ) ومنها لاتينيّة يدعى فيها هذا الاله « المشتري بعل مرقد » (Jovi Balmarcodi) او بالاختصار (J(ovi) O(ptimo) M(aximo) Balmarcodi) . راجع : Waddington : *Inscrip. gr. et lat. de la Syrie*, nos 1856-1857 و C. I. L., 155 و كتاب كرمون غاثو في العاديات الشرقية الجزء الاول ص ٩٠ (٢) راجع Waddington, n° 1855

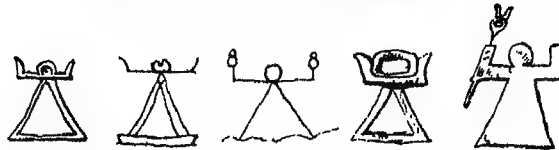
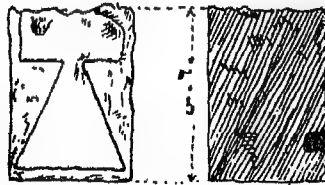


رسم هيكل البعل في دير القلعة



راجع مجلة الماديات سنة ١٨٤٦ (ص ٦٢١ و ٦٢٣)

بقايا اعمدة دير القلعة واشكالها المختلفة



صور المخروطات رمز عشتاروت

« المستعمرة يوليا اوغستا السعيدة » يقيمون فيه انصاباً للوك رومية من جملة ذلك نصب للقيصر ادريناس استُخرج محطماً من تحت الردم سنة ١٨٩٧ اسعدنا الحظ على قراءة مضمونها كما يأتي (١) :

[Imp.] CAESARI DIVI	[للامبراطور] القيصر الالهي
[Tr] AIANI PARTHICI FIL (io)	وابن [طر] ايانس الفرطي الالهي
DIVI NERV (æ nepoti)	وحفيد نرقا الالهي
TRAIANO HADRIANO AV (gusto)	لطر ايانس ادريناس اوغستس
PONTIFI (ci) MAX (imo) TRIB (unitia)	الحبر الاعظم بسلطة ممثلي الشعب
POT (estate) COS III P (atri) P (atriæ)	قنصل للمرة الثالثة اب الوطن
COL (onia) IVL (ia) AVG (usta) FEL (ix)	المستعمرة يوليا اوغستا السعيدة
B (erytus)	بيروت

ولمّا عدنا الى بيروت فرحين لاكتشافنا هذا وجدنا في مجموع كتابات وادرنغتون (عدد ١٨٤١) في جملة آثار بيروت كتابة تشبه كتابتنا المذكورة كل الشبه كأنها هي الا في تسمية الالفاظ المختصرة . فاخذنا من ذلك العجب كيف اتصل وادرنغتون وبعده دوناتي واورلي الى هذه الكتابة مع انها حديثة الاكتشاف كما قلنا . ولعلّ اهل بيروت رسموا منها نسختين في وقت واحد

وكانت المرتبة الاولى في هيكل دير القلعة بعد المشتري بعل مرقد للالهة « جونون الملكة » (٢) وكانت تُعدّ زوجةً للاله وشريكته في جلال عزته . ونرجح كون جونون هذه هي الالهة السامية بعله عشتروت وحدها الرومان بالهتهم جونون . وكان عبدُها يأتون هيكل دير القلعة ليستشفوا بجائيتها ويستقوا كهنتها كما يُستدلّ على ذلك من بعض الكتابات التي نشرها كارمون غانو (في كتابه العاديات الشرقية

(١) وقد وضنا بين مكّفين ما يُقتضى زيادته

(٢) هذه ترجمة اللفظة اللاتينية (regina) ويجوز ترجمتها بالبعلة وقد ورد ذكر هذه الالهة في اسفار الانبياء باسم « ملكة السماء » (ارميا ١٨:٢ الخ) . وكان للرومان في جبل تريبسوس هيكل باسم هذه « إلهة السماء العذراء » شاعت عبادتها بعد حرب رومية مع قرطاجنة وكان اهل قرطاجنة يعتبرونها كإلهتهم العظمى . والرومان جعلوا عشتروت هذه وجونون إلهةً واحدة فعدوا الاولى بصورة الثانية (راجع مجلة Acad. des Inscript., Comptes - rendus, 1898, p. 475)

ص ١٠٧). وفي دير القلعة كتابات عديدة لاتينية تتضمن تقادم ونذوراً من قبل الالهين لهذه الالهة . من ذلك ثلاث كتابات نقشها جندي روماني يُدعى « غايوس يوليوس مكسيموس » نشر منها العلامة كلرمون غانو اثنتين (ص ١٠٧ و ١١٠) ووجدنا الثالثة في جنيئة المرحوم الفنس نقاش في بيت مري . وهي مكتوبة على حجر كُسرت قطعتين فحواها : « ان الجندي المذكور يُبرز كذره للالهة جونون بطيب قلب »

ومن عادة القدماء انهم كانوا يكرمون في الهيكل الواحد عدة آلهة . مثال ذلك ان دير القلعة كان إلهها وسيدها الاعظم (١) بعل مرقد ثم الإلهة جونون كما مر . وترى معها ذكر آلهة آخرين ومما وجدنا في جنيئة المرحوم الفنس نقاش قطعتين من كتابة طبع كلرمون غانو قسمها الاخير (٢) امّا القسم الاول فاستخرج حديثاً من الاطلال لم يُنشر بعد بالطبع وهذه الكتابة عبارة عن تقدمة قدمها شخص

يدعى مرقس سنتيس للمشتري اله بعلبك (I. O. M. Heliopolitanus)

ومما نحب إلقاء النظر اليه ان اخرة دير القلعة كثيرة الكتابات اللاتينية . وهي كما لا يخفى على من له ادنى إلمام بالعنائق نادرة جداً في ما سواها من الامكنة الشامية . والسبب لذلك على ما نظن ان من استعمر بيروت من الجنود الرومانيين (وكان منهم في بيروت فنتان الحامسة والثامنة) اتخذوا هذا المكان كصيف يقضون فيه فصل القيظ كالمثريين من اهل زماننا فتروا ثقت آثاراً جمة تنبئ بسكناهم وتعبدهم لبعل مرقد . ولو حاولنا سرد هذه الآثار لطالت بنا المقالة طولاً مفرطاً واكثرها عبارة عن أعلام ليس في ذكرها كبير امر لقرائنا . وترى بين هذه الاسماء أعلام قوم من اهل الحرف والصناعات فضلاً عن الجند ولا يخلو منها اسماء بعض الاشراف من اعيان الرومان في ذلك العصر

وغاية ما يمكننا قوله انه كان في جوار هيكل البعل عدة منازل لسدنة هذا المعبد وكهنته ثم للجند الرومان واهل الثروة وبعض العملة . ولا نرانا نتجاوز الحقيقة لو

(١) ونظن ان اسم القرية اشتق من عبادة هذا الاله فدُعيت لذلك « بيت مري » من السريانية كنهه من اي بيت السيد (البعل)

(٢) في كتاب عاديّات الشرق (السابق ذكره)

قلنا انه كان حول دير القلعة قرية . يستبدل على ذلك بوجود معاصر قديمة ونواويس ضخمة منحوتة في الصخر . وكل ذلك يشهد بان الناس جعلوا سكناهم في تلك الهضاب . امّا بيت مري فلم نسمع انّ احداً وجد فيها شيئاً من الآثار القديمة مع ان البناء فيها متواصل والحفر في الارض كثير

فمّا تقدّم يسوغ لنا ان نستعيد بالفكر ونخي بنظر الفهم حالة دير القلعة في القرن الثاني والثالث للمسيح فنقول انّ تلك الرّبي كانت تكمل هامها غابات وارفة الظل وكانت على منعطف ذلك الجبل اشجار باسقة الاغصان تحجب اشعة الشمس المتّقدة وترطب بفيئها ذلك المقام الثّزه وكان الصنوبر يغلب عليها وقد بقي منه بعض البقايا

وكان لا بدّ لهذه الغابات مياه غزيرة تروي تربتها وتُغني جذورها كما انّ المياه كانت ضرورة لخدمة الهيكل واهل القرية وللمثين من الحجاج والزوّار ولغسل الذبائح . فسدّاً لهذه الحاجة الماسّة استجلب القدماء المياه من العيون المجاورة لاسيا من عين عرعر وراء بعبدات وكانوا اصطنعوا لذلك قناة محكمة لا تزال بقاياها ظاهرة الى يومنا هذا . وكان في ساحة الهيكل احواض واسعة تجري فيها المياه وتغور الفوّارات على هياث بديدة تروق النظر . ويشهد على ذلك كتابة يونانية ورد فيها وصف انبوب قدّم للهيكل مصطنع في جزيرة رودس ليُجعل فوّارة للماء (١)

ففي وسط هذه البقعة الجميلة المنظر كان هيكلان عظيمان احدهما للبعل والاخر لليونون او عشتروت . وكان للاول رواق رجب الفناء يسنده ثمانية اعمدة ضخمة من الرخام البلدي (٢) وكان يُصعد الى هذا الرواق بدرج يوازيه حسناً وسعة كما اعتاد ذلك الرومان في ابنتهم . امّا هيكل يونون فقد عبثت به يد الحدثان

(١) راجع مجلّة العاديات سنة ١٨٩٦ ص ٨٠ . وكان اهل رودس يرسلون الى بيروت طُرُقاً من صناعتهم لتباع فيها (راجع Comptes - rendus de l'Acad. Inscript, 1898, 522)
(٢) وقد زعم رينان (Mission de Phénicie, p. 353) ان هذا الرخام هو الرخام المصري المحبب والصواب ما قلنا . وللمسيو رينان في وصف دير القلعة اغلاط شق لا يسمنا تفنيدها

حتى يصعب على علماء العاديات بيان رسمه وصورته بل وموقعه أيضاً
وكان هيكل البعل في داخله مزيناً بتمثال الإله نُصب في كوةٍ على جانبيها
العبد من الرُخام تشبه المظلة . وقد ورد في كتابات دير القلعة ذكر تماثيل أخرى
لا نعلم أكانت في داخل البناء او في الرواق ١)

أما طريقة هندسة الهيكل فان بيان صورتها ليس سهلاً فانك ترى بين البقايا
والاخرية ما يُشعر بالهندسة الكورنثية والايونية معاً كما ترى في الاشكال
المختلفة المثلثة لبعض أعمدة قد رسم نقوش اكلتها حضرة الاب رتفال وكان
رافقتي في هذه الرحلة ودقق البحث عن آثار دير القلعة الا انه بقي مرتباً في
بيان صورة هندام الهيكل القديم . ولما قدّر بعد فحص الاخرية الباقية الى يومنا
هذا ان علو البناء كان يبلغ ٢٥ متراً . وذلك بلا مراة دليل على عظم هذا المبد
وجليل قدره

وكانت الاشجار تميز بافنانها حول هذه البنايات بينما كانت الوف من الطيور
تصدح فوق رؤوسها وتغرد طربةً ومن جعلتها الحمام البيض رمز الإلهة عشتاروت
كانت تحلق في الهواء ثم تخط في اوكارها ساجعة . وفي وسط الاشجار كانت
تماثيل عديدة منتصبة على ذلك مرتفعة وهي تتبل اصناماً وأبطالاً وبينها مذابح
للضحايا والمحرقات ثم اهرام صغار ومنها حجارة مخروطة الشكل يعلوها شبه رأس
ويتصل بها شبه ذراعين قد اختلف العلماء في شرح معناها

والمرجح انها صورة « تانيت » معبودة اهل قرطجنة وهي عشتروت نفسها
وقد يراد بها صورة بعل حثون او اله الشمس وكلها من آلهة القرطاجين . وقد
بقي من هذه المخروطات آثار في دير القلعة الى يومنا هذا والواحد منها منصوب
امام كنيسة مار ساسين بين دير القلعة وبيت مري والذي صورناه على وجهيه في
اعلى الشكل السابق

تلك كانت هيئة هذا المقام الخطير في القرن الثاني والثالث بعد المسيح فاذا
زدت على ذلك حركة الزوار المتقاطرين الى هذه المعابد ترى ما كان لدير القلعة من

الخطارة وعظم الشأن

ولا بدّ لنا قبل الختام ان نذكر شيئاً عن المدافن التي كانت بقرب دير النلعة لما وُجد هناك من القبور العديدة ففي شرقيّ الدير الحالي على بعد ٥٠٠ متر منه ترى خمسة نواويس غليظة العمل واذا المحدث قليلاً وجدت عشرين نواويساً بقي منها اغطيها على شكل جَمَلون فوقه قواعد تُدعى (acrotères) . واذا نزلت الى الجهة الجنوبية بيمّة الى الشرق بلغت الى مغارة يدعوها الفلاحون « مغارة الحبس » وهو غور طبيعيّ في الصخر عند حضيضه ليس بمَنسَع الا انه كافٍ لمدفن ثمانية اشخاص

امّا العبادة الجارية في هذا الهيكل فلا نعلم من امرها شيئاً ولا نخالها كانت تختلف عن عبادة الفينيقيين المكروهة يغلب عليها الخلاعة والدعارة . وليس بمستبعد انّه قدّمت هناك الضحايا البشرية من الاطفال للبعل كما جرى ذلك في غيره من المعابد الشرقية وشهدت عن صحّته التواريخ الراهنة . ولعلّ هذه العوائد المنبثّة بسوء دين اهل ذلك العصر هي التي حملت مآلوك الروم المتصرّين على هدم هذا الهيكل كما فعل قسطنطين بهيكل أّققة لما تقرّر عن كهنّته الوثنيين من الاعمال الفاحشة فلم يجد سيلاً الى قطع دابر هذه المنكرات الا بهدم المعبد المذكور

٥ آثار الرومانيين في لبنان

اثنى صاحب سفر المكابيين الاول (٨: ١-١٦) الثناء الحسن على الرومانيين واعمالهم فقال فيهم : « انهم ذوو اقتدار عظيم ويُعزّون كلّ من ضوى اليهم وكلّ من جاءهم آثروه بمودّتهم ولهم شوكة شديدة . . وكلّ من سجع باسمهم خافهم . . ومع ذلك كلّهم لم يلبس احد منهم التاج ولا تودّي الارجوان مباحاةً به . . وهم يفوضون سلطانهم وسياسة ارضهم بجمليتها كل سنة الى رجل واحد وجميعهم يطيعونه وليس فيهم حسد ولا منافسة »

لعبري انّ هذا مديحٌ نَعَمًا فاه به الله على لسان الكاتب الشريف وصدق في وصف امة تنطق آثارها الباقية الى يومنا عن جاهها وعلوّ كعبها . ولم يُحرّم لبنان من شواهد عزّ الرومان وشوكتهم . ولو لم يُخلّفوا لنا سوى آثار دير القلعة

الذي مرَّ وصفه في الفصل السابق لكفى به شاهداً على صدق مقالنا اذ بيّنا انه معبد رومانيّ شيدته مستعمرة بيروت الرومانية . بيد ان للرومان مآثر حجة في جميع انحاء لبنان غير هذا المعبد فرأينا في ذكرها افادةً للجمهور ليطلعوا على اعمال هذا الشعب الذي اضحى اسمه مرادفاً للفخر والعظمة

ولا بدّ هنا من مقدّمة موجزة يقف بها القارئ على احوال سورية في وقت تغلب الرومان عليها في سنة ٦٥ قبل المسيح . لما قُتل انطيوخوس الثاني عشر ملك سورية (سنة ٨٥ ق م) صارت البلاد في حالٍ من الضعف اطمع فيها دغران ملك الارمن فزحف اليها بنجيلة ورجله واستولى عليها غنيمةً باردة لم يقوَ احد على ان يتشلها من محالبه . فبقيت تحت حوزته الى ان دارت عليه الدوائر في سنة ٦٩ لما غلبه القائد الروماني لوكلوس في واقعة دغرانوكرت . فانتهر انطيوخوس الثالث عشر هذه الفرصة ليستوي على عرش آبائه الا ان ملكه لم يدُم سوى اربع سنوات . وكانت سورية في تلك الاثناء قد تضعفت قواها وتقهقرت امورها وانتقض جباؤها . وكان يحدق بها شعوب قاموا لها بالرصاد يتطأئون اليها طامعين في ملكها . تحبها جنوباً مملكة اليهود من بني حششاني وهم لا يزالون في قلق متداوم . وكان النبطيون يملكون على حدودها الشرقية ويحكمون على دمشق وضواحيها وعلى جبل الشيخ . اما قبائل البادية فكانت على ثغورها جمعاء تراحمها واتسن عليها الغارات . واما صار الامر الى دغران صرف همته الى عقد العهد مع زعماء هذه القبائل فجعلهم كرواد تجارته مع البلاد المتاخمة واشترى من جمعة هؤلاء سراة القبائل شيخان ملك احدهما على حصص اسمه سبغرام او سبسيكرامس (١) . اما الثاني فيُدعى عزيزاً وكانت دولته على بادية شمالي سورية

ومن الدول العربية التي اشتهرت في ذلك الوقت دولة الايتوريين ملكت على لبنان وعلى ساحل فينيقية . وكان هذا الشعب محنكاً في آداب الحرب يُحسن الرمي بالنبال . وكان اصله من الجبال الصخرية التي موقعا في شرقي دمشق المعروفة اليوم بجبل حوران او جبل الدروز واللجأ . فلم يزل امره يعلو ويقوى حتى تعدى

حدود وطنه فاستولى على جبل الشيخ وبقاع الغرز ف ضرب ثَمَّت خيامه واقام له دولة صغرى جعل عين جرة (Chalcis) كعاصمتها . وما عثم ان تسور قم لبنان وحصنها بالقلع ثم هبط الى سواحل الشام فاتخذ له دولة ايتورية ثانية اضحت طرابلس مركزها . وكان هولاء الغزاة يهبطون كسيل جحاف من مشارف لبنان فيغزون وينهبون دون ان يقوم في وجههم حاجز . واكثر من كانوا ياذونهم بكمروهم اهل جبيل وبيروت فلا يقوون على الذود عن حمى ديارهم ومزروعاتهم وسفهم . ولا غرو ان الاسماء العربية المحضة الواردة في كتابات يونانية وجدت في نواحي جبيل وبترون ترتقي الى عهد دولة الايتوريين هولاء (١)

فتلك كانت حالة سورية لما ارسل بيمبوس قواده ليحتلها وما لبث ان سار اليها هو بنفسه سنة ٦٤ فنظمها في سلك املاك الدولة الرومانية وجعلها اقليماً قائماً بذاته . ثم قلم اظفار الفتن وفتح معاقل العصاة ورد قبائل البادية الى مساكنها الاولى واعاد السلم والنظام الى مجاريها . ولما سعى اليه اهل طرابلس متظلمين من ملكهم الايتوري ديونيس امر به قتل بعد ان تثبت ظلمه

ثم واصل بيمبوس سيده في سواحل سورية ظافراً وتوغل لبنان واخذ عنوة قلعة جيجرتا (Γίγερτα) الآتي ذكرها فأخرها كما انه هدم قلعة وجه الحجر (Θεοπερόσωπον) وقوض ابنية بترون لخلول اصحاب الجنايات في ضواحيها . ولما قدم جبيل مثل بملكها كينيراس كما فعل بصاحب طرابلس ونفس كربة اهلها وجعل مدينتهم مستقلة تحت حمى الرومان

ثم تخوف بيمبوس وشك الشتاء فيتم سهول البقاع ورياض دمشق ليحل جنده في بساطها الرائعة لينالوا هناك نصيباً من الراحة بعد الاتعاب التي تجسوها . فقطع جبل لبنان (٢) وافتتح في طريقه قلعتي برومة (Borroma) وسنان (Sinnan) الوارد ذكرهما . فما دخلت السنة ٦٣ ق م حتى اتم الرومان فتح البلاد السورية واستقر لهم الامر في انحاء لبنان

(١) راجع 199, 200 Mission de Phénicie

(٢) لعل بيمبوس تسلق بجنوده لبنان من جهة جبيل ماراً بالعاقورة فالبيثونة الى بعلبك

ومن شروط المعاهدة التي عقدها الرومانيون مع اهل الشام ان يلازم سكان البلاد شرائعهم وسننهم ويحجروا على نظامهم القديم ولا يُغصبون في لسانهم ودينهم وعاداتهم . اما المدن الساحلية فجعل الرومان امرها سُورى يدبرشونها نُجبةً من اشرف البلد وابطلوا بذلك ما كان لملوكها من السلطة المطلقة . ثم ضربوا الجزية على الاهلين يؤديها لهم المذكور منذ سنتهم الرابعة عشرة والاناث منذ الثانية عشرة الى السنة ٦٩ من عمرهم جميعاً (١) وفرضوا عليهم خراجاً جبوه من الاملاك يبلغ في المئة واحداً . ورسموا ايضاً ضرائب ومكوساً على الواردات والصادرات من السلع الا ان هذه الرسوم مع ثقلها كانت اخف على عاتق السوريين من المغارم والشحّر التي حملهم اياها ملوكهم سابقاً وكانوا يتقاضونها دون نظام معلوم وفي اي آن شاؤوا

فما مرّ على سورىة الزمن اليسير حتى التأم صدعها وانجبر كسرهما وانتظم شمل السّكن فرتعوا في مجبوحة الأمن . وكان الرومان قد احياو معالم العدل واماتوا سُنن الجور يأخذون للضعيف من المقتدر وينشّطون الجميع على الاعمال الشريفة والشروعات المفيدة التي تعود عليهم بالثنا بالثنا العظيمة لاسيما التجارة والبحارة والصنائع والفنون

امّا لبنان فأصاب من هذه الاصلاحات نصيبه الحسن . وكان هذا الجبل الشهير لما فتحة الرومان قليل السكّان فزاد اهله بعد مدّة وخصبت تربته (٢) وعاش اللبنانيون في الرغد والهناء في حرمة رومة يشكرون لسياسة ولايتهم ويشمون في ظلهم الوارف وهم مع ذلك يحجرون على سُننهم ويتصرّفون في تدبير امورهم كيف شاؤوا

ومذ ذاك الحين اخذت العوائد الرومانية تتغلّب على البلاد الشامية وانتشرت اللغة اليونانية في المراكز الكبرى حتى نسي كثير من اللغة الفينيقية واللغة الآرامية لاسيما بين الاشرف واصحاب الثروة . اما اللغة الآتينية فبقيت محصورة في الدوائر

(١) راجع Ulpiani Digesta, Lib. I, leg. 2, n. 3

(٢) وكذلك جرى في حوران . راجع المجلة الفلسطينية ZDPV, XXI, 21

الحكيميّة لم يشع منها بين الجمهور غير مفردات تتعلّق بالموزونات والمقاييس والنقود والادارات السياسية وامور الحرب كهذه : البريد والسجلّ والرطل والدينار والاقويّة والبرج والاطر يون والبوق والقومس والفسطاط والشّرطي وما شاكلها . ولعلّ كثيراً منها وصل الى العرب مجتازاً على ألسنة المتكلمين باليونانية . وفي بعضها مسحة من اللغة الآرامية (١) . ومما بلغنا من آثار اللغة اللاتينية كتابات قلائل سُطّرت على بعض القبور بيدان المستعمرات الرومانيّة في سورّيّة داومت على التكلّم باللاتينية ومن جملتها مستعمرة بيروت . أمّا العامّة فلم يزلوا محافظين على لغتهم الفينيقية او السريانيّة يؤخذ ذلك من الاسماء الآرامية الواردة في الكتابات القديمة

ولما كانت السنة ٤٧ ق م قدم الشام يوليوس قيصر فنزل في ساحل عكّة مع جنوده ثمّ سار الى فينيقية ولبنان فتقاطر اليه الشعب واستقبله استقبالا شائقا عمل في قلبه وحمله على افاضة نعمه على الاهلين فيخفّف من عبّ الضرائب ومنح المدن التي طاف فيها مواهب وأطافاً عديدة وألّف القلوب النافرة واعطى مدينة بّترون الاستقلال

وسار نسيبهُ وخلفهُ اوغسطس قيصر على منهاجه واختصّ لبنان بنعم سابعة ووهب جُبيل أفضالاً عجيبة . فقام اهل بّترون وجبيل بمفروض الشكر لولي نعمتهما وأرّخوا نقودهما بتاريخ اكسيوم (٢) ذكرًا لانتصار اوغسطس على خصمه انطونيوس (٣١ ق م)

ومن اجل آثار الرومانيين في فينيقية اتخذهم بيروت كستعمرة رومانية . فلما كانت السنة ١٦ ق م قدم الشام اغريبا صهر اوغسطس قيصر وهو متقلّد بالسلطان

(١) راجع ما قلنا عن اصل هذه الالفاظ في كتابنا الفروق . اطلب ايضاً المقالة التي حرّناها في المشرق (١ : ٤٤٠ - ٤٤٨) . ونزيد هنا عن اصل كلمة « الشرطي » اننا وجدناها في كتابة يونانيّة مكتوبة بصورة (Χώρη) منقولة اليها من اللاتينيّة (cohors) . وهي قريبة من لفظة « الشرطي »

(٢) ورد هذا التاريخ في كتابة جُبيليّة تُعرف بكتابة البلاط (Mission de Phénicie, 224) . وقد وجد الدكتور جول روفيه نقوداً أخرى تثبت هذا الامر لجبيل والبّترون ممّا

المطلق على كل انحاء سورّية . فكان أوّل ما صرف اليه نظره ان يقيم مستعمرة يُحلُّ فيها الجنود المتقاعدين ثَمَّ امتازوا في خدمة الوطن . فلم يجد موقعاً اصلح شأنًا وانسب مقاماً من بيروت فجعلها سكنى لفتنين (١) من الجند وهما الخامسة والثامنة المعروفتين بالفئة المقدونية والفئة الاوغسطيّة . وكانت كلتاها أبلت بلاء حسناً في واقعة اكسيوم فأثابها القيصر باقطاعها مدينة بيروت

ولعلّ الكتابة التي وجدها سيتزين (راجع ص ١٤) بين اطلال دير القلعة والوارد فيها اسم اغريبا تُشير الى هذا القائد منثى مستعمرة بيروت . ويُحتمل ايضاً نسبتها الى الملك هيرودس اغريبا الاول الذي زَيّن بيروت بعد ذلك بمدة بالابنية الفاخرة فتكون هذه الكتابة اثرًا يشهد لاهل المدينة بمعرفة الجليل والشكر

وما لا يُتخلف في صحته ان صهر اوغسطس اعاد لبيروت زهاءها القديم بعد ان عبثت بها ايدي الزمان واخرها الطاغية تريفون . فاعوز الى جنده بان يشيدوا فيها المباني الحسنة ويوقروا فيها اسباب الهناء . فباشروا بذلك في السنة ١٥ ق م وواصلوا شغلهم بهمة ألفها الرومانيون في كل اعمالهم . وما عثمت بيروت ان صارت مركزاً خطيراً لادارة شؤون رومة في البحر المتوسط الذي كان غلب عليه سابقاً النفوذ اليوناني واصبحت مرقباً يرصدون منه كل من يعادي فتوحاتهم الجديدة فيقطعون للحال دابر اصحاب الفتن (٢)

وكان الفضل في رفع قدر بيروت لاغريبا المذكور ولعلّه هو الذي تولّى بنفسه هذا العمل الاثير وانجزه بوقت قريب (٣) ودُعيت بيروت منذ ذاك الوقت « المستعمرة يوليا اوغسطا السعيدة » خصّها الملك اوغسطس بهذه الاسماء المشعرة باسم يوليوس قيصر وابنته يولية واسمه الشخصي واطاف الى ذلك لقب « السعيدة » مؤذناً بحسن موقع بيروت وصفاء جوّها وكثرة خيراتها . وضربت في بيروت نقود المستعمرات تتجلى جندياً يفلح الارض

(١) وأرسلت فرقة منها الى بلبك لتستعمرها فاحتلت هذه المدينة الشهيرة

(٢) راجع تاريخ الرومانيين للعلامة مومسن Mommsen : *Röm. Geschichte*, V, 459

(٣) راجع ما كتبه في ولاية اغريبا في الشام المؤرخ جراح H. Gerlach : *Die röm. Statthalter in Syrien u. Judaea* p. 16

فلم يضر على بيروت الا زمن قليل حتى امتزج سكّانها الاقدمون بالمستعمرين الرومان امتزاج الماء بالراح فكان من يحتلّ البلدة يحسبها مدينة رومانية لتغلب عوائد الرومان ولسانهم واسماؤهم عليها . والشاهد على ذلك الكتابات اللاتينية العديدة المكتشفة في بيروت . ولا ترى من المخطوطات اليونانية الا اليسير وهي احدث عهداً من الكتابات اللاتينية (١) . بل ظهر ايضاً في بيروت نفوذ آلهة رومة فاخذ الفينيقيون شيئاً من شعائرهم الدينية كما اثبتنا ذلك في اثناء كلامنا عن دير القلعة

ولم تكن الاقطاعات الموقوفة على المستعمرة البيروتية منحصرة في ضواحي البلدة والبساتط المجاورة بل كانت تشمل الجبال المشرقة على المدينة وتمتد من ثم الى ان تبلغ قسماً من البقاع الى جهات منبع نهر العاصي ونالت بيروت بارتقائها الى رتبة مستعمرة رومانية امتيازات عديدة منها ان اهلها لم يدفعوا الجزية ومنها استقلالها عن حكم والي الولاية . فاضحت كأنها دولة صغيرة في ضمن الاملاك الرومانية في الشرق تتصرف باحكامها كالعاصمة نفسها . وكان لها على مثال رومة حاكمان (duumviri) يرجع اليها في التدبير يحلان ويعقدان ويأمران وينهيان كقناصل رومية السنويين ولها دار ندوة يجلس فيه للبحث عن صوالح المدينة مئة من رؤساء الاعشار (décurions) . ومما ازدانت به المدينة من البنايات على شبه رومية ساحة كبرى (forum) يجتمع فيها الجمهور وملعب للملاهي العمومية ولعلها ايضاً نُحِصَّت بهيكل كهيكل المشتري في رومة (Capitole) . وكان الاهلون يختارون بنفسهم ولاتهم وحكامهم دون ان تتدخل العاصمة في شؤونهم ما لم يضطرها الى ذلك الشغب واقتراق الكلمة بين السكّان

فكل هذه الامتيازات التي ظفرت بها بيروت اثارت في اهل المدن المجاورة لها الرغبة في نوال رتبة الاستعمار

(١) وقد عثرنا بعد ذلك على كتابتين جديدتين على مقربة من البلد نشرناهما بالطبع

وقد زعم بعض الكتبة ان مدرسة الفقه الروماني التي اشتهرت بها بيروت بعدئذ (١) كان انشاؤها في هذا الزمان . الا اننا نرجح قول الذين ذهبوا الى ان هذه المدرسة اقرب عهداً فانشئت في اواسط القرن الثالث للمسيح . وانما كانت بيروت منذ حلول المستعمرين فيها محطاً للطلبة الدارسين وصار منذ ذلك الحين لمدارسها شهرة عظيمة . ومن جملة الفنون التي كان يعكف الاحداث على اتقانها العلوم الادبية بفروعها . وقد اصاب احد اساتذة بيروت اسمه مرقس فاليريوس بروبس قصبة السبق بين علماء زمانه في المعارف وفنون الادب (٢) حتى ان بيروت عُدَّت بسببه كحاضرة العلوم في المشرق (٣)

وكان الرومان يتقاطرون الى بيروت لترويج النفس يوثرونها على ما سواها من المدن الساحلية . وفيها كان ولاية الشام يقيمون الحفلات والمحاكم القضائية كما فعلوا في قضية سيلاي (Scillai) وهيرودس الكبير فقصوا على سيلاي وهو وزير ملك النبط عبوداس ان يدفع لهيرودس خمسين وزنة فضة (٤) وان يكبح جماح قبائل البدو من العرب . وفي بيروت ايضاً قضى هيرودس المذكور ظلماً على اسكندر وارسطابولس ابنيه من مريئة المكابية

ومن المدن التي نالت من سجال فضل الرومانيين مدينة جبيل وان كانت حصتها دون حصّة بيروت بكثير وآثار الرومانيين في المدينة العادية بيّنة من جملتها خطوط لائينية وجدت بين اطلالها الدارسة (٥)

وكذلك ترى في قرية جونيه مع ما يحيط بحدورها من الضياع دلائل تلبي بمرور الرومانيين بها فمن ذلك الانصاب التي كانت تقام في جوانب الطرق للدلالة على المسافات ومنها جسر المعاملتين الذي سيأتي ذكره . وفي اسامي القرى دلائل اخرى على الآثار الرومانية واليونانية في لبنان مثل غسطا (Augusta) ودفنة (Δάφνη)

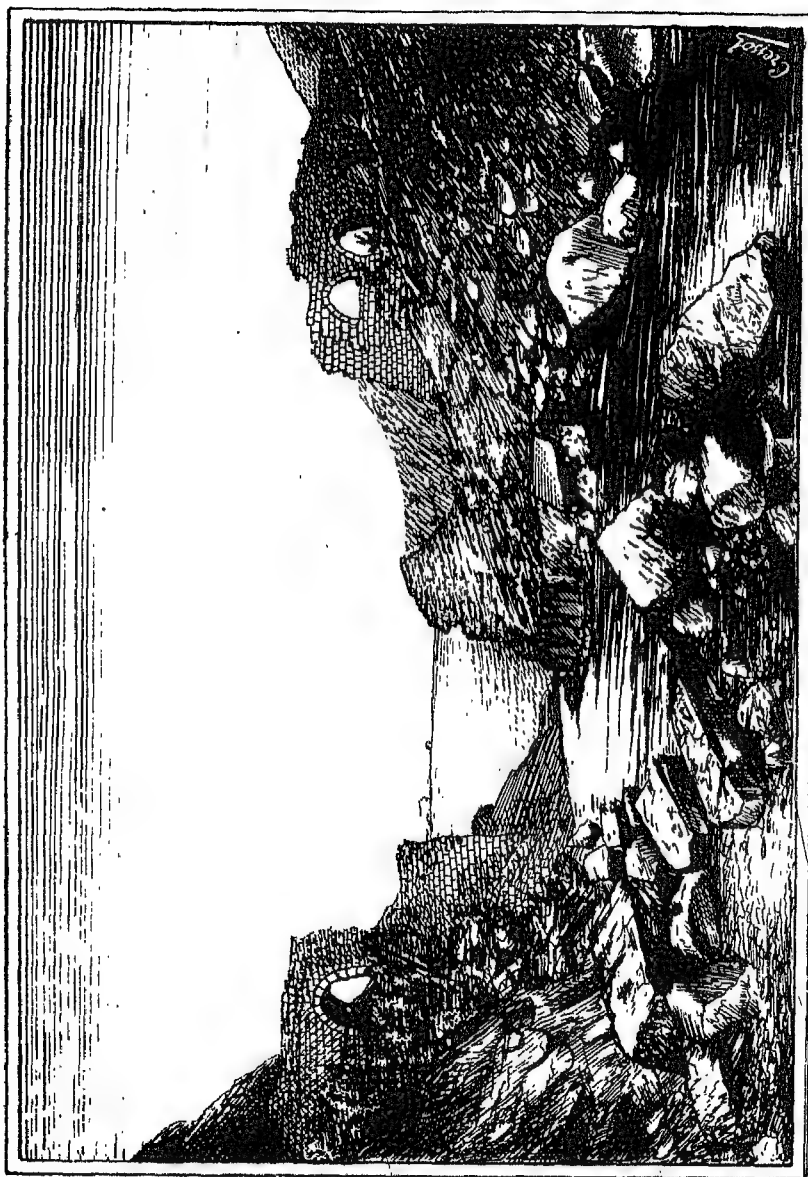
(١) راجع Nonnus : *Dionysiaques*, 391-398

(٢) راجع تاريخ سويتون *Suetonius : De illustr. Grammaticis*, XXIV

(٣) راجع المؤرخ ممسين *Mommsen*, l. c. 459

(٤) كانت وزنة الفضة تساوي في ذلك العهد ٦٧٢٠ فرنكاً

(٥) راجع *Mission de Phénicie*, pp. 164, 192, 280



قناة نهر بيجوت (قناطر زبيدة)

وبلونة . ومن ذلك أيضاً نوايس عليها كتابات لاتينية تُرى في لبنان . وفي دير بيت خشبو واحد منها (١)

الأ أن الرومانيين لم يكتفوا بتدوين الكتابات الدالة على ملكهم . فلما كان الله جبلهم على السياسة والعمل لم يكتفوا بلداً دون ان يباشروا فيه اشغالا خطيرة واعمالاً اثيرة تؤول كلها لمنفعة رعاياهم كالقني تجلب بها المياه الى اهل المدن من منابعها البعيدة . وقد سبق لنا ذكر قناة دير القلعة (ص ١٠)

وفي لبنان قني غير هذه المذكورة بل هي اعظم منها شأنًا وامتن بنياناً . فمن ذلك القناة الضخمة التي كانت تجري بها مياه نهر بيروت وتُعرف اليوم بقناطر زبيدة وهي بلا شك من آثار الرومانيين

وقد بُنيت هذه القناة بنحيت الحجارة الكبرى وكانت تمرّ بوادي الزهر فوق جسر عظيم ذي ثلاثة صفوف قناطر رابكة بعضها فوق بعض لا يزال منه الى يومنا بقايا حسنة تبعد نحو سبعة كيلومترات عن بيروت في شماليها بيد ان الصف الثالث من القناطر قد تهدم وهبط ايضاً وسط الجسر فلا سبيل الى ان تجري فيه المياه . وكان علو هذا الجسر يبلغ عند تمامه خمسين متراً وطوله ٢٤٠

اما زمان بنائه فليس من دليل عليه فانه لم يُكتشف حتى يومنا شيء من الكتابات المترجمة عن احواله . الا ان متانة شغله وهيأة بنائه المحكم تنطق بلسان حالهما عن اصله الروماني ومما يبين ان هذه القناة بقيت قروناً طويلة تجرّ المياه الى بيروت ان في مستودعها وجدرانها الداخلية راسباً سميكاً من المواد الكلسية التي ابقتها المياه في مرّها . ولعلّها خربت في الزلزلة التي حدثت في ايام يستثيان الملك لما صارت بيروت ردماً تنعق عليها العربان

وكانت المياه بعد ان اجتازت الجسر المذكور تلج في نفق (سرب) ينفذ في الجبل مسافة طويلة وينتهي الى السهل حيث صبرت منه بقايا على الزمان وكانت تجري المياه في منعطف الاشرافية فوق مسير السكة الحديدية الحالية . وكانت القناة تقضي

(١) Ibid., p. 328. راجع ايضاً في تاريخ منسبت (ص ٤٤٧) (الفصل الذي يربّط ما كان لاقليم سورية عند الرومانيين من الاعتبار والخطارة

الى المدينة مارةً تحت مدرسة الحكمة للموارنة . وقد حسب حضرة الاب جوليان اليسوعي ان هذه القناة كانت تغني البلدة في كل ثانية بمتر مكعب من الماء اعني خمس عشرة مرةً ازيد من ادوات الشركة الانكليزية حالاً (١)

وكان الرومان قد ابتنوا في سورية قناةً رابعة كانت غايتها اجتلاب المياه من نهر ابراهيم الى جبيل الا ان آثارها ليست كآثار قناة بيروت

وما يحسن بنا قوائمه ان الرومان لم يكونوا ليرضوا بالمياه المجلوبة في قنيتهم الا ان تكون صافيةً نقيّةً من كل الاقذار ولذلك كانوا يباشرون بعملها عند رؤوس الينابيع وينقرونها بالصخر الاصم او يبنونها بحيث لا يدسها شيء من الاوساخ فيغطونها بصفيح الحجارة . وفي عملهم هذا عبرة للشركات الحالية لتصون المدن من جراثيم الامراض التي تسببها الاقذار الداخلة في القناة لاسيما بعد امطار الحريف حين تجرف السيول الى القناة اجساماً غريبة تثبت بالخلالها في المياه كل انواع الجراثيم الفاسدة

فيظهر مما تقدّم ظهور الشمس في رابعة النهار ان الرومان مجلبهم المياه من الينابيع النازحة اخصبوا البلاد التي مدّوا فوق رواقها حمايتهم . ولعلهم لم يكتفوا بذلك بل اقتسموا المياه في المدن فجعلوا لكل دار قسطاً كما تفعل في زماننا شركات المياه . ولنا شاهد على صحّة ذلك بكتابة وجدت في مستعمرة رومانية من اعمال افريقية كانت اصغر شأناً من بيروت وقد ذكر فيها صريحاً هذا تقسيم المياه على بيوت الاهلين (٢) . فلا نظن ان بيروت حوت ما لم تحرمه غيرها من المستعمرات وهي اعظم منهنّ قدراً

ومن افضال الرومانيين التي لا تُنكر السكك والطرق . فانهم ما نشبوا ان احتلّوا ربوع الشام حتى سعوا باصطناع السكك فيها . وكانت غايتهم الاولى ذلك ان يمهّدوا الطرق لجيوشهم ثم ينشطوا بين رعاياهم التجارة والمعاملات . ولم يثّر عزمهم ما لقوه في لبنان من المسالك الوعرة والصخور المرتفعة فان همّتهم

(١) راجع مجلّة الرسالات الكاثوليكية 430-420 p. 1894, Missions Cath. وفيها له مقالة حسنة عن قناة بيروت الرومانية

(٢) راجع مجموع الكتابات اللاتينية (C. I. L., VIII, 51)

لم تعرف الكَلَل فوُتروا الطرق ومهّدوا السُّبُل في جميع انحاء البلاد التي فتحوها . وكانت السكّة المارّة على سواحل فينيقية من عهد قدماء المصريين في القرن الخامس عشر قبل المسيح كما تشهد عليه المكاتبات المكتشفة حديثاً في تلّ العمارنة (١) وقد جاء فيها ذكر العجلات الحربية التي لا يمكن ان تسير دون سكك منظمّة . بيد ان هذه السكة القديمة لم يبقَ لها أثر بخلاف سكّة الرومان فانّ بتاياها لا تزال الى يومنا ظاهرة على الساحل . وكذا قلّ عن جميع السكك التي تولّوا صنعها في لبنان

امّا الذين كانوا يقومون بهذه المشروعات الجليلة فهم جند الرومانيين ، ومصداق ذلك في كتابة لاتينية نُقشت عند معبر نهر الكلب . على ان التاريخ ينبتنا بأن لهؤلاء الجنود في كل البلاد التي فتحتها رومة اعمالاً تُعدّ من اعمال الجباية . فكم من قصور وقلاع شيدوا وجسور عظيمة عبّروا وخنادق حفروها واسوار ضخمة ابنتوها . وكان يسير في عداد الجنود قومٌ من المهندسين والصُّناع يقومون بهذه الاعمال

وما امتازت به السكك الرومانية الوثاقّة والثبات مع توفير اسباب الراحة لبني السابلة . فكانوا يجعلون وسط السكّة مرتفعاً عن الحضيض يفرشونه بصفائح كبرى من الحجارة البركانيّة او ما شاكلها صلابة . ولتألاً تنخسف بها الارض كانوا يضعون لسندها ثلاث طبقات متوالية اسفلها من الحصباء والرمل ووسطها من دقيق الحجارة المعجونة بالكلس . اما الطبقة العليا فكان سبكها ١٥ سنتيمتراً تتركّب من كسرات الخرف والآجر بينها الملاط الشديد . وكان على جانبي الطريق مسلك للسابلة (Trottoirs) برفعة قليلة عنها وعلى طرفيه حجارة ضخمة

وكان الرومان يضمنون الامان لسككهم بان يقيموا من مسافة الى اخرى مراكز لجندهم وخانات للسفر ومرابطات للحيل ومحطّات للبريد

(١) راجع كتاب الاب ديلاتر (Deiattre) اليسوعي المُعنون : Le Pays de Chanaan, province de l'empire égyptien, p. 39.

وكانوا ينصبون من ميل الى آخر انصاباً من الحجارة فيها ارقام تدل على مسافات الطريق وبُعد المكان عن حواضر المدن . وربما كانوا ينقشون في هذه الانصاب اسم القيصر الذي امر بنهج الطريق او اصلاحها . وهذه الانصاب مكنت اهل البحث والتنقيب من تتبع آثار سكك الرومانيين . وتراها ملقاة على ساحل البحر غائصة في الرمل او مطبورة بين الردم وهي تدل على السكة الساحلية التي مرّ ذكرها . والحق يقال ان هذه السكة كانت طرفة من عجائب البنايات وتراها الى اليوم منقورة في الصخر بقرب نهر الكلب وجونية . وعند ممر السيول والانهار ترى آثار الجسور العظمى التي كانوا اصطنعوها . فخص منها بالذكر جسر المعاملتين الذي لم يزل صابراً على آفات الدهر

ومن سككهم الناطقة بفضلهم الطريق التي اصطنعوها من جيل الى بعلبك وهي تمر في اعالي لبنان فوق العاقورة وهناك يشعب بين جبلين تحرقه الطريق فتفضي الى بركة اليثونة ثم تتسع وتمتد فتصبح من احسن السكك الجبلية واتقنها لكن آثارها في منطف لبنان الشرقي دارة . ولعل هذه الطريق سبقت عهد الرومان وما لا مشاحة فيه ان الرومان تولوا اصلاحها وتوسيعها كما يؤخذ ذلك من كتابة لدوميطيانس قيصر في آخر القرن الاول للمسيح وجدت عند المكان المسمى بدرأجة مار سمعان

هذا ومهما توغلنا في لبنان وجدت للرومانيين مآثر وكتابات ونقوشاً . مثال ذلك الكتابات التي تراها في الوهاد الواقعة بين الصتين وغابة الارز لاسياً في مقاطعات العاقورة وتثورين وقرطبة حيث تجد كتابات عديدة خطاً فيها مراراً اسم ادرينس الملك وحروف هذه الكتابات تبلغ نصف ذراع طولاً وقد اعتبرها بعض اهل تلك النواحي كأرصاء تحتها كنوز دفيئة بجثوا عنها بعد نقر الحجارة وتحطيم الكتابات . امّا سبب تكرار اسم هذا القيصر الروماني فلكونه قضى في بلاد الشام سنين طويلة وكان يصحبه في اسفاره عددٌ غفير من النقّاشين وادباب الصناعة والحرف . ومن المرجح انه مرّ بمدينة جيل وزار معابد الزهرة في لبنان .

وما يعود فضله الى الرومان فيستوجبون له الشكر العميم عنايتهم بنصب

الاشجار في لبنان . وقد مرّ لنا في المشرق (١: ٧٢٨) كلام في ذلك وبينّا هناك انّ لبنان كان في القرون الحالية مجتلاً بالغابات تعلو قممهُ ضروبٌ من الاشجار . واثبتنا ايضاً ان الحكومة الرومانية كانت احتكرت لها اربعة اصناف منها وهي العرعر والارز والسرو والصنوبر (١) وكلّها من اشجار الجبال المثينة الخشب الوارفة الظل اختصّها الرومان بانفسهم لئلا يتصرّف بها الاهلون فيقطعوها بلا حكمة . وكان الرومان يتخذون منها الخشب لتجهيز سفنهم وابتداء مساكنهم في سورية . ومما يُخبر عن پمپيوس القائد الروماني فاتح الشام انه اصطنع له اسطولاً من خشب لبنان فقطع دابر القرصان الذين كانوا يتجولون في بحر الروم متلصّصين . ولما انتشبت الحرب بين پمپيوس المذكور ويوليوس قيصر تولى كاسيوس من اصحاب پمپيوس قيادة اسطول الشام وأجبر بها الى صقلية لمحاربة سفن قيصر واحرقها (٢) وكل ذلك دليل على اهتمام الرومانيين بزراعة لبنان وتوفير غاباتها

ومن كل ما سبق يفهم القارئ ما للرومان من المشروعات الطيبة والاعمال الجليلة التي لم نذكر منها سوى برزٍ من عدّة . وفي تسمّة مقالاتنا عن آثار لبنان سيأتي ذكرهم غير مرّة . وفي ما سبق كفاية لتقدير اعمالهم

وخلاصة قولنا عن الرومان انهم في ولايتهم كانوا يهتمون بصوالح رعائهم ويوفرون لهم اسباب الثجاج ويوسعونهم أماناً وراحة ونال اهل سورية بهمتهم

(١) وقد ارتأى العلامة الاب مرتينوس اليسوعي في تاريخ لبنان ان الكتابة التي تدلّ على احتكار الرومان لهذه الاشجار والتي شرحناها في المشرق (١: ٧٢٧) انما كان لها معنى آخر . فظنّ الاب المذكور ان الرومان كانوا خصّصوا هذه الاشجار للالهة عشتروت او الزهرة . قال : « وما يؤيد رأيي ان احتكار هذه الاشجار لم نجد له اثرًا سوى في بلاد جبيل حيث كانت عبادة الزهرة متغلّبة شائعة . ثم كثيراً ما ترى على الحجارة التي وردت فيها الكتابة المذكورة حروفاً ثلاثة غيرها باللاتينية وهي D F S معناها على ظنّ D(eæ) S(acrum) F(ecit) بالالهة » . اي ان اديان الملك خصّص بعبادة الزهرة الاربعة الاصناف من الشجر المذكور . (قلنا) وهذا شرح غير ثابت كما يبيّنه حضرة الاب جلابرت (Mélanges de la Fac. Orientale. IV. 209 seqq) ومعنى هذه الحروف

Definitio sylvarum اي تحديد الغابات (المحتكرة)

(٢) راجع تاريخ يوليوس قيصر (Caesar, Bell. Civil. III)

قسماً وافياً من ذلك السلام الذي نُسب الى رومة (pax romana) متّعنا الله بمثله
في ظلّ دولتنا العليّة آمين

٦ الصّين

قد سبق ان القائد الروماني پمپيوس اخرب في اثناء محاربة لبنان قلعة تُدعى
بورومة . ولكن لم نتعرّض للبحث عن موقع هذا الموضع . فإنّ من اصحاب
العاديّات من ظنّ انها سمار جبيل وقيل قلعة الحصن في نواحي دوما وقيل غير ذلك .
وقد فات هؤلاء الكتبة انّ الجغرافيّ اسطرابون في كلامه عن بورومة جمع بينها
وبين قلعة اخرى دعاها « سنّان » وسنّان على الرأى الارجح قلعة قريبة من جبل
صّين فينتج عن ذلك ان قلعة بورومة ليست بعيدة منه ايضاً . واذا طلبنا في جوار
الصّين موضعاً في اسمه شبه بقلعة بورومة لا نجد غير برمانا . ومن المحتمل ان
الاقدمين لحسن موقع هذا المكان كانوا شيّدوا هناك حصناً حريزاً يشرف على
الوديان المجاورة وعلى سواحل بيروت . على اننا لم نجد في برمانا اثراً لهذه القلعة
ولعلّ پمپيوس قوَّض اساسها او اتت على بقاياها مصائب الدهر فابادتها
امّا قلعة « سنّان » فع كونها على مقربة من جبل صّين لم تكن في مشارف
العليا لانّ البرد هناك قارسٌ والسكنى في الشتاء شاقّة وانما كانت على منعطف
رُباه . والارجح انّ هذه القلعة كانت مبنية فوق احدى السكك في الوديان
الفاصلة الصّين عن جبل الكنيسة او الحاجزة بين جبل الباروك وجبل الكنيسة
اعني بقرب سكّة الشام الحاليّة . وهذه المواقع خطيرة لانّها كمضيّق يُفضي الى بطاح
سوريّة المجوّفة

واما اسم قلعة سنّان (Σιννάν) المذكورة في كتاب اسطرابون فانه اسم الصّين
بعينه لكنّه على صورة لفظه القديمة

وقد ارتأى بعض الكتبة المحدثين نقلًا عن تقليد شائع في لبنان انّ جبل
صّين هو الجبل المدعو « سنير » المذكور في الكتاب الكريم . وقد هموا بمشابهة
الاسماء مع انّ سفر تثنية الاشتراع (١٠: ٣) ينفي صريحاً هذا الرأى ويدعو حرمون
سنير عند قوله : « وحرمون يستيه الصيدونيون سريون والاموريون سنير » .

وانما نُشِبِه الامر على البعض لوجودهم في سفر نشيد الاناشيد اسم سنير مقروناً باسم لبنان حيث يقول العروس لعروسته السريّة (نش ٨:٤) « هَلَيْتِي معي من لبنان من رأس امانة من رأس سنير » (١) . وزعم هؤلاء ان امانة اسم الجبل المشرف على حمّانا . وكلُّ هذه الاقاويل مزاعم لا سند لها وان لم تكن محالاً . واسم لبنان في التوراة لا يُطالَق فقط على الجبل المعروف اليوم بهذا الاسم بل يدلُّ ايضاً على جبل الشيخ الذي بازائه الا اذا زاد الكتاب صفةً ما تبين نية الكاتب الكريم كقولهِ مثلاً (يوشع ١٣: ٥) : « لبنان جهة مشرق الشمس »

وامّا اسم «سنير» فتجدهُ في كثير من كتبة العرب كالسعودي فانه يقول (في كتاب التنبيه ص ١٥٣) في اثناء كلامهِ عن الموارنة : « ان امرهم مشهور بالشام وغيرها اكثرهم في جبل لبنان وسنير وحمص واعمالها » . وفي كتاب المسالك والممالك لابن حوقل (ص ١١٤) مدلول سنير على جبل الشيخ او على الجبال الواقعة في شمالي غربي دمشق . وجاء في الصبح الاعشى للقلة شندي (ص ١١٣١ من نسخة مكتبتنا الشرقية) : ثم يمتدُّ (لبنان) الى الشمال ويجاور دمشق واذا صار في شماليها سمي جبل سنير . وكذا في مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني وغيرهم . لكنّه يؤخذ من قول ياقوت في معجم البلدان (٣ : ١٧٥) ان سنير تدلُّ ايضاً على قسمٍ من لبنان او على الجبال الواقعة « بين حمص وبعبك » . اما لفظة « صتين » فيظهر انها حديثة العهد لم نجد لها ذكراً في تأليف العرب القديمة

ومن يتسلَّق قمم صتين العليا يجد ثَمَّت آثاراً من بناء مربع مشيد بنحيت الحجارة . وعلى مشارف جبل الكنيسة بناء آخر مثله . ولا يمكننا ان نحكم على اصل هذه الابنية حكماً قطعياً ولعلها من مآثر الفينيقيين بنوها لمباشرة مناسكهم الدينية . والله اعلم

٧ ساحل علما

فلنواصل الآن سيرنا الى جهات الشمال بعد ان استوردنا الى ذكر اعالي لبنان واعمال الرومانيين في انحاءهم : وفي كسروان آثار قديمة وصفنا منها قسماً في الفصول السابقة وهالك ما بقي علينا وصفه

ومما يستلفت الانظار في اسفل كسروان متحجرات على شبه السلك تجدد منها شيئاً كثيراً في ساحل علما . وهذه الآثار قد ورد ذكرها في اسفار قدماء الرحّالين وقد ذكرها المسافر الشهير منكونيس (Monconys) في رحلته المكتوبة في القرن السابع عشر (ج ٢ ص ٧١) وكرّر بعده اصحاب الاسفار وصفها . وجاء في ترجمة القديس لويس التاسع ملك فرنسا للسيردي جوائيل عن اسماء متحجرة جمعها قوم من لبنان ما تعريبه (١) : « ولما كان الملك في صيداء اتى اليه قومٌ بحجر غريب ذي قسّر وفلوس . وكان اذا نزع عنها قشرة وجد بين كل حجرين شبه سمكة بجرية متحجرة لا ينقصها شيء من هيئة الاسماك وتركيبها وزعانفها وحسكاتها والوانها كانت اسماء حية . وقد اعطاني الملك منها حجراً فوجدت فيه سمكة من نوع الشبوط تأمة البنية ذات لون اسمر » . وفي متحف عاديّات مدرستنا الكلية عدد كبير من هذه المتحجرات التي يرتقي عهدها الى الازمنة السابقة التاريخ

هذا وفي ما مرّ (راجع الصفحة ٥) قد اتينا بذكر قرى كسروان المجاورة لحوز جونية . فلنذكر الان القرى العليا من هذه المقاطعة . واوّلها غزير يوجد في اسفلها مدافن ومعاصر قديمة . اما قصبة كسروان فلم نزلها اثرّاً ينبي بوجودها قبل القرون المتوسطة . الا ان اسمها سرياني (ܟܣܪܘܐ) كاسماء اغلب قرى لبنان ومعناه « القطيع » او « المقطوع » (٢)

وقد وجد بعض الرحّالة في « فتقا » على بعد ساعة من غزير شمالا كتابات عديدة

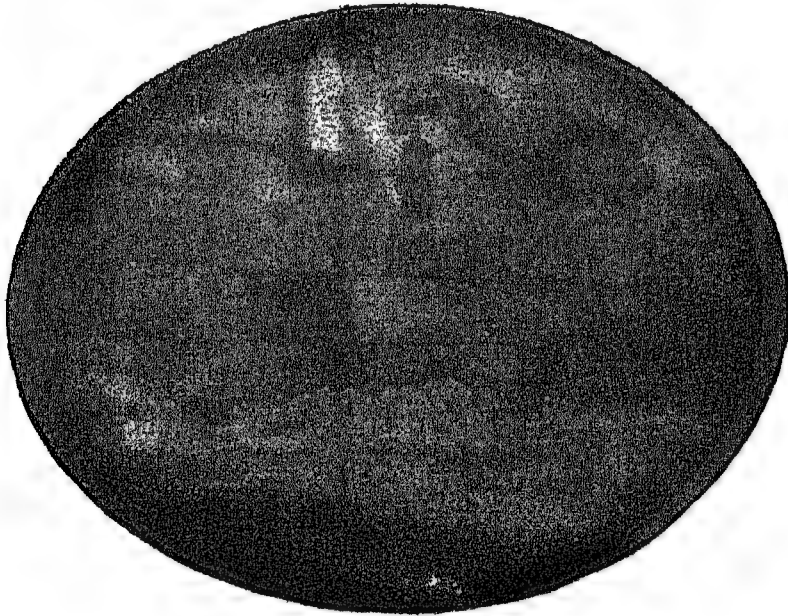
(١) Joinville, ch. 118, ed. Wailly, p. 330 راجع

(٢) « لا قطيع النعم » كما زعم ف. ابي حلقة في جغرافيته (راجع المشرق ٤٧٥ : ٢)

يونانية احداها من سنة ١١١ للمسيح يُستفاد منها انه كان هناك هيكل . وهذا دليل على ان فتقا كانت موضعاً معتبراً

٨ معرب

معرب مزرعة على عطف الجبل بين دلبتا وعين ورقة تبعد نحو كيلومتر ونصف من عين ورقة في شرقها بجهة ريفون . فيها آثار ماثلة يعرفها اهل تلك الضواحي بقلعة معرب او يدعونها بطلق اسم القلعة . والارجح ان هذه الاخوية احد المعابد العديدة التي اقامها ارباب الدين القديم على مشارف لبنان تعزيزاً لديانتهم . وهو نعم الموقع يتد منه البصر جنوباً الى بيروت وبحرها الللازوردي وشمالاً الى جبيل وبطائحها الخضراء . والآثار الباقية عبارة عن جدران ضخمة الحجارة طولها ٢٥ متراً في ١٠ امتار عرضاً و ٦ امتار علواً . وقد قيست بعض الحجارة فاذا طولها



آثار قلعة معرب

يبلغ خمسة امتار بنيت في عرض مترين . وفي البناية حجارة مُسَّعة محفورة في الصخر ذات حافة ينفذ فيها سقايةٌ لعلها جعلت قديماً لتجري فيها دماء الذبائح وأسكاب التقاديم . وهذه غاية ما نعلمه عن هذه البناية التي أعلن أولاً امرها اليسوعيون في غزير فأرشدوا اليها رينان ايام سياحته في لبنان فذكرها في كتابه «بعثة فينيقية» (١) ولم يصفها (راجع تاريخ الموارد للديويهي ١٦ و ١٢٦)

٩ غينة

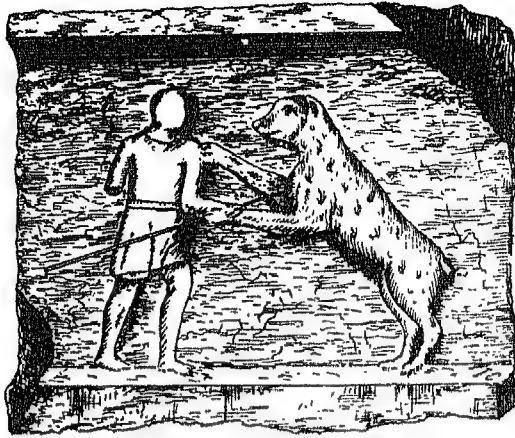
فاذا انحدرا الآن من مزرعة معراب وعبرنا وادي غزير ثم اتجهنا الى ناحية كفور (٢) حيث تنتصب قمةٌ مستديرة الشكل تُعرف برأس الكنيسة وجدنا على مسافة نحو كياومتين منها بجوار قرية غينة صخرة منفردة يبلغ علوها بضعة امتار وللصخرة المذكورة وجهان الشمالي والشرقي قد نحتها القدماء فنقشوا في كل منهما ثلاث تصاوير نائثة طمس الدهر قسماً منها وحطيم منها قسمٌ عمداً . واول من وقف من العلماء على هذه النقوش الغريبة الابوان اليسوعيان بوركنو (Bourquenoud) وروز (Roze) في سنة ١٨٥٧ ورسم صورها في مجلة الانبحاث (٣)

فالجهة الشرقية وهي الكبرى تتبل بطلاً عبل الذراعين شديد الجسم في يده رمحٌ مُشرع كأنه متحفز للقتال وقد صوب بسنانه الى صدر حيوان ضارٍ هجم عليه وسند احدى قوائمه الى كتفه كأنه يحاول اقتراسه . والشخص النوة به لابس ثوباً خفيفاً وهو شعار يكاد يبلغ ركبته تضئُهُ حُبكة عند وسطه . اما هيئة الحيوان فهي اقرب الى الدب منها الى الاسد . وقياس القسم المنحوت من الصخر يبلغ متراً و ٩٦ سنتيمتراً علواً ومترين و ٨٨ س . عرضاً . وبقرب الصورة الموصوفة آنفاً نقشٌ آخر اصغر منه يمثل امرأةً رشيقة القد جالسة

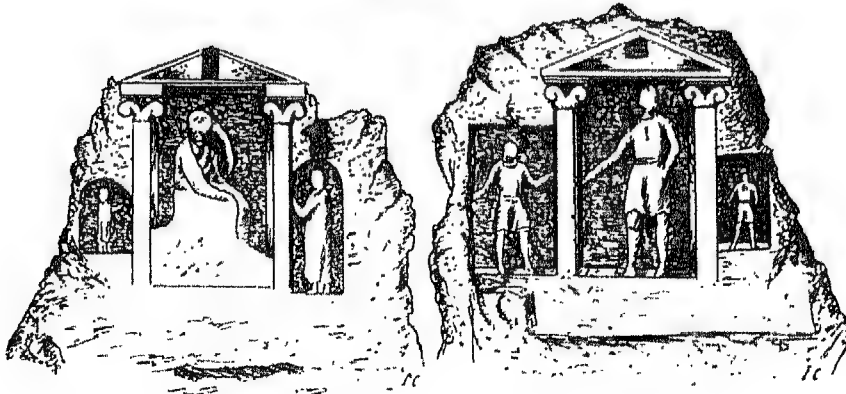
(١) راجع Mission de Phénicie, p. 328

(٢) راجع ما ورد عن كفور في الكتاب السابق ذكره (ص ٣٢٧)

(٣) راجع Etudes Religieuses, 1861



آثار غينة



آثار المشقة

على مقعد تراها كسيفة البال كثيبة رافعة يمينها الى وجهها وبصرها مائل الى صورة
البطل المقاتل . وعلى رأسها منديل يبلغ طرفاه الى وسطها . اما رجلاها فتسندهما
الى مسند نقوشه على مثال المقعد التي هي جالسة عليه

وفي الجهة الثانية من الصخر على شمال هذه التصوير رسوم اخرى بيد أنها
دائرة مطبوسة . ومما يظهر منها جلياً صورة شخص منتصب يتكى الى شبه سهم
او صولجان تلوح على وجه امارات السكينة والوقار . امّا بقية التصوير فلا سبيل
الى وصفها او اثبات رسومها لاندثارها وما لا شك فيه ان ثم صورة حيوان ولعلها
وحشان . وللاب العلامة بوركو (١) مزاعم في شرح تصاوير هذا النصب الثاني
لا يوافقه عليها العلماء

وما من شأنه ان يكشف عن سر معنى هذه النقوش ان تحت رسوم الجهة
الشرقية مغارة نُحِتَتْ في الصخر

ولا ريب ان هذه البقايا تنبئ بآثار تعبد اهل فينيقية لادونيس او تموز (٢) .
ولعل الاحاديث الشائعة بين القوم كانت تشير الى قرية غينة وتروي عن موت هذا
الاله انه قُتِلَ في هذا المكان فباحث عليه امه الزهرة او عشتاروت . اما المدفن
فالمرجح انه نُحِتَ تمليداً لهذه القصة لا لتمثيل قبر حقيقي

وما يحسن ذكره هنا ما ورد عن ماتم تموز في سفر حزقيال اذ رأى هذا النبي
رجساً في الهيكل فوصفه بقوله (حز ٨ : ١٤) : « واتى بي الى مدخل بيت الرب . . .
فاذا هناك نساء جالسات يبكين على تموز »

على ان هذه الرسوم الدينية لا يتضح معناها تماماً الا بمقابلتها بآثار اخرى صبت
على الايام عند قرية المشنقة

١٠ المشنقة

موقع مآثرها الجليلية في وادي نهر ابراهيم على ربوة ذات قطع عمودي مشرفة

(١) راجع مجلة الابحاث ١٨٦١، p. ٩٤٥ Etudes,

(٢) ومندلول كلا الاسمين واحد

على النهر وتلك الضواحي منظر يجمع بين الحسن والغرابة . اما الآثار التي تستلفت الحاطر في المشقة فاربعة :

(الاولى) عبارة عن سور او حىّ مربع مستطيل تكسیره ١٥ متراً طولاً في ٥٠ عرضاً . وباب البناء من جهة الشرق . والظاهر ان هذا التربع كان يحدّ سابقاً المعبد والابنية اللاحقة به كما ترى في قلعة فقرا وفي حصن سليمان في بلاد النصيرية وغيرهما . وحائط السور قليل السمك بسيط البناء يستند في جهته الشماليّة الى صخر . وفي داخل السور في الجهة المقابلة للباب بقايا اساس مربع بُنيت فوقه عواميد لم يبقَ منها غير حجارتها السفليّة . وقد اتُخذ جانب من أخرة هذا البناء لهارة حديثة

واذا احفينا في البحث عن اصل هذه الاطلال وجدنا انها كانت هيكلًا يتوسّط السور الذي ذكرناه . وكان لهذا الهيكل اعمدة من الطراز الهندسي القورنثي يعاوه شبه هرم مخروط الشكل بقي منه حجران منقوشان نقشاً بديعاً

والآثار (الثانية) على شمال السور الموصوف تبعد عنه ١٢٠ متراً . فهناك مجاز قد نُحت في الصخر ونُقش على جانبيه رسوم قديمة . وفوق هذا الصخر نواويس ضخمة منقورة في الحجر على شكل أجران مستطيلة لها اغطية مخروطة الجوانب . اما النقوش فهي باثرة وهي سبعة عدداً ففي مدخل المجاز المذكور صورتان عظيمتان متقابلتان من كل جانب وهما منقوشتان في ضمن إطار او كوى من صنف الهندسة الايونية ويلاصق هاتين الصورتين من جانبيهما صورتان اُخريان اصغر منهما ولكل منها إطار متقوس كما ترى في الصور التي رسمناها . والصورة السابعة وهي متوسطة في الكبر نُقشت في الصخر منفردة عن بقية التصاوير من جهة الشرق

واحدى الصورتين الكبيرتين التي عن يمين العابر في الصخر تمثّل بطلاً لبسه كالشخص الذي وصفناه في نصب غينة . ولعلّ الصورة الموازية والدارسة لقدمها تمثّل امرأة تنوح . واما اشخاص الصور الصغرى التي على طرفي الصورتين الكبيرتين فن تبعه الشخصين المتوسطين تراهم يحدجونها بالنظر ويتأثرون بحركاتهما ومعنى هذه التصاوير اذا قوبلت بتصاوير غينة يتضح جلياً وانما تمثّل نبذة



تمثال الزهرة المعبودة في لبنان

من ترجمة قُمُوز أعني موته ومناحة الزهرة عليه . قال مَكروب المورخ اللاتيني (١) :
« الزهرة مصوّرة في لبنان مقنّعة الرأس كثيبة الوجه تسند رأسها الى شملها المحتجة
بردائها » (٢)

والاثر (الثالث) من آثار المشنقة على مسافة عشر دقائق شرقاً من باب السور
فهناك ساحة بُني فيها في القرون العاربة معبد صغير آخره بعض طلاب الكنوز منذ
سنين قليلة . وبين الرّدم نُصب أُقيم ذكرًا للبلع وفي رأس النصب الكليل وعلى
طرفيه نقوش تتخل الصاعدة (٣)

امّا الاثر (الرابع) فهو في شمالي غربي السور الاعظم فهناك ابنية من ضيعة
سكنها قديماً النصارى والدليل على ذلك انّ من جملة الاخربة كنيسة على هيئة
الكنائس البوزنطية . ولعلّ النصارى احتلّوها الى ايام الفتح الاسلامي

هذا وقد بحثنا عن اسم المشنقة القديم فلم نجده وكذا قلّ عن اسمي غينة
ودير القلعة فان التواريخ القديمة لم تُفدنا من امرها شيئاً . وما لا شبهة فيه انّ هذه
المعابد التي وصفناها اُقيمت لآكرام قُمُوز إله الجليليين وكان ذكره شائعاً في تلك
الانحاء وكثرت الهياكل على اسمه . يُستدلّ على ذلك من اسم نهر ابراهيم عند القدماء
وكانوا يدعونه ادونيس (Adonis) وهو قُمُوز . امّا عهد هذه الابنية فمجهول
ايضاً لكنّه على الاصح لا يسبق زمن تملك الرومان على سورية ولبنان

١١ الديانة الفينيقية في لبنان

قد اشرنا في الفصول السابقة الى دين اهل لبنان ومناسكهم وهياكل آلهتهم
المشيّدة في مشارف الجبل كدير القلعة وغينة والمشنقة . وعدّدنا اسماء آلهتهم كالبلع
وعشتاروت وقُمُوز . الآننا احببنا ان نفرّد هنا فصلاً خصوصياً لهذا البحث الهام
ونلخص كل ما ثبت لدى العلماء من هذا القبيل فان هذا النظر العام من شأنه ان

(١) راجع كتابه Saturnales I, 21

(٢) وقد رسمنا صورهما الموصوفة هنا

(٣) راجع بيثة فينيقية Mission de Phénicie, Pl. XXXII

يوضح كثيراً من احوال لبنان ويكشف ما استغلق فهمه من امور اهل الاقدمين وقد شاء الله ان يكون الفينيقيون قوماً وسطاً بين الشعوب الشرقية القديمة والامم الغربية التي خلفتها . ولا تخرج ديانتهم عن هذا الحكم بل تراها بعد الفحص المدقق أنها تشبه في كثير من امورها ديانة مصر وآشور وان آلهة الفينيقيين هي الهة ممالك النيل والفرات استعارها منهم بعدئذ اليونان فكساها شعراؤهم بضروب من المحسنات الخيالية وزوقوها بمسحة من الرنق والجلال

ومن خواص ديانة الفينيقيين أنهم كانوا يتعبدون لآوثانهم دون ان يجهدوا فكرهم في تنظيم آلهتهم وبيان العلاقات التي تربط الهأ بأخر كما ترى في ديانة الاشوريين واصنام اليونان فان بين الهة هؤلاء الشعوب بعض النظام بحيث يتسلسل صغيرهم من كبيرهم ويلتصق بعضهم الى بعض بخلاف آلهة الفينيقيين فان في معبوداتهم تشويشاً ما ولعل هذا الاختلاط ينجم عن حالة اهل فينيقية السياسية واستقلال مدنهم . وربما وجدت المعبود الواحد متصفاً في مدينة بصفات لم يعرف بها في مدينة اخرى قريبة منها

وما لا مشاحة فيه ان عبادة البعل كانت تعم كل انحاء فينيقية . ومعنى اسمه في اللغات السامية الرب والسيد وإن ذلك الأصفة عامة لجميع آلهة فينيقية كانوا ينعتون بها معبوداتهم الخاصة في كل مدينة فيقولون « بعل صيدون وبعل بريث وبعل طرسوس وبعل لبنان وبعل حرمون » وهلم جراً . واسم الجمع بعليم وردت غير مرة في اسفار العهد القديم . غير ان مدلول هذه المستيات في الغالب اله واحد كانوا يختصونه في كل مدينة بعبادة محلية تبين بعض صفاته . ثم خدع القوم بهذه الصفات الخاصة فجعلوها آلهة ثانوية قائمة بذاتها دعواها البعليم وكلها منبتق من الاله الاعظم الاصلي تشترك بقسم من كمالاته وقواه . وامسى الاله الواحد منقسماً الى آلهة متعددة

الآن تقسيم الذات الالهية كثيراً ما كان يتبع تخطيط البلدان فيبني مثلاً اهل مدينة هيكلاً للاله العظيم فلا يلبثون ان يعتبروا ذلك المقام كسكن لبعض قوى الاله ثم يتخذونه كمبود مستقل . وعلى هذه الصورة تعددت البعليم في صور وصيدا ولبنان وحرمون وصارت لاحقة بالمبدل الاول والبعل الاعظم

أما إذا استقصينا البحث عن هذا البعل الأول المذكور فيظهر جلياً أن المعنى به أنما هي الطبيعة الهيوالية بكل قواها تُبدع وتُفني . وتُخلق وتلاشي . وتُحيي وتميت . وكانوا يعرفون هذا الاله باسماء مخصوصة في كل حالة من حالاته فأدّت بهم اسماءه الى ان اعتبروه كآلهة شتى

وكانوا اذا حسبه كعلة الموجودات ومولد الكائنات يدعونه بعل تموز او أدون ومنه اشتق اليونان اسم ادونيس (١) Adonis . ومن المحتمل ان يكون ادون هذا هو المعروف ايضاً باسم بعل لبنان . اما تكتيته ببعل سمائم او بعل السماوات فكان يراد به اله النور وجرم الشمس . وكان لكل البعل علاقة مع بعض النجوم السيارة الا ان الاله « تموز ادونيس » معبود مدينة جبيل كانت علاقته مع الاجرام الفلكية اعظم من غيره . وكان الفينيقيون في زمن الدولة اليونانية يزعمون ان ادونيس المشار اليه انما كان شاباً يتصيد في الشام وانه كان ابناً لعشורת ففي بعض الايام خرج سائحاً الى جبال لبنان ليتصيد في غاباتها المشرفة على جبيل اذ وثب عليه خنزير بري فقتله

الا ان هذه الخرافة على زعمهم كانت رمزاً عن الشمس وتقلباتها من حالة النور الى الظلام في بعض فصول السنة . فكانوا اذا قدم الحريف يحتفلون باعياد يدعونها جنازة ادونيس (Adonies) ففي تلك الايام كنت ترى نساءهم يلبسن الحداد ويذهبن الى نهر ابراهيم المخصص لذكر ادونيس فيجلسن على ضفتيه باكيات معولات يرثن موت الاله ومحاسن الطبيعة التي يعتر عنها (٢) . وكان البعض منهن يُسغن ذيوهن ويسدن شعورهن ويسرن في شوارع جبيل مغبرات شعناً يلطن وجوهن ويولولن على تموز ويغنين الاغاني الشجية المبكية

اما اذا انتهى فصل الشتاء وزهت الدنيا بقدم الربيع وانقشاع الغيوم عن الشمس فكانوا يقيمون لذلك مواسم تنبي بفرط سرورهم وعظم افراحهم

(١) ولعل هذه الصيغة هي صيغة المنادى بدلاً من « ادوني » اي سيدي . وكانوا اذا ابتلوا شفاعته البعل يدعونه بهذا الاسم

(٢) راجع آية حزقيال النبي وما ذكرناه في الفصلين السابقين عن نقوش غينة والمنشقة (ص ٣٨ - ٤١)

ومن تعبدتهم للأجرام الفلكية المنيرة نتجت عبادتهم للنار وكان الفينيقيون يعظمونها كاحدى اركان الطبيعة ويقدمون لها الذبائح فيحرقونها وربما اتخذوا لمحرقاتهم اطفالاً صغاراً لا يرثون لحاهم
ومما يشعر بتعبدتهم للأفلاك عبادتهم للبعل حامون اى المحرق وكان اسمه شائعاً عند القرطبيين وللبعل رصف (Reseph) وهو اله الصاعقة ونار السماء .
وكذا كان اهل صور يعبدون بعل ملكرت الههم الاعظم على صورة حجر منيرة .
ومن ذلك أيضاً تعبدتهم للرجوم او الحجارة الواقعة من السماء .

وزد على ما سبق ان عبادة الحجارة كانت من خواص دين الفينيقيين فكانوا يقيمون انصافاً ينحتونها ويدعونها بيت ايل (١) اى بيت الله يزعمون ان الذات الالهية تمل فيها وتسكنها . واكثر ما كانوا يختارون لعبادتهم حجارة الرجوم لاسيما تلك التي رأوها ساقطة من الهواء على شكل شهب نارية فيعدونها لذلك هبة سماوية . واذ كانت هذه الرجوم مركبة من مواد بركانية ذات لون اسود وتوفر عددها في لبنان فلذلك شاعت عبادتها في النجاة . ومما كان يزيد في اعتبارها عند القوم ان يروها على شكل مخروط لا يجدون في هذا الشكل من الرموز الدينية كما اثبتنا ذلك في بعض فصولنا السابقة (٢)

وكان البعل او الطبيعة الاله معتبرا عند الفينيقيين كذي مبدئين متمايزين احدهما مبدأ الخليفة الفاعل والآخر مبدأها المفعول . ومن المبدأ المفعول نتجت الالهات الإناث وليست الأنثى عندهم سوى إعلان لقوة الاله الذكر. تظهر خواصه وتقابله . وكما ان البعل كان الاله العظيم كذلك كانت عشتاروت الالهة الكبرى وهي تنقسم اقساماً عديدة على مثال البغل فترى لكل بعل خاص يعبد في بعض المدن بعل من جنسه . وحيثما كان البعل ممثلاً الشمس كانت البعلة تمثل القمر . ولبعل السمائم الهة توازيه يدعونها ملكة هالسمائم . ومن الأزواج المذكورة في الكتابات الفينيقية بعل

(١) ومنها اشتق اليونان لفظهم Βαυύλιον . راجع قاموس التوراة لفيغورو

(٢) راجع المشرق (١٣٧ : ٢) ومقالتنا السابقة في دير القلعة

صيدون وعشتاروت في صيداء وتوَّز وبَعلة جَبَل (١) في جُبَيْل . وكثيراً ما يُطلق على بَعلة جبل اسم البَعلة بلا اضافة وكان هيكليها من اشهر الهياكل تحج إليه الزوّار من كل صوب

وكانت عشتاروت والبلع وملكرت كصنف من التثليث الالهي في صور . وكان لهذا الثلاث مرتبة عليا بين الالهة يدعن له بقيّة المعبودات الثانوية . واتخذت صيدون لها ثلاثاً آخر يتركب من عشتاروت والبلع واشمون . امّا الجبيليّون فكان ثلوثهم إيل وتوَّز وبَعلة . وبَعلة هذه هي التي يدعوها المؤرخون في زمن الدولتين اليونانية والرومانية زهرة لبنان اشتهرت عبادتها في أفقة كما سيأتي

وكان للفينيقيين ما خلا هذه الاصنام آلهة أخرى من الطبقة الثانية وردت اسمائهم في الخطوط القديمة

وخلاصة الكلام ان دين الفينيقيين كان مرجعه الى تأليه قوى الطبيعة وتعزيزها . امّا مناسكهم الدينية الظاهرة فتعلّبت عليها الفطائع والارجاس حتى انهم كانوا يعمدون اعمال العهارة والفجور كفعال تقوية يتقربون بها الى آلهتهم النجسة ولم يأنف كهنتهم من المجاهرة بالفضح فانهم كانوا يتخذون لكل هيكل نساء من المومسات يدعونهنّ عالمات (عوامل) او قدسات يعرضون بهنّ لكل ضروب الفحشاء

ومن قبائحهم ان كهنة البلع وعشتاروت في بعض المواقع كانوا يتخشّون فيلبسون لباس النساء ويطاون وجوههم بالعمرة ويعرّون اعضادهم ويسرون في المدينة جموعاً فمنهم من يشهر السيف والفاأس ومنهم من يضرب الصنوج والطبول ويؤمر بالامارة وكلهم يولولون ويرقصون كرقص الدراويش في ايامنا فتارةً يخلفون بين ارجلهم وتارةً يجنون صدورهم وحيناً يقفزون قفزاً وطوراً يزحفون على الحضيض وهم يسحبون على الارض شعورهم المتشعّنة . ثم كانوا يعمدون الى المدي والسكاكين والحرايب والسيوف فيخدشون وجوههم ويشترحون ابدانهم ويقطعون

(١) ولبعلة جبل هذه ذكر في مراسلات تلّ العمارنة المكتشفة حديثاً التي يرتقي عهدها

الى القرن الخامس عشر قبل المسيح

قطعا من لحومهم ويطعنون بطونهم فاذا سالت دماؤهم واصطبغت اجسامهم قدّموا ذلك ضحية لطواغيتهم . وقد ورد في سفر الملوك الثالث (الفصل ١٨ الآيات ١٦ - ٣٠) ذكر كثير من هذه الامور وفيه وصف ضحية كهنة البس على جبل الكرمل في عهد الياس النبي الحيّ

ومن فظائعهم التي ألمنا الى ذكرها في معرض كلامنا عن دير القلعة التقادم البشرية التي كانوا يضخونها لاصنامهم وكانت هذه الضحايا احسن موقعا عند المهتمهم يأنسون اليها ويتنسبون منها رائحة الرضى . وكانوا يوثرون لهذه المذابح الفظيعة الاولاد الابكار لاسيا الاطفال الصغار بعد ولادتهم يزعمون انّ هذه البواكير تستجلب بركات الآلهة على اصحابها

تلك كانت اعمال الدين الباطل التي لم تزل سائدة معززة رغما عن اقوال الانبياء . وغيره اولياء الله في العهد القديم حتى ظهر ابن الله وضاعت انوار النصرانية في العالم فاقشعت هذه الظلمات المدهمة وخذلت عبادة الاصنام واخرت هياكل الشرك على يد ملوكها المعظمين قسطنطين وثاودوسيوس

١٢ اليمونة

اليمونة قرية على عطف جبل منيطرة من جهته المشرقة على سهل البقاع بينها وبين افقة بعض الشبه . واسم اليمونة مشتق من السريانية (مَقْعَة) معناها البحيرة دُعيت بذلك لانّ بقربها حوضا تجتمع فيه مياه تلك النواحي يدعوها الاهلون بركة اليمونة . اما قول المسيرين في كتاب بعثة فينيقية (ص ٣٠٧) انّ البحيرة استقمت اسمها من اسم القرية فهو خلاف الواقع كما ترى

والبحيرة المذكورة في غور عميق تكتنفه الجبال العالية من كل صوب ما خلا الجهة الشماليّة الشرقيّة . فانّ في هذه الجهة ربوة صغيرة تقوم في وجه المياه وتصدّها عن السيلان . اما وطأ الارض الذي تمتد فيه البحيرة فتربته مرصوبة من الحواريّ الشديدة البياض فاذا دخل فصل الصيف نضبت مياه البركة ويبس غورها البالغ طوله نيفا وكيلومتريّن في عرض نحو الف متر . فيسير السائر في تلك البطحاء على

هونه لا تزلُّ به الرجل ولا تغوص في وحل وكل ذلك دليل على أنَّ المياه وقت اجتماعها لا تتصقَّى في ذلك الوطأ وإنما تغور في الأرض كما سنذكر
وفي شمال البحيرة عند سفح الجبل المنتصب عليها ترى نبوعاً عديدة تتفجَّر في الأرض ماؤها زلال عذب اصفى من الدمة • يتجمَّع في مسيل عرضه بين مائتين وثلاثة امتار فيجري عند طرف البركة الشرقي ثم يبتاز البحيرة في عرضها الى ان يبلغ حوضاً قليل السعة كانه بركة في بركة كبرى • وهذا الحوض الصغير غير منتظم الجوانب لا يتجاوز ٤٠ متراً في اوسع امكنته • اما عمقه فيبلغ في شهر ايلول خمسة امتار ثم يأخذ بالنقصان الا ان هبوطه لا تكاد العين تلاحظه لكثرة ما يجري اليه من المياه

وما لا ريب فيه أنَّ المياه المتجمعة في الحوض الصغير تسيل من منفذ خفي يدعوه الاهلون بالوعاء وهو محبوب عن العيان تخفيه الحجارة وركام من الحصى والرمل • فتسيل المياه من هذه الشقوق الى سرب تحت الأرض
واوَّل من عرف الاوربيين بهذه البحيرة السائح الفرنسي بولس لوقاس (Paul Lucas) زارها في اثناء القرن السابع عشر وهو يزعم في رحلته ان هذه البحيرة حديثة العهد • وهو زعم مردود يشهد على بطلانه اسم اليثونة السرياني وهو اقدم من ذلك العصر بكثير

ثم تردَّد كثيرون من السياح الى لبنان وزاروا البحيرة المذكورة وبعضهم صَفَّحوا اسمها ببحيرة ليمون (Laimoun) (١)

ومما يجدر بالذكر ان سطح مياه بركة اليثونة مع صعوده وهبوطه سنوياً لم يبلغ الى نضوب البحيرة تماماً حتى سنة ١٨٧٠ • فلما دخلت السنة المذكورة ساخت الأرض بطبقة الوحل والرمل التي كانت في قعر البالوع فالتسعت فوهة المنفذ الداخلي وانحطَّت مياه البحيرة على حين غفلة وبرت من هذه النافذة • وكانت سابقاً تنض في الأرض نضيباً

هذا ثم تعود مياه البحيرة عند الاعتدال الربيعي فيرتفع سطحها وتتدفَّق جوانبها

الى ان تبلغ معظم ارتفاعها بعد شهر من الزمن وذلك ان المياه تتبجس من مغارة قريبة في منعطف الجبل فتسيل الى البحيرة وتغمرها . وهي لا تزال تجري من تلك المغارة بقوة شديدة الى انقلاب الشمس الصيفي وهو منتهى ذوبان الثلوج على رؤوس الجبال فتقطع المياه اذ ذاك بغتة وتأخذ البحيرة بالنضوب شيئاً فشيئاً للسبب السابق ذكره حتى لا يظهر من البحيرة الا قعرها . على ان هذه اليوسنة الناجمة اليوم عن نفوذ المياه في قعر البالوع كانت سنة ١٨٧٠ جزئية لان الارض المنخفضة في ذلك العام مع كونها نخرة كانت من ذي قبل تمسك قسماً من المياه حتى في اوان حمارة القيظ

واهل القارى يسأل وماذا يحدث بالمياه المتوارية من بحيرة اليثونة والى اين مجراها ؟ اجبنا ان هذه المياه تنفذ في قلب الجبل فتجري الى جهة الغرب وتخرج من مغارة أفقة وعند قرية العاقورة منحدره نحو ١٥٠ متراً عن سطح بحيرة اليثونة ومن هذه المياه يتكوّن نهر ادونيس المعروف اليوم بنهر ابراهيم . وهذا الامر قد ثبت الآن عند العلماء لا يرتابون في صحته لان مياه اليثونة لا اثر لها في منعطف الجبل الشرقي من جهة البقاع وزد على ذلك ان الجبل الفاصل بين وادي نهر ابراهيم وبطحاء اليثونة قليل الاتساع في باطنه مغاور عديدة يسهل نفوذ المياه اليها وان سرت بضعة اميال الى جنوبي بحيرة اليمونة على منعطف الجبل الشرقي وجدت وادياً كثيراً الاشجار في وسطه بحيرة صغرى جميلة المنظر تدعى بركة الزينية طولها نحو كيلومتر في عرض ٥٠٠ متر مياهها صافية كالزلال وليس في هذه البركة من السمك شيء وانما تسبح في مياهها الضفادع والحيات المائية بخلاف بركة اليثونة التي يتوفر فيها السمك

وبحيرة الزينية تحف بها التلال المرتفعة وتسيل اليها المياه المتجمعة من الثلوج الذائبة وتصب فيها جداول عديدة تجري في تلك الاصقاع . وقعر المياه من المواد الكلسية النخرة الكثيرة التفقت الشائعة في اعالي لبنان فتنفذ منه المياه وتغور كما تنضب مياه بركة اليثونة فتجعل الارض وتيسر بالتمام وعلو هذه البحيرة الصغيرة عن سطح البحر نحو ١٨٠٠ متر كأنها في حُسْنِها احدى مجيرات جبل الالب (راجع المشرق ١ : ٤٢٦)

ومن الآثار القديمة التي تُرى في اليُثونة دكةٌ مربعةٌ من الحجارة المنحوتة بُنيت على طرف البحيرة في وسط النبع المتفجرة التي تُحرق بها . وهناك بقايا من أسوار وأعمدة وأفاريز وصفائح ضخمة من الحجارة تدلُّ على أنَّ ثمَّ كان هيكل رومانيّ أبادهُ الدهر . ولا اثر هناك لكتابات قديمة

وقد حاول بعض المحدثين ان يثبتوا أنَّ هيكل أفقا الذي ذكرهُ القدماء كان في جوار بحيرة اليُثونة . إلّا أنَّ هذا الزعم لا سند له كما بيَّن الامر رينان في بعشة فينيقية (١) والصواب ان القدماء اتَّخذوا لهم هيكلين احدهما على مقربة من بحيرة اليُثونة والآخر عند منبع مغارة افقة وكان بين الهيكلين تناسب يعدهما القوم كعبدَي إله واحد لما بينهما من الشبه في خروجهما من حوض واحد . ولعلَّ هذا الوفاق بين الهيكلين حمل المؤرخ اليوناني زوزيمس (٢) على ذكر بحيرة بقرب هيكل الزهرة عند افقة . وأنما قال ذلك توسعاً لا يريد بلفظة « *πλησόν* » اليونانية « المجاور القريب » بل مطلق الاقتراب فقط . ومن الممكن ايضاً أنَّ هذا المؤرخ لم يثبت الامر بنفسه بل اوردهُ عن سمع (٣)

هذا ثمَّ ان الطريق المؤدية الى بركة اليُثونة الى بعلبك كثيرة الآثار فيها كتابات عديدة إلّا ان اكثر هذه الخطوط دارة مطموسة لا حاجة الى ذكرها في هذه الخلاصة

١٣ أفقا

كُدرنا مراراً اسم افقة (ويقال افقا) في فصولنا السابقة على اننا لم نخصّها بعد بالذكر . فرأينا ان نفرد لها باباً خاصاً لتفيد قراءنا ما بلغنا من امرها قلنا ان وادي نهر ابراهيم كان يُعدّ في القرون الخالية كارض مقدّسة تعبد فيها الفينيقيّون لشموز (ادونيس) فاقاموا له المزارات والابنية الدينية يججئون اليها ويتبركون بها . وقد امتاز بين هذه المعابد هيكل افقا الشهيد جعلوه عند رأس نهر ابراهيم في موقع يفوق مجسته جميع مناظر لبنان ويأخذ بالابصار لحسنه الفتان هكذا

Renan : *Mission de Phénicie*, 308 (١)

Zozime : *Hist.* 309 *seqq.* (٢)

(٣) راجع في هذا الصدد مقالة حسنة نشرها مسيو شرل غليردو بك في مجلّة مصر ومولفها العلامة المسيو بلنّش هذا عنوانها (Les eaux d'Adonis au mont Liban, p. 12, *seqq.*)

وصفه رينان في كتابه الموسوم ببعثة فينيقية وبيّناه في مقالتنا عن جبال الالب ولبنان (المشرق ١ : ٧٢٢)

يشتق العلماء اسم أفقا من السريانية **أفقا** اصلها **آيها** أو **أفها** معناها « المخرج » يريدون بذلك « مخرج المياه » أو الينبوع . فنه دُعي المعبد الذي نحن في صده وكان مبنياً لأكرام « زهرة أفقا » يتقاطر اليه الحجاج من كل نواحي الشام . وكان اهل تدمر يقصدونه في كل سنة لمناسكهم . لكنه لم يبق من هذا الهيكل القديم غير بقايا ضخمة تنبئ بعظم شأنه . وهذه الاخرية منتشرة فوق سطح بُني على ركانز متدرجة بازاء العين بميلة الى الجنوب ومن يتأمل هذا البناء يجد بينه وبين هيكل فقرا تشابهاً في بعض اقسامه . ومن جملة الآثار الباقية الى يومنا هذا من الصوان وكثير من الحجارة الكبرى المنجوتة

وقد خرب هذا الهيكل مرتين . هُدم مرةً اولى بايعاز قسطنطين الكبير بعد تنصره لاسباب ذكرها اوسابيوس القيصري في تاريخ هذا الملك حيث قال (١) : « لما استولى قسطنطين على منصّة الملك رقب من سموّ عرشه ما نصبه ابليس من الاشراك في فينيقية لصيد النفوس . فوجد من ذلك على هضاب لبنان في موضع قفر لا تطرقه السابلة معبداً تحديق به غيضة . وكان المعبد المذكور أُقيم لبعض الاصنام الدنسة يدعى الزهرة . يتوارد اليه البغايا واهل الفجور فاضحى بذلك اشبه بماخور منه بمعبد ديني . ومع ما كان يجري في ذلك المكان من الآثام الفظيعة والارجاس الشنيعة كان الامر باقياً محجوباً عن عيان ارباب السلطة لانه لم يتجاسر احد من اهل الفضل ان يدخل المعبد ليتحقّق صحّة ما تناقلته الالسن . بيد ان قسطنطين وقف على حقيقة الامر فرأى من أخص واجباته ان يقوّض اركان ذلك الزون النجس . فتقدّم الى عمّاله بان يهدموا ذلك المقام ويكسروا اصنامهم ويتلفوا ما حمل اليه من الهدايا النفيسة . فأرسلت الى أفقا فئة من الجند وتتمّوا اوامر الملك فلم يُبقوا ولم يذروا » . وكان ذلك سنة ٣٢٥ للمسيح امّا سكان افقا فأمرؤا بان يبارحوا سكتانهم فتوتّونوا بعلبك

(١) راجع الجزء الثالث من ترجمة قسطنطين لاوسابيوس الفصل ٥٥ وتاريخ سوزومان في مجموع الابهاء اليونان (مين ٦٧ ص ٩٤٨)

ولكن بعد وفاة قسطنطين عاد سدنة هيكل الزهرة وحاولوا بناء الهيكل ثانية . ولعلهم حققوا امانهم على عهد يليانوس المعروف بالجاحد فبقيت عبادة الزهرة مدّة من الزمان الى عهد ثاودوسيوس الكبير . ونظنّ أنّ هذا الملك شدّد الاوامر فردّ الفينيقيين عن هذه العبادة النجسة كما أبطل عبادة الاوثان في انحاء كثيرة من مملكته . والارجح ان الاخربة الباقية الى يومنا هي بقايا الهيكل الثاني المنوّه بذكره وخرابه بسبب احدى الزلازل التي دهمت سواحل الشام كما وصفنا ذلك في المشرق (١: ٣٠٣، ٣٠٤ و ٢: ٩٧٠) . وما يؤيد ظنّنا ان بعض الجدران سقطت دفعة واحدة مع بقائها على نظامها الاول . وقد وجدت الزلازل مساعداً لفعل الخراب بما كان يجري من المياه تحت الهيكل . فأفسار البناء لذلك عند حدوث الزلزال والله اعلم

١٤. مجاري المياه في لبنان

لا يتمّ وصفنا السابق لينابيع أفقة وبحيرة اليثونة إلّا لم يُحطْ قِراءتنا علماً بحالة لبنان من حيث مسایل المياه في جهاته المختلفة وذلك فنّ يلحق بفنّ الجغرافية يدعوه الفرنج الهيدروغرافية اي رسم المياه وفي تعريف مجاري المياه في لبنان فوائد مرتبطة بتاريخه ارتباطاً لا تنفصم اواريه . وقد ادرك الاقدمون ما في هذا الامر من الشأن الخطير حتى انهم اعتبروا بعض عيون لبنان ومياهه المتفجرة كآلهة حيّة اكرموها اكرامهم لعبوداتهم المختلفة . وقد أثبتنا بشواهد على ذلك في ذكر عين أفقة ونهر ابراهيم المخصّصين لآكرام الزهرة وتتموّز

ومن المعلوم ان لا خصب للتربة في الشرق اذا ما انقطعت عنها المياه او قلّت كتيّتها بحيث لا تقني بحاجة الزراعة . وما بلغ لبنان من العمران ما بلغ الا لغزاة مياهه وكثرة مسائله

ومن لطف الخالق ان طبقات لبنان العليا تتركّب من عناصر كلسيّة كثيرة التفتّت نخرة ينساب الماء فيها دون عائق ويتسلسل في منافذ ضيقة ثمّ يتجمّع في مغاور تحت الجبال كأنها خزانات للماء يفيض منها الى اسفل البلاد . ومن السواعد التي تمّد الى تلك الاحواض الطبيعيّة المياه المتكوّنة من الثلوج الذائبة في قم

لبنان ومادتها لا تكاد تنقطع عنها ابداً فانَّ جبل صَيِّين مثلاً ووادي الارز والنُّقْر المحيطة بهما عبارة عن احواض من الثلوج يبلغ عمقها من ٣٠ الى ٧٠ متراً وطولها من ٧٠ الى ٣٠٠ متر عرضاً فلا يزال مددها متواصلاً يجري الى المغاور والاوशल التي منها تحصل الجداول والانهار والبحيرات الموجودة في باطن الجبل وقد اخبر المهندسون الانكليزيون الذين عُهد اليهم سنة ١٨٧٣ فحص مياه نهر الكلب انهم ركبوا قارباً وتتبَّعوا مجاري هذا النهر في اعماق الارض . فلما قطعوا ١٢٠٠ متر وصلوا الى بحيرة واسعة غزيرة المياه يبلغ عمقها بضعة مئات من الامتار وكان ماؤها زلالاً شديد الصفاء والبرودة . وكان يتدلى من سقف المغارة عُمد لطيفة من الماء المتحجّر (stalactites) وكانت عُمد أخرى (stalagmites) تعلو عن حضيض الارض وجوانب البحيرة فتتصب مرتفعة كشمع . فحاولوا ان يقطعوا تلك البحيرة ويتقدّموا في اسراب الجبل فلم يقووا على ذلك فانفتلوا راجعين

واجتهد غير هؤلاء الانكليز من ارباب الهندسة ان يزوروا مغاور أفقة فتقدّموا في منافذها المتعددة ووجدوا جداول واحواضاً من الماء لكنهم لم يبلغوا الى نهايتها وهذا بما يؤيد رأي من قال ان بين افقة وبركة اليمونة وصلة تجمع بينهما وهذه المياه الوافرة المخزونة في اعالي الجبال واوشالها الباطنة تنصب شيئاً فشيئاً الى الأهوية والبطاح على حسب اعطاف الجبل واسرابه المختلفة . وربما وصلت المياه الى سفح الجبال بشدة غريبة فتنفجر وتنفور صاعدة في الجو ثم تجري من نبعها كأنها النهر في كثرة مياهه . ترى ذلك في نبع نهر بيروت وانطلياس وجعيتا وخصوصاً في نبع نهر العاصي عند خروجه من مغارة مار سادون بقرب الهرمل . وليس في الشام كهذا النبع يتفجر بقوة عجيبة من بين الصخور كأنه مدفوع بضخّة (طلبها) قوية ثم يمتد في مسيل عرضه ١٥ متراً الى ١٧ م ومن خواص عيون لبنان انقطاعها في بعض فصول السنة . وقد ذكرنا هذا في غرضون كلامنا عن بحيرة اليمونة . وقد لحظ الاهلون مثل ذلك في نبع نهر بيروت المعروف بالديشونية كما ورد في المشرق (١: ٢٣٧) حيث علل اسباب هذا الانقطاع حضرة الاب صالحاني . واعلمه يوجد سبب آخر لوقوف مياه هذا النهر وذلك اذا

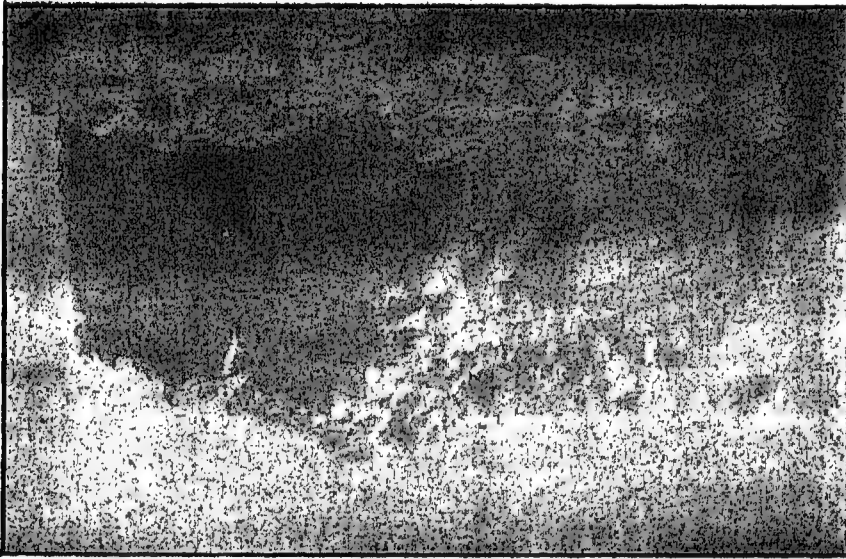
انهار شي . من الردم والصخور فحال مدّة دون مجرى المياه . ففي غرة سنة ١٨٣٧ لمّا اصاب مدينة صفد زلزالٌ هائلٌ نقضَ ابنتها وهدم بيوتها انقطعت بغتة مياه نهر بيروت ولم تعد الى مسيرها الا بعد مدّة وكان لونها ضارباً الى الحمرة ففهم الناس ان قسماً من الجبل تهوّر في المياه الداخلية وحجز دونها . وقد ذكرنا في البشير (في تاريخ ٢٣ ت ١ سنة ١٨٩٩) ان بعض التراب والصخور انهارت من سقف المغارة التي يخرج منها نهر الكلب فتناقصت المياه من جراء ذلك مدة ساعتين الى ان دفعت المياه الحاجز من طريقها وعادت كما لو ف عادت . هذا وفي تقسّم المياه على جوانب لبنان فائدة كبرى تجدي نفعاً كل بلاد الشام فضلاً عن الجبل وحده . فكما انّ النيل يحيي البلاد المصريّة كلها كذلك لولا لبنان لأصبحت بلاد الشام كصحراء غامرة لا خير فيها كصحارى جزيرة العرب . فانّ لبنان يمتصّ فوق رباه نداوة البحر ويجذب الانجرة المتصاعدة الى الجوّ فتتكاثف وتنزل على قمم امطاراً وثلوجاً تتوزّع من ثمّ على جميع انحاء الشام على هيئة ينابيع وجداول ومجيرات . فلو توارى لبنان من اكون لنضب نهر العاصي والليطاني بل ليست كلّ مساليل سواحل فينيقية . وما كنت لتجد شيئاً من حدائق طرابلس ورياض بيروت وبساتين صيداء وبطاح البقاع المعصبة بل كنت ترى مغازات مقفرة تمتدّ مدى البصر وهي جرداء صلعاء ليس في أرمالها ديار ولا نافخ نار . خيّا الله لبنان وبيّاه ونفعنا بفضله وجدواه

١٥ قلعة فقرا

ان سرت صاعداً من مزرعة كفرديان مُيسماً شمالها الشرقي على مسافة ساعة ونصف منها وجدت في منتصف الطريق المؤدية الى ميروبا على جنوبها ربوة قريية من جسر الحجر ورأس نبع اللبن يبلغ علوّها فوق سطح البحر ١٦٠٠ متر . وعلى هذه الربوة اخربة تفوق بسعتها كل آثار لبنان لا يماثلها بامتدادها الا اخربة عين عقرم المعروفة بالناوس في مقاطعة الكورة على انّ عين عقرم مع سعتها دون قلعة فقرا . هذا وانّا لا نرى حاجة الى تعداد ردوم هذه القلعة كلها وانما نكتفي بأهّتها وهي اربعة :

١ المبكل . هو من المآثر الجليلية . ومن خواصّه انّ بُنائته نحتوا بادىً بدء

في نفس الصخر مساحةً كبرى جعلوها كاساس الهيكل واتخذوا الحجارة المنحوتة في الصخر كمواد لبنائهم فاقصدوا بذلك في نفقة نقل الحجارة ولعلهم قصدوا غير ذلك . وما لا ريب فيه ان الفينيقيين اتخذوا هذه الطريقة ديدناً وجروا عليها في ابنتهم المختلفة . وقد بلغ الفينيقيون في نحت الحجارة مبلغاً بعيد الشأو حتى يحال للمعتبر ان صلاب الصخور صارت طوع ايديهم يقطعونها كما ارادوا



قلعة فقرا

هذا ولم يتخذوا كجدار الهيكل ما مثله من الصخور لان الجدران لا تلاصق الصخر لأن بينها وبينه دهليزاً يفصلهما . والهيكل طوله ٣٤ متراً في عرض ١٤ متراً . وحجارة البناء متوسطة الكبر غير ان افريز الهيكل والمراقي التي بها كان يصعد الزوار والسواري الماثلة في مدخل المبد كانت فاحمة عظيمة الشأن يعمل منظرها في عين الجمهور . وبقايا هذه الاخوة تنبئ بضمائمها فان هناك اركاناً وقطعاً من العمدة المنحوتة في قلب الصخر لكنها متراكمة فوق بعضها بغير نظام وعلى اسوار حال

وأمام الهيكل ساحة رجة الجوانب طولها ٣٨ متراً في عرض ٣٠ يُحدد بقسم منها الصخر المنتصب فوقها عمودياً . وكان سابقاً في مقدّمة هذه الساحة رواق يستند الى عمد والشاهد على ذلك ما ترى هناك من الاعمدة المحطّمة . وكانت عادة الفينيقيين ان يبنوا هياكلهم في وسط باحة رجة كما يظهر الامر في هيكل بعلبك وهيكل حصن سليمان في بلاد النصيرية . غير ان موقع فقرا لم يسمح بذلك لما يحيط بالمكان من الصخور العالية فجعلوا باحثهم بازاء الهيكل

وما يقضي بالعجب عند مرأى هذا الهيكل العظيم انه بُني على قمة الجبال حيث لا ترى أثراً للقرى فان اقرب الضياع المسكونة اليوم هي اسفل من هذا المكان بنيف وثلثمائة متر

٢ البرج . وفي شمالي الهيكل برج عظيم مربع الشكل والمرجح انه كان ينتهي سابقاً ببناء مخروط على هيئة الاهرام . ومن جال في داخله وجد عدّة دهاليز واسراب ودرجاً يصعد منه الى اعلى البرج المذكور (١) . وعلى جوانبه كتابتان يونانيّتان يأتي ذكرهما . امّا الغاية من تشييد هذا البناء فبهمة ولا نعلم أهو مرقب لرصد الاعداء في وقت الحرب وبمجرد خض البناء لا يُستدلّ على شيء من ذلك . ولعلّه قبر لبعض الملوك لانّ الخاصّة لم يتأتّقوا عادة هذا التأنيق في بناء قبورهم . على انّ الكتابتين اللتين ألعنا اليها تنفيان هذا الافتراض لان الواحدة تذكر القيصر الروماني كلاوديوس وتعلمنا الثانية ان مشيد هذا الاثر هو احد سدنة الهيكل ابثناه « على نفقة خزانة الاله العظيم » وعلى ظنّنا انه مشهد اقيم كقبر لتموز اله الفينيقيين ولا يعتاص علينا في تقرير هذا الامر غير الدهاليز المجاورة له . ولكن من المحتمل ان هذه الاسراب احتُفرت لغاية دينيّة او بالاحرى ليتسّر فيها ارباب تلك الديانة في بعض حفلاتهم الدنسة كما مرّ بك في ذكر هيكل أفقة . وكانت هذه الفواحش تجري غالباً بجوار المعابد الدينيّة المخصّصة لذكر تموز

(١) وقد وصف هذا البرج وصفاً مطوّلاً هنري غويس (Guys) في كتابه الفرناوي المعلنون (Relation d'un séjour à Beyrouth et dans le Liban, II, 8) والسائح سيتزن (Seetzen) في كتاب اسفاره المكتوب في بدء عصرنا هذا (Reisen I, 248)

٣ البناء المربعة . وبازاء الهيكل الموصوف بقايا حسنة من بناية مربعة يظهر من شكلها أنها كانت مشهداً او قبراً وهذه البناية محكمة العمل وحجارتها ضخمة

٤ البناء المستطيل . وعلى مسافة نحو مائة قدم من الهيكل من جهة الجنوب اثرٌ آخر لا نعلم من غاية بنائه شيئاً وهو على شكل مستطيل ذي جوانب متوازية وتراه منقسماً الى قسمين كبيرين او ردهتين لهما باب يصل بينهما من داخلهما ويكون هذا البناء هيكلًا او كنيسةً كما زعم رينان في كتاب بعثة فينيقية (ص ٣٣٧) ذلك امرٌ لا يمكن الجزم به فان هندسة هذا الاثر تخالف هيئة الهياكل القديمة والكنائس المسيحية . وزد على ذلك ان باب الكنائس كان يوجه في القرون الماضية الى الغرب بخلاف باب هذا البناء . وقد استولى الخراب على آثاره فطمس محاسنه وذهب برونقه فتراه في حال اسوأ من بقية الاخرية المجاورة له هذا وقد سبق القول ان على مشارف فقرا غير هذه الاثار . فمن ذلك اطلال بيوتٍ دارة ومعاصر وقبور منحوتة في الصخر وهلم جرا . وكل هذه المباني تشهد على ان هذا الموضع كان عامراً في الاعصار الحالية وان قوماً من السكان كانوا يقطعون مجوار الهيكل محققين به

ولسائل ان يسأل الى اي عهد يرتقي تاريخ هذا الهيكل . جوابنا : ان الامر مبهم اذ لم يجد احد من العلماء كتابةً قنبيّ بقديم هذا البناء . الا ان البرج الذي مر وصفه مزدان بكتابتين الاولى على لجاف الباب والثانية على احدى زوايا البرج . والكتابة الاولى مطبوسة لا يكاد يُقرأ منها سوى سطرها الاول يستفاد منها ان البرج شيد اجلالاً للقيصر كلاوديوس الذي جلس على منصة الملك من سنة ٤١ الى ٤٥ بعد المسيح . اما الثانية فيؤخذ منها ان تاريخ البناء وقع سنة ٣٥٥ لليونان (١ اغني ٤٣ سنة بعد المسيح وانه بُني « على نفقة الاله العظيم »

(١) ان هذا التاريخ مكتوب بالحروف الابدية ENT وقد رسم فوقها خطيطة دلالة على انها اسفار عددية لا حروف عادية . وكان السائح سيترن لاحظ ذلك في غضون زيارته لهذا الاثر وقد تحققنا نحن ايضاً الامر بنفسنا في خريف سنة ١٨٩٨ لما تفقّدنا هذه الآثار . بيد اننا وجدنا للنون اللاتينية (N) هيئةً قريبة تقرباً الى الميم M

(ἐκ τῶν τοῦ μεγίστου Θεοῦ) قُتِرَى من هو الاله المذكور ؟ على رأينا انه تموز بنفسه وقد ورد اسمه في كتابات جبيل مصحوباً بلقب العظيم (μέγιστος) ولقب الاكبر (ὕψιστος) ومن ثمَّ يجوز القول ان هيكَل فقرا كان احد المعابد المشدّة لآكرامه . ويستنتج من لقبه بالكبير او الاكبر ان الفينيقيين كانوا يعظمون في جملة آلهتهم إلهاً سما عزاً وفاق فضلاً على سواه ولعلّه كان في اول الامر معبودهم الوحيد ففسدت ديانتهم بعدئذٍ وتعددت آلهتهم

فما تقدّم يظهر ان بناء البرج حدث في السنة ٤٣ للمسيح . امّا تاريخ الهيكل فاننا لا نعلم شيئاً من امره . نعم ان رينان جزم بان هندسته تشبه هندسة البرج فاستنتج من ذلك انها بُنيت في زمن واحد . لكننا نحن لا نرى في قول رينان برهاناً كافياً لتقرير هذا الامر كما اننا لم نجد في هندستها شبيهاً ظاهراً . امّا الآثار الباقية الموجودة في فقرا فعلى رأينا انها من اجيال متباينة والله اعلم

١٦ الساحل بين جونية وجبيل

(برجا وعين ماحوز ونهر ابراهيم)

قد حان لنا بعد ذكر الآثار القديمة الموجودة في مشارف كسروان ان نعود الى الساحل فنواصل سيرنا من جسر المعاملتين شمالي خور جونية الى جبيل . ومن سلك هذه الطريق وجد عدّة ابراج ينسبها العامة الى القديسة هيلانة الملكة . وهي في الحقيقة اقرب منا عهداً قد ابتناها اصحابها بعد عهد الفرنج المعروفين بالصليبيين لمراقبة الساحل

ومما يستلفت انظار ابناء السبيل مرسى صغير يُدعى برجا او بالاحرى طبرجا مشتق من لفظة يونانية (τοπαρχία) يُراد بها قصبة المُعاملة او المديرية . وكان لبرجا في سابق الزمان اسم آخر فينيقيّ مِمات كانت تنسب اليه القصبة فيقال « طبرجا المحل الفلاني » (τοπαρχία X) كما نقول مديرية كذا . فلم يبق اليوم سوى الاسم الدال على رتبة البلدة ومقامها . وهذا الامر يصحّ ايضاً عن قرية أخرى تُدعى باسم برجا (او طبرجا) موقعها جنوبي بيروت عند خان النبي يونس

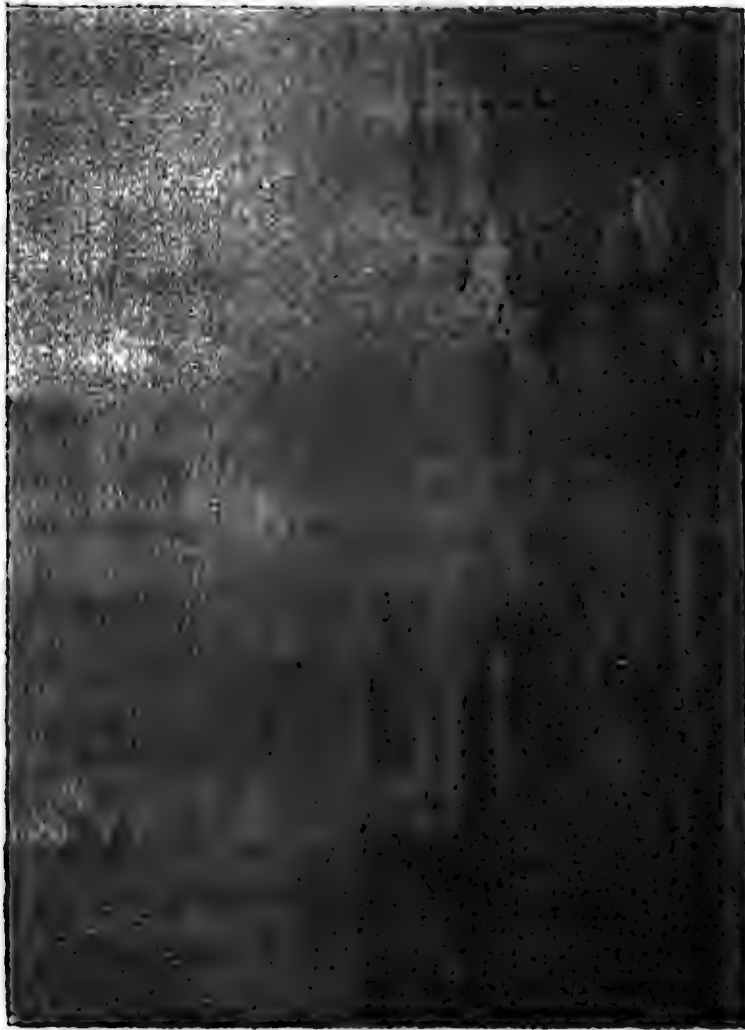
وَيُسْتَدَلُّ من اسم برج المذکور علی أنها كانت علی عهد ملوک القسطنطينية .
بل لنا دلائل علی أنها وجدت قبلهم بزمان . ألا وهي المغاور والاسراب والمدافن
العديدة التي يشاهدها القوم علی مقربة من مرساها الصغير فوق الرُّبى المحدقة بالقرية
علی جانبيها . وهذه المدافن القديمة تشغل مكاناً مَسْعاً قلماً تجد مثله سعةً فی غيرها .
ولا شطط ان وكدنا فی القول انه كان ثَمَّت للفينيقين مدينةٌ صغرى
ومرسى برجا حرج قليل الاتساع وهو شبه جونٍ تراه فی الغاب بأمن من سورة
الرياح . ولا بدع فی ان السفن الفينيقية كانت تأوي اليه فی الانواء
ومما ينبئ بشأن برجا فی السنين الغابرة بقايا قناتها التي بها كانت تجري المياه
منحدرةً اليها من الاودية المشرقة علی غزير
وان سرت من برجا بعيداً عنها وجدت بشراً او عيناً يدعوها اهل تلك النواحي
عين ماحوز . وقد ذُكرت فی التواريخ الصليبية مصفحةً بموس (Maus) (١) .
ولعلّ اصلها يرتقي الى أيام الفينيقين . وهذه العين من الاعمال القديمة الخطيرة
يُنزل اليها بدرج محكم الاتقان نُقر فی الصخر . وكان بقرب هذه البشر فی القرون
المتوسطة حصن كما يشهد علی ذلك الشريف الادريسي (٢)
وفي شمالي عين ماحوز بقرب قريتي بوار وصفرة مدافن متسعة منقورة فی الصخر .
لها مداخل عديدة فی جوانب تلك الوديان . وهذه القبور تدلُّ علی وجود قرية
قديمة هناك ما لم يُقلَّ ان بلدة برجا كانت تمتدّ الى تلك النواحي وتتصل بها
وان تلبعت المسير بلغت نهر ابراهيم . وهنا مُشكل فی تعريف اصل هذا
الاسم الذي ورد ذكره أولاً فی جغرافيتي الادريسي والدمشقي (٣) . والتقاليد
المحلية تزعم ان ابراهيم الذي نُسب اليه الشركان اميراً علی المردة . وما لا شبهة
فيه ان الاسم القديم كان ادونيس (تموز) . وقد مرّ لنا فی الصفحة ٤٣ انه اسم

(١) راجع غيليموس الصوري لك ٧ ف ٢٢

(٢) وصف الشام (ص ١٧ ed. Gildmeister) . واعلم ان الادريسي يذكر بين
جونية وماحوز مكاناً يدعوهُ « عطفة سلام » يقول عنه انه « جون كبير يبعد عن جونية
عشرة اميال »

(٣) طبعة بطرسبرج (ص ١٠٧)

احد آلهة الفينيقيين يقيم لذكور اهل جبيل عيداً سنوياً يدعونه ادوني (Adonies) ومصعب هذا النهر جميل المنظر يُدرك من رآه ككَلَف الفينيقيين باختلاق الخرافات المتعلقة به . وفي فصل الشتاء بعد الامطار كانت المياه تطمو فيضحي لونها كمداً ضارباً الى الحمرة فكان الاهلون يزعمون ان ذاك هو دم تموز المسفوك فينوحون عليه



١٧ جَبِيل

ليس من شأننا ان نسرد هنا اخبار هذه المدينة الشهيرة او نلخص تاريخ احوالها فان ذلك يقتضي كلاماً مطوّلاً يخرج بنا عن الحدود التي افترضناها على أنفسنا في مقالتنا (١) وأنما نكتفي بان نذكر فقط آثارها الجليّة التي صبرت على مرّ الزمان

كانت جبيل مدينة الفينيقيين المقدّسة يحجّون اليها كما يُحجّ الى المزارات الشهيرة. اما موقع المدينة القديمة فان جمهور العلماء لا يرونه محتلفاً عن مكان البلدة الحديثة. وقد ورد ذكر جبيل منذ القرن السادس عشر قبل المسيح في الرسائل التي اكتشفت حديثاً في تلّ العارنة. ومما جاء هناك من الافادات التاريخية أنّها كانت على سيف البحر ولها عمارة بحريّة وانّ اهلها كانوا من حدّاق الملاحين. وفي نبوءة حزقيال (ف ٢٧) وتواريخ الاقدمين ما يؤيد تقرير هذه الكتابات الجليّة الشأن كما اوضحه الدكتور جول روفيه (٢). وكلّ هذه الشواهد تنطبق على موقع المدينة الحديثة

بيد ان جبيل القديمة كانت رجة الجوانب واسعة الارزاء تمتدّ اكثر من المدينة الحاليّة امتداداً بالغاً. ولنا على ذلك البتات الواضحة منها قطع عديدة من العواميد وبقايا ابنية فخيمة تراها في خارج سور جبيل الحديثة. ثم ان السور الحالي ليس بقديم ولا يتجاوز عهد الصليبيين بل هو من اعمالهم. فوجود الآثار القديمة في خارج لا يدلّ على انها في الاعصار السالفة لم تكن متّصلة بالبلدة. ولما استولى الفرنج على المدن الساحليّة في القرون المتوسطة وجدوا جبيل في حالة من الخراب يُرثى لها. فاخذوا في ترميمها واستعانوا لتشييد المدينة وتحصينها بموادّ أخربة

(١) ومن اراد الوقوف على تاريخ جبيل فعليه بالملخصة التي صنّفها الدكتور جول روفيه فقرأها على مسامع نخبة من اهالي بيروت في حفلة عقدت في مسرح كليبتا ثم نشرها بالطبع في المجلّة الكتابيّة (Revue biblique, VIII, 553) بهذا العنوان :

Gébal-Byblos, son histoire dans l'antiquité et sa nécropole phénicienne.

(٢) راجع المقالة المذكورة (ص ٢)

البنائات القديمة التي وجدوها قريبة دانية . ولعلّ ندرة وجود الآثار القديمة في جيل مسيئة من اتخاذها للابنية المستحدثة . وفي عصرنا هذا تلف كثير منها في ابنية قرية عمشيت فكان اهلها يلقون من جيل كل ما يصلح لبناء مساكنهم . وهذا لعمرى مما يوجب الاسف لان بقايا ترقى الاقدمين وتقدمهم يلاشيها التمدن الحديث فيصبح لها بمثابة نواذب الحداث ومصائب الزمان بل اوخم عاقبة منها كما بين ذلك الدكتور جول روفيه

واذا زدنا على هذه عوامل الخراب الزلازل التي تلاعبت بكثير من آثار جيل (١) فهنا كيف ان هذه المدينة ام المستعمرات الفينيقيّة لم تُبقِ لاختلف من مآثرها السابقة الا النذر القليل

واول ما يستلفت النظر من آثار جيل بُرجها فان بقايا الضخمة لم تعمل فيها صروف الزمان . وهو لا يزال منتصباً يبنى بعظم شأن بُناته وموقع البرج المذكور في جنوبي شرقيّ المدينة له منظر خطير يأخذ بجوامع لباظره . وهو مبني بحجارة كبيرة ولعلّ ذلك الذي حمل أغلب الكتبة على ان ينسبوه الى الفينيقيين زعمهم الباطل ان قدم الابنية يُعرف بعظم حجارتها وضخم موادها . وكانوا يزيّدون على هذا تأييداً لرأيهم ان على البرج المذكور مسحة من العتاقة تشهد بقدمه

بيد ان ذوي الخبرة من المهندسين واصحاب العاديات أبطلوا هذا الزعم بعد الفحص المدقّق وبيّنوا ببراہين مقنعة ان هذا البرج من عمل الصليبيين في القرون المتوسطة . وسندهم في ذلك الى ما يحدّق بالبرج الكبير من الابنية الثانويّة وهي عبارة عن بروج صغرى لا سبيل الى نسبتها الى الفينيقيين لما يدخل في تركيبها من المواد المأخوذة عن ابنية اقدم عهداً شادها اليونان والرومان كاعدة من الصوان أدرجت في جدران هذه البروج . وهذا الامر شائع في ابنية الصليبيين بخلاف الامم السابقة لعهدهم . اعني انهم كانوا اذا دخلوا بلداً انتفعوا بخرائب آثاره القديمة كالحياكل والقصور فيتخذون موادها لابنيتهم الجديدة ويستغنون بذلك عن

نقلها من المقاطع . فاذا ثبت ان هذه البروج الصغرى هي للصليبيين يصح القول ان البرج الكبير هو ايضاً من آثارهم لما بينه وبينها من الشبه في هيئة الحجارة وطريقة التّحت فان حجارة كليهما تتوّأ متشابهاً وهيئتها عتاقة واحدة (١) مع ما ترى بين حجارتها من الاختلاف في الكبر . وهناك ايضاً عدة تفاصيل هندسيّة عُرف بها الصليبيّون دون غيرهم منها شعار البنايين وعلاماتهم وقطع كتابيّة يونانيّة ورومانيّة أُقحمت في البناء بلا نظام

هذا واننا لا ننكر ان الحجارة الكبيرة التي ترى في البرج الكبير هي من نحت الاقدمين وقد بيّنا غير مرّة لاسيما في خلال كلامنا عن دير القلعة انهم كانوا يحبّون اتّخاذ مواد ضخمة لبنانيّاتهم . لكن الصليبيين نقلوا هذه الحجارة التي وجدوها فاتخذوها لشؤونهم الخاصّة

امّا آثار قدماء الجليليّين فقليلة جدّاً . منها عدد كبير من العواميد تراها في كل انحاء البلدة حتى يسوغ ان ندعو مدينة جبيل مدينة العواميد . وقعر ميناها الصغير مفروش كلّ بهذه العواميد . وهي من الصوان الصلب قد نُقلت من بلاد مصر بجرّاً . ولا نشكّ في انها كانت داخلة في الهياكل والمعابد العديدة التي كان يتباهى بها اهل جبيل لأنّ مدينتهم كما سبق لنا القول كانت مركز الديانة الفينيقيّة يجمع اليها اهل البلاد ليتيمّنوا بزارها . وكان للبلد ايضاً اروقة واسعة قائمة على مثل هذه العمد في صدر الشوارع الكبرى كما كان شأن المدن الرومانيّة في ذلك العهد

ومما يستحقّ الذكر ايضاً بعض قوائم ومساند كانوا يضعون فوقها التّأثيل . ومنها ايضاً مذابح صغيرة وحجارة عليها كتابات لا يسعنا هنا تعدادها ووصفها واكثرها قد نُشر بالطبع في اوربة . وقد اسعدنا الحظ على وجود بعض منها كتبت باليونانيّة لم تسنح لنا الفرصة حتى الآن بنشرها

(١) وهذه العتاقة ليست بدليل قاطع على قدم هذه الابنية وانما هي لاحقة بصنف الحجارة الرميّة التي تستعمل في الساحل . فان الحجارة البحر والرطوبة تعملان فيها عملاً سيئاً فيظنّ من يراها انها عريقة في القدم مع انها حديثة . وترى مثل ذلك في بعض بنايات بيروت التي لا يتجاوز عهدها ٣٠٠ سنة

فهذه غاية ما نرى الى ذكره سبيلاً عن عاديّات جُبيل الباقية في ضمن سورها . وهي لعمرى نزة بالنسبة الى شأن هذه المدينة وخطرها . ولا غرو ان تحت ردمها آثاراً جليّة وكثوراً علميّة سوف يطلعون عليها المستقبل اذا ما تيسّر للعلماء ان يحفروا حيث شاءوا . وما يزيدنا ثقةً بهذه الاكتشافات انّ اهل جبل كثيراً ما يجدون في املاكهم امتعة شتى غالية الثمن يبيعونها خفيةً للاجانب كالتماثيل والنقود والقطع المعدنية الى غير ذلك ممّا لا يمكن ضبطه وتدوينه في كتب آثار بلادنا ومن ابنية القرنج في جبل كنيسة مار يوحنا المارونيّة . وهي كانت سابقاً ارحب منها اليوم وعلّها كانت مزينةً برواق في صدرها . وهندستها كهندسة كنائس الصليبيين ذات ثلاثة اقسام مقببة تنتهي بجنايا . ونقوش اكّلة عمدها في قسمها الكبير تجمع بين الطرزين الهندسين الفوتي والكورنتي . وبقرب الكنيسة جرن للعماد غاية في اللطف والدقة وهو عبارة عن قبة كنصف كرة تستند الى اربع أقواس على شكل بيضى وترى فوق ثلاث اقواس منها اشغالا هندسيّة وزيناً حسنة . اما القوس الرابعة فلا تُرى لانها مستندة الى جدار الكنيسة ١١

واذا ما خرجنا من سور البلدة لقينا كما في داخلها كمية وافرة من عواميد صوّان متكسرة . ومما اكتشف حديثاً في ارض تخصّ عبد الواحد افندي اساس بناء فيخيم اشبه بهيكل . والاساس المذكور بالغ العمق يدخل منه الى أسراب غريبة الشكل لا تُعرف غايتها . وفي المكان عينه وُجدت قطع تماثيل ونقوش من الرخام الابيض

مدافن جبل

ومن آثار جبل الغريبة قبورها القديمة ومدافنها وكان موقعها خارج البلدة ليس بعيداً عن اسوارها . ألا ان هذه المدافن المعروفة اليوم ليست مدافن الفينيقيين وانما هي احدث عهداً كما ارتأى ذلك الدكتور روثيه في بحثه السابق الذكر ولعلنا نسمع

عمّا قليل بشرى اكتشاف نواويس جبيل الفينيقيّة فينتفع بها العلماء كما انتفعوا
باكتشاف نواويس صيدا.

واليوم يصعب علينا ان نُقدّر سعة مدافن جبيل وشكلها بعد ما حلّ البلدة
من التقلّبات المتواترة وامتداد الرمل على قسم كبير منها . والارجح ان مكانها
المخصوص بها كان في شرقي البلدة وجنوبها

وفي هذه المدافن لم يُكتشف الى يوم تاريخنا شيء من الآبار التي كان الفينيقيّون
يؤثرونها لتبر موتاهم كما ترى في صيدا وغيرها من المدن الساحليّة . على انّ عدم
اكتشافها ليس بسبب كافٍ للجزم بعدم وجودها كما زعم المسيو ريتان (بعثة
فينيقية ص ٢٠٦) . واننا نرجح مع المسيو روييه وجود مثل هذه الآبار ولو لم
يتوصّل احدٌ بعد الى اكتشافها . لكنّ جبيل لا تحاو من المغاور المخصوصة
بدفن الموتى الاقدمين . وقد وجدوا ايضاً حفراً منقورة في الصخر ونواويس لهذه
الغاية نفسها

اما المغاور فعلى ضربين منها طبيعيّة وجدها الانسان فاستخدمها لدفن امواته .
ومنها صناعيّة حفرها بيده لهذه الغاية . وبين المغاور الطبيعيّة ما كان عهده قديماً
جداً يشبه الكهوف السابقة لزمان التاريخ التي وصفها حضرة الاب زموفن في
المشرق (١ : ٩٧ و ٣٥٣) احسنها المغارة التي تُشرف على مسيل ماء في لُح ف ضيعة
قصبوة على مسافة نصف ساعة من شرقي جبيل . وهي قريبة الشبه بمغارة انطلياس
(المشرق ١ : ١٠٢) المرتقية الى طور الظُران . وقد نُقر في جوانبها الداخليّة
مخادع كانت تجعل فيها الموتى . وفوق احداها نقش يُعَيِّل محاراً من الصدف الملّتوي
لعلّه من عهد الرومان

ومداخل هذه المدافن تفتّح عمودياً او ببعض الخراف في وجه الصخر . ومنها
كثير في الوديان المجاورة لجبيل وفي الصخور التي تطلّ على البحر . وفي بعض
الآونة ترى لهذه المدافن نقشاً قليلاً ويُدخل اليها على سواء الرجل وربما وجدت لها
حجرة او أكثر كانت تشتمل سابقاً على نواويس انتهك حرمتها قومٌ من طالبي الحيايا
وبائع العاديّات لم يبقوا منها الا قطعاً محطّمة . وفي الغالب لا تجد في هذه المدافن
الا حفراً كالافران منقورة في الصخر

وتاريخ هذه المدافن لا يمكن تعيينه بالضبط لاسيما بعد ان نُزعت منها اجهزة الدفن وُسلبت امتعته كما سبق ولو بقيت لاستطاع العلماء ان يستدلوا بها على عهدها . اما الكتابات فلا يرى منها الا النذر القليل وهي كلها يونانية ورومانية . وعليه فلا يتفق علماء الآثار العادية على تعريف عهد هذه المدافن . ومنهم من زعم انها سبقت فتح الرومان للشام . وقد ارتأى ريثان ان بعضها يرتقي الى ايام الكنعانيين

اما الدكتور روثيه فان رأيه ان هذه الكهوف كلها من عهد الرومان . وقد دعم قوله بحجج حسنة ترجح رأيه دون ان تزيل كل الشبهات . ومن براهينه ان ما وجد من العاديات في هذه المدافن منذ ٥٠ سنة لا تصح نسبتها الى غير الرومان فيستنتج من ذلك ان المكتشفات السابقة لهذا التاريخ كانت ايضا رومانية . (نقول) ان هذا الدليل لا يخلو من القوة لكنه ليس بجازم لان كثيرا من هذه العاديات لا تزال مخفية لدى فاتحي هذه المقابر . وكذا نقول عن البرهان الثاني حيث بين الدكتور ان التواويس والنقود التي وجدت في هذه الكهوف كلها من عهد ملوك الرومان . فائنا نسلّم لجذابه بقوة هذه البينة لكننا لا نجسر ان نحكم في ذلك حكما فصلا ريثما يتم البحث المدقق في مستودعات هذه الكهوف . كما انه لا يجوز ان نبي على هذه الاكتشافات الجزئية احكاما عمومية عن عادات الجليليين في دفن موتاهم

هذا واننا نوافق المسير روثيه الموافقة التامة في نسبته بعض المدافن الى الطور اليوناني الروماني وهي : ١ المدافن ذات الطبقتين الواقعة في الرملة التي ترى جنوبي الطريق المؤدية من جبل الى بيروت . ولكل قبور هذه المدافن منافذ على شكل أقواس . ٢ المغارة الواقعة على مقربة من المدافن السابق ذكرها اتخذها ايضا القدماء كمقبرة وحضيضها مبلط بالفسيساء . ٣ بعض كهوف اخرى طليت بالملاط ومنها ما هو مزين بالتصاوير . فهذه بلا شك ليست من اعمال الفينيقيين ولكن من المحتمل ان تكون سبقت تاريخ الميلاد بقرن واحد او ازيد على مثال صفائح القبور التي وجدت في صيدا قبل سنين قليلة وقد نشرنا كتاباتها في مجلة

العاديّات (١) . ٤ بعض مدافن مقبّية . ومن المعلوم ان الفينيقيين الاقدمين لم يستعملوا القبر

نواويس جبيل

نواويس جبيل كنواويس غيرها من المدافن الفينيقيّة . لكنّهم لم يجدوا حتى الان فيها الا نواوساً واحداً يمثّل هيئة الجسم البشري (Sarcophage anthropoïde) وهو اليوم في متحف اللوفر . والنواويس الخشبيّة لا اثر لها في جبيل مع كثرتها في غيرها من المدن الساحليّة . امّا النواويس من الرصاص والآجر والحجارة والرّخام البلدي مع اطباقها المحدّبة فهي اشبه شيء بنواويس بلاد فينيقيّة من حيث هيئتها ونقوشها

وقبل ختام هذا الباب لا بدّ ان نثبت هنا قولاً لرينان بخصوص اثقاب وشقوق مختلفة الشكل وفي الغالب مستديرة تُرى في قعر النوافذ الداخلة في قلب الارض . فظنّ المسيورينان أنّ العملة الذين كانوا يحفرون هذه المقابر كانوا يسبرون متانة الصخر بادواتهم قبل حفره ليعلموا ما سيلقون في شغلهم من المشقّة وقد ردّ الدكتور روقيه على زعم رينان بما لا يُنقض من الحجج فيّ أنّ هذه الاثقاب ليست بصناعيّة وانما هي صدوع طبيعيّة كثيرًا ما تحدث في الحجارة الرملية كما يُستدلّ على ذلك حيثما شاعت هذه الحجارة وقد رأينا كمثّل هذه الشقوق في جبيل نفسها خارجاً عن المدافن

فهذا نظرٌ عموميٌّ لحصّنا فيه ما يُعرف عن جبيل وآثارها . فعاديّاتها كما ترى قليلة ولكن لا يجوز للعلماء ان يياسوا من وجود آثار غيرها . ولقد اساء رينان لما قال عن جبيل أنّه لا يؤمل اكتشاف شيء جديد فيها . وكان دأب هذا الرجل ان يبحث دون توقّف كافٍ عن العاديّات ولما لم يعثر في جبيل على ما كان ينتظره جزم بان هذه المدينة خلوة من الآثار القدّية

اما نحن فنؤثّر رأي الدكتور روقيه حيث قال في خاتمة مقالته عن جبيل :

« اننا نعتبر جيبيل ومدافنها الفينيقية كأنها مجهولة تماماً . ونظن ان آبارها المتخذة لدفن الموتى قد سُدت افواهاها مع صفائح قبورها بالرمل والتراب المنقول الى هذه المدافن من التلال المجاورة فالتحذت تلك التلال كجنان وبساتين وصارت المدافن مطمورة في قعر الارض . ولكن لنا الامل الوثيق ان سيتوصل عمّا قليل اصحاب الهمة الى هذه القبور المكنونة في اعماق الارض . ولنا ضمير لتحقيق آمالنا في ما شاهدناه في مدافن صيداء التي فيها وُجد قبر الملك تبثيت وعدة من نفائس الآثار تحلب عقول الزوّار في متحف الاستانة العلية . والفضل في اكتشافها عائد الى سر مهندس ولاية بيروت السابق بشارة افندي

« ولعل سعة حدود هذه المدافن البالغة في العمق كسعة المدافن التي اتُخذت بعدئذ بدلاً منها . اأ مركزها فالارجح انه على مسافة ١٠٠٠ او ١٥٠٠ متر من المدينة على منعطف الرُّبى المجاورة . هذا ما يظهر لنا بالحدس والتخمين وهو سبيل نهجه لمن يأتي بعدنا باحثاً في عاديّات جيبيل (١) »

١٨ بلاد جيبيل

لبلاد جيبيل شأن خطير في التاريخ وعلم العاديّات . وذلك لان قاعدة تلك الانحاء كانت اضحت في عهد الرومان مركزاً لعبادة تموز فصارت الضواحي التابعة لها كحرم لا يجوز انتهاكه . وكانت الجاهير تحج الى هذا القطر لتكرم الاماكن التي تحيلتها كموقع للآثر تموز واعماله المختلفة . ولذلك لم تكدر بوة من الرُّبى التي تجاور مدينة جيبيل تحاو من معبد تنبى آثاره الباقية بعظم شأنه . ومما كان يزيد هذه النواحي حسناً وبهجة ان لبنان كان في ذلك العهد مجللاً بابهى حلل الطبيعة تزينه الغابات الكثيفة وتظلله الاشجار الباسقة فكان اشبه بجبال الالب التي هي اليوم فخر سويسرة ومصدر ثروتها (راجع مقالنا في جبال الالب ولبنان . المشرق ١: ٧٢١) . فكنت ترى لكل معبد غيضة تحديق به وعمد

(١) وفي الواقع قد وُجدت في جيبيل بعد كتابتنا لهذه الفصول آثار أخرى قد وُصفت في المشرق ١٩٠٣ (٦ : ١٢٣) و ١٩٠٤ (٢ : ٢٢٨)

فوقه افنانها الوارفة كما ترى اليوم في بلاد النصيرية المزارات والمقامات على آكام
تكتنفها ضروب الاشجار كأنها قلاند الزمرد
اما الاثار الباقية فمنها ما هو مطمور في الارض ومنها ما اتخذهُ الخلق لبنايات
مستحدثة كالكنائس والبيع يدلُ عليها كتابات قديمة طُمس بعضها او نقوش
متقنة الصنع تراها في الجدران او صفائح محطمة ألقي حطامها في زوايا الكنيسة
او انصاب مخروطة وعتبات مستطيلة الى غير ذلك بل وجدنا مذابيح بعض
الكنائس مبنيةً بججارة المذبح القديم نفسه . واذا طُفت حول هذه الكنائس
رأيتَ آباراً او صهاريج او احواضاً او قبوراً منقورة في الصخر كلها شاهد على
الازمنة الحالية

بَلَاط

موقع هذه القرية على مقربة من قصوبة في جنوبها . كنيسة على اسم النبي
العظيم مار الياس وهي مبنية بججارة هيكل قديم كان هنالك . وفي جدرانها بعض
قطع من نقائيل رومانية متحطمة وفي داخلها اربع كتابات يونانية يستفاد منها ان
الهيكل القديم الذي قامت الكنيسة مقامه كان على اسم الاله العظيم (Δευ(στω))
وهو البعل كبير آلهة الفينيقيين او تموز قرينه ونائبه في بعض الامكنة (راجع المشرق
٢ : ٦٢) . ولهذه الكتابات تاريخ يقضي باعتبارها كاقدم الكتابات اليونانية في
لبنان فانها ترتقي الى السنة ١٩ قبل المسيح

ولبلات مدافن قديمة وقبور منقورة في الصخر أحكمها صنعا ما يُرى غربي
المدينة . وهي عبارة عن ستة اجران متلاصقة متجانسة الشكل غاية في الاحكام
نُقرت في الصخر بعد قطعه وتسويته واهل بلات يجدون عدداً وافراً من
العاديات في قريتهم وضواحيها . ولو باشر العلماء ثم حفريات منظمة لوجدوا فيها
ما يسرهم ١)

أده

هي في شمالي جُوب وشرقي شمالي جيل . من آثارها القديمة موادٌ كنيسة

(١) راجع كتاب بعثة فينيقية ل لبنان ص ٢٢٣ ورحلة دوسر الى سورية سنة ١٨٩٠ ص ٥

المقامة على ذكر القديس جاورجيوس . فإن هذه المواد قد استخرجت كلها من ابنية عادية . ومن اعتبر جدرانها وجد في خلالها قطعاً شتى من العمد والحجارة المطنقة . وقد انتزع المسير رينان عتبة الكنيسة وارسلها الى متحف اللوفر في باريس . وعليها يُرى نقش من الرموز الشائعة في الدين الفينيقي وهو يمثّل كرة ملتفة حولها حيات تجتمع اذناها من فوق . والكرة المذكورة بين جناحين منتشرين على جانبيها . وكان بيت العباد الذي قرب كنيسة جبيل حجير فيه مثل هذه النقوش الا انه احدث عهداً من العتبة السابق ذكرها (راجع ص ٦٣) . وهذا الحجر نقله ايضاً رينان الى باريس

وفي نواحي اده معابد كثيرة كانت في سابق الدهر هياكل للاصنام ومنها ما هو مزدوج . وسنعود ان شاء الله الى ذكرها عند كلامنا عن كنائس لبنان المارونية القديمة

عمشيت

عمشيت قرية جديدة بالنسبة الى غيرها من القرى المجاورة . وليس فيها من اثر ثابت يؤدي بالقول الى وجودها في الطور اليوناني الروماني وهي اليوم بلدة معتبرة اخذت في النمو منذ اوائل القرن الحالي . اما الكتابات العديدة التي يجدها الناس في عمشيت فكلها منقولة اليها من جبيل او ضواحيها (١)

عبادات

فاذا رقينا الان الى مشارف لبنان وجدنا في طريقنا كنيسة شامات المزدوجة التي فيها آثار هيكل من الطرز الايوني (ionique) ترى عمدتها من داخل الكنيسة . وفوق شامات على مسافة نصف ساعة منها عبادات او عبيدات ترى في جدران كنيستها عند بابها الخارجي كتابة يونانية كتبت في ايام انطونينوس (٢)

(١) راجع بعثة فينيقية ص ٣٢١ ورحلة دوسو ص ٦

(٢) هذا الاسم مشترك بين انطونينوس المعروف بالبار وماركس اورليوس انطونينوس

قيصر وهي ذات شأن لتاريخ الديانات في لبنان . والكتابة على اسم « المشتري السماوي الاعظم السارناي » (Σαρναίος) المشفع ، وقد اختلف في شرح الصفة « سارناي » والارجح انه نسبة لاسم هذه الضيعة القديم فدُعي به البعل المعبود فيها وفي تراكم هذه النعوت والصفات اشارة الى معبود اعظم متفرد بالجلال هو الرب سبحانه وتعالى الذي لا إله غيره كان القدماء اشركوا به معبودات ثانوية فتأهوا في بيدها الشرك

بجديدات

في بجديدات ايضاً آثار قديمة متعددة . سيأتي الكلام عن كنيسها ونقوش جدرانها . امّا مذبحها الحالي فهو المذبح القديم نفسه الذي كان الوثنيون يقدمون عليه تقادهم . ومثل هذا المذبح في كنيسة مار اما بجوار اده . ولا تخلو بجديدات من الكتابات القديمة اليونانية لكن اكثرها مطموس لا يسعنا هنا ان نذكر ما ورد في شرحها من الآراء المتباينة بلا فائدة للقراء

جربتا

في جربتا وهي قرية قريبة من بجديدات اجمل نقش حفره القدماء في لبنان على وجه الصخر . وهذا النقش عبارة عن نُقْرة مستديرة ترى في اعلاها شلو بعض الآلهة وتحت التمثال المذكور مذبح وعلى الجانبين شخصان رجل وامرأة واقفين في هيئة السجود وترى شخصين آخرين يسوقان الضحية ويحملان كل لوازم الذبيحة . وهذه الصورة قد صبرت على ممر الدهر الا ان رأس الاله قد حُطِم فيها عمداً . ورسومها حسن يشهد لمصورها بالحذق ودقة الصناعة فانه اجاد كل الاجادة بتتمثيل حركات الاشخاص ولبسهم وهيئاتهم المختلفة . ومن فوائد هذا الاثر انه يدلنا على لبس قدماء الفينيقيين فضلاً عن تعريفه لديانتهم . وعلى مسافة قريبة من هذه الصورة كهوف ومدافن منها اشتقت جوبتا على الاصح اسمها اليوناني (Κρούστη) اي مغارة

فيجوز ان تنسب الكتابة لكل منها فيكون تاريخها اماً سنة ١٥٤ - ١٥٥ او ١٧٧ - ١٧٨ بعد المسيح

معاد

لا ريب أن معاد كانت في سالف الاعصار ضيعةً مهمةً ومركزاً خطيراً . وفي القرون المتوسطة بُني لها قلعةٌ . وكنيستها نعدُّها طرفةً من طرف الايام نذكرها في جملة الكنائس القديمة المعتبرة . ومما اكتُشف فيها كتابة يونانية للاله سَتراپ تاريخها السنة الثامنة قبل المسيح ارسلها رينان الى باريس . ومن خواصها كثرة اغلاطها . مما يدلُّ على ان حافر الكتابة كان يرسم الرسم دون ان يفهم مضمونه . وهذا كثير في الخطوط اليونانية القديمة المكتشفة في لبنان كما ترى مثلاً في كتابة دوما . وهو من البراهين التي تنبئ بان الفينيقيين لم يتقنوا التكلم باللغة اليونانية

وان سأل سائل تُرى من هو هذا الاله سَتراپ . اجبنا ان السَتراپ عند اليونان كالمرزبان عند العرب وكلاهما يدلُّ على رئيس الفرس وسيدهم المتولي امورهم بالنيابة عن الملك . فيكون الاله المذكور في كتابة معاد دُعي بذلك ايام دولة الفرس في فينيقية . فسَمَّوه سَتراپاً اي سيِّداً كما سَمَّوا غيره من الآلهة « بعلاً وملوخاً » وكلاهما بمعناه يراد بهما السيّد والملك . وان اعترض المعارض بقوله ان المرزبان دون الملك مقاماً فكيف دعي به الاله العظيم . قلنا ان المرزبان كان في عين الشعب كالوالي والحاكم الاكبر الذي يعودون اليه في كل امورهم لبعده الملك الاعظم عنهم . فاعتادوا اكرام الوالي المذكور حتى صار لديهم بمنزلة الملك عينه . ثم نسبوا اليه قسماً من الصفات الالهية كما كانوا ينسبون للملوك . وكذلك ترى كثيراً من الصفات الالهية كانت في بادئ الامر تدلُّ على رتبة مقصودة ثم نقلها العامة شيئاً فشيئاً للدلالة على السلطان المطلق والاله الاعظم كما ترى في غير ذلك من اسماء اللاهوت كالبعل وأدون وملوخ وكلها انتقلت عند الفينيقيين بالمجاز من معناها الاصلي الى معنى الاله الكبير المتعالي

مهما كان من امر هذا اللقب فانه من المقرّر ان اسم الاله سَتراپ لم يُذكره في غير هذه الكتابة الحجرية . على ان پوزانياس المؤرخ كان ذكره في كتابه

السادس (ف ٢٥ و ٢٦) جفاء اكتشاف هذه الكتابة مويّداً لقوله (١) وتري من ثمّ ما في درس الآثار القديمة من الفوائد لمعرفة التاريخ . ولا يقولنّ قائلٌ أن هذه الاشياء زهيدة ليس تحتها كبير امر . أجبننا أنّ العلم في الغالب متوقّف على مثال هذه الدقائق فاذاُ جمع شتاتها نجم عنها فوائد لم تكن في الحسبان فكأنّها اشعة النور تبيد اذا ضمّ بعضها الى بعض سلطان الظلام وتقرّر اسمى الحقائق وأجلّها



١٩ احوال لبنان في القرن الرابع عشر قبل المسيح

وفقاً لما ورد في مراسلات تلّ العارنة

كثيراً ما اشرنا في سياق كلامنا عن آثار لبنان الى مراسلات تلّ العارنة . فأجبنا ان نستطرد الى وصفها لما ينجم عن معرفتها من الفوائد الجمة العربية عن احوال بلادنا قبل تاريخ الميلاد باربعة عشر قرناً . فان هذا لعربي عهد قديم ما كنّا نلجوا قبل عشرين سنة أن نقف على شيء من اخباره . فأقّى هذا الاكتشاف في حين لم تهجس فيه الضمائر ولم يخطر على بال . أمّا الفوائد التي تُستخلص من المكاتبات فقد ألحقتها بآثار بلاد جُبيل لكثرة ورود اسم هذه الناحية فيها فنقول :

ان تلّ العارنة مزرعة صغيرة مجاورة لوادي موقعه جنوبي مدينة النيا في الصعيد على مسافة ٨٠ كيلومتراً منها عند ضفة النيل الشرقية . والوادي المذكور تحيط به الصخور وهو يُدعى باسم المزرعة المنوة عنها . وفي هذا الوادي بُقعة واسعة تمتد مباشرة من قرية « شيخ قنديل » وكان على وجهها أطلال وأخبة قديمة . اما الصخور المجاورة فكانت قد نُقرت فيها مدافن ترينها النقوش والكتابات الهيروغليفية استنتج منها العلماء انّ ثمّت ازهرت مدينة « خوت اتن » او « خوت

(١) راجع مبحثاً مهماً ورد في المجلّة الاسيوية (فرنسية عن الاله ستراب المذكور (J. A., 1877² p. 157)

ناتن (١) « كرسى ملك فرعون مصر المدعو امينوفيس الرابع وكان هذا الملك بنى تلك المدينة نحو سنة ١٣٨٠ قبل الميلاد وبقيت مدة الى ان خربت بعد وفاته ولما كانت بعض شهور سنة ١٨٨٨ بينا كان قوم من الفلاحين يحفرون بحجار هذه الاخرة اذ عثروا على صناديق خشب مملوءة من قطع الاجر كلها مكتوبة على وجهها باسطر متلاصقة ناعمة . فسُـرّ الفلاحون بهذا الاكتشاف واملوا من بيعه رجاء طائلاً . وحملهم طمعهم الى ان كسروا اكبر هذه اللواح فجعلوها قطعاً ليزيد بذلك عددها ورجعهم معاً . ولعلّ جهلهم كان اودى بهذه الكنوز الدفينة لولا ان الخبر بلغ مسامع اولى الامر فبادروا حالاً الى تلافي الضرر وضبطوا ما وجدوه من الاجر ومنعوا كسره وتشتيت قطعه . وقد نال المتحف البريطاني النصيب الاوفر من هذه المكاتبات فانّ منها هنالك ٨٠ آجرة كبرى حسنة . اما المتحف المصري فاصاب منها نيفاً وستين قطعة . وفي دار عاديّات برلين منها ١٨٠ قطعة دون القطع السابقة كبراً وكذلك تمكّن بعض الخواص حفصوا على قطع صغرى ابتاعوها لنفوسهم

وما عتّم العلماء ان عرفوا ان المكاتبات المرقومة على الاجر هي المكاتبات الممارية البابلية وانها تشتمل على سجلّات الدولة في ايام امينوفيس الرابع وابيه امينوفيس الثالث فكان لهذا الاكتشاف احسن وقع لدى المستشرقين وان سأل سائل كيف دخلت اللغة البابلية في سجلّات ملوك مصر ؟ أجبنا ان الامر لا يخلو من بعض الشبهة . وقد ذهب قوم من العلماء الى ان اللغة البابلية كانت في ذلك العهد اللغة الرسمية بين الدول الشرقية كما ترى اللغة الفرنسية في ايامنا . وذهب غيرهم كالاب ديلاتر اليسوعي الشهير (٢) الى ان اهل الولايات الشامية في زمن مكاتبات تلّ العمارنة كانوا يتكلّمون باللغة البابلية وهو عندنا الرأي الارجح . على اننا بقولنا هذا لا ننفي وجود لسان غير اللسان الاشوري اخذ منذ ذلك الحين

(١) لم يتفق العلماء على كتابة الاعلام الواردة في رسائل تلّ العمارنة فأتبنا ما رأيناه اقرب الى الصواب

(٢) راجع كتابه في بلاد كنعان على عهد الدولة المصرية :

Le pays de Chanaan, province de l'ancien empire égyptien, (p.26 - 30)

يترج بلغة بابل نريد بذلك اللغة الكنعانية التي يظهر منها بعض الآثار في رسائل تل العمارنة . وهذه اللغة الكنعانية هي التي تغلبت بعدئذ في أنحاء الشام وطمست (بفرعيها العبرانية والفينيقية) آثار لغة اشور . وهذا يطابق ما نعرفه من احوال بلادنا فان اهله كانوا قبل عهد المسيح بثلاثة آلاف سنة قبائل سامية من البابليين ثم لم يزل يهاجر الى سورية جيل من الناس نُسبوا الى الكنعانيين حتى غلب هذا العنصر الكنعاني العنصر البابلي وقام مقامه ١)

وعليه ان اول فائدة تُستفاد من مكاتبات تل العمارنة اننا هي شيوع اللغة البابلية في لبنان مع ابتداء انتشار الفينيقية . وترى التراكيب الفينيقية في رسائل اهل الساحل لاسيا جيل وبيروت اكثر منها في غيرها . فيؤخذ من ذلك ان سورية كانت وقتئذ كضمار يتجارى فيه شعبان كيدان : البابلي وهو المتولي على الارض المالك عليها تحت سيطرة فراغة مصر . والكنعاني الذي ينمو ويزداد يوماً فيوماً الى ان ثبتت دعائمه وامتدت اطنابه واستولى على السيادة بدلاً من خصمه المدحور وغلب اغته على لغته

*

ومن بعد هذه المقدمة يتربّ علينا ان نبحث عن مضمون مكاتبات تل العمارنة فنقول ان هذه المراسلات تُقسم الى قسمين : الاول يشتمل على الرسائل التي بعث بها الى فراغة مصر أقبال آسية وملوكها غير الخاضعين لدولة المصريين كالحثيين وملوك العراق وبابل واشور . اما القسم الثاني فانه يتضمن رسالات انفذها الى ملوك مصر او وزرائها ولاه وامراء عديدون من سورية وفلسطين . وكانت بلادنا في ذلك العهد تحت حكم مصر فيستشف من مطاوي كلام الكتبة التذلل والتواضع كما يكتب العمال الى سادتهم بل العبيد الى اولياء امرهم وفي مقدمة هذه الرسائل اسم الكاتب على هذه الطريقة : « عبدك فلان » او « فلان عبدك من مدينة كذا » او ايضاً « فلان كلب الملك » . ولا ترى احداً من هؤلاء الكتبة يلقب نفسه بملك او امير بل يكتفي باسم « خزانو » وهو

الحاكم او الوالي . وقد ورد في رسالة حاكم جبيل « ريب ادّي » او « ريب ادّي » قوله للفرعون : « لاي سبب جعلني الملك خزانو » فاستدلّ المستشرقون من هذا الكلام ومن غيره ان رتبة « الخزانو » كان ملك مصر يقلدها بنفسه الولاة فيخلفهم فيها اولادهم من بعدهم . ويستدلّ من هذه المكاتبات ان النساء كنّ يتلنّ رتبة الخزانو كالرجال وهو امر غريب لم نجد له شبيهاً في تاريخ الشام سوى ما ورد عن زينب في تاريخ تدمر (١)

وتحتوي الفاتحة ما عدا اسم الكاتب ذكر الفرعون والقابضة على هذا المثال : « الى الملك سيدي والهي ونوري وشمس السماء فلان . . . عبدك وتراب قدميك وسائس خيلك . اني اخو على اقدام سيدي سبع دفعات وأنطرح سبعا على صدري وظهري » وفي بعض الرسائل يبالغ الكاتب في التذللّ والخضوع الى ان يجعل نفسه « كلباً اهلاً بان يطأه سيده تحت اقدامه » ثم يلي هذه المقدمة فحوى الكتاب

أما رسائل الملوك فمقدماتها تُشعر برتبة اصحابها مثال ذلك ما كتبه « دوسرتا ملك ميتاني » اي بلاد ما بين النهرين وكانت اخته زوجة لأمينوفيس الثالث وابنته لابنه امينوفيس الرابع :

« الى الملك العظيم ملك بلاد مصر اخي وصهري (وفي الاشورية ختي) الذي يحبني وانا احبه كتبت هذا لافيدك . انا دوسرتا الملك العظيم صهرك الذي يحبك ملك ميتاني اخوك اني على احسن حال . واقرأ عليك السلام وعلى آل بيتك وعلى اختك وحرملك وعلى اولادك وعلى عجلاتك وخيلك ووزرائك وبلادك وكل مالك . سلاماً للجميع يكون اطيب سلام

وفي مكاتبات تلّ العمارنة اعلامُ مدن كثيرة نكتفي بذكر ما له بعض العلاقة مع اخبار لبثان وهي : عكّا (كما تُكتب اليوم) وصوري (صور) وصيدونا (صيدا) وبيروتا او بيرونا (بيروت) وجبلة (جبيل) وسمورا او سموري (وهي بلدة تُرى اُخربتها على مسافة كيلومترين من مصبّ نهر الكبير شمالاً)

(١) وقد اخبر المسيو دوسو في رحلة حديثة الى جبال النصيرية انه وجد امرأة كانت متولية رتبة المختار في ضيعتها

واروادا (جزيرة ارواد) . ومن المدن الداخلية المذكورة في هذه الرسائل . دِمَسْقَا
او دِمَسْقِي (١) (دمشق) وقطنا في جوار دمشق (ولعلها قرية قطنة)
ولا ترى في مكاتبات تلّ العارنة ذكرًا لجبل لبنان لاسيا جهاته الداخلية الّا
نادرًا . وقد زعم الكولونل الانكليزي كُنْدَر (Conder) انه وجد فيها اسماء
البترون وجونية وشكّة وشثورة ومكسة في البقاع (٢) بيد ان العلماء الاثبات لم
يوافقوه على رأيه حتى الآن

ومن الاعلام المذكورة اسم مدينة آميا ذهب الاب ديلاثر اليسوعي الى ان
موقعها وراء لبنان او في جهته الشمالية . وقد زعم كُنْدَر ان آميا هذه هي اميون
الحالية في معاملة الكورة . فان صحّ قوله تكون اميون أقدم بلدة نعرفها في
داخل لبنان . والرسالة التي ورد فيها هذا الاسم كاتبها احد العمّال المصريين يطلب
من صاحب آميا ان يسلم اليه عددًا من العبيد مع ابنة الشيخ ويرسل له فضّة
وعجلات وخيلًا ثمّ يختم قوله بما نصّه : « اعلم ان الملك على احسن حال كالشمس
في السماء وان جيشه وعجلاته على ما يرام من الصلاح »

وقد جاء ايضًا مرارًا في هذه الرسائل اسم بلدة تدعى « نخاسه » يظنّ العلامة
نيبور (٣) انها كانت في شمالي شرقي لبنان . أمّا الاب ديلاثر (٤) فيجعلها قريبة من
حمص . ففي اقوال العلماء كما ترى تبأين ظاهر

ولكن ان كانت افادات رسائل تلّ العارنة قليلةً عن احوال لبنان الداخلية
فانها كثيرة التفصيل عن المدن الساحلية خصوصاً جبيل . ولوالها « ريب اذى »
وحده نحو خمسين رسالة في مجموع رسائل تلّ العارنة

واوّل ما يستلفت انظار مطالع هذه الرسائل ان مدن ساحل الشام كانت
فائزة بنصيب من العمارة والتقدّم فكانت التجارة البحرية فيها على قدّم . وكثيرًا
ما ورد ذكر سفن جبيل وبيروت وصيداء التي كانت تمخر عباب البحر المتوسط

(١) راجع مقالتنا في اسماء دمشق (المشرق ٣ : ٦٥٨)

(٢) راجع كتابه The Tell Amarna Tablets, 2^o ed. London, 1894

(٣) راجع C. Niebuhr: Die Amarna-Zeit, p. 26

(٤) راجع كتابه السابق ذكره ص ٤٧

وتنقل محصولات البلاد الى اماكن سُتّى . وما هو اعجب من هذا ان المدن المذكورة كانت قد اتخذت لها بوارج حربية . والدليل على ذلك ما ورد في رسائل « ريب ادى » الى فرعون قال : « ان اهل ارواد عندك الان فاضبط سفنهم التي هي في مصر » . وقال في رسالة اخرى عن سفن بيروت وصيذاء : « أليست هاتان المدينتان تحت ولايتك فولّ عليهما رجلاً يكتنه ان يجهز سفناً لبلاد اموري (١) » . وزاد في رسالة ثالثة ان سفن صيذاء وبيروت بلغت ساحل بلاد اموري وقبضت على احدى مراكبها ثم اردف هذا الخبر بقوله : « وهذه السفن قادمة الآن لتستولي على بعض سُفني »

*

ولا عجب من هذا الخصام الواقع بين مدن مجاورة فان رسائل تلّ العمارنة تنبئنا بان امر بلادنا كان وقتئذٍ قَوْضَى لا تجمع اهلها كلمة . وفي ما يأتي ادلة على ذلك

اما تجارة الفينيقيين البرية فكانت تبلغ الى تخوم مملكة آشور وكانت قوافلهم تعرف حق المعرفة كل الشعوب التي تملك على الاقطار المتوسطة بين بلادهم وبلاد بابل . وقد ورد ذكر هذه الممالك في رسائل تلّ العمارنة . وكان البابليّون والميتانيّون يزاولون صناعة المعادن وخصوصاً صيغة الجواهر الكريمة ثمّ يبيعونها للفينيقيين والفينيقيّون ينقلونها الى الامصار البعيدة . وكان تجار فينيقية يعاملون ايضاً الحثيين في آسية الصغرى ويحولون الى عيلام اي بلاد فارس . ولا غرو فانّه يستدلّ من الكتابات الاشورية التي سبقت عهد رسائل تلّ العمارنة ان العيلاميين غزوا بلاد فينيقية فتكون الصلات بين الأمتين نشأت منذ ذلك الحين

اما الجهات الجنوبية فكان الفينيقيّون اعلم بها من غيرها فكانوا يُبحرون بلا انقطاع الى القطر المصري تارةً ليدفعوا الجزية للفرعون وأخرى لمصلحتهم الخاصة فيبيعون سلعهم ويستبدلونها بذهب مصر الشهير الذي ورد عنه في رسائل تلّ العمارنة « انه صكّراب الارض كثرة » . والمظنون ان المصريين كانوا جلبوا هذا

(١) ذكر هذه البلاد وارد في ما يأتي والآراء متضاربة في تعيينها

الذهب من بلاد النوبة التي غزوها واستولوا على معادنها
ثم ان تاريخ الازمنة التابعة يشهد على ان سليمان الحكيم وفراعنة مصر
في عهده كانوا يستخدمون الفينيقيين لتاجراتهم وعندنا ان الامر كان كذلك في
القرن الخامس عشر والرابع عشر قبل المسيح . وان الفينيقيين لم يجهلوا جنوبي
جزيرة الهند

واما اسفار الفينيقيين الى شمالي غربي البحر المتوسط فلا ذكر لها في مكاتبات
تلّ العبارنة . وانما ورد فيها اسم بلاد « ألأسيا » والمرجح انها توافق بلاد قرمانية
الحالية او احد الاقطار الواقعة في شمالي سورية . ومن اوصافها انها كانت من
البلاد الساحلية . وما لا مرأى فيه ان الفينيقيين كانوا يعرفون من ذلك العهد
جزائر الارخبيل وسواحل آسية الصغرى وكانت قفولهم البرية تتردد الى هذا
القطر للمتاجرة

*

فما تقدّم يلوح للقرء ان فينيقية كانت بلغت في القرن الرابع عشر قبل
المسيح مقاماً عالياً من حيث تجارتها الواسعة وثروتها الوفرة . وكانت المعادن
الثينة كالذهب والفضة تُصاغ في جليل فتجديها ارباحاً كثيرة يدلّ على ذلك
كتاب حرّه واليه ريب ادّى السابق ذكره . وكذلك كانت الزراعة والفلاحة
في حال زده رائع . وكان الزيت والخمر من جملة ما يقدمه الفينيقيون للملك مصر
لاداء الجزية . ولعل الخمر اللبناني اشتهر من ذلك الحين قبل ما يذكره هوشع النبي في
سفر نبوته ٨: ١٤ . وقد ذكرت ايضاً رسائلنا « الاشجار الكبيرة » التي وهبها اذيرو
احد امراء الشام ولما كان هذا يملك على قسم من شمالي لبنان فعلى ظننا ان
الاشجار الكبيرة المذكورة انما المراد بها شجر الارز . وهذا يصحّ ايضاً عن جبال
بيروت وجبل التي منها قطعت اخشاب هيكل اورشليم في زمن حيرام وسليمان .
ومما يدل على عمران بلادنا في ذلك العهد ذكر العجلات الحربية . لان وجود
العجلات ينبي بوجود طرق موثورة وفي توثير الطرق ما لا يخفى من الرقي لان ذلك
لا يتخلو من الصعوبة في جبال كجبال لبنان (١)

(١) راجع ما كتبناه في هذا الصدد في اثناء كلامنا عن السكك الرومانية في لبنان

وقد جاء في رسالة لاحد ولاية بيروت اسمه أمونيرا ما تعريبه : « لما ورد امر سيدي وشسي عليّ انا عبده وتراب قدميه . قائلاً لي اذهب الى مساعدة انصار سيدك الملك للبحال اطعت امره وهاءنذا لاحق باصحاب سيدي الملك مع خيلي وعجلاتي وكل مالي » . ولهذا الكاتب رسالة اخرى يذكر فيها عجلاته الحريّة وما بينه وبين ريب ادّي من الصلات الوديّة ١٦

هذا ولا تكاد رسائل ريب ادّي العديدة تخلو من ذكر الحرب التي اصلاها عليه « عبد الثرى وابنه ازيرو صاحباً اموريّ الشديدان » ويؤخذ من سياق كلامه ان سلطته كانت تمتد على ساحل جبيل الى طرابلس او مصب نهر الكبير شمالاً والى نهر الكلب جنوباً مع ما يجاور هذا الساحل من لبنان . امّا والي بيروت أمونيرا فكان نهر الكلب يحده ولايته شمالاً

ومن تصفح رسائل ريب ادّي ادرك انه كان قليل البخت لم تسعده الايام . ومن المبكيات المضحكات ما كتبه اليه احد عمال مصر بسبب قطع من الحخير كان الفرعون عهد اليه بجراسته بقرب مصب نهر الكبير في بلدة سميرة : « . . . عم الطاعون بلدة سمري فامات الرجال واهلك الحخير . . . ويلا لك من كان يناظر الحخير ان انت لم تقيم بها . . . تقول ان الحخير وحرّاسها قد أصبوا بالطاعون وان مواشي سيدي الملك قد هلكت فاذن يُقتضى عليك ان تطلب غيرها للملك . . . »

فهذه الرسالة تفيدنا بان فراعة مصر كانوا اتخذوا لهم وسطاء من جلدتهم يناظرون ولاية المدن وامراء البلاد ويوقفون الملك على احوالهم وكان هؤلاء المناظرون يبلغون مروؤسيهم اوامر الفرعون . وربما لاموهم عن اعمالهم كما رأيت او دافعوا عنهم في وقت الحاجة او اصلحوا ما حدث من الخصام بين اصحاب مدينة وجاراتها

ودونك كتاباً آخر من ريب ادّي لبعض المناظرين المصريين اسمه امانياً يعرض له فيه تشكياته من اخصامه :

الى امانياً ابني الصنير من ولد ريب ادّي . ابني انطرح على اقدام ابني الصنير . ثم أسأله

(١) الا ان هذه العلائق الوديّة لم تدوم زمناً طويلاً كما ستري وقد مرّ ان سفن بيروت استولت على سفن جبيل

ثانية: ألا تستطيع ان تنفذني من ايدي عبد الشرى... لا يبالي بامري احد من ولاة المدن ولعلمهم جميعاً متفقون معه ولذلك قد استفحل امره. اما انت فاجبتني: أرسل في صحبتي ساعياً الى بلاط الملك فان رضي الملك اعدته اليك مع الجنود ليدافعوا عن حياتك. فكان جوابي: اني لا اتأخر عن ارسال الساعي ولكن ليبق ذلك سرّاً لا يعلم به عبد الشرى لان ينهامون (وهو ناظر آخر كان الملك مصر) قد ارتقى. فأجبت: أرسل سفينة الى ياريسنشا فيأتيك منه فضة وحلّ... ويلاه من يخلصني فاذالم تسرع الجنود الى نجاتي ساترك المدينة وانجو بنفسي»

وفي رسائل اخرى يطلب حيناً اربعة رجال وعشرين عجلة وحيناً اربعين جندياً (١) وتارةً مئتين من المشاة وفئة من الخيالة. الا ان المناظر المصري لم يجب الى طلبه ريب ادّى ولم يُبالِ بامرهِ وعليه فلم يزل عدوه يغزو ايلاته وتتقوى شوكتهُ حتّى ضبط كل النواحي المجاورة لبلاط جبيل ولم يترك لصاحبها غير مدينته. والعدو المذكور هو ازيرو وكان مالكاً على البلاد الواقعة شمالي دمشق وعلى قسم من وادي العاصي اي البلاد المتوسطة بين بعلبك وبحيرة حمص فطمع في املاك جاره صاحب جبيل واخذ منه ما اخذ في بقعة طرابلس وجبل عكّار ولبنان ثمّ تفاقم الامر حتّى بلغ مسامع ملك مصر. وفي رسائل تل العمارنة ما يُشعر بغضب الملك على ازيرو لتعديهِ حدود ولايته. الا ان ازيرو المذكور كتب الى الفرعون ليُرَكّي نفسه ويلقي تبعة الامر على صاحب جبيل. وكتابه غريب في بابه احببنا ان نثبته هنا:

« الى الملك العظيم سيدي وإلهي وشسبي من ازيرو عبده. اني اقبل الارض امامك سبع مرّات... اعلم سيدي اني انا عبدك متعفر في التراب امامك ملكي ومولاي. ثم اني انجاس واقول لعزتك لا تُع سمعك الى الاعداء الذين رموني عندك بالزور والبهتان فاني عبدك الخاضع الى الابد »

لكن الفرعون لم يرض بقول ازيرو واستدعاه الى مجلسه ليدافع امام الملك عن نفسه. والظاهر انه سُجن في مصر ومات في حبسه. اما ريب ادّى فلا نعلم عن وفاته شيئاً. وغاية ما يُستفاد عنه من رسائل تل العمارنة انه عمّر زمناً طويلاً وانه تولى على جبيل في أيام امينوفيس الثالث وابشه

(١) وفي الاصل يطلب الكاتب ان يكون عشرون منهم مصريين وعشرون من بلاد « ميلوخا » وميلوخا هذه مقاطعة واقعة عند تخوم مصر والشام

امينوفيس الرابع . وفي رسائله دلائل على انه كان يطلب خير رعيته وانه كان متعبدا لعشائروت « بعله جبيل (١) » يذكر اسمها في مقدمة أكثر رسائله . ويلاحظ ايضا من كتاباته هذه ان أسرته كانت مالكة على جبيل وضواحيها منذ قديم الزمن لانه يشكو الى فرعون مصر امره ويقابل حاله السيئة بحسن حال اجداده فيقول : « ان الملك كان سابقا يرسل الى اجدادي دراهم وغير ذلك مما كانوا يحتاجون اليه وكان يسير لهم جنودا اما انا فارسلت الى سيدي الملك ساعيا ليساعدني ببعثة من الجند فلم يرسل اليّ احدا »

فما سبق يتضح لقراءتنا ما تتضمنه مكاتبات تل العارنة من اخبار لبنان وسواحل الشام . لكن اهميتها الكبرى مبنية على قدمها لانها كتبت قبل موسى الكليم وقبل سفر التوراة وفيها عدة تفاصيل تثبت صحة اقوال الكتاب . ومنها ايضا يتبين ما في درس اللغتين المصرية والبابلية من الجدوى للعلوم التاريخية . وفي ما اكتشفه المستشرقون منها حتى الآن ضمن عن فوائد اكتشافات المستقبل ان شاء الله (٢)

٢٠ كنائس لبنان القديمة

نحال قراءنا قد اشتاقوا الى مطالعة وصف الكنائس القديمة في لبنان بعد ما كررنا ذكرها في فصولنا السابقة . وليس مرادنا ان نستوفي الكلام في هذا البحث لأننا لسوء الحظ لم نتمكن من زيارة كل كنائس لبنان القديمة . ثم ان كثيرا من هذه البيع قد خربت في مدة هذه السنين الاخيرة او ذهب عنها رونقها القديم وذلك لغيرة محمودة في اهل لبنان حملتهم على تجديد بناء كنائسهم او ترميمها لولا انهم حرمونا من بعض الآثار الجليلة الناطقة عن احوال سلفائهم الافاضل وعليه فقد

(١) راجع فصلنا السابق عن الديانة الفينيقية في لبنان
(٢) ان اردت كلاما مطولا عن مراسلات تل العارنة فراجع مقالات مسهمة كتبها الاب ديلتر . ومن حملتها نبذة افرنسية دعاها : « اكتشاف تل العارنة » . ثم اردفها بمقالة اخرى وسماها « بكتابات تل العارنة » . وللمستشرق الشهير هالفى (J. Halévy) مقالات في الموضوع نفسه في المجلة الاسيوية الفرنسية (J. A. 8^e série, XVI-XX)

اسرعنا الى كتابة هذه المقالة قبل ان تمتد يدُ الخراب الى الكنائس الاخرى
العهدية . وغايتنا من هذه البذرة ان نبين للقرّاء اجمالاً ما اتّصفت به هذه البنايات
المقدّسة وما هي خواصها التي تفرّدت بها في لبنان

لا مشاحة في ان لبنان يتفاخر على غيره من الاصقاع بوفرة كنائسه . فانك
لا تكاد تدخل قرية منه بل مزرعة من مزارعه دون ان تلقى لها كنيسة ولعلّك
تجد في القرية الواحدة اللهم اذا كانت متوسطة في الكبر كنيسةين واكثر

واغلب هذه الكنائس لا يرتقي عهدها الى ما فوق المئتي سنة تراها في هندستها
اشبه بيوت القرى لا تختلف عنها الا بسعتها . فانها على هيئة مكعب مستطيل
مبنية بالحجارة والملاط لها على جوانبها ابواب ونوافذ . وفوقها سطح ترى على
احدى حافاته قبة للجرس لا تظهر بينه وبين الكنيسة علاقة هندسية . وقد
استبدل السطح منذ عهد قريب بسقف مغطى بالآجر الاحمر فزادت بذلك
الكنائس بعداً عن هيئة المعابد الدينية . وان سألت هل لهذه الابنية طرزٌ هندسي
اجبنا أننا نجعل ذلك ولعلّ بُنائتها انفسهم لم يدروا اي طريقة هندسية جروا عليها
في هذه العمارات

لكن الامر لم يكن كذلك في سالف الاعصار . ولو بحثنا لوجدنا لاهل لبنان
في القرون الغابرة طريقة هندسية في بناء كنائسهم كنّا نودّ لو يحییها المهندسون
المحدثون في المعابد التي يشعرون بتشبيدها او يستجدّون بناءها

فترى اين نجد امثلة لهذه الابنية العتيقة ؟ افي جنوبي لبنان او مقاطعة المثنى ؟
كلاً لانّ الموارنة لم يدخلوا هذه الاصقاع منذ زمن مديد . وتزيد على ذلك ان
دخولهم في نفس كسروان ليس بتقديم كما بينّا الامر سابقاً في المشرق في نبذتنا عن
فراغريفون (المشرق ١ : ٥٦) ثمّ في ردنا على مقالة « لاحد العلماء » اُدرجت في
الروضة . وعندنا انّ الموارنة لم يتوطّنوا كسروان قبل القرن السادس عشر وهو قول
يمكن تأييده بأدلة عديدة لعلنا نذكرها في مطاوي مباحثنا هذه عن آثار لبنان .
وحسبنا اليوم ان نقول انّه لا يوجد بين اديرة كسروان العديدة ديرٌ واحد يسبق
عهده القرن السابع عشر (١) وكذلك لم نطلع في تواريخ الموارنة على ذكر رجل من

(١) راجع كتاب الخوري منصور طنوس الخوري في المقاطعة الكسروانية ص ٢٨ .

مشاهيرهم اصله من كسروان قبل القرن السادس عشر . واذا جاء ذكر الموارنة في تأليف الصليبيين فلا نراهم يذكرونهم إلا في البلاد الواقعة بين طرابلس وجبيل اما جنوبي نهر ابراهيم فلا نرى لهم فيه اثرًا . وكذا قل عن اديرتهم القديمة وكنائسهم فانها كلها في شمالي نهر ابراهيم كما ان اصل قدماء بطاركتهم واساقفتهم من البلاد نفسها

فيتضح من هذه الحقيقة امران : الاول ان لآثار كسروان اليونانية الرومانية شأنًا اعظم من آثار المارونية . والثاني ان من يطلب امثلة تطلعه على هندسة الموارنة القديمة لكنائسهم الاجدر به ان يطلبها خارجاً عن كسروان وفي واقع الحال اذا اجتازنا نهر ابراهيم وتوغلنا في بلاد جبيل وجدنا عددًا وافراً من هذه الكنائس وهذا العدد يزيد على قدر مسيرنا الى الشمال . ولا غرو لان هذه الاصقاع هي مهد الامة المارونية وموطنها الاول درجت منه فامتدت في انحاء لبنان لجبهات سورانية فأقطار المشرق حتى بلغ ابناؤها في عهدنا بلاد الغرب ودخلوا العالم الجديد . فان وجد شي من آثار ابنيته الدينية القديمة فهي عند مركزها الاول وفي محل عزها

*

قد اجمع علماء العاديات ان هندسة الكنائس المسيحية منذ بدء النصرانية خواص مشتركة تشمل كل البلاد إن غربية وإن شرقية مع ما يرى فيها من الاختلافات الطارئة عليها بسبب تقلب الاحوال ودواعي الظروف . ومن هذه الخواص تقسيم الكنائس المسيحية سالفًا الى ثلاثة اقسام الحنية او المحراب (abside) ثم السوق (nef) ثم الرواق او الدهليز (portique) . وبيع الموارنة القديمة لا تشد في ذلك عن غيرها من معابد المسيحيين العهدة

فاذا اعتبرنا اولًا هيئة الحنية وجدناها شبيهة بالحنايا اليونانية اي انها محوطة في الداخل نائمة في الخارج على شكل مستدير كما ترى في كنائس اهدن وكفرحي ومار نهرا وسيدة سمر جبيل ومار ضومط في تولا ومار الياس (كنيسة واقعة بين

تولا وعبدله (ومسرح ومجديدات واده (في بلاد البترون) واده (في بلاد جبيل)
وفي جوار اده هذه عدة معابد وبيع بُيت على هذا المثال
هذا ولم ننظم داعل في سلك القرى المذكورة مع ان كنيسة المتهدمة ذات
حنية ظاهرة الى عهدنا . لاننا نظن ان هذه الكنيسة كانت في الاصل هيكلًا
للإصنام ثم حولها الاهلون الى معبد مسيحي على اسم القديس تادروس الشهيد .
وبين ردمها جدران ماثلة حسنة البناء فيها آثار خطوط كوفية مطبوسة . وترى
مثل هذه الخطوط في حلتا في كنيسة السيدة القديمة . وكنيسة داعل المذكورة
يزورها المتأولة ويكرمونها ولهم عند اطلالها سندية كبرى لا يسها احد
ولو أردنا ان نسردها كل الكنائس القديمة المارونية التي تجعل لها حنية
مستديرة اطلال بنا الكلام . ولعل المشكاة التي يجعلها الموارنة وراء المذبح
الكبير مثال صغير لهذه الحنايا القديمة اتخذوها كذكر لها . ولا ريب ان الموارنة
اهملوا بناء الحنايا في كنائسهم يوم اخذوا يتقربون في مناسكهم وطقوسهم من
الكنيسة اللاتينية (١) ويقتدون بها في شؤون كثيرة . كما لحظ ذلك مرارًا
مؤرخو الموارنة انفسهم (٢)

هذا وقد اسفنا على ان البناء الذي سعى في ترميم بعض الكنائس القديمة هدموا
الحنايا السابقة او غيروا صورتها ما امكن . فترى مثلاً الحنايا الثلاث التي كانت في
كنيسة مار دانيال في حدث الجبة قد باد اثرها تماماً
ومن خواص البيع المارونية القديمة قببها . وبما استحسنناه من هذا القليل قبة
كنيسة مار الياس بين عبدله وتولا وهي تشبه قبة كنيسة جليل . بيد ان هذه
الكنيسة مهلة يتنازع ملكها اهل القريتين
والكثير من الكنائس دهليز او رواق مقبب الشكل كما ترى في كنيسة
كفرحي وفي كنيسة مجديدات اعني مارنيقولا ومار تادروس وفي كنائس مار
يوحنا المعمدان في اده (جبيل) ورشكيدا ومسرح

(١) ومن ذلك الهد أيضاً ترك الموارنة بعض العادات الجارية عند اليونان وباقي الطوائف
الشرقية . ولعلهم تخيلوا ان بناء الحنايا من الابنية المخصوصة بالروم
(٢) راجع مقدمة كتاب الدويحي المعنون بمنارة الاقداس (ص ٧)

هذه السمات الثلاث اي الحنية والقبة والرواق هي التي تعم كنائس الموارنة قديماً اللهم الا الدهليز فاننا لم نجدُه في قسم منها

*

هلمْ نعتبر الان ما اختصت به بعض هذه الكنائس دون غيرها . فمن ذلك ان بعضها كان ذا ثلاثة اسواق ككيسة جبيل وان اعترض علينا احد بان هذه الكنيسة من بناء الصليبيين فلا علاقة لها مع كنائس الموارنة اُحُلُّناه الى مثل كنائس أخرى بُنيت في وسط المقاطعات المارونية ككيسة معاد ورشكيدا ومار جرجس في اهدن

فكنيسة معاد من اجمل كنائس لبنان بناءً وهندسةً لولا ان مُرتميتها لم يعرفوا قدر الآثار القديمة فانهم لم يحسنوا إصلاحها وطمسوا كثيراً من محاسنها وازالوا حنيّتها ومحتوا نقوشها البديعة وكان لهذه الكنيسة ثلاثة اسواق غير انها اقصر من كنيسة جبيل ودونها في العاوة . ولعمدتها رؤوس اكلّة من الطرزين الهندسيّين الاقدمين اي الطرز الايوني (ionien) والدوري (dorique) . اصلها من بقايا هيكلٍ قديم مع آثار أخرى راجع ما كتبناه عن معاد (ص ٧١) . وفي الكنيسة المذكورة قبور ترتقي الى متوسّط القرون . وبازاء معاد قرية تدعى صفار لها كنيسة ذات سوقين في اعلاهما حنيّتان

اما كنيسة رشكيدا فتستحق ذكرًا خصوصياً لقلة شهرتها . والحق يُقال ان الدهش اخذ منّا مأخذه لما صادفنا هذا المعبّد الجميل في مزرعة حقيرة مجهولة يسكنها المتأولة على مسافة عشر دقائق من عبرين

فلكنيسة رشكيدا رواقٌ واسع كانت سعته في سالف العهد اعظم منها اليوم . والمكان باسم القديس جاورجيوس الشهيد له ثلاثة اسواق مثل كنيسة معاد والسوق الاوسط ينتهي بحنيّة ورائها قبة كبيرة او بالاحرى ثلاث حنايا يندesh لمرآها الناظر . فطلبنا لهذه الصورة الهندسيّة الغريبة شرحاً يكشف لنا سرّها المكنون فقلب ظننا ان الكنيسة كانت سابقاً اكبر منها اليوم فرمها البناء واقتصروا منها على هذا القسم الباقي . ولاثبات هذا الظن ادلّة تتبادر الى ذهن

زائرها ولولا خوف الاطالة لعرضناها هنا . ونكتفي اليوم بأننا عرفنا القراء بوجود هذه التحفة الهندسيّة وسنلجأ إليها في مطاوي الكلام غير مرة (١)
ومن الكنائس القديمة الجديدة بالاعتبار كنيسة حدتون كان بقي منها بعض الاخربة قبل سنين قليلة . فلما بُنيت البيعة الجديدة تضععت تلك البقايا دون ان يمكنّا أن نذكر زيارتها . ولربّان في وصفها فقرة موجزة اثبتتها في بعثته الفينيقيّة (ص ٢٥٥) فزاد بطلانها أسفنا على فقد هذا الاثر البهيج . وكان في هذه الكنيسة عمودان تزينهما الكتابات القديمة التي رسمها ربّان رسماً لا يكاد يُستخلص منه معنى . وكلّ هذه الآثار من عمد وجدران قد طُست وقت البناء الجديدة

وقد تفضّل حضرة الحوري نعمة الله نصّار فارسل إلينا كتاباً ضمّنه عدّة افادات عن هذه الكنيسة الجميلة فقال في وصفها « انها كانت ذات أسواق وفيها سبعة ابواب ثلاثة لجهة الغرب ضمن دهليز مُتقن وبابٌ لجهة الجنوب وله ايضاً دهليز خاصّ وبابٌ للشمال ضمن دهليز طبيعي منقود في الصخر وبابان على جانبي الحنية وهي كانت غاية في الحسن تقوم على ذاتها ووراءها المَوْفَه (السكرستيا) مُفتح له نافذةٌ جنوبيّة . وكان لهذه الكنيسة اربع قناطر رفيعة اثنتان للجانب الايمن واثنتان للأيسر يتعلّق طرف الواحدة بجانب الحنية وطرف الاخرى بالحائط الغربي »

فهذه التفاصيل تثبتنا بأن كنيسة حدتون لم تُشبه غيرها من الكنائس السابق ذكرها وهي كلها مقببة ذات باب واحد ليس الا . اما العواميد التي كانت في داخلها فارجح ان اصلها من بنائية قديمة كهيكول وثني او غير ذلك
وكان حضرة الاب نعمة الله سألنا في كتاباته مراراً ان ندلّه على اسم اي قديس شيدت هذه الكنيسة لانه تحفّي في السؤال عن الامر لدى العامّة وبجث عن تقليد الشيوخ فلم يفر بالمرام

(١) زعم ربّان في بعثته فينيقية ان في جدار هذه الكنيسة كتابة قديمة استدلّ عليها . وعندنا ان لا وجود لهذا الاثر لانّ الالهيين يجهلونهُ مطلقاً

قلنا اننا نحن ايضاً بحثنا عن هذا في ما تيسر لنا من التأليف فلم نخط بالمقصود . ولعلّ ذلك يمكن استخلاصه من كتابة يونانية دلّنا عليها اهل حدتون . وهذه الكتابة كانت مكتوبة على طوق من النحاس كانت تُنَاط به بُرِيّاً او ما شاكلها . ومضمون الكتابة ما تعريبه : « في عهد حنا كاهن مار الياس » يريد كنيسة مار الياس . فيتّرجع من هذا ان الكنيسة المذكورة كانت على اسم القديس اليّا النبي لان حدتون كنيسة أخرى قديمة مخصصة بالعدراء الطاهرة وهي باقية الى اليوم

*

هذا وان سياق كلامنا عن رشكيدا ومعاد وحدتون قد بلغ بنا الى ان نبسط المقال عن النقوش التي كانت الكنائس المارونية مزينة بها . ولا مراء ان تصاوير كنيسة معاد كانت بديعة جداً كما ينبغي على ذلك ما بقي منها على جدرانها وقد ذهب اكثرها بترميم محراب الكنيسة . وبما افادني شيوخ القرية انهم لو ازالوا الردم الذي هناك لوجدوا امثالا تصويرية حسنة من جملتها صورة مار يوحنا مارون وفي تاريخ الموارنة للدويهي ما يؤيد زعمهم قال (في حاشية الصفحة ٣٦٨) : « وفي جنايبهما (يريد كنيسة معاد ومجديدات) مكتوب « ان الله صباووت » ومصوّر على حيطانهما مار مارون ومار قبريان بالتيجان على رؤوسهما والدروع على اكتافهما » فيا ليت اصحاب الامر يتولّون هذا العمل وينتزعون التصاوير من تحت الردم ولنا الامل انهم يلقون مع التصاوير كتابات قديمة بالخط الاسطرنجيلي تفيدهم علماً عن اخبار قديسي الكنيسة المارونية . اما تصاوير كنيسة رشكيدا فقد باد اكثرها الا ما يراه الناظر في جهة المحراب وهي رؤوس متقنة التصوير تدلّ على ما كان ثمت من النقوش الجميلة

ومن الكنائس المزخرفة بالتصاوير كنيسةستان على اسم مار جرجس في اهدن وعبدله وكنيسة مار تادروس في مجديدات قد صبرت على عوارض الزمان ولو اراد السكّان لآمكنهم ان يجددوها بعد ازالة الملاط الذي يجلب قسماً منها مع صيانتها عن الرطوبة . وبما يُرى في جدران مار تادروس صور الكروبيم يحملون بين ايديهم تسبحة القديس (Trisagion) مكتوبة بحروف اسطرنجيلية ولبقية

تصاوير هذه الكنيسة كتابات سريانية تُعرّف موضوعها واسماء الاشخاص المصورين فيها . فلا يخلو البحث عنها من الفائدة

وكننت ارجب كثيراً في زيارة كنيسة مار سركيس المجاورة لشبطين لاني كنتُ قرأتُ في بعثة فينيقية لرينان (ص ٢٥١) ان هذه البعثة مجتمعة بتصاوير بديعة ظنّ انها ترتقي الى القرن السابع او الثامن تمثّل على زعم السيد المسيح ورسله الابرار وأردف أنّ وراء الهيكل قد بقي منها صور رؤوس جميلة . فزرتُ الكنيسة الاّ اني لم اجد لهذه التصاوير اثرًا البتّة

وفي كفرشلمان معبد صغير غريب الشكل نُقر في الصخر يدعى سيدة نايا (١) وقد تبينّ لنا من فحصها انها كانت سابقاً مدفناً ثمّ «جعلت معبداً» (٢) . استدللنا على ذلك بصغر المعبد وهيئته وارتفاعه فوق الحضيض بعدّة اذرع . وترى في سقف هذا المعبد فوق مذبحه وعلى جناحي الهيكل نقوش وتصاوير اسودّ قسم منها بسناج السُرُج وهبوة البخور الذي يوقد امام صورة العذراء هنالك . وفي الزاوية القريبة من الباب صليب في تربيه كتابه يونانية مؤداها : « قد انتصر يسوع المسيح » . وعلى شمال الصليب صورة رام بالقوس . وعلى يمينه وحش غريب لعلمهم ارادوا به الشيطان الرجيم فيكون المصور اشار بذلك الى انتصار المسيح على قوأت الجحيم بصلبيه

وقد ذكر الدويهي في تاريخه كنائس أخر ترينها التصاوير القديمة لم يبقَ اليوم منها شيء . وما يزيدنا اسفاً على فقدتها ان نقوش بعضها كانت مؤرخة كبيعة مارنهر في اده من بلاد البتّون فإنّ تاريخها كان يرتقي الى سنة ١٥٧٥ لليونان اي ١٢٦٣ للمسيح (راجع الدويهي ص ١١٢)

وان سأل سائل من اي طرز كانت النقوش والتصاوير التي سبق ذكرها اجبنا أنّها كانت كلها من الشكل البزنطي فإنّ من يقابل بينها وبين النقوش

(١) لعلّ هذه اللفظة يونانية الاصل « *véa* » اي جديدة فيكون المعنى « السيدة الجديدة »

(٢) وبقر السراية المنيّة حديثاً في قرية اميون كنيسة مثل كنيسة كفرشلمان على اسم القديسة مارينا كانت ايضاً مدفناً ثمّ حوّلت الى معبد

البوزنطية من حيث طريقة التصوير والالوان وهيئات الاشخاص لا يرى بين الطرزين اختلافاً يُذكر فيحكم بلا شك ان مصوري هذه التصوير اخذوا الفن عن البوزنطيين كما تلمح الى ذلك الكتابة اليونانية التي في معبد كفرشليان . اما اصل هؤلاء المصورين فنظن انهم كانوا من الشام كفى دليلاً على ذلك الخطوط السريانية المحدقة بالصور

وقد بقيت عادة الموارنة على نقش كنائسهم في لبنان زمناً طويلاً . اخبر الدويهي (ص ١٨١) في تاريخ سنة ١٥٨٧ ان الحوري انطون من بيت الجميل بنى كنيسة مار عبدا في قرية بكفياً وصورها على يد الشدياق الياس الحصري وانفق عليها الف قبرسي ما عدا اكلاف اهل بكفياً وغيرهم من المحسنين . ولا بدع ان هذه التصوير كانت محكمة الصنع لعظم المبلغ الذي صرفه باني الكنيسة

كذلك زين الحبر الجليل اسطفان الدويهي كنيسة قنوبين بالتصوير والنقوش . بقيت منها الى اليوم صورة العذراء ام الله ترى عند اقدامها بطاركة الموارنة جاثين امامها . بيد ان هذا التصوير ليس بمتمقن لكثرة يالوح من خلاله ان صاحبه يحاول تقليد المصورين الفرنج

ويلحق بهذا الباب نقوش أخرى كان الموارنة يحبون ان يزینوا بها كنائسهم اعني الفسيفساء . فهذه العادة وان كانت شائعة في بلاد كثيرة كانت في بلاد الشام أشيع وأعمّ حسبنا ذكر الفسيفساء المكتشفة قبل ١٥ سنة في مادبا في متصرفية الكرك وقطر الموابيين القديم قد نُقش فيها رسم بلاد فلسطين

وكذلك كان صحن كنائس كثيرة للموارنة مجسلاً بالفسيفساء وقد وقفت على صحة هذا الامر بنفسي في كنيسة القديس جاورجيوس في مسرح فان آثار هذه النقوش باقية حتى الان . وكان ايضاً لكنيسة كور التي هدمت منذ قريب ترصيع من الفسيفساء . افادنا الامر حضرة الابوين المرحوم الحوري بطرس ارسانيوس رئيس مدرسة مار يوحنا مارون والحوري بولس طعنه ومولد كليهما في هذه القرية امّا كنيسة حدتون فقد افادنا عن فسيفسائها حضرة الاب نعمة الله بما يلي قال : وكانت الكنيسة مبلطة بصغار الحجارة المنقوشة وكان اجمل هذه النقوش

في السكستيا ملوثة بالوان عديدة كالاحمر والاخضر والازرق والاصفر
والسماجوني الخ والحجر فيها لا يكبر قطعاً عن الستيمتر المكعب . ويستدل على
حسن رسومها واحكام صنعها من ذات تركيب الحصى . اما ارض الكنيسة
فكانت مبلطة بهذه الفسيفساء الا انها اقل اتقاناً . منها ايضاً دهليز الخارج فان
حجره يكبر ستيمترين»

هذا بعض ما تسقى لنا جمعة عن فسيفساء الكنائس في لبنان ولا شك ان
بيعاً أخرى قديمة كانت مزينة بها

*

ومما قد اذهلنا في قرى عديدة من لبنان اننا وجدنا في جانب كنائسها كنيسة
أخرى لاصقة بها او قريبة منها بحيث تضحي الكنيسة كنيسة واحدة . مثال ذلك
كنيسة مار يوحنا وكنيسة مار تادروس في اده (جبل) . ومثلها كنيسة شامات
وتولا الخ

ولكثير من كنائس لبنان في داخلها صهاريج (١) ونوافذ ضيقة مستطيلة في
جدرانها بقرب مدخلها كما في تولا واده (البترون) . وترى في صغار في دار الخواجا
انطلون جرجس التي كانت كنيسة قديمة صهريجاً في داخلها ومرامي في جدرانها
ويستدل بهذه الآثار الهندسية على ان الاهلين كانوا في سالف الاعصار يتحصنون
في الكنائس فتصير لهم الكنيسة شبه قلعة لكثافة جدرانها ومثانة بنائها فيشربون
من مائها ويرمون القذائف من نوافذها

وفي هذه الكنائس أثر آخر يرتقي الى القرون المتوسطة وهو انهم كانوا
يجعلون في جدرانها قطعاً من العواميد ظناً منهم ان البنين يزيد بها شدة . ونرى

(١) وفي أماكن عديدة نرى الصهاريج خارج الكنيسة عند الدهليز مثلاً . ويحتمل ان
تكون حُفرت ليُقتَسَل بها قبل مباشرة الاسرار . قال (الدويهي في منارة الاقداس ص ٥٧) :
«مذ انتشرت النصرانية اخذ ابناء الايمان يبنون الكنائس ويجرون امامها منابع الماء او يحفرون
الابار ليستحم بها الداخولون . . . فقد رُسم على الكهنة في بدء النافور وآخره ان يغسلوا اناملهم
طلباً للطهارة وتوقيراً للاسرار»

كنائس لبنان القديمة

٩١

مثل هذه العادة جارية عند العرب في ابنتهم القديمة لنا شواهد على ذلك في بعض انحاء قلعة جبيل . وتغلّبت عليهم هذه العادة حتى انهم كانوا اذا لم يجدوا عموداً يدخلونه في بنائهم ينحتون دائرة ناتئة في حجر كبير يثلون بذلك صورة رأس عمود . كما ترى في قلعة حلب وفي الباب الشرقي في دمشق الخ (١) . وقد جرى مهندسو الكنائس المارونية على هذه العادة فانّ لكنيسة مار ضومط في تولّا ولار جرجس في عبدله ولكنيسة السيدة في سمر جبيل ولكنيسة رشكيدا مثل هذه العواميد المتداخلة في بنائها

*

ليست قبة الجرس في الكنائس الشرقية كما تُرى في الغرب . فانّ الغربيين جعلوا هذه القبة كقسم معتبر من ابنتهم الدينية قتراها مُدججةً بالبنان متصلةً به اتصالاً غير منفصم بخلاف الشرقيين فانّ قبة الجرس عندهم من العوارض ليس بينها وبين كنائسهم رباط هندسي ولو خلت هذه الكنائس منها لبقيت هندستها الاصلية بحسبها وهندامها . والبيع المارونية القديمة لا تشدّ عن هذه القاعدة العمومية . فانّ من يحدّق بنظره اليها يَرَ لوقتِه انّ قبة الجرس من الملحقات التي زيدت على هذه الكنائس بعد بنائها . وادراك علة ذلك سهل وهو انّ الاجراس المعدنية حديثة العهد بين الموارنة لم يألّفوا قرعها الا بعد مجيء الفرنج الى بلاد الشام (٢) . قال العلامة الدويهي في تاريخ طائفتِه (ص ١٠٣) : « وفي سنة ١١١٢ اخذ الموارنة في الجبل يدقون النواقيس من النحاس بدل الخشب للصلاة »

ومن خواص لبنان كثرة كهوفه واغواره التي تُرى في اكنافه . وقد اتخذ اهل لبنان الاولون هذه المغاور كمساكن لهم احتلّوها فعاشوا فيها في قديم الزمن (٣) ثمّ ابنتى اللبنانيون لهم القرى وشادوا البيوت فبقيت هذه الكهوف خالية خاوية حتى

(١) راجع بعثة فينيقية لرينان ص ١٥٩ و ٥٤٧ إلا ان هذا الكاتب قد اساء بنسبته ذلك الى الصليبيين

(٢) راجع المشرق (١: ٥٨)

(٣) راجع مقالة الاب زمرّون في الطور الحجري في فينيقية (المشرق ١: ٩٧)

انتشرت في هذه البلاد انوار النصرانية فلجأ إليها قوم من النساك انقطعوا فيها الى العبادة والتأله وعاشوا ثمث عيشة اشبه بعيشة الملائكة وجعلوا بتادي الأيام غير أنهم كنائس كان يقضي فيها السكّان المجاورون لهم فرائضهم الدينية . فمن ذلك الكهوف الواقعة في وادي قزحياً وفي سيده القطين التي تعرف اليوم باسم سيده البزاز . وهي لا تبعد عن قرية صغار في وادٍ مُقفر فأن هناك ديراً صغيراً ذا طبقات متعدّدة ملتصقة كلها في الجبل والدير سورٌ حصين فيه منافذ ضيقة كان النساك القدما يرصدون منها حركات العدو فيطردونه اذا ما فاجأهم . ولمعبد هذا الدير حيتان عاديّتان وكان العبّاد اذا جعلوا سكناهم في هذه الأغوار يتخذون اكبرها لمناسكهم فيجعلونها بيعاً كسيده قنوين وسيده القطين وقزحيا الخ
ونما يلحق بهذه الكنائس معبد كفر شليان المنقور في الصخر وقد مرّ ذكره .
ومثله معبد مار سركيس للاباء الكرملين في بشراي . وكذا كنيسة مار بطرس في العاقورة فانها كلها منحوتة في الصخر (١) ولعلها كانت مدفناً للموتى في الايام الغابرة (٢)

*

وقد حان لنا الان بعدما ذكرناه اجمالاً عن كنائس لبنان القديمة من حيث هندستها العموميّة وهيئتها الخارجيّة ان نبحت عن داخلها فتقف على صورته واحواله . ولنا في كتاب منارة الاقداس للجبّار المفضال والكاتب البارع البطريرك اسطفان الدويهي دليل يرشدنا الى المقصود قال (راجع المارة ١: ١٠٣) : « قسم الآباء القديسون الهياكل الكبيرة الى ثلاثة اقسام اي قدس الاقداس وبيت القدس والدار وفقاً لعدد الاقانيم الثلاثة كما يتبين ذلك من كنائسنا القديمة مثل كنيسة القديس ماما في اهدن التي بُنيت في سنة ٧٤٩ وكنيسة القديس سابا في بشراي سنة ١١١٢ وكنيسة القديس دوميّط في تولا من بلاد البترون وكنيسة القديس شربيل في قرية معاد من بلاد جبيل وغيرها » . فلهذه الافادات شأن خطير لاسيما ان المؤلّف ذكر تاريخ بعض

(١) راجع الدويهي (ص ٢١٩)

(٢) راجع بمّة فينيقية (ص ٢٠١)

هذه المعابد . ويأخذوا لوزاد في تعداد الكنائس القديمة التي لم يكُ بعدُ استولى عليها الحُرَاب في عهد الدويهي

ولتقدم على تفاصيل كل قسم من اقسام الكنيسة . فالحنية كما سبق القول كانت مجتمعة بانواع النقوش والتصوير التي افادنا الدويهي موضوعها (ص ١٠٤) قال : « وكان الآباء الاطهار يصورون الله الصباوت في حنايا الكنائس جالسا على عرش العظمة . ويمثلون وجوه الحيوانات الاربعة حول العرش مع الملائكة وقوفاً يقدمون له البخور والمصابيح المتلألئة حوله وذلك لكي يرفع الكاهن نظره اليه جل جلاله عندما يقدم الطلبات في سرّ القداس الالهي »

وكان للموارنة في كنائسهم القديمة تنظييات اخرى احببنا ذكرها لتسمة القائدة منها توجيه الحنية الى الشرق . وزاد الدويهي في النشارة (١٠٧ : ١) : « وأن يكون فوق الحنية طاقة الى جهة الشرق لان الله ابو النور » لكن بعض الكنائس التي زرناها خاؤها منها . ثم اردف البطريك المذكور : « وأن يكون تحت الطاقة داخل الحنية كرسي عال في كنائس الاساقفة اشارة الى عرش عظمتة ويُنصب الكرسي في مكان مرتفع لاجل تعليم حقائق الايمان ويُجعل درج تحت كرسي الاسقف وتقام حوله مجالس ومسابط متفاوتة لاجل جلوس الخوارة والبرادطة (١) والقسوس ومثلاً اوجب الآباء ان تُبنى المذابح من الحجر للدلالة على استمرار الذبيحة ودوامها اوجبوا ان تُبنى الكرسي في الحنية من الحجر ايضاً (٢) »

ومن الكنائس التي ترى فيها كل هذه الشروط مستوفاة كنيسة مار جرجس في اهدن فانها كانت كنيسة اسقفية (٣) . هذا وان نُصّب كرسي الاسقف في الحنية عادة تفرّدت بها البيعة السريانية دون البيعتين اللاتينية (٤) واليونانية كما اشار

(١) جمع البردوط وهو زائر الكنائس . راجع المشرق (٦٤٩ : ٢)

(٢) راجع مائة الاقداس (١ : ١٠٩ - ١١٤)

(٣) المئارة (١ : ٢٩٨)

(٤) اما في الاجيال الاولى فكانت الكنيسة اللاتينية توافق السريانية في نصبها كرسي الاسقف في صدر الحنية (راجع مارتيني قاموس العاديات المسيحية ص ١٢٧)

الى ذلك العلامة الدويهي

وفي قدس الاقداس ما عدا كرسي الاسقف والكهنة بيتُ القربان او تابوت الاسرار كما دعاه العلامة الدويهي وهذا نص كلامه (ص ١٠١) : « ويجوي تابوت الاسرار اربعة امور اي جسد الرب والميرون المقدس وزيت العباد وماء الدنح »

وهذه افادات أخر عن المذبح المنسوب بازاء الاسقف ننقلها عنه ايضاً (ص ١١٣) : « أمر الآباء المتقدمون كما يتبين في كنيسة مار سابا بمدينة بشراي وفي كنيسة السيدة بمدينة حلب وغيرهما أن يُنصب فوق المذبح في الهياكل الكبيرة قبة جميلة المنظر على اربعة اعمدة بأربع ستائر وفوق الزوايا الاربع اربعة تماثيل تشخص الملائكة او الحيوانات الاربعة التي مرّ الكلام عليها ويُجعل فوق القبة قفاحة وفوق القفاحة صليب »

ولا بدّ ان يكون المذبح من الحجر مربّع الشكل « لأنه مائدة ويمتد في الطول بين الجنوب والشمال اكثر من امتداده في العرض بين الشرق والغرب لاجل وضع كتاب القداس وحقة البخور والنوافير وغيرها »

ويُستعمل بان يُجعل امام المذبح درجة او اكثر لكي يرتفع عن الحضيض (الدويهي ١ : ١٤٤ و ١٤٤) وينبغي ألا يكون « لاصقاً بالحائط قائماً بعزل عنه » (١) على عكس ما نراه اليوم في كثير من الكنائس المارونية . ومن المحتوم ايضاً « ان يجعل المذبح مجوفاً لاجل رفع الفضلات المقدسة (ص ١٤٤) وتفتح كوة من جهة الشرق لاجل وضع الذخائر ورفعها عند الاقتضاء . وقد تُنصب اخيراً مطهرة من جهة الجنوب بجانب بعض المذابح كما ترى في كنيسة ماري جرجس كرسي اهدن ليغسل بها الكهنة والرؤساء ايديهم في خدمة الاسرار » (ص ١٤٥)

وكان امام المذبح دربين وهو بمثابة الايقونستاس في كنائس الروم وكان له

(١) وجاء في كتاب التكريسات الذي عني بنشره سابقاً (الكاتب المرحوم رشيد الشرتوني (ص ١٩) : « يجب دائماً ان يكون المذبح الكبير قائماً بذاته وحوله تصير الرياحات والرتب المرسومة من الاباء ولاجل ذلك امروا باقامة الحنية حوله من جهة الشرق حتى لا يضايقه الحائط بتقدمه »

مثله ثلاثة ابواب بيد انه كان يختلف عنه بامور . قال الدويهي إمام المؤرخين الموارنة : « اوجب آباؤنا الاطهار ان تكون ابواب الدريزين مفتوحة وجدرانها غير مسطومة بل مصنوعة بثقوب على مثال شبكة حتى يتمكن الجميع من مشاهدة الاسرار . ولكنهم امروا الشمامسة ان يسبلوا الاستار في اوقات معلومة اجلالاً للاسرار (ص ١٣٥) »

فكان اذا الايقونستاس عند الموارنة اشبه بمشبك ليس بناء مصمماً كما في كنائس الروم . ولعله كان « كالشعوية » التي تفصل بين الرجال والنساء في كثير من كنائس لبنان الا انه كان متقن الصنع . وقد شهدنا في كنيسة السيدة في حدوتون قطعة من هذا الدريزين القديم . ولا علم لنا أبقى منه في بعض الكنائس ام لا . اما في عهد الدويهي فكانت هذه الدريزين شائعة كما اثبت ذلك في منارة الاقداس (ص ١٢٨)

بقي علينا ان نذكر القسم الثالث من الكنائس المارونية اعني دار الكنيسة او صحنها . فكانت هذه الدار خالية في دائرها من الكراسي التي ترى في الكنائس اليونانية . وقد بين الدويهي سبب ذلك قال (راجع منارة الاقداس ١ : ١٢١) : « آباؤنا اصحاب الكرسي الانطاكي اهملوا نصب الكراسي واوجبوا على نفوسهم ان يصلوا وهم قيام كقول الرب : اذا قمتم للصلاة قولوا ابانا الذي في السموات . . . وقد اخبرتنا التواريخ عن تلاميذ ابينا المكرم القديس مارون انهم قضوا كل حياتهم منتصبين على اقدامهم ليلاً ونهاراً (١) وانقسموا جوقين امام الباب الملوكي . . . اما الكهنة والشمامسة فيستندون الى العكازات لمساعدة الجسد الضعيف ما خلا الرؤساء فانهم يجلسون على الكرسي للدرجة التي ارتفعوا اليها » وكان المؤمنون خصوصاً الضعفاء منهم يتخذون ايضاً العكازات كما روى ذلك الدويهي في محل آخر من

(١) ورد في التاريخ ان صنفاً من النسك فرضوا على نفوسهم تقشفاً ان يعيشوا طول حياتهم قياماً فدعوا لذلك الرهبان المنتصبين (Stationnaires) راجع معجم اللاموت الكاثوليكي (١ : ١١٤٠) . اشهرهم تلامذة مار مارون . (راجع تاودوريطوس : تاريخ الرهبان PP. GG. T. LXXXII, 1419, 1431 ومن هؤلاء النسك من جعل له عموداً فصعد عليه كالقديس سمعان العمودي وغيره

كتاب المنارة (١ : ٦٠, ٦١)

وكانت الدار المذكورة تشتمل على « القراءات والمنابر واجران المعمودية واجران الماء المبارك والمرائي وبيض النعام والنواقيس وما شا كل ذلك » اما ترتيب كل هذه الاشياء فكان على هذا النمط : تقام أولاً قراءتان امام الدرازين من ههنا وهناك لاجل تلاوة الصلاة الجامعة التي تصير ليلاً ونهاراً وعليهما تُتلى الكتب المقدسة وميامر الاباء وسنكسارات الشهداء . (ثانياً) امّا المنابر التي تُنصب في الدار فبعضهم يقيمونها في اسفل البيعة وآخرون في وسطها والبعض في شمالي الدرازين لتقرأ عليهما الرسائل والاناجيل والوعظ وزياح الميرون والشهداء وامثالها . . . (ثالثاً) يوضع في الدار جرن المعمودية . وكان يُنصب من قديم بخارج الكنيسة او في دهليزها لكي لا يدخل البيعة الا من كان ابن النور . الا انهم ادخلوه الى الحزانة لانه هناك يُحفظ تابوت الرايات (اي الاسرار) كما ترى ذلك في هيكل مار سابا بمدينة بشراي (١) . ويُعلّق فوق الجرن تمثال حمامة دلالة على استقرار الروح القدس . ويُتخذ الجرن من الحجر . (رابعاً) توضع في الدار اجران لاجل الماء الذي نباركه في الغطاس وفي تقديس البيعة وغيرهما . (خامساً) تعلّق في الدار المراني المدوّرة وبيض النعام . وهنا للدويهي بعض تفاسير رمزية تُنجّل القراء الى مطالعتها في كتابه . ثم قال : « (سادساً) توضع النواقيس في الدار تنبيهاً للمؤمنين للاجتماع للصلاة »

يظهر مما سلف ان الشعب لم يجلس في الكنيسة على الكراسي وانه كان يحضر الاسرار منتصباً . لكن ذلك لم يصدّ المؤمنين عن الركوع . وللبطريوك العلامة الدويهي فصل مطوّل (ص ٦١) يبحث فيه عن انواع السجود والركوع . على ان الجثو على الركب كان معتبراً كضرب من التعبد والامانة وانما الانتصاب هو هيئة المصلّين الرسمية في الرتب الطقسية

وقصارى القول ان الكنائس المارونية كانت تتفق مع الكنائس اليونانية (او

(١) وجاء في كتاب التكريسات (ص ٢٣) انه يُفتح حينئذ باب خارجي « حتى تدخل النساء وتخرج بالسترة »

بالأحرى مع اليونانية واللاتينية معاً) في الخواص العمومية ولها مع ذلك فوارز تفصلها عما سواها بحيث يحكم صاحب الخبرة اذا رأى ما سبق لنا وصفه من طرائق بناء البيع وأنواع هندستها الخارجية وتنظيم أقسامها ونقوشها أن الموارنة في سالف الزمان هندسة كنسية خاصة بهم . وكنا وددنا لو لم نجد بناء الكنائس الحديثة لاسيما منذ مائتي سنة عن تقليد آبائهم القديم . وغاية ما نتمناه ان نحفظ الآثار الباقية منها لئلا يستولي عليها الخراب . وهذا ما حملنا على كتابة هذا الفصل في كنائس لبنان القديمة (١)

وان سأل السائل في اي عهد شاعت في لبنان هذه الطريقة الهندسية القديمة . أجبت أن الامر لا يخلو من الغموض والشبهة . وما يمكننا قوله ان أكثر هذه البيع سُيّدت قبل القرن الثالث عشر . وكان بناء بعضها في أيام الصليبيين على مثال كنيسة جُويل . وهذا رأينا في كنيسة مار شربل في معاد وغيرها أيضاً من الكنائس كما رواه المؤرخ المدقق الدويهي حيث قال (ص ١٠٣) : « وفي سنة ١١١٢ شرع بعض اهل البرّ يبنون كنائس . . . وكان للخوري باسيل البشرياني ثلاث بنات تقلا وصالومي ومريم نذرنا العفة وانفقن جميع ما يملكن على بناء الكنائس . اما تقلا فبنت في بقرقاشا هيكل مار جرجس ومار دومط . وفي بشنين من ارض الزاوية كنيسة تين احدهما على اسم القديس لبا الرسول (٢) والثانية على اسم القديس سرقيس الشهيد ثم رقدت بالرب سنة ١١١٣ . اما اختها مريم فبنت هيكل القديس سابا في قرية بشرّاي . وصالومي انشأت هيكل القديس دانيال في قرية الحدث »

ويرتقي بعض الكنائس اللبنانية الى عهد اسبق فنحن ما بُني في القرن التاسع او الثامن ايضاً كبيعة كفر شليمان التي نعدّها من اقدم كنائس لبنان . ومثلها كنيسة مار ماما في اهدن (راجع قول الدويهي فيها المدرج اعلاه ص ٩٢) . وليس قولنا

(١) وهنا نكرّر طلبنا الى قرائنا بان يبيدونا علماً عن الكنائس التي لم نذكرها في هذه المقالة ولا بأس ان يستدركوا علينا في ما يرونه خطأً لنصلحه

(٢) القديس لبا او لبّاوس ويدعى تدّاوس معدود بين تلاميذ المسيح الاثني عشر والسبعين

هذا الاجماليًا . ولو اطلع احد المهندسين الخبيرين على هذه الابنية لامسكتة ان يزيد ايضاحاً في تعيين زمن بنائها

✱

هذا وننتهز هنا الفرصة لتكرار ما اثبتناه في السنة الاولى من المشرق (ص ٢٦١) في مقالة حررت تحت عنوان : « هيأ بنا على درس تاريخنا » . فكان من جملة البنود التي اقترحناها على جمعية طلبنا انشاءها في كل طائفة (ص ٢٨٣) « ان تعني بالصور القديمة في الكنائس ٠٠٠ وتهتم بحفظ هذه الكنائس نفسها »

فلم نر حتى الان تشكيل لجنة تقوم بهذا المشروع ولعله لم يفكر احد في تأليف هذه الشركات الطائفية لتبرز الى حيز الوجود قسماً من هذه المقترحات . اما العلماء الاوربيون فانهم تلقوا فكرنا في تنظيم مثل هذه الجمعيات بما لا مزيد عليه من الرعاية والالفات وحدا الامر باحد كبار المستشرقين الالمانيين وهو الدكتور ج . كمفاير الذي ذكرناه غير مرة في مجلتنا الى ان كتب فصلًا في « نشرة الاداب الشرقية » (١) يستلفت فيه الانظار الى مقالتنا بل زاد على ذلك انه نقل الى الالمانية هذه النبذة وألحقها بملاحظات نورد منها شيئاً ليرى اهل بلادنا ما يبني الاوربيون من الآمال على تأليف جمعية كهذه . قال الدكتور ما تعريبه :

« لا حاجة ان نبين لقرائنا ما ينجم من الفوائد الجمّة من تشكيل جمعية تاريخية في سورية كما وصفها الاب لامنس . بل يأخذنا العجب من عدم انشائها حتى الان لا سيما ان بلاد الشام من الاقطار التي توفرت فيها الآثار التاريخية الدفينة التي يتوق الى كشفها العلماء . فنحن نوافق كاتب هذه المقالة في ما اقترحه من انشاء مكتبة مركزية في سورية لدرس تاريخ البلد وهذه المكتبة لا بُدَّ ان تجعل فيها كل الكتب الادبية واللغوية والجغرافية التي تشتمل على احوال بلاد الشام وان يلحق بها متحف للآثار الى غير ذلك من التنظيمات التي عددها صاحب مقالة المشرق

ولا نشكّ في ان الذين يبحثون عن سرّون البلاد الشامية يتهللون فرحاً اذا ما تحققت امني حضرة الكاتب

« ونحن الاوربيون نبنّي آمالاً طيبة على تنظيم جمعية تاريخية يكون اعضاؤها شريقين . لان ابناء الوطن يمكنهم ان ينالوا بزمن قليل ما لم يملئ الغرباء بعد الجهد الجهد واذا تشكّلت هذه الجمعية الوطنية بادرت الجمعيات الاوربية الى مكاتبتها فتقوى بذلك على اتمام مشروعات علمية ذات شأن خطير »

هذه شهادة اثبتناها ليرى القراء ما للعلماء الاجانب من الكلف بامور الشرق .
ويا ليتنا لا نتأخر عن تلبية دعوتهم فلا نخيب آمالهم فينا

وفي ختامنا هذه المقالة التي خصصناها بذكر الكنائس القديمة في لبنان كنّا وددنا لو امكننا ان نوصي هذه الجمعيات التي نطلب انشاءها منذ سنتين بالمحافظة على هذه المعابد القديمة قبل ان يستولي عليها الخراب . وعلى كل حال اننا نوجه دعوتنا الى ذوى الامر طالبين اليهم ان يصونوا هذه الآثار ولا يدعوا يدًا اثيمة تصيبها باذى . واذا مسّت الحاجة الى ترميمها فليصلحوا منها ما خرب مع مراعاة هندستها القديمة . فان هذه كانت وصيّة المثلث الرحمت البطريك بولس مسعد الذي كان حريصاً على حفظ تلك المآثر الناطقة بمفاخر ملته في غابر الازمان . على اننا نقرّ بكل سذاجة انّ معظم خوفنا من البُناة المحدثين الذين يتخيّلون ان هذه الابنية لا طائل تحتها فيخربونها لا تحاذ موادها او لتجديدها كما يزعمون وهذه الطامة الكبرى

فيا حبذا لو امكننا بما سطرناه في هذه المقالة عن كنائس لبنان ان نكف يد الدمار عن بقايا الزمن القديم فان اصبنا المرام لا نتأسف على الاتعاب التي تجسّسناها لهذه الغاية الشريفة

٢١ دخول النصرانية في لبنان

لهذا البحث علاقة طبيعية مع بحثنا السابق عن كنائس لبنان القديمة فلا يسعنا
ألا الخوض فيه هنا

روى رينان في كتاب بعثة فينيقية عن الموارنة انهم يدعون كون الوثنية لم تشع
في وطنهم مطاقاً وهذا افتراء في حق اهل لبنان الذين لم يذهبوا الى مثل هذا القول
الباطل . وكيف يا ترى يزعم اللبناثيون بذلك وكل انحاء جبالهم تنطق بشيوع عبادة
الاصنام في القرون الغابرة وفيه من آثار التوثن ما سبق وصفه في مقالاتنا

وما لا مرية فيه ان لبنان كبلاد الشام جمعاء كان يدين بالشرك بل بقي لعزلة
موقعه ينوء تحت عبء الوثنية مدةً بعد ان ارسلت النصرانية اشعتها على سورية
اجمالاً وعلى فينيقية خصوصاً وكانت مدنها الساحلية على طريق دعاة الدين المسيحي
فنالوا من انواره حظاً وافياً قبل سواهم

١ لبنان واول مبشريه

ارتأى بعض الكتبة ان المسيح وطئ ارض لبنان واستندوا في تأييد رأيهم
على آيتي متى (٢١: ١٥) ومرقس (٢٤: ٧) حيث ورد عن الرب لذكره السجود انه
ذهب الى تخوم صور وصيداء . غير ان هذا الموضع لا يصح بذكر الطريق التي
سلكها المسيح وقد زادنا القديس مرقس في الفصل ذاته ايضاحاً اذ قال (٣١: ٧) :
« انه خرج من تخوم صور ومر في صيدا وجاء فيا بن المدن العشر الى بحر الجليل » .
فان الطريق التي تؤدي تراً من صيدا الى المدن العشر تمر في منمطف لبنان جنوبي
شرقي صيدا فتبلغ النبطية او جوارها عابرة على نهر الليطاني عند الجسر المعروف
اليوم بالقعاقية فتنتهي الى جنوبي شرقي بلاد بشارة . وهذه الطريق تسير عليها
السابلة الى يومنا والطبيعة نفسها ترشد اليها . فلهذا الرأي كما ترى سند ولا حرج على
من يقول به (١)

والكتبة المحدثين قول آخر او تقليد محلي يزعمون بموجبه ان السيد المسيح لم

(١) راجع المشرق (١١: ٨١-٩٣) مقالة الاب الفرد دوران في رحلة المسيح الى فينيقية

يدخل فقط صيدا . بل بلغ ايضاً حتى ثغر بيروت . والتقليد المذكور اثبت في القرن الخامس عشر احد الزوار الالمان يُدعى برّيتسباخ (راجع المشرق ١ : ١٩١) . ثمّ اورده كوارزسيوس في كتاب وصف الاراضي المقدسة (١) وذكره احد ادباء الالمان في مقالة طبعها سنة ١٦٩٢ عن بيروت وآثارها . ولعلّ هذين الاخيرين نقلاً ما قاله برّيتسباخ . وهذا التقليد على ما نظنّ ايس بثبت ولا نرى وجهاً لتوفيته مع ما رواه الانجيليون

لكنّ الله منح بيروت نعمةً أخرى يحقّ لاهلها ان يفتخروا بها نريد احتلال القديس بطرس هامة الرسل في ربعا . وهو امرٌ يقبله العقل ويؤيده النقل . امّا العقل فلأنّ بطرس الصفا انتقل غير مرّة من اورشليم الى انطاكية فترتب عليه ان يجتاز في بيروت وهي اذ ذاك من اعظم مدن فينيقية شأنًا . امّا النقل فلنا منه شهادة قديمة تنزى الى تلميذ بطرس الرسول وخلفه في كرسيه البابوي القديس اقليميس وردت في كتاب الابحاث والميامر (٢) . وهو تأليف قد اختلف العلماء في كاتبه الا انهم يتفقون على كونه سبق اوائل القرن الثالث

وفي الكتاب الموماً اليه فوائد أخر عديدة عن تاريخ النصرانية في فينيقية والانحاء المجاورة لمدينتها الساحلية لكنّنا لا ننقل عنه غير ما نراه راهناً مقررًا توافق الشواهد القديمة (٣) . ومن ذلك ما جاء عن جبيل (٤) ان الرسول الهامة اقام لها اسقفًا حنا مرقس احد تلامذته وكان المذكور ولد في اورشليم وهو نسيب للقديس برنابا (٥) وفي بيته نزل بطرس الرسول لما انقذه الرب من ايدي هيرودس (٦) . فسقّاه على جبيل كما تشهد على ذلك السكسارات الشرقية اليونانية والسريانية المارونية فضلًا عن الكلندار

(١) راجع كتابه Elucidatio Terræ Sanctæ

(٢) طالع مجموع آباء اليونان لمن الجزء الاول والثاني

(٣) وقد عدلنا من ايراد هذه الامور ليس فقط لان مؤلف كتاب الابحاث مشتبّه فيه

بل لاسباب اخرى يؤدي بنا ذكرها الى الاطالة

(٤) وقد ذكر عن بيروت ان القديس بطرس سام لها اسقفًا يُدعى كوارتس

(٥) راجع رسالة (القديس بولس الى اهل كولوسي) (٤ : ١٠)

(٦) اعمال الرسل (١٣ : ٢١)

الروماني الذي ذكر عيده في ٢٧ ايلول ٠ والمؤرخون الاقدمون يوافقون في ذلك الآثار الطنسية

فمن ثم تكون اسقفية مرقس المذكور الاثر الاول لدخول النصرانية في لبنان لان جبيل كما اشرنا الى ذلك سابقاً (ص ٦٠ و ٦٧) كانت مرتبطة بلبنان ارتباطاً غير منفصم بل كانت معدودة منه داخلة فيه كما ترى في عهدنا ٠ وبما انها كانت محاطة بمدة هياكل مقدسة تشرف عليها من الآكام والرُبى المجاورة لاسيا هيكل افقا والمشنقة (ص ٣٩-٤١ و ٤٩-٥١) فكان الفينيقيون يعدونها مثل كعبة دينهم يحجرون اليها من اقطار بعيدة فيستحمون فيها مناسكهم الدينية التي باسروها في هياكل لبنان ويكرمون بزيارتها ادونيس والزهرة

هذا ولا نعلم ما ناله اول اساقفة جبيل من النجاح في تنمية رسالته المتدسة ٠ الاغرو انه لقي في دعوتيه عوائق شتى حالت دون رغائبه الخلاصية ٠ ومما لا يُنكر ون في ذلك الوقت عنه اذ بزغت شمس النصرانية في اقطارنا الشرقية صار للدين الوثني نهضة جديدة في لبنان فان تاريخ بناء بعض هياكل الاصنام فيه يرتقي الى ذلك العهد كهيكل فقرا (ص ٥٣) وغيره ٠ ولم تزل الوثنية في عز وترق في مطاوي القرن الثاني للمسيح وفي اوائل القرن الثالث

واستدّ اذر الدين الوثني في لبنان بملك الامبراطور الروماني اديان الذي زار لبنان في بدء القرن الثاني وسكن مدة جبيل ٠ وكان هذا القيصر من عبدة الزهرة يظهر لها التجلّة والاكرام وقد بنى لها في رومة معبداً كبيراً وادخل عبادتها في بيت لحم لمعاكسة النصرانية ٠ ومن آثاره الباقية في لبنان الكتابات العديدة التي وصفها اصحاب العاديات وذكرناها في مقالاتنا المرة بعد المرة ٠ ولا نشك انه حج الى معابد الزهرة وادونيس خصوصاً في افقا ودير القلعة (١) كما انه شيد بعض الهياكل ورمم غيرها لاسيا في جبيل وكانت تُعد في ايامه كاحدى حواضر المدن وامهاتها
وجرى خلفاء اديان على سننه فعزّزوا في لبنان الشرك والتوثن كيف لا وبعضهم

(١) ولعلّ النصب الذي وصفناه في المشرق (٢ : ١٢٢) قد اقيم حفواً به لما زار هذا المعبد

كانوا ولدوا في لبنان او المدن الملاصقة له نخص منهم بالذكر اسكندر ساويرس الذي كان مولده في هيكل الزهرة في عرقا . ولذلك ترى كثيرا من الآثار الدينية النخسية التي ترين لبنان حتى يومنا هذا قد شيدت في ذلك العهد . منها هيكل بعلبك وحصن سليمان في جبل النصيرية اللذان تشهد على اصلهما كتب المؤرخين . وفي لبنان مباني أخرى غيرها يُجهل تاريخها والارجح انها بُنيت في الوقت عينه لما فيها من الشبه مع ابنية ذلك العصر كحصن صافيري في الضنية وناس قرب كسبا وبزينا في النكورة وغير ذلك مما سنورد ذكره في مقالاتنا

وهذه الغيرة التي نراها في عبدة الاوثان في اوائل النصرانية تدلّ دلالة واضحة على انّ المشركين في لبنان أبوا الا ان يدافعوا عن آلهتهم لئلا تحطهم ديانة المسيح عن مقامهم الرفيع الذي بلغوا اليه سابقا

ولكن دعنا نستوفي اخبار النصرانية في لبنان في اواخر القرن الاول . افادتنا التأليف المنسوبة الى القديس اقليميس انّ القديس بطرس احتلّ طراباس واقام عليها استقفا يدعى مارون . وهذا الامر ذو شأن لا نرى في صحته التاريخية مشكلا وان كان مدوّن هذا الخبر زاد فيه من الاوصاف الوهمية ما لا يقبله العلم الصادق . ويسرّنا ان نرى في ذلك العهد اسقفا جليلا يتيقن قراونا الموارنة باسمه وقد اشتهر في مدينة تطلّ عليها تلك الجبال التي صارت بعدئذ مهد طائفتهم العزيزة

ومن الآثار النصرانية التي ترتقي الى القرن الاول استشهد القديس تادّوس الذي روى عنه الرواة الاقدمون انه رُجم في بيروت لاجل الايمان وفي تعريف الشهيد المذكور رأيان مختلفان فزعم البعض انه احد تلامذة الرب السبعين وذهب غيرهم الى انه هو الرسول يهوذا او تادّوس اخو يعقوب البار . ويصعب علينا جزم الامر لقلة الأدلة . وانما جاء في تاريخ البطريرك ساويرس (راجع المشرق ٣: ١٠٠٤) ان بيروت كانت تحتوي كنيسة باسم القديس يهوذا اخي يعقوب البار في القرن السادس (١) وهذا لعمرى اثر حسن يشهد بقدّم التقليد عن القديس يهوذا المذكور

٢ نزاع النصرانية والوثنية

يُحَصَّل من فصلنا السابق ان لبنان لم يُحْرَم من نعمة النصرانية منذ القرن الاول من تاريخها . ولا جرم ان الدين المسيحي غما في القرنين التاليين . الا ان الآثار القديمة لا تكاد تفيدنا عن شؤونه شيئاً فنظن ان غمّه كان بطيئاً لما تصدّى له من العوائق من قبل المشركين الذين كانوا اتخذوا هذا الجبل كمعقل لدينهم فبنوا فيه الهياكل العديدة وشيّدوا الآثار الدينية فلقوا في اخلاق الجبليين وطباعهم الفظة ما قوى روح التعصب بينهم . وعلاوة على ذلك نرى الشيع الوثنية ليس في الشام فقط بل في كل انحاء المعمورة قد التجأت الى مشارف الجبال بعد ان دحرتها النصرانية في المدن العامرة وسفوح البلاد ولنا على ذلك شاهد في جبل برجياوس المعروف في يومنا بجبل النصيرية فان سكانه اصرّوا على وثنيّتهم الى القرن السادس مع ان هذا الجبل دون لبنان في علوه واسهل منه مرتقى

وهذه الملاحظات العمومية عما لقيته النصرانية في طريقها من العثرات يؤيدها التاريخ القديم الذي لم يذكر الدين المسيحي في لبنان الا نادراً . وكذلك الآثار الكتابية فان الوثنية منها كثيرة امّا النصرانية فهي قليلة جداً . فكل ذلك دليل واضح على ما نال ديانتنا المقدسة من المقاومات والمدافعات قبل ان ترسخ مبادئها القويّة في ارض لبنان حتّى صارت في توالي الاعصار عصبة للدين لاسيما بعد ان توطنت هذا الجبل الطائفة المارونية المعروفة بحجاستها الدينية

وفي عهد الملك نورمان القيصر الروماني (٢٨٣-٢٨٤) تشرّف لبنان بوفاة احد ابنائه شهيداً وهو الطبيب طليليوس (لعله مُكَنَّاه اي مظلل ومحمي) وكان استشهاده في قيليقيا وما ورد في ترجمة حياته انه قال للحاكم لما طلب منه نسبة : « اني ادعى طليليوس ومولدي في لبنان واسم ابي بريكوكيوس (لعله مُكَنَّاه اي مبارك) وهو نصراني واحد ضباط الجيوش . وتدعى امي روميانا واخي يوحنا هو شماس (١) . فحكم الوالي على طليليوس بقطع الرأس بعد ان مثّل به واذاقه مرّاً النكال الا ان

الله عز وجل أشهر قداسة بعده بما اجتريه من المعجزات الباهرة على قبره حتى ذاع اسمه في اقاصي الشرق

ومن النص السابق يصبح لنا ان نستنتج ان النصرانية كانت اخذت في الامتداد في لبنان منذ اوائل القرن الثالث لاننا نرى العشائر فضلاً عن الافراد يدينون بدين المسيح . وكذلك وجود شماس في أسرة لبنانية يدان على وجود الرتب الكنسية وكل ذلك لا يقوم الا بكنائس منتظمة . ثم ان اسماء المذكورين الا واحداً منها آرامية الاصل فذلك يثبت على ان لغة اللبنانيين لم تزل بعد آرامية اى سريانية

ولا بد هنا من ملاحظة على موقع لبنان الذي ذكره الشهيد طلييوس فنقول انه لا يدل ضرورة على ايماننا الحالي لان اسمه كان في ذلك العهد يشمل الجبال الواقعة في شمالي نهر الكبير فالهم مجسد في معرض قول الكتبة الاقدمين ما يزيل الشبهة يصعب علينا ان نستدل على جهته المنوية

وفي سنة ٢١١ للمسيح زان الله باكليل الاستشهاد هامة فتارة من عذارى جبيل تدعى اكويلينا فقصفها المفتصبون كغصن رطيب وليس لها من العمر سوى ١٢ سنة . وقد اخبر البولنديون (في اعمال القديسين اليوم ١٣ من حزيران) ان نصارى المدينة جمعوا ذخائرهم المقدسة فدفنوها بزيد الاكرام ثم تعددت العجائب على قبرها . الا ان عبادتها اليوم قد اندثرت فلم يبق لها ذكر بين مواطنيها وهو امر غريب لولا ان التاريخ ينبتنا بنقل جسمها الطاهر الى القسطنطينية في القرون التالية فاصابت هناك من تعبد الاهلين ما فقدته في وطنها

وقد ارتأى الاب مرتينوس اليسوعي في تاريخه المخطوط عن لبنان (ص ٢١٣) ان ذكر الشهيدة اكويلينا قد امتزج في كرا الاعصار باسم قديسة أخرى تعرف بمرتينا التي يكرمها اهل جبيل اكراماً عظيماً وفي جوار بلدتهم معبد شيدوه على اسمها فيجرون اليه من كل اوب والزوار يأخذون من ترابه شيئاً فيتبركون به . واكثر ما يأتيه المؤمنين في ايام قطف دود القز

وتشرفت ايضاً طرابلس في ذلك العصر بشهادتها منهم الشهيدان مغداليتيس (راجع البولنديين في ١٢ حزيران) ولوسيان ولوسيوس (راجع السنكسار الروماني في ٢٤ كانون الاول) . ولا نعرف من امر لوسيوس المذكور الا اسمه كما صرح بذلك

العلماء البولنديون . وعندنا ان لوسيوس المذكور هو القديس الذي يكرمه اهل لبنان منذ زمن قديم باسم القديس نوهر او نوهر . وليس نوهر (نوهر) اي نور) سوى ترجمة اسمه اللاتيني في السريانية وفي السنسكريت الماروني في تاريخ ٢٢ قور ما معناه : « في هذا اليوم تحتفل بجهاد الشهيد لوجيوس (هههههه) وكان اصله من منور (كذا) من بلاد العجم فطاف البلاد وبشر بالايان في المسيح حتى بلغ مدينة البترون في بلاد فينيقية فمات فيها شهيداً . وهو شفيع المصابين باوجاع العيون ولذلك دعاه السريان بلقتهم نوهر وهذا معنى اسمه لوجيوس »

وليس في هذه النبهة ما يناقض قول الاقدمين بان لوسيوس استشهد في طرابلس وطرابلس كما لا يخفى تعدد من اعمال فينيقية ولعل قرب موقع البترون وطرابلس جعل البعض يذكر وفاته في احدهما دون الاخرى ثم لا نرى التقليد المحلي على رأي ثابت في ذلك لان اهل سمار جبيل يدعون بان استشهد القديس نوهر كان في قريتهم ولهم بئر يزعمون انه اقي فيه ففرق . ويؤكدون زعمهم بكتابة سريانية في جدار كنيسةهم . ولكن غاية ما يستفاد من هذه الكتابة ان احد افاضل الكهنة مدفون في هذا المكان ولم يبق لاسم هذا الكاهن اثر . وسنورد ان شاء الله الى وصف هذه الكتابة عند ذكرنا سمار جبيل

واول ناسك ورد ذكره في لبنان عاش في عهد القيصر ديقلسيان واسمه ارسنس وكان مولده في انطاكية العظمى وسقف على مدينة لم يعرف اسمها . فلما امتحن ديقلسيان المسيحيين بالاضطهاد ترك ارسنس كرسيه الاسقفية وتوكل في لبنان وتعبد لله في احدى مغاوره وبقي على ذلك سبع سنين حتى اُلهمه الله ان يعود الى انطاكية ليثبت المؤمنين في الايمان ففعل واستشهد اخيراً في ايطالية (١)

وكانت مدارس بيروت في تلك الاثناء تدير بتعاليمها العالم الروماني . وكان كثير من النصارى يزعمون في مماهدا ليأخذوا العلم عن ائمتها . اشتهر في جملتهم القديس غريغوريوس صاحب العجائب والقديس اثنودورس في النصف الاول من القرن الثالث . ومن اشار اليهم التساريخ في عهد ديقلسيان شهيد في مقبل

(١) راجع اعمال القديسين (البولنديين) في ٢ حزيران

العمر يُدعى افيسان أو أمفيان كان اصله من ليقية ودرس في بيروت ثم استشهد سنة ٣٠٥ في قيسارية فلسطين وله من العمر ٢٠ سنة فقط (١) وفي ايامه مات في سبيل الايمان في انطاكية الكاهن زينوبيوس وكان اصله من صيدا. وقد روى اوسابيوس في تاريخه (ك ٨ ع ٣) انه كان طبيباً وأنه اتقن الطب حتى برز فيه واخذت النصرانية بعدئذ تتقوى وتنتشر في مدن فيليقية الساحلية حتى ان الاسر الشريفة نفسها صارت تدين بدين المسيح . وقد ابناء التاريخ بذكر شاب بيروتي كريم المحدث اسمه ينفيل كان درس على اشهر اساتذة وطنه حتى اضحى نسيج وحده في العلوم الدينية لكنه أثر عليها درس الاسفار المقدسة فانتقل الى قيسارية حيث رقي الى درجة الكهنوت وأنشأ له مكتبة حافلة بالتأليف القديمة . وكان موته استشهاده سنة ٣١٠ (٢)

وفي ذلك العهد ايضاً ألمع التساريخ الى بعض النصارى الذين حكم عليهم المغتصبون بتعدين معادن لبنان . والمرجح انهم ارادوا بهذه المعادن مناجم الحديد التي اشتهرت في بعض المعاملات لاسيا البترون وكسروان والمسن الى اخر القرون المتوسطة . وفي ذكرها بين اعمال الشهداء ما يوقفنا على تاريخ المعادن في لبنان على ان النصرانية لم تلبث بعد هذه المحن ان تنصرف على اعدائها فخرجت ظافرة ممجدة على يد قسطنطين الكبير ودخلت في طور جديد ولم تزل منذ ذاك في ترقى متداوم بينما كانت الوثنية تتقهقر وتهبط حتى انتشع ظلامها ودرست آثارها لكن عبادة الاصنام اُبت ان تنكص على الاعقاب دون المدافعة والتزاع . فان الشرك بقي زمناً طويلاً حتى بعد تنصر قسطنطين وربما سعى في رد غارات دين المسيح . وكان كثير من عبدة الاوثان لم يزالوا يترددون الى هياكل الالهة الباطلة . وكان سدنتها يُعرفون علانية باسم كهنة الاصنام تدل على ذلك كتابة وجدت في دوما جاء فيها ذكر كاهن يُدعى كاستور يلقب نفسه بكاهن اله الطب اسكولاب وإلهة الصحة

(١) راجع اوسابيوس في تاريخ شهداء فلسطين واعمال البولنديين في ٢ نيسان
(٢) راجع التاريخ الكنسي لاوسابيوس (ك ٨ ع ١٤) واعمال القديسين للبولنديين في ١٦ شباط و ١ حزيران وكتاب القديس ابرونيوس في المشاهير (العدد ٧٥)

وقد اثبتنا في مقالة سابقة عن افكا ان قسطنطين الملك دمر هيكل الزهرة فيها . والظاهر ان الوثنيين انتهزوا الفرصة في عهد يليان الجاحد ليجددوا بناء هذا المعبد فانما زى عبدة الاصنام في القرن الخامس المسيح يجتجون اليه لاقامة مناسكهم الدينية (١)

وان تتبعنا التقاليد الشائعة في بلاد الشام وجدنا من الآثار ما يعزوه اللبنانيون الى القديسة هيلانة ام قسطنطين كبعض البروج المبينة على ساحل البحر يزعمون انها اقامتها لتبلغ ابنها اخبار الاراضي المقدسة واكتشاف الصليب . الا اننا يدنا ان هذه التقاليد لا صحة لها (راجع الصفحة ٥٧) وان هذه البروج شيدت بعد ايام الصليبيين لمراقبة الساحل ورد غزوات الفرنج . ولم تك هيلانة لتحتاج الى مثل هذه البروج لمخاطبة ابنها مع ما كان لديها من البريد برا على السكك الرومانية ومن السفن بحرا وهي تستطيع ما شاءت ان ترسل ابنها في وقت وجيز . ثم ان التاريخ يفيدنا عن ام قسطنطين انها قدمت فلسطين بحرا وآبت راجعة كذلك دون ان تتلبث في مدن فيليقية وترور لبنان

ومما لا شبهة فيه ان الدين النصراني كان فاز السهم الملقى في الساحل الفينيقي في اواسط القرن الرابع مع ما تخاف فيه من بقايا الوثنية فضلا عن جماعة من اليهود كان اكثر سكانهم في بيروت وصيدا . وقد رويننا في مقالاتنا عن الزلازل في بيروت (المشرق ١٧١: ٢) ان عدد اغنياء من المشركين طلبوا العباد بعد زلزلة ٣٤٩ لكن ارتدادهم كان عللة الحوف فعادوا بعد زوال الخطر الى ضلالهم وابدعوا شيعة خاطوا فيها الدين المسيحي والوثني وابتنوا لهم معبدا اقاموا فيه رتبهم المستهجنة ولم يضر على ذلك زمن يسير حتى اقام الله لكنيستهم انصارا اجتذبوا اهل الضلال الى النصرانية باسألهم اكثر منهم بكلامهم . وان هؤلاء الا النساء والحسباء الذين أؤوا الى مغاور ثم الى اديرة اضحت بهتهم كنائس سطع منها ضياء الدين المسيحي فبددت ظلام الوثنية تماما

(١) راجع مقالة الدكتور ج. روفيه المعنونة ١٥. ١٦. Le temple de Vénus à Afka, p.

في مبادئ العيشة الرهبانية في لبنان

قال القديس ايرونيوس في ترجمة القديس هيلاريون (ع ١٤) : « لم يعرف احد من اهل الشام ناسكاً قبل هيلاريون » فمن ثمّ يظهر ان ارسس الذي سبق لنا ذكره مات ولم يقتدر بنسكو احد الى عهد القديسين انطونيوس الكبير وهيلاريون وليس هذان الناسكان هما اللذان انشأ العيشة النسكية في لبنان كما يروي تقليد بعض اللبنانيين خلافاً للتاريخ الصادق . وزد على ذلك ان القديس انطونيوس لم يخرج قط من القطر المصري والصواب انّ مثلها حمل نصارى الشام على التشبه بهما ولا غرو انه بوشر منذ ذلك العهد بانشاء المحابس في لبنان بيد ان التاريخ لم يذكر من امرها شيئاً قلّة اعتبارها . وانما روى اخبار مناسك أخرى تُدعى منسدة (*μνσδε*) ومعناها حظيرة الغنم كان العباد يجتمعون فيها تحت رئاسة بعض اكابرهم يدعونهُ لذلك ارشيسندريتا اي رئيس المنسدة . وربما كانوا يدعون ايضاً هذه المناسك لورا (*λσρε*) او قينوبيون (*κινωβιον*) ومعناها المتدى والمجتمع . وكان اسم المنسدة شائعاً في مصر وجنوبي فلسطين اما الاسمان الاخران فاشتهرا في سورية . ولعل منسدة احدى مزارع البتاع بمجوار تعنابل اشتقت اسمها هذا من دير كان سابقاً بقربها (١)

لوتسّينا آثار الكتب التاريخية لوجدنا ذكر بعض هذه الاديرة القديمة الراقية الى اواخر القرن الرابع واولئ الخامس . منها عدلون بين صيداء وصور ليس بعيداً من صرّند . فان فيها عند البحر صخراً عالياً حفر فيه نحو ٢٠٠ كهف . ولعل هذه المغاور كانت في بادى الامر مدافن للموتى ولكن لدينا من الأدلة ما يحملنا على القول انّ الرهبان اتخذوها لهم كمساكن أووا اليها . من ذلك ما ترى فيها من شارات النصرانية

(١) وكذا دُعيت بعض المدن في اورباً باسماء الاديرة المجاورة لها مثل موتيار او موستيار Moutier او Moustier في فرنسا ومُنسدر Munster في المانية الخ وكلها مشتقة من monasterium اي دير

وفيها صهاريج محكمة الصنع ومراقي متقنة يُصعد منها الى طبقات المغاور العليا وتجمع بين القلاي . ومن اعتبر هذه المساكن الغريبة لا يشك في انّ الرهبان وحدهم امكستهم الاقامة فيها ويؤيد ذلك ما درّته المؤلفون في تراجم بعض الابرار انهم كانوا يعيشون في المقابر . وهذه المقابر كانت عبارة عن مغاور مختلفة الكبر اتخذها الاقدمون لموتاهم . والمرجح عندنا ان عدلون من هذا القبيل . فمسي ان يجد العلماء نصّاً تاريخياً يزيل عنا كل شبهة في الامر

وليس بمستبعد ايضاً ان الاغوار المنقورة في الصخر في وادي مطلّ على بلاد البقاع بقرب قرية فرزل شمالي زحلة كانت مأوى للسياح . يستدل على ذلك بدلائل عديدة . وهذه الكهوف تشبه في ترتيبها مغاور عدلون والاهاون يدعون موضعها الجبليس ويؤمنون استناداً الى تقاليد قديمة ان سياح القرون الغابرة سكنوها وفي سفح هذه المغاور جدول ماء صافٍ يتفرق سائحاً

ومن جملة الاماكن التي يُشار اليها بالشواهد المنقولة أنّها كانت في سالف الزمان كمعاهد للرهبان مغارة عند قرية هرمل على مقربة من اكبر رؤوس نهر العاصي . ولهذا التقليد اثر في كتبة القرون المتوسطة كابي الفداء والقالقشندي وغيرهما وهم يدعون هذا المكان باسم مغارة الراهب . والمؤامرة يدعونها « دير مار مارون » . ولا يزال الجبل المطلّ عليها مع الاملاك المجاورة لها خاصة وهبان لبنان الانطونيانيين ويسكن البعض منهم هذا المكان في عهدنا الحاضر مع ان سكان هذه الالة كلهم من المتأولة . وهؤلاء يعرفون هذه المغاور باسم القصور وما لا ريب فيه انّ الناس تحصّنوا فيها سابقاً يُستدلّ على ذلك بما اقاموه من الابنية في مدخلها للدفاع عنها فزادوها منعة على حصانتها الطبيعية

ومغارة الراهب تفوق مغاور عدلون وفرزل بمجاسنها . وكانت في الاصل طبيعية سكنتها كما يظهر قبائل عادية في الاعصار السابقة التاريخ واملّ هذه القبائل فضائتها على سواها لحسن موقعها قرب نهر كبير . ألا انّ الخلف حسّنوا عمل الطبيعة وأضافوا اليه متندياتٍ تقرأها في الصخر على احسن هندام مع قبة ذات حنية مقوَّسة ودرجٍ داخليّ يُصعد منه الى الطبقات العليا وبئر عميق الغور يبلغ الى مياه النهر . وكل ذلك منسحوت في الصخر الاحمر

ومن المنازل التي احتلتها في العهد القديم نساك لبنان وادي قزحيسا والقاديشا . وبقايا العيشة الرهبانية فيها ظاهرة حتى الان صبرت على الايام وتقلبات الدهر . وكان بعض الرهبان يعيشون فيها عيشة عومية فيجتمعون للصلاة والشغل في كهوف واسعة مشقورة في الصخر ترى واحداً منها اكبر من سواه في وسط الوادي . وبعضهم كانوا يفصلون العزلة التامة فيعيشون منفردين في منساور متفرقة في جانبي الوادي منحوتة في صخورهم تجري منها ينابيع صافية ويجدق بها النبات وكلها غاية مايرام ايشة العباد وفي بهرة وادي قاديشا دير قنوبين تعريب (κοινοβιον) يعزو التقليد المحلي بناءه الى الملك ثاودوسيوس الكبير . والامر ممكن الا ان النصوص التاريخية لا تفيدنا في ذلك علماً . وعلى رأينا ان ثاودوسيوس منشئ هذا الدير ليس هو القيصر الشهير بهذا الاسم بل احد كبار آباء الطريقة النسيكية . وقد عرف بهذا الاسم في ذلك العهد رجلا عظيماً تكرمهما الكنيسة بين اولياء الله . احدهما ثاودوسيوس الانطاكي انشأ في قيليقية ديراً كبيراً والاخر اصله من قيادوقية اشتهر في فلسطين وابتنى ديراً واسعاً تقاطر اليه الرهبان من كل فج وأوب كان بينهم يونان وارمن وصقالبسة . ولا جرم بان السوريين واللبنانيين تتلمذوا له ايضاً . وكان ثاودوسيوس المذكور قسمهم اقساماً على حسب اصلهم ليسبحوا الله في لغاتهم المختلفة وساسهم الى ان توفي في اوائل القرن السادس وله من العمر ١٠٥ سنين . ومن اطلع على ترجمة هذا القديس لا يرى فيها صريحاً انه قدم لبنان ولعله زار هذا الجبل في رحلته الى مقام سمعان العمودي (١) . ولكننا نعلم من تاريخه ان تلامذته انشأوا اديرة عديدة في انحاء شتى . فلا نوانا نتجاوز حدود الحق ان قلنا عن احدهم انه احتل قنوبين وأسس فيها ديراً نسبة الناس بعده الى القديس ثاودوسيوس استاذهم ثم اشتبه الاسم على الخلف فظنوا ان المنشئ هو ثاودوسيوس الكبير الذي اشتهر بتقواه وتذكره الكنيسة اليونانية في عداد قديسيها . وما يؤيد هذا الراي اننا نرى الطائفة المارونية تكرم ثاودوسيوس ابا الرهبان اكراماً خصوصاً وتعدّه بين مشاهير النساك (٢) . وهذا لعمرى شاهد واضح على ان اسمه كان ذائعاً في لبنان

(١) راجع اعمال البولنديين في تاريخ ١٦ كانون الثاني (ص ٦٨٠)

(٢) راجع تاريخ الطائفة المارونية للدويحي (ص ٢٢)

ترقي النصرانية في القرن الرابع

حان ان نعود الى تاريخ انتشار النصرانية في لبنان بعد استطرادنا الى ذكر مبادئ العيشة الرهبانية فيه

لما تبوأ قسطنطين الكبير منصة الملك اخذت قدم النصرانية ترسخ في لبنان ولعلها كانت طمست آثار الوثنية لولا بدعة آريوس التي بذرت في قلوب المؤمنين وخصوصاً بين الاساقفة بذر الشقاق والنفور فجعل الآريوسيون يفرغون كنانة الجهد في مطاردة الرعاة الاورثوذكسيين ومعاكستهم لا يهتمهم شيء من امر الوثنيين وانارتهم بضياء الايمان . بل كان المشركون يزيدون تباعداً عن الكنيسة لما يرون في احبارها من تفرق الكرامة في اكبر عقائد النصرانية اعني لاهوت المسيح ومساواته لابيه في الجوهر

ثم تلك جليان الجاحد فأولى الوثنية انتصاراً لم يكن في حسابان اهلها . فاستأنف المشركون فتح الهياكل المقفلة ورمموا ما تهدم من المعابد . والمرجح ان هيكल الزهرة في افقا جدد بناءه في ذلك العهد كما أصلح قسم من معبد المشنقة (١) وعاد الوثنيون فاحتفلوا بأسرار ادونيس اي تموز بأهية عظيمة كما لوف عاداتهم سابقاً . ونال بيروت نفسها اضطهاد عبدة الاصنام فان الكنت مغنوس قدم هذه المدينة ومعه فريق من الجند واليهود فاخربوا كنيستها الكبرى ولا غرو ان كنائس لبنان اصابها ما اصاب كنيسة بيروت من حريق ودمار

ولكن الله اللطيف بعاده جازى وشيكاً جليان على كفره وأقام خلفاً له يُشيان وكان رجلاً تقياً مبغضاً للشرك فأمر الكنت مغنوس بان يشيد كنيسة بيروت على نفقته ولولا حلم الملك لقطع رأسه واصاب الجزاء عما جنت يده من الآثام العديدة ومن اشتهروا في ذلك العهد ناسك لا يزال ذكره مكرماً في لبنان وهو القديس موسى الحبشي الذي اختسارته ماوية ملكة العرب استقفاً لقومها وسامه

القديس اثناسيوس الاسكندري فتولّى رعاية العرب المقيمين في شبه جزيرة سيناء وفي جنوبي فلسطين

ولما صار زمام الملك الى يد ثاودوسيوس الكبير أُصيبت الوثنية في سواد قلبها فان هذا العاهل الشهير امر كبير قوّاده سنة ٣٨٤ بان يُفعل هياكل الاصنام ليس فقط في لبنان بل في الشرق بأسره . وفي سنة ٣٩٢ في العشر الاول من تشرين الثاني سنّ شريعة ثانية كان مؤداها ان تبطل عبادة الاوثان فلم يتجاسر الوثنيون على مقاومة السلطة . لكنّ بعضاً منهم ثبتوا على عاداتهم ومارسوا دينهم خفية في القرى المنفردة والجبال القاصية . وكان القياصرة مع ذلك لم يهدموا هياكل الاصنام بل اكتفوا بان يبطلوا فيها المناسك الدينية . والدليل على قولنا ان الدستور المعروف باسم ثاودوسيوس يتضمّن عدّة شرائع سنّها الملك النصارى تقضي بمعاينة الذين يسمون في خراب الهياكل الوثنية وكانت غايتهم بذلك ان يحافظوا على آثار الاقدمين لحسن هندستها (١) وكانوا في الغالب يخصّصون هذه الابنية لخدمة الدين الحقيقي فيجعلونها كنائس مسيحية (٢) . الا ان ذوي الامر اضطروا في بعض المواطن الى استعمال القوة الجبرية وتقويض المعابد الوثنية خصوصاً في بلاد فينيقية ولبنان . فمن جملة الابنية التي اجاءتهم الاحوال على نسفها زون الزهرة في افق الان سدنته كانوا اتخذوه كهاخور يجتروحون فيه الفحشاء وافطع الارجاس باسم دينهم الباطل

ومن بدء القرن الخامس للمسيح لما استولى القديس يوحنا فم الذهب على كرسي القسطنطينية (٣٩٨ - ٤٠٧) اراد ان يستأصل من لبنان شأفة الشرك فارسل قوماً من دُعاة الدين ليرشدوا اهل لبنان الى طريق الهدى (٣) وقد لاقى هؤلاء

(١) راجع P. Allard ; *L'art païen sous les empereurs chrétiens*
(٢) راجع كتابات سورية وهوران لوانغتون (ع ٢٤٩٨) . ومن الهياكل التي جعلها النصارى كنائس هيكل بعلبك المعروف باسم تريليتون (Trilithon) وكنيسة مار يوحنا في دمشق المعروفة اليوم بالجامع الاموي
(٣) راجع تاريخ ثاودوريطس (ك ٥ ع ٢٩) ورسائل القديس يوحنا فم الذهب (ع ١٢٣، ١٢٦) الا ان هذه الرسائل مع ذكرها لبنان لا توضح جلياً أُرَادُ بِه لبنان الحالي او جبال النصيرية ولعلّ المقصود منها هذه الاخيرة

المرسلون في تنفيذ دعوتهم مشاكل عديدة فطرد الاهلون بعضاً منهم وقتلوا آخرين . على ان هذه المعاملة السيئة لم تكن لثني عزائمهم فواصلوا الانذار والتبشير وبالقوا في ملاطفة السكّان حتى اجتذبوهم الى عبادة الاله الحقيقي . ومما اتخذوا من الوسائل لإبطال الوثنية انهم جعلوا لاهل لبنان الاعياد واقاموا المواسم احتفاءً بأسرار الدين النصراني الطاهرة فعدلوا بهم عن الحفلات الوثنية الى العبادات والمناسك الخلاصية

تنظيم الكنائس في لبنان

وفي مطاوي هذا القرن الخامس جعلت كنائس لبنان على نظام قانوني فُصّمت الى قسمين كنائس فينيقية الساحلية وكنائس فينيقية لبنان وفقاً للتقسيم المدني الذي جرى عليه أولاً ديوقلسيان (راجع المشرق ٣ : ١١٠٣) . وقد ذكرنا هنا هذا التنظيم إزالةً للالتباس لأن الكراسي الاسقفية اصابها بذلك بعض التغييرات وُعدت من ايلالة غير التي كانت معدودةً منها سابقاً . وما يهتّمنا نحن في مقالاتنا عن آثار لبنان انما هي فينيقية الساحلية اما فينيقية لبنان فانها كانت تشمل الجبل الشرقي ومنعطف لبنان من جهة الشرق وعليه فانها لا تدخل في حيز مباحثنا

وُجعت صور رأس ولاية فينيقية الساحلية واضعى كرسيتها لهذا السبب متقدماً على بقية كنائس الولاية فدُعي لذلك بالكرسي الاول (προπύργον) في بطريركية انطاكية وُجعت تحت حكمه كراسي اسقفيات عديدة نذكر من جملتها ما له علاقة مع لبنان الحالي وهي : ١ صيدا . ٢ دبريون الموافقة لقمم النبي يونس وتدعى ايضاً برجا موقعها بين بيروت وصيدا . ٣ جبيل او بيلوس . ٤ البترون او بتريس . ٥ غيغرتا (٢) . ٦ ترياريس (Trierès) وهي المسماة اليوم أقة (٣) . ٧ طرابلس .

(١) وسنعود الى ذكر آثارها

(٢) امّا موقع هذه المدينة فسنبينه ان شاء الله

(٣) هذا الصواب وليس كما ورد في المنار (ص ١١٤ من السنة ١٩٠٠) انما « حصن ساحلي شمالي طرابلس ربما القلعات »

٨ عرقاً (١) . ٩ اورثوسياس (٢) . اما بيروت فمع كونها واقعة في ولاية صور الكنسية كانت مستقلة عنها . ورتقي اسقفها الى رتبة مطران ولكن لم يكن له اساقفة تحت حكمه (٣)

هذا ولا نشك في ان بعض قرى لبنان الكبرى كاهدن وبشرأي واميون (في الكورة) كان لها رؤساء روحيون من درجة الخورفسقوس . وكانت هذه الرتبة شائعة في ذلك العصر . ولنا شاهد في ما ذكر عن القديس باسيليوس اسقف قيسارية انه كان تحت امره خمسون خورفسقوفاً الا ان هذا المنصب الكنسي ابتذل لكثرة شيوعه فامتزج بدرجة رعاة القرى . وما اسم « الخوري » الا اشتقاق من اسم الخورفسقوس

وفي هذا العهد اينما انتظمت الطقوس الكنسية المهمة الى ان صارت بعد زمن على هيئتها التي نألفها اليوم . ومن ساعدوا على تنسيق هذه الطقوس بعض القديسين الاجلاء كالقديس يوحنا فم الذهب والقديس باسيليوس الكبير الا ان هذه الطقوس لم تُنس ما كان سبق اليه القدماء من الرتب الدينية كالطقوس الرسولية والرتب التقليدية منها الليتورجيا الشريفة المنسوبة الى القديس يعقوب وغير ذلك

اما اللغات الكنسية فكانت محصورة في اللغتين اليونانية والسريانية ولم تشع اللاتينية كلغة طقسية وانما كانت لغة الدولة الرسمية فقط . وقد استعملها اهل بيروت مدة ثم انحصرت في ضمن مدارسها الفقهية الشهيرة . الا انها اُهملت شيئاً فشيئاً حتى أُبطل استعمالها وكانت كنائس المدن الساحلية تؤثر في طقوسها اللغة اليونانية اما كنائس الجبل فكانت السريانية هي الغالبة على السنة كهنتها (راجع المشرق ٣ : ٢٦٧) . وزادت السريانية انتشاراً في لبنان لما صارت السيطرة فيه للطائفة المارونية

(١) واخريتها تُعرف الى اليوم بهذا الاسم

(٢) تدعى اليوم اورثوزي بجوار نهر البارد

(٣) خلافاً لما جاء في مقالة المنسار السابق ذكرها (ص ١١٤) . وهذه المقالة تستدعي عدة اصلاحات . نقول ذلك رعاية للحق مع ما نعرفه من فضل كتابها الذي اختبرنا لطفه يوم زرنا دير البلمند

انتصار النصرانية نهائياً على الوثنية في لبنان

بعد وفاة القديس يوحنا فم الذهب قدم لبنان من مدينة الرها احد الناسك فتوطنه وجعل يسعى في هداية اهله الوثنيين . ذكر ذلك البولنديون في تاريخ ١٤ شباط . ولعل المراد بلبنان في ترجمة الناسك المذكور انما هو جبل عكار لان النص الوارد فيه اسم هذا العابد يشير الى مدينة حمص وهي كما لا يخفى مجاورة لجبل عكار وكذلك تكرر ذكر لبنان في ترجمة حياة القديس سمعان العمودي فان رواية اخباره يقول عنه انه انجز هداية اهل لبنان فرجعهم الى الدين القويم با اصطنعه من المعجزات الباهرة . لكننا هنا ايضاً لا يمكننا القطع بان المراد بلبنان الجبل المعروف اليوم بهذا الاسم . ونحن نعلم ان هذا القديس اشتهر في ولاية حلب في الجبل المسمى اليوم بجبل سمعان . على ان الذي يُمن النظر في اقوال مؤرخيه لا يرى ما ينفي لبناننا الحالي لان الزوار كانوا يتقاطرون الى عامود القديس من بلاد بعيدة فكان العرب يأتونه من اقاصي البادية ليستمعوا تعاليمه . ثم ان اوصاف لبنان في تواريخ هؤلاء الكتبة توافق جبلنا منها ذكر الغابات والوحوش الضارية ومعابد الاصنام وتعلق الاهلين بعبادتها بحيث لا يردلون خدمتها الا بعد نظر العجائب التي تجري على يد القديس سمعان . فكل هذه الاوصاف تصدق عن جبل لبنان الحالي . غير ان اسم لبنان وحده ليس بكافٍ لنجزم بهذا الامر وقد قلنا سابقاً ان هذه التسمية كانت تشمل في القرنين الخامس والسادس جبلاً آخرى

وان قال قائل ان المراد بلبنان انما هو لبناننا الحالي لانه ورد في اثناء ذكر لبنان اسم احدى قرأه وهي قرية انداريس (Andaris) الموافقة لقرية عين دارا في معاملة العرقوب الشمالي . اجبنا ان هذه الموافقة بين الاسمين ليست مقررة ثم انه مُحتمل ان ضيقة تدعى عين دارا اشتهرت سابقاً في جبال غير لبنان الحالي بما كان يُعرف ايضاً باسم لبنان كجبل النصيرية وجبل الشيخ . فترى من ثم ان هذه الافادات ليست بكافية لتدوين هذه الاخبار في تاريخ النصرانية في لبنان

ولما ظهرت بدعة نسطور وجدت في بعض اساقفة لبنان صدًى لتعاليمها الفاسدة . فان افراداً منهم انحازوا الى النسطورية . وفي بيروت التسام المجمع الذي حكم

على ايباس اسقف الرها احد انصار نسطور . وكان ذلك حسب منطوق اعمال المجمع « في بيروت المدينة الفاتحة الجبال في دار اسقفها الحديثة بمحار الكنيسة الجديدة المقدسة »

اما بدعة اوطيخا فكان لها في لبنان عاقبة اوخم من النسطورية ففشا سنها في بلاد الشام وألحقت باهلها مدة زمن مديد اضراراً لا يُسر لها غور . وكان اوستات اسقف بيروت تشييع جهازاً لاوطاخياً . فجازاه ملك الروم بان اصدر براءة ورد فيها انه « يخول مدينة بيروت المزدانة بالفضائل اسم حاضرة (métropole) مع الامتيازات التي تُعطى لأُمهات المدن » . فظن اوستات ان رقيم القيصر كافر ليد سلطنة الروحية على اساقفة جبيل والبتون وطرابلس وغيرها من الاسقفيات الواقعة في شمالي فينيقية الساحلية . ألا ان مطامعه رُذلت بعد زمن قليل في عهد مرقيان الملك

وقد تطرّ لبنان بفضائل بعض القديسين في اواسط القرن الخامس للمسيح مُنحَصّ منهم بالذكر القديسة مطرونا وُلدت في آسيا الصغرى ثم اقامت ديراً في حمص وانتقلت اخيراً الى بيروت فانارت جماً غفيراً من النساء الوثنيات بالوار الايمان

ومنهم القديس ربولا السّيساطي قدم بيروت في ايام الملك زينون ثم تعبد لله في جبال لبنان المعترلة . وجاء في تاريخ قديم (راجع اعمال القديسين للبوآنديين ١٥ شباط ص ١٢٦) « ان ربولا المذكور شيد بمساعدة زينون القيصر ويوحنا حاكم بيروت ديراً كبيراً في وسط الجبل . وكان يعيش مع رهبانه بين الجبلين وهم وقتئذ متسكّمون بظلمة الوثنية فعرض عليهم اسرار الديانة وردّ حججهم واجتذبهم الى الدين القويم الا نفرّاً قليلاً منهم » . فيؤخذ من هذا الكلام ان عبادة الاصنام لم تُطمس بعد آثارها في لبنان نحو مئة سنة بعد ثاودوسيوس الكبير

ولعل القارئ يسأل وما هو الدير الذي عمّره ربولا الراهب ؟ قال الاب مرتينوس اليسوعي في تاريخ لبنان (ص ٢٣٨٩ من تاريخه المخطوط) : « ان الدير الموما اليه هو دير القمر » . لكننا لا نرى على اي حجة بنى الاب مرتينوس زعمه هذا . وغاية ما نعرف عن دير القمر ان ذكرها ورد في تاريخ الصليبيين ولكن هذا ليس ببرهان مقنع . لاسيا اننا نرى في لبنان قرى غيرها دخل في تركيب اسمها اسم الدير

فيصح فيها قول الكاتب المنزه به وبعضها ليس بعيداً عن بيروت لان النص يشير الى دير قريب منها

وزادت بدعة اوطيخاً انتشاراً في سورّية لما ظهر ساويرس الانطاكي . وكان المذكور قضي سنين عديدة من عمره في بيروت حيث درس الفقه ثم تعمّد في طرابلس (١) وصار بطريركاً دخليلاً على انطاكية وتفاّن في نشر الشيعة الاوطاخية . لكن الله اقام لدينه الحقّ حامين يدافعون عنه لاسيا في عداد الرهبان . والكنيستات الشرقية والغربية تحتفلان في ٣١ تموز بعيد ٣٥٠ راهباً قُتلوا في سبيل الايمان سنة ٥١٢ . كان المبتدعون كمنوا لهم يوماً وهم سائرون الى كنيسة القديس سمعان العمودي التي موقعها في جبل بركات شمالي غربي حاب . وقد ذكرناهم هنا لان اللبنانيين يقيمون لهم عيداً حافلاً ولو كان استشهادهم قد جرى خارجاً عن لبنان وعن فينيقية . وانما اصلهم كان من ولاية سورّية الثانية التي حاضرتها افامية (قلعة المضيق) وموقعها شمالي ايلة فينيقية لبنان . اما فينيقية لبنان هذه فقد سبق ان حاضرتها كانت مدينة حص وانها تشمل قسماً من لبنان الشرقي على ان معظم جبل لبنان داخل في فينيقية الساحلية

وكان هؤلاء الشهداء ينتمون الى دير مار مارون . وكان هذا الدير مبنياً في جوار افامية في وادي نهر العاصي (٢) . قال المسعودي في كتاب التنبيه والاشراق (ص ١٦٣) يعرف موقعه انه : « شرقي حماة وشيّر ذو بنبان عظيم حوله اكثر من ثلاثمائة صومعة فيها الرهبان وكان فيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شي . عظيم فخر هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن . . . وهو بقرب من نهر الارنط نهر حص وانطاكية » . ولدنيا العريضة اليونانية التي ارسلها رهبان هذا الدير للبابا هرمزداس يخبرونه باستشهاد اخوانهم وقّعوا عليها بما نصه : « نحن الحقرام الارشيمندريين ورهبان سورياً الثانية » . امّا رئيسهم فقد وقّع الرقيم كاتباً : « انا ارشيمندريت مار مارون » . فما سبق ترى ما كان لهذا الدير من الخطورة والشأن

(١) راجع المشرق ٣ : ١٠٠٣ وكتاب الاب نو ٤٩ seqq. Opuscles maronites II,

(٢) راجع كتاب الاب نو (l'abbé Nau) السابق ذكره (ج ٢ ص ٢٢)

وعدد الرهبان . اما الاسباب التي حملت الموارنة على اكرام هؤلاء الشهداء فهي ثلاثة ذكرها صاحب مروج الاخياري : « اولاً لان اكبر اديار هؤلاء الشهداء الطوباويين كان معروفاً باسم القديس مارون وارشيمنديت هذا الدير كان اسمه اسكندر وهو اول من امضى الرسالة التي رُفعت الى البابا هرمزداس القديس . ثانياً لان كثيرين من هؤلاء القديسين كانوا يتشجعون على الثبات في الايمان والاستشهاد امام ذخيرة هامة القديس مارون الثمينة التي كانت بهذا الدير . وثالثاً بما ان هؤلاء الرهبان القديسين كانوا اشجع المناضلين عن الايمان الكاثوليكي الذي يغال له الموارنة غيرةً لانهم كانوا خاضعين اتم الخضوع لكرسي هامة الرسل . والطائفة المارونية تتفخر بانها تقتني آثارهم في ذلك »

وقبل ذلك بزمان قليل (سنة ٥١١) كان الملك انستاس طرد من القسطنطينية عدداً غفيراً من الراهبات المستقيمات الايمان فقصدن لبنان واتخذن لهن سكناً وعطرنه بعرف فضائلهن . وفي اختيارهن لبنان للعزلة دليل على ان اهله كانوا يرذلون الشيعة الاوطيخية

والارجح ان كنيسة دير پرفيريون (اليرم برجا او النبي يونس) بُنيت في ذلك القرن السادس . وكذلك كنيسة القديس فوقا على مشارف الجبل (١) . وقد ورد ذكر هاتين الكنيستين في تاريخ الابنية للمورخ پروكوب . وكان بانيهما الملك يوستيان الذي اشتهر بغيرته على بناء الكنائس . وليس بمستبعد ان اقدم كنائس لبنان المعروفة اليوم تَشِيدت في عهده او على يد المهندسين الذين جروا على طريقة بنائه . مثال ذلك كنيسة اهدن وكفر شليمان اللتان تشبهان كل الشبه الكنائس البوزنطية المنسوبة الى هذا الملك . ولعل كنيسة حدوتون المهدومة التي ذكرناها في الفصل السابق (ص ٨٦ و ٨٩) هي ايضاً من هذا القبيل فيكون بناؤها سبق دخول الموارنة في لبنان . لنا في تأييد قولنا بعض الحجج منها وجود كتابتين يونانيتين الواحدة اكتشفها رينان واكثر حروفها مطموسة والاخرى وقف عليها الفقير كاتب هذه

(١) راجع پروكوب (ك ٥٥ ع ٩) . على ان پروكوب بقوله « مشارف الجبل » لم يذكر لبنان وانما يؤخذ ذلك من قرينه كلامه لانه ذكر الجبل بعد ذكر پرفيريون والساحل القينيقي

الاسطر ١) وفي كليهما ما يشير الى قدم هذه الكنيسة . ومنها الطرز الهندسي والنقوش وضروب الفسيفساء فان كل ذلك يُلمع الى عهد يوستنيان
فترى ممّا تقدم ان النصرانيّة في القرن السادس لاسيا اواخره لم تغلب فقط على المدن الساحلية بل بان شأوها على كل اخصامها في لبنان . وكانت مدينة بيروت حافلة بالكتائس (٢) واهلها معتصمين بجمال الدين . وكذلك تفيدنا ترجمة البطريك ساويرس السريانية ان المعاملة اللبنانية المجاورة لبيروت كانت مستوثقة بعروة الدين وهناك اشتهر احد الرهبان العاموديين الذي كان يسكن في قرية لم يُذكر اسمها قريبة من البلدة . وكان هذا الراهب شديد التمسك بالدين الاورثوذكسي يدافع عن الايمان الكاثوليكي مدافعة الشهام . وبما رُوي عنه ان بعض اشياخ اوطيخا من الطلبة الذين اتوا من الاسكندرية الى بيروت ليدرّسوا الفقه زاروه يوماً فلامهم عن تشبّهم بتعاليم الهرطقة . وفي خبر هذه الواقعة ما يُشعر بان الشيعة يعقوبية لم تُفرد بعد لاصحابها كنيسة في بيروت (٣)

ومن الشواهد اللامعة الدالّة على انتشار النصرانية في لبنان العيد الحافل الذي أُقيم فيه لمّا عاد هرقل ظافراً ومعه الصليب المقدس الذي انقذه من يد الفرس . فأقيم في لبنان حفلات بهيجة جعلها اللبنانيون سنّة لهم يعيدون ذكرها في كل عام في ١٤ ايلول

الا ان هرقل الملك كشف شيئاً من بهاء انتصاره بما اعاره من المساعدة لهرطقة المونوتليين اي القائلين بالمشيئة الواحدة في المسيح . فكانت هذه المضاهرة الملكية سبباً لفشو هذه البدعة في سورية وخصوصاً في وادي العاصي . لكن هذا الوباء لم يُسرّ حتى لبنان وكفاه بذلك شرفاً

وممن تصدّوا لهذه العدوى القديس صوفرونيوس الدمشقي الاصل بطريك اورشليم . وقد زعم البعض انه وُلد في لبنان في قرية بسري . وهو قول تردّه الادلة العديدة كالميناون والبولنديين (في تاريخ ١١ اذار) بل يفنده القديس صوفرونيوس

(١) راجع مجلّة الشرق المسيحي ١٨٩٩ ص ٥٦٥، ٥٦٩

(٢) راجع في المشرق (٣ : ١٠٠٤) ما ورد في النشرات المارونية للاب نو

(٣) مجلّة الشرق المسيحي ١٨٩٨ ص ٢٨٠

نفسه في قصيدة له وردت في مجموع اعمال الآباء (مين ج ٨٧ ص ٣٤٢١) قال عن نفسه انه من مدينة دمشق التي تسكنها قعم لبنان (Λιβανόστροφονος) فقاوم هذا الاب القديس الجليل الشيعة المونوتائية التي جعلت الدولة البوزنطية على قاب قوسين من هلاكها في سورّة . لكن الله كفى لبنان شرّاً وجعل مذ ذاك هذا الجبل معتصماً لاذ باهدابه انصار الحق الى يومنا

بلاد البترون

من تنمّع الآثار اليونانية او الرومانية في بلاد البترون لا يجد منها ما يجده في مقاطعتي كسروان وجبيل . وسبب ذلك ان موقع البترون في سفح جبال شاهقة ابي الاقدمون ان يتخذوها كسكنى لهم اللهم الا قليلاً منهم حتى ظهرت الامة المارونية فاستعمرت تلك الجهات وجعلتها كمرکز انتشرت منه الى البلاد المجاورة . والدلائل التاريخية المنبئة بذلك كثيرة نشير اليها في مطاوي كلامنا ان شاء الله ولقمة الآثار القديمة في البترون ونواحيها علّة أخرى وهو بعدها عن أمّات المدن كبيروت وصيداء . ووقوعها خارجاً عن دائرة امكنة الفينيقيين المقدسة كجبيل . ولذلك ترى في جنوبي لبنان ووسطه من الكتابات والاخرية ما لا تجده في البترون وتوابعها

٢٢ مدينة البترون

البترون احدث عهداً من جبيل وبيروت وكان الانكليزي كندر (Conder) زعم انه وجد اسمها في مراسلات تلّ العمارنة (راجع الصفحة ٧٦) الا ان علماء العاديّات فنّدوا هذا الزعم . وكذلك لو تصفّحنا توارينغ الفينيقيين واليونان والرومان لما وجدنا عن البترون الا التذر القليل الذي لا يُشفي منه غليل . وذلك دليل واضح على انها لم تكن ذات شأن خطير

على اننا لا نريد بذلك ان نبخس البترون حقها فان هذه البلدة لا تخلو من البقايا والاطلال القديمة لولا ان الابنية الحديثة التي تعلوها اليوم لا تسمح بتقدير هذه الاخرة وتعريف تاريخها . ولنا ايضاً شاهد آخر على مقام البترون سابقاً وهي المسكوكات

والنقود التي ضربها اهلها ايام استقلالهم فترى لها تاريخاً خاصاً بها كبقية مدن الساحل . وقد بين ذلك الدكتور جول روفيه في مقالته عن تاريخ مسكوكات البترون (راجع المشرق ٢ : ٤٧٦)

والشائع عن اصل هذه المدينة ان بانها ايتوبعل ملك صور في القرن العاشر قبل المسيح كذا روى المؤرخ اليوناني ميناندر وصادق عليه يوسفوس المؤرخ اليهودي الشهير ومن آثار الفينيقيين في هذه البلدة سورٌ متينٌ نحتوه في الصخر الاصم من جهة البحر وقد بقي منه بقايا الى يومنا مع اعمال أخرى تنطبق على ما نعرف من حذاقتهم في قطع الحجارة . ومنها أيضاً بعض قبور ونواويس قديمة كما ترى في غيرها من المدن الساحلية

ولا غرو ان الرومان بعد فتح سورية شيدوا في البترون الابنية وجعلوها من القلاع الحريزة وازهرت في ايامهم الى ان خربت في زلزال سنة ٥٥٠ م وقد بقي من عهد الرومان نقوش وقطع وكتابات رأى منها رينان طرفاً كما اثبت ذلك في بعثة فيليقية (ص ٢٤٩) يقول انه وجدها في انقاض حصنها وقد بجثنا عنها فلم نشاهدها

اما الحصن المذكور فقد شيده اصحابه في القرون المتوسطة واتخذوا لبنائه مسا عثروا عليه من الابنية السابقة . وقد ذكر العرب هذا الحصن منهم ياقوت الحموي في معجم البلدان (١ : ٤٩٣) قال : « بَترُون (١) بالتحريك والراء حصنٌ بين جُبَيْل وأُفَّة على ساحل بحر الشام » وقال الادريسي (طبعة غلدميستر ص ١٧) : « ومن مدينة جبيل على البحر الى حصن بترُون عشرة اميال وهو حصن حسن »

وعلى مقربة من البترون في المكان المسمى مراح الشيخ ملعبٌ قديم من بناء الرومانين له مقاعد على شكل درج مستدير منحوتة في الصخر وكل ذلك ظاهر حتى يومنا . وحول هذا الملعب قطع من الرخام وحجارة منقوشة تراها مبثوثة في الارض يتخذها الاهلون للتكليس

(١) كذا ضبطها ياقوت والادريسي . وسُيِّت في تواريخ الصليبيين « Le Boutron » اما اليونان فكانوا يسمونها بَتريس (Botrys) وكان يقيم فيها اسقف (راجع الشرق المسيحي ليلوكيان «

وان سرت من البترون ليس بعيداً عنها الى شمالي نهر الجوز ترى كنيسة قديمة تُدعى كنيسة مار يعقوب بُنيت بأنقاض هيكل قديم . وعلى بعض حجارها كتابة يونانية طمس اكثرها فلم يبقَ منها الا حروف قليلة (١)

وعلى مسافة بضعة امتار من هذه الكنيسة من جهة الشمال الغربي كنيسة اخرى منتصبة فوق اكمة تعرف باسم « سان سابور » وهي لا تزال على حال مرضية تجد في بنائها ما يذكر بطريقة الصليبيين في الهندسة . ولهذه الكنيسة عيد يُقيمُه اهل البترون في اليوم الـ ٦ من آب وهو يوم عيد التجلي . وعلى رأينا ان اسمها مصحّف عن كلمتين افرنسيّتين معناهما الطور المقدّس (Saint-Thabor) . اما سبب اطلاق هذا الاسم على الكنيسة المذكورة فهو لانها كانت لاحقة بالدير الذي شيده الصليبيون على جبل الطور . وكان لهذا الدير اوقاف عديدة واملاك واسعة منها في الكورة وقرب طرابلس (٢) نعم ان هذا المحلّ لم يُذكر في قائمة تلك الاملاك بيد ان اسم الكنيسة الاعجمي وشكل هندستها ووقوع عيدها في يوم التجلي كل ذلك يؤيد رأينا . ومهما كان من امر هذه الكنيسة لا شك انها تستحق الذكر لانها مثال حسن عن طريقة اهل لبنان في الهندسة الكنسيّة

٢٣ سمر جبيل

هي من اقدم قرى بلاد لبنان واعظمها شأنًا من حيث آثارها . موقعها شمالي جبيل وكانت في القرون المتوسطة احد مراكز الملة المارونية استوطنوها فتحصّنها فيها لرد هجمات اعدائهم وفيها كنائس عتيقة ذكرناها سابقاً . الكبرى منها مشيدة على اسم القديس نهر او هي حسنة البنيان يصلي فيها القوم حتى يومنا . وعلى جدارها الخارجى كتابة سريانية ذهب الدهر بقسم منها مُفادها ان كاهناً قُبر هناك . اما اسم الدفين وتاريخ وفاته فقد طمسا . وكان ديان نقل هذه الكتابة سنة ١٨٦٠ (ص ٢٤٦) وقد أخذنا مؤخراً رسمها الشمسي فلم نكد نجد منها الا القاطن قليلة . ولسمر جبيل كنيسة اخرى قديمة لم يبقَ منها غير دمه

(١) راجع بعثة فينيقية (ص ١٤٨)

(٢) راجع المحلّة الفلسطينية الألمانية (ZDPV, X, 235)

واول ما يستدعي اليه نظر الداخل في سمر جبيل قصرها المبني فوق اكمة .
 وجدران هذا البناء الجليل الماثلة ترتقي الى الاجيال المتوسطة فقط لكن اركانها
 السنلى واساس بروجيه وخذاقه المنحوتة في الصخر تدل على قدم عهده وعظم اثره
 وترى لمدخله عتبة ذات درجتين منقورة في الصخر . ولا يبعد ان الفينيقيين قاموا
 بهذه الاعمال فانهم كانوا مولعين بنحت الصخور كأن عزمهم اشد صلابة منها وكانوا
 مع ذلك يجمعون الصخر كقطع يتخذون منه حجارة ابنتهم كالقلاع وغيرها . وفي
 داخل هذا القصر وعلى مقربة منه آبار وصهاريج عجيبة الصنع محكمة التجهيز بعيدة
 الغور كلها في الصخر الاصم لا نظن ان الرومان مع جلدتهم واعمالهم الجبرية تولوا
 نقرها بانفسهم

ومما يرتقي ايضا في هذا القصر الى عهد قديم النقوش التي يراها الزائر عند جهته
 الشمالية في اسفل الصخر الذي أقيم فوقه البناء . غير ان هذه النقوش دائرة يصعب
 تعيين زمنها ورسم صورتها

وفي سمر جبيل آثار أخرى من العاديات منها المدافن الواقعة في شرقي القصر .
 وقد كتب باليونانية فوق بعض قبورها ان امرأة عمرها ١١٠ سنوات دفنت مع ابنها
 في قبر واحد وتاريخ هذه الكتابة في القرن الثالث للمسيح وهو حسن الرسم
 لا إشكال في قراءته . وفيه دليل على سن طاعنة قل ما يبلغها الشيوخ المعترفون .
 اما البالفون سن الثمانين الى التسعين فعددهم ليس بقليل في لبنان تشهد على ذلك
 الكتابات منها كتابة لاتينية محفوظة في كنيسة بيت خشبو يُستفاد منها ان بعض
 الشيوخ توفي وله من العمر ٨٧ سنة (راجع ايضا بعثة فينيقية ص ٣٨٥ و ٣٨٦)

فهذه الآثار التي وصفناها تنبئ بقدم سمر جبيل وخطورتها لكننا لا نعرف شيئا
 من تاريخها السابق ولعلها احدى القلاع التي خربها بُمبيوس عند فتحه بلاد الشام
 (ص ٣٤) والله اعلم . ومما اثبتته الدويهي في تاريخ الوارثة (ص ٢٠٢) ما
 حرقه : « وفي سنة ١٦٣٠ في الخامس والعشرين من تشرين الثاني نهار الاحد
 حدثت زلزلة مريعة . وفي الساعة الثالثة من الليل حلت في قلعة سمر جبيل وهدمت
 البرج الاوسط من جوانبه الاربعة وخربت جميع ما كان في القبو التحتاني المركب
 على البئر »

هذا وفي بلاد البترون عدة امكنة تستحق الذكر لآثارها فإن الباحث يجد فيها من النواويس والنقوش ونحيت الحجارة ما هو دليل على اصلها القديم أحصاها كفرحتنا ومسرح وشبطين وكفر شليان التي تكرر ذكرها غير مرة في اثناء مقالاتنا عن كنائس لبنان والحق يقال ان العملة الاقدمين قد احسنوا في هذه القرية نقر صخورها . من ذلك ثلاث حُجَر نَقروها في الصخر على احسن هندام وآثار آلات النحت فيها مع قدمها بيّنة كأنها نُقِرَت منذ زمن حديث

ومما عاينّا في مسرح نقوش محفورة في الصخر اكثرها دارس مطموس بقي منها صورة ثور وبقرة مسنّمة وموقع هذه النقوش فوق اقبية تنيقة . وقد شاهدنا ايضاً تمثال شخص يُرجّح كونه امرأة وهي لابسة ثوباً رافلاً وفي يدها اليسرى رمانة وعنقود عنبر

٢٤ قلعة الحصن

اذا ملت عن الساحل سائراً من البترون لتتوغل في لبنان من جهة دوما رأيت بعد قليل صخرة عالية مكشوفة للنظر كأنها السارية المنحوتة نحتاً عمودياً وفوقها قلعة قديمة الآثار تدعى قلعة الحصن موقعها بين دير الموارنة المعروف بدير مار يعقوب وقرية بشملي (١) . ومن رقي فوق هذا المرقب تمتّع بمنظر غاية في البهجة والرونق فان العين تبصر غرباً البحر وسواحلها وترى شرقاً القرى الممتدة الى جهات ارض لبنان . اما جهتا الشمال والجنوب فلا حاجز يحول دون مرأى سهولها . وليس لهذا المقام مجاز آخر الا من جهة بشملي وهي الجهة التي عني القدماء بتحصينها لتكون القلعة حريزة منيعة لا يقوى على فتحها العدو من كل الخائفا

اما القلعة فان بقاياها ليست من العظمة والبهاء على شيء بخلاف ما يظن المسافر اذا ابصرها عن بعد . فان موادها واخربتها لا تختلف عن غيرها ولا تنبئ بما اعتاده الفينيقيون والرومان من الابنية الجبّارية . وعندنا ان هذه الاطلال صرخٌ بُني في الاجيال المتوسطة فوق جدران اقدم عهداً بقي منها بعض آثارها

ومأ يرى داخل هذا القصر آثار بيوت كان يسكنها السكّن سابقاً . وفي أسفل القاعة نواويس عديدة ومدافن نُحِتَتْ في الصخر الاصم وجد فيها الاهلون تقوداً ومصكوكات نادرة

ومن غريب ما شاهدناه في اعلى هذه القلعة حجر كبير وسطه مثقوب وهو منفصل عن الصخر الذي تحته وفيه جدول للماء لا تظهر وجهة جريه . وقد عملت الفكر لاعرف ما الغاية من نصب هذا الحجر فلم يثبت لي الامر

وان استطاعنا طلع التاريخ لنستدلّ على اخبار قلعة الحصن وجدناه ساكتاً لا يفيدنا عن احواله قليلاً . لكن موقع هذا البناء يناسب اي مناسبة للامال الحربية كيف لا وهو يطلّ على قسم من اخصب معاطف لبنان فلا يبعد ان القدماء اتخذوا هذا المقام للدفاع عن مواطنهم . وامله كان هنا قلعة قديمة ابتناها الفينيقيون فاخربها بيمبوس القائد الروماني عند فتح بلاد الشام كما ذكر آنفاً

اما « بشعلي » التي هي بقرب قلعة الحصن فلا تريد في وصفها شيئاً على ما كتبناه سابقاً في المشرق في مقالتنا المعنونة « سياحة في بلاد البترون » (٢ : ٨٧٠) . وفي بشعلي رأس عمود على اربع جهاته كتابة يونانية خشنة ذهب اكثرها فلم يبق منها سوى بعض حروف لا يظهر لها معنى شافٍ (١) وانما وجودها هناك دليل على ان القرية سبقت عهد العرب . وقد جاء ذكر بشعلي في آثار الصليبيين وهم يدعونها « Betzaal » وكانت داخلة في حكم امير جبيل (٢)

ومما رأينا في « ترتيج » عند زاوية كنيسة صفيحة من الحجارة طولها متر ونصف وعرضها سبعون سنتيمتراً وهي داخلة في الحائط عليها صورة ناتئة تمثل حيواناً تهشم رأسه ولم يبق سوى ذنبه الذئبال فلم تثبته اي حيوان هو

(١) ولعلّ هذه الكتابة من الاثار التي لم يجدها رينان بعد ان بحث عنها في بشعلي كما اخبر بذلك في كتاب بعثته الى فينيقية (ص ٣٥٧)

(٢) راجع المجلة الفلسطينية (ZDPV) الجزء العاشر ص ٢٥٦

٢٥ دوما

لا نرى داعياً لتكرار ما كتبناه سابقاً عن حسن موقع هذه البلدة وعظم شأنها حالياً (راجع المشرق ٢: ٨٦٩)

اما عاديّات دوما فهي نواويس ومدافن قديمة ثم كتابتان يونانيتان الواحدة منهما محفورة في الناوس الذي قرب عين القرية وهو اليوم حوض ماء يُستقى منه فقي وسطه دائرة كان فيها نقشٌ أخنى عليه الزمان . والكتابة المعلقة عليه كثيرة الحشونة كان النقاش الذي نُحتها لم يدرك معناها ولم يُحسّن نقلها بل ترك منها الفاظاً فصار معناها مُغلطاً . فاذا تداركنا هذا الخلل واصلحنا ما يجب اصلاحه وجدنا ان تاريخ الكتابة سنة ٣١٧ للمسيح يُستفاد منها ان هناك دُفن كاستور وكان كاهناً وثنياً لاله الطب اسكولاب وإلهة الصحة (Ἰσχυρία) . وفي آخر الكتابة تهديد لمن يهتك حرمة هذا المدفن فان فعلوا وجب عليهم اداء ٢٠٠٠٠٠ دينار لبيت المال

فهذه الكتابة اليونانية من احدث ما نعرف من اثار الوثنية في لبنان . اما ما جاء فيها من الوعيد ضدّ ناقضي حرمة القبور فثله كثير في الكتابات الضريحية القديمة (١) . وليس المبلغ المذكور في الكتابة هو من المبالغ الفاحشة لان الدينار كان وقتئذٍ قليل الثمن . وهذه الكتابة مهمة لتاريخ دوما القديم لان منها يُستفاد ان هذه البلدة كانت اقامت هيكلًا معتبراً للإلهي الصحة وان سدنة الهيكل كانوا من الذوات كما يظهر ذلك من الناوس الذي دُفن فيه هذا الكاهن . وهو جميل حسن النقش . ولعمري قد اصاب الاقدمون لما جعلوا هذه القرية مقاماً لمعبد الصحة لان علوها نحو ١١٠٠ متر فوق سطح البحر وهواءها الطيب ومناظرها البهجة المطلّة على سهول كفرحلا المنحسبة توافق الصحة وتنعش القوى

اما الكتابة الثانية فهي على حجر داخل في جدار كنيسة الروم الاورثدكس (المشرق ٢: ٨٧٠) وقد اخذتُ رسمها بعد افراغ الجهد الجهد الا ان هذه الكتابة

مطموسة لا يُفهم منها سوى كونها ضريحاً لعدّة اشخاص ذهب اسماءهم الأواحداً منهم . وقد درس ايضاً تاريخُ الكتابة فلم يُعد لها شأن كبير . ومن قرى بلاد البترون التي تشتمل على بعض الآثار قرية « بقسميّة » . فأنّا نقدر انها كانت مزدانة بهيكل وثني في سالف الأعصار والكنيسة الحالية مبنية بموادّ ذلك البناء قترى حجارتها كبيرة حسنة النحت . وابواب الكنيسة اكثرها من ذلك المعبد القديم لها العتبات المنقوشة وجوانبها قطعة واحدة . وان دخلت الكنيسة وجدت آثاراً غير السابقة كالنقوش المحطمة المعترضة في رسط البناء . ولو بحث الاهلون او نزعوا هذه البقايا لوجدوا بلا شك كتابات قديمة ترشدنا الى تاريخ القرية بيد انهم حتى الان لم يقدموا على ذلك ومما رأيناهُ عتبة معبد السيدة الملاصق للكنيسة فانها تُبرز المعيان بقايا كتابة لم يمكننا قراءتها .

وبقسميّة من القرى التي احتلّها الروم الملكيون زمنًا طويلاً كما سنبين ذلك في مقالتنا الآتية عن دير مار يوحنا مارون . والروم لم يسكنوا فقط جهات الكورة حيث كان عددهم وافراً بل احتلّوا ايضاً قسماً من بلاد البترون التي تُعدُّ كعهد الامة المارونية . ولنا في كل ذلك تفاصيل نعرضها ان شاء الله عند سنوح الفرصة

٢٦ كفريحي ومدرسة ماريوحنا مارون

كفريحي مزرعة صغيرة موقعها فوق رابية جنوبي نهر الجوز على مسافة ثلاث ساعات من البترون في شرقيها . وكان لكفريحي شأن اعظم في ما سلف من الاعصار كما يُستدلّ على ذلك من الآثار القديمة وشواهد الكتبة من الموارنة .

وفوق المزرعة كنيسة مار سابا الذي سبق ذكرها . وفي ظننا انها تُشيدت في مكان معبد وثني قديم . وعند مدخل الكنيسة قطعة نصب نُقش في واجهته اكيليل لانهُ خلّو من الكتابة واذا دخلت البيعة رأيت صفيحة عليها كتابة ذهب قسم منها وهي ترتقي الى سنة ٢٧٠ للمسيح . ومضمون الكتابة ان رجلين يُدعى احدهما مونيموس (Μονιμος) والآخر سيناس (Σιννας) اقاما هذا المذبح لاحد الآلهة لم يبقَ من اسمه الا حروفه الاولى الثلاثة (ΔΙΙ. ΑΡΑ.)

واسم مونيوس نفسه اسم إله كان يتعبد له خصوصاً أهل الرها يشركونه بمعبود آخر يدعى عزيزاً (*Ἐξίρα*) . إلا أن عبادة ذلك الإله لم تكن محصورة في الرها ترى ذكره في الكتابات المكتشفة في حوران . وقد وجدنا اسمه مدوناً في عدة آثار وقتنا عليها في حمص ثم غنينا بنشرها . وما اسم مونيوس على رأينا سوى تصحيف لاسم آرامي يوافق في العربية « منعم » من الأسماء الحسنى عندهم كما يستدل على ذلك بتقديم العبد فيقولون « عبد المنعم » وهو اسم بعض المقدمين في بشرى في القرن الخامس عشر (١) . وما يؤيد رأينا بل يزيل عنه كل شبهة أن العلامة رينه دوسو (R. Dussaud) وجد اسم « منعم » (*menem*) بين اعلام كتابات الصفا (٢) وكانوا يريدون به الإله الكريم الوهاب . وبمثل هذه الصفات وصفه الكتبة اليونان والرومان عند ذكرهم هذا الإله ورفيقه عزيزاً

أما مدرسة مار يوحنا مارون فلا تبعد عن كفرحي أكثر من ربع الساعة مقامها شرقي القرية . والتقليد المحلي مجمع على أن هذه المدرسة بُنيت في مكان الدير الذي بناه القديس المذكور في نهاية القرن السابع . قيل أن هذا البطريرك زين كنيسة ديره ذخيرة ثمينة وهي هامة القديس مارون الناسك الشهير إلى الطائفة المارونية وأن الدير دُعي مدّة من جرّاء ذلك دير رأس مارون (*رأس مارون*) . وبقيت الذخيرة هذه في مكانها إلى سنة ١١٣٠ فنقلها أحد الرهبان البندريكتيين إلى مدينة فولينيو من أعمال إيطاليا

ولا يخفى على من له الملم بتاريخ الطائفة المارونية كم هي نادرة التفاصيل الراهنة عن أصل هذه الأمانة الجليلة وأحوالها في الأعصار الأولى بعد ظهورها . وغاية ما نعرفه من هذا القبيل قد بلغنا بالأحاديث الشفاهية التي لم تدوّن إلا منذ عهد قريب فلا بدّ إذاً من شواهد كتابية قديمة لتؤيد هذه الأخبار المنقولة (٣) على أننا لا

(١) راجع تاريخ الطائفة المارونية للدوبي (ص ١٤١) وروايتنا المعنونة « حيس بيرة قدس »

(٢) راجع كتابه Voyage archéolog. au Safa, N° 78,83,412

(٣) فليراجع الكتاب الذي نشره حديثاً سيادة المطران يوسف دريان المعنون « لباب البراهين الجليلة عن حقيقة امر الطائفة المارونية »

نيأس من اكتشاف مثل هذه الآثار الصادقة في زمن توفرت فيه الوسائل وانفتحت
الخزانات الادبية وظهر العيان ما لم يكن قبلاً في الحسبان . واملنا اوطد في اهل هذه
البلاد فانهم اذا بحثوا لدى الخاصة وفي الاديرة القديمة وفي خزائن الدار البطريركية
او الكراسي الاسقفية القديمة لا نشك ان مساعيهم تتكفل بالنجاح فيجدون في
الزوايا خبايا (١)

واذا عدنا الى تاريخ دير مار يوحنا مارون لا نجد لذكره اثرًا قديمًا . وانما يروي
الرواة ان منشئه عاش ودفن فيه وقد عُني مرارًا اصحاب المهمة بالحفر فيه لعلمهم
يقعون على قبره . لكن هذه الابحاث لم تأتِ حتى الان بشرة مع ما وجد هناك
من المدافن

وفي سلسلة بطاركة الطائفة المارونية (المشرق ١: ٢٥١) ان خلفاء مار يوحنا
مارون سكنوا هذا الدير وفيه قُبر كثيرون منهم . ولهذا المقام ذكر في تاريخ
الصليبيين (٢) يدعونه مار مارون كفرحي (S. Maron de Caphrai)
ثم نُقل الكرسي البطريركي الى دير سيدة يانوح وبقي فيه الى عهد البطريرك
دانيال الشاماتي فاعيد الى كفرحي . ثم جرى بعدئذٍ على هذا الدير ما جرى من
حروب ونكبات وبلايا كادت تذهب بآثاره

قال الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٤ (ص ٢٠٧) : وبسبب كثرة الحكماء
والاغراض كثرت الظلم وكلفوا الرعايا بدل المال مالاكين وقبضوا على الرؤساء في القرى . . .
وكان القس يوحنا الاجبعي مترسًا على دير القديس مارون في قرية كفرحي فوشى به
اهل تقسيمية الى ابن سيفا حتى قبض عليه واهانه وسامه ما هو فوق طاقته فترك الدير
من ثم وارتحل ومن ذلك الوقت خرب الدير وتخرت بقسيمية التي كانت لطائفة
الملكية «

وبقي ذلك الدير خرابًا صنفًا الى ان جدّد البطريرك يوسف اسطفان بناء ما كان
متهدمًا فيه في اواخر الجليل الثامن عشر واسكن فيه بعض رهبان . وكان ذلك بعد

(١) وما نُشر مؤخرًا في هذا الصدد كتاب الخوري نو الافرنسي (Opuscles maronites) وكذلك مرّ في المشرق (٢: ٢٦٥، ٢٦٥، ٤٠١) بعض مقالات في هذا الصدد

(٢) راجع Rey : Colonias franques. p. 359

رجوع البطرك المذكور من الكرمل وعند زيارته الرعية فلما مر على الدير المذكور لم يجد سوى آثار دراسة واطلال طامسة فحرّكته الغيرة الدينية على ارجاعه الى رونقه القديم فوجه اليه القس يوسف الحدّاد والقس الياس من ريفون ليعتينا بتجديده

وفي آبان زيارة المطران جومانوس ثابت لبرشيتيه جُبيل والبترون رأى افتقار زعيته الى المدارس فارتأى تحويل الدير المذكور الى مدرسة يتعلّم فيها من كل مقاطعة في لبنان ولدان . فصادق البطريك يوحنا الحلو على هذا المشروع في سنة ١٨١١ وعضده القاصد الرسولي السيد لويس غندلفي

وفي سنة ١٨١٨ اجمع البطريك والاساقفة على ان يجعلوا مقام مطران جبيل والبترون في مدرسة مار يوحنا مارون . او الاخرى ان يقال ان ابرشية جبيل والبترون صارت ابرشية البطريك الخاصة فيجعل له فيها نائباً احد الاساقفة الذي مركزه في مدرسة مار يوحنا مارون . وممن زادوا هذه المدرسة رونقاً وسعوا نطاق تعليمها الطيب الذكر المطران يوسف فريفر الذي ترأس عليها مدّة وافرج كل مجهوده في نجاحها فصارت في طبقة المدارس الثانوية التي يفتخر بها الوطن منذ نصف قرن . وقد عزّز المرحوم المنسيور بطرس ارسانيوس رئيسها السابق دروسها بعد وفاة السيد يوسف فريفر فبلغت في هذه الايام اوج عزّها فحفلت بالتلاميذ وازدهت بالعلوم . وما سرّاً ان طلبتها لا يدرسون فقط اللغة العربية واللغات الاجنبية بل يتقنون ايضاً اللغة السريانية فيكتبونها ويتكلّمون بها (١) . ولولا خوفنا من ان نخرج عن الحدود التي تحرّيناها في مقالاتنا لانبسطنا في وصف هذه المدرسة ومحاسنها لا زالت راقية في معارج التقدم والفلاح

٢٧ جبة بشرأي

بلغ بنا تبليغنا لآثار لبنان الى مشارف هذا الجبل وها نحن ذا في معاملتي اهدن

(١) ونعنتم هذه الفرصة لتقديم فروض الشكر لروساء مدرسة مار يوحنا واساتذتها الافاضل لما لقينا عندهم من الحفاوة والاكرام كلما حللناه في رحلتنا الى بلاد البترون . كما اننا نشكر لحضرة الخوري بولس طعمه لطفه لما افادنا به من المعلومات عن كفرحي ومدرستها وقرى بلاد البترون . وبعض الفوائد التي دونّاها في مقالاتنا قد استندناها من فضله

وبشري . على ان هذه الجهات دون السواحل الفينيقيّة من حيث ماثرها القديمة وانما هي معتبرة لسبب آخر « لكونها اصبحت مهداً للطائفة المارونية » (قال ذلك رينان) فنت هذه الامة الكريّة في ارجائها واتسعت منذ نحو ١٢٠٠ سنة اما اذا ضربت صفحاً عن نشأة الموارنة في تلك الاصقاع فلا تكاد تعثر على امر ذي بال يستدعي التفات العلماء اليها . وكانت بلاد بشري في سالف الزمان قليلة الاهلين تمتد في معاطف جبالها غابات الارز الباسقة . ومن المحتمل ان تكون ظهرت فيها بعض القرى ومن جملتها بشري . لكن الامر محمول على الحدس فقط . ولا احد من العلماء حتى الان وجد فيها اثرًا يرتقي الى عهد اليونان او الرومان اما اسمها بشري ويكتبه البعض بشرة وبشري فقد اختلف في معناه . قيل (١) ان اصله بيت الشري يراد به بيت عشوت . فان صح هذا الاشتقاق دل اسمها على قرية عريقة في القدم عبد فيها اللبنانيون إله السماء الفينيقيّة كاهل جليل والمرجح ان مؤرخي الصليبيين ارادوا هذه البلدة في تأليفهم لما ذكروا قرية يدعونها Buissera و Bussera وهي من القرى التي كانت لاحقة باملاك صاحب طرابلس واليهما تنسب احدى الأسر الفرنجيّة الشريفة كما روى « راي » في كتاب مستعمرات الفرنج (٢) . اما تاريخ الامة المارونية فانه يجعل في بشري وجوارها الحوادث التي جرت في أول ظهور الطائفة غير ان هذا التاريخ لم يدون قبل ابن القلاعي في اواخر القرن الخامس عشر

وبما ذكره صاحب اخبار الاعيان (ص ٢٠) ان مولد القديس صفرونيوس بطريرك اورشليم في القرن السابع كان في بشرة وقد كان سألنا احد السائلين في المشرق (٣٠٨:٤) هل صحيح ان هذا القديس ولد في « بسري » كما يزعم اهل التقليد . ولا نعلم اي التقليدين هو الصواب أبشرة كما قال الشيخ طنوس الشدياق او بسري كما زعم السائل وعلى كل حال فقد بينا هناك ان القديس صفرونيوس ولد في دمشق لا في لبنان واستندنا في قولنا الى شواهد لا تنقض ولنا في تاريخ اهدن ما يزيد ثقتنا بقدم عهدها . على اننا لا نسلم بالتقليد الذي

(١) راجع كتاب فلسطين لإبرس وغوتي Ebers und Guthe: *Palästina* II.448

(٢) راجع *Colonies francaes* p. 363 . راجع أيضاً ZDPV, X, 211, 204

يجعل الفردوس الارضي في اهدن (١) . ومن روى ذلك يزعم ان اهدن هي جثة عدن وان اسمها مشابه للعبرانية ١٦٥ . وهذا قول لا سند له وكذلك قد وهم الذين ظنوا ان اهدن هي المدينة التي ذكرها بعض القدماء . ودعاها Τριπαρδεσιος و Παρδεσιος لأن موقع هذه المدينة في جنوبي حمص على مسافة ست ساعات من حمص ونصف الساعة من ربة وكانت قرب العاصي في مكان قرية جوسية الجديدة كما اثبت الامر السائح العلامة موسيو دوسو (راجع المشرق ٣ : ٣٤ , ٣٥)

وقولنا هذا لا يبخس شيئاً من حقوق اهدن ونحن اول من يقر بجس موقع القرية وطيب هوائها وجمال مناظرها الفتانة اما الادلة على قدمها فكتابات ثلاث وجدت فيها اثنتان منها باليونانية والثالثة بالسريانية . فالكتابة اليونانية الاولى قد طمسها الدهر ولم يبق منها الا سطران في آخرها وهناك تاريخ تسطيرها وهي السنة ٥٨٤ لالاسكندر توافق السنة ٢٧٢ م . والكتابة اليونانية الثانية مرقومة على قبر مجاور لكنيسة القديس ماما . وهي مطموسة لا يسمح سوء حالها من تفسيرها وليس لها تاريخ ظاهر وفي رأسها صليب صغير يعاوها ولكن هذا لا يكفي لان نسب الكتابة للنصارى لانه امكن المسيحيين ان يحفروا هذا الصليب بعد ذلك بقرون عديدة . وقد اخذنا رسم هاتين الكتابتين عن الحجر ولكن لم يمكننا ان نصلح في شيء ما اثبتة رينان في كتاب بعثة فينيقية . وهو ايضاً ذكر الكتابة الثالثة المكتوبة بالسريانية بالحرف الاسطرنجلي وهذا تعريب ما بقي منها : « بسم الله الذي يحيي الموتي في سنة ١ — لالاسكندر وقد ومات مرقس »

وفي اهدن كنائس قديمة ذكرنا في مقالة سابقة ما لها من الخواص الهندسية فلتراجع

وترى على مقربة من اهدن عدة قرى كالحديث وحصرن وغيرهما من الضياع التي لا نجد فيها شيئاً من الآثار الناطقة عن قدمها . الا انها مذكورة في اخبار الطائفة المارونية كما نقلها الينا التقليد فيكون ابناء مارون اول من خول هذه الاماكن ذكراً تاريخياً ولعلمهم هم الذين انشأوها فسكنوها والله اعلم

٢٨ أَرْضُ لُبْنَان

لا يسعنا في وصف آثار لبنان ان نضرب صفحاً عن شجر اختص به هذا الجبل دون غيره زيد شجر الارز الذي نُسب الى لبنان نسبةً غير منفصلة . لكننا لانبسط الكلام فيه الا لنورد ما يفيدنا عنه علماء تاريخياً وأثرياً ونذكر لارباب الطبيعة ما هو أحق بوصفهم

غني عن البيان ان الارز المذكور في الاسفار المقدسة هو هو ارض لبنان كما تشهد تسميته العبرانية والعربية التي لم تختلف منذ القدم حتى الان . وكذلك يوافق ارضنا الذي نعرفه ما جاء فيه من الاوصاف في الكتب المنزلة مثل بسوقه (اشعيا ٢ : ١٣ حزقيال ٣١ : ٣ و ٨ عاموس ٢ : ٩) وامتداد اغصانه الفناء الوارفة الظل (حز ١٧ : ٢٣) ورائحته الرائحة التي تعطر الارعاء (نشيد ٤ : ١١ هوشع ١٤ : ٧) وحسنه الذي يجعله فخرًا للبنان (اشعيا ٣٥ : ٢ و ٦٠ : ١٣) ووفرته في هذا الجبل (مز ٩٢ : ١٣ و ١٠٤ : ١٦ اشعيا ١٤ : ٨) قال حزقيال (٣١ : ٣ - ١) ملخصاً كل هذه خواص الارز وهو يشبه به ملك اشور : « هوذا اشور ارضه بلبنان بهيجة الافان غيباء الظل شامخة القوام وقد كانت ناصيتها بارزة بين اغصان ملتفة . المياه عظمها والنمر رفعها . انها رها جرت من حول مغرسها ومجارها ارسلتها الى جميع اشجار الصحراء فلذلك عند نشأتها ارتفع قوامها فوق جميع اشجار الصحراء وامتدت فروعها من كثرة المياه . في اغصانها عشت جميع طيور السماء وتحت فروعها ولدت جميع وحوش الصحراء . وفي ظلها سكنت جميع الامم الكثيرة وصارت بهيجة في عظمتها وفي طول عذباتها لان اصلها على كان مياه غزيرة . . . فكل شجر في حنة الله ياتلها في بهجته فاني صنعتها بهيجة بكثرة عذباتها فقارت منها جميع اشجار عدن في حنة الله » فله من وصف يطابق الواقع لاسيا في عهد النبي اذ كانت كل قمم لبنان مكللة بغابات الارز . وفي قول حزقيال احسن تنفيذ لاداء احد المحدثين من الفرنج واسمه اوجين دي لاسال (١) الذي زعم ان الارز عُرس في لبنان على عهد السلطان صلاح الدين يوسف الايوبي

هذا والأرز خشب صلب صقيل اصفر فاقع ذو خطوط حمراء عَطر الرائحة لا يفعل فيه الزمان ولا تقربهُ الأَرْضُ والسوس ولذلك اعتبرهُ قداماء البنّائين (راجع سفر الملوك الثاني ٧: ٧ و ١ اخبار ١٧: ٦ واش ١٠: ٩ وارميا ٢٢: ١٤) واستعمالهُ منذ عهد عهيد في الابنية كان اعظم الاسباب التي أدت الى ملاشاته

وقد ذكر الطبعي بلينيوس (١) ارز سورِيّة كخشب لا يصيبه الفساد وروى انّ سقف هيكل ديانة في افسس الذي التهمته النيران بعد تشييده بنحو ٤٠٠ سنة كان من هذا الخشب . وكذلك كان قداماء الشعراء يشبهون الاعمال المخلّدة بالأرز (٢) .

وبما يشهد لهذا الشجر بالبقاء انّ لآيرد (Layard) وحدين عاديات اشور تزيروبال في غرود اخشاباً من الارز صبرت على آفات الدهر نيفاً و ٢٧٠٠ سنة فاخذها واعاد صقلها فكانت كأنها قُطعت حديثاً . وفي المتحف البريطاني قطع من هذه الاخشاب القديمة حسنة المنظر صفراء اللون بارزة العروق . وقد أُلقي شيء منها في النار فقاح عرفها الذي اطراهُ القداماء (٣)

اما استعمال الارز في البناء فكان متنوعاً يتخذهُ المهندسون لعبات الابواب وعوارضها وسقوف البيوت (راجع سفر النشيد ١: ١٤ و ٨: ٩ وارميا ٢٢: ١٤ وصفنيا ٢: ١٤) بل ربما التجأوا الى الارز لتصفيح جدران القصور والهيكل بالواحه . وكذا فعل سليمان في هيكل اورشليم قال في سفر الملوك الثالث (٦: ١٥ - ١٧) انه « بنى على جدران البيت من داخل الواحَ أرز ٠٠ من ارض البيت الى جوائز السقف » وقد احب القداماء ان يصفّحوا الجدران بهذه اللواح لانّ حجارة فلسطين وسورية هي في الغالب كلسيّة نخرة لا تروق العين كالرخام والصوّان والحجر المسانع فلتلافي هذا الحلل كانوا يصفّحون الجدران بصفائح من ذهب او فضة او خشب ثمين وكانوا يفضّلون الارز لبقائه . وكان داود قبل ابنه سليمان طلب من حيرام ملك صور ان يُرسل له كميّة من اخشاب الارز ليبنى بها بلاطهُ في اورشليم . فلمّا صار الامر الى

(١) راجع تاريخه الطبعي (ك ١٣: ١١ و ١٦ و ٧٦ و ٧٩)

(٢) راجع Horace, *Epist. ad Pisones*, 32 و Perse, *Satires* I, 41

(٣) راجع الشاعر فرجيل Eneid. VII, ١3 والتاريخ الطبعي بلينيوس ك ١٣ ف ١ وتأليف لايرد Niniveh and Babylon, 367

ابنه فاراد ان يشيد للرب هيكلًا يُسدّ من عجائب المعمور فضّل الارز على سواء
لتمجيد هذا المشروع الخطير

وكذلك صفّحوا داخل الهيكل الثاني في اورشليم بخشب الارز (١) وهكذا ايضاً
جعلوا سقف الهيكل الذي جدده هيرودس (٢)

امّا الابنية الاولى المسيحية التي شيدتها الملكة هيلانة مثل قبة القبر المقدس
وسقف كنيسة بيت لحم فقد اتخذوا لها ايضاً خشب الارز الى ان جددها الصليبيون .
هذا فضلاً عن انهم كانوا يستعملون خشب الارز فينحتونها كما قال قائل واصلاناً
اشعيا (٤٠ : ١٤) وقد قال مثله ايضاً كل من يوسانياس وبلينيوس (٣)

ثم ان خشب الارز كان معتبراً ومستعملاً في خارج سورية وفلسطين لان
سبحاريب ملك اشور يفتخر بانه صعد جبال لبنان وقطع منها شجر الارز (٤) وفي
الكتابات السامرية ايضاً يفتخر ملوك بابل واشور بثل هذه الماثرة لانهم كانوا في
الغالب يتقاضون جزية من خشب الارز . وكثيراً ما يرذ في النصّ الاشوري ذكر
الارز موصوفاً بطيب العرف ومقولا عنه ان ملوك نينوى وبابل كانوا يتخذونه جسوراً
اورواند في هياكلهم وقصورهم (٥) وكانوا يكثرّون جداً من استعمال الارز حتى ان
النبي اشعيا (١٤ : ٨) في معرض كلامه على سقوط بابل يوصوّر الارز فرحاً محبوباً
بجراها . وكذلك كانت قصور ملوك فارس في عاصمتهم من خشب الارز (٦)

وقد عرف المصريون الارز وخواصه العجيبة وكان الفينيقيون ينقلونه الى سواحلهم
بجراً (٧) فأتخذوه القراعة لابنتهم الفخيمة كالتصور الملكية والهياكل الدينية وقد
اقتدى بثلهم الملوك السلوقيون في سورية وقد اصطنعوا منه ايضاً اثاث بيوتهم لعدم
فساده . وذلك ما حدا الى ان يحشوا من نشارتِه على موتاهم في تحنيطهم ويطلبوا

(١) عزرا (٣ : ٧)

(٢) يوسفوس في حرب اليهودية (٥ : ٥ و ٣)

(٣) التاريخ الطبي (١١ : ١٣)

(٤) ملوك رابع (٢٣ : ١٩) واشعيا (٢١ : ٣٨)

(٥) Schrader مجموع كتابات اشورية وبابلية (ك ١ ص ٦٨ و ١٠٨ و ١٤٠) الخ

(٦) راجع المؤرخ اللاتيني كورتيوس روفوس (٥ : ٢٢)

(٧) راجع تاريخ الصناعة في القدم لپيرو (Perrot) الجزء الاول (ص ٥٦٧)

براتينجه خارج التوايت كما يشاهد ذلك في مدافن المصريين

*

فيؤخذ من كل ما سبق ان تجارة الارز اللبناني كانت متسعة النطاق . على اننا لم نذكر الأقسام صغيراً من الابنية التي كانت تجهز بهذا الخشب . فان الادوات الحربية والمجانيق كانت في الغالب تُصنع من الارز . ولا شك ان السد الذي اقامه الاسكندر بين الشاطئ والجزيرة المبنية عليها مدينة صور دخل فيه شيء كثير من خشب الارز

وقد روى المؤرخ ديودورس (ك ١٩ ف ٥٨) ان انطيوخ المملك حاول حصار المدينة المذكورة في سنة ٣١٥ ق م . فاراد ان يجهز له اسطولاً قوياً فأتى بثمانية آلاف عامل عهد اليهم ان يقطعوا من ارز لبنان ما كان كافياً لتجهيز ٥٠٠ سفينة حربية . فثقل الخشب المقطوع على ظهر الف دابة الى مصانع صيدا وجبيل وطرابلس حيث أنجز العمل . قال الراوي : « وكان الخشب المذكور من الارز المرتفع القوام الباهر العظمة » فترى من هذا المثل الوحيد كم عاثت الحروب بارز لبنان . ولكن كم عبت به من الخطابين غير الثمانية آلاف الذين ذكروا هم . ولو اردنا لأوردنا امثلة عديدة تؤيد قولنا . ويؤخذ من رواية ديودورس ان كل قم لبنان كانت تزدهي باشجار الارز من الشمال الى الجنوب يستدل على ذلك من ذكر المدن الساحلية التي نقل اليها الارز لعمارة اسطول انطيوخ . واذا استغرب القارئ وجود الارز جنوبي لبنان فليذكر خبر حيرام ملك صور المشار اليه سابقاً

ومما يؤسف له ان الحكومة المحلية لم تسن السنن لقطع هذه الغابات بنظام . وعلى رأينا ان الرومان اول من فكّر في هذا الامر الخطير كما يظهر ذلك من كتابات لأدريان الامبراطور اوردناها مراراً مفادها ان الحكومة لا تسمح بقطع اربعة اصناف من الاشجار (١) من جملتها الارز . ومع ما دهم الارز من العيث والفساد ترى المؤرخين الرومانيين يذكرون غاباته الكثيفة من جملتهم تاقيتس المؤرخ (ك ٥ ف ٦) . وروى اوسابيوس القيصري (ك ١٠) ان سقوف البيعة كانت تتخذ عادة من خشب

(١) قد وردت هذه الكتابة في المشرق (١: ٧٢٩) على خلاف هذه الرواية . والصواب

ما ندونه هنا

الارض في القرن الرابع

على ان السنن الرومانية لم تحفظ للبنان فخر غاباته إلا زمنًا قليلًا فإن پروكوب المؤرخ (١) يحبر عن يوستينيان الملك انه بحث البحث الطويل قبل ان يجد الارز الضروري لتشييد كنيسة مريم المكيّة في اورشليم . وبعد التنقيب والتفتيش عثر البناؤون على ما كانوا يطلبون اي سوارى باسقة الطول كافية لعوارض ستف البيعة واذا تنبّعنا تاريخ الارز من ذلك الحين وجدنا يد التلف تسطو على غاباته حتى لم تكدر تترك منها غير اثر بعد عين . فقد ذكر تاوفان المؤرخ في تاريخ سنة ٦١٤٠ للعالم ان معاوية اول خلفاء بني امية ابتنى ١٧٠٠ سفينة شرعية واتخذ موادها من جبل لبنان . ولم تقصر سنوات قليلة بعد ذلك حتى جهز ايضا اسطولًا ثانيًا (كثير عددًا واشد هولًا من الاول وقد حذا حذوه غير واحد من الخلفاء في مسألة الانشاءات البحرية وكانوا يجعلون اخص دور الصناعة وهي التي تسمى اليوم بمحلات الورشات او الترسانات في مدنة طرابلس نظرًا لقربها من غابات الارز . وما عاون ايضا على تلف الارز وكان من حملة اسباب قطعه صناعة استخراج الحديد ومعالجته التي كانت اثناء القرون المتوسطة شائعة في كثير من نواحي لبنان كما يؤخذ من تاريخ ابن بطوطة والادريسي والقلقشندي . ثم ان الجهات التي اقيمت فيها مسابك الحديد وكانت في مبادئ القرن التاسع عشر زاهية بالغابات والاحراج الملتفة أصبحت ولا نرى فيها اليوم نبتة خضراء . فبهذه الطريقة والحالة هذه نستطيع ان نعلل سرعة فنساء الغابات في حمل لبنان

اما الان فلم يزل شجر الارز موجودًا في اربعة اماكن من انسان لائق تجد منه اولًا في شمالي لبنان بين قريتي الحدث ونيحا غابة يبلغ طولها نحوًا من ساعة ونصف . نعم ان اكثر اشجارها فتية وليس في كل اماكن الغاب بملتفة ولكن اذا اتخذ ما يلزم من الاحتياطات لصيانتها لا تلبث ان تصير بتادي الايام حرجًا من الطف الاحراج وأنقها

وثانيًا في اعالي قرية سير ببلاد الضنية في اعالي وادي النجاص فهناك كثير من

شجر الارز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن مساواة البحر . وتجد الارز ايضا بين سير ونسج السكر ثم في الغابة الواقعة خلف وادي جهنم (١) والقوم في تلك الناحية يستثونه قنوب (٢)

ثالثاً في لبنان لقيف ثالث من شجر الارز لا يعرفه الا القليلون ثابت في الجبال المشرفة على قرية الباروك وعلى مسافة ساعة ونصف من الجنوب الشرقي وهو هناك بهيئة غابة غيباء تمتد على مسافة ساعة طوًلاً غير ان شجر الارز في المحل المذكور يوجد ألقافاً ينفصل بعضها عن بعض في الغالب بمسافات خالية او مشغولة بأشجار أخرى من جملتها السنديان وهو من نوع السنديان الذي ينبت في شمالي اورية واهل البلاد يستثونه الملك ويسمون الارز الأبهل . وارز الباروك بوجه الاجمال فتي ولكن قد تصادف فيه بعض اشجار عتيقة غير انها اقل سبوقاً وارتفاعاً من الارز الموجود بناحية بشراي لان ثقل الثلوج في مثل هذه النواحي العالية كثيراً ما يكسر قمم الشجر كما ان شدة الريح تحنيها حتى تجعلها منبسطة كالظلّة على هوى الريح . فضلاً عن ان الخدوع تنفر عادة الى فروع فتصير عظيمة وكبيرة . اما متى كانت الشجر مجتمعة لقاً واحداً فترى جذوعها سامقة مستطيلة وخالية من الفروع غير انها تكون اقل ثخانة نظراً لشدة قربها بعضها من بعض . على ان ارز الباروك بما فيه من الشجر الكبير والصغير والفتي الثابت على اصول القديم يثل للعين غابة حقيقية اكثر من ارز بشراي

ولكن حياة هذه الغابة الحبيبة زاهها لسوء الحظ مهددة كل ساعة بافناء والدمار لانها لما كانت ملكاً لقرية الباروك كانت بلدتها تأذن بالقطع منها لقاء بعض دربهات تنفع بها فن ثم نستلفت الى هذا الامر انظار الحكومة اللبنانية

اما اشهر لقيف من شجر الارز فغابة بالقرب من قصبة بشراي وموقعها على علو ١٩٢٥ متراً فوق مساواة البحر في سفح الجبل المعروف بظهر القضيبي . والتربة النابت فيها الشجر المذكور كلسية ولكن الورق الذي يتساقط منه ادى شيئاً فشيئاً الى

(١) وقد ذكر ارز الضنية الرحالة سترن (١ ص ١٧٩)

(٢) راجع المجلة الفلسطينية الانكليزية سنة ١٨٩٣ (ص ٢٢٠)

تكوين قشرة من التراب الاسود . وفي قلب هذه الغابة كنيسة صغيرة للموارنة يقيمون فيها الاحتفالات كل سنة يوم عيد التجلي واعظم شجر الارز نابت في جوار الكنيسة المذكورة ومنه ارضة يبلغ محيط جذعها اربعة عشر متراً و ٥٦ سنتيمتراً ثم ارضة أخرى تقاربها في هذه الضخامة . والارزتان المذكورتان هما اقدم شجر الغاب وقدّر بعضهم ان عمرها لا يقلّ عن ثلاثة آلاف سنة (١) . قال بذلك الجيولوجي الشهير الدكتور فراس الذي بنى حسابه على العقد المختلفة الموجودة في الشجرتين

واكبر ارتفاع تبلغه هذه الشجر لا يتجاوز ٢٥ متراً وفي جملتها شجرات يتراوح ارتفاعها بين اربعة عشر واثنين وعشرين متراً والباقي يقلّ ارتفاعه عن اربعة عشر متراً

واما جملة شجر الغابة فهو نحو ٣٩٧ شجرة يدخل فيها الشجر الصغير الذي لا يتجاوز ارتفاعه سبعة امتار وهو مما وقّف الشجر الكبير في سبيل نموه مانعاً عنه الهواء اللازم لذلك . وفي الغابة ايضاً شجرات اشدّ قربها الى بعضها كثيراً حتى تلازمت جذوعها واصبحت كأنها جذع واحد

ومن يقابل بين اخبار السياح والجوّالة الذين زاروا هذه الغابة يَرّ ان ارض بشمراي قد زاد عدداً في ايامنا . لان الارز المذكور كان في القرنين السادس عشر والسابع عشر قد تناقص بل اوشك ان يثاقل لولا عناية بطاركة الموارنة الذين تهّدّوا بالحرم كل من يمدّ اليه يداً عادية

واول من تكلم عنه هو ييلون (٢) الافرنسي وعدّ منه ثمانية وعشرين ارضة قديمة . ثم السائح الالماني فوريرفون هايمندروف (٣) سنة ١٥٦٦ وعدّ منه خمساً وعشرين ارضة . ثم العشّاب راولف (٤) الذي زاره سنة ١٥٧٥ ولم يعدّ منه غير اربع وعشرين

(١) راجع المجلة الفلسطينية الالمانية (ZDPV) مجلد ١٠ ص ٩١ وكتاب ايبرس وغوته

(مجلد ٢ ص ١٤) المعنون Palestina im Wort und Bild

(٢) Belon

(٣) Fürer von Haimendorf

(٤) Rauwolf

أرز لبنان

١٤١

ارزة . ومن بعد هذا التاريخ كثّر الذين اخبروا عن الارز من جملتهم الاب ايرونيوس دنديني اليسوعي قاصد الكرسي الرسولي الى الموارد فانه زاره سنة ١٥٩٩ وعدّ منه ثلاثاً وعشرين ارزة . ومنهم دارفيو (١) الذي زاره ١٦٦٠ ومنهم روجه وغيره ولم يجدوا اذ ذاك غير اثنتين وعشرين شجرة . ومن بعد هؤلاء زاره المؤرخ دي لاروك سنة ١٦٨٩ فوجد فيه عشرين شجرة والانكليزي موندريل سنة ١٦٩٦ ثم بوكوك وعدّ الاول ست عشرة والثاني خمس عشرة فقط . غير ان الشجرات الفتية قويت لحسن البخت في اثناء هذه المدة على ان تنمو تدريجاً وتعوّض عن الارزات القديمة

وفي تضاعيف القرن الثامن عشر تجددت الغابة شيئاً بعد شيء وترتقي اعمار الشجرات الفتية الى هذا التاريخ ومن ينظر الى ما فيها من العقد يُقدّر ان اعمارها لا تزيد على قرنين

وفي ٢١ تموز سنة ١٨٠٥ جعل سيتن عددها ثلاثمائة ارزة بنوع التقدير اذ يظهر انه لم يعدّها واحدة فواحدة . وفي سنة ١٨١٠ احصاها بورخارد ثلاثمائة ارزة صغيرة وخمسين متوسطة وخمس وعشرين ضخمة وجملة ذلك ٣٧٥ ارزة . وقد ذكر هذا العدد نفسه تقريباً الجيولوجي فراس الذي زار الغابة سنة ١٨٧٤ ممّا يدلّ على ان عدد الارزات قد بقي في زماننا على حاله

ومع كل ذلك لا يمتنع تكثيرها وفراها من تكرار ما سبق لنا ايراده في هذا الشأن نجيل القاري على المشرق (١ : ٧٢٧ و ٣ : ٩٧٦) حيث أفضنا الكلام في الارز وأقنا المقابلة بين لبنان وجبال الألب

وقد مرّ القول انّ الارز يوجد ألقافاً متفرقة ما بين كبيرة وصغيرة في اماكن مختلفة من جبل لبنان . وهذا يثبت انه يقوى على النجاح والنمو فيه . بقي ان نقول ان الارز يوجد ايضاً في تعانيل التابعة البقاع وذلك في ارض الابهام اليسوعيين الذين امتحنوا زراعته عندهم فافلحوا . اما في خارج لبنان فيوجد الارز بكثرة في جبال قرمانية وجبال جزائر الغرب وكل هذا من شأنه ان ينشط مساعي الذين

يهتمون بحفظ الاشجار الجميلة التي كانت زينة وحلية لهامة لبنان منذ الدهر
القديم (١)

٢٨ الكورة

الكورة من اخصب انحاء لبنان تجمع بين ارفاق السهل والجبل . ولا مرأ ان
الناس سكنوها منذ القرون الغابرة . ولو بنينا الحكم على ما يوجد من التشابه بين
اسم قريتها « اميون » وعلم آخر « آميا » ورد ذكره في مكاتبات تلّ العمارنة
(المشرق ٣: ٧٨٩) لصح القول انها اقدم مقاطعة في داخل لبنان احتلتها السكّان .
وفي الكورة آثار ترتقي الى عهد اليونان والرومان كما سترى

٢٩ دار بعشتار - بزيّا - ناوس

اذا ما قطعنا نهر الجوز الفاصل بين مقاطعتي الكورة والبترون لقيت بادناً
دار بعشتار . وهي قرية فيها شيء من بقايا القرون الوسطى منها كنيسة ذات حنية
محكمة العمل تكتنفها اخوة قديمة من العهد نفسه . غير ان اسم دار بعشتار جدير
بالاعتبار . وهو مركّب من لفظتي بيت وعشتار . وعشتار هذه هي إلهة الفينيقيين
الشهيرة . فيستدلّ بذلك على ان هذه القرية كانت سابقاً هيكلًا لعشتروت يعبدها
فيه اهل لبنان

واذا يمتّ الشمال الشرقي بلغت بعد قليل قرية بزيّا ولعلّ اسمها منحوت من
بيت عزيز . فالباء اختصار لفظة « بيت » شائعة كبعديدات وبجدون وبزمار . اما
عزيز فاحد الالهة الساميين مرّ ذكره في المشرق (٤: ٧٢٩) . وفي بزيّا هذه هيكل
صغير قديم العهد حسن البناء لم يضععه حدثان الدهر . ولما تنصّر الاهلون جعلوا
الهيكل كنيسةً وأضافوا اليها حنايا آثارها بادية حتى اليوم . وهم يدعونها كنيسة
العواميد او سيدة العواميد لما يزين واجهتها من الاعمدة . وليس هناك كتابة تهيدنا
عن امر هذا البناء القديم وغايته

(١) اما طريقة تكتيرها فراجع في شأنها ZDPV ; X. 93

وقس على ذلك قرية ناوس التي موقعها شمالي شرقي يزيزا على مسافة اربعة كيلومترات منها . وهي فوق ربوة قريبة من عين عقريم الحالية . وما ناوس الا تعريب اللفظة اليونانية *νάος* يراد بها الهيكل . واذا استثنيت بعلبك وآثارها الجبّارية لا تجد في كل لبنان ما يضاهي بقايا ناوس واطلالها اتساعاً وعظمة . اما نقوشها فهي ايضاً دون نقوش بعلبك دقّة واحكاماً وفيها مسحة من الصناعة السورية . وهي من عهد الرومان كابنية بعلبك

وفي ناوس اخربة هيكلين كبيرين يلاصق احدهما الآخر يحدق بهما سوران رحبان وفي وسط كل منهما معبد قليل الاتساع تزينه اعمدة مصمتة تراها على صورة هيكل حصن سليمان في جبل النصيرية (١) واركان الابواب التي يدخل منها الى حرم الهيكل من الحجارة الضخمة وهي متورة على شكل درج . وآثار هذا الدرج باقية حتى يومنا . ولا ريب انه كان في الزمن القديم لهذين الهيكلين منظر يأخذ بالابصار . وكان الناظر يكشف من هذه الاكمة المرتفعة نحو ٦٠٠ متر فوق سطح البحر على كل الساحل من البترون الى ما وراء طرابلس . وهو يرى سهول الكورة ومزارعها الجميلة ممتدة امامه

واذا لحظت النقوش التي على الهيكل الشرقي وجدتها خشنة غليظة . وليس هناك من الحجارة الضخمة سوى مساند الابواب والصفائح المثثة الزوايا التي تعلوها . اما بقية الحجارة فهي متوسطة الكبر كحجارة افقا وقلعة قفرا . وفوق باب المدخل صورة كرة مجنحة تزينه وقد ألف الفينيقيون مثل ذلك في هياكلهم (راجع وصفنا لقرية اده في الصفحة ٦٨)

اما الهيكل الآخر الذي موقعه جنوبي عربي الهيكل السابق ففيه بقايا حسنة من نقوش ابوابه . وقد وجدنا بين ردم الهيكل عمالاً نصفياً يمثل البعل وعلى رأسه شعاع الا ان نقشه خشيب ونظن انه سقط من الكوة التي تعلو مدخل المبد . ولهذا الهيكل سور حجارته جبّارية تشبه حجارة دير القلعة يبلغ طول بعضها ستة امتار

(١) راجع مقالتنا الافرنسية المعنونة « في بلاد النصيرية » (Au Pays de Nosairis)

ونضرب صفحاً عن المدافن الجميلة والمقاطع التسعة والثاوييس المنقوشة التي تُرى حول قرية نائوس لثلاث نعوذ الى ذكر آثار وصفناها مراراً . على ان هذه المدافن والمقاطع تدلّ دليلاً بيّناً على ان تلك الاثنياء كانت في الاجيال الحالية عامرة حافلة بالسكان وان لم يُفدنا التاريخ من امرها شيئاً . وكذلك لم يكتشف احد حتى الآن بين هذه الاخيرة كتابة تفيدنا علماً عن اخبار السلف

٣٠ اميون

قد سبق لنا القول عن اميون وقدمها . اما الآثار الباقية فيها فقليلة لا يُعبأ بها . من ذلك صخر منحوت نُقرت فيه كوى او مشاكٍ . ومنها كهف يُرى اليوم تحت السراية الجديدة كان في ما سلف من الزمان مدفناً ثم جعل معبداً لذكر القديسة مارينا . وبقرب الكهف اخربة كنيسة عتيقة بقي منها حنيّتها وكان معبد القديسة مارينا تابعاً للكنيسة معدوداً كاحد مصليّاتها

وقد تكرّر ذكر اميون في تاريخ الموارنة القديم . وكانت اذ ذاك مركزاً مهماً للملكيين كما هي اليوم . ومن ذكروا اميون الشريف الادريسي في كتابه نزهة المشتاق امّا الصليبيون فلم نجد اسمها في تآليفهم وهم يصفون مع ذلك غيرها من قرى الكورة (ويدعونها La Core) ومن املاكهم في هذه المقاطعة كفر قاهل (Caphrahael) وبثوراتش (Boutourafig) وبطرومين (Bertrandimir) وبديهون (Bethamum) وغير ذلك من الاسماء التي شوّهها الفرنج باللفظ ويسهل اصلاحها

٣١ المَسِيلْحَة

للبتزون الى طرابلس طريقان الواحدة على ساحل البحر والاخرى جبليّة فن سار في طريق الجبل مجارياً لوادي نهر الجوز (وهي اليوم طريق العربات) وصل بعد مدّة قليلة الى حصن يُدعى المَسِيلْحَة وهو حرزٌ منيع موقعه فوق صخرة منتصبة على الوادي عمودياً . والوادي في هذا المكان ضيق حرج المنعطف اما تاريخ هذا البناء واخباره فمجهولة لم يرشدنا اليها احد من الكتبة . ولعلّ

القدماء في الاجيال المنصرمة كانوا شيدوا هذه القلعة فجعلوها كدوق لحركات العدو في مضيق لم يكن لهم ندحة من الاجتياز في وسطه ذهاباً الى طرابلس واياباً منها الى البترون . وما لا شبهة فيه ان ابنية الميلاحة الحالية لا تتجاوز القرون المتوسطة ولا يبعد ان الصليبيين رعموها بعد خرابها ان لم يسبقوا الى بنائها . وقد بحثنا في اوصاف البلدان لقدماء العرب وفي آثار الصليبيين فلم نجد لاسمها ذكراً

وفي كتاب رحلة المسفار دي لا روك (١) الافرنسي (De la Roque) ان الامير فخر الدين هو الذي بني الميلاحة . وعلى ظننا انها اقدم منه عهداً وانما نسبت اليه كما نسبت غابة بيروت مع كونها قبله بزمن مديد (راجع مقالتنا في المشرق عن اصل هذه الغابة ١ : ٩٣٩)

واذا خرجنا من الميلاحة وابتعدنا عن الطريق المؤدية الى طرابلس فلما الى الشمال لقينا شعباً يُفضي عن توقفه الى سطح جبل فسيح يُعدّ كقسم من مديرية القويطع وينتهي في شماله الغربي برأس الشقعة (٢) به دُعي الجبل برأس الشقعة

٣٢ جبل رأس الشقعة

هذا الجبل قائم بنفسه منقطع عن بقية لبنان يستأفت اليه النظر من بعيد بهيئته الغريبة ووعودة مرتقاه . وفي سطح الجبل عدة قرى عامرة حتى يومنا هذا اكبرها حامات . وكان لهذه القرية كنيسة قديمة لعلها كانت مزدانة بكتابات (٣) غير ان هذه الآثار درست لما بُنيت الكنيسة الجديدة

وهذا الجبل حافل بالاديرة كدير سيّدة الثورية ودير مار الياس ودير حنوش وغير ذلك من المراتب التي شيد اكثرها فوق ابنية قديمة وهذا ما يجذب بارباب العاديات

(١) راجع كتاب رحلتي (ص ٢٠٧)

(٢) هذا الاسم اصح من « رأس الشقعة » الذي استعملناه سابقاً في مقالتنا عن الزلازل في سورية (المشرق ١ : ٣٥٥)

(٣) راجع بحثه فينيقية لرنيان (ص ١٤٥) . ونحن ننتهز هذه الفرصة لتكرّر عبارات الشكر لاهل حامات الذين تحفوا بنا بعد ان تهنا في مشارف ذلك الجبل المغفرة لبس بعيداً من حنوش وبقنا عامة ليلنا مهادنا الارض وظلنا السماء

الى ان يقدموا الى زيارة هذا الجبل الصّرد. ولو زاده الجيولوجيون والجغرافيون لوجدوا فيه ما يُجديهم علماً

فلنباشرن بوصف القسم الشمالي من هذا الجبل اعني رأس الشّقة فنقول: انّ هذا الرأس ينتصب كصخرة صماء ويدخل في غمر البحر مشرفاً على كل البلاد المجاورة وعلاه يبلغ ٣٠٠ متر. واذا نظر اليه المسافر القادم من جهة طرابلس رأى شكلاً اشبه بدارعة هائلة قائمة فوق شبح البحر لا تبدي حراكاً في رأسها مهملاً مربعاً لماواة عدوها. وفي جوانب هذا الرأس اخاديد تشهد بما دهمه من الزلازل في كرور الاجيال فتضععت اركانها وتقطعت اوصاله. منحصر منها بالذكر الزلزلة التي حدثت في عهد يستنيان الملك ومرّ لنا وصفها في المشرق (١: ٥٠٣). وهذا الزلزال غير هيئة رأس الشّقة بل ألحق اهواله بالجبل المجاور لهذا الرأس فشوه صورته

وكان القدماء (١) يطلقون على هذا الرأس اسماً غريباً في معناه فيدعونه وجه الله (Θεοπροσωπον). أمّا النصارى اليونان فابدلوا اسمه باسم وجه الحجر (Λιθοπροσωπον) وهو اسم قرية مجاورة له موقعها فوق سطح الجبل جنوباً. ومما يفيدنا التاريخ ان الإلهة تانيت معبودة الفينيقيين كانت تدعى باسم «وجه بعل» أفلا يسوغ لنا ان نستنتج من هذه الدلائل ومن المقابلة بين هذه الاسماء ان الفينيقيين كانوا اختصوا هذا الجبل لعبادتهم لا سيما ان صورته الغريبة تستلفت الانظار. وهذا الظن يتأيد بمثل جبال اخرى في ساحل بحر الشام كان القدماء يعظمونها تعظيمهم للإلهة كجبل الكرمل والجبل الاقوع شمالي اللاذقية وغيرهما. وكان جبل لبنان نفسه مكرماً كاله يعبدونه ويدعونه بعل لبنان. أمّا تسمية الكتبة الفرنج لهذا الجبل برأس مادون (Cap Madonne) فليس هو كما زعم رينان اثرًا لعبادة الإلهة تانيت بل «مادون» تعريب كلمة «السيدة» ف قيل له رأس السيدة اشارة الى سيدة النورية التي بُني هناك ديرٌ باسمها. وقد ذكر الجغرافي اسطرابون انّ في زمانه كانت قلعة مشيدة في اعلى رأس «وجه الله» وان في هذا الجبل ليس بعيداً من البترون اغواراً وكهوفاً يأوي اليها المصوص وقطاع الطريق كانوا يعيشون في البلاد حتى اجتث يومئذ دابرهم واستاصل شأفتهم. ولعل

هذه المغاور هي الاغوار التي تُرى في يومنا ما وراء قرية « قبة » قريباً من قرية وجه الحجر وهي واسعة تُشرف على البحر (١)
واذا سرت من البترون على ساحل البحر قاصداً حُنُوش تمرّ بأواقر مزرعة تدعى سَلَمَاتا عندها نبعٌ جارٍ. وهذه المزرعة لم اتفقْ آثارها في رحلي. واني أتأسف اليوم على فوات الفرصة لانه يُحتمل ان سَلَمَاتا هي في مكان بلدة قديمة دعاها القدماء Σάλατων او Τονασίτοι Σάλατων وقالوا عنها انها كانت كرسياً اسقياً وجعلوها مع جيجرتا وأنفة (٢) ولكن لا بد من تحقيق الامر والاستطلاع على آثار المكان. وعلى كل حال لا يخالو وجود نبع في هذا الساحل الرمي القفر من الدلالة على مقام قديم

ووراء سَلَمَاتا هذه جون صغير يفضي اليه مسيل ماء ناشف يدعى وادي غميق. والطريق التي تمرّ حول هذا الجون منقورة في الصخر كالطريق الرومانية التي تُرى عند نهر الكلب. وعلى جانب هذه الطريق صخرة قد كُتب على وجهها أقيماً باليونانية ما تعريبه: « هنا ينتهي مُلك ديوسترات. وقد اتفقنا على ذلك ». وهذه الكتابة ضخمة الاحرف طولها ٣٠ سنتيمتراً وهي كما ترى نصبٌ جعل للدلالة على حدود الاملاك ومثلها كثير في منعطف لبنان الشرقي بين بحيرة اليمونة وبعليبك وبازاء هذه الكتابة على الصخر العمودي الذي



بجوارها رسم تربع بعروتين على هذه الصورة وليس ضمن التربع شيء ولعله كان فيها سابقاً كتابة طمسها الدهر لكنني لم اجد فيها اثرًا للبحروف كالسيّاح الذين سبقوني الى هذا المكان

وهذه الكتابات مع نقر الصخور تدلّ على ان القدماء مرّوا في تلك الانحاء. ولا ريب ان الطريق كانت تجتاز في هذا المكان ولعلها هي الطريق الرومانية التي كانت تتبع ساحل بحر الشام تنعطف بانعطافاته مارةً حول رأس المشقة. والمرجح ان الجيوش الرومانية كانت تسير في هذه الطريق الساحلية لان الطريق الجبلية الحالية كثيرة

(١) راجع الرحالة ستزن (Seetzen I , 231)

(٢) راجع ريلند (Relandi Palæstina , p. 216) والمجلّة الفلسطينية (المانية ZDPV)

(XXII , 143) يد اتنا لا نبث حكماً في ما قدّمنا

الوعورة صعبة المرتقى وليس فيها شيء من الآثار الدالة على اعمال الاقدمين. ولم يكن قبل طريق العربات المجديشة طريق غيرها تصل بين طرابلس واوراسط لبنان. امّا الطريق القديمة على وادي عميق وحنوش ورأس الشقمة فلم تعد مسلوكة. والارجح ان الزلزلة التي جرت في عهد يوستينيان دمرت هذه السبيل واخربتها

٣٣ حنوش

اذا عبرت من ثمّ وادي عميق بلغت بعد زمن قليل حنوش. وحنوش هذه هي اليوم عبارة عن دير صغير للرهبان الموارنة البليدين يحدّق به بضعة بيوت لسكنى الشركاء. ولكنها سابقاً كانت قرية ذات شأن (١) كما يؤخذ من الآثار العديدة التي تراها مبعثرة في السهل المجاور لها بينها معاصر وحجارة رجي وروؤس اعمدة. وهناك رسم كنيسة قديمة من الطرز البزنطي تُعرف اليوم بكنيسة القديس يوحنا طولها ٢٣ متراً و ٥٠ سنتيمتراً في عرض ١٥ متراً. والمرجح انها كانت مثلثة الاسواق وحواليها قطع اعمدة من الرخام مع صلبان منقوشة وبقايا كتابات يونانية ذهب اكثرها فضاعت معانيها بيد ان هذه البقايا تشير الى خطر ذاك المقام الديني وعظم قدره. وكذلك ترى من جهة الشرق مدافن نُقِرت في الصخور قد اتلفتها الايام

واغرب ما يوجد في حنوش من الآثار جرن منقوش العمل قطره ٤١ سم وعمقه ١٠١٥ يبلغ وزنه ٢٣٠٠ كيلوغرام يستدير به نقشٌ نائى ذو كتابة يونانية مطحوسة يُستدل من الفاظها الباقية ان فلاناً ابن فلان اصطنع هذا الجرن من ماله الخاص هبةً للمشتري (ἡ δαῖς) وكلا العلمين الواردين في هذه الكتابة سامي الصورة والاصل يُدعى احدهما انيلوس (Ἀννίλος) وهو اسم ارامي بجعت والاخر تاراس (Νααράς) يشبه الاسماء اليونانية المنقولة عن العربية مما ورد في كتابات حوران. وفي تعريف اصول هذه الاعلام فائدة كبرى للوقوف على سكّان هذه الامكنة وغيرها ايضاً فانها تدل على ان الاهلين كانوا آراميين جنساً وان كانت اللغة اليونانية اصبحت لغتهم الرسمية

(١) وقد وصفها حديثاً سيادة المطران بطرس شبلي في المجلة الكتابية (R. Biblique, 1901) 583 وانتقد على ما كتبه رينان بهذا الصدد

فان الاعلام اصدق اثر يبي باصل القوم وذكر اجدادهم . وامثال ذلك عديدة فقبائل الفرنك . مثلاً بعد استيلائها على بلاد غالية ابدلت لهجتها الجرمانية باللغة اللاتينية . لكن كثيراً من اعلامها بقيت على مسجتها الاصاية فكذلك بها دليلاً على تشعب الفرنك من العنصر الجرمانى

وقد وجد البعض آخرًا في جوار حنوش نقودًا كثيرة من الذهب عليها كتابا صورة يوستينوس الملك . وفي هذا ايضاً دليل على ان هذا المكان في سالف الدهر كان احل بالسكان منه في ايامنا . ولكن ماذا يا ترى كان اسم الحل سابقاً ؟ نجيب ان في تعريف اسم القديم كبحثاً مفيداً لجغرافية لبنان اعني تطبيق هذا المقام مع بلدة قديمة تدعى جيغرتا

٣٤ جيغرتا

اذا عملنا النظر في تاريخ القدماء وجدنا في اسطرابون (ك ١٦ ف ٢) ما لم يف بالغرض المقصود . فان غاية ما يعلمنا به هذا الكتاب ان جيغرتا حصن حريز يتلوه الاثوريون موقعه عند البحر قريباً من البترون ورأس الشقة (Θεοπερόσωπον) . على ان في هذا الوصف بعض الابهام اذ لم يفدنا عن جهة موقع جيغرتا ا تكون شمالي البترون ام جنوبياً . وهذا الالتباس يُزيله المؤرخ پلينيوس (ك ٥ ف ١٨) ومن قوله يتضح ان جيغرتا شمالي البترون وجنوبي تياريس (وهي انفة كما سترى) . وكذلك قد ورد اسم جيغرتا في قائمة قديمة للمدن المستقيمة التي موقعها على الساحل الفينيقي في اثر البترون وتدعى هناك قرية (Κώμην) (١) وهذا مما يبين ان جيغرتا كانت خاملة الذكر على أيام ملوك القسطنطينية . ولا يبعد انها اخذت في الانحطاط منذ زمن يستيان الملك بسبب الزلزال الذي اخرج الطريق القديمة واضطراً أهل السابلة ان يمرّوا في مضيق المسيلحة . وهذا ايضاً يعلل سكوت المؤرخين العرب عن جيغرتا

ومما يطلعنا على خطر جيغرتا في أيام دولة الرومان كتابة لاتينية اثبتها رينان في بعثة فينيقية (ص ١٤٨) يُستدل بها على سعة حدود تلك البليدة . وقد وجدت هذه

(١) راجع Relandi Palaestina, 160 ولعل كنيسة مسار يوحنا في حنوش هي الكنيسة الكاتدرائية التي اتخذها اساقفة جيغرتا

الكتابة في عرين وقيل انها نُقلت اليها من المسيلحة او من الهري فوق شكّا وعلى كل حال انما ينبغي وجودها في احد هذين المكانين بانّ جيغرتا المذكورة لم تكن بعيدة من راس الشقعة وعن شمال البترون لأنّ مثل هذه الحجارة لا تُنقل عادة الى مكان قاص.

وهذه الملاحظات اذا عاها المتقنون بالآتحةقوا ان جيغرتا ليست بزرغرتا كما ظنّ بعض العلماء كفورر (Fürer) (١) وهو لم يسند رايه الى برهان آخر غير التشابه اللفظي بين الاسمين مع ان موقع زرغرتا لا يوافق وصف الاقدمين لجيغرتا بعد زرغرتا عن البحر في شمالي انفة ووقعها في وسط سهول خصبة لا تصلح للتحصين بخلاف ما جاء عن حصن جيغرتا المشرف على البحر. وعلاوةً عن ذلك لم نسمع ان احداً وجد في زرغرتا شيئاً من العاديات. على اننا لا ننكر كون زرغرتا من القرى القديمة التي استلقت انظار الاسم الغابرة بحسن موقعها في بطائح مخضبة وادنية غناء يسقيها ماء نهر غير لكنا لا نرى فيها مناعة القلاع وليست هي جديدة بان يتحصن بها لصوص الاثوريين وقطاع الطريق كما جاء في وصف جيغرتا

وكذلك لا يصحّ تطبيق جيغرتا مع غرزوز لبعده غرزوز جنوباً عن البترون. ولا مع شكّا لوقعها في السهل او في منعطف آكام قليلة الارتفاع. ولا مع الهري لخالوها من الاثار القديمة وان كان وصف الاقدمين يوافقها بعض المواقعة من حيث الموقع الا انه لا يجوز ان ينسب الى قرية اصل قديم قبل ان يكتشف فيها شيء ينبغي بقدها امّا حنوش فتصدق فيها كل الاوصاف التي وردت عن جيغرتا من حيث قدمها وكثرة آثارها واتصال السكة القديمة المنقورة في الصخر عند وادي عميق بمقامها فضلاً عن موقعها في لحف راس الشقعة قرب البحر بين انفة والبترون. وترى من خلفها صخوراً عالية مقطوعة قطعاً عمودياً تصلح قسمها لتكون معلاً لقوم من الصعاليك وعشاً لاهل الغي والفن يعيشون بها دون ان يهابوا مباغته العدو. وقد شهدنا بالعيان وعودة هذا المكان وصعوبة مسلكه اذ ادركنا الليل ونحن فوق هذه الصخور المرتفعة تحدد بنا من كل جهة المهاوي والوهاد العميقة فاثرتا ان نقضي ليلنا في العراء من ان نلتم

(١) راجع المجلة الفلسطينية الالمانية (ZDPV, VIII, 19)

أنفة

١٥١

بانفسنا في المخاطر بمواصلة السير بين تلك الجاهل. هذا ونظن ان اهل الفساد من الجيفوتيين بعد الفتح الروماني واستتاب السلام نزلوا من مأويهم الحصينة فسكنوا في السهل الممتد بين البحر والصخور حيث توجد الاخرة القديمة
أما اسم جيفرتا (باليونانية Γίγας و Γίγας و Γίγας) فنظنه سامي الأصل يوافق العبرانية גיגא والسريانية ܕܓܝܓܐ ومعنى كلاهما المضيّق وشعب الجبل وهو ينطبق على موقع المكان ولغة ساكنيه القديمة اي الارامية وعي لغة الايتوريين الاصلية. وهذا المعنى على رايانا انسب للمقام من اشتقاق الاسم من اليونانية γίγας وهو ثقل العنب (راجع بعثة فينيقية ص ١٥٠)

٣٥ أنفة

أنفة ما وراء راس الشقعة في اخر السهل الذي بُليت فيه شكاً وهي مركز لدرس العاديات. والقرية الحالية موقعها بقرب راس مستطيل دقيق يشبه البرزخ. وقد حُدّ هذا الراس في عرضه بشبه خندقين نُقرا في الصخر نُقراً حجبياً متسعاً يبلغ سطح البحر. ومن اعتبر هذين الخندقين اخذه الاندھاش من شدّة عزيمه الاقدمين في مباشرة مثل هذه الاعمال الجبّاريّة كيف نحتوا الصخور الصماء كانّ صلابتها تلين بين ايديهم او كانت لديهم ادوات قاطعة غير ادواتنا الشائعة اليوم. وبين هذين الخندقين والقرية ترى اعمالاً اخرى غريبة في شكلها على جانبي الراس الموما اليه وكلها منقورة في الصخر ويلحق بهذين الاخدودين بقايا ابنية ضخمة متصلة بهما ذات حجارة كبيرة مستندة الى الصخر. وهي آثار جدران تشبه جوانب قلعة جبيل شهباً عظيماً في تتوّ حجارتها والتحام هذه الحجارة بعضها ببعض بحيث لا يشكّ الناظر انّ ثمت كان حصن منيع ويؤيد ذلك التقليد اهل أنفة الذين يدعون هذا المكان بالقلعة

وبين الخندقين المذكورين والقرية ترى في الصخور من الآثار المنحوتة المحكمة العمل ما ينذر مثله في لبنان والحمّات والمدافن والاحواض ولكلها اطناف وافاريز جميلة حسنة النحت. وهناك ايضاً رحيّ ومعاصر عديدة مبثوثة في الحضيض. وللصخر طبقات منظمّة ينزل منها الى البحر بعمار على جوانبها شبه الدرازين. وفي مداخلها ثقب لمرزاج الابواب ورزاتها. وفي جانبي الحائط أغوار عديدة منحوتة في الصخر عمودياً

ومنها ما هو متقن الهندام يصلح للسكنى. وكذلك المدافن فإن لها مسحة من القدم وهيئتها غريبة

أما بُناة القلعة فنرجح انهم الصليبيون لما بين آثارها واثار جبيل من الشبه. وقد اثبتنا سابقاً ان قلعة جبيل من ابناء الفرنج (راجع الصفحة ٦١). وفي تاريخ بروكرد ما يشير الى هذه القلعة فانه وصف للفرنج في انفة « قلعة كان معظم جوانبها داخلاً في البحر ولها اثنا عشر برجاً وهي شديدة الحرارة »

لكن الحندين الفاصلين الرأس عن الساحل على رأينا ليسا من اعمال الفرنج فانهما اقدم عهداً يرتقيان الى عهد الرومان ان لم نقل الفينيقيين. والفينيقيون كما لا يخفى كانوا اتخذوا في ساحل بحر الشام كل الرؤوس البارزة ليجعلوها محاصن يرقبون منها البحار ويدافعون بها عن سفنهم الراسية بقربها كما جرى لهم في عكا وصيدا وبيروت وجبيل فلا نظن انهم استثنوا من هذا الحكم رأس انفة فتكون هذه المتاريس والحنادق مما حصنوا به قلعتهم وقد رغبهم في حفر هذه الاخاديد انهم اتخذوا منها مواداً بنائهم فكانت بمثابة مقالع لحجارة القلعة

ونرى كذلك ان بقية الآثار الموجودة في انفة ممّا نُقر في الصخر اقدم عهداً من الصليبيين

وكان اسم أنفة قديماً ترياريس (Τριάρης) ذكرها المؤرخون سكيلكس وبوليبيوس واسطرابون وغيرهم من كتبة عهد الدولتين اليونانية والرومانية وقد ورد اسمها في لائحة الاسقفيات القديمة. أما اسمها ترياريس فقليل انه مشتق من اليونانية ومعناه « المثلثة الزوايا » لشكل راسها الشبيه بالمثلث المستطيل (١). وكذلك معنى انفة بالعربية يراد بها الرأس. والشريف الادريسي يدعوها « انف الحجر » ولهذه التباس عليه

(١) هكذا زعم البعض لكننا لم نجد في قولهم حجة قاطعة. وعلى كل حال اتنا نرى ان هذه الاسماء اليونانية التي اتخذها اليونان أيام دولتهم للدلالة على بعض مدن ساحل فينيقية وقرى لبنان كبطوليس (عكا) وبيبلوس (جبيل) وثاوبروسيون (رأس الشقعة) وغير ذلك لم تثبت زمناً طويلاً وانما كانت اسماء رسمية استعمالها عمال الدولة فلما سقطت عادت الاسماء السامية الشائعة على لسان الشعب الذي لم تؤثر فيه لغة الدولة واصطلاحاتها الرسمية. وهذه الملاحظة العمومية تصدق في ترياريس التي أهمل اسمها اليوناني وعاد اليها اسم انفة السامي

اسمها واسم قرية وجه الحجر في راس الشقعة وليس من غرضنا ان نلخص في هذه المقالة تاريخ انفة في القرون المتوسطة وما قال عنها كتبة الفرنج وجغرافيو العرب لكننا نكتفي باثبات ما جاء عنها في معجم البلدان قال ياقوت (١ : ٣٩٠) : « أنفة بليدة على ساحل بحر الشام شرقي جبل صهيون بينهما ثمانية فراسخ » وفي قوله غلط ظاهر يريد غربي جبل صهيون او بالحري جنوبي غربي صهيون . وقد جاء في مراصد الاطلاع بدلاً من « شرقي جبل صهيون » شرقي جبيل وهو اصح . وقد افادنا شمس الدين الدهشتي في كتاب عجائب البر والبحر (ص ٢٠٧ و ٢٠٨ مع الحاشيتين a b) ان « للنصارى في أنفة كنيسة عظيمة البناء وبها بيت يزعمون انه اول بيت وُضع باسم مريم في الشام وان البيت الثاني المشيد بعده لذكرها كان في انطربوس » . وهذه افادة جلية لتاريخ النصرانية في سورية . وكانت انفة على عهد الصليبيين من الاملاك اللاحقة بكننيّة طرابلس وكان الفرنج افسدوا اسمها باللفظ فدعوها نفين (Nephin) . أما قلعتها فقد امر السلطان قلاوون بهدمها

٣٦ قلمون

اذا سرت من أنفة متوجهاً الى طرابلس بلغ بك المسير الى قرية بهجة المنظر تدعى قلمون موقعها في وسط حديقة كثيرة الزرع غزيرة المياه . واسم قلمون يطلق في الشام على عدة امكنة منها جبل قلمون المشرف على دمشق ومنها قرية قلمون (Calamon) بجوار الكرميل وحيفا (١) وجبل قلمون في شبه جزيرة سينا . وقد ذكر الادريسي قلعة تدعى قلمون بين صيدا ونهر الدامور

وقلمون هذه قد دعاها القدماء قلموس (Calamos) وممن ذكرها المؤرخان پولينيوس وپلينيوس وغيرهما وربما جعلوا اسمها مع اسم جارتها تياريس وان لم يكن لها من الشأن ما كان لانة . وكانت قلمون في القرون الوسطى قلعة ورد ذكرها في الادريسي وفي رحلة والكاتب الفارسي نصري خسرو النخ

(١) راجع كتاب فلسطين لريلند (Relandi Palaestina, 230, 678) وكذلك راجع اسطرابون (Strabon, notes 916)

وفي قلمون وضواحيها عدة اثار قديمة كعمالق ومعاصر ورحي وبقايا اعمدة وغير ذلك مما يدل على قدمها. بيد اننا لم نجد في هذه الآثار ما يجدينا علماً عن احوالها ومن ثم لا نرى داعياً لاطالة الكلام فيها

٣٧ دير البلمند

في الجبل المشرف على البحر بين انفة وقلمون على يمين السائر الى طرابلس دير شهير لا يمكن ضرب الصفح عنه نريد به دير البلمند للروم الارثوذكس حيث كان يدرس المترشحون للكهنوت من البطريركية الانطاكية . قال المنار (في عدده الصادر في ٢٩ ١٤ سنة ١٩٠١) : « البلمند من اعظم اديرة الشرق فخراً واضخمها بناء واضرفها موقعاً وابعدها شهرة وزمن بناءه مجهول وقد نابه ما ناب اكثر الاديرة الارثوذكسية في سوريا وفلسطين في غزوة الصليبيين »

قد صدق كاتب هذه الاسطر بقوله انه مجهول زمن بناء دير البلمند لكنه ساء ظناً بترقيته هذا البناء الى زمن سبق عهد الصليبيين ونسبته اليهم ما هم براء منه وكان الاولى ان يشكرهم على تشييد هذا الدير اذ لولاهم لما رأى عالم الوجود . ومصادقاً لقولنا نورد هنا مختصر تاريخ دير البلمند ليقف عليه كتبة الروم

كان انشاء دير البلمند في ٣٠ ايار من سنة ١١٥٧ . وقد تولى بناءه رهبان القديس برزس المعروفون باليسترسيين (١) وجعلوه تحت حماية البتول الطاهرة سيدة بلمنت (Abbatia Belimontis) . وبلمنت لفظة لاتينية منحوتة من كلمتين معناهما الجبل الجميل . وربما ورد اسمه في كتبة الصليبيين على صورة الفرنسية القديمة «Beauleu» وهي بمعنى «Beaulieu» اي المقام الجميل وهو اسم يطابق المسمى ولذلك قد اتخذاه اهل طرابلس الى يومنا كمصيف يقضون فيه فصل القيظ . ثم افسد القوم بلمنت فجعلوها « بلمند » . ومما يدل على اصل اشتقاقها انها وردت في كتاب مختصر تاريخ

(١) لنا على ذلك شواهد عديدة منها منشور الاحبار الرومانيين ذكرها روريت (Roehricht) dans ZDPV, X, 35. اما ما كتبه الاديب جرجي افندي يني في تاريخ سوريا (ص ٤٩١) عن مائدة هيكل كنيسة البلمند ان عهدها يرتقي الى سنة ١١١٣ م فلم تتحققه بنفسنا وكنتنا وددنا لو اثبت جنابها هذه الكتابة بنصها . ولعل هذه المائدة نُقلت الى البلمند من مكان قريب

لبنان (من مخطوطات كليتنا) على صورة بلموند . وعليه فلا صَحَّة لما قاله البعض (١) ان بلمند مشتقة من اسم البرنس بويند صاحب طرابلس شَيَّدها على زعمهم كمنزله له في سنة ١٢٨٧ . ثمَّ ان تاريخ بويند السابع (١٢٧٤ - ١٢٨٧) لا ينطبق على هذه الرواية لان بويند قضى السنين الاخيرة من حياته في عاصمته لم يمكنه الخروج منها وكان السلطان قلاوون يضايقه فيها الى ان توفي في ١٩ تشرين الاول سنة ١٢٨٧ فما كان له اذ ذاك ندحة في تشييد القصور والمنزهات . هذا فضلاً عن انه لدينا نصوص ورد فيها اسم بلمند قبل هذا التاريخ كما سيأتي



مسكوكات بويند السابع صاحب طرابلس

وبراءات الاحبار الرومانيين في دير البلمند كثيرة (٢) نخص منها بالذكر براءة غريغوريوس التاسع سنة ١٢٣٨ واينوكنث الرابع سنة ١٢٥٠ واوربانوس الرابع سنة ١٢٦٢ . ويظهر من هذه المناشير ان دير البلمند كان اكبر اديرة الفرنج في كُنْتيَّة طرابلس . ولما خرج الصليبيون من الشام صار هذا الدير الى يد اليعاقبة وكان عددهم كبيراً في طرابلس لهم فيها اسقف يرعاهم وفي تواريخ الفرنج اسما بعض رؤساء هذا الدير ورهبانه . فمنهم الرئيس بطرس الالامي (Pierre l'Aleman) ورفيقه « سيمان الطرابلسي » . وممن ترأس على دير البلمند احد اساقفة بيروت اللاتينيين لعله استقلَّ من كرسيه فاعتزل في هذا الدير وصار رئيساً عليه . وهذا ممَّا يُطلعنا على عظم شأن المكان ولا نعلم من امر الدير شيئاً بعد تلك اليعاقبة عليه . ولما روى مكاتب النار انه بعد الصليبيين « تشبَّت شمل رهبانه . . . وخرب » وبقي خراباً الى سنة ١٦٠٣ وفيها

(١) راجع الدوجي في تاريخ سنة ١٢٨٧ وبسطة فينيقية لربان (ص ١٢٨)

(٢) راجع مجلَّة الجمعية الفلسطينية (ZDPV, X, 35)

جدده السيد يواكيم ابن الحوري جرجس مطران طرابلس، وللبلمند بعد هذا العهد اخبار طويلة لا حاجة الى استقصائها

واليوم لم يبق من هذا الدير العظيم سوى اثار لا تُذكر واذا اعتبرت ابنيته الحديثة لا ترى شيئاً من تلك المباني النخيمة التي كانت تزين هذا المحل وتنطق بفضل بناته الذين عارضوا الرومان والفيثيين بآثرهم حتى ان كثيراً مما كان ينسب العلماء سابقاً لتلك الامم ثبت اليوم انه من عمل الصليبيين

وقد بقي في البلمند من ابنيته القديمة قسم من طبة السفلى منها ردهة جميلة مقببة حسنة الاثاث طولها اربعون متراً وهي اليوم مطمورة في الارض لارتفاع الحضيض بما هبط فوقه من ردم الدير القديم. اما الغاية من ابقاء هذه الحجرة فليست بظاهرة. وفي بقية النحاء الدير الحالي قناطر وققوش من طرز القرون المتوسطة وهذه الاثار مع قلتها تنبئ باصل الدير قديماً ان الصليبيين هم الذين شيّدوه ويتأيد بذلك ما نقلناه في صدره من شواهد التاريخ مع بيان اشتقاق اسمه الاعجمي من اللاتينية فناهيك بهذه الأدلة عن تعريف اصل هذا الدير واصحابه الاولين

وفي الختام يسرنا ان نبدي لجناّب الفاضل غطاس افندي قندلفت مدير المدرسة عند مرورنا عواطف الشكر لما اظهره من الانس لما استقبلنا في هذا الدير. وقد اطلعنا على خزانة كتبه التي تحتوي اليوم على مطبوعات حديثة العهد وبعض المخطوطات التي ليس تحتها كبير امر قد جمعها حضرة المدير ونظمها لئلا تأخذها يد الضياع. وكانت هذه المكتبة قديماً حافلة بالمخطوطات ولا نشك ان في عدادها كانت تأليف عديدة سرانية كما ترى في غيره من اديرة الروم كمكتبة دير جبل سينا ودير مار سابا حيث وجد زوار الفرنج مصنفات سرانية قديمة غالبية الثمن. وكذلك كان دير صيدنايا غنياً بدخائر الاداب السرانية قبل ان يحرقها وكلاؤه كما ذكر ذلك الشاب الاديب حبيب افندي زيات في خبر رحلته الى هذا الدير (راجع المشرق ٥٨٦: ٢). الا ان اليونان الذين قتلوكوا زمناً طويلاً دير البلمند اتلفوا ما وجدوه من هذه الكنوز النفيسة واورثوا قلوبنا الاسف على فقدائها

فهرس

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

الصفحة

٣

تمهيد

الفصل الأول قسم لبنان الواقع شمالي بيروت

رسم مدخل مغارة انطلياس

رسم جواد. انطلياس: ١ المغارة ٢ النبع

٢ صربا وجونية

٣ نهر الكلب

رسم مدخل مغارة نهر الكلب

رسم داخل مغارة نهر الكلب

٤ دير القلعة

رسم هيكل البعل في دير القلعة

رسم بقايا اعمدة دير القلعة واشكالها المختلفة

صور المخروطات رمز عشتاروت

٥ آثار الرومانيين في لبنان

قناة نهر بيروت (قناطر زبيدة)

جسر المعاملتين الروماني

٦ صتين

٧ ساحل علما

٨ معراب

آثار قلعة معراب

٣٧

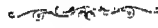
١٥٨ فهرس تسريع الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار

الصفحة		
٣٨	٩ غينة	
٣٩	رسم آثار غينة - آثار المشنقة	
٣٩	١٠ المشنقة	
٤١	١١ الديانة الفينيقية في لبنان	
٤٣	تمثال الزهرة المعبودة في لبنان	
٤٦	١٢ اليشونة	
٤٧	رسم بركة اليمونة	
٤٩	١٣ افقا	
٥١	١٤ مجاري المياه في لبنان	
٥٣	١٥ قلعة فقرا	
٥٤	صورة قلعة فقرا	
٥٧	١٦ الساحل بين جونبة وجبيل (برجا وعين ماحوز ونهر ابراهيم)	
٥٩	صورة برجا	
٦٠	١٧ جبيل	
٦١	مدافن جبيل	
٦٦	نواويس جبيل	
٦٧	١٨ بلاد جبيل	
٦٨	بلاط	
٦٨	آلة	
٦٩	عشيت = مبادات	
٧٠	بجديدات = جربنا	
٧١	مما	
٧٦	١٩ احوال لبنان في القرن الرابع عشر قبل المسيح	
٨١	٢٠ كنائس لبنان القديمة	
١٠٠	٢١ دخول النصرانية في لبنان	
١٠٠	١ لبنان واول مبشرينه	
١٠٤	٢ نزاع النصرانية والوثنية	
١٠٩	٣ في مبادئ العيشة الرهبانية في لبنان	

فهرس تسريخ الابصار في مايتوي لبنان من الاثار ١٥٩

١١٢	٤ ترقي النصرانية في القرن الرابع	
١١٤	٥ تنظيم الكنائس في لبنان	
١١٦	٦ انتصار النصرانية خاتماً على الوثنية في لبنان	
١٢١	٢٢ بلاد البترون - مدينة البترون	
١٢٣	٢٣ سَمَرْ جُبَيْل	
١٢٥	٢٤ قلعة الحصن	
١٢٧	٢٥ دوما	
١٢٨	٢٦ كفرحي ومدرسة مار يوحنا مارون	
١٣١	٢٧ جبّة بشرّي	
١٣٤	٢٨ ارض لبنان	
١٤٢	الكورة	
١٤٢	٢٩ دار بشتار - بزيّا - ناوس	
١٤٤	٣٠ اميون	
١٤٤	٣١ المسيلحة	
١٤٥	٣٢ جبل رأس الشقعة	
١٤٨	٣٣ حنّوش	
١٤٩	٣٤ جيفرتا	
١٥١	٣٥ انفة	
١٥٣	٣٦ قلمون	
١٥٤	٣٧ دير البلمند	
١٥٥	مسكوكات بيومند السابع صاحب طرابلس	

تَبَيُّنُ الْإِبْصَارِ فِي مَا يَحْتَوِي لِبْنَانُ مِنَ الْأَشْيَاءِ



القسم الثاني

جغرافية لبنان وتعريف الأمم التي سكنته



١ اسم لبنان وسعة نطاقه في التاريخ

قد بلغ بنا تقصينا لآثار لبنان الى تخوميه الشماليّة فرأينا ان نخطّ برهةً عصا التسيار لنبحث في قسم ثانٍ عن بعض احوال هذا الجبل الشهير ممّا يشمل تاريخه اجمالاً ويعمّ شؤونهُ من حيث تقاسيمه الجغرافيّة مع تعريف الأمم التي سكنته في سالف الاعصار. وهو امرٌ يفيدنا لادراك ما بقي علينا من وصف آثاره في جهاته الأخرى لاجرم ان القارئ اللبيب قد لحظ في خلال فصولنا السابقة ان اسم لبنان لم يُطلق في كل اطوار التاريخ على ثغور معروفة وربما اتسع او انحصر معناه على اختلاف الظروف ونزعات الكتّاب. فاحسّر لثام الشبهات وازالة كل المعضلات رأينا ان نبين حدود لبنان في الازمنة الغابرة بما امكن من التدقيق ليس من احد يجهل اليوم موقع لبنان ونواحيه الاربع وكلّ يعرف ان المراد به

تلك السلسلة الجبلية الممتدة بين البحر المتوسط او بحر الشام والنهرين الشهيدين النهر الكبير والبيطاني

بيد ان معنى لبنان لدى القدماء لا ينطبق على مفهومنا به في عهدنا . واول ما ينبغي استفتاؤه من كتب التاريخ الاسفار المقدسة فان هذا الاسم ورد فيها على صورة لبْنُون (לבנון) وهكذا عرفه ايضا الفينيقيون . اما الاشوريون فيدعونه لبْنانو . وما يستفاد من الكتاب الكريم ان لبنان جبل شاهق فخم في شمالي نهر الليطاني يحد ارض الميعاد من تلك الجهة

وقد تكرّر ذكر لبنان في صُحف العهد القديم وان كان هذا الجبل خارجاً عن ملك بني اسرائيل . واكثر ما ورد اسمه في اوصاف الكتاب الشعرية كما اثبتنا ذلك في مقالتنا عن ارز لبنان (المشرق ٤: ٩٣٠ - ٩٣٨) . وذكرنا بين خواصه الثالوج الغراء التي تكمل هامتة (راجع سفر ارميا ١٨: ١٤) فينبوا بهذه الاوصاف انهم ارادوا لبنان دون سواه

ومما جاء ذكره ايضا في الكتاب الكريم وادي البقاع المخصب الذي يفصل لبنان عن جبل الشيخ وهو يدعى هناك « مدخل حماة » او « الطريق الى حماة (١) » وهو اسم يطابق المسمى لأن سهل البقاع اشبه بطريق لاجبة تنفذ بين جبلين عالين . وفي هذا الاسم ما يُشعر بخاطر مدينة حماة وعظم شأنها وهي اول مدينة كبرى كان بنو اسرائيل يلقونها عند خروجهم من تخومهم الشمالية الشرقية . اما اليونان (٢) فيدعون البقاع باسم ماسياس (Massyas) او مرسياس (Marsyas) وربما دعوها ايضا بسورية المجوفة (Célésyrie) لانعطافها بين الجبلين على شبه الجوف (٣)

ويؤخذ من سفر الملوك الثاني (٨: ٨) ان لبنان كان غنياً بمعادن النحاس والمرجح

- (١) راجع سفر العدد ١٣ : ٢٢ و ٣٤ : ٨ ويوشع ١٣ : ٥ الخ وحزقيال ٢٧ : ٢٠ الخ وعاموس ٦ : ١٤ الخ
- (٢) راجع تاريخ پوليب ك ٥ ف ٤٥ ، ٤٦ ، ٦١ وجغرافية اسطرابون ك ١٦ ف ٢ و ١٠ الخ
- (٣) راجع معجم الكتاب المقدس لفيكورو في المادة وجغرافية فلسطين القديمة لبول (Buhl) ص ٨٣

اسم لبنان وسعة نطاقه

٥

ان موقعها كان على العطف الشرقي من لبنان الحالي بازاء سهل البقاع على ان اصحاب الصخف الكريمة لا يفرقون بين لبنان الغربي والشرقي فاطلقوا على كليهما اسم لبنان . وهو امرٌ يسهل ادراكه لانَّ الجبلين متشابهان تشابهاً تاماً يسيران على خطين متوازيين الى وجهة واحدة وطولهما واحدٌ على التقريب وهما يتركان من صخور كلسية متجانسة . ولا غروَ انها كانت في القرون الخالية جبلاً واحداً افصل بينهما طاريٌ جيولوجي غير هيهتهما فانحسفت بينهما الارض وليس وادي البقاع الا نتيجة هذه القارة . ومن ثمَّ لا حرج على كتبة الاسفار المقدسة اذا اعتبروا هذين الجبلين كطود واحد وان كانوا لم يدققوا في تعريفهما كما يفعل اليوم الجغرافيون . وليس الامر كذلك في تعريف اسطرابون لوقعهما فانه قد وهم وهماً جسيماً في بيان وجهتهما كما ستري

واول من احكم الفصل بين الجبلين السابق ذكرهما كتبة اليونان فانهم قد افروا بينهما وخصوا احدهما باسم لبسان ودعوا الآخر انتيليبانوس (Antiliban) (Antilibanus) ومعناه الجبل القائم بازاء لبنان وكلا الاسمين شائع حتى ايامنا بين الكتبة . ومما يدلُّ على قِدَم اسم انتيليبانوس ان اصحاب الترجمة السبعينية في القرن الثالث قبل المسيح نقلوا اسم لبنان العبراني الى اليونانية باسم انتيليبانوس لما رأوا أنَّ مدلوله الجبل الشرقي لا لبنان اخالي وذلك في خمسة اماكن من الاسفار الالهية (١) . وكذلك ورد في النص اليوناني من سفر يهوديت (٧:١)

وقد تصفحنا تأليف يوسيفوس اليهودي فوجدناه متردداً في تعريف لبنان كأنه لم يطَّلع على اصطلاح اليونان وهو يكتب في لغتهم فتراه اذا ذكر جبل حرمون والجبال المجاورة لدمشق دعاها كلها باسم لبنان

وما لا ريب فيه ان كتبة العهد القديم اذا ما ذكروا لبنان وارادوا به الجبل الموازي له انما مرادهم فقط القسم الجنوبي من هذا الجبل المعروف اليوم باسم جبل الشيخ وذكره كثيرٌ في التوراة . وقد دوناً في بعض مقالاتنا السابقة (٢) اسماء جبل حرمون عند

(١) تثنية الاشتراع ١: ٧ و ٣٥: ٣ و ١١: ٢٤ و يوشع ١: ٤ و ١: ٩

(٢) راجع الجزء الاول . ص ٢٤

قبائل سورية وفلسطين فلا حاجة الى التكرار والى بيان صحّة هذه الاسماء لئلا يخرج عن الموضوع
أمّا اتساع لبنان وحدوده فإنّ الكتاب المقدّس لا يذكر غير حدّه الجنوبيّ اعني شمال نهر الليطاني . ومن ثمّ لا بدّ من نقل نصوص قدماء اليونان لتعريف بقيّة الحدود

*

لعلّ المؤرخ پوليب (١) أوّل من سبق فيّن بضبط وتدقيق تحوّم لبنان . وهو يفصله عن الجبل الشرقي فصلاً صريحاً ويذكر بين السلسلتين سهل البقاع ويجعل في هذا السهل مخرج نهر العاصي . ومثّن اجادوا في تعريف اتساع لبنان ديودور الصقلّي (٢) في القرن الاول قبل الميلاد حيث قال انّ لبنان يمتدّ من صيداء الى جبيل وطرابلس وانّ غابات الأرض تظّل قمم (٣)
أمّا معاصره اسطرابون فإنّ في كلامه لبساً وإبهاماً وهالك تعريب ما كتب قال :
« انّ سورية المجوّفة واقعة بين جبلين تفصلهما على التقريب مسافة واحدة في طولهما . وكلاهما يبتدئ قريبا من البحر أمّا لبنان فإنّ أوّلّه عند طرابلس وجبل ثيودوروسيون (رأس الشقعة . راجع تسريح الابصار ١ . ص ١٤٠) . وأما جبل انطيليانوس فبذوّه بقرب صيداء (كذا) وهما يتّهيان عند الجبال العربيّة التي تُشرف على اقليم دمشق » .
وفي الفصل ذاته قد اثبت اسطرابون ان منتهى لبنان عند رأس الشقعة وهو يروي انّ اعالي لبنان كصنّان وبوروما يأوي اليها قوم من اللصوص وقطّاع الطرق . وكذلك يزعم انّ هؤلاء الاوباش يملكون على البترون وجيفرتا ويسكنون الكهوف المشرفة على البحر وحسن الشقعة (٤)

فترى ممّا تقدّم انّ اسطرابون يفرق بين لبنان والجبل الشرقي ويجعل بينهما سهل البقاع وكذلك لم يشذّ عن الصواب اذا دلّ على حدود لبنان الشماليّة وهو يجعلها تقريبا

(١) في كتابه الخامس (ف ٤٥ ، ٥٩ ، ٦٩) (٢) ك ١٩ ف ٥٨

(٣) راجع الجزء الاول ص ١٣٧

(٤) الجزء الاول ص ١٤٦

عند طرابلس لأنَّ جبل عَكَار يُعَدُّ أيضاً من لبنان فيَتَّصل به ويمتدُّ بعض اميال الى
النهر الكبير الذي يَجْزُز لبنان عن جبال النصيرية . غير أنَّ اسطرابون وهم وهماً
جسيماً بزعمه انَّ كلا الجبلين يبدأ بقرب البحر عند صيداء وهو خطأ لا صِحَّة له في
انتيبيانوس . وكذلك قد اخطأ بقوله انَّ الجبلين ينتهيان عند دمشق وهذا لا يصدق
عن لبنان وقد ساء ظنُّه في الجبلين اذ وصف سيرهما من الغرب الى الشرق اي من
البحر الى داخل بلاد الشام وهما في الحقيقة يسيران من الشمال الى الجنوب فيجاريان
سيف البحر

امَّا التفاصيل التي ذكرها اسطرابون عن لبنان ولصوصه فقد مرَّ ذكرها في محلها
مع بيان ما صدق منها

وفي وصف پلينيوس (١) للبنان ما هو اقرب الى الحقيقة من سواه . وهو يجعل أوَّل
لبنان عند صيدا ثمَّ يذكر امتداده شمالاً الى مدينة سحرَّة القديمة اعني وراء مصبِّ
النهر الكبير بقليل حيث يتبدَّى جبل برجياوس وهو جبل النصيرية . وناهيك بهذه
الافادة تدقيقاً وضبطاً . وكذلك لم يند في وصفه لبنان وتمييزه له عن الجبل الشرقي
وذكر البقاع وذكر العيون التي يتكوَّن منها العاصي

ومن ذكروا لبنان من قدماء النصارى اوسابيوس القيسري في كتاب الأعلام
(Onomasticon) . وتبعه القديس هيرونيموس وكلاهما يقول انَّ لبنان سلسلة
الجبال الغربية المعاصرة لبحر فينيقية اما السلسلة الشرقية من جهة دمشق فجبل
انتيبيانوس اي الجبل الشرقي

فترى من ثمَّ انَّ القدماء في حدود القرن الرابع كانوا وقفوا على حقيقة . وقع لبنان
وافروزه عن الجبل الذي هو قائم في وجهه ويتَّوا وجهة امتدادهما غير ان كُتِبَ
القرن التالية عادوا فخلطوا بين الجبلين . وممَّا حدا بهم الى هذا اللبس التقاسيم
السياسية التي ادخلها ملوك الروم في ذلك العهد فاختلطت الاسماء وصارت الاعلام
تدلُّ على غير ما وُضعت له سابقاً

فمن ذلك سوروية المجوفة التي كانت تدلُّ في اول الامر على سهل البقاع ليس

الّا أصبحت اقليماً واسعاً يمتدّ شمالاً الى ما وراء انطاكية بحيث اوضحت هذه المدينة
قصبته له . وكذلك لم يعد اسم فينيقية يُطلق على الساحل المنحصر بين لبنان والبحر
بل صار يعني بلاداً متسعة تبلغ حدودها الى دمشق وحمص وتدمر
وعلى هذا المنوال تغلب اسم لبنان الشهير على جبل النصيرية المجاور اذ لا يفصل
بينهما الا وادي النهر الكبير . فأبطل اسم برجيلوس الذي خصّه به پلينيوس الكاتب
واعتبر كانه لاحقاً بلبنان

ومن غريب ما جرى وقتئذٍ من التقلّبات في تقسيم الايلات ان الاقليم المعروف
بفينيقية اللبنانية لم يضمّ في دائرته لبنان الغربي وأدخلت فيه تدمر مع بعدها عن
لبنان . وكفى بذلك دليلاً على ان اسم لبنان لم يؤخذ بمعناه الاصلي او انه كان ادلّ على
جبل انطليمانوس منه على لبنان لاسيما بعد ان جعلت مدينة دمشق كعاصمة فينيقية
اللبنانية . ولذلك نرى في اعمال القديس صوفرونيوس الدمشقي انه دعا وطنه « المتوجّج
بلبنان » (λιβανόστεφανος) ولعلّ هذا اللقب حمل البعض على الظن بانه لبناني الاصل
وعُدّت حصص قبل دمشق مدّة كقصبه ولاية فينيقية اللبنانية فصار الاهلون يدعون
الجبال الواقعة بازائها وفي شمالها باسم لبنان وهكذا شمل هذا الاسم جبال النصيرية .
وفي تاريخ سوزومين (ك ٣٥١) ترى اسم لبنان مختصاً بالجبال المحاذية لمدينة افامية
واغرب من ذلك ان تاوفانوس المؤرخ في اثناء كلامه عن المردة اطلق اسم لبنان على
كل جبال الشام الواقعة بين مصبّ نهر العاصي وبلاد فلسطين (١) . وقد جرى بقية
المؤرخين البوزنطيين على هذا الاصطلاح شخص منهم بالذكر المؤرخ قدرينوس

*

ولمّا ظهرت دولة العرب حفظ ملوكهم التقاسيم الجغرافية الجارية قبل عهدهم
ولذلك ترى الكتبة السريان كابن العبري (٢) وجغرافيين العرب يتأثرون اعقاب الروم في
وصفهم جبل لبنان فربما اصابوا او اخطأوا كاسلافهم . فالقديسي مثلاً يقول في كتاب
معرفة الاقاليم (ص ٦٠) ان لبنان جبل ساحلي مشرف على صيداء وطرابلس . امّا ابن

(١) راجع تاريخه في اعمال الاباء اليونان لمن (ج ١٠٨ ص ٧٢١)

(٢) راجع تاريخه المدني بالسرانية (ص ٢٨٢)

الفقيه الهمداني (ص ١١٢) فإنه يزعم « أن لبنان بدمشق وأنه متصل ببلاد الروم » يريد قيليقية . وبوصفه هذا أطلق اسم لبنان على جبل الشيخ وعلى كل الجبال الواقعة شمالي سورية حتى اللكّام وقسم من جبل طورس وهو تعريف واسع لم يخطر على بال كتّبة الروم

وقال ابن جبير في رحلته (ص ٢٥٦) : « وراء المعرة جبيل لبنان وهو سامي الارتفاع ممتد الطول يتصل من البحر الى البحر وفي صفحته حصون للملاحدة الاسماعيلية وجبل لبنان حد بين المسلمين والافرنج لأن وراءه انطاكية واللاذقية وسواهما من بلادهم » فترى من قوله هذا انه ادخل في لبنان بلاد الاسماعيلية الواقعة في جبل النصيرية بين اللاذقية وحماة وهناك كانت حصونهم كمصياد والرصافة وخوالي وكهف والعليقة

واياقوت في تعريف لبنان أقوال غريبة قال (٢ : ١١٠ و ٤ : ٣٤٧) : « لبنان جبل مطّل على محص يحي من العرج الذين بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام . . . ويمتد الى ملطية وسيساط وقايقالا الى بحر الخزر » فيجعل كل هذه الجبال جبلاً واحداً تختلف اسميه باختلاف الامكنة . واختصاصه باسم لبنان يبتدىء في حلب وينتهي في حماة ومحص

وقد ذكر شمس الدين الدمشقي في كتابه عجائب البر والبحر غير مرة اسم لبنان وكلامه في الغالب مصيب الا انه يجعل حدوده الشمالية الى اللاذقية ويعتبر لبنان كقسم من سلسلة عظمى اولها في جنوبي بلاد العرب

اما ابن بطوطة (١ : ١٨٥) فيلوح من ظاهر كلامه انه يطلق اسم لبنان على الجبل الممتد بين اللاذقية وطرابلس حيث وجد النصيرية فوصفهم . وكان النصيرية وقتئذ يسكنون ليس فقط الجبل المعروف باسمهم وجبل عكار بل ايضاً البلاد المجاورة لطرابلس والبترون حتى نواحي العقاقرة وكسروان وذلك الى القرن الرابع عشر للمسيح كما سنبين الامر في مقالة آتية . ولهذا السبب قد امكن ابن بطوطة ان يدعو باسم لبنان كل بلادهم (١)

وأضبطُ العرب وصفاً للبنان الكاتب الشهير ابو الفداء صاحب حماة ولا غرو اذ كانت سكناه في بلاد تجاور لبنان فيز في تقويم البلدان (ص ٦٨ و ٢٢٩) لبنان عن جبل دمشق وقد دعا طرف هذا الجبل الجنوبي باسم جبل الثلج ويدعو باسم سنير طرفه الشمالي وهو أنثيلييانوس . وسنير احد الاسامي الواردة في التوراة يراد به حرمون وأطلق حسب رأينا على كل القسم الشمالي من هذا الجبل . وذلك امرٌ يستنتج من كتابة العرب وهم شهود صدق على التقليد القديم

وقد جعل ابو الفداء لبنان بازاء جبل الثلج يندّ الى شرقي طرابلس فاذا تجارزها عُرف بجبل عكار . وهو قول صواب جرى عليه ايضاً القلقشندي من بعده . اما الجبل الواقع في شمال جبل عكار فان ابا الفداء يدعوه جبل اللكّام (ص ٦٨) وهكذا ايضاً قد جعل الاصطخري وابن حوقل حدود لبنان الشمالية بالقرب من مدينة حماة هذه بعض نصوص نقلناها عن جغرافيتي العرب تبين ان هؤلاء الكتّبة اصابوا في كثير من اقوالهم عن لبنان وان هموا في بعض الامور اخذوها عن كتّبة الروم دون ان يتحققوها بانفسهم لاسيما في ما يختص بتعريف حدود لبنان الشمالية . فسميحان من تنزه عن كل خطأ وغيب

٢

ما تستفيد سوربة من لبنان

بعد تعريفنا للبنان وتطبيق اسمه مع قوال المؤرخين لا نرى بداً من استلفات النظر الى فوائد هذا الجبل من حيث طوره الطبيعي على اننا قد اشرنا الى هذا الامر في مقالنا السابقة (راجع الجزء الاول ص ٥١) واثبتنا ان لبنان بالنسبة الى سورية كائسبل بنسبته الى مصر اذ انه كحوض عظيم تتفجّر منه المياه التي تسقي النواحي المجاورة اماً على هيئة الامطار واما بطريقة المجاري المائية او بتكاثف الابجرة وسقوطها على صورة الندى . ولولا هذا الجبل لاضحت سورية اشبه ببادية جرداء او رملة صلعاء تابعة لمفاوز جزيرة العرب التي هي متصلة بها من جهتها الجنوبية الشرقية

ومما سبق لنا ايضاً في وصف لبنان اننا قابلنا بين هذا الجبل المنيّف وجبل الالپ (المشرق ١ : ٧٢١) فبيننا ماخص به الله الطود السوري من المناظر الجميلة والمرافق

العديدة قترى فيه الرُّبى المكَلَّة بالغابات والغياض الزاهية بضروب الاشجار والنبات والادوية العلية النسيم ذات الظل الظليل مع جداول متزوقة وسيول جاحفة وشلالات مزبدة ومجريات كالمايا الصقيلة الى غير ذلك من المحاسن الطبيعية التي زين بها الخالق تلك المشارف الزهية التي اطنب الانبياء في اوصافها وعددوا في الاسفار الكريمة معانيها والطافها

على ان لبنان يُورث سورية غير هذه المنافع مما يستلقت نظر ذوي العبرة . ولو تحررنا تعددها لكتبنا فصلاً رائقاً جديراً بان يُنظَّم في سلك فلسفة الجغرافية من شأنه ان يوسع نطاق اهل الروية ويبين لهم عجائب الكون وهذه الفوائد الجمّة التي تستفيدها سورية من لبنان على اربعة اصناف منها هيدروغرافية وجيولوجية ومنها نباتية ومنها جوية ومنها ما يرجع الى الامزجة والاجسام .

*

١ لا حاجة الى ان نستدل في الكلام عما يجدي لبنان القطر السوري من المنافع الهيدروغرافية اذ اننا وصفنا سابقاً ما يختص بمجاري المياه في لبنان (راجع الجزء الاول ص ٥١) وغاية ما نقوله هنا اننا لم نغال في وصفنا المذكور وكفانا لتأييد مقالنا ان اكبر انهار سورية وهو العاصي ينبع من لبنان فيجري الى شمالي سورية ويخصب نواحيه . وذلك ما حمل القدماء على انشاء مدن عظيمة في تلك الجهات كحصص وحماة وانطاكية ولولا هذا النهر لاصبح وادي العاصي قفراً مقفراً لا يؤوي اليه سوى قوم من عرب البادية . وهو به جنة غناء يتقلب فيها الوف وروبوات من البشر في خصب دائم وعيش رفيع

وما قلناه عن وادي العاصي يصح ايضاً في سهل البقناع وفي ساحل البحر من طرابلس الى صور فان هذه البطائح معروفة اليوم بوفرة خيراتها وريع ماؤها ونضارة حدائقها وإن ذلك الأمن فضل لبنان الذي يفيض عايتها مياه ينابيعه النسيمة مع دسم تربته التي تنحدر من السيول وترسب في قاع الارض فتخصبها وتسمها

وتزيد على ذلك ان التربة التي جوفتها المياه من مشارف لبنان هي التي صارت اليوم بطحاء فسيحة الارزاء زاهية الزروع تمتد من طرابلس الى مصب النهر الكبير ولولا ان مجاري المياه تسحو هذا الطين اللزج من معاطف الجبل لكان هذا السهل

جونا تغمره مياه البحر كما ترى في جهات اخرى . لانه من النواميس الثابتة تمام الموازة والمقابلة بين السلسلة اللبنانية والشواطىء البحرية اي ان لبنان كلاً امتد نحو البحر اصبح رأساً داخلًا في المياه واذا اندحر استبطنته المياه فصارت في بطنه خليجاً . اما هذه نواحي طرابلس فان انهار لبنان وجبل عكار كلي علي والنهر البارد ونهر عكار وعلى الاخص النهر الكبير انحدرت اليها وملأت بالتربة التي سقطت منها الجون الذي كان هناك وهو يعرف حتى اليوم بجون عكار دلالة على اصله لكنه في الوقت الحاضر خبت منفسح ذو نعومة وخصب

*

٢ وليس لبنان اقل فائدة من حيث الملك النباتي . فان ارباب الطبيعة يقضون العجب من سوربة لما فيها من اصناف النبات وضروب الاشجار . فانها تجمع بين نبات الاصقاع الشامية ونبات الاقاليم المفرطة الحرارة في اواسط افريقية . والنباتي اذا تفرع لبنان وجد في اعاليه اعشاب الصرود التي لا ترى الا في شمالي اوربة وقمم الالب . اما حشائش البلاد الحارة فهي نامية في سفح لبنان عند وطي بحيرة الحولة وهناك من نبات البردي الذي لا يرى اليوم الا في اواسط افريقية عند البلاد المجاورة لينايبع النيل . والى لبنان يعود الفضل من هذا القبيل لما يوجد من الاختلاف بين برد رأسه المحلق في العنان المعتم بالثاوج وحرارة حضيضه البارز لانوار الشمس واشعثها الحامية فيسوغ للنباتي في سوربة ان يجمع في بضع ساعات من اشكال الاعشاب ما لا يجده في غيرها الا بعد مشقة النفس والعناء الطويل

وهذا التباين العظيم بين نبات بلاد مختلفة لا يروق فقط عين الناظر اذ يرى الاشجار الجبلية كاسنديان والارز والاشجار الصحراوية كالنخل والبردي لكنه ايضا يجدي الزارع نفعا حيث يمكنه ان يستغني عن كثير من محاصيل البلاد الاجنبية . كيف لا وهو يجدي في وطنه تربة ملائمة لاصناف المزروعات والاشجار المثمرة وضروب الاخشاب وفي كل ذلك ايرادات طيبة توفر اسباب الغنى وتفتح ابواب الرزق لطالبيه . فيا ليت شعري كيف يسوغ لنا ان نتشكى من فقر بلادنا وقحطها وفيها كل ما يلزم ليغني شعوباً جمّة . ولو شاء اصحاب الثروة لرأوا ان هذه البلاد يدر منها اللبن والعسل كما في ايام بني اسرائيل لا ينقصها لذلك الارجال جد وإقدام ممن لا يستكفون

من العمل ولا تثني عزائمهم المصاعب . فلا يرّ على بلادنا ثلاثون سنة حتى يصير لبنان اغنى من بلاد نروج بغاباته وتسمي السهول الساحلية اشبه ببطائح الهند وخط الاستواء .

*

٣ وان انتقلنا الان من ذكر النبات الى وصف الهواء إذن لوجدنا انّ حظّ اهل سورِيّة لأسعد من سواهم لوقوع لبنان في وسط بلادهم . وذلك بما حظّهُ الكاتب الشهير فولناي (Volnay) في اواخر القرن الثامن عشر قال : « ان بلاد الشام تجتمع تحت سماء واحدة احوالاً جوية مختلفة وتذخر في اقطار ضيقة الاجزاء مرافق لا تُرى في غيرها من البلاد الا متفرقة على مسافات قاصية . ففي غيرها من الاصقاع ترى فصول السنة تفصلها الشهور واما سورِيّة فصدق القول فيها ان فصول سنتها لا تقسم بينها الا بضع ساعات فقط فان اثقلت توقد الحرّ في صيداء او طرابلس أيام القيظ فما لك الا ان تضي نحو ست ساعات فتجد في الجبال المجاورة هواء لطيفاً كهواء شهر اذار (١) »

فهذا الاختلاف في درجات حرارة الجوّ الذي تغبطننا بسببه البلاد المجاورة للشام كبلاد الجزيرة ومصر انما اصابه القطر الشامي بواسطة لبنان ليس بامتداد عرضه الذي يبلغ نحو تسع درجات . ولا لاجل طوله البالغ ١١٠٠ كيلومتر بل لاجل ارتفاعه فوق سطح البحر . ولولا علوّ جباله لما كان فرقٌ يُذكر بين شمالي سورِيّة وجنوبها . فأننا نرى ان حالة الجوّ في غزة لا تختلف كثيراً عن حالته في الاسكندرونه وان الحرّ في دمشق كما هو في حلب . لكنّ الفرق العظيم انما هو بين السواحل ومشارف لبنان بحيث نجد في الجرد لطف هواء الاصقاع الشماليّة

ومما يساعد ايضاً على تكييف الجوّ وتلطيف لهوات الحرّ هيئات تركيب لبنان المختلفة واديتّه ووجهة تقاطيعه فان الارواح بهوبها في بطون الارض وشجونها تغتد احوال الهواء كما تؤثر في السحب والامطار التي تحملها الرياح . وترى بخلاف ذلك بعض مُنعطفات لبنان لحسن موقعها مصونة من رياح الجنوب والشمال تنحدر الى البحر المخدّاراً ايناً وهي امكنة تنأ فيها العيشة للطف نسيمها وتشبه جنوبيّ فرنسا برطوبة هوائها

ولا عجب ان اضحى لبنان بعد زمن قليل كمستشفى الاعلاء يتقاطرون اليه لعلاج ادوائهم كما يهرع اليه المصيفون لينجوا فيه من وقعات القميط ويستبدلوا روائح المدن المستكرهة بالريح الطيبة . أما الشتاء فيجد ذوو العاهات امكنة في حلف لبنان يدفعون فيها برده القارس ويقضون فصله في مأمن من اذاه اذ يحبسها لبنان من نفح الرياح وشدة العواصف وهي تقوم لاهل بلادنا مقام مدينتي « نيس » و « كان » وسواحل فرنسة الجنوبية التي يزدحم فيها شتاء الاوربيون والاميركيون فراراً من صهارة القو . فياليت شعري أليس خور جونية وما يُحْدَق به من المزارع مقاماً شتوياً يضاهي خور نابولي . ألا ترى كيف ان ريفه العجيب بارز لاشعة الشمس ولصفاء هواء البحر المنعش وهو مع ذلك في حمى من السموم والريح الشمالية . فلو شاء اصحاب الامر لجعلوا جونية حظاً لذوي الامزجة النخيفة ومنزلاً للناقهين . وهذه البلدة تفضل من وجوه عديدة وادي النيل وضفتيه حيث المناظر قليلة والهواء يتقلب ثقلاً كبيراً فيلي النهار التوهج الحر زهرير الليل وصرده . أما في واطى لبنان فترى للآفاق محاسن متجددة من جبال شاهقة وبحار زاخرة وهواء رطب قليل الاختلاف . وهي لعصري منافع كبرى لا تخفى طويلاً على ذوي الخبرة

ولعل منتقداً يعترض علينا بقوله ان منعطف لبنان الغربي كثير الرطوبة لتكاثف الانجرة التصاعدة من البحر في جوانبه . والرطوبة كما هو معلوم لا توافق مزاج كثيرين من الناس الذين يؤثرن على المقامات الرطبة الهواء المنازل اليابسة

أجل ولكن لا يخلو لبنان من منافع المراكز اليابسة ايضاً وذلك في منعطفه الشرقي فاذا تسنمت اعالي هذا الجبل لا تلبث ان تبلغ بعد ساعات قلائل الى نواح جافة الهواء لا يشوب ساءها غيم ولا يقرب منها ندى البحر لتوسط لبنان بينها وبينه فان لبنان يقسم بلاد الشام من حيث الهواء قسمين مختلفين احدهما ساحلي ندي الجو لين النسيم معتدل الهواء دون حر محتم ولا برد شديد . والآخر شرقي بري تختلف فيه الانواء وتتوالى الفصول المتباينة وهو يجدي بعض الامزجة قوة وصلابة . وعلى كل حال مهما افتي الناس في تفضيل الهواء اليابس او الرطب فان العناية الصمدانية لم تحرم لبناننا من خواص الهوائين فيختار كل منهم ما يشاء

*

٤. ولهذا الاختلاف في احوال الهواء نفع آخر وهو تأثيره في بنية الجسم وغني عن البيان ان طريقة العيش في زماننا وكثرة الالتبائك بالاشغال ومدولة الامور والتهافت الى رشف اثناء المذات كل ذلك ممّا يضعف بنية الناس ويفقر الدم ويحطّ بالنسل. وهذه المضرات في الاقطار الحارة الكثيرة الرطوبة كما ترى في مدننا الساحلية اوفر منها في سواها من البلاد لاذحام الناس في البيوت الضيقة ولترامك الاقدار في الاسواق وقلة تغيير الهواء. فاذا بقي اهل المدن على ذلك زمناً قليلاً فسد لا محالة دمهم ونضب ماء حياتهم لولا ان اهل لبنان يهاجرون الى السواحل فيأتون بدم جديد يسري في عروق الجمهور فينعش اجسامهم ويشدّد قواهم. وكما ان هؤلاء القادمين من مشارف لبنان يوتون اهل الحضر دماً جديداً كذلك الاهلون اذا ما قضوا شهوراً من سنتهم في فصل العيف فوق رى لبنان تجددت عزائمهم او تقوّت اعصابهم فيعودون الى ديارهم وثيقي الاركان مضطرب الحلق تتدفّق منهم مناهل الحياة هذه بعض ملاحظات ابديناها لنفيد مواطنينا عن فوائد لبنان من حيث مقامه الطبيعي. فلا ريب انه لو فقد لتلفت ايضاً معه اكثر ارفاق بلادنا وقمرت المواطن واصبحت التربة عقيمة خاوية لا تأتي بغلاتها فكانت اشبه بفياف جرداء لا يرى فيها سوى بعض تلال من الرمل خلوة من النبات لا ماء يجري فيها ولا انهار ترويهما يسكنها قوم من صعايك البادية يتنقلون فيها لطلب كلاً الربيع ثم يرحلون عنها. وبوجيز القول ان بلاد الشام لولا لبنان كانت كالبادي التي تجاورها من جزيرة العرب ونواحي تدمر واقفار ما بين النهرين في جنوبي حرّان ونصيبين

٣

انهار لبنان : منافها وباساؤها

١. منافع انهار لبنان جغرافياً واقتصادياً

ذكرنا غير مرّة غنى لبنان بنبابيع المياه وما يتدبّ على ذلك من الفوائد الهدروغرافية فنقول الآن ان من اعتبر هذا الجبل ورأى هيئته وموقعه فهم ان قربة من البحر لا يسمح للانهار الجارية منه ان تتسع احواضها اتساعاً كبيراً.

والاخرى ان يقال ان اغلب انهار لبنان سيولٌ لا تتجاوز مسافة سيرها بضعة كيلومترات وهي تنحدر من مشارف الجبل وتندفع دفعة واحدة الى البحر. وليس بين هذه الانهار نهر واحد يمكن زورقاً ان يجري فيه بكثرة انحراف هذه الانهار وما يتخللها من الصخور في سيرها . ونحن لا نذكر في هذا الباب من انهار لبنان الا ما ينضب ماؤه في فصل القيظ مباشرة من الشمال الى الجنوب (١) . وكذلك ضربنا صفحاً عن بعض التفاصيل الجغرافية التي تصلح لاحداث المدارس ليس في ذكرها كبير امر

١ النهر البارد شمالي طرابلس على مسافة بضعة كيلومترات منها . وهو الفاصل بين لبنان وجبل عكار = ٢ نهر ابي علي وهو المعروف بنهر قاديشا (٢) = ٣ نهر ابراهيم = ٤ نهر الكلب = ٥ نهر بيروت = ٦ نهر الدامور

وليس لهذه الانهار كلها من الجدوى سوى انها تسقي بعض السهول الساحلية فتخصب تربتها في مجاريها المختلفة الطول . وربما كان هذا الخصب الناجم عن مياهها بليغاً . ولو اراد اهل بلادنا لانتفعوا من هذه المياه لغاية أخرى وذلك بان يجعلوها كمحرك لادوات كهربائية يتخذونها لمعاملهم ولذلك سمى البعض قوة المياه في تحريكها بالفحم الابيض يريدون انها تقوم مقام البخار ومواقد الفحم الحجري . ولما كان مهبط هذه المياه شديداً وكميتها وافرة لا غرو أن ينجم عنها قوة تناسب احصنة بخارية عديدة كافية لتحريك ادوات ضخمة . وقد بلغنا آخر ان شركة لبنانية تالت امتيازاً لتوليد الكهرباء بمياه نهر بيروت لتسير القرى الساحلية حقن الله الاماني

على اننا نرى في مجاري هذه الانهار خللاً فان مصبها يتسع اتساعاً كبيراً وذلك لما تأتي به المياه من الطين المجروف ولما يدفعه البحر الى الساحل من الرمل فتتكوّم هذه المواد في وجه النهر بحيث لا تقوى مياهه على خرقها فتتدفق جوانبه وتسيل المياه ذات اليبين وذات الشمال على مسافة واسعة . وربما استنقعت هذه المياه فجذث عنها حبيبات ملارية خبيثة . وهذا الانحراف في مجاري الانهار قد لحظه العلماء في البحار التي يضعف فيها المد والجزر . لكن هذا الحثل يسهل استدراكه بان يُحفر للنهر مسيل عند مصبه . وكذلك تُنصب اشجار الاوكالبتوس على ضفافه لتزول بها وخامة الهواء

(١) ان نهر العاصي يستمد اكثر مياهه من لبنان لكن مسيله خارج عنه

(٢) لا نذكر نهر الجزر قرب القرون لان ماءه ينقطع في فصل الصيف

وفي مقالاتنا السابقة بيّنا ان النهرين البارد و البيا علي بما سَحَوَاهُ من التربة من اعالي لبنان طمًا جَوْن عَكَار و كَوْنًا سهل طرابلس المعروف بجودة مزرعائه . ولعلَّ نهر بيروت اتى بما هو اغرب فعلاً منهما

فكلُّ يعرف ان مدينة بيروت مبنية على شبه جزيرة يتصل بها البحر شمالاً وغرباً وجنوباً غريباً . وقد ارتأى بعض العلماء ان هذه الحاضرة انما كانت في سالف الزمان جزيرة تحديق بها المياه من كل جهاتها (١) فصارت مياه نهر بيروت والجداول المجاورة له كراذي غدير ووادي شويقات تأتياها بالطين والتربة حتى ملأت البوغاص الذي كان في جهة بيروت الجنوبية الشرقية بينما كانت الرياح الغربية تحمل اليها رمالها فاصبحت بيروت متصلة بالبر وجرى لها ما جرى لمدينة صور لما ابنتى لها اسكندر ذو القرنين سداً عظيماً وصل بينها وبين البر فتراكمت الرمال على هذا السد فصارَت شبه جزيرة بعد ان كانت المياه تكتنفها من كل اطرافها . ولا عجب فان انتشار الرمل على سواحل سورية امرٌ ظاهرٌ فتري الرمل يتقدم دون انقطاع . ومما شهد الثقة على صحته ان معدل امتداد الرمل في كل سنة بين مدينتي غزة و يافا يبلغ مترًا على التقريب

هذا وان اهل بيروت كانوا يتخذون قديماً ألواء الرمل سكناً لهم ويزرعون فيها المزارع لان التربة التي يغطيها هذا الرمل طيبة دسمة . والدليل على سكنى الاهلين فيها ما يجده الحافرون من الخزف وقطع الزجاج القديم والمعادن والنواويس . والرمل قد نشر عليها كلها رداءً وهو لا يزال يجري الى الامام . ومن يلحظ حركته المتواصلة يتأكد بانه في مدة ربع قرن قد اخفى عن العيان املاًكاً متسمة ليمض الوجها فالتهمها . ومنذ عهد قريب قد وجد البعض آثار بلدة توارت تحت كسبان الرمل . ومما أثبتهُ الشاعر نوّس (٢) عن الطريق التي يسير فيها السائر عند خروجه من بيروت ميتماً صيداء انها « رملية تظللها الاشجار ودوالي الكروم » على ان الشاعر لم يذكر التلال الرملية التي تتخللها في يومنا هذا فتجري في وسطها وذلك دليل على ان الرمل لم يسطر عليها بعد . ومن الثابت المقر ان العوامل الطبيعية لا تزال تذرّي هذه الرمال فتجرف مياه

(١) راجع كتاب ريتز (ص ٤٣٠)

(٢) راجع كتاب شعره (Dionysiaques, ch. 41, v. 40 - 45)

البحر وتنسفه الرياح حتى نكاد نرى حركتها رأي العين فما قواك بعملها على كروور
الادهار لاسيما اذا اضفت الى هذه العوامل ظواهر أخر خارقة العادة كالزلازل
والاهتزازات الأرضية التي ربما رفعت بحضيض الارض ومسيل الاودية . وفي سواحل
فيلقية من آثار هذه الزلازل ما هو مشهور (راجع مقالتيّنا عن الزلازل في المشرق
١ [١٨٩٨] : ٣٠٣ و ٢ [١٨٩٩] : ٩٧٠)

ومأ يشهد على ما اصاب بيروت ونواحيها من الطوارئ الجيولوجية ان هذه
المدينة كانت في سالف الزمان مزدانة بعدة جزائر لا نرى اليوم منها اثرا . فان الشاعر
اليوناني نونس المذكور (١) اشار اليها في جملة وصفه لبيروت فدعا هذه المدينة « الجميلة
الجزائر εὐνησος » وهي لعمرى شهادة حسنة اتى بها شاهد عين سكن بيروت ردها
من الدهر لم يفتئ شيء من احوالها . وقد جاء في خارطة لاتيئة يرتقي عهدا الى
القرن الثاني عشر رسم جزيرتين متوسطتين في الكبر قريبتين من بيروت (٢) . وكذلك
ورد في تواريخ الصليبيين ان الرهبان المعروفين باسم پريمونترى (Prémontrés)
كانوا يسكنون ديرا موقعا في جزيرة على مقربة من بيروت (٣) . وفي هذه الشواهد
ما يدل على ان هذه الجزر غير الصخور الثلاثة او الاربعة التي تراها اليوم عند راس
بيروت او عند مصب نهرها

ولكن متى توارت هذه الجزائر ؟ ليس لنا في ذلك نص صريح ومن المرجح
انها انخفضت في الزوال الذي ذكره المقرئ في تاريخ الممالك (٤) في تاريخ سنة ٦٦٠ هـ
(١٢٦١ م) حيث قال ان سبع جزائر بين عكة وطرابلس غاصت في ليج البحر .
وقوله هذا يطابق الآثار التاريخية التي لم تعد تذكر فيها نعلم الجزائر المجاورة لبيروت
بعد القرن الثالث عشر

والنهران الاخيران اللذان يجريان في جنوب لبنان هما الاولى وهو نهر صيدا
ثم الليطاني الذي يحد لبنان في جنوبية وهو نهر صور . ولكلا النهرين علاقة مع المدينة

(١) راجع الكتاب السابق ذكره (Chant 41, v. 15)

(٢) راجع المجلة الفلسطينية الالمانية (ZDPV, XVIII)

(٣) راجع المجلة ذاتها (ج ١٠ ص ٢١٠ و ج ٢١ ص ١١٦)

(٤) راجع طبعة كاترمار (Quatremère : Sultans Mamlouks, I, 1^{re} partie, p. 145)

التي يجاورها وقد اغناها بمنافع الجمة الاقتصادية . ونهر الاولي يجري في منعطف لبنان الغربي ولا يتجاوز طوله ٤٥ كيلومتراً اما الليطاني فينفذ في وسط هذه السلسلة ويتخللها . ومنبعه في البقاع بين الجبلين الغربي والشرقي وطول مجراه ١٥٠ كيلومتراً . وخطره عظيم من حيث الزراعة والاقتصاد لانه ليس فقط يفتح طريقاً في خلال الجبل كما يفعل الاولي ولكن ايضاً لان هذه الطريق توصل ساحل مدينة صور بسهولة فيحاء وبطائح غناء كالبقاع وغوطة دمشق ووادي العاصي . ولا غرو ان تجار صور من الفينيقيين قدروا هذه المنافع قدرها ونهجو هذه الطريق رغبة في الارباح البالغة

أما وادي الاولي فهو دون وادي الليطاني شأناً وخطراً الا انه اغني منه واخصب وفي مسيره على ضفتيه مسالك وطرق تفضي الى البقاع والى عدة قرى كان الاهلون يقضون فيها فصل الصيف ويتاجرون بغلاتها كما يفعل اهل صيدا في أيامنا في القرى الواقعة قرب الباروك وجنوبي جزين

ولولا الاولي والليطاني لما وجدت صور وصيدا فان بُناتهما اختاروا مصب هذين النهرين لما كانوا ينتظرونه منهما من العوائد التجارية وهو الامر الذي جعل لهاتين الحاضرتين شأنًا تجاريًا لم تبلغه بيروت وجبيل لحاوتها من نهرين يجديانها من المنافع ما احزته صيدا وصور بنهريهما

اسماء انهر لبنان قديماً وحديثاً

قلنا ان اول أنهر لبنان شاملياً نهر البارد . والمظنون انه هو النهر الذي دُعي قديماً بروثس (Brutus او Brutus) وان اشتقاقه من اصل سامي

ولكننا نجعل الاسم الذي عُرف به عند القدماء النهر الثاني اي ابو علي . كما اننا لم نجد في كتب العرب سبب هذه الكنية او الرجل الشهير الذي اعاره اسم

ابي علي

أما نهر ابراهيم فقد مر ذكره في مقالة سابقة (راجع الجزء الاول ص ٥٨) حيث اثبتنا ما يختص باسمه القديم ادونيس (اي تموز) وباسمه الحديث

وكذلك لا حاجة الى تكرار ذكر نهر الكلب وتعريف اسمائه وقد سبق لنا في ذلك فصل مطوّل (تسريح الابصار ج ١ ص ٦)
وان تحطّينا الى نهر بيروت وجدنا ان اسمه مشبوه به وان كان الرأي الشائع انه هو نهر ماغوراس الذي ذكره پلينيوس في تاريخه الطبيعي (ك ٥ ف ١٧) فجعله في جوار بيروت . وفي قوله هذا نظر اشرفنا اليه في اول مقالاتنا عن آثار لبنان (تسريح الابصار ج ١ ص ٤)

ومما حمل العلماء على القول بانّ ماغوراس هذا هو نهر بيروت ان پلينيوس جعله على مقربة من بيروت وليس لهذه المدينة نهر آخر الا النهر المنسوب اليها فضلاً عن اننا نعرف الاسماء القديمة التي أطلقت على الانهر الواقعة جنوبي بيروت وشمالها ما عدا اسم نهرها

على ان بعض العلماء شكوا في ذلك وظنوا ان مقصود پلينيوس بنهر ماغوراس انما هو نهر الدامور لانه في وصفه لمدن الساحل مباشرة من الجنوب الى الشمال ذكر ماغوراس قبل بيروت كأنه جعله جنوبي هذه المدينة وهو كما لا يخفى في شمالها . ولأن پلينيوس ضرب صفحاً عن ذكر الدامور ظنوا انه دعا هذا النهر باسم ماغوراس

هذا الرأي لا يخلو من شبه الصحة بيد اننا نفضّل القول بان پلينيوس لم يُراعِ النظام الطبيعي فقدّم ذكر النهر على ذكر المدينة بدلاً من ان يؤخره . ومثل هذا التقديم والتأخير كثير في كتب القدماء . او يُقال ان هذا الامر جرى على يد النساخ سهواً منهم . ومن ثمّ فإنّ الرأي الاصحّ عندنا ان ماغوراس هو نهر بيروت ليس نهر الدامور . فعسى العلماء ان يجدوا كتابة تؤيد رأينا وتزيل كلّ شبهة عن نصّ پلينيوس وهو الكاتب الوحيد الذي ذكر اسم ماغوراس

هذا وان نهر الدامور قد تكرّر في كتب القدماء وهم يدعونه تاميراس وقد عرفه المؤرخ پوليبوس باسم داموراس (Δαμωρας) والمشابهة بين الاسم القديم والحديث ظاهرة . وكذلك لا شبهة في تعريف اسم « الاولي » القديم . فان الكتابة قد دعوه بُسترنوس (Bostrenus)

بقي آخر انهار لبنان جنوبياً وهو الليطاني فانّ في تعريف اسمه التقديم مشكلاً عظيماً ولعلّ القدماء لم يتعرّضوا لذكره وقد شاع اليوم عند الكتبة المحدثين ان

الليطاني هو نهر لاونتيس (Leontès) او نهر الاسد (Λέοντος ποταμός) الذي ورد اسمه في بعض تأليف اليونان فخرّف بالليطاني . وكثّأ نحن ايضاً جنحنا الى هذا القول (راجع الجزء الاول ص ٩) لما فيه من شبه الحقيقة . لكن في هذا الرأي عقبات كما ستري

فلنباشر أولاً بذكر الاشياء المقررة التي لا يُختلف في صحتها

من المعلوم ان اسم هذا النهر حالياً الليطاني ويُدعى عند مصبه بالقاسمية . وعلى الاصح أنه عُرِف بذلك لزار هناك يدعى النبي قاسم . وزعم البعض ان القاسمية مشتقة من القسم كان النهر قاسم بين صور وصيدا او بين بلاد الشقيف وبلاد بشارة وهو رأي باطل لا سند له والدليل على بطلانه انه لا يُطلق عليه هذا الاسم تحت قلعة الشقيف لما يتوي عن سيره الجنوبي فيجري الى البحر بل عندما يتجاوز جسر القعقية . فلو كانت نسبتة الى قسم البلدين لصدق الاسم عن كل مجراه الجنوبي لا عن مصبه فقط . ثم ان هذا الاسم معروف منذ بضعة اجيال ذكره خليل الظاهري في كتابه زبدة كشف الممالك والمقريزي في تاريخ الممالك (١)

امّا اسم الليطاني فانه قد ورد في اوصاف البلدان لكتبة العرب على صورة « ليطة » فكذا دعاه شمس الدين الدمشقي (ص ١٠٢) وابو الفداء في حاشية على تقويم البلدان وصاحب التعريف في المصطلح الشريف (ص ١٨٢) وقبلهم الشريف الادريسي في كتاب نزهة المشتاق (٢٠) . ويروى ايضاً في بعض النسخ « لنطة » بدلاً من ليطة وليس لليطاني ذكر في جغرافي العرب غير هؤلاء . ولا عجب فان العرب قلما كتبوا في أنهر لبنان فلا تكاد تجد من اسمائها في تأليفهم سوى ثلاثة او اربعة

وان بحثنا عن الليطاني في مصنفات سابقة لعهد مؤلفي العرب اي قبل القرن الثاني عشر وجدنا كتبة اليونان والرومان اقل صراحة من العرب ولعلمهم ضروا عنه صفحاً . وانما نستثني منهم اسطرابون الذي اشار الى الليطاني اشارة صريحة حيث قال : « ويجري قرب صور نهر » بيد انه لم يُفدنا عن اسمه شيئاً . وان استطلعت بقية المؤلفين

(١) Quatremère : *Sultans Mamlouks*, II, I partie, p. 174

(٢) راجع طبعة غلديستد ص ١٢

كسكيلاكس وبمبونوس ميلا وبلينيوس وبطلميوس لا ترى لهم كلمة عن هذا النهر كما انهم لا يذكرون البتة نهر الزهراني الذي يجري جنوبي صيدا.

قلنا ان كتبة اليونان لم يذكروا الليطاني . أجل لكن بعضاً منهم ذكروا نهر لاونتوس (Λέοντος ποταμός) فلم لا يكون هذا النهر هو الليطاني فيكون جرى على الاسم اليوناني بعض تحريف لما نقل الى العربية . نجيب اننا لم نكن لنتردد في تصويب هذا القول لولا ان بطلميوس (ك ٥ ف ١٤) جعل هذا النهر بين بيروت وصيدا . وهذا لا يوافق الليطاني كما لا يخفى . وكذلك نرى تشويشاً عظيماً في ما كتبه هؤلاء المؤلفون في « لاونتوس » التي نسب اليها هذا النهر فهم يقولون انه كان في ساحل فينيقية مدينة تدعى لاونتوبوليس ومنهم من يجعلها بين بيروت وصيدا جنوبي نهر الدامور . وهو رأي اسطرابون الجغرافي . أما يليليوس فيزعم ان موقع لاونتوبوليس بين بيروت ونهر الكلب . وفي جغرافية سكيلاكس ان هذه المدينة جنوبي صيدا . وهذه كلها آراء متضاربة واقوال متباينة لا يستفاد منها شيء صريح في امر اسم الليطاني عند اليونان أما لاونتوبوليس فسيأتي ذكر موقعها قريباً

ومن غريب الامور ان الاسفار الالهية لم تنوّه باسم الليطاني مع انه كان على الرأي الارجح احد حدود الاراضي المقدسة (١) . فترى ممّا سبق ان تعريف موقع هذا النهر واسمه وتاريخه القديم لمن المعضلات التي استغلق بابها على الباحثين في مجاري المياه اللبنانية

ولكن دعنا ننظر لفكّ هذا المشكل في الكتابات التي سبقت عهد بني اسرائيل فلعلنا اذا رقينا في سلم الادهار وقفنا على حقيقة الامر كما ان مياه الانهار تزيد صفاء اذا قربت من مخرجها

واعلم انه قد ورد في الكتابات المصرية الهيروغليفية اسم قديم يدعى « رطنو » و « رنتو » و « رتينو » موقعه شمالي فلسطين وحيث اليوم سهل البقاع الذي فيه يجري الليطاني . ثم انّ الراء في اللغة المصرية من الحروف الذلّقي التي كثيراً ما تبدل

باللام فتكون « رطنو » و « لطنو » عبارة عن اسم بلد واحد ١٦ . ومن ثم فليس يستبعد أن يكون اسم الليطاني إشارة لهذا القطر ومعناه « النهر الجاري في بلد لطنو » فقيل اختصاراً « ليطاني » كما تقول نهر بيروت ونهر عكار دلالة على البلد الذي يجري فيه هذان النهران

وعلى رأينا ان هذا الشرح اقرب الى الحقيقة في تعريف اصل اسم الليطاني القديم أما اسمه اليوناني فلا سبيل الى توقيفه على ما كتبه اليونان بخصوص نهر لاوتوس . والله اعلم

٤

سكنى لبنان في قديم الزمان

ان لبنان من احفل ولايات الدولة العلية بالسكان فان معدل أهليه يبلغ ٦١ نفساً في كل كيلومتر مربع . وهو لمعري عددٌ بليغ لا تتجاوزه الأ ولاية دار السلطنة وجزيرة ساموس . فان معدل قاطني الولاية الاولى هو ١٦٢ شخصاً في كل كيلومتر مربع أما ساموس فاهلها ١١٣ نفساً في الكيلومتر . الا انه لا يجوز المقابلة بينهما وبين لبنان لأن ولاية دار السعادة تشمل الاستانة العلية وهي كما لا يخفى من حواضر المدن واكثرها سكاناً فيزداد بعدد اهلها معدل اهل الولاية التي هي داخلة فيها . وكذلك ساموس فانها جزيرة كثيرة الخيرات حسنة التربة ليس فيها جبال عالية فلا عجب اذا تقاطر اليها الناس ليستوطنوها . أما لبنان فعبارة عن سلسلة جبال عالية كثيرة الصخور قليلة الخصب ومع ذلك ترى مصانع وقراه متقاربة كثيرة الاهلين بحيث يصح القول انه لا يوجد في قطر آخر جبل يربو عدد سكانه على سكان لبنان

على ان الامر لم يكن كذلك في سالف القرون فان لبنان كان قفراً مقفراً لا يأوي اليه الاكواسر الوحوش ولبيان ذلك ها نحن نبحت في هذا الشأن لنرى كيف احتل لبنان سكانه او لا قبل عهد النصرانية ثم ثانياً في زمن الرومان واخيراً منذ

(١) راجع في مجلة اللاهوت الكاثوليكي، 1902, (Zeitschrift f. kathol. Theologie, 1902, p. 402 بحثاً حسناً في ما نحن بصدده للدكتور شندا تزيل كليتينا سابقاً)

دخول الموانئ فيه وهي اطوار ثلاثة توافق احوال هذا الجبل الثلاث من حيث السكن فتمت الاهلون الى ان بلغ عددهم الى ما نراه اليوم

*

اعلم انه ممّا لا يختلف فيه اثنان ان جبل لبنان كان في الاعصار الغابرة قليل السكان ولا غرو فان وضع هذا الجبل وهيئته واحواله الطبيعية والجغرافية ممّا يمنع عن توارد السكان اليه . فان مشاركة العليا صرود لا يمكن سكانها لبردها ليس فقط في فصل الشتاء لكن ايضاً في بقية السنة . وهي المنطقة التي تصلو ١٨٠٠ متر فوق سطح البحر . فان القسم الذي يعلو هذا الحط يعرف بالجرود لان ارضه جرداء كثيرة الصخور لا يثبت فيها الزرع الا ضاويًا وبعد عناء ومشقة . وتزيد على ذلك ان لبنان كلاً لم يقيم قط بمعاش اهله لا سيما في عهدنا مع تراحم السكان فيه . وليس هذا ناجماً عن تعافل اللبنانيين وتكاسلهم لان كل الكتبة لسان واحد على همة قطان هذا الجبل وملازماتهم العمل ومواظبتهم على الفلاحة . وفي جانب آخر ليس للبنان مناخ معدنية يمكنهم الارتياح بمراققتها تعويضاً عما ينقصهم من الغلات . وكذلك ترى اسباب التجارة قليلة في لبنان لا يعابها لان الطرق التجارية لا تخترقه فتغنيه قوافل المتاجرين . بل الاخرى ان يقال ان جباله كسد قائم في وجه الامم الواقعة على عطفيه فتري بينها فرقاً كبيراً من حيث الهواء والنبات وكلاهما يختلف في وجه لبنان . واذا استقرت التاريخ وجدت سياسة شعوبها متباينة يعيش كل شعب على حدة معتزلاً عن الآخر مع كونهم ياتمون كلهم الى عنصر واحد

وممّا يشهد على صعوبة السكنى في لبنان انك لا تجد في خلال جباله سوى مسالك حرجة وشعاب ضيقة لا تقطع الا بالجهد الجهد . امّا السبل التجارية اللاعبة التي كانت القوافل تسلكها فانها كانت تمر شمالي لبنان وجنوبيه فتعطف في وادي النهر الكبير او تجاري سير نهر الليطاني والطريق الاولى هي التي اغنت طرابلس في الزمن القديم امّا الثانية فكانت مجلبة لثروة صور العظمى . وبعكس ذلك لم تصب بيروت مقاماً كبيراً في التجارة اذ كان يفصل بينها وبين دمشق والبلاد الداخلية سلسلتان من الجبال المرتفعة الى ان فتحت طريق الشام بعد السنة ١٨٦٠ ثم انشئت

السكّة الحديدية. فانتصر الانسان بكّد جيئه على ما اقامته الطبيعة في وجهه من العراقيل والعوائق

هذا واذا تصفّحنا أقدم ما سطره المؤرخون عن لبنان وجدناهم يصفون هذا الجبل بغابات كثيفة ترينه . ويوافق هذا الوصف ما ورد في الاسفار المقدسة واقدم الآثار الاشورية . وقد دامت هذه الحالة قرونًا متواترة كما يشهد على ذلك مؤرخو اليونان والرومان الذين اثبتنا نصوصهم مرارًا في مطاوي كلامنا عن الارز (ج ١ ص ١٣٤) وفي مقابلتنا بين لبنان وجبال الالب (المشرق ١ [١٨٩٨] : ٢٢١) . ومن عجيب الامور انّ هؤلاء الكتبة لا يذكرون البتّة شيئاً من قرى لبنان وانما يعدّون فقط المدن الفينيقيّة الواقعة على ساحل البحر . نعم انّ بعض المستشرقين استشفوا من وراء اسم « اميا » الوارد في مراسلات تلّ الهارنة (المشرق ٣ : ٧٨٩) قرية « اميون » ألا انّ الامر ليس بقرّر فضلاً عن ان اميون واقعة في سهل منبسط طيب التربة قليل الارتفاع وليست هي في وسط لبنان

واول ما ورد من اسماء الدساكر اللبنانية في اساطير المؤرخين انما جاء في جغرافية اسطرابون اعني قبل تاريخ الميلاد بزمان قليل بعد ان فتح بُبسيوس بلاد الشام ألا وهي اسماء ثلاثة حصون او قل بالاحرى ثلاثة عشوش للصوص تدعى جيغرتا وسنان وبرومة (المشرق ٢ : ٥٠٧) ومواقع اخرى مثلها اكثرها قريب من البحر . ومما يستدلّ من مجرّد ذكر هذه الحصون انّ سكنى الجبل كانت محفوفة بالاعطار لا يتوطّن الا قليل من السكّان . وسنعود الى ذكر هؤلاء اللصوص عند كلامنا عن الايطوريين وهم قوم من عرب حوران امتزجوا بالعنصر اللبناني

أما الكتابات القديمة فهي عزيزة جداً في لبنان وكلّ ما وُجد منها لا يتجاوز قِدَمه اوائل التاريخ المسيحي وقد اكْتُشف معظمها قريباً من الساحل ليس بعيداً من جبيل وبيروت وهذا دليل واضح على قلّة سكّان لبنان قبل المسيح . ولنا ايضاً على قولنا برهان آخر في ما نراه من الاخرة القديمة في لبنان فانك قلماً تجد بينها من الآثار السابقة لعهد النصرانيّة وكذلك النقوش المحفورة على الصخور فهي كلها من عهد الرومان اللهم الا نقوش وادي بريسا قرب الهرمل وسيأتي ذكرها ومع كلّ هذه الشواهد انّنا نرجح كون لبنان لم يخلُ من بعض المراكز الآهلة

كان موقعها في وسط الجبل اتخذها الاقدمون في بعض الوديان والبطائح الحسنة التربة الكثيرة المياه السهلة الزراعة (١) . وكذلك كنت ترى في خلال الغابات منازل للحطّابين كانوا يعدّون فيها الخشب لاسيّما الارز الذي كان القدماء يقبلون عليه لتجهيز مبانيهم ومنه كان الفينيقيون يعمّرون سفنهم واساطيلهم (٢) . ولعلّ بعض القرى التي تُعدّ من اقدم دساكر لبنان كاهدن وبشراي ابتدأت على هذه الصورة فكانت أوّل امرها كمصانع لتحطيب الارز وغيره من الاشجار الجبلية العظمى . وقد اوردا في ما مرّ كتابات يونانية وُجدت في اهدن ترتقي الى التاريخ المسيحي ومنها يستدلّ على ان تلك القرية سبقت عهد النصرانية . أمّا بشراي فان اشتقاق اسمها على رأي البعض من اسم الالهة عشتار وبه دليل كافٍ على قدم عهدها

ومن القرى التي رُجّح قدمها المرملة الواقعة على منعطف لبنان الشرقي . ولا غرو فانّ موقعها في بطحاء مخصبة غزيرة المياه ممّا يستدعي الى استعمالها وبقرها وُجدت صفيحتان فيها كتابات اشورية قديمة نشر اليها قريباً ومن الامكنة التي نزلها الناس في غابر الاعصار بعض المقامات التي اتخذها الاهلون كناسك دينية منها اليمونة وفقرا ودير القلعة ومشقة . فان هذه المحلات وان لم يرد ذكرها قبل ايام الرومان فانّ اصلها فينيقيّ محض لا محالة

وعلى هذه الصورة اضحى لبنان شيئاً فشيئاً معدّاً للسكن . فانّ الاهلين ضربوا اطنابهم أوّلاً قريباً من المدن الساحلية وفوق رُبّ لا يتجاوز علوّها من ٤٠٠ متر الى الف متر حيث الهواء لطيف والرزق مضمون . ثمّ اخذ لبنان يُجرّد من احراجه الكثيفة الدغلة لتجارة الاهلين بحشبه فصار الناس يفلحون الاراضي التي نُزعت عنها الادغال ويشيدون المباني للسكن وكان ذوو الثروة من اهل الساحل يتوقّلون في فصل القيظ مشارف لبنان ترويحاً للنفس وطلباً للراحة بعد ما تجشّموه من الاسفار الشاقة

*

فاخذ من ثمّ القطين يتوغّلون في لبنان فازداد عددهم وغوا خصوصاً بعد الفتح الروماني . وقد اسلفنا فوصفنا ما نجم عن دخول الرومان في سورية من المنافع الجمة

(١) ومما زُرِع فيها الجفنة فان هوشع النبي ذكر في كتابه (٨: ١٤) نحر لبنان واطراءه

(٢) راجع ما سبق لنا في الجزء الأوّل في هذا الخصوص

(راجع الجزء الاول ص ٢٠) فان تملكهم رفع بها الى اعلى مقامات العمران والتقدم . فهم الذين قصوا اجنحة الفتن ومسدوا اروقة السلام فوق كل الاهلين على اختلاف اجناسهم . ومن اعمالهم المشكورة انهم استأصلوا شأفة اللصوص الذين كانوا تحصنوا في لبنان فذكروا معاقبتهم واعادوا الأمن الى السكان (ج ١ ص ١٤٦) .

فراجت اسواق التجارة واضحت المدن الساحلية محطاً للقوافل ومركزاً للمعاملات لاسيما جبيل وبيروت وصور فانتشرت منها هذه الحركة الى ضواحي لبنان المجاورة لها . ومما زاد في خصب الجبل ما ابتناه الرومان من التقي لجلب مياه لبنان من عيونها فكان ذلك من ادعى الوسائل لنشر الحضارة وتلطيف الهواء في مدن الساحل . ومنها ايضا السكك الرومانية التي كانت تستدير سائرة حول لبنان . واحدى هذه السكك كانت تخترق الجبل في عرضه سائرة الى جنوب العقورة ومنها الى بعلبك (المشرق ٢ [١٨٩٩] : ٣١٤٠) . ولما كان لبنان لم يزل بعد مزداً بغاباتهِ سمى الرومان باستثمارها ووضعوا لذلك قوانين مملوءة حكمة اشرفنا اليها سابقاً

ولا عجب اذا رأينا لبنان في أيام الدولة الرومانية تغيرت احواله وترقت شؤونه والى ذلك العهد تنتمي عدة كتابات منها يُستدل على وجود قرى وضاع او بالاحرى مزارع ودساكر . ومن غريب امر هذه الكتابات أنها لا تحتوي علماً لمكان واقع في قلب لبنان . ومجمل ما تتضمنه اعلام شخصية فقط

وفي ذلك العهد استبدل الرومان المعابد الفينيقية الصغرى بهياكل فينيقية يتولاهها عدد غفير من السدنة وارباب الدين فكان يتقاطر اليها الزوار زرافاتٍ ومنهم من كانوا يختارن تلك الامكنة لسكنائهم فأنشئت عدة قرى حول هذه المقامات الدينية . وكان لهذه الهياكل ارزاقها وغاباتها المقدسة واقافها وكرومها . ومعلوم أنه لا بُدّة للقيام بكل هذه الاملاك من عملة وفلاحين يستثمرونها (١) . فلا غرو ان ضعفاً كثيرة ظهرت على هذه الطريقة الى حيز الوجود نخس منها بالذكر قرية دير القلعة التي كان يهيج الى هيكلا اهل بيروت ويقضي فيها مستعمرو الرومان فصل الصيف

والى هذا الزمان ننسب ما اكتشف في امكنة عديدة من الآثار الزراعية وادوات

(١) راجع قاموس العاديات اليونانية والرومانية لساغليو (Saglio) ك ١ ص ١٥١

الفلاحة كالمعاصر والاجران والرحي الضخمة (المشرق ٥ [١٩٠٢] ١٠٧:) والنواويس ومدافن لا يستقصى عددها منقورة في الصخور وكان الرومان كلنين بغرس الكروم فبعثوا همة الاهلين على فلاحتها فما عثمت صنوف الحمر اللبنانية ان اشتهرت في العالم الروماني فعُرفت بالحدود البيرونية (راجع پلينيوس ك ١٤ ع ٧ , ٩ وك ١٥ ع ١٧ , ١٨) . ومن ادلة الزراعة انك ترى بين اليثونة وبعبك كتاتب عديدة تحذ الاملاك وتفوز بينها . وفي امكنة اخرى كتاتب غيرها منها لاتينية ومنها يونانية يُستفاد منها تعدد السكان وتوفر المنازل . وهذه الكتاتب قد اثبتناها في مقالاتنا في مطاوي كلامنا عن كل محل بمفرده فلتراجع . ولدينا غيرها ايضا سنثبتها ان شاء الله عند مجئنا عن القرى الواقعة في المنطف الشرقي من لبنان حيث نشأت قرى عامرة بعضها في جوار بعبك وبعضها في ضواحي زحلة كفرزل ونيحا وجديتا . ومما يجدر بنا ذكره ان كل هذه الكتاتب والعاديات لا تتجاوز القسم المتوسط من لبنان اعني الى نحو ١٠٠ متر من سطح البحر وفي ذلك دليل على ان القسم الاعلى لم يُتخذ بعد للسكنى وانما كانت الغابات تكالمة كما في القرون السالفة

*

وفي اثناء ذلك ظهرت النصرانية ففتحت ظهورها باباً جديداً للتمدن والحضارة في لبنان . فان المستعمرات الرهبانية التي ذكرناها سابقاً (ج ١ ص ١٠٩) اتخذت لبنان منزلاً لاعمالها النسكية وقد اختارت لذلك اقرى مسا وجدته من الاودية فصار الناسك يُجِيلون فيها يد الحراثة . حتى اصبحت هذه المناسك بعد قليل بمراكز اضياع عديدة كما جرى في اردبة حيث ترى مدناً كثيرة كانت في اول امرها ديورة للرهبان اوى اليها القوم فصارت مع تمادي الأيام بلاداً واسعة

ولكن لا يسعنا السكوت عن امر يذهلنا اي اندهال وهو قلّة الآثار النصرانية في لبنان قبل القرن السابع فانك لا تسكاد تجد اثرًا واحدًا منها يمكن نسبته الى النصراني بلاريب مع كثرة العاديات الوثنية الموجودة في انحاء الجبل . وكذلك ترى من الكتاتب اليونانية واللاتينية قسماً صالحاً وهي كلها لعبدة الاصنام اللهم الا خمس اوست منها باليونانية . فيا ليت شعري ما السبب في ذلك . آليس هذا دليلاً على ما لاقتنه النصرانية في سبيلها من العراقيل لما حاولت ان تشر تعاليم الخلاص

بين اهل لبنان . ولنا في تعليل ذلك سبب آخر وهو ان الفوز الاخير الذي ناله الدين النصراني في لبنان انما كان على يد قوم من الاراميين ليس من اليونان ولذلك لا تجد من الكتابات اليونانية النصرانية الا النذر القليل

فان نخطينا الآن الى ذكر تاريخ لبنان في القرن السابع وجدنا هذا الجبل قد دخل في طور جديد يظهر المردة والوارنة الذين لعبوا دوراً مهماً في طوارثه المختلفة . وكان قبلهم لم يفلح منه الا ساحله ووسطه بعد تجردهما من غاباتها امماً لبنان الاعلى والجرد منه فانه لم يزل قفراً خالياً من السكان حتى اوى اليه الموارنة فاضحي معمروراً حافلاً بالطين كبقية نواحي لبنان . وسنبين ان شاء الله قريباً كيف تركبت الامة المارونية الا اننا تقدم على هذا البحث فصلاً آخر في شعوب لبنان القديمة وسكانه الاولين

٥ الامم البائدة في لبنان

ان بين الامم التي سكنت في سالف الازمنة مشارف لبنان واوديته شعوباً دثر رسمهم وباد اسمهم . ومنهم من خلفوا لهم ذكراً كبني كنعان والفينيقيين والاراميين فاحتلوا ربوعه وتوالوا في سكناه فصارت سلالتهم كنواة هذه الشجرة الكثيرة الفروع والعنصر الاصلي لسكان لبنان الحاليين . وليس في خاطرن ان ندون هنا اساطير هذه الامم فان ذلك يقتضي كتاباً ضخماً يخرج بنا عما تحريته من الخطأ في الكتابة وانما نبحت فقط عن بعض هؤلاء الشعوب الذين يهشأ ذكرهم ممن قهقروا على لبنان فاستوطنوه كله او قسماً منه ردحاً من الزمان ثم درسوا اما بالمهاجرة الى غيره من الاقطار او بما فتوح الفتاحين او باختلاط بعض بقاياهم بالعناصر الواردة الى لبنان

وهذا النظر العمومي مع قصره كافٍ ليحيط قرأونا علماً باختلاط القبائل والامم الشتي التي يتركب منها اهل لبنان وفي بحثنا هذا تتبع آثار شعب فشعب على حسب توالي الازمنة وكرور الاجيال

١ الحثيون

لم يكن ذكر الحثيين مستفيضاً بين العلماء قبل اواسط القرن الماضي . وغاية ما كنا

نعلم من امرهم ما ورد من اخبارهم في الاسفار المقدسة . فان ابراهيم الخليل عقد معهم عهداً ذكره سفر التكوين (ف ٢٣ ع ١٠ - ٢٠ وف ٢٥ ع ١٠) . وكذلك قد اتخذ عيسو بن اسحاق امرأتين من بني حثّ (تك ٢: ٣٦) ومن نسلهم كان اورياً الحثّي زوج بتشابع احد قواد جيوش داود . هذا الى اشارات أخرى عديدة يلمح اليها الكتاب الكريم ويؤخذ منها ما كان عليه الحثيون من عظيم الشأن وكبير الامر . على ان بعض الكتبة لم يأنفوا من انكار هذه الامور او الارتياح في صحتها وذلك لانهم لم يجدوا في غير الاسفار المقدسة ما يؤيد صدقها . وكانوا يزعمون انه ليس بين المؤرخين كاتب واحد ذكر الحثيين

وقد شاء الله ان تشهد الاكتشافات الحديثة لصحة ما ورد في كتبه المنزل وهاك بيان الامر : كان بلغ علماء العاديات منذ اوائل القرن التاسع عشر ان في مدينة حماة صفائح من الحجارة الضخمة عليها كتابات تشبه بعض الشبه الكتابات الهيروغليفية المصرية وهي تختلف عنها . ولم يتسنّ لاحد من الآثاريين ان يفحصها فحصاً مدقّقاً الى عام ١٨٧٢ . فلما تفرّغوا لدرسها في تلك السنة اخذ الدهش منهم كل ماخذ اذ تحقّقوا ان الكتابات المذكورة للحثيين وان هي الا الآثار الاولى التي تأنى عن دولتهم العظمى التي أمسى ذكرها (١) . فجعل العلماء ينعمون النظر في آثار تلك الأمة ويبحثون عن دلائل أخرى توقّهم على اسرارهم فما كذبوا ان اكتشفوا بعد زمن قليل عدّة آثار ازال كل الشبهة فوجدوا العاديات الحثية متعددة في حلب الشهباء وفي سهل عمق شرقي انطاكية وقريباً من الاسكندرونة وفي مرعش وجرابلس على ضفة الفرات وفي جهات أخرى من بلاد الاناضول . وكانت هذه العاديات اما كتابات منفردة واما كتابات مع بقايا ابنية فحسبة او قناثيل او نقوش منقورة في الصخور او خواتيم وغير ذلك مما أطلع اصحاب النقد على تمدن واسع قائم بذاته . فذاك الحين دخل الحثيون في نطاق التاريخ ولم يعد احد يشك في وجودهم

ثم واصل العلماء ابحاثهم فاطلقوا راند النظر في الكتابات المصرية القديمة والكتابات

(١) راجع كتاب العلامة ريت *W. Wright : The Empire of the Hittites*
ثم الكتاب *The City and the Land*

الاشورية لعلمهم يجدون فيها ما يزيدهم علماً بهذا الشعب المجهول . فما كذب ظنهم بل اطلعوا على افادات عديدة تبينوا منها اموراً لا تخصى بخصوص الحثيين ودولتهم . ولخضرة الاب دي كارا اليسوعي فيهم مقالات مهمة نشرها تباعاً في مجلة الآباء اليسوعيين الايطالية التمدن الكاثوليكي^١ . احزت له ذكراً مستفيضاً بين المستشرقين . ومع كل ما كتب عنهم في هذه السنين الاخيرة لا يزال العلماء يجهلون اشياء كثيرة من اخبارهم واسرار تاريخهم وسيبقى الامر كذلك ريثما لم يسعد الحظ احداً من ارباب العلم على قراءة الكتابة الحثية التي لا تزال مجهولة . ولا نظن احداً يقوى على قراءتها حتى يجد كتابةً بلغتين حثية وغيرها تكون كمفتاح لها كما جرى لشمبوليون عند ما فك اسرار اللغة المصرية بواسطة حجر رشيد (راجع المشرق ٣ : [١٩٠٠] : ٨٩٢)

ولكن من كان يا ترى هؤلاء الحثيون ما اصلهم ما فصلهم ؟ نجيب ان الحثيين ليسوا من اهل الشام وانما قدموا الى سورية من جهات الشمال . امّا عنصرهم فالرأي الشائع حتى الآن انهم ليسوا من بني سام (١) . ونما ثبت من امرهم انهم كانوا تولوا منذ القرن السادس عشر قبل المسيح البلاد الواقعة في شمالي سورية بين نهري عفرين والفرات . ثم تقدموا حتى سطوا في القرن الرابع عشر على وادي نهر العاصي وسهل البقاع حتى جنوب فلسطين في جوار مدينة حبرون حيث اجتمع بهم ابراهيم الحثيل وبثوه من بعده

وكانت في ذلك العهد حاضرة ملكهم في سورية مدينة قدس التي يظن العلماء ان موقعها كان في المحل المعروف اليوم باسم تل نبي مند عند بحيرة قطينة قريباً من حمص (٢) ولا نريد هنا ان نبسط الكلام في الحثيين ولما غايتنا ان نذكر ما كان لهم من العلائق مع لبنان

(١) راجع ما كتبه في هذا الشأن العلامة مسبيرو في تاريخه القديم (٢ : ٣٥٢) ثم دي لانتشير (De Lantsheere) في كتابه عن اصل الحثيين وانتم ثم جنس في كتابه من الحثيين والارمن وهو يزعم ان الحثيين قبيلة ارمنية
(٢) راجع مقالتنا المعنونة Notes épigraphiques et topographiques sur l'Emésène, p. 46



صورة احد غزاة الحثيين (عن اثر قديم)

وان سألت هل احتلّ الحثيون هذا الجبل ؟ أجبتا انه ليس لدينا اثرٌ صريح
يُنْبئُ بهذا الامر ولا غروَ لانه كما قلنا سابقاً لا نعلم الاّ النذر القليل من تاريخهم واتساع
دولتهم . ونرجح كونهم ضبطوا على الاقلّ جهات لبنان الشماليّة ولعمري كيف يقبل
العقل انّ أمة قويّة رجالها مغاوير حروب اتّخذت لها عاصمةً مدينة قدس لم تقدّ ظلّ
سطوتها على شمالي لبنان وليس بينهما الاّ قاب قوسين اعني سهلاً ضيقاً فقط . ولو
افترضنا انّ لبنان في زمانهم كان عبارة عن غابات كثيفة هل اهمل الحثيون امره
وفي وسعهم ان يستثمروا خشب ارضه الفاخر ويستخدموه لمبانيهم الكبرى
وعماثرهم (١)

(١) راجع مقالنا في ارض لبنان (ج ١ . ص ١٢٤)

وعلاوة على ما تقدّم لا يمكننا ان نسلّم بان الحثيين تغاضوا عن احتلال وادي النهر الكبير الذي يفصل لبنان عن جبل النصيرية وهم يعلمون انّ هذا الوادي طريق للامم الفاتحة. وذلك يظهر من تاريخ الفراعنة انفسهم اذ انّ دهمسبس الثاني لما اتى لمقاتلة الحثيين سار الى محاربتهم ماراً بهذه الطريق

فلا بُدّ اذن من القول ان الحثيين بعد ان استولوا على البقاع ملكوا ايضاً عطف لبنان الشرقي والممالك التي تنمضي الى لبنان الغربي . وبما يؤيد هذا الرأي ان سهول البقاع المتوسطة كانت في تلك الازمنة القاصية عبارة عن مستنقعات مائية لا يمكن استيطانها فلزم اذا الحثيين ان يسكنوا الجهات المرتفعة فوق تلك البطاح

على اننا نرى دلائل أخرى باقية الى عهدنا تحملنا على ترجيح هذا الامر وهي اسامي عدّة امكنة في سورّية تُدعى « حثّا » او « كفرحاتا » فارتأى العلماء انّ هذه الاسماء اشارة الى احتلال الحثيين في بلاد الشام لأنّ « حثّا » او « حثّا » هو اسم الحثيين نفسه. فان صدق هذا القول ولعلّ فيه شيئاً من الصحة أفليس لنا ان نقول عن القرى الموجودة في لبنان باسم « حثّا » او « كفرحاتا » انها آثار باقية من زمن الحثيين . بيد انّ هذا القول ليس بقاطع لانه يُمكن اشتقاق « حثّا » من لفظة سريانية « سبها » التي معناها « الحديثة » او « الجديدة » ويؤيد ذلك انّ قرى لبنانية عديدة تدعى ايضاً « حثّ » و « مُحَيِّدَة » ونعدّ « حثّا » اقرب الى السريانية من سواها . ولسيادة المطران بطرس شبلي كلام حسن في هذا الشأن اثبتّه في المجلّة الكتابيّة (Revue Biblique, 1901, p. 587)

ومن الاسماء اللبناينة الكثيرة الورود اسم « شعور » او « شاغور » كهين شاغور في حثّا وغيرها . وكذلك « جسر الشجر » او « جسر الشعور » في ولاية حلب . وقد ثبت الآن انّ شاغور كلمة حثيّة الاصل وهي فيها « ساغورة » (١) هذه آثار جمعناها هنا للاستدلال على اقدم الشعوب البائدة في لبنان وهي كما ترى خفيفة الا انّ املنا وطيد ان الاكتشافات المستقبلية سوف تطلعننا على ما هو اقوى منها حجّة وادلّ بياناً والله على كل شيء عليم

(١) راجع مقالة لحضرة الكاتب ا. شندا في مجلّة Mittheil, d. Vorderasiat. Gesell.,

٢ اليونان

انتقض جبل الحثيين في الشام (ولبنان معها) بتغلب الفراعنة على سورية . ثم تبعهم ملوك اشور الكلدانيون وخلف الفرس الاشوريين . وكل هذه الدول بعد كسرتها تركت من آثارها شيئاً في بلادنا ولا بُدَّ ان يكون تخلف من تلك الامم بعض بقايا امتزجت باهل فينيقية امتزاج الماء بالراح حتى لم يعد يمكن افراز هذه العناصر الغريبة عن الاهلين الاصليين . وكان لبنان في عهد كل هذه الدول قليل السكان للاسباب التي ذكرناها في مقالاتنا السابقة وان كان عدد المهاجرين اليه لم يزل يزداد يوماً فيوماً بتزاحم السكان وحرارة الآكام الواقعة عند منعطف الجبل

ولمّا كانت اواخر القرن الرابع (ق م) ظهر ذلك البطل الصنديد والملك العظيم اسكندر ذو القرنين المقدوني فكان اول ما تطلّ اليه عنقه البلاد السورية وكان يملك عليها وقتئذٍ داريوس ملك الفرس فزحف اليها بجنوده بعد ان غلب اعداءه في سهول قيليقية قريباً من مدينة ايسوس فما مرّ عليه بضعة اشهر حتى فتح سواحل فينيقية وخضعت له دمشق ولم يقيم في وجهه الا صور فحاصرها مدة الى ان اخذها عنوة في تموز من سنة ٣٣٢

وكان في اثناء محاربة الاسكندر لصور قد اغتال بعض اجلاف اللبنانيين قوماً من اصحاب الملك فقتلوه . فسار الاسكندر بقسم من عسكره الى لبنان فلم يلق في وجهه عدواً ثم وصل الى البقاع والجبل الشرقي فعاد بعد عشرة ايام غانماً ظافراً

وما لبث ذو القرنين بعد فتح صور حتى اخضع بلاد فلسطين ومصر ثم سار الى اقاصي المشرق ففتح ما فتح ومات بعد عشر سنوات في بابل سنة ٣٢٣ ق م

فصارت سورية من بعده الى احد قواده سلوقس نيقاطور فتملكها وألحق لبنان بها فدخل هذا الجبل تحت حكم السلوقيين الى ايام الرومان

وهنا مبعث مهم لم نكن نتعرض له لولا ان بعض المحدثين استندوا الى حجج واهية ليؤيدوا زعمهم الباطل

ودونك القضية المطلوب بيانها هل يا ترى لما استولى اليونان على جبل لبنان غلب العنصر اليوناني العنصر الفينيقي او الآرامي بحيث يصح القول ان اليونان من الامم التي استوطنت لبنان

نجيب على هذا القول بالاجمال أننا بيّنا غير مرة أنّ العنصر المتغلب على سورية في عهد اليونان كان العنصر الآرامي لا اليوناني (راجع المشرق ٣ : ٢٦٨) . فان صدق ذلك عن سورية عموماً فهو اصدق واحقّ عن لبنان خصوصاً فلأنّ آراميّة سكّانه في أيام الدولة اليونانيّة اوضح من النهار

وكأنّي بالمعارض يستوقفني هنا ليردّ على هذا القول بدليلين على زعمه مقلعين أوّلها اسماء اعلام الامكنة وثانيهما الكتابات اليونانيّة في لبنان نجيب على الاعتراض الأوّل أننا اذا استثنينا بعض امكنة من سواحل فينيقية او من مستعمرات اليونان (راجع المشرق ٣ : ٢٧٠) لا تكاد نجد اسم قرية في لبنان مشتقّ من اليونانيّة بل اكثر الاسماء ان لم نقل كلّها آراميّ محض مع بعض اسماء عربيّة احدث عهداً . وترى المعابد الكبرى نفسها كدير القلعة والمشتقة التي فقدت اسمائها الآراميّة لا نعرف لها اسماً يونانيّاً . وما لا مرأ به أنّ المدن الساحليّة التي صحّف اليونان اسماءها الآراميّة عادت بعد حين الى اسمائها الاصيليّة

أمّا الاعتراض الثاني المستند الى الكتابات اليونانيّة التي وجدت في لبنان فانه يظهر لأوّل وهلة اقوى حجةً وادلّ بياناً ولكن اذا سبرناه بعميار الانتقاد وجدناه واهنا كالاعتراض السابق ولا يثبت البتّة زعم المحتجّ

لا ننكر وجود الكتابات اليونانيّة في لبنان وقد اسعدنا الحظّ على اكتشاف كثير منها ابرزناها الى عالم الوجود في المجلّات الاوربيّة . لكن مجرد وجود الكتابات اليونانيّة في محلّ ما لا يدلّ على كون اهل هذا المكان من اليونان . نرى اليوم في لبنان عدّة كتابات تركيّة او افرنسيّة على بعض المباني المستحدثة فهل يستنتج احدٌ من هذه الخطوط أنّ اهل لبنان من العنصر التركي او الفرنسي ؟ وكذلك في لبنان عاديّات وكتابات لاتينيّة كثيرة من عهد الرومان فمن يا ترى زعم لاجل ذلك أنّ اهل لبنان كانوا رومانين . وغاية ما يُستدلّ من الامر ان الرومان ملكوا لبنان او أنّ بعض أسرات منهم احتلّت بعض انحاء الجبل لترويح النفس كما يفعل اليوم كثير من الاوربيين . فكذلك الكتابات اليونانيّة انما تدلّ على أنّ اللغة الرسميّة كانت في ذلك العهد لغة اليونان وأنّ بعض وجهاء اللبنانيين جنحوا الى آداب اليونان ولقّتهم كما يتفرّج اليوم ابناء الوطن فلا يتكلّمون بغير اللغة الفرنسيّة ولا يكتبون الا بها

فدليل الكتابات وحده لا يجدي إذا نفعا لبيان عنصر أمّة ما اللهمّ ألا بان
يضاف الى أدلة أخرى تاريخيّة وضعيّة تزيل الشبهات . وقد لحظ ذلك احد علماء عصرنا
وهو نلدكه الشهير (١) قال : « انه لا يجوز الاستناد على مجرد وجود كتابات في
احدى اللغات او عدم وجودها للقول بان اهل ذلك البلد كانوا من ذلك العنصر او لا » .
مثال ذلك مدينة بيروت التي لم يُبقَ فيها حتى الآن كتابة فينيقيّة أفيسوغ ان نقول
أنها لم تكن فينيقيّة ؟ كلاً . وكذلك لبنان ساء من زعم ان اهله كانوا يونان او رومان
لوجود كتابات قديمة فيه من عهد هاتين الدولتين

وعلاوة على ما تقدّم اننا نرى الكتابات اليونانيّة المكتشفة في لبنان مشحونة
بالاغلاط مشوّهة بالتصحيفات غير تامّة المعاني وكلّ ذلك دليل على انّ النسخ والحقّارين
كانوا يرسمون الالفاظ رسماً مادياً وهم لا يدركون معانيها (ج ١ ص ١٢٧)

وان قال قائل انّ اعلام الاشخاص المرسومة على هذه الآثار يونانيّة اجنبنا مع
اكبر العلماء باحوال الروم وهو العلامة الشهير مُمسن (Mommsen) في تاريخه (٢) :
« انّ اغلب هذه الاسماء ليست يونانيّة او ان كانت يونانيّة ترى معها الاسم الفينيقيّ
او الساميّ الذي كان يُعرّف به الشخص » . وفي هذا القول بَيّنة واضحة على انّ
اليونانيّة لم تكن سوى مسحة ظاهرة وزيّ خارجيّ تزيّا به اهل لبنان حبّاً بالجاه وتشبّهاً
بتأدي ذلك العصر

ولعلّ المعارض يزيد على ما سبق اعتراضاً ثالثاً بقوله : « ان قيام معبودات اليونان
مقام آلهة فينيقية والشام دليل على تغلب اليونان » . اجبنا ان هذا البرهان والحقّ على
طريق تقيض . فانه لا يوجد بلد حافظ اهلّه على معبوداته القديمة مثل لبنان والشام
فانّ الدين الآراميّ والفينيقيّ صبر على كلّ التقلّبات السياسيّة الى ان غلبتهما النصرانيّة .
وكلّ ما يمكننا ان نسلّم به من هذا القبيل ان بعض اسماء الآلهة الفينيقيّة برزت على
صورة يونانيّة في لفظها . وكذلك اطلق الكتبة اليونان واصحاب الامر على هذه

(١) راجع المجلّة الاسيوية الالمانية ZDMG, 1885, p. 333

(٢) راجع Roem. Geschichte, V, 453



تمثال المشتري (بعل) البعلبكي في دير القلعة

الالهة اسماء غريبة فدعوا هذا
 « جوبتير » وذلك « ابولون »
 اما الاهلون فحافظوا على
 اسماء آلهتهم بكل حرص حتى
 ان المؤرخ مُنسين السالف
 ذكره بين في تاريخه (ج ص
 ٤٥٢) ان اهل سورية لم
 يختلطوا باليونان الا اختلاطاً
 سطحياً واثبت ذلك بانهم
 حافظوا على اديانهم الخصوصية
 في حلب وافامية وحمص
 وتدمر . وكذا قل عن دير
 القلعة حيث شاعت عبادة بعل
 مرقد . وهذا البعل كان
 مشهوراً وقد ورد اسمه في
 الكتابات اللاتينية على لفظ
 « جوبتير » لا لكونه الها
 رومانياً بل مراعاةً للدولة
 واستجلاباً لحاطر اليونان
 والرومان واستدراراً لعطاياهم
 اذ كانوا يجنون اليه . ولعل
 سدنة بعل مرقد سته أيضاً
 بهذا الاسم دلالة على
 امامتهم للسلطة الرومانية
 واعتصامهم بجبلها . ولذلك

ترى بل بعلبك وبل دير القلعة مملّعين في الكتابات بالقاب جوبتير رومية العظمى المعروف « بجوبتير كايبتولان » فيدعيان مثله بالاله الصالح الاعظم (Jupiter) (optimus maximus) وكذلك ترى إلهة سامية مملّعة باسم إلهة الرومان « جونون الملكة (١) (Juno regina)

وقد رسمنا هنا صورة تمثال جوبتير بعلبك الذي اكتشفه حضرة الاب رزقال في دير القلعة لتري كم يختلف الإله الفينيقي عن الإله الروماني في الصورة والهيئة (انظر الصورة في الصفحة السابقة)

واذا عدلت الى هيكل افقا وجدت كذلك عبادة عشتاروت الفينيقية مسترة برداء الإلهة الزهرة اليونانية وان كانت كل واحدة مختلفة عن الاخرى . وذلك يظهر من شعارها الذي لا يشبه في شيء شعار إلهة اليونان

ومما قلناه عن العنصر الآرامي في لبنان يصح أيضاً عن لغتهم الدارجة فإنها كانت الآرامية . وهو رأي المؤرخ الشهير مونسن اذ قال (ص ٤٥٢) : « اني اظن ان اللغة الآرامية كانت اللغة السائدة دون غيرها في لبنان على عهد قياصرة رومية » . وان نسب احد هذا الكاتب الى الفلّو والمبالغة ورأى انه بخس حقوق اليونانية في الشام تصدى له احد ائمة العلماء المبرزين وهو نلدك الالماني الذي ليس فقط يوافق وطنيته مونسن بل وجد انه مقصر في حقوق الآرامية وقد اتى مصداقاً لقوله بجيجع تثبت شيوع الآرامية بحيث لا يبقى بعدها ريب (٢)

ثم ولوسلمنا بان اللغة اليونانية طمست في لبنان آثار اللغة الآرامية فلا ينتج من ذلك ان اصل اللبنانيين يوناني . وليست اللهجة وحدها كافية لتعريف الاصل . وإنما ذلك دليل يقتضي تأييده بدلائل أخرى تبلي الحقيقة وتوضحها . فان التاريخ ينبئ بوجود امم عديدة تكلمت بلغة غير لغتها الاصلية . فان اللاتينية مثلاً درجت بين شعوب شتى لم يكن بينها ادنى علاقة . وقس عليها العربية وغيرها

وخلاصة القول ان العنصر اليوناني كان دائماً في لبنان عنصراً زهيداً لا يُعبأ به . ونستطيع القارى عذراً على اننا اطلنا القول في هذه القضية التي لا يختلف فيها اثنان بين علماء العادات

٣ الايطوريون

سبق لنا القول (ج ١ ص ١٤٤) ان الرومان لما فتحوا الشام وجدوا لبنان في حوزة قوم من الغزاة كانوا عثسوا في جباله الساحلية الممتدة من طرابلس الى جبيل . وهم الايطوريون

وليس هؤلاء القوم من لبنان وانما اصلهم من اللجأ ومن جبال حوران وكانوا ذوي بأس وطمع فتحاملوا على الجبل الشرقي واتخذوا خيراتهم كطعمية ثم تشوفوا الى لبنان فاستولوا عليه قبل زمن الدولة الرومانية بقليل

والايطوريون احدى القبائل العربية او الارامية (١) التي كانت منذ ذلك العهد مدت ظل سطوتها على البلاد الواقعة في جنوبي دمشق وشرقيها . وكان شيخ القبيلة اوانذر يدعى بطلميوس ابن منايوس من اعظم اهل سورية ثروة وقدرًا . وكان يحكم على بلد الايطوريين الاصيلي (٢) ويتولى الجبل الشرقي وجهات البقاع الشمالية مع مدينتي بعلبك وكنيسيس (Chalcis) وكان له عسكر من الفرسان يبلغ عدده ٨٠٠٠ فارس

ولما زحف پمپيوس على لبنان وجد طرابلس وما يحاورها من لبنان الشمالي (٣) في قبضة احد الايطوريين من قرابة بطلميوس بن منايوس يدعى ديونيسيوس . فاضطر الرومان لتوطيد دعائم سلاطنتهم ان يحاربوا هؤلاء الدخلاء حرباً عواناً كانت نتيجةها وبالأعلى اهل ايطورية فاسر پمپيوس قائدهم ديونيسيوس وأصر بقطع رأسه ثم توغل في لبنان فاخرب حصون جيعرتا وستان وبوروما (٤) وكان غزاة الايطوريين يتحمون من هذه المقامات المنيعه على المدن الساحلية فيوسعون اهلها ثياباً وقتلاً . وقد حاولنا في مقالاتنا السابقة ان نبين مواقع هذه الحصون فلترجع

- (١) كل الاعلام الايطورية الاصل الواردة في الكتابات القديمة اما عن بيعة وانما آرامية . راجع مجموع الكتابات اللاتينية (CIL, III, n° 437x etc.) راجع أيضاً تفاصيل اخبار الايطوريين في مجمع الكتاب المقدس (Vigouroux: Dict. de la Bible, art. Iturée) (٢) ايطورية الاصلية توافق بلاد اللجأ وجيدور الحالية . وقد ورد ذكر ايطورية في انجيل لوقا (١: ٣) (٣) اعني ما يشمل اليوم قائمقاميات الكورة والبترون وقسم من بلاد جبيل (٤) ان صح قولنا عن وقوع ستان وبوروما في كسروان فيكون ملك الايطوريين بلغ هذه المعاملة أيضاً

وقد حارب بيبثوس مدينة كلسيس الايطورية فدمرها . وكلسيس على الرأى
الراجح هي مدينة عين جرّ التي تُرى اُخرى في سهل البقاع . أمّا قول البعض أنّها هي
زحلة فلا نصيب له من الصحة كما سنبيّنه في كلامنا عن هذه البلدة
وخلاصة القول أنّ الآثار تنبئنا بامتداد سلطة الايطوريين في قسم كبير من
لبنان الشمالي . ولما انتصر الرومان عليهم وفتحوا معاقلمهم تقلّص ظلهم وباد ذكرهم
من التاريخ ولا ريب أنّ بقاياهم امتزجت باهل لبنان
ومما يدلّ على وجود الايطوريين في لبنان ما وجدنا في الكتابات اليونانية من
الأعلام العربية لاسيّما في رأس الشّمة والنخاء جميل
وليس الايطوريون القليلة العربية الوحيدة التي دخلت في عداد اهل لبنان . بل
نجد قبائل غيرها توطّنت ذلك الجبل لاسيّما التبوخين (١) . وهذا الامر مهمّ لمعرفة
عناصر اهل لبنان نكتفي اليوم بالإشارة اليه فقط

٢ الرومانيون

استفدنا من الفصل السابق ان الجيوش الرومانية قهرت الايطوريين في لبنان
وكسرت شوكتهم . ولسائل ان يسألنا وهل احتلّ الرومان في لبنان فاستعمروه ؟ اليس
وجود الكتابات اللاتينية المتعدّدة في هذا الجبل دليلاً على سكناهم فيه ؟ نقول أنّ
جوابنا عن توطّن الرومان في لبنان كجوابنا عن اليونان وقد اثبتنا ان الكتابات اليونانية
وحدها لا تدلّ على أنّ اليونان استخاروا لبنان لسكناهم . فكذا قلّ عن الرومان فان
الكتابات اللاتينية تشير الى تملكهم على الجبل وتدلّ على أنّ اللغة اللاتينية اصبحت
اللغة الرسمية في بلاد الشام في القرن الأوّل السابق لعهد المسيح والقرنين التابعين له
هذا ولا ننكر أنّ بعض الرومان وخصوصاً اصحاب مستعمرتي بيروت وبلبيك
الرومانيين كانوا يملكون في لبنان اقطاعات كثيرة من جملتها املاك الايطوريين لكنّ
الرومان في الغالب لم يتولّوا بانفسهم زراعة هذه الاملاك وأنما كانوا يعهدون امرها الى

(١) جاء في كتاب البلدان لليقوني أنّ لبنان المجاور لصيداء كان يسكنه قوم من
قريش ومن اهل اليمن (راجع المجلّد الألمانيّة الفلسطينية 87, IV, ZDPV)

شركاء وطنيين يقومون بشؤونها ويستثمرونها باسمهم . وان وُجد منهم احد في لبنان فالصواب ان يقال انهم كانوا نفراً قليلاً . ومن ثمة لا يجوز ان ننظم الرومانيين بين الشعوب اللبنانية القديمة

• المردة

في بُهرة القرن السابع اعني سنة ٦٧٧ م يذكر مؤرخو اليونان لأول مرة قوماً يجعلون سكناهم في جبال الشام من جبل اللكّام شمالاً الى حدود فلسطين جنوباً وهم يدعونهم مردائين ويعرفهم المحدثون باسم المردة . ومن غريب امر هذا الشعب انه لم يبدُ في بادئ ذي بدء ضعيفاً ضئيلاً بل نراه جاثماً فوق مشارف لبنان ضابطاً مضائقه شاغلاً كل نقطة الحصينة على مدى طوله من الشمال الى الجنوب وليس من يقوم في وجهه بل كثيراً ما ينقض من مراكزه الحريزة فيغزو المعاملات القريبة منه دون ان يرد احد هجماته . ولم يزل امر هؤلاء المردة في اشتداد حتى صار كل الملوفين والمطرودين من اهل الوطن واصحاب الفاقة يلتجئون اليهم وياوذنون بحمايتهم ويزيدونهم عدداً وقوة . ولا غرو انهم لو ثبتوا مدة على ذلك لأتوا بالاعمال الخطيرة لولا ان مارك الروم الذين كان المردة يخضعون لهم امروهم بالخروج من لبنان بعد ظهورهم فيه ببضع سنين فاندثر امرهم على فور كما ظهوروا بغتة دون ان يبقوا في لبنان اثرًا من مرورهم (١)

فمن ذا نرى هذا الشعب ؟ كيف ظهر فجأة دون ان يذكر احد وجوده في بلاد الشام ولبنان سابقاً ؟ ألّنى خرج ؟ هذه اسئلة اقترحها قبلنا العلماء وحاولوا حل عقدها . وبما يدل على ان الامر ملتبس عويص ان العلماء ذهبوا في ذلك مذاهب شتى ندونها هنا دون ان نبدي فيها رأياً تاركين لقراءتنا ان يصوبوا الرأي الذي يرونه اصح واثبت ولا بُدّ قبل بسط هذه الآراء المتباينة ان نروي اقوال الكتبة الاولين الذين ذكروا المردة مباشرة لأن اقوالهم من شأنها ان تعرف هذه الطائفة وتبين خواصها

(١) زعم ريسان في كتاب بشفة فينيقية ان قلعة سسر جبيل من آثار المردة في لبنان وهو قول بلا دليل عودنا على مثله هذا الكاتب الذي يتخذ مخيلته حجة لمزاعمه . وقد بينا غير مرة انه كثيراً ما يربي الكلام على مواهبه ولا يسنده الى الادلة

يؤخذ من اقدم ما ورد عن المردة ان لبنان لم يكن مركزهم الاول . قال المؤرخ تاوفانوس عنهم (١) : « ان المردة دخلوا لبنان » . (εἰσῆλθον εἰς τὸν Λίβανον) . وفي هذا القول ما لا شبهة فيه عن مجيئهم الى لبنان من محل آخر . ثم اردف تاوفانوس قائلاً : « والتجأ اليهم الوطنيون » وفي هذا دليل على ان المردة لم يكونوا من اهل لبنان بل غرباء عنه . أما عددهم فكان رافراً يبلغ « اثني عشر الف رجل » . شاك السلاح دون النساء والاطفال . ومما يدل على بطشهم انهم في مدة اقل من نصف قرن ملأوا القلوب رعباً بفزواتهم المتواصلة

والمؤرخون اذا اشاروا الى المردة دعوهم بلفظة عسكرية وهي τάγμα يراد بها فرقة من الجند او الطابور . واسمهم هذا دليل على انهم لم يكونوا شعباً كـبقيّة الشعوب بل كانوا على هيئة عسكرية ونظام حربي يفلحون الارض وقت السلم وهم على أهبة لمباشرة الحرب في أية ساعة كانت . ولنا مثل على هذا التنظيم في أمة الكرواتين التي كانت في القرن الثامن عشر تحافظ على حدود النمسا في جنوبها . وكان للرومان أيضاً فئات عسكرية من هذا الصنف كانوا يقيمونها عند ثغور مملكتهم فيدعونهم لاجل ذلك بالفئات الحدودية (limitanei) اعني انهم يذبون عن الحدود ويدفعون عنها الاعداء . وكان اولادهم يرثون تلك الاملاك من بعدهم ويجرون مجراهم في الدفاع عن ثغور الدولة . وكان الرومان يختارون لمثل هذا المشروع قداماء الجند المحنكين في آداب الحروب ثم وكلوا ذلك بعدئذ الى بعض اهل البلاد المجاورة لحدود المملكة (٢)

وان سألت عن الدولة التي كان المردة يخدمونها اجبتك انهم كانوا تحت حكم ملوك الروم فهم الذين تقدّموا اليهم بالمداغة عن الثغور الشامية وهم الذين صرفوهم عنها وانزلوهم في نواحي آسية الصغرى كما سيأتي فهذه الافادات عن المردة لا ريب يقر بصحّتها كلّ المحدثين لانها وردت في

(١) راجع تاريخي في مجموع الآباء اليونان المجلد ١٠٨ ، ١٠٧ ، ١٠٦ ، ١٠٥ ، ١٠٤ ، ١٠٣ ، ١٠٢ ، ١٠١ ، ١٠٠ ، ٩٩ ، ٩٨ ، ٩٧ ، ٩٦ ، ٩٥ ، ٩٤ ، ٩٣ ، ٩٢ ، ٩١ ، ٩٠ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٥ ، ٨٤ ، ٨٣ ، ٨٢ ، ٨١ ، ٨٠ ، ٧٩ ، ٧٨ ، ٧٧ ، ٧٦ ، ٧٥ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٧٢ ، ٧١ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٦٨ ، ٦٧ ، ٦٦ ، ٦٥ ، ٦٤ ، ٦٣ ، ٦٢ ، ٦١ ، ٦٠ ، ٥٩ ، ٥٨ ، ٥٧ ، ٥٦ ، ٥٥ ، ٥٤ ، ٥٣ ، ٥٢ ، ٥١ ، ٥٠ ، ٤٩ ، ٤٨ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٥ ، ٤٤ ، ٤٣ ، ٤٢ ، ٤١ ، ٤٠ ، ٣٩ ، ٣٨ ، ٣٧ ، ٣٦ ، ٣٥ ، ٣٤ ، ٣٣ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٣٠ ، ٢٩ ، ٢٨ ، ٢٧ ، ٢٦ ، ٢٥ ، ٢٤ ، ٢٣ ، ٢٢ ، ٢١ ، ٢٠ ، ١٩ ، ١٨ ، ١٧ ، ١٦ ، ١٥ ، ١٤ ، ١٣ ، ١٢ ، ١١ ، ١٠ ، ٩ ، ٨ ، ٧ ، ٦ ، ٥ ، ٤ ، ٣ ، ٢ ، ١ (PG. T. 108, p. 722, 733, 737, 738, 739, 740, 741, 742, 743, 744, 745, 746, 747, 748, 749, 750, 751, 752, 753, 754, 755, 756, 757, 758, 759, 760, 761, 762, 763, 764, 765, 766, 767, 768, 769, 770, 771, 772, 773, 774, 775, 776, 777, 778, 779, 780, 781, 782, 783, 784, 785, 786, 787, 788, 789, 790, 791, 792, 793, 794, 795, 796, 797, 798, 799, 800, 801, 802, 803, 804, 805, 806, 807, 808, 809, 810, 811, 812, 813, 814, 815, 816, 817, 818, 819, 820, 821, 822, 823, 824, 825, 826, 827, 828, 829, 830, 831, 832, 833, 834, 835, 836, 837, 838, 839, 840, 841, 842, 843, 844, 845, 846, 847, 848, 849, 850, 851, 852, 853, 854, 855, 856, 857, 858, 859, 860, 861, 862, 863, 864, 865, 866, 867, 868, 869, 870, 871, 872, 873, 874, 875, 876, 877, 878, 879, 880, 881, 882, 883, 884, 885, 886, 887, 888, 889, 890, 891, 892, 893, 894, 895, 896, 897, 898, 899, 900, 901, 902, 903, 904, 905, 906, 907, 908, 909, 910, 911, 912, 913, 914, 915, 916, 917, 918, 919, 920, 921, 922, 923, 924, 925, 926, 927, 928, 929, 930, 931, 932, 933, 934, 935, 936, 937, 938, 939, 940, 941, 942, 943, 944, 945, 946, 947, 948, 949, 950, 951, 952, 953, 954, 955, 956, 957, 958, 959, 960, 961, 962, 963, 964, 965, 966, 967, 968, 969, 970, 971, 972, 973, 974, 975, 976, 977, 978, 979, 980, 981, 982, 983, 984, 985, 986, 987, 988, 989, 990, 991, 992, 993, 994, 995, 996, 997, 998, 999, 1000)
(٢) راجع معجم العاديات اليونانية والرومانية Saglio et Darenberg : Dict. des antiquités grecques et latines, I, 1374

تواريخ مشاهير الكتبة الذين عرفوا هؤلاء القوم ووصفوا احوالهم ولكن هنا مسألة أخرى لا يتفق فيها ارباب العلم نريد اصل المردة وجنسياتهم . فقد ارتأى بعض الانثى ومنهم العلامة السمعاني والحاقلاني ومرهج بن غرون والدويهي ومن تبعهم من علماء الموارد وبعض الكتبة الاوربيين كبارونيوس ولوكيان وغيرهما ان المردة هم الموارد . واقوى حججهم لبيان ذلك ان المردة كانوا قومًا من النصارى يسكنون لبنان ولا تعرف في القرن السابع شعباً يدين بالنصرانية ويسكن لبنان غير الموارد . وان اعترض معترض على اصحاب هذا الرأي بقوله ان المردة كانوا فرقة جندية موفدة من مسلك القسطنطينية الى بلاد الشام انكروا الامر قائلين لو كان المردة طائفة من الجند خرجوا من لبنان بعد انعقاد الصلح والامر ليس كذلك فان المؤرخين يذكرون انهم داوموا غزواتهم بعد الصلح الذي عقده يستينان الثاني وانهم لم يكفوا عن عاداتهم حتى ابرم هذا الملك معاهدة ثانية وارسل الى المردة عصبة تصرفهم من لبنان بالوعد والوعيد الى بلاد الارمن حيث كان الملك وقتئذ (١) . فهذا الاحتجاج لا يخلو من القوة وهو يبين ما في هذا البحث من المضلات

اما اصحاب الرأي الآخر فينكرون توحيد المردة والموارنة ويسندون رأيهم الى كون المردة ليسوا وطنيين كالموارنة بل غرباء عن لبنان اتوه من الخارج كما سبق القول ثم استولوا عليه فحصره في وجه العدو مدة الى ان برحوه بعد زمن قليل ومما يدعم به هؤلاء رأيهم في اختلاف المردة عن الموارنة ان المردة كانوا خاضعين للملك الروم . قال ابن العربي في تاريخه السرياني (ص ١١٥) : « ان المردة جنود للملك قسطنطين اللحياني ارسلهم الى الشام للمدافعة عنها » . وكل هذا لا يوافق الموارد الذين خلعوا عنهم ربة ملوك الروم كما يظهر من تواريخهم ومن تصرفهم مع ملوك بوزنطية والملكيين انصارها

ويزيد اصحاب هذا المذهب الثاني ان كلام تاوفانوس وقدرينوس (Cedrenus) وغيرهما مما ينفي عن المردة اصلهم اللبناني . والمردة على قولهم كانوا قبل دخولهم في لبنان يقطنون بلاد الارمن ولايات آسية الصغرى واليهما رجعوا بعد غزواتهم في لبنان . وقد

(١) راجع ردود المثلث الرحمت المطران يوسف الدبس على الاب الصمودي قاله (ص ٤)
ورسالته اليانا في المشرق (٥ [١٩٠٢] : ١١٤)

كتب أحد علماء الفرنج اسمه انكتيل دوياردون (Anquetil-Duperron) مقالتين مطوَّرتين في مجلّة الكتابات والفنون ليثبت ان المردة من الشعوب التي كانت قبل المسيح وانهم هاجروا الى بلاد عديدة في ممر الاجيال ومنهم مردة لبنان ومن ثمّ ليسوا بالموارنة (١)

وان سألت الذاهبين الى هذا القول : وما هي على رأيهم جنسيّة المردة . اجابك بعضهم انهم اصلاً قبيلة ايرانيّة دخل فيها اخلاطٌ من عناصر سوريّة وارمنيّة (٢) والاب مرتين في كتابه المخطوط « تاريخ لبنان » يقول انّ المردة من العرب وهو يشتقّ اسمهم من « التمرّد ». وهذا رأي ضعيف لان المردة لم يأتوا من جزيرة العرب ولا من جهة الشرق وانما دخلوا لبنان قادمين من الشمال . وهذا مما يرتجح رأي القائلين بان المردة اتوا لبنان من جهة آسية الصغرى . ثم لم يُفدنا احد من المؤرخين عن دخول العرب الى لبنان في القرن السابع . وان قال القائل انّ هؤلاء كانوا من نصارى غسان من الذين استعان بهم ملوك الروم اجبنا ان الفسّانيين لم يخدموا اوانتذر مملوك القسطنطينيّة خدمة تُذكر بل لم يلبثوا ان انحازوا الى العرب مواطنيهم وكلّ ذلك يخالف ما جاء عن المردة في كتب المؤرخين . وعلاوة على ذلك انّ الفسّانيين كانوا من اليعاقبة وفي عهد المردة كان ملوك الروم يطاردون هذه الشيعة ولم يكن المردة من قبيلة عربيّة أخرى لانّ العرب كانوا في ذلك العهد من أعداء الروم فليس المردة اذن عرباً هذا ومن المقررّ الثابت انّ ظهور الموارنة كأمة مستقلة قد اتفق مع عهد حروب المردة في لبنان . وان لم يسلم القراء بان الموارنة هم المردة فأنه لا سبيل الى النكران بانه وجدت بين الفئتين علاقات وديّة . ومما يتّضح ايضاً من تاريخ ذلك العصر انّ الموارنة عند خروج المردة من لبنان لم يتبعوهم في مهاجرتهم الى آسية الصغرى بل ثبت معظمهم في جبلهم

أما المردة فجعلوا بعد عودتهم سكناتهم في وطنهم القديم بلاد الارمن . وزي منهم من قطن في جوار اضالية . ورحل قسم منهم الى جزيرة قبرس واحتلّ غيرهم بلاد اليونان

(١) راجع Anquetil - Duperron : *Mémoires sur les migrations des Mardes*

Mém. Acad. Inscr., T. XLV, 87 et L. 1 et seqq.

(٢) راجع تاريخ دولة الروم 213 p. Rambaud : *L'Empire Grec au X^e Siècle*

ومورة ونواحيها . ولم يزالوا في كل هذه البلاد على نظامهم العسكري وكان لهم ضباط يدعونهم كاتيبانو (κατεπάνω) . هذه خلاصة ما ورد في امر المردة ومن استراد امكته ان يراجع ما كتبه عنهم قدرينوس (ك ١ ص ٧٦٥ و ٧٧١ طبعة بون) وزوناراس في مجموع اعمال الآباء اليونانيين (ج ١٣٤ ص ١٢٩٧) وتاريخ قبرس (ج ١ ص ١٠٦) للعلامة ماس لاتري (Mas-Latrie) والسبعاني في المكتبة الشرقية ومجلة اصدااء الشرق (١٩٠١ ص ١٥٦) وساخاس (Sachas : Μεσαιωνική βιβλιοθήκη, II, 45 seqq.)

٦ الجراحة

قد رأى القراء ما في مسألة المردة من المضلات التي لم يحلها حتى الان فطاحل العلماء (راجع الصفحة ٤١ والمشرق ٥ : ٩١٤) على ان هذا المطلب يقودنا الى بحث آخر له معه بعض العلاقة نعني بذلك أمة الجراحة

يفيدنا التاريخ ان في القرن التاسع قبل الميلاد كانت في شمالي غربي سورية مملكة صغرى تدعى جرجومة عاصمتها مرعش . والمرجح ان هذه الدولة أنشئت من بقايا دولة الحثيين البائدة (راجع ص ٢٩ من هذا الجزء) خلفتها في ولاية قسم من بلادها في زمن لا يمكن تعريفه بالتدقيق . بيد اننا نعلم ان اهل هذه المملكة لم يكونوا من عنصر آرامي لان دولة الآراميين لم تمتد الى تلك الجهات على الاقل في الجيل المذكور . واسم الجراحة وارد في الكتابات الاشورية التي تفيض في احوال هذا الشعب والتقلبات التي طرأت عليه . ولا نجد بعد الآثار البابلية ذكراً للجراحة الى عهد المردة في لبنان اعني القرن السابع للمسيح

قال البلاذري في كتاب فتوح البلدان (ص ١٥٩ - ١٦٣) في مطاري كلامه عن فتح العرب لبلاد الشام : « ان الجراحة من مدينة على جبل اللكّام عند معدن الزاج فيما بين بياس وبوقا (١) يقال لها الجرجومة » فيظهر من هذا القول ان الجراحة لم يلبثوا ساكنين في المكان الذي اشارت اليه كتابات الاسوريين قبل خمسة عشر قرناً الا انهم كانوا منحصرين في قسم من اللكّام (ألا داغ) بين مدينة بياس الساحلية ونهر قرأسو . وكانت مدينتهم الكبرى التي منها اتخذوا اسمهم لا تزال تدعى جرجومة

(١) لم نجد في كتب البلدان لجغرافيين العرب ما يعرفنا بموقع بوقا الا كوخا من عمل انطاكية

ثم يذكر البلاذري تاريخ الجراجمة على مألوف عاداته في ذكر غيرهم من الشعوب القديمة فتدري في كلامه بعض الابهام لانه يروي في حقهم الروايات المختلفة التي جمعها دون ان يكذب ذهنه في ثبات صحتها او التوفيق بينها . الا ان الذي يتدري في كلامه ويقابل بين هذه الروايات الشتي يأخذ الانذهال لما يجد بين اخبار الجراجمة والمردة من التشابه . فان ما ذكره المؤرخون اليونان عن قدوم المردة من شمالي سورية الى جنوبها وعن احتلالهم جبل لبنان وسكونهم في جوار حمص وبلبك ودمشق قسد رواه البلاذري عن الجراجمة على عهد الخليفة الاموي عبد الملك وهو على وشك السير الى بلاد العراق . ثم اردف البلاذري قوله بقوله : « وضوت اليها (اي الروم) جماعة كثيرة من الجراجمة وانباط وعبيد اباق من عبيد المسلمين » . وهو كلام ينطبق على قول المؤرخ تاوفان في المردة كان المؤرخين اليوناني والعربي سندا قولها الى رواية واحدة لا تكاد تختلف حتى في اللفظ

ثم ينتهي امر الجراجمة في تاريخ البلاذري كما ينتهي امر المردة في تاريخ تاوفان اعني بعقد معاهدة بين الخليفة الاموي وملك الروم . وكان من نتيجة ابرام الصلح كما روى البلاذري (ص ٢٦٠) أن « تفرق الجراجمة بقرى حمص ودمشق ورجع اكثرهم الى مدينتهم الكمام » وهي ايضا رواية شبيهة برواية تاوفان عن تفرق المردة ورجوعهم الى وطنهم . اما مدينة جرجومة فخربت بعد ذلك بزمن قليل

ومما روى ايضا البلاذري (ص ١٦١) في تاريخ سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) ان « الوليد بن عبد الملك وجه الى الجراجمة مسلمة بن عبد الملك فافتتح مدينتهم على ان يزلوا بحيث احبوا من الشام وعلى ان لا يكرهوا على ترك النصرانية ولا يؤخذ منهم جزية . . . اما بطريقهم فنزل في جماعة معه انطاكية ثم هرب الى بلاد الروم » . وجاء في فتوح البلدان ايضا ان الخلفاء اجرؤ الارزاق على هؤلاء الجراجمة واستعانوا بهم في حروبهم (١) وما ذلك الا لان موقع بلادهم كان في جبال ومضايق تجري فيها صوائف العرب عند نفوذهم في بلاد الروم . وكل هذه التفاصيل التي ذكرها البلاذري لا تكاد نجد لها اثرًا في كتبة العرب اللهم الا ياقوت في كتاب معجم البلدان في مادة « جرجومة »

(١) راجع فتوح البلدان (ص ١٦١) . ومعجم البلدان لياقوت في مادة جرجومة

وهو ينقل هناك شيئاً مما أثبتته البلاذري . ويظهر من كلام ياقوت ان الجراجمة في زمانه كانوا امتزجوا بغيرهم من الملل وان جرجومة عاصمتهم لم تزل خراباً . وفي تاريخ حمزة الاصفهاني (ص ٣٩) ورد ذكر « من بالشام وفلسطين من الجرامقة (١) والجراجمة » ولا بُدَّ ان يسألنا القارئ هنا عن رأينا في الجراجمة أيعنون من المردة او يتنازون عنهم . (قلنا) انَّ ما يوجد من الاتفاق بين احوال المردة وامور الجراجمة من حيث موقع بلاد الفريقين وبسالتنهما في الحروب وتواريخهما يحملنا على ان نطابق بينهما . ولا غرو فانَّ اعظم المستشرقين في المانية وهو العلامة نُلدِك (Noeldeke) يؤكد لنا ان العرب في تواريخهم يدعون المردة باسم الجراجمة وانَّ كليهما امة واحدة (٢) ونحن ايضا نصادق على كلام هذا الكاتب الثقة بعد التروي في ما كتب بهذا الصدِّ وان كنا نجد في اقوال البلاذري بعض الاشكال الا انَّ ذلك من الامور العرضية دون الاصلية

فان صحَّ هذا القول تثبت عنه نتائج في امر المردة لم ينتبه اليها الكتبة الاقدمون منها ان هؤلاء القوم لم يكونوا من اهل لبنان الاصليين بل قدموا اليها من شمالي سورية اذ انَّ الجراجمة على قول البلاذري كانوا يسكنون جبل اللُكَّام الذي يختلف عن لبنان . ومما يثبت انَّ هؤلاء الجراجمة لم يكونوا آراميين اي من اهل سورية الاصليين انَّ البلاذري يذكر في جملة من انضوى اليهم الانباط وهو الاسم الذي يدلُّ به كتبة العرب على العنصر الآرامي (٣) . وكذلك اذا فحصنا عن الامر على حسب قوانين علم الجغرافية وعلم اصول الشعوب وجدنا انَّ الجراجمة ينتمون الى آسية الصغرى ولذلك نراهم يرحلون بعدئذ الى بلاد الروم ويسكنون قيلية قرب موطنهم

(١) الجرامقة قوم من انباط او آرامي العراق وقد ارتأى نُلدِك الالمانى الشهير ان كتبه العرب لم يفرقوا بين الجراجمة والجرامقة والصواب انَّ الجرامقة غير الجراجمة . وعندنا ان فرقة من الجرامقة استوطنوا الشام كما يظهر من تاريخ حمزة (ص ٣٥ و ٣٩) وياقوت (١ : ٢٦) وكلاهما يذكر « جرامقة الشام » ولعلَّ « جبلي جرمق » في جنوبي لبنان وبلاد بشارة تُسبأ اليهم

(٢) راجع المجلة الاسيوية الالمانية ZDMG, 1875, p. 85 . وقال نُلدِك في ذيل تلك الصفحة « ان العلماء لم يثبتوا حتى الان وحدة المردة والموارنة »

(٣) راجع المجلة الاسيوية الالمانية ZDMG, 1871 p. 124-125

منها . وفي فتوح البلدان للبلاذري أنهم احتلوا جبل الحوَّار وهو من اعمال قبايقية كما نَبّه اليه ياقوت في المادة

ومما يستفاد ايضاً من كلام البلاذري امرٌ آخر ذو بال وهو ان قسماً من الجراجمة كانوا ضربوا اطنابهم في لبنان قال في اثنائه كلامه عن الجراجمة (ص ١٦٢) : « خرج بجبل لبنان قومٌ شكوا عامل خراج بعلبك فوجّه صالح بن علي بن عبدالله بن العباس من قتل مقاتلتهم واقر من بقي منهم على دينهم وردّهم الى قراهم واجلى قوماً من اهل لبنان » . وهذا دليل واضح ان قوماً من الجراجمة كانوا قبل هذا العهد في لبنان وليس هذا حدساً على سبيل التخمين بل امرٌ راهن يثبتهُ المؤلّف نفسه في كلامه عن ميسون الرومي المعروف بالجرجاني الذي كان موثقاً لبني امّ الحكم اخت معاوية ابن ابي سفيان قال (ص ١٦٠ و ١٦١) : « وانما نُسب الى الجراجمة لاختلاطهم بهم وخروجه بجبل لبنان معهم » . فكان اذن في لبنان قومٌ من الجراجمة وهذا ما اردنا بيانه

فقدرى من بجنا هذا الحاضر ما يؤيد قولنا السابق في ان المردة والموارنة ان لم يكونوا شعباً واحداً قد كانت على الاقل بينهم علاقات متينة . وكذا قل عن الجراجمة ولذلك افردنا لهم فصلاً ونظمناهم في سلك الامم التي سكنت لبنان . وسنبيّن قريباً ان هذه الامم كلها امتازت بعد قليل امتزاج الماء بالراح

٧ العجم

جاء في كتاب البلدان لاحمد بن ابي يعقوب اليعقوبي (١) ان الخليفة معاوية لما فتح بلاد الشام وجد مدينها الساحلية فارغة من السكّان فاستقدم قوماً من العجم ليتخذوها لهم سكناً . وقد ذكر ذلك عن طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء . بل خصّص بذلك ايضاً بعلبك وعرة في بلاد عكار . فصارت كل النواحي المحيطة بلبنان في يد العجم بل اضحى قسمٌ من لبنان في حوزتهم وهي الايلات القريبة من المدن المذكورة كما يصرح اليعقوبي بهذا الامر

فقول اليعقوبي السابق ذكره يضطرنا الى ان نجعل العجم بين الشعوب البائدة من لبنان التي بقيت منها فيه بعض بقايا امتزجت باهلها . وشهادة اليعقوبي المذكور لم نجد

لها ما يؤيدها في سائر التواريخ واصف البلدان (١) ألا انها تستحق الاعتبار وتستوقف الانظار. كيف لا وهي لكاتب من اقدم كتبة العرب عاش في القرن الثالث للهجرة وهو من المشاهير الموثوق بكلامهم وصف في تأليفه احدًا قريبة من زمانه وما يحملنا على تصديق قول اليعقوبي أننا نجد في لبنان قومًا من الشيعة كالمناولة والنصيريين توطنوا الجبل وبسطوا عليه سطوتهم وخلفوا فيه آثارًا تنبئ بصحة ما سطره المؤرخ الموما اليه . ومن جملة هذه الآثار ما نراه في بعض اهل لبنان من هيئة الجسم وتقاطيع الوجه وسحنة البشرة التي يُعرف بها العجم وقد وردت ايضا في القرن العاشر شهادة اخرى تؤكد قول اليعقوبي وهي في كتاب رحلة احد الاعجام الى بلاد الشام وجزيرة العرب وهو نصري خسرو الذي نشر كتابه العلامة شربل شيفر الشهير . ومما قاله صاحب هذا الكتاب (ص ١٠٠) ان « اهل طرابلس كلهم من الشيعة » وكذا قال من صور ولا نشك انه يريد ابناء هؤلاء الاعجام الذين استقدمهم معاوية لسكنى بلاد الشام ولم يعد الكتبة بعد هذا العهد يذكر العجم وعندنا ان امرهم ضعف بعدئذ لما حدث في بلاد الشام من الحروب في القرن الثاني عشر فانهتض امرهم واختلطوا باهل لبنان . ومنهم النصيرية والمتاولة الذين ظهروا بعدئذ

٦

انتشار الأمة المارونية في لبنان

للأمة المارونية في لبنان مقام ممتاز لتوفر عددها فيه ولما بينها وبين هذا الجبل من العلاقات التاريخية المتواصلة حتى جاز لها ان تعتبر لبنان كوطنها الخاص . ومن ثم لا يسمنا ان نصرف عنها النظر في غضون تسريح ابصارنا في آثار لبنان وليس كلامنا في الأمة المارونية تاريخياً اذ لم نتوخ في مقالاتنا تاريخ الجبل بل آثاره ولا سيما ان تاريخ هذه الطائفة قد شاع اليوم فلا حاجة الى اعاده ما يعرفه القراء (٢) وعليه فنقتصر في هذا الباب على ما يختص بنشوء الطائفة وانتشارها في لبنان

(١) الآ ابن رُسته والبلاذري

(٢) راجع تاريخ الطائفة المارونية للدوجي الذي نشره الاستاذ المرحوم رشيد الشرتوني

فُتحت هذه الدروس الخاصة المواد لتاريخ اعم واكمل . وفي الفصول السابقة توطئة لهذا الباب وفيها ذكرنا الشعوب الذين جعلوا قبل الموارنة سكناهم في لبنان . ومنهم من خلف فيه شعباً من عنصر كالمردة والجراجة بقي منهم فئات في القسم الثاني من القرن السابع الذي نخضعه الآن بالبحث

وكان الموارنة في ذلك العهد عبارة عن مجموع زمر آرامية لم يمسها العنصر اليوناني وقد تدهنت تقيم خصوصاً على مقربة من أفامية في جهات دير مار مارون ومنه اتخذوا اسمهم . ومن ثم انتشروا في وادي العاصي وخصوصاً في معرة النعمان وفي شيزر وحماة وحمص كما يظهر من نص للمسعودي ورد في كتابه المعنون بالتنبيه والاشراف ألعنا اليه غير مرة وإذا راجعنا اقاويل قدماء المؤرخين كابن العبري في تاريخه الكنسي السرياني (١) وابن بطريق (٢) وغيرهما وجدنا الموارنة في مقامات أخرى اقرب الى الشمال كمنبج وتلّسرين والناحية المعروفة بالعواصم . ومن المحتمل ايضاً انهم كانوا في انطاكية وجوارها لان انطاكية تُعد كحاضرة هذه الناحية وفيها تدخل مدينة قورس المتكرر ذكرها في ترجمة القديس مارون لتاودوريطس اسقف هذه المدينة (٣) . وكتبة الموارنة يوافقون على انتشار طائفتهم في تلك الانحاء وشهادتهم في ذلك صحيحة مستندة الى نصوص وضعية لا تُنكر . ونحن اول من يرضى بمثل هذه الشهادات المؤيدة بالبرهان

وان سأل سائل هل يُعرف عدد هذه العشائر المارونية المستعمرة في سورية الشمالية وسورية الوسطى . اجبنا انه ليس في وسعنا ان نعين ذلك بالتدقيق لكنّه يؤخذ من نبذة سريانية تاريخية اوردها المشرق في سنته الثانية (ص ٢٦٧) نقلاً عن المجلة الاسيوية الالمانية (ZDMG, 1875) ان هذا اللف كان ذا عدد وافر اذ حضر بصفة

(١) الجزء الاول منه (ص ٢٧٠ - ٢٧٤)

(٢) راجع تاريخه في مجموع الآباء اليونان (ج ١١١ ص ١٠٧٧ و ١٠٧٨) ومنه في مكتبنا الشرقية نسخة خطية قديمة ويزعم ابن بطريق انه دخل بين الموارنة قوم من الروم لعاء يريد الآراميين المتجنسين بالجنسية اليونانية كما كان منهم كثير في سورية . وان صحّ قوله كان له شأن لتقرير العناصر السورية وغيرها

(٣) راجع كتاب البلدان لابن رسته (ص ١٠٧) وفتح البلدان للبلاذري وكتاب التنبيه للمسعودي وغيرهم من كتبة العرب . وقد تبناهم في كتابة اسم قورس بالسين بدلاً من قورس بالشين وفقاً للفظ الآرامي

فرقة دينية امام الخليفة معاوية فجرى بينها وبين اليعاقبة جدال كانت فيه الدولة على اليعاقبة . وكان اصحاب هذه البدعة جيلاً كبيراً في ذلك العهد فاولا ان الموارنة كانوا على نوع ما يعادلوهم عدداً لما حكمهم لهم الخليفة على اخصامهم . وكان دخول الموارنة الى لبنان على رأينا في القسم الثاني من القرن السابع هاجروا الى الجبل من وادي العاصي . وكأني هنا بالقارى يتعرّض لي فيقول : مالك تذكر مهاجرة الموارنة الى لبنان أليس أصبح ان يقال ان سكان لبنان الاصليين هم الموارنة . فالجواب على ان مبادى تاريخ الموارنة الديني تشير صريحاً الى كون هذه الطائفة كانت اولاً خارجاً عن لبنان . ومن المعلوم انها تنتسب الى القديس مارون وقد عاش القديس مارون في شمالي سورية في البلاد الواقعة بين انطاكية وقورس ثم تراها مواصلة سيرها في وادي العاصي في زمن لم نسمع لها بذكر في لبنان . ثم بعد ذلك بمدة نجد الموارنة يتوغلون في هذا الجبل مهاجرين اليه من الشمال ونواحي سورية المتوسطة . فلا بدّ اذن من التسليم بتثقل الامة . وفي تاريخ تاوفانوس كما في فتوحات البلاذري اشارة الى هذه المهاجرة كما سنبين آنفاً

ولكن ترى ماذا حمل الموارنة الى مبارحة وادي العاصي واستبدال مقاماتهم فيه ليسكنوا لبنان نجيب ان الرأي عندنا انهم عدلوا الى لبنان تخلصاً من اضطهادات مجاورهم فخص منهم بالذكر اليعاقبة اعداءهم . وكان اليعاقبة في ذلك الوقت اصحاب بطش وسطوة لهم في افامية ونواحيها الكعب الاعلى . وكان لهم قريباً من افامية دير عظيم على اسم ماري يأسوس (١) بلغ عدد رهبانه ٦٣٠٠ . ولما كان الفريقان على طرفي نقيض قضي على الموارنة المهاجرة

وقد بينا ما كان بين الأمتين من العداوة . ولنا على ذلك برهان آخر اقدم عهداً ورد في تاريخ الكنيسة لابن العبري (المجلد الاول ص ٢٧٠-٢٧٤) قال ان في عهد الملك هرقل حدث بين رهبان مار مارون واليعاقبة مشاحنات (٢) فانزع الاولون من ايدي

(١) راجع مقالة الاب شابو في مار باسوس L'abbé Chabot: La légende de Mar

Bassus et de son couvent à Apamée, p. 55, 60, 63.

(٢) ان في هذه المناظرات بين الموارنة واليعاقبة دليلاً واضحاً على بطلان مزاعم بعض الكتبة الذين نسبوا للموارنة اهلالي يعقوب البرادي في طبعي المسيح

اليعاقة كنائسهم برضى ملوك القسطنطينية فحاول اليعاقة استرجاعها في ايام معاوية فلم ينالوا بالرغوب . ولا غرو ان اليعاقة كانوا يترقبون الفرصة ليزاحموا الموارنة شيئاً فشيئاً ويضطروهم الى ان يخرجوا من اماكنهم فطلب الموارنة لهم ملاجئ حريزة يحصلون فيها على الدعة والسكينة . ولعلّ خراب دير مار مارون حدث في ذلك العهد وكان بعض اليعاقة سبباً لحراجه

بيد ان هذه المهاجرة لم تكن دفعة واحدة وانما حدثت في ازمئة متوالية فكان المهاجرون ينتقلون الى لبنان زرافات زرافات . وفي عهد المسعودي اي في القرن العاشر نجد منهم بقايا في وادي العاصي خارجاً عن لبنان . اما دخولهم في هذا الجبل فكان في وقت المردة والجراجمة وفيهم يصح خصوصاً قول تالوفانس « ان كثيرين من اهل البلاد احتسوا في ذراهم (اي المردة) » وقول البلاذري في فتوح البلدان (١) « ان جماعة كثيرة من الجراجمة والانباط والعبيد الاثاق ضوّوا الى الروم » اراد بذلك الموارنة فدعاهم باسم الانباط دلالة على اصلهم الآرامي

وكان دخول الموارنة الى لبنان من الشمال اعني انهم تبطنوا وادي الأرنط فاجتازوا افامية وحماة وحمص الى ان قرّ قرارهم في الجبل . فسكنوا أولاً جهات الشمال ثم تقدّموا الى اواسطه ثم بلغوا جنوبه . هذا ما يمكن استخلاصه من النصوص التاريخية التي ورد فيها ذكر انتشار الموارنة في لبنان

وقد بينّا في مقالتنا عن سكنى لبنان في قديم الزمان (راجع الصفحة ٢٣) ان مشارف الجبل والجهات المعروفة بالجرد بقيت الى القرن السابع قليلة السكّان كثيرة الغابات . أمّا « الوسط » فكانت مأهولة وان كان اهلها اقل عدداً من الارياض والسواحل . فلا مرأ ان الموارنة سكنوا اعالي لبنان لخلوها من السكّان . واحتلوا أولاً اودية الجبة اعني مقاطعات اهدن وبشري وحدث واهلهم لقوا هناك بعض الدساكر التي كانت سبقت عهدهم على الاصح كقرية اهدن وقرية بشري (٢) وعندنا

(١) راجع الصفحة ٤٧ من هذا الكتاب

(٢) راجع آثار لبنان ج ١ ص ١٢٧ وهناك بينّا ما يختص باهدن وبشري . أمّا الحديث فمن اقدم قري لبنان ورد اسمها في ترهة المشتاق للادريسي وتكرّر ذكرها في اخبار اصول الطائفة المارونية

انّ الموارنة تولوا ايضاً في بعض اماكن من منحدر الجبل قريباً من البترون عند دير كفرحيّ القديم (١٠٠). ولعلّ مدينة البترون نفسها اصبحت من أوّل مساكن الموارنة كلّها او على الأقلّ قسم منها

فيكون اذن أوّل مركز احتلّه الموارنة عند ولوجهم لبنان معاملة الحبّة وقسم من بلاد البترون فهناك كان مهد الامة المارونية كما اشرنا اليه غير مرّة

ومن الحوادث التاريخية الاولى التي جرت بعد سكنى الموارنة في لبنان ما ذكرناه في مقالنا عن الجراحة وهي شكوى اهل الجبل من عامل بعلبك وكان الامام الشهيد محمّد الاوزاعي ممّن دافعوا عنهم وانتصروا لهم. قال البلاذري في فتوح البلدان (ص ١٦٢) عن محمّد بن سعد عن الواقديّ قال: خرج بجبل لبنان قومٌ شكوا عامل خراج بعلبك فوجّه صالح بن عليّ بن عبد الله بن العباس من قاتل مقاتلتهم واقراً من بقي منهم على دينهم وردّهم الى قراهم واجلى قوماً من اهل لبنان. فحدثني القاسم بن سلام انّ محمّد بن سعد حدثه ان الاوزاعيّ كتب الى صالح رسالة طويلة حفظ منها وقد كان من اجلّاء اهل الذمّة من جبل لبنان ممّن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه: « ممّن قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ما قد علمت فكيف تؤخذ عامّة بذنوب خاصّة حتى يُخرجوا من ديارهم واموالهم... »

ولمّا كثّر عدد الموارنة في القرون الثامن والتاسع والعاشر اخذوا شيئاً فشيئاً في الامتداد الى الجنوب واحتلّوا بلاد جبيل وممّا يشهد على سكنائهم في معاملتي جبيل والبترون منذ ذلك العهد عدّة كنائس سبق لنا وصفها في مقالنا عن كنائس لبنان القديمة (راجع الجزء ١٠ ص ٧٩) وقد بقي الموارنة في تلك النواحي قوماً من اهل البلاد كانوا يسكنون السواحل والوسط. غير انّ عددهم لم يكن متوقفاً. وكان اكثرهم نصاريّ يتكلّمون باللغة الآرامية ويسيرون فيها طقوسهم الدينيّة. وعندنا انّ هؤلاء الآراميين لم يلبثوا ان يمتزجوا بعد قليل بالموارنة امتزاج الماء بالراح كما امتزج بهم ايضاً بقايا المردة والجراحة الذين تخلّفوا في لبنان. وكانت مهاجرة سكّان وادي الأرنط الى لبنان لا تزال متواصلة متتابعة لمزاحة اليعاقبة واضطهادهم للموارنة

وكان الملكيون مع هذا يقطنون بعض قرى لبنان في بلاد البترون وجبيل مثل كفرشليان وحدتون (١) وبقسمايا (٢) ودوما والقرى المجاورة (٣) وكفور (٤) وغرزوز وغيرها. وكان الملكية في لبنان يتبعون أنشد في فرائضهم الدينية طقس انطاكية اعني على الراجح ليتورجية القديس يعقوب التي ناقضها بعد ذلك البطريرك ثاودروس بلسمون (٥) واستبدلها بليتورجية القسطنطينية. وفي ما خلا ذلك لم يختلف الملكيون عن بقية الآراميين في اصلهم ولغتهم. وما لا ريب فيه ان الكتابات اليونانية لنصارى لبنان قليلة جداً لا يُعرف منها إلا كتابتان او ثلاث كتابات. أما الكتابات التي تُرى على بعض الصور في سيدة نايا بكفرشليان مخطوطة باليونانية فليست هي للوطنيين وإنما كتبها مصوِّرون بوزنطيون او مثَّلها الوطنيون كما وجدوها في امثلة بوزنطية قديمة

وبعض القرى التي كان يسكنها سابقاً الملكيون نراها بعد ذلك مأهولة بالموارنة إما لأنّ الموارنة دخلوها فامتزج بهم الملكيون. وإما لأنّ الملكيين هاجروها فانقلبتوا الى امكنة غيرها او لاسباب نجعلها

وخلاصة الامر أننا اذا استثنينا اليهود نجد في تركيب الامة المارونية ما نجده في تأليف جميع الامم التي تتركب اصولها من عناصر شتى. وكذلك الامة المارونية اذا اعتبرتها في اواخر القرون المتوسطة رأيتها تتألف من اصول مختلفة اولها واعظمها شأناً الموارنة المهاجرون الى لبنان من سورية الشمالية وسورية الوسطى ضوى اليهم قوم من الأتراك والطرعاء الذين لاذوا بحمى المردة والجرافة الباقين في لبنان فضلاً عما كان هناك من القطين الاصليين. فهذه العناصر كلها تمازجت بعد حين وصارت امة كبرى ذات لغة واحدة وهيئة واحدة وغاية واحدة لا يمكن الآن اصحاب النظر مهما دققوا في البحث ان يفرزوا جانسياتها الاصلية

(١) راجع في الجزء ١. ص ٨٦ و ٨٧ مقالنا عن هذين المحليين

(٢) تاريخ الدويجي (ص ٢٠٧)

(٣) منها كفرخلدا وقد وجدت فيها آثار ابنية للملكيين

(٤) راجع كتاب خزائن الكتب في دمشق وضواحيها للاديب حبيب افندي زيات (ص

١١٩ الخ) والمشرق (٥ : ١٠٤ و ١٠٦)

(٥) راجع المشرق (٣ : ٢٧٢)

فاذا لحظنا نموّ الامة المارونية كما تقدّم واعتبرنا انّ عدد المواليد يفوق كثيراً عندهم الوفيات لا نعود نستغرب ما ذكره غياحوس الصوري في تاريخ الصليبيين حيث احصى الموارنة اربعين الفا . وهذا الاحصاء الاجمالي ينطبق على ما روي في تواريخ الاعصار المتوسطة عن الموارنة انهم منتشرون في جهات طرابلس وبلاد البترون وجبيل والجبّة الى نهر ابراهيم . وهو قول صحيح غالباً مع بعض شذوذ كما ستري قريباً عند ذكرنا اقوام من غير المسيحيين سكنوا في ايلات لبنان الواقعة شمالي نهر ابراهيم

وبما ورد ايضاً في التواريخ الصليبية ذكر مقدّم ماروني يدعى سمعان تولّي عينتاب في شمالي سورية (١) ولا نعلم من اي فرقة من الموارنة كان أمن الذين في لبنان او ممّن تخلّفوا في بلاد العواصم . أمّا كونه من موارنة العواصم فاقرب الى الصواب ونجد قبل هذا العهد قوماً من الموارنة في بلاد ما بين النهرين اشتهر منهم توفيل ابن توما الماروني المنجم الرهاوي قال ابن العبري في تاريخ الدول (ص ٢١٩ و ٢٢٠) : « كان رئيس منجمي المهدي . . . وكان على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى وله كتاب تاريخ حسن (٢) ونقل كتابي اميروس الشاعر على فتح مدينة ايلون في قديم الدهر من اليونانية الى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة » . وكذلك نجد في عبر دجلة بين الموصل وبغداد جماعة من الموارنة ذكرها في القرن الثالث عشر الراهب ريكلد دي مونكروا (Ricold de Montcroix) وروي ان لها مطراناً يدبّوها (٣) . ولعلّ قيساً الماروني المؤرخ الذي اسهب في ذكره المشرق (٣) : ٢٦٥ و ٣٥٦ و ٤٥١) كان من تلك الجماعة . وعلى كلّ لا نرى احداً من كتبة الموارنة ذكر هذا المطران في ما وراء دجلة . وكل هذا دليل على انّ في تاريخ الامة المارونية اموراً عديدة لم يُحسر بعد عنها اللثام . ومن المحتمل انّ الكتبة سكنوا عن هذا المطران كما سكنوا عن غيره لانّ الاساقفة المارونيين كانوا مدّة الاجيال السالفة

(١) راجع تاريخ مملكة اورشليم Roehricht: *Geschichte des Koenigreichs Jerusa-*

lem p. 220, note 6. وجدت منه بعض مقاطع مختصرة في تاريخ المنبجي (٢)

الذي نشره الاب ل. شيخو (ص ٣٦٩)

(٣) راجع Quatremère : *Mémoire sur les Nabatéens*, p. 149

كنوَابَ للبطرِكَ ومعاونيهِ دون لزوم كرسي خاص . وانما جعلت لهم مراكز منفردة في القرون المتأخرة فقط

وكان القرنان الثاني عشر والثالث عشر قرني نهوض وترقٍ في لبنان ، وفي ذلك العهد بُنيت كنائس عديدة على طرزٍ خاصٍ تزينها الكتابات السريانية وفيها من نقوش الفسيفساء والتصاویر المأونة ما سبق وصفه (١) . وفي هذه الابنية دليل على وفرة عدد اللبنانيين وهمتهم . لم يزل يشو هذا العدد ويتزايد حتى هاجر قسم منهم الى النواحي المجاورة من فلسطين ولاسيما القدس الشريف وكان لهم فيه عدّة كنائس (٢) . وكذلك انتقلت منهم مستعمرات الى قبرس ثم رودوس . أما قبرس فقد سكنوها منذ القرن الحادي عشر ورؤى لهم في هذه الجزيرة ديراً (٣) في تاريخ سنة ١١٢٠ . وقد غواغوا عظيمًا حتى انهم كانوا يسكنون منها ثلاثين ضيعة (٤) وكان يرعاهم مطران من طائفتهم . وكان بعضهم في مدن قبرس الكبرى وخصوصاً الماغوصة (٥) وكانت في ذلك العهد واسعة التجارة . أما دخول الموارنة في رودوس فنظّمه انه جرى على عهد الفرسان المعروفين بالاسپيتالار (Les Hospitaliers) لما احتلوا تلك الجزيرة فتبعهم الموارنة . وكذلك ذهب قسم منهم في القرن السادس عشر مع فرسان رودس الى جزيرة مالطة ولحق بهم بعض من اخوانهم من موارنة قبرس في اواخر ذلك القرن . ولعل وجود الموارنة في مالطة ممّا ساعد على حفظ العربية ونشرها في تلك الجزيرة . ومن المعلوم انّ اهل مالطة يتكلمون باللغة العربية مشوبة بالفاظ دخيلة من اللغات الاجنبية

أما حلب فيظهر من نصّ ثوما الكفرطاي ورد في المشرق (٦: ١١٨) ان الموارنة

(١) راجع في الجزء الاول مقالتنا عن كنائس لبنان القديمة

(٢) المشرق ١ : ٩٣

(٣) راجع سلسلة بطاركة الموارنة للدويهي (الطبعة الثانية ص ٢٢ الحاشية الاولى)

(٤) راجع تاريخ قبرس L. Machéras: *Chronique de Chypre*, trad. f. 15, 16

(٥) وجاء في رحلة يعقوب دي برن (J. von Bern) سنة ١٣٤٦ انه وجد الموارنة في

هذه المدينة يقيمون رتبهم على طريقة الروم . ولا نفهم ما يعني بذلك ألعلة يريد ان الموارنة كانوا يستعملون اليونانية في طقوسهم وهي لغة اهل الجزيرة ؟ فهذا ممكن

كانوا فيها منذ زمن قديم لكن اخبارهم في الشهباء مجهولة الى القرن الخامس عشر حيث اتاهم مدد جديد من لبنان (راجع المشرق ٥ : ١٠٣٩ في الحاشية الثانية) ولنعودن الان الى المواردنة المستوطنين لبنيان فانهم كانوا في نمو وازدياد يتدنون شيئاً فشيئاً في النواحي المجاورة . قال الدويهي : « وبسبب ما اشتهر به لبنان اوانتذر من الامن والطمانينة قصده الناس من الاماكن البعيدة (١) » لسكنى النواحي التي يهجرها المهاجرون الى قبرس وجزائر البحر المتوسط

ومع هذا النمو لا نرى الامة المارونية تتقدم الى الامام في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . اما لاجل مهاجرة قسم منها الى قبرس ورووس كما سبق واما لاجل الحروب التي انتشرت في كسروان في ذلك العهد فبقي المواردنة ما وراء نهر ابراهيم وهذا لا بد من تكرار ما قلناه غير مرة في مقالاتنا (٢) ان كسروان ليس من المقاطعات التي اوى اليها المواردنة قبل القرن الخامس عشر . وقد اوردنا نصاً للدريسي ذكر فيه وجود اليعاقبة في جونبة (المشرق ١٠١٨ : ١) . وان سأل القارى ومن كان يسكن اذن كسروان قبل هذا العهد . اجبنا ان معظم اهل هذه الناحية كانوا من المتأولة او من النصيريين . وكان النصيريون قاطنين ايضاً في بعض نواحي لبنيان الشمالية كجبهات البترون ونواحي المنيطرة والعاقورة (٣) ولكن عددهم الاوفر انما كان في كسروان . وقد ذكر صالح بن يحيى صاحب تاريخ بيروت (٤) الغزوات التي باشرها نواب الشام في ايام السلطانين الملك الاشرف خليل بن قلاوون والملك الناصر محمد بن قلاوون فحاربوا النصيرية في جبال كسروان ولم يذالوا يناجزونهم القتال حتى اخرجوهم من كسروان وجعلوا مكانهم قوماً من التركمان على الاقل في بعض النواحي وبقي كثير من المتأولة معهم . هذا وان امورا كثيرة من تاريخ كسروان لا تزال مجهولة حتى يومنا الا اننا نعلم بلا ريب ان النصارى لم يحتلوا هذا الجبل قبل القرن الخامس عشر

(١) راجع تاريخ الدويهي (ص ١٤٠)

(٢) راجع المشرق (١ : ٥٦)

(٣) ولنا في النصيرية مقالة افرسية جمعنا فيها كل ما يختص بآثار النصيريين واحوالهم وسمناها باسم « النصيرية في لبنان » ونشرناها في مجلة الشرق المسيحي سنة ١٩٠٢

(٤) راجع تاريخ بيروت (ص ٤٤ - ٥١)

ولمّا كانت اوائل القرن الخامس عشر جعل الموارنة يتجاوزون نهر ابراهيم ويصعدون الى كسروان . وكان انتشارهم فيه سريعاً حتى صارت هذه المقاطعة في القرن السابع عشر كلّها لهم . وامتدّ من ثمّ الموارنة الى مقاطعتي المتن والشوف . اكنّنا نقف عند هذا الحدّ لئلاّ ندخل في اخبار قريبة من عهدنا وليست غايتنا كما قلنا ان نسطر تاريخ لبنان بل ان نبيّن بوجه الاجمال كيف انتشرت الامة المارونيّة . امّا تفاصيل اخبارها فليست الان من شأننا وقد مرّ منها كثير في اجائنا السابقة وسنورد ان شاء الله غيرها في ما بعد

بحث جغرافي

في سيرة القديس مارون الناسك

لكمالاً لبعثنا عن منشأ الطائفة المارونيّة وتكوّنها نضيف الى ما سبق من الكلام بعض افادات تتعلّق بحياة القديس مارون الذي خالف اسمه للطائفة الموما اليها . غير أنّنا لا نتجاوز الحيز الجغرافي الذي رسمناه فتكلّم من ثمّ على حياته لا من الوجه التاريخي بل من الوجه الجغرافي لاسيّما وان هذا الوجه قد كثر تغاضي الباحثين عنه حتى الآن فبقيت فيه مشاكل كثيرة لا بُدّ من تفكيك معضلاتها

*

ليس في ايدينا شيء يروي اخبار القديس مارون غير مصدر واحد اصلي اي الترجمة التي تركها توادوريطوس اسقف قورس (١) وهي تركة جليّة القدر يكفي انتسابها الى هذا المؤرخ الجليل للحكم على مكانتها من الاهميّة ولولا ايجازها المفرط لا وجدنا فيها مساعاً للانتقاد ونأخذ عليه انه اهمل الوجه الجغرافي اهمالاً تاماً حتى اننا لانجد في ترجمة القديس مارون سوى اسم واحد من اسماء الامكنة وسبب ذلك هو انه دون ما

(١) راجع تأليفه المصنوع « تاريخ الرهبان » في مجموع الاباء اليونان مج ٨٢ واليو نشير في هذه المقالة

دون لحمل معاصريه على سلوك طريق الفضيلة بإيراد سير الزهاد والقديسين فلم يخطر
لہ في بال ان يشفي رغائبهم في امور كان يفترض انہا معروفة عند جميعهم
وبناء عليه نأسف كل الاسف على عدم التفاتہ الى هذا الشأن الذي لو اراد
الكتابة فيه لكان وفاء حقه من البيان بغاية الضبط والدقة . وهب انه لم تكن
لہ معرفة شخصية بالقديس مارون فقد كانت لہ صداقة بليغة مع القديس يعقوب (١)
اشهر تلاميذه الذي اطلعہ على كل ما يتعلّق بن يصفه هذا المؤرخ اليوناني تارةً بمارون
الكبير وتارةً بمارون « الالهي » (٢) . وكان توادوريطس خشي في كلامہ على الابطال
المسيحيين الكثيرون العدد من تكرار اخبار الحوادث والمعجزات فبالغ في اختصار سيرة
القديس مارون بنوع ان من يطالعها تتبادر الى ذهنہ في الحال مسائل كثيرة لا يجد
لها حلاً وهي : أين ولد القديس مارون وأين عاش وأين دفن وأين هو الدير الذي تسمّى
باسمہ . فاقاماً لهذه النواقص عزمنا على ان نسرد في الصفحات التابعة كل ما تيسر لنا
جمعه من المعلومات المؤدية على قدر المكنة الى العلم الكافي باحوال الناحية التي
تعطرت باريح هذا الناسك العجيب ولهذا نضرب صفحاً عن الاطناب في حياته
متوسعين بوصف البلاد التي صرف فيها أيامه لان ذلك اعون على فهم ترجمته

١

في القسم الشمالي الشرقي من سوربة كانت تمتد في ذلك الزمان القديم مقاطعة
كوماجينة وهي ناحية مئسعة الاطراف يحدها من الشمال جبل طوروس ومن الشرق
نهر الفرات ومن الغرب قيليقية . وأما من الجنوب فيصعب تحديدها ويجوز لنا رسمها
بخط غير منتسق يذهب من الفرات الى ما تحت هيرابوليس (منسج) حتى يتصل بجبل
امانوس (الداغ) ماراً تحت مدينة حلب وشمالاً بحيرة العمق بالقرب من انطاكية
هذا هو اعظم اتساع ادر كنهه كوماجينة عندما كانت تشتمل ايضاً على المقاطعة
« القورسية » (٣) التي دُعيت بهذا الاسم نسبة الى مدينة قورس حاضرتها وكان موقع

(١) راجع في تاريخ الرهبان تراجم تلامذة القديس مارون

Θεσέσιος (٢)

(٣) وفقاً لبعض قدماء المؤرخين

هذه المقاطعة الثانية في جنوبي الاولى وسنذكر بعيد هذا مقدار امتدادها (١) لان الكلام عليها لا يخلو من فائدة كبرى للاطلاع على اخبار القديس مارون وحق يكون للقارى تصور صائب بهذه المقاطعة نكتفي الآن من القول ان كوماجينة تنطبق في الحاضر على قسم من ولايتي معمورة العزيز وحلب غير ان الجزء الاكبر من كوماجينة هذه كان في ضمن ولاية حلب اعني انه كان يشمل بالتقريب كل متصرفية مرعش ويدخل فيه من متصرفية حلب المركزية اقصية عينتاب وكأس والباب وحارم وجبيل سمعان ومنبج . أما من متصرفية اورفة فما كان يحتوي غير قضائين غربي الفرات اي جزءا من قضائي بيرجيك وروم قلعة

وكان الذين استوطنوا هذه المقاطعة من بادى الامر قبائل الحشيين ومنها امتدوا بعد ذلك الى بقية سورية . يدل على ذلك ما عثر عليه الباحثون من الآثار التي ابقاها للاجيال الغابرة هذا الشعب الذي لم يعرف من اخباره حتى الآن شي كمثير (٢) . على ان القبائل المذكورة ما لبثت ان اختلطت بالآراميين الذين أسسوا هناك كثيراً من الممالك أخصها بيت عدين وارباد وكانت قاعدة هذه المملكة الثانية مشيدة في موقع تل أرفاد شمالي حلب

وكانت كوماجينة في عهد دولة السالوقيين من جملة مقاطعات الملك الذي اسسوه غير انها ما لبثت ان استعادت استقلالها وارجعت ولايتها الى ملوك من اهلها . وبعد وفاة انطيوخوس الثالث في السنة السابعة عشرة للمسيح صارت الى الرومانيين فادخلوها في جملة مستعمراتهم وأغما ذلك لم يدوم إلا سنوات قليلة لانها في السنة الثامنة والثلاثين ردت الى ابن الملك انطيوخوس السابق ذكره وبعد مرور اربع وثلاثين سنة اي في السنة الثانية والسبعين ضمت بوجه نهائي الى المستعمرات الرومانية وكانت سبيساط حاضرة لها (راجع ماركارث في نظام المملكة الرومانية . مج ٢ من الترجمة الافرنسية ص ٣٤١ و ٣٤٢)

أما سكان المقاطعة المذكورة فكانوا آراميين أصلاً ولغة . نعم ان الآداب اليونانية

(١) راجع استرابون (ك ١٦ ف ٢) وپلينيوس (ك ٥) الح

(٢) راجع الصفحة ٣٩

كانت قد دخلت البلاد بدخول الساقطين واصابت نجاحاً جديداً في أيام الرومانيين غير ان هذا النجاح كما نَبّه على ذلك العلامة نُلك لم يتّصل الى درجة امتدت معها اللغة اليونانية او الآداب اليونانية امتداداً عظيماً بل كانت غاية ما نالوا منه ان سمناع المغرب وطريقة المعاش فيه قد فازت بشيء من التقدم وان بعض عناصر الحضارة الغربية قد تسربت الى افكار القوم المتدنيين ولقّتهم . قال نُلك : « امّا القول بان اللغة السريانية قد زالت من المراكز المتهدّبة فهو من قبيل المبالغة والغلوّ لأن الآرامية كانت لغة قديمة استعمالها اهل التمدن في التخاطب والكتابة بينما كان القوم في رومسية وارباضها لا يعرفون في ذلك الوقت حروف الهجاء . وفي أيام ملوك الفرس الذين كان اشهرهم قورش الملك اتّخذت الآرامية لغة رسمية في مصر وفي آسية الصغرى ايضاً اي في خارج موطنها الاصلي . وفي أيام الامبراطرة الاولين الرومانيين نجد الآرامية ايضاً كلغة رسمية لا في تدمر وحدها بل ايضاً في المملكة النبطية حتى بلاد العربية في الجهة التي تُعرف اليوم اي في ناحية غربية عن منشأ اللغة المذكورة على ان ذلك لم يكن نتيجة لتعلّجها السالف بدليل ان آثار تدمر والنبط تنطق بان هذه اللغة اصابته غموا وانتشاراً فيما بعد أيام ملوك الفرس وعلى ذلك فقد كانت اللغة الحية في سورية وبها كان القوم يتخاطبون ويتكاثبون

» نعم ان اليونانية كانت من زمان قد حلّت محلّها في الاصطلاح الرسمي لكن القوم في ما خلا ذلك لم يكونوا يكتبون ولا يتكلّمون إلا بالآرامية ولا يصح في كل حال تعليق اهمية كبيرة على ما كان يعملّه بعض اهل المدن من تكليف معلمي المدارس بكتابة بعض تواريخ يونانية على مدافن امواتهم مع انهم يكادون لا يفقهون منها كلمة واغلب هذه التواريخ مشوّهة بالاغلاط فوق ما يمكننا وصفه (١) انتهى كلام نُلك فيستدلّ ممّا مرّ بيانّه ان مقاطعة كوماجينة كانت كبقية سورية آرامية محضة كما سبق لنا اثبات ذلك في غير هذا الموضع . امّا مستخدمو الحكومة وقليلون غيرهم من افراد السكّان فكانوا يفهمون اليونانية ويتكلّمون بها لا أكثر وفي اثناء القرن الثالث والقرن الرابع تقسّمت سورية تقسيماً ادارياً جديداً

وسنذكر تفصيل هذا الامر، واخباره في خلال مقالتنا هذه. اما كوماجينة فقسّمت على إثر التقسيم المذكور بسورية الفراتية نسبة الى الفرات وجعلت هيرابوليس (منبج) قاعدة لها وجرى كذلك بعض التعديل في حدها الجنوبي فتمدد الى الجنوب ولاسيا في النواحي القريبة من الفرات غير انه سلّخت عنها ناحية حلب وألحقت بسورية الاولى وكانت في جنوبي كوماجينة ناحية تُدعى « القورسية » ولا بد لنا من توفية الكلام حقاً على هذه الناحية نظراً لما يترتب على تعريفها من الفائدة في المسألة التي نحن بصددها

وكان لهذه التسمية كما نغيرها من التسميات الجغرافية امتداد يعظم ويقلّ بحسب الازمنة ففي أيام استرابون كانت تُطلق على ارض واسعة تذهب من جبل امانوس الى الفرات وتشمل خلا ناحية قورس ناحيتي حلب ومنبج. غير انها بعد ذلك كأيام القديس يوحنا فم الذهب والقديس مارون مثلاً انحصرت بناحية مدينة قورس فمن هذه الناحية الاخيرة نتكلم الآن ولزيد التوضيح ندعوها « القورسية الصغرى » وسنبحث عن وصفها في كتب توادوريطوس الشهير الذي تولى اسقيتها مدة طويلة من السنين

كانت مسافة القورسية الصغرى اربعين ميلاً في عرض مثلها وكانت فيها جبال معتدلة الارتفاع بين سبعائة وثلاثمائة متر معظمها كاس. بالغابات. ومع انها ليست بذات ثروة وغنى كان فيها نحو ثمانمائة محل بين دساكر وقرى كبيرة كما يتبين ذلك من رسالة لتوادوريطوس كتبها الى القديس لاون الكبير فيها يخبر البابا المشار اليه انه يعتني بثمانائة كنيسة (١). ولم تكن فيها سوى مدينة واحدة اعني بها قورس التي باسمها تسوّت الناحية كلها. وسنذكر كيف كانت المدينة في أيام القديس مارون غير اننا قبل ذلك يجب ان نعين موقعها وموقع الناحية التي كانت قاعدة لها ومركزاً مدنياً ودينياً

على مسافة ستين كيلومتراً شمالي حلب تجد مدينة كلّس التي هي قصبة قضاء يسمى باسمها واذا توغلت في الجبال على مسافة خمسة عشر كيلومتراً نحو الشمال الغربي تدلّك الحارطة على شبه وادٍ ففي هذا الوادي كانت مدينة قورس التي كان توادوريطوس اسقفاً لها وحتى اليوم ما زالت خرائبها ناطقة بكبرها واتساعها واهل البلاد يسمونها

(١) راجع الرسالة ١١٢ وفيها يعترف توادوريطوس باولية الحبر الروماني. راجع ايضاً

« قورس » أو « كورس » وليس بين أيدينا اسماء الحظّ وصف مدقّق لهذه الخرائب والبلاد المجاورة لها لأنّنا لم نرها كما ان السّياح القليلين الذين زاروها لم يتركوا لنا شيئاً من نتيجة أبحاثهم عنها . وآخر من زارها من السّياح هو المسيو برتلمي ترجمان قنصليّة فرنسة في حلب وذلك في شهر ايلول سنة ١٨٩٤ غير أنّنا لم نرَ من تقريره سوى خلاصة يسيرة ظهرت في نشرة مجمع الكتابات لسنة ١٨٩٥ (١) تتضمّن ثلاثة رسوم شمسيّة تمثّل « اخربة قورس العظيمة » ووجد ايضاً بين اوراق المستشرق الشهير غيلدميستر مقالة عن قورس لم تُنشر بالطبع (ZDPV, XIV, 82) وكل هذه الناحية التي يهتمّ البحث عنها كثيراً توضيحاً لمنشأ الطائفة المارونيّة وتاريخ النصرانيّة في سورّيّة تستحقّ ان يقصدها الباحثون وينقبوا في آثارها بالتفصيل والتدقيق . غير أنّنا استدراكاً لتقصيرهم بذلنا الجهد حتى نجتمع من الكتب كل ما له بالقورسيّة علاقة قريبة او بعيدة وسنجعل جلّ اعتمادنا في هذه المسألة على مصنّفات توادوريطوس وننخذه إماماً لنا في بحثنا هذا

٢

إذا تابعنا فورير (٢) وجب القول بان قورس من اقدم المدن السورّيّة وأنّها سبقت دمشق لأنّ هذه على موجب قوله قد أسستها احدى المستعمرات التي اتت من قورس . غير انّ تعليل فورير منقوض لأن آية النبي عاموس (٧: ٩) التي يعتمد عليها لا تصحّ له الا اذا ثبت أنّها تشير الى مدينة سورّيّة لا الى ناحية من اسية الصغرى مع ان هذا الراي الثاني اقرب واوفر احتمالاً (٣)

وزعم آخرون أنّها تأسست اكراماً واجلالاً لقورس العظيم ملك الفرس ولعلّ هذا الزعم ناجم عن كتابة بعض المؤرخين البيزنطيين الذين كانوا يكتبون *Kúros* بدلاً من *Kurros* . وكان موقع المدينة في ناحية قليلة التضاريس وكان فيها على عهد الرومانيين طريقان رومانيان تتّجه أحدهما الى الرها والأخرى الى حماة (٤) ويظهر من التاريخ أنّها

(١) Comptes-rendus de l'Acad. des Inscriptions, 1895, p. 469

(٢) Furrer, ZDPV VIII, p. 39

(٣) راجع قاموس الاداب الكنائية لفيكورو في مادة Cyrène

(٤) كتاب المسالك لانتونين (ed. Parthey, 84, 86, 87) Itinerarium Antonini

كانت اذ ذاك مهمة لأنها احوالت اسمها الى ناحية كبيرة مثل « القورسيّة » التي كانت تشتمل كما سبق القول على نحو النصف من مقاطعة كوماجينة غير ان اتساعها تبدّل اخيراً بالضيّق كما تقدّمت ايضاً ملاحظة ذلك

ويحتمل ان تكون قورس قد ابتدأت في هذه الفترة تنحطّ قليلاً عن مقام مجدها غير أنّها كانت في أيام توادوريطوس والقدّيس مارون موقعاً حصيناً يحمي قلاع ناحية الفرات (١) واستمرّت كذلك حتى الفتح العربي فألحقت فيه بناحية العواصم (٢) وفي أيام عبد الملك ضربت فيه سكّة (٣) ممّا يثبت انها كانت اذ ذاك صاحبة شأن ومقام وقد استرجعها نور الدين من الصليبيّة ومن بعده لم نعثرها على ذكر ونظن انه ما طال الامر حتى أهملت وهُجرت غير أنّنا لا نجسر على متابعة من قال بان نور الدين المذكور هو الذي اخربها . وهذا كل ما نعلمه من تاريخ قورس المدني

وفي أيام توادوريطوس التي نهتمّ لها بنوع خاص لانها كانت بالوقت نفسه ايام القدّيس مارون تظهر قورس كمدينة صغيرة لان المؤرخ المذكور يسميها « πολὺχρη » (٤) غير انه يجب الحذر من اتخاذ هذه التسمية على حرفيتها فكما ان اهالي لندن وباريس الذين يضارعون او بالحري يتجاوزون شعب مملكة او اكثر قد ينزلون سائر المدن منزلة اماكن حقيرة لا اهمية لها هكذا يمكن ان يكون قد خطر مثل هذا الحاضر للمؤرخ توادوريطوس الذي ائتلف رؤية محاسن انطاكية وطنه وجزّل اتساعها . ومعلوم انها كانت اذ ذاك ثالثة حواضر العالم المتمدّن او على الكثير رابعها . وبناء عليه ستري بعد هذا انه لم يثل عزاء تاماً بسبب اضطراره الى فراق انطاكية والاقامة في حاضرة اقليسيّة كمدينة قورس التي يشهد باهتيتها الحقيقية ان الحكومة شيّدت فيها شكناً للعساكر ما بين طريقين عظيمين رومانيين

والظاهر انها لم تحو غير قليل من الآثار التي وقرها التمدّن اليوناني الروماني في المدن السوريّة كالانثية والمناهل والاروقة المعطاة المستندة الى اعمدة ممّا كان يُبنى في

(١) راجع C. R. Acad. Inscript., 1902, p. 513

(٢) راجع فتح البلدان للبلاذري ص ١٣١ و ١٤٩ وقدامة ص ١٥٣ (طبعة دي غوري) أمّا العواصم فمر ذكرها في المشرق (٦: ١٣١) (٣) المجلة الاسيويّة الاثانية, ZMDG.

(٤) راجع مجموع آباء اليونان لمن (ج ٨٣ ص ١٢٢١) 1889, p. 684

الشوارع المهمة ليقى المارة في أيام الصيف من حرّ الشمس وفي أيام الشتاء من الأمطار (١) وكل ما احتوته من هذا القبيل قد تمّ بمساعي وعناية اسقفها العظيم الذي لا نبالغ اذا سمّيناهُ مؤسسها الثاني

قال توادوريطوس المذكور: « انني شيدتُ في قورس من اوقاف الكنائس اروقةً عموميّةً وبنيت جسرين عظيمين واعتنيت بالحمامات العموميّة ثم انني اتخذت قناة واجريتُ فيها مياه النهر القريب وهكذا متّعت المدينة بالمياه العذبة التي كانت محرومةً منها قبلاً (٢) » وكانت قورس خاليةً من طبيب فسعى توادوريطوس كل السعي في حمل احد الاطباء على الاقامة بمدينة الاسقيّة (٣) وله غير ذلك ايضاً من الاعمال الدالة على اهتمامه العظيم بالحاجات الزمنيّة لابناء رعيته

واننا لنأسف عن عدم تمكننا في هذا البحث الجغرافي خاصةً من الاطناب في ماثر هذا الرجل العظيم الذي يُعدّ من مشاهير عصره ونوابغ دهره فقد كان متّسع المدارك رفيع الفهم محتقراً حطام الدنيا وكان مع ميله الى المفاخر والمعالي يقدم على العظائم ويبذل كل مقتناه في سبيل الفقراء والآثار النافعة للجمهور. وكان من الذكاء على جانب عظيم يربّط الى الاطلاع على كل شيء والوقوف على كنهه وحقيقته. ومن الخطابة في اعلى مقاماتها لا يفوقه فيها احد غير فهم الذهب. ومن المنصب الاسقي في اسمى مراتب المهمة والغيرة والتقى بحيث يصح ان يُجعل إماماً وقُدوة لكل الاساقفة في كل عصر (٤) ولهذا كان احقّ مؤرخ بتدوين سير الابطال المسيحيين كالقديس مارون الذي لولا آثار قلّمه لجهلنا ترجمته

ان ما نعلمه من الجغرافية الطبيعّية لقضاء كلّس يشرح ويتّهم وصف القورسيّة

- (١) كانت كل المدن (السوريّة المهمة مشتملة على مثل هذه الاروقة كما يتبيّن ذلك من مشاهدة تدمر وجرش (عجلون) . ومن بقايا الاروقة المذكورة العمدة الكثيرة المتراكمة حتى اليوم في مينا جبيل وشوارعها
- (٢) تاريخ الرهبان (فصل ٣١ والرسالة ٨١)
- (٣) يشكلم توادوريطوس في الرسائل ١١٤ و ١١٥ من كاهن اسمه بطرس عانى التطبيب زماناً طويلاً في قورس. واكتشفوا ايضاً في دياميس روميّة حجر ضريح لكاهن من المتعاطين صناعة الطب. غير انّ القوانين التي ترتبت بعد ذلك حظرت الطب على رجال الاكليروس
- (٤) ان سيرة توادوريطوس هي من السير البالغة حدّ الكمال تستحق ان يطالعها كل من اختارهم المولى لحمل عبء الاسقيّة الثقيل

مثلاً يُفهم من الافادات المنشورة في كتابات توادوريطوس فان البلاد كلها مشغولة بجبل الاكراد وهو عبارة عن أسناد اي جبال صغيرة منفصلة عن سلسلة امانوس الكبيرة ولم تزل هذه الجبال حتى ايامنا كثيرة الآجام والغابات (١) بحيث تدهش جميع السياح الذين اعتادوا النظر الى تعري بقية سورية من الاشجار . غير انهم اذا بحثوا عن القرى الغائبة التي كانت في القرن الخامس لا يفتقون لها على اثر

وقد علمت ان توادوريطوس يتكلم على نهر جرّه الى المدينة وعن جسرين كبيرين شيدهما هناك . وفي الحقيقة انه تمّ في جوار قورس عدّة انهار منها نهر عفرين اخص السواعد الشمالية لنهر العاصي . وبالقرب من قورس يلتقي بالنهر المذكور نهران صغيران احدهما صابون سو والثاني جاموس ديرسي ولعلّ مياه نهر صابون القريب من اخربة قورس هي التي جرّها توادوريطوس الى كرسي اسقفية

ووع قرب الانهر المذكورة كانت بقية الناحية القورسية كثيراً ما تصاب بالجفاف وقد ذكر توادوريطوس خبر جفاف اصابها في رسالة وجهها الى اريوبنداس يسأله فيها ترك الديون التي له على المزارعين باراضيه الواسعة في القورسية (الرسالة ١٣) ويذكر ايضاً خبر جفاف آخر في ترجمة بوليخرونيوس (٢)

هذا ما استطعنا جمعه من المعلومات عن مدينة قورس وجيرتها غير اننا لم نقف على معلومات تُذكر عن سائر اماكن القورسية لان توادوريطوس لا يشير في ما خلفه من الكتابات الا الى قليل منها مثل اسيكاً ونيثيس وتيليا وثرغالا وراما وسيتا ونيارا ونيموزا (٣) ولم يلحق بهذه الاماكن شيئاً من الاوصاف ما خلا نيارا فانه وصفها بانها مدينة . وقد رأيت ان لاكثر الاماكن السابق ذكرها اسماء آرامية وهو امر طبيعي في ناحية آرامية خالصة كما مرّ لنا اثبات ذلك في الكلام على كوماجينة إجمالاً وكما سنثبت بعد هذا في الكلام على القورسية خصوصاً

(١) ممّا يجب التنبيه اليه هو انه يوجد بين اشجار هذه الغابات اشجار مشجرة تنبت من تلقاء نفسها . وهكذا كانت الحال في ايام توادوريطوس لانه يُخبر عن القديس يعقوب الناسك الشهير انه كان يقات من ثمار اشجار الغاب (ج ٨٢ ص ١١٠٩)

(٢) راجع مجموع الآباء لمن اليونان (ج ٨٢ ص ١٢٦١)

(٣) في المجلد نفسه ص ١٢٢٩، ١٢٣٢، ١٢٥٣، ١٢٥٤، ١٢٥٧، ١٢٥٩، ١٢٦٠، ١٢٦٤

ولم يكن سكّان القورسيّة من ذوي الغنى والثروة بدليل ان اسقفهم كان يضطر الى اسعافهم والقيام بالاشغال العموميّة لديهم . وكان في بعض المرات يرفع العرائض من اجلهم الى الامبراطورة يولخية القديسة وغيرها من كبراء المنصبين (١) وهي تدلّ من جهة على شهامة قلبه وحنانه ومن جهة ثانية على شقاء الاهالي الذين بهظتهم الضرائب وثقلت عليهم جداً حتى ان الكثيرين منهم لعجزهم عن القيام باعبائها كانوا يؤثرون التسوّل وهجر الاوطان (الرسالة ٤٢)

وان قيل ما اللغة التي كان القوم يتكلّمون بها في القورسيّة اجاب الذين يتسرّعون في الاحكام قبل الوقوف على كنه المسائل انها ينبغي ان تكون اليونانيّة لان توادوريطوس اسقف البلاد كتب بها . غير ان هذا التعليل لا يرضينا ولا يصلح حجة لاقتناعنا لانّ لدينا من الادلّة الواضحة ما يؤيد العكس (٢)

رأينا في مقالة سابقة (المشرق ١٠٨٦:٤) ان توادوريطوس مع ان لفته الاصلية هي اليونانيّة (٣) كان عارفاً ايضاً بالسرانيّة . غير ان المقام لم يسمح اذ ذاك بالافاضة في الكلام على هذه المسألة المهمّة ولولا ذلك لأنّنا بشهادة المؤرخ اليوناني ملالا (٢١٠ طبعة اكسفورد) وهو يثبت ان العامّة في انطاكية كانوا يتكلّمون الآراميّة واماّ الباقيون فاذا كانوا لا يتكلّمون بها فكأنوا على الاقل يفهمونها . ويثبت الاستاذ العالم كوغنير (Kugener) اثباتاً صريحاً (في المشرق المسيحي ١٩٠٢ ص ٢٠٢) ان السرانيّة كانت اللغة الشائعة في انطاكية وضواحيها

وهنا نستأذن في ان نضمّ الادلّة التابعة الى البراهين التي سبق ايرادها: ان ابوي توادوريطوس كانت لها علائق مكينة مع الناسك القديس مقدونيوس وقد اخبر توادوريطوس بانتهفصيل كيف ان تجرّده لخدمة الله كان نتيجة تحريضات الناسك

(١) راجع رسائله ٤٢ - ٤٥
الذين يملّأون التعليل الآتي من قواعد الاستدلال العقلي وهو قولهم : « ان جملة اساقفة في سورية كتبوا باليونانيّة فاذا سورّيّة كلها كانت تتكلّم اليونانيّة » وسنثبت في ما يلي من كلامنا عن القورسيّة ان تبيّنهم هي اوسع من المقدمات . وقد سبق لنا تبيان ذلك في كلامنا على ناحية انطاكية (المشرق ١٠٨٣:٥) التي يحاول البعض ان يصوّروها لنا مثل بلاد يونانية . وفي املنا اننا نستطيع اثبات الامر نفسه عن سائر نواحي سورية متى تيسّرت الفرصة
(٢) كما قد صرح بذلك راجع مجموع معين (في المجلد ٨٣ ص ٨٤٢)
(٣)

المذكور فقال ان مقدونيوس كان يتردد على متزلهم في انطاكية فلما ترعرع توادوريطوس اخذ الناسك يرغبه ترغيباً شديداً في خدمة الله (١) والحال ان مقدونيوس لم يكن يعرف غير السريانية (٢) واذ قد ثبت ذلك وكان التسليم صعباً بان مخاطبات هذا الرجل القديس كانت تجري بواسطة ترجمان فيترجح عندنا انه لم يكن توادوريطوس وحده يفهم السريانية بل ان ابيه ايضاً كانا يفهماها وكانت هذه العيلة كما هو معروف من العيال الوجيهة في انطاكية

ولنا في الحادث الآتي بيانه دليل اقوى واصرح فقد اخبر توادوريطوس في تاريخ الرهبان (٣) ان الشيطان ظهر له ذات ليلة في قورس وهو استقمها فهدده تهديداً مخيفاً مرعباً وكان يخاطبه باللغة السريانية وكان احد رفقاته راقداً معه في غرفته فسمع ايضاً الكلام عينه وسمعه كذلك الحشم الذين في المنزل. فن هذا الحادث الذي اقتصرنا على ذكر خلاصته يسوغ لنا ان نستنتج النتيجة الآتية :

ان ظهور الشيطان الذي اخبر عنه توادوريطوس لا يخلو من ان يكون امماً حاكماً مجرداً او رؤياً حقيقية. على ان الظروف التي قارنت الحادث ترجح انه كان من قبيل الثاني ومع ذلك لا نجد بأساً اذا عددناه من قبيل الافتراض الاول بل انه ربما جاء من هذه الحيثية أوفق وأفيد لما نحن بصدد وعليه اذا قلنا انه كان حاكماً مجرداً فبما ان النائم لا يحلم اصلاً بلغة لا يعرفها او بلسان لا يتكلم به الا نادراً ينتج عن ذلك ضرورة ان توادوريطوس كان يتكلم عادة السريانية او بالاكل انه كان يفهمها بسهولة. واذا قلنا ايضاً انه كان رؤياً حقيقية يصعب ان نبين كيف ان جميع سكان الدار الاسقفية فهموا مثل توادوريطوس تهديدات الشيطان لو لم تكن اللغة السريانية مألوفاً عندهم ويقول توادوريطوس ايضاً (في المجلد ٨٣ ص ٣١٣) انه وجد كتباً كثيرة سريانية من تأليف برديسان والراجح انه لقيها ضمن ابرشيته حيث كانت اقامته او في انطاكية التي كان يتردد اليها حيناً بعد آخر كما ستري في اثناء مقالتنا هذه . ولا نجد

(١) تاريخ الرهبان (مين ٨٢ ص ١٢١٤ و ١٢١٥)

(٢) راجع المشرق (١٠٨٣: ٥) امماً الناحية الواقعة بين انطاكية وحلب فراجع بشأنها الاباء اليونان المجلد ٨٢ والصفحة ١١٦١ حيث ورد ذكر السريانية كالكافة البلاد

(٣) راجع مجموع الاباء (مجلد ٨٢: ١٢٤٤ و ١٢٤٤)

ادنى صعوبة للتسليم بالفرض الثاني لأنه يدلُّ على انتشار الكتب السريانية في مدينة قد طالما صوروها لنا يونانية محضة

وكان توادوريطوس يرغب في زيادة النساك الكثيرين بابرشيته وبلتد بجادتهم طويلاً وسرى بعد هذا أنه لم يكن احد من هؤلاء النساك يعرف اليونانية . وبما أنه لا يأتي في كل ما خلفه من الكتابات بذكر ترجمان وجب التسليم بان محادثته التي كانت تطول في بعض الاحيان اياماً (١) قد كانت تجري بالسريانية وانه كان يعرف هذه اللغة حتى المعرفة ويشكلم فيها بسهولة

ومما يجب التسليم به وينتج ضرورة عما قدّمناه هو ان الاسقف المذكور ما كان وحده يفهم السريانية بل ان جميع عشارئه من سكان الدار الاسقفية كانوا يفهمونها ايضاً ولا يبعد انهم كانوا يتكلمون بها . واذا صدق هذا الامر على الدار الاسقفية فماذا ينبغي القول عن سائر المدينة التي كان الاسقف كما سبق القول اعظم شخص . معتبر فيها ؟

ليس الجواب على هذا السؤال بصعب لأن كاتب ترجمة توادوريطوس يصرح دون موارد « بان الجميع تقريباً في قورس وفي القورسية كانوا يتكلمون باللغة السريانية وان عدد اليونان لم يكن فيها شيئاً مذكوراً (٢) » ويؤخذ من كلامه ان ذلك كان أخصّ الاسباب التي حملت توادوريطوس على القبول رغماً عن ارادته باسقفية هذه المدينة لأنه لمّا كان عالماً بارعاً وخطيباً مفلحاً يضاھي فم الذهب بل يكاد يفوقه ايضاً في مسائل تفسير الكتاب المقدس رضي ولكن مع كره ومشفة نفس بان يدفن كل ما رزق من مواهب العقل في مدينة صغيرة قد لا تأتي فيها هذه المواهب بفائدة لعدم وجود جمهور من السامعين يقدر على مجاراته في السبيل الذي يرومه . غير أنه ما لبث ان ذلّ هذه العواطف البشرية وانقطع بكليته الى الاهتمام بمنفعة وخير القطيع الذي فوّض الى تدبيره

وللقارئ ان يعترض بنحط توادوريطوس ويقول انها كتبت كلها باليونانية فنحن نتلقّى الاعتراض بالقبول غير واجدين شيئاً من الصعوبة في ردّه وسبب ذلك ان غالب

(١) راجع في تاريخ الرهبان ترجمة مار يعقوب (الناسك) (ف ٢)

(٢) الاباء اليونان لمن (مج ٨٤ ص ١٤٢، ١٤٤)

الخطب التي لتوادوريطوس ألقاها في خارج قورس لأنه كان من محبي الحركة والتنقل وكثيراً ما كان يزائل أبرشيته بدليل أنه لما ثارت الخصومات بسبب بدعة نستور وكان اسقف قورس صديقاً للمبتدع من صباه صدرت له الاوامر من قبل الامبراطور ان لا يبارح مركزه فشق عليه هذا المنع كثيراً كما يتبين ذلك من رسائله ولكن ما لبث المنع ان ارتفع بعد مدة وجيزة فعاد الاسقف المذكور الى اسفاره وكان توادوريطوس يتردد خاصة على اثنتين من المدن اعني بهما انطاكية وبيريه (حلب) وكانت الاولى على مسيرة يومين من مركزه والثانية اقرب من هذه المسافة (١)

اما انطاكية فكانت وطنه ولهذا كان يكثر التردد اليها حتى اضطر الى الاعتذار لروسلاته عن طول اقامته بها (٢) واشهر خطبه وافصحها كما هو معلوم عشر خطب موضوعها العناية الالهية وقد شهد في رسالته الى البابا انه ألقاها كلها في مدينة انطاكية ثم انه في رسالته الخامسة والسبعين يذكر خمسة اسباب حملته على اعزاز اهالي حلب وآخر هذه الاسباب هو انهم « كانوا يسمعون خطبه بلذّة وسرّة ولهذا كان يبذل جهده في أن يلقي عليهم احسن وافضل ما عنده من هذا الصنف » . ولنا ان نقول بعبارة أخرى انه كان يجب الكرازة في انطاكية وحلب ليقينه بان السامعين في هاتين المدينتين يفهمون خطبه اليونانية ويقدرّون فصاحتها بخلاف الحال في قورس

على انه لا يصح الاستنتاج من هذا ان حلب كانت بلدة يونانية فقد ذكر لذلك (٣) ان الاحوال فيها من الوجه التاريخي كانت شبيهة باحوال الرها ومن المعلوم ان الرها كانت في ذاك العهد ارامية مجتمة بل مركز الآداب الارامية ولهذا يجب القول ان حلب ايضاً كانت ارامية بسكانها ولقنتها ولكنها لما كانت مدينة كبيرة تجارية لم يكن ليصعب فيها وجود جمهور من السامعين يجيدون فهم اليونانية . فان السوريين في كل زمان كانوا يتعلمون كثيراً من الالسنّة والامثلة على العارفين بينهم بلغات عديدة لم تفت

(١) اخبر توادوريطوس انه كان يسافر مساء النهار من حلب فيصل الى قورس في صباح اليوم التالي

(٢) اعمال الالباء اليونان (مج ٨٣ ص ١١٣٥ و ١١٤٦)

(٣) راجع المجلة الاسيوية الالمانية (ZDMG) سنة ١٨٨٥ ص ٣٣٤

قطّ من يلتصقها . وكما اننا اليوم نجد في المدن السوريّة عدداً غنياً ممّن يفهمون الخطب باللغات الاجنبية هكذا كان الامر في ايام توادوريطوس . ومثلها لا نستطيع ان نستنتج في الوقت الحاضر ان اللغات الاجنبية متغلّبة على اللسان الوطني هكذا القول ايضاً عن خطب اسقف قورس

فاذا كان الذين يفهمون اليونانية في قورس قوماً قليلين فما ظنك بسائر الناحية ؟ وقد اخبر توادوريطوس ان سكّان المقاطعة الفراتية التي كانت القورسية تابعة لها كانوا يتكلمون السريانية ١)

هذا فضلاً عن ان هيرابوليس (منبج) مركز رئيس الاساقفة الذي كان يخضع له اسقف قورس كانت ايضاً مركزاً مهماً سريانياً . وبعد قليل لوفاة توادوريطوس تولى الكرسي المذكور فيليكسينوس احد مشاهير الكتبة عند السريان . وفي جومانيقية التي تسمى اليوم مرعش كان القوم ينصبّون ايضاً على آداب اللغة السريانية

ولقد سبق لنا ايضاح ما كان من هذا القبيل في مدينتي انطاكية وحلب ٢) وعلى ذلك لم يبقَ من داعٍ للتسليم بان ابرشية قورس وحدها التي كانت في شمالي سوريّة مخفوفة من كل انحائها بالبلدان الآرامية قد خرجت عن هذه الدائرة . والحق يقال ان هذه الناحية كلها لم تكن لها غير لغة واحدة اي الآرامية التي كان المتأدبون يضيفون اليها معرفة اللغة اليونانية . قال المستشرق ساخو : « من اعظم مرافق النصرانية ان الومّاط كانوا يستطيعون ان يكرزوا بلغة واحدة اي الارامية من حدّ انطاكية حتى بابل »

واذا حصرنا الكلام في المتوحدين الذين كانوا يسكنون صحاري القورسية نرى الادلة متظاهرة على انهم كانوا باسرهاهم تقريباً آراميين يتسمون باسماء سريانية مثل مايسياس واشبسياس ومارون وسلامانس وماريس وزابيناوس وباراداتوس وتاليلايوس

١) تاريخ الرهبان (٨٠ ص ٣٢٧ راجع ايضاً المجلّد ٨٢ ص ١١٦٣ و ١١٦٤) وفيه يظهر كيف ان رهبان دير على الفرات كانوا يرتلون المزامير بالسريانية التي هي لغتهم الاصلية كما ذكر ذلك بالنص الصريح

٢) راجع كذلك المشرق (١٠٨٣ : ٤)

ومارنا (١) وقد قال توادوريطوس عن الأول اي مايسيماس قولاً صريحاً « انه كان سريانياً بلغته (٢) » أما الراهب القديس ابراهيم الذي ترقى بعد ذلك الى اسقفية حرّان في بلاد ما بين النهرين فذكر توادوريطوس في معرض اخباره عن زيارة الامبراطور له مع كل حاشيته ان الموما اليه لم يكن يفهم كلمة واحدة يونانية (٣) . وروى في موضع آخر عند كلامه على الناسك تاليلايوس انه لما زاره تعجب كثيراً « اذ سمعه يجاوبه باليونانية » (٤) لان الناسك المذكور كان على حسب رواية اسقف قورس فيليقيّ المجلس وكل ذلك يدلّ على ان معرفة اليونانية لم تكن شائعة بين السوريين الوطنيين

وان قيل ما هي الليتورجية التي كان اكليروس قورس يجري عليها قلنا ان الجواب على هذه المسألة امر صعب بالنظر لعدم وجود معلومات صريحة بشأنها . ولكن بما اننا قد اثبتنا ان الارامية كانت لغة الناحية ساغ ان نستنتج ان الليتورجية كانت تجري بهذه اللغة ذاتها ولعلمها لم تكن تجري بغيرها الا في كنيسة قورس الكاتدرائية . وفي ترجمة الناسك ابراهيم الذي سبقت الاشارة اليه دليل ظاهر على ما نقول فقد كان على ما روى توادوريطوس من ابناء القورسية حيث صرف زماناً طويلاً في الحياة النسكية وفي الحثام شخص الى اثنان وهدى فيه كثيرين من الوثنيين وعلمهم العبادة الالهية الحقيقية . ولا ريب انه كان يخاطبهم بالسريانية لانه لم يكن يعرف سواها ويُقيم لهم الليتورجية كما قد شاهدها مستعملة في القورسية وطنه (مج ٨٢ ص ١٢٢٥) قال ساخو : « ان الاراميين نشروا النصرانية في الشرق » وعلى ذلك فان الكنائس التي أسسوها قد علّموها بالضرورة ليتورجية آرامية . وكانت السريانية كما هو معلوم اول لغة ليتورجية مستعملة (٥) وفي ما اوردناه بهذا الشأن كفاية للقارئ حتى يتيسر له

(١) راجع تاريخ الرهبان

(٢) راجع مين (مج ٨٢ ص ١٣١٦)

(٣) تاريخ الرهبان ص ١٢٢٨

(٤) هذا مما يوجب الافتراض ان الاسقف خاطب اولاً باليونانية

(٥) راجع في معجم اللاهوت الكاثوليكي (١ : ١٤٠٣) مقالة اللاب قاله الصعودي الذي نسب اليه بعضهم رأياً مخالفاً لما نحن فيه

الحكم فبقي علينا ان نبث عن احوال النصرانية في القورسية وهكذا ننتج كلامنا عن جغرافية هذه الناحية

٣

ان القورسية كانت كلها بالتقريب مسيحية في ايام توادوريطوس كما يُنهم ذلك من عدد اليمانانة كنيسة التي يقول الاسقف المذكور انه كان مكلفاً بتدبيرها . ويظهر انه كان قد اتخذ بعض اعوان له من الحوارنة الاسقفين لادارة الكنائس الكبرى في ابرشيته وفي رسالته ١١٣ يسمي اثنين من هؤلاء الحوارنة . وبناء عليه يجوز ان نحسب القورسية كلها مسيحية في زمانه اذ لم يكن فيها من الوثنيين الا افراد قلائل (١)

وكان في القورسية جماعة من الهرطقة وعلى الخصوص من المرقيونيين . قال توادوريطوس : « ان ثنائي قرى افسدتا هرطقة المرقيونيين مع الاماكن المجاورة لها ارجعتهما الى الطريق القويم (٢) . وكانت هناك ايضا قرية اخرى عامرة بالتابعين لمذهب الاونوميين وقرية غيرها اريوسية فتوقفت لاثارة الجميع بالنور الالهي وهكذا بنعمة الله لم اترك في ابرشيتي اثرا للهرطقة ولم يكن ذلك ليستطاع دون اقتحام اخطار وإراقة دم لأنني كثيراً ما تعرضت لرجم الهرطقة » . ويشهد في موضع آخر (٣) انه عمدة عشرة آلاف من الهرطقة المرقيونيين وإثر هذا الانتصار الاخير على الجحيم ظهر له الشيطان كما سبق الخبر محاولاً توقيفه عن قتال الغواية والضلال

أما دخول النصرانية الى القورسية فلا نعلمه بالتحقيق ولكننا نظن انه كان في الصدر الاول بالنظر الى قرب هذه الناحية من انطاكية احد مهود الدين المسيحي وقد حضر اساقفتها مجمع نيقية . وأما خلفاء توادوريطوس فلا نعلم منهم غير اسما . ثلاثة فقط (٤) ولا ريب ان كرسي قورس فقد اهميته من بعد انتشار بدعتي نسطور ويعقوب البرادعي . ومع ذلك فقد وجدنا في جريدة لاسقفيات بطريركية انطاكية ترتقي

(١) راجع رسالتي ٦٧ و ٦٨

(٢) الرسالة ٨١

(٣) تاريخ الرهبان ١٢٤٣ الخ والرسالة ١٤٥ و ١١٣

(٤) لوصكيان : الشرق المسيحي (٢ : ١٣٠ الخ)

على ما نظفه الى القرن الثامن ان قورس كانت معدودة في ذلك العهد من جملة الكراسي المطروبوليتية لكن لم يكن لها اسقفيات تتبعها (راجع اخبار بطاركة انطاكية والقدس في الاسفار الاورشليمية ص ٣٣٧)

ونعلم ان جسدي الشهيدين المعظمين قزما وداميانوس قد دفنا في قورس ولذلك قد تسمى هذه المدينة في بعض الاحيان اكراماً لهما بمدينة القديسين . واخير توادوريطوس نفسه كيف انه في ذات يوم نتجى من الحريق الكنيسة المشيدة على ذكر هذين الشهيدين (١) القديسين . وفي موضع آخر يذكر ايضاً في جملة كنائس مدينته الاسقفية كنيسة على اسم الشهيد ديونيسيوس (٢) ويخبر كذلك عن دير قائم بجذاء احدى كنائس قورس (٣) وفي رسالتيه ٦٦ و ٦٧ يتكلم على هيكل شيدته هو وكرسه للرسول القديسين (٤) . وكان في قورس ايضاً مصلى على اسم الناسك القديس مرقيانوس ومن العجيب انه تشيد في حياة الناسك المذكور (٥)

فكل هذه الآثار الدينية تجيز لنا الحكم بان الديانة كانت في القورسية زاهرة زاهية بايام راعيها الاثيل واسقفها الغيور

ولنا ايضاً دليل آخر على ازدهار الديانة نأخذه من وفرة عدد المناسك في الناحية المذكورة التي كانت احسن البلاد ملاءمة لحياة الزهد والعبادة لانها كثيرة الجبال بعيدة عن المراكز الكبرى والطرق التجارية وافية بمجاذب قوم يكتفون بالقليل حتى كان يصح ان تدعى فردوس المتوحدين ونعيمهم وهذا هو السبب الذي من اجله انتشرت فيها كثيراً هذه الهيئة الاخيرة من حياة النساك . وفي تاريخ الرهبان لتوادوريطوس الذي خصص منه النصف بتراجم عظماء الرهبان في القورسية قلما يأتي بذكر الاديار (٦)

(١) مجموع الالباء (مج ٨٤ : ص ٧٨٦ و ٧٨٧)

(٢) تاريخ الرهبان الفصل ١١

(٣) وكانت الكنيسة على اسم الرسل الاطهار. تاريخ الرهبان ١٢٣٩

(٤) راجع كذلك المجلد ٨٢ ص ١٢٥٠

(٥) راجع المجلد عينه ص ١١٤٧ و ١١٤٨

(٦) في الرسالة ١١٧ يتكلم عن أليوس ويقول عنه انه « إكسرخوس الرهبان عندنا » وهي مباركة تدل على وجود دير في قورس او في الابرشية التابعة لها . ويذكر ايضاً ادياراً أخرى في المجلد ٨٢ والصفحة ١٢٢٥ و ١٢٦٠ غير ان الاديار كانت هناك قليلة جداً

بل يذكر المتوحدين الذين كان يحتشد حولهم بعض التلاميذ فيقتفون آثارهم وينهجون نهجهم غير انهم كانوا يعيشون هم ايضاً متوحدين دون ان يجتمعوا ضمن حظيرة دير

وكان توادوريطوس يحب ويكرّم هؤلاء الرهبان القديسين الذين كانوا يعطرون ابرشيته بعرف فضائلهم ولهذا كان يكثر من زيارتهم ومحادثتهم وكل ما كتبه عنهم في تاريخ الرهبان قد رآه فيهم او سمعه منهم . على ان الرهبان المذكورين قابلوه بمثل عواطفه واثبتوا له ذلك لما أبعد عن ابرشيته فانه لم يجد اذ ذاك اصدقاء اشدّ اخلاصاً من هؤلاء القوم الذين كانوا كما قال عنهم « يحتمون هذه الحياة الزائلة متوقعين الحياة الابدية (١) »

وقد سبق لنا تسمية بعض ابطال هذه العيشة النسكية فبقي علينا ان نذكر اخص واحد بينهم اعني به القديس مارون وكل ما تقدم من الكلام جعلناه كترطمة تمهد لنا السبيل لتعيين وطن هذا القديس العظيم والمكان الذي صرف فيه حياته فاذا لم نتوصل دائماً الى نتائج نهائية واذا اكتفينا اكثر الاحيان بالظن والتقدير فالذنب كل الذنب على فقد المعلومات المؤكدة في هذا الشأن . غير ان ما سنبدطه مما يستحق الانتباه واماناً ان يكون محرّضاً لأولي البحث على الجد والتقيب لعلهم يتفوقون الى ما لم نتوفق اليه . وفي كل حال ليس من غايتنا ان نازم القارى باتباع آرائنا ولكننا نتوخى من كل ذي ادب ان ينظر فيها منتقداً حتى تنجلي المشاكل وتبتد الغياهب . ومما يسرنا جداً هو ان نداعنا للطوائف المسيحية الشرقية حتى تبذل الجهد اللازم في الابحاث التاريخية (٢) قد لاقى قوماً يسعون فهباً بعض الادياء واخذوا ينقبون في تواريخ طوائفهم ونشروا منها اشياء حرة بالاعتبار واملنا ان يزدادوا حمية في هذا الشأن لما يرجى عن عملهم من المنفعة . وفي هذا المقام لا نرى بداً من الشناء على بعض ادياء الطوائف الشرقية لما التحفوا به الدروس التاريخية من التأليف النافعة كما نمدح ايضاً سائر الذين نشروا في مجلة المشرق اجاثاً مهمة في شؤون طوائفهم وآدابها الطقسية وآثارها القديمة

(١) الرسالة ١٣٥

(٢) راجع في مجلة المشرق (١: ٢٦١) مقالنا الممنونة : « هيا الى درس تاريخنا »

٤

اين وُلد القديس مارون؟ هذه مسألة كان في وسع توادوريطوس كاتب ترجمة هذا القديس ان يجاوب عليها جواباً شافياً غير انه لسوء الحظ لم يذكر عنها شيئاً في الكلام الوجيز الذي تركه ولهذا وجب علينا ان نسعى بالانصاح عما سكنت عنه . على اننا لسنا باول من سعى وراء هذا الامر فان حضرة الحوري ميخائيل غبريل يقول في كتابه تاريخ الكنيسة المارونية (ص ٨٤) ما نصه : « ان القديس مارون ولد . . . في بلدة تدعى مارونيا البعيدة نحو ثلاثين ميلاً عن انطاكية في جوار مدينة قورش »

ورد ذكر « مارونية » في ترجمة الراهب مائس التي كتبها القديس ايرونيوس فقال عنها انها بلدة صغيرة (*haud grandis viculus*) على مسافة ثلاثين ميلاً شرقي انطاكية (١) كانت ملكاً لصديقه ايثاغوريوس الكاهن الذي ارتقى بعد ذلك الى اسقفية انطاكية . وكان القديس ايرونيوس أيام اقامته في انطاكية يتردد الى القرية المذكورة مع صديقه ايثاغوريوس الموما اليه . وهذا برهان آخر على انها كانت قريبة من انطاكية لكن لا يسوغ ان نزيد عليه انها كانت في جوار مدينة قورش اذ كان بينها وبين هذه المدينة الاخيرة مسيرة يومين على الاقل

فالى اي شيء اذاً يستند قول من يقولون ان القديس مارون وُلد في قرية مارونية؟ لا علم لنا بذلك لان توادوريطوس الذي هو المستند الوحيد لكل ما كتبه الكتاتيون عن القديس مارون لا يذكر شيئاً عن مكان مولده وكل المؤرخين الذين جاؤوا بعد اسقف قورش نقلوا عنه واذ كانوا قد اضافوا بعض زيادات الى كلامه فليس لهذه الزيادات عند اهل التحقيق الا قيمة كاتبها . نعم انهم قصدوا قصداً حسناً فرغبوا في ان يوضحوا ما سكنت عنه توادوريطوس غير انه لا غنى للمؤرخ المدقق في امور كثيرة عن الاقرار بالجهل والقصور . وزيادة على ذلك ان التقاليدات التي يتناقلها الموارنة ساكتة ايضاً عن مكان ولادة ايهم القديس مارون ولو كان شيء من ذلك لما تأخر

(١) وذكر الجغرافي بطليموس ايضاً مكاناً آخر في سورية يدعى « مارونية » لكن يصعب القول انه عن مارونية التي نحن بصددنا ونرجح انه يريد بها مركزاً في اقليم قنسين كما ذهب اليه هرغن ١٤٥ ZDPV, XXIII, راجع كذلك ١٥٦٩ Ritter, XVII,

البطريك اسطفان الدويهي عن ايراده . وعليه فاننا نعجب كيف يمكن في هذه المسألة بسط الكلام أكثر من توادوريطوس والدويهي

ثم اردف صاحب تاريخ الكنيسة الانطاكية (ص ٨٤) قوله عن ولادة القديس مارون في مارونية بقوله « انه درس العلوم في احدى مدارس انطاكية » . وهو ايضاً امر لم يُفدنا عنه توادوريطوس وهذا قد اسنده الكاتب الحديث الى المودة التي زعم انما نشأت بين القديس يوحنا فم الذهب والقديس مارون الناسك (١) منذ كانا يدرسان معاً في انطاكية . على اننا نقرّ بسذاجة اننا لانفهم قوة هذه الحجّة لا بل نظنّ ان القديس مارون كبةيّة تُسالك زمانه في القورسية (٢) كان من اصل آرامي ويجعل اللغة اليونانية ومن ثم انه لم يدرس في مدارس انطاكية . وخلاصة القول ان الاخرى بنا ان نقرّ بجهلنا المكان المعين الذي وُلد فيه القديس مارون

وان طلب منا القارئ رأينا في ذلك رجحنا كونه لم يولد في جوار انطاكية . وعلى كل حال لا نرى صواباً في ما اثبتته حضرة الخوري غبريل (ص ٨٧) حيث قال : « ان البرية التي انحاز اليها القديس مارون قبل انها مجاورة لتلك التي رسمها القديس ايرونيوس عندما اعتزل اليها . . . وذكرها في جملة كتاباته » . لان البرية التي اعتزل اليها القديس ايرونيوس معروفة محدّدة الارحاء وهي ناحية متسعة الفناء موقعا جنوبي شرقي حلب كانت تدعى كلسيدية (Chalcidène) باسم عاصمتها كلسيس التي تُعرف اليوم باسم قنسرين وهي عبارة عن قفر قفر احرقته الشمس يجاور برية الشام لا يسكنه الا بعض عرب البادية (٣) . ومن راجع وصف هذا المكان للقديس ايرونيوس لا يراه موافقاً لما قاله توادوريطوس عن البلاد التي عاش فيها القديس مارون وهي القورسية كما سبق . فالرأي عندنا ان مولد رجل الله كان في الناحية التي فيها قضى اكبر قسم من حياته كما سيأتي نقلاً عن توادوريطوس . ولو كان مولد القديس مارون في انطاكية او جوارها لكان اختار لزمه احدى البراري

(١) استناداً الى الرسالة ٣٦ من رسائل القديس يوحنا فم الذهب

(٢) وسيأتي بيان ذلك قريباً

(٣) وكانت لغة هذه الناحية (السرانية) . وكان القديس ايرونيوس يفهمها (راجع مجلة

الشرق المسيحي المطبوعة في رومية « Oriens christianus » لسنة ١٩٠٢ ص ٢٠٣)

العديدة الواقعة على مقربة من هذه الحاضرة والمقدسة بعيشة كثيرين من مشاهير العباد وذلك ما يتضح من التواريخ البيعية المكتوبة في ذلك العصر (١) كفاذا شاهدنا على قولنا مثال القديس يوحنا فم الذهب الذي ولد في انطاكية ثم انقطع الى النساك في دير قريب من موطنه. وكذلك نظن ان القديس مارون الذي عاش ومات في القورسية ولد ايضاً فيها ما لم يأتنا احد برهان جلي على خلاف هذا الرأي اما ان القديس مارون صرف حياته في القورسية وقضى فيها نخبه فالامر واضح وضوحاً تاماً بما ورد في تاريخ الرهبان توادوريطوس. فان هذا الكاتب العظيم بعد ذكره من اشتهر من النساك في انطاكية وجوارها يعلن جهاراً انه يباشر بتراجم المتنسكين في القورسية (٢) ثم يذكر اعمال ميسياس واشبسيسا ويتخلص الى ذكر القديس مارون فيبين بذلك ان هذا العابد الشهير كان في الناحية ذاتها. وقد زادنا ايضاحاً في اثناء كلامه عن القديس: « انه هو غارس الحديقة (يريد حديقة العيشة الرهبانية) التي ترهوا الآن في القورسية (٣) »

هذا ولا نجعل بان توادوريطوس قال في ترجمة ابراهيم الناسك التي ألحقها بترجمة القديس مارون « انه هو ايضاً كان ثمره نمت في بلاد قورس » ثم اردف قوله بهذه الفقرة قائلاً: « وبها كان مولده ». فلماذا يا ترى ضرب الصفع عن التصريح بموطن القديس مارون؟ فهل كان ذلك سهواً منه او جهلاً؟ فهذه معضلات امكن توادوريطوس ان يحلها فلم يفعل. ولكنهُ اكتفى بقوله عن ابراهيم « انه هو ايضاً كان ثمره نضجت في القورسية » ليشير الى ان اصل القديس مارون الذي سبق ذكره كان كذلك من القورسية فليحكم القراء

هلم بنا الان ننظر في اي مكان من القورسية تأله قديسنا الجليل. نجيب على ذلك ان غاية ما اعلنا به توادوريطوس في هذا الصدد انه « تسلق الى قمة جبل كان اقام فيه سابقاً عبدة الاوثان هيكلاً للابالسة » (٤). والظاهر ان هذا الجبل كان على

(١) راجع كتاب توادوريطوس في تاريخ الرهبان

(٢) راجع التاريخ ذاته في مجموع مين (ص ١٣١٦)

(٣) راجع الصفحة ١٢٣٣ منه

(٤) فيه (الصفحة ١٣٣٤)

بعض المسافة من قورس كما يلوح من ترجمة القديس يعقوب تلميذ القديس مارون حيث قال عنه توادوريطوس « انه بعد ما سكن مدّة مع معلمه جاء فسكن على جبل يقرب من قورس ثلاثين غلوة » اعني على مسافة ساعة ونصف من هذه المدينة (١) . ولكن في اي جهة كان موقع جبل القديس مارون أفى شمال قورس او جنوبها او جهة أخرى والرأي عندنا انه سكن احد الجبال الواقعة على طريق حلب اعني جنوبي شرقي قورس . ليكون مقام القديس اقرب الى افامية في اقليم سورية الثانية حيث سُيّد بعد ذلك الدير الذي عُرف باسم دير القديس مارون كما سترى في فصّلنا الخامس آنفاً

الأ انّ تعريف الجبل بعينه الذي اوى اليه القديس مارون ليس بممكن مسا لم يبحث عن ذلك اهل البحث في نواحي قورس . ومما يساعد على ذلك فحص اخربة الهياكل الواقعة على قمم تلك الجبال والمقابلة بينها وبين ما يرويها اهل تلك النواحي بالتقليد مع البحث الجغرافي عن مواقع تلك الاصقاع . فلا غرو انّ من يتبع هذه الخطّة يلقّ ما لم يكن في حسبانهِ من آثار الامكنة الدائرة في سورية . وما ادراك انه لا يجد كتابة قديمة تميّط السرّ عن عدّة امور غامضة (٢)

ولم يُدَفَن القديس مارون في محبسه فان سكّان القرى المجاورة تنازعوا ذخائره المقدسة حتى فاز بها اهل بلدة قريبة فنقلوها الى وطنهم واقاموا للناسك القديس هيكلًا جاءوها فيه . ويؤخذ من بعض نصوص توادوريطس انّ الهيكل المذكور كان على مسافة من قورس . قال هذا الكاتب الشهير : « ومع اننا بعيدون عن القديس فانّ بركته تشملنا وذكره يقوم لدينا مقام ذخائره » . فعنى بهذا بُعد مدنيته قورس عن ذلك المقام . على انّ المكان لم يكن خارجاً عن دائرة ابرشيته قورس لأن مدفنه كان قريباً من محبسته وقد بيّنا في ما سبق انّ القديس عاش في القورسية . ومن ثمّ صحّ عندنا ان قبر القديس وهيكله الاولين انما كانا في شمالي سورية جنوبي قورس في نحو نصف المسافة بينهما وبين حاب

(١) فيه (الصفحة ١٢٢٦)

(٢) كالكتابة المكتوبة بلغتين يونانية فارامية التي وجدناها في كراد الداسية شمالي غربي حمص على ناووس قديس يدعى توما لم يمكنّا حتى الان بيان احواله (راجع المجلّة الباجيكية موزيه (Musée belge, 1901) . وقد نشر حضرة الاب س . رنّ قال النصّ الارامي في مجلّة الشرق المسيحي (ROC, 1902)



هياً بنا الان نبحت عن امر آخر لا تفوت فائدته كل بصير اعني مقام دير
القديس مارون الشهير . قد تكرر ذكر هذا الدير في اخبار سورّية واشتهر رهبانه
بما ابدوا من البسالة في الدفاع عن الايمان . ولكن ترى اين كان موقع الدير المذكور
هل أقيم بجوار هيكل القديس « مارون العظيم » (كذا دعاه توادريرطوس في تاريخ
الرهبان ص ١٢٥٤) قريباً من ذخائره المباركة كما ترجح ذلك التقاليد الشائعة او
كان بالاحرى موقعه في غير مكان من سورّية

مهما كان من صحّة احد الرأيين نرى الاجدر بنا ان نتصقح الآثار القديمة
ونستضيئ بنبراسها لتعريف موقع هذا المكان الذي في ظله نشأت الطائفة المارونية .
ولا شك ان نصوص القدماء تساعدنا على ازالة الشبهات التي تكاثفت بهذا الخصوص .
وقد عدنا ما كتبه المحدثون بهذا الصدد فوجدنا آراءهم متباينة متناقضة فمنهم من
يجعل دير القديس عند انطاكية (١) ومنهم من يرجح كونه في ضواحي حمص (٢) وبين
البلدين كما لا يخفى مسافة ثمانية ايام بنيف . وربما رأيت الكاتب الواحد مضطرباً
متحيراً يجعل الدير تارة في محل وتارة في موقع آخر حتى اننا عدنا لبعض كتبه زماننا
خمس آراء في هذا الشأن

وعندنا ان درس الجغرافية المدقّق يُفضي بصاحبه الى الراي الصحيح ويُرشده
الى الطريق المثلى . ولا بد لنا لبيان هذا الامر من تعريف الاقسام السياسية التي
كانت عليها سورّية الشمالية وسورّية الوسطى في عهد القديس مارون اعني في القرنين
الخامس والسادس فاذا وقفنا عليها تبيننا على التقريب الايالة التي فيها كان موقع هذا
الدير المشهور . ثم نضيف الى هذه الاعلام العمومية بعض نصوص جغرافية تزيد
بحشنا ايضاحاً

كان الرومان على عهد توادريرطوس يدعون باسم سورّية الرومانية كل البلاد المتسعة
الارحاء الواقعة في وسط التخوم الطبيعية التي يحدّق بها البحر المتوسط وجبل طورس

(١) راجع الدوجي (ص ٢٩ و ٦١)

(٢) اعني في وسط الطريق بين افامية وحمص (راجع امداء الشرق السنة الرابعة ص ٩٦)

وبادية الشام وبرية طور سينا . وكانوا يقسمونها الى اربعة اقسام كبرى او اعمال اعني سورية وفينيقية واقليم العرب وفلسطين . ومن هذه الاعمال لا يهملنا هنا سوى سورية وفينيقية فنقصر كلامنا عليهما

وكان عمل سورّي يُقسّم الى ثلاثة اقسام او ولايات يسمونها سورّي الاولى او سورّي المجوّفة ثم سورّي الثانية او سورية الطيّبة ثم سورية الثالثة المدعوة ايضاً سورّي الفرائيّة

وكانت قاعدة سورية الاولى المعروفة بالمجوّفة انطاكية العظمى وهي تمتد من جبل امانوس (اللكّام) شمالاً الى مدينتيّ اللاذقيّة وجبلة جنوباً ويحدها شرقاً سورّي الفرائيّة . فكانت سورية هذه تشمل القسم الغربي من ولاية حلب الحالية ومتصرفيّة اللاذقيّة من ولاية بيروت

وكانت سورّي الثالثة اي الفرائيّة تضم كلّ البلاد المعروفة سابقاً باسم كوماجينه (راجع خريطة سورّي) وقد مرّ وضعها فلا حاجة الى اعادة الكلام فيها . وكانت حاضرة سورية المذكورة مدينة منبج (Hierapolis)

أما سورية الثانية (١) المدعوة بالطيّبة (Syria Salutaris) فكانت حاضرتها افامية (قلعة المضيق) وكان يدخل في حيزها ابيفانيا او حماة . وكانت حدود هذه الولاية الجنوبية تنحدر الى جوار حصّ فيلحق بها اراثوسه ومرمين ورفانية التي موقعها على مسافة ثماني ساعات الى عشر^{١٠} الي غربي حمص . وعليه فتكون هذه الولاية مطابقة لتقسم من ولاية حلب في جنوبها الشرقي ولقائمقامية حماة المركزيّة في ولاية دمشق . وكلامنا في هذه المقالة خصوصاً عن هذه سورية الثانية فلا بُدّ للقارئ ان يودعها ذاكرته ليتبعنا في بحثنا

وكان عمل فينيقية وهو القسم الثاني من سورية الرومانيّة يتقسم الى فينيقية لبنان وفينيقية الساحليّة

(١) وعليه فلا نرى وجه التدقيق في تحديد بعض المحدثين لسورّي الثانية حيث قال : « سمّاها الاقدامون سورّيّة الثانية لتمييزها عن سورّيّة الاولى التي تعمّ جميع ما هو من عريش مصر الى مصر دجلة »

ففينيقة لبنان التي مدار كلامنا عنها هنا كانت حاضرتها حصص على الاقل مباشرة لأنّ قسماً من سيطرتها بعد ذلك صار الى دمشق . وكفانا هنا علماً ان فينيقية لبنان كانت جنوبي سورية الثانية الطيبة

فلنعودنّ الآن الى دير القديس مارون لتعريف موقعه . وبمّا اتفق عليه في هذا الباب لغير الكتبة ان هذا الدير كان على ضفة نهر العاصي . وكذلك لا خلاف بأنّ موقعه كان في سورية الثانية . وهذا امرٌ يلوح كالشمس في رابعة النهار لمن طالع العريضة التي وجهها رهبان هذا الدير الى البابا القديس هرمزداس مع سائر انكتابات الرسيمة التي ورد فيها ذكره فانها كلها بلا استثناء تجعل دير القديس مارون في سورية الثانية فان صحّ ذلك بطل زعم الذين يجشوا عن دير القديس مارون خارجاً عن هذه الولاية . ومن ثمّ فلا صحة لقول من ذهب الى ان هذا الدير كان بجوار انطاكية (١) او قريباً من حصص لانه لو كان في ضواحي انطاكية لكان من سورية الاولى اي المجوفة ولو جاور حصص لعدّ من فينيقية لبنان

ولكن بقي ان نعيّن مكان هذا الدير ضمن تخوم سورية الثانية في جوار نهر العاصي . وليبان الامر نرى هنا ايضاً اصلاح بعض الاغلاط الجغرافية التي شوشت هذه المسألة وجعلتها مرتبكة مغلقة

فالغلط الاول هو غلط الذين قربوا موقع افامية من حصص فجعلوا المدينتين مجاورتين وهو غلط عظيم ورد في تاريخ سرياني لدير مار باسوس نذكره لنفنده فقال صاحبه : « ودير الشهيد مار باسوس في بلاد افامية على مقربة (كذا) من مدينة حصص الكبرى » . وقد شطّ كاتب هذه الاسطر وسبب شطوطه انه وضع تاريخه في زمن كانت حصص بلغت فيه مقاماً ساماً فبهره نور شهرتها . ومن ثمّ فأننا نعذر الذين استندوا الى هذا القول ليجعلوا موقع دير القديس مارون في جوار حصص بدلاً من

(١) راجع تاريخ الكنيسة الانطاكية (ص ١٠٩) وتاريخ الطائفة المارونية للدوبي (ص ٣٩) وقد روى هذا العلامة (ص ٦٥) نصاً قديماً في سَروم ورد فيه ما نصّه : « قرية سَروم في جبل السويدية على مسافة متساوية بين انطاكية ودير القديس مارون » . قلنا ان كان المراد بالسويدية القرية الحالية المعروفة بهذا الاسم اقتضى القول بان دير القديس مارون كان موقعه بين انطاكية والبحر . وهو زعم مردود

افامية لاسيما ان افامية كانت آتخذ خربت بعد ان احرقها كسرى الثاني فزادت حصن بخوابها عظيماً

ومما يشهد لنا ايضاً على ارتقاء حصن ونفوذها في تلك الاعصار ان العرب بعد فتح الشام لما قسموا سورية الى اعمال متعددة دعوا اجناداً جعلوا حصن جنداً وادخلوا تحت حكمها مدينتي حماة وافامية . وهذا دليل واضح على عظم شأن حصن عند دخول العرب بلاد الشام اذ انها كانت من اكبر مدن سورية في وسطها الشرقي . فلا عجب اذن ان كان البعض اتخذوا حصن كقياس لتعريف المسافات كما انهم حسبوا افامية وحماة قريبتين منها لوقوعهما تحت حكمها

والغلط الثاني في هذا الباب ان قوماً خلطوا بين افامية وحماة وجعلوها مدينته واحدة وذلك لبعض التشابه بين اسم افامية وايفانية (اسم حماة اليوناني) . وهو زعم باطل غوي به كتبة عديدون الى غاية القرن الثامن عشر منهم الكاتب دي لاروك في رحلته الى سورية (de la Roque : *Voyage en Syrie*. I, 239) ولوكيان في الشرق المسيحي وغيرهما كثيرون بعدها فسرى منهم الوهم الى بعض المحدثين من الكتبة الشرقيين

والصواب في ذلك ان افامية هي كما قلنا سابقاً قلعة المضيق شمالي شرقي حماة . وقد اماط القناع عن هذه الحقيقة للمرة الاولى العلامة بورخدت (Burckhardt) فتبعه العلماء المحققون في قوله بعد ذلك بنحو ربع القرن . وعليه فلا تأثير على بعض كتبة الشرق العلماء ان ضلوا في ذلك سواء السبيل

ولعل سبباً آخر دفع هؤلاء الكتبة الى ان يجعلوا دير القديس مارون في ضواحي حصن وهو موقع مغارة الراهب . فان هذه المغارة او بالحرى هذه سلسلة المغاور التي وصفناها في الجزء السابق (ص ١١٠ وفي الشرق ٢٦٤:٤) موقعها جنوبي حصن عند راس العاصي . ولما كان بعض العامة يعرفونها باسم دير القديس مارون ظن قوم ان المراد بهذا المكان ذلك الدير الاول الذي بُني على اسمه قريباً من افامية

فكل هذه المزاعم اوهام لا يجوز القول بها . ومن ثم لا نرى ما كتبه البعض في هذا الصدد مضبوطاً حيث جعلوا دير القديس مارون « على تحوم حصن » او « في بلاد

حمص وحمّة أو « بين حمص وحمّة » (١) أو « في حمص » كما ورد في تاريخ ابي القدّاء (٢) وقد تبعه الاب ميشال جوليّان اليسوعي (٣) او في وسط الطريق بين افامية وحمص على رأي الاب ثابيه الصعودي (٤)

والقول الفصل عندنا في ذلك ان موقع دير القديس مارون فُويق هذه الامكنة شمالاً ما دراه حمّة . وممن كادوا يصيبون الهدف في ذلك العلامة المسعودي من كتبة القرن العاشر للميلاد فانه عين موقعه بقوله في كتاب التنبيه (ص ١٢٣) : ان هذا الدير كان « شرقي شيزر . . بقرب نهر الأرُنط نهر حمص وحمّة » . وشيزر هذه تُعرف في عهدنا باسم شَيزَر وهي في نصف الطريق بين حمّة وافامية اي قلعة المضيق . وقد افادنا الكاتب عينه ان الموارنة كانوا كثيرين في معاملات شيزر ومعرة النعمان وافامية يسكنون في وسط تلك البلدان . وعندنا ان سبب نمو الموارنة ووفرهم في تلك الجهات انما كان قربهم من هذا الدير العظيم فتألبوا حوله ومنه قدموا وانتشروا في جهات البترون وجبيل كما بينّا ذلك في مقالة سابقة

واصدق ما ورد في ذلك انما جاء في الآثار المارونية التي نشرها الحوري نو (Nau) الافرنسي (Opuscles Maronites, II, 22) وقد ذكر هناك ان دير القديس مارون كان « قريباً من افامية في وادي العاصي » . وقد آثرنا قوله على سواه لأن كاتب هذا الاثر اقدم من سواه عهداً سبق غيره الى ذكره (٥) وقد عرف موقعه بدقة وضبط . فمن هذا النص مع ما يستفاد من مراجعة اقوال المؤرخين يتضح لنا ليس فقط ان دير القديس مارون كان في سورية الثانية بل انه ايضاً كان في نحو مركز هذه الولاية

ومما يؤيد رأينا ما ورد في تاريخ رهبان القديس مارون المستشهدين . قال كاتب اخبارهم ان هؤلاء الرهبان بعدد ٣٥٠ خرجوا سنة ٥١٧ يريدون دير القديس سمعان

(١) راجع تاريخ الكنيسة الانطاكية (ص ١٠٩, ١٧٥, ٢٥٧, ٢٦٩)

(٢) راجع تاريخ ابي القدّاء (Hist. anteisl., ed. Fleischer., p. 112)

(٣) في رحلتهم الى سورية وسينا (١٧٨)

(٤) راجع اصداء الشرق (الجزء ٤ ص ٩٠)

(٥) لا ننهل ان عريضة رهبان القديس مارون الى البابا هرمزداس اقدم من كاتب هذه الآثار المارونية الا ان تلك العريضة لا تفيدنا عن موقع الدير سوى كونه في سورية الثانية

العمودي اذ هجم عليهم المعتصبون فقتلوه . فيؤخذ من هذه الرواية انه كان بين رهبان الديرين علاقات متواصلة وانهما لم يكونا مبتعدين كثيراً الواحد عن الآخر . على اننا نعلم ان دير القديس سمعان كان موقعه في جبل بركات على مسافة بعض ساعات من حلب غربيها (١) . فلا بُدَّ اذن من القول ان دير القديس مارون كان ايضاً من جهة قريبة من افامية كما سبق . وان اعترض علينا احد ان المسافة بين الديرين لا تزال كبيرة اجبنا ذلك صحيح لكن الامكنة التي يجتازها غيرنا اوقع هذا الدير اذا جعلناه في حصص او حماة تريد هذه المسافة زيادة بالغة بحيث لا يدرك القارئ سهولة هذه المخابرات بين الديرين لاسيا كيف امكن نحو ٤٠٠ راهب (٢) ان يخرجوا في وقت واحد فينتقلوا الى الدير الآخر . ومن ثم لا بُدَّ القول ان دير مار مارون كان ارقى شمالاً كما تشهد عليه الآثار التي استندنا اليها

وان كانت النتائج السابقة هي صحيحة فيبقى ان تنحصر البحوث العلماء عن دير القديس مارون منذ الان فصاعداً في وادي العاصي قريباً من قلعة المضيق . فينبغي على الاثرين ان يتجولوا في تلك الجهات ويفحصوا الاخرة ويجمعوا التقاليد الباقية بين اهل تلك النواحي ريثما يطأوا على موقع هذا الدير الجليل الذي احتله مشون من الرهبان الصالحين فقدسوه باعمالهم وبر حياتهم ويشهد على ذلك المسعودي في كتاب التنبية حيث قال (ص ١٩٣) : « ودير مارون بانيان عظيم حوله اكثر من ثلاثمائة صومعة فيها رهبان وكان فيه آلات من الذهب والفضة والجوهر شي . عظيم فخر به هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن » . فلا شك ان بناء عظيم كهذا لم يخرب دون ان يبقى منه شي . من آثاره . وان قيل ان خرابه سبق القرن العاشر فيصعب وجود بقاياها . اجبنا ان هذا الدير كان موقعه بعيداً عن البلاد الآهلة بالسكان كما ان قلعة المضيق أصبحت منذ اجيال متعددة معزلة عن الطرق اللاحقة

(١) وليس كما زعم حضرة الحوري فبريل « حذاء انطاكية » (ص ١٧٥) كذلك لا يمكن ان نسلم بما جاء في ذيل الصفحة نفسها
(٢) قلنا ٤٠٠ راهب . ولعلهم كانوا اكثر والثابت المقرر ان عدد القنلى المستشهدين منهم كانوا ٣٥٠ وقد فر منهم كثيرون هاربين . وسياق قريباً ذكر دير آخر قريب من دير مار مارون بلغ عدد رهبانه ستة آلاف راهب بنيف

فلم يكثر فيها الحراب والنهب فلا ريب ان تكون أيضاً آثار هذا الدير الذي عُرف باسم دير البلور باقيةً بجوارها حتى اليوم

٦

اثبتنا في ما سبق انّ القديس مارون عاش وتوفي في القورسية . وفيها دُفن أيضاً ليس بعيداً عن مكان وفاته . وذلك واضحٌ لمن اعتبر قول توادوريطوس . وقد أدّى بنا من جهة أخرى مجال البحث في الفصل السابق الى ان نجعل دير القديس مارون قريباً من افامية اعني على مسافة نحو مئة كيلومتر جنوبياً من قورس . وكأني بالقاء يستغرب الامر ويجد في تعيين موقع هذا الدير خارجاً عن القورسية بعض التناقض ويشك في صحة النتائج التي استنتجناها

كلّا لا تناقض في ما قلنا . وان يكن في الامر مشكل . وانما المشكل اعظم واقوى اذا ما جعلنا موقع دير القديس مارون في جهات حمص اعلم انّه لا يُعرف نصٌ واحد يذكر صريحاً انّ جسم القديس مارون دُفن في افامية . بل في قول توادوريطوس ما هو عكس ذلك . وانما يثبت التقليد انّ رأس الناسك القديس بعد خراب ديرم القريب من افامية نُقل الى لبنان اما ذخائر القديس فلا نعلم أنقُلت ايضاً بعد وفاته ببضع سنوات الى جهات افامية ام لا وان كان الامر محتملاً ولعلّ الباحثين يجدون حلاً لهذا المشكل في التفاصيل التاريخية النادرة التي كُتبت عن اديار افامية ونواحيها وكانت هذه الاديار كثيرة قد ذكر منها توادوريطوس في رسالته الـ ١١٩ ديراً « موقعه على ثلاثة اميال من افامية » طلب ان يعتزل فيه وهو يسميه ديرهُ كأنه عاش فيه العيشة الرهبانية (١) ونعرف فضلاً عن هذا الدير قرب افامية ديراً آخر شهيراً وهو دير مار بسوس (٢)

(١) انّ توادوريطوس كان راهباً الى سنة كهنوته فدخل في جملة أكليس انطاكية
(٢) راجع كتاب العلامة رونس دوغال في الآداب السريانية (ص ٢٥٣) والمجلة الشرقية
الالمانية (ZDMG, XXX 217)

الذي نشر عنه الحوري شايو كتاباً موسعاً (١) ومما ورد في اثناثيه أن عدد رهبانه بلغ ٦٣٠٠ راهب (ص ٦١). ألا أن صاحب هذا الكتاب قد وهم بقوله أن هذا الدير كان في بلاد حمص أو قريباً من هذه المدينة (٢) والصواب أن دير مار بسوس كان بجوار افامية . وفي ما سبق اشرنا الى هذا الغلط وسببه ولا يخال أن الكتبة خلطوا بين دير مار بسوس ودير مار مارون لوقوع كلا الديرين في جوار افامية . والدليل عليه أن للديرين اسماً مختلفاً فضلاً عن أن دير مار بسوس اضحى بعد قليل مركزاً للبدعة اليعقوبية (٣)

فوجد عدد وافر من الاديار في نواحي افامية برهان جديد على ما كان لتلك المناسك من المقام الرفيع والشهرة الذائعة ولا حرج بعد ذلك ان نسلم بصحة ما رواه الرواة عن خطر دير القديس مارون وعظم شأنه

ومما اخبر به توادوريطوس ايضاً أن القديس الناسك مرقيان القورسي ارسل واحداً من تلاميذه اسمه اغاييتس فوكل اليه بان يعتر اديرة عديدة بقرب افامية وبالاخص عند نقيرتا (Niseptra) « وهي بلدة واسعة كثيرة السكان ابنتى فيها اغاييتس معهدين لتعليم الحكمة السموية دعي الواحد باسمه . وجمع فيها فوق المتي راهب تجندوا للفضيلة ولازموا الثنى (٤) . وقد ورد اسم نقيرتا هذه في كتابتين يونانيتين تراهما في مجموع الكتابات اليونانية (٥) تحت العددين ٩٨٥٥ و٩٨٧٧ وفي جداول المخطوطات السريانية المصونة في المتحف البريطاني (Wright, Cat. 756. c. 2) اسم رئيس تولى رئاسة دير نقيرتا . أما نقيرتا المذكورة فليس لدينا نص صريح يفيدنا عن موقعها بالتدقيق في جوار افامية لقلة ما نعلم من امور تلك الناحية (٦)

(١) J.-B. Chabot: *La légende de St Bassus et son couvent à Apamée*, راجع

1893

(٢) قد جاء في مجلة الشرق المسيحي ذكر دير ثالث في افامية (KOC. p. 1902, 611.)

(٣) راجع ايضاً مقدمة الحوري شايو (ص ٩٥)

(٤) راجع تاريخ الرهبان في مجموع مين (ج ٨٢ ص ١١٣٨)

(٥) CIG, 9877 et 9875

(٦) طالع ما كتبه في هذا الصدد الاستاذ هرمان (ZDPV, XXIII, 145)

ولعلّ سائلاً يطلب او ليس دير القديس مارون احد الاديار التي ابتناها القديس اغابيتوس في جوار افامية ؟ اجبنا انّ هذا لرأي سبقنا اليه حضرة الاب جوليان اليسوعي في كتابه عن جبل سينا وسوريّة (١) « ولا نرى داعياً لانكاره اذ انّ درس الامكنة ومواقعها لا يخالف هذا المذهب وله سندٌ في التاريخ لانّ وفاة القديس اغابيتوس وقعت بعد وفاة القديس مارون . على أنّنا لا نوافق حضرة الاب جوليان في زعمه بان « دير القديس مارون كان بين افامية وحمص على ضفة العاصي ليس بعيداً عن حمص في المكان المعروف اليوم بالدير الكبير (٢) »

قد مضى علينا نحو ثلاث سنوات منذ زرنا هذه القرية الواقعة على مسافة ساعة ونصف من حمص في شمالها الغربيّ على ضفة العاصي الغربيّة ووجدنا فيها آثاراً قديمة بيد انّ نظرها لم يُعدل بنا عن رأينا وفي حججنا السابقة ما هو كافٍ لبيانها . وعندنا انّ حضرة الاب جوليان خُذع بما كتبه المؤرخ الشهير صاحب حماة الملك المؤيد ابو الفداء وهو يجعل الدير في حمص نفسها . ثم غرّه ايضاً اسم « الدير الكبير » الا انّ سالنامة ولاية سورية روت اسم هذه القرية على صورة اخرى فدعتها « الدار الكبير » ولعلّ الصواب « الضهر (الظهر) الكبير » كما سمعناه او فهمناه من اهل القرية وهذا الاسم يوافق المسمّى لان القرية على ظهر ربوة

وقد ذهب الاب مرتينوس اليسوعي في تاريخه المخطوط عن لبنان الى رأي آخر نستلفت اليه نظر القارئ . قال المؤلف المذكور الذي وقف كل حياته على البحث عن لبنان وتاريخه : « لا يبعد ان القديس ماري (Marès) الراهب القسّ في ناحية افامية الذي وجّه اليه القديس يوحنا فم الذهب رسالة (٣) هو القديس مارون عينه (٤) لان الاسمين ماري ومارون لا يختلفان عند كتابة اليونان في سوريّة وليس ماري سوى مارون مع اختلاف حركة الاعراب في اليونانية فشاع هذا الاسم في الناحية . امّا تلقيه

(١) P. M. Jullien s. j. : *Sinai et Syrie*, p. 178

(٢) في صفحة ١٧٨

(٣) هي الرسالة ٥٧ وهي غير رسالته الى مارون الكاهن

(٤) هذا زعم لا يمكننا التسليم به اذ انّ فم الذهب يثبت في هذه الرسالة ان ماري عاش في مقاطعة افامية خلافاً لما نعرفه عن القديس مارون

بالقديس فقد جرى على ذلك رهبانه تبجيلاً له فاقتدى بهم فم الذهب
 « ومثالنا في ذلك مثال ديرين آخرين في جهات افامية عُرف الواحد منهما باسم
 القديس سمعان والآخر باسم القديس اغاييتوس (١) وتؤكد هذا الرأي المخالف للرأي
 العمومي رواية توادوريطوس في تاريخه (٢) الذي يفيدنا ان جمهور الرهبان الذين اتوا
 من القورسية الى بلاد افامية لينشئوا فيها الاديار كانوا تلامذة للقديس الناسك
 مارقيان ليس تلامذة القديس مارون لان المؤرخ المذكور افادنا انه لم يخرج احد
 من رهبان القديس مارون من بلاد قورس (٣) ولا يبعد ان تلاميذ القديس
 مارقيان وكان اصلهم من بلاد قورس (٤) دعوا احد الاديرة التي شيدها في بلاد
 افامية باسم القديس مارون لاكرامه الا ان كلام توادوريطوس صريح في القديس
 مارقيان حيث قال : « ومارقيان الالهى هو الذي انشا كل اديرة بلاد افامية (٥) »
 فلا يمكن اذن ان يُنسب انشاء احد هذه الاديرة لتلامذة القديس مارون . ومن
 ثم لا نستغرب القول بان ماري الذي اوفد اليه القديس يوحنا فم الذهب برسائله
 كاحد رؤساء الدير مع القديس سمعان (٦) هو منثى الدير وان عُرف باسمه اولا
 دير القديس مارون . هذا ونقر ان الافادات التاريخية في هذا الخصوص لمخلّة جداً .
 ومن المحتمل انهم لم يميزوا بين القديس مارون والقديس مارقيان الذي ورد مكتوباً
 في بعض النسخ ماريان (٧) »

هذا ما رواه الاب مرتينوس في تاريخه وهو زعم نوره على علّاته دون ان نحكم
 فيه (٨) . وما يزيده بعض الرجوح شهرة القديس مارقيان فان اسم هذا القديس كان
 ذاتاً مستفيضاً حتى ان معاصريه شيّدوا بيعة على اسمه قبل وفاته اُفستترب احد

(١) راجع توادوريطوس في تاريخه المذكور (ج ٨٢ ص ١١٢٨)

(٢) في المجلّد والصفحة عينهما

(٣) راجع تاريخ الرهبان (ع ١٦ و ٢٥)

(٤) او على الاقل كبارهم الذين شيّدوا الاديرة

(٥) تاريخ الرهبان (ع ٣)

(٦) راجع رسالة القديس يوحنا فم الذهب الـ ٥٥

(٧) راجع تاريخ الاب مرتينوس الصفحة ٢٢٢٨ و ٢٢٢٩

(٨) الا زعمه بان ماري ومارون اسم واحد فأننا لا نسلّم به

ان يكون رهبانه حاولوا بعد مجيئهم من بلاد قورس الى انحاء افامية ان يخذلوا ذكره بابتشاء دير على اسمه . وعلى كل حال لو صح هذا الرأي لقض المشكل الذي نحن بصدده ويظهر لكل العيان كيف دُعي احد اديرة افامية باسم القديس مارون الذي توفي في القورسية . وما لا شبهة فيه ان في السنين الاولى من القرن السادس كان الدير المذكور لا يُنسب الى غير القديس مارون وان افترضنا ان رهبان الدير حصلوا على قسم من ذخائر القديس مارون او على جسمه الطاهر كله فلا عجب ان يكون التبعّد للقديس امتدّ الى كل جهات بلاد الشام

امّا ما حدث بعد ذلك لدير القديس مارون فيفيدنا به ابو الفداء اذ يعلمنا في كتاب تقويم البلدان (ص ١١٤) ان الملك مرقيان وسّع في السنة الثانية للملك اعني سنة ٤٥٢ . ولما تحامل اليعاقبة على ابنته فاخربوها (١) في اوائل القرن السادس اعاد بناءه الملك يوسطينيان الكبير (٢) الذي ضبط زمام الملك من سنة ٥٢٧ الى ٥٦٥ . وقد اخبر سعيد بن بطريق في تاريخه ان هرقل الملك تفقّد هذا الدير سنة ٦٢٨ لما رحل ظافراً الى سورية فوقف عليه اوقافاً عديدة (٣) . وفي عهد هذا الملك جرت بين اليعاقبة ورهبان دير مار مارون مخاصمات ذكرها ابن العبري في تاريخه الكنسي وقال ايضاً ان الموارنة اخذوا من اخصامهم عدّة كنائس أبي هرقل ان تُرد الى اليعاقبة (٤) . ولم يزل هذا الدير زاهراً في سنة ٧١٥ كما ورد في نص سرياني نشره الحوري نو ترجمته بالفرنسية (٥)

والظنون ان خراب هذا الدير تم في القرن التاسع فاضطرّ رهبانه ان يأتوا الى لبنان مع سكّان الناحية المجاورة له . وفي قول المسعودي الذي اوردناه سابقاً ان دير القديس مارون كانت اغتالته في عهده (اعني في اواسط القرن العاشر) يد الزمان

(١) وقيل انه خرب بزلزال

(٢) راجع كتاب هركوبوس في الابنية (ك ٤ ف ٩)

(٣) راجع اعمال آباء اليونان لمسين (PG, CXI, 1089) وراجع الصفحة ٢٦ من الجزء الثاني من تاريخ ابن بطريق Euty chius, ed. Cheikh, II 269

(٤) Chronicon Eccl. I, 270-274

(٥) Bulletin de S. Louis des Maronites, Janvier, 1903, p. 346

فخرب . ثم لا تعود ترى له من بعد ذلك أثراً في التاريخ حتى ان ياقوت الرومي لم يذكره في معجم البلدان مع انه افاض في وصف اديرة كثيرة اشتهرت في بلاد الشام منها خربة ومنها مأهولة بالرهبان . وكذلك تصفحنا تأليف جغرافي العرب المتعددة لعلمنا نجد شيئاً عن دير القديس مارون فذهبت مساعينا سدى ولم نقف على ضائتنا مع ان هؤلاء الكتبة كروا مراراً اسماء الاديار الشامية ورووا من ابيات الشعراء ما ورد فيه ذكرها

وهذا لعمرى من الامور الغريبة ان ديراً طار اسمه في البلاد مدّة القرنين السادس والسابع فاصاب من الشهرة ما اصاب في تاريخ سورية الديني يصبح بعد مجده نسباً منسياً لاسيما ان دير القديس مارون لم يكن ديراً منقطعاً لا نفوذ له بل كان يدخل تحت حكمه اديار أخرى تعرف له حقوق السيادة كما كان شأن الاديرة في سورية الشمالية وسورية الوسطى فان اديرتها الرهبانية كانت ترتبط بين بعضها بروابط متينة بحيث تكون السيطرة لدير اعظم تخضع لوائسته بقيّة الاديار المجاورة له (١) . وهو امرٌ يصدق في دير القديس مارون الذي امتدت رئاسته على سائر اديار سورية الثانية . غير انه يعزّ علينا ان نبين حدود هذه الرئاسة وسعة نطاقها . فلا نعلم اكانت هذه الرئاسة شرفية محضاً او كان لرئيس الدير الكبير بعض السلطة على بقيّة الاديرة . كما انه يصعب علينا ان نبين اصل هذه السلطة فلا ندري اكانت ناتجة عن تفرع دير من آخر او بارادة منشي الاديرة او بخروج مستعمرة رهبانية من الدير الاكبر فكل هذه المباحث عويصة لا يُستطاع حلها سهلاً

وعلى كل حال ان تقدم دير مار مارون ورئاسته على بقيّة الاديار لمن الامور الحرية بالاعتبار فان ذلك يبين لنا كيف امتدت سريعاً الطائفة المارونية ليس فقط في بلاد افامية لكن في الايلات الخارجة عنها ايضاً . وعلى رايانا ان كل دير من هذه الاديار المنوطة بدير القديس مارون اضحى بعد مدّة مركزاً لفئة من المؤمنين الذين غوا عدداً بعد حين وانتسبوا الى القديس مارون . وفي مقاتلنا السابقة عن انتشار الموارنة رأينا كيف خرج منهم فئات دخلوا لبنان واستعمروا الجهات الموافقة

(١) راجع ما مكتبه في ذلك العلامة لذلك (ZDMG, 1875 p. 423, note)

لنموهم وازديادهم
 فيرى القارئ ان هذا البحث الجغرافي عن سيرة القديس مارون يرتبط بالبحث
 السابق اعني اصل الطائفة المارونية وكيفية انتشارها (١) وهذا ما حملنا على التدقيق
 في تعريف الامكنة التي نشأ فيها القديس مارون كيف لا وهو ابو طائفة تعد من
 اعظم الامم اللبنانية عطرها هذا الرجل العظيم بعيشته وموته

*

وفي الختام احببنا ان نلخص للقراء ما اتسعنا في بيانه في هذه المقالة لتبقى
 خلاصتها في ذاكرتهم :

- ١ لا مرأ ان القديس مارون عاش ومات في القورسية
- ٢ ان الرأي الاصح في مولده انه وُلد ايضاً في القورسية وليس في جوار
 انطاكية

- ٣ دُفن القديس مارون في حدود القورسية الجنوبية
- ٤ كان موقع دير القديس مارون مهد الطائفة المارونية بين نهر العاصي
 وافامية . وهذا مما لا ريب فيه
- ٥ اما كيف دُعي هذا الدير باسم القديس مارون وكيف نُقلت اليه ذخائره
 فامران لا يمكن القطع بها فتتعي ان يحكم غيرنا فيها حكماً فصلاً فيصرح الحق
 عن محضه

٧

في لغات لبنان القديمة

قد استدلل القارئ من الابحاث السابقة (١) ان لبنان مع ما طرأ عليه من تقلبات الاحوال وتماقُب الامم في سكنائه لم يزل مقاماً لشعب اصلي كان سامياً يغلب عليه العنصر الكنعاني والآرامي . ولنا في درس اللغات المستعملة في لبنان ما يؤيد هذه النتيجة فان التاريخ والبحث اللغوي يثبتان صريحاً ان اللغة الشائعة في لبنان كانت ابداً لهجة سامية

ولنا في اكتشاف مراسلات تل العمارنة التي وصفناها سابقاً (٢) ما يرقى حجتنا من هذا القبيل الى القرن الخامس عشر قبل المسيح . فان في هذه المكاتبات عدة تقارير ارسلها ولاية صيدا وجبيل وبيروت الذين كان لبنان تحت حكمهم الى فراعنة مصر وكلها باللغة البابلية التي كان ينطق بها هؤلاء الامراء وعملهم اجمعون . وهو لصري امر ذو بال يؤخذ منه ان اللغة الاشورية كانت شائعة بين اهل لبنان ان لم تكن لغتهم الوحيدة . فيسوغ اذن القول بان اول لغة شهد التاريخ على وجودها في لبنان انما كانت لغة سامية اعني البابلية . وقد حاول المفتطف (١٩٠٣ ص ١٧٥) في وصفه لكتاب تاريخ بيروت ان ينكر ذلك حيث قال : « ان استعمال اللغة الاشورية في المكاتبات السياسية والتجارية لا يكفي دليلاً . . . على ان اللسان الاشوري كان شائعاً في ظهراي الامة الفينيقية » الا ان في قوله لشططاً ولو تحقق نفوذ الامة البابلية في بلاد الشام منذ ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح لما جحد ذلك (٣) والآثار المنبئة على مكان البابليين وكلمتهم الراجعة في هذه البلاد لعديدة حتى ان كثيرين

(١) راجع الفصل الممنون « الامم البائدة في لبنان » وفصل « انتشار الامة المارونية » الخ

(٢) راجع مقالنا « احوال لبنان في القرن الرابع عشر قبل المسيح » (في الجزء الاول

ص ٧١)

(٣) راجع المقالات الحسنة التي كتبها في هذا الصدد حضرة الاب دي لاتر اليسوعي

(P. Delattre : Le pays de Chanaan, province de l'ancien empire égyptien)

من العلماء المبرزين كفنكلر (١) وغيره يزعمون أن مارك بابل استولوا على الشام في ذلك العهد المهيمن وأن القبائل البابلية التي كانت على ضفة نهري الفرات ودجلة امتدت وانتشرت الى سواحل البحر المتوسط . وهو رأي راجح كان يجيز لنا بان ننظم البابليين بين امم لبنان البائدة لولا رغبتنا في اقتصار الابحاث . وما لا يُنكر من آثار المعاملات بين بابل ولبنان المواد البنائية التي وجدت في اخربة بابل مما نقل من لبنان كاللارز والرغام الابيض والحجارة . أفليسَ عَرَب بعد ذلك كون اللغة البابلية انتشرت في ضواحي لبنان

والظاهر ان سيطرة اللغة البابلية في الشام امتدت الى نحو القرن الرابع عشر قبل المسيح ومن تبصر في مكاتبات تلّ العمارنة وجد فيها الفاظاً وتعاير من اللغة الكنعانية وهذا ناتج عن استيطان قبائل الفينيقيين والكنعانيين قبل ذاك العهد سواحل الشام ولم يلبث الاراميون أن يتعمقوا آثارهم ويجمعوا بهم (٢)

واعلم ان اللغة الكنعانية (التي تشمل العبرانية والفينيقية) واللغة الآرامية متجاورتان حتى تعلّبت الآرامية وصار لها السبق فكادت تكون هي اللغة الوحيدة بعد جلاء بابل . على ان بعض معاملات لبنان لاسيما ما كان منها مجاوراً للمراكز الفينيقية الكبرى ثبتت مدة بعد ذلك على استعمال اللغة الفينيقية

فمن ثم لا نشط اذا قلنا ان اللغة الآرامية ملكت دون منازع في لبنان مدة نيف والفسنة . قال المؤرخ مُنسن الشهير في تاريخ الشام على عهد الفتح الروماني « ان لبنان بخصر الكلام لم يغير قطّ عنصره (٣) » اعني انه بقي آرامياً جنساً ولغة الى نحو القرن الرابع عشر من تاريخ الميلاد

ولما صار الامر الى الفرس بعد البابليين بقيت السيطرة للغة الآرامية وكان ملوكها يتخذون هذه اللغة كاللغة الرسمية ليس فقط في بلادهم لكن ايضاً في

(١) راجع كتابه الاخير H. Winckler : *Keilinschriften und das alte Testament*,

1903

(٢) راجع كتاب فنكلر Winckler : *Die Voelker Vorderasiens*

(٣) راجع تاريخه (Roem. Gesch., V, 418)

الإقطار الخاضعة لهم كمصر وآسية الصغرى . والاكتشافات الأثرية في مصر تؤيد ذلك فإن العلماء وجدوا عدّة كتابات اصدرها ولاية الفرس باللغة الآرامية . وكذا فعل من بعدهم ملوك بني ساسان فإن رسائلهم كانت مكتوبة باللغة السريانية (١)

*

أمّا السلوقيون فإن نفوذهم في لبنان كان ضعيفاً لاسيّما من حيث اللغة فإن اللبنانيين داوموا على استعمال اللغة الآرامية مزوجةً باللهجة الفينيقية . ومن عجيب الأمور أن انتشار لغة الآراميين بلغ على عهد السلوقيين مبلغاً عظيماً فاضحت اللغة السائدة في كل آسية السامية أعني في سورية وما بين النهرين وبلاد الكلدان والعراق وجزيرة العرب (٢) الآن اللغة الرسمية بين عمال الدولة ولغة العلماء كانت اليونانية في كثير من تلك البلاد دون أن تشيع في عامتها (٣)

ثم تولّى الايطوريون على لبنان (٤) فلم يغيروا شيئاً من لغته وكان الايطوريون عرباً واصلهم من حوران من الجهات المجاورة لجبل حرمون . ومع كون المؤرخين لم يصرحوا بأيّة لغة تكلمت قبائلهم لا نشك في أن العربية أو الآرامية كانت لغتهم الخاصة كما يستدل على ذلك من اسمائهم وهي عربية أو آرامية وإن سلّمنا أنهم تكلموا بالعربية لا نرى بداً من القول بأنهم اتخذوا الآرامية كلغة معاملاتهم وذلك لأن الطرق التجارية بسبب الحروب التي وقعت بين الملوك السلوقيين وملوك مصر اللاغين كانت تحوّل الى جهات جزيرة العرب بعد مرورها سابقاً في سورية الشمالية وسورية الوسطى فصار العرب وسطاً لهذه التجارة الواسعة . ولما لم يكن للعرب وقتئذ كتاباة خاصة اضطّرهم الامر أن يتخذوا اللغة والكتابة الآرامية الشائعة في حدود بلادهم بين مجاوريهم الآراميين

أمّا النبط وهم من اقارب الايطوريين وجيتهم فإن لغتهم النبطية لم تكن سوى

(١) راجع مقالة كاتمرار عن النبط. Quatremère: *Mém. sur les Nabatéens*, 137.

(٢) راجع المجلة الاسيوية الألمانية. ZDMG, 1885 p. 333.

(٣) راجع مقالة الدكتور شندا عن الآراميين. Sanda: *Die Aramaeer*, 4, 23 etc.

(٤) راجع الصفحة ٣٩

لهجة آرامية . وامتدت اللغة الآرامية في شمالي جزيرة العرب الى حدود الحجاز وذلك في القرون الاولى من تاريخ الميلاد الى القرن السابع منه . والادلة على ذلك كثيرة فان الكتابات التي وجدت في كل تلك الانحاء انما هي بالآرامية ليست بالعربية (١)

وما قلناه عن الشام وجزيرة العرب يصح أيضاً عن شبه جزيرة طورسينا وفيها كتابات آرامية لا تُحصى ابقاها لنا عرب تلك الجهات

فمن ثم نصادق تماماً على قول العلامة لذلك وقوله حجة في زماننا عند العلماء : « قد تناوبت في لبنان هذه اللغات الثلاث اعني الكنعانية ثم الآرامية ثم العربية » . وكان يمكن هذا المستشرق الشهير ان يقدم على هذه اللغات اللغة البابلية الا انه لما كتب هذه العبارة لم تُكتشف بعد مراسلات تل العمارنة . اما اللغة الفينيقية فان الآرامية محت آثارها في لبنان كما في سورية كلها في قرون النصرانية الاولى (٢)

اما اللغات الاخرى غير السامية فانها لم تُفترق بالسيطرة في لبنان . واذا خصصنا بالنظر اللغة اليونانية وجدنا ان اللبنانيين لم يتكلموا بها مطلقاً . وقد بينا في ما سبق ما معنى الكتابات اليونانية التي وجدت في لبنان (راجع الصفحة ٣٥) واثبتنا ان وجودها ليس بدليل على شيوع هذه اللغة بين العامة كما ان وجود الكتابات اللاتينية المتعددة فيه لا يدل على ان اهل لبنان تكلموا بهذه اللغة . وعندنا ان هذه الكتابات لم يفهمها غير العمال الذين آثروا بصنعها . ولا نستثني من هذا الحكم الصناع الذين حفروها فانهم كانوا ينقلونها ثقلاً ويصورونها دون ان يفهموا على فحواها

*

وقد زادت اللغة الآرامية شأنًا بدخول الموارد في لبنان فاضحت في أظهرهم اللغة الوحيدة مدة اجيال متوالية . وتشهد على ذلك اعلام قرى لبنان التي هي في الغالب

(١) راجع مقالة كاترمار في التبط (١٣٣ و ١٣٤) وقال المسعودي في كتاب التنبيه (ص ٧٩) : « وكانت بلاد العرب اليوم وبرها ومدرها اليمن وحماة والحجاز واليامة والعروض والبحرين والشجر وحضرموت وعمان وبرها الذي يلي العراق وبرها الذي يلي الشام . وهذه الجزيرة كلها . . . لساخا واحد سرياني » . راجع ايضاً مقالات لذلك ZDMG, 1871, 122 ومقالات فكلر (H. Winckler: *Mitteil. vorderas. Gesel*, 1901; 130) وكراسة فيليب برجه (L'Arabie avant Mahomet, p. 9)

(٢) راجع Ad, Harnack: *Mission u. Ausbreit d. Christentums*, p. 430

مشتقة من اصل سرياني كما بينّا ذلك سابقاً وسيأتي بيانه بنوع اجلي
ولما ظهر المسلمون واستولوا على سواحل الشام اخذت العربية تنتشر شيئاً فشيئاً
في جهات لبنان. وساعد على انتشارها ايضاً دخول الايطوريين كما سبق (الصفحة ٣٩)
ثم دخول المتأولة والنصيريين من بعدهم (١) الا ان اللغة الآرامية دافعت عن
حقوقها مدافعة جيّدة ويَتَّخِذ من كلام يعقوب دي فيتري من كتبة الحروب الصليبية
ان العربية امتدت في الجبل اي امتداد (٢) ومع ذلك ان ابا الفرج ابن العبري (٣)
كان يعتبر في القرن الثالث عشر السريانية كلغة اهل لبنان الا ان لغة العرب لم تزل
في ثبوته وانتشار حتى غلبت السريانية شقيقتها في القرن الخامس عشر لكن هذه لم
تتوار بالتمام الا تدريجاً وكان اهل بعض القرى الداخلية كبشراي وحصرن وجيتها
يتكلمون بها حتى في القرن السابع عشر (٤)

وبقي من آثار السريانية بعد خمولها ان كثيرين اتخذوها اكتابة المؤلفات العربية
كما يظهر من كثرة الكتب المخطوطة بالكرشوني. هذا فضلاً عن عدّة الفاظ وتعايير
سريانية باقية في لهجة اللبنانيين (٥) تنبئ بما كان من السيطرة للغة الآرامية في لبنان بل
قل في اكثر انحاء المعمور القديم. كيف لا ومن اقدم لهجاتها اللغة الاشورية التي وجد من
آثارها كتابات راقية الى ١٠٠٠ سنة قبل المسيح في اكثر اقطار آسية الغربية وازاحت
السريانية مدّة اعصار عديدة حتى بعد القرون المتوسطة لغة علماء الشرق كما كانت
اللاتينية لغة علماء الغرب وكان المسلمون ايضاً يدرسونها لكثرة فوائدها (٦). وقد كتب
بها الارمن مدّة قبل انتشار الارمنية وحرفها. وقد بلغ امتداد هذه اللغة الى افاصي
الشرق في الصين شمالاً وفي الاقطار الهندية جنوباً كما انها بلغت جنات النيل. فلا
نظن ان لغة اخرى حتى ولا اليونانية جارت السريانية في اتساعها اللهم الا الانكليزية
في عهدنا

(١) راجع مقالتنا الافرنسية عن النصيرية في لبنان (مجلة الشرق المسيحي، 1902، ROC)

(٢) تاريخ القدس ف. ٧٧

(٣) راجع تاريخ مختصر الدول (ص ١٨)

(٤) راجع مقالتنا «فرا غريفون» في السنة الاولى من المشرق (ص ٥٧)

(٥) راجع مقالة الاب پاريزو في المجلة الاسيوية الباريسية (١٨٩٨ ص ٢٨٦)

(٦) فيها (ص ٢٤١)

فترى شطوط القائلين بأن اللغة الآرامية كانت لغةً خاملة بربرية . وقد فند المشرق زعم الذين نسبوا الى اوريجانوس مثل هذا القول . والارجح ان اوريجانوس نفسه كان يعرف هذه اللغة ويقتبس من انوارها . وكذلك اولئك الرجال العظام الذين شرفوا الشرق بهلومهم كاسابيوس القيصري . وتوادوريطوس ويوحنا الدمشقي وابي قرّة . وغيرهم وفي ما سبق كفاية لتعريف شرف السريانية واتساع نطاقها في العالم

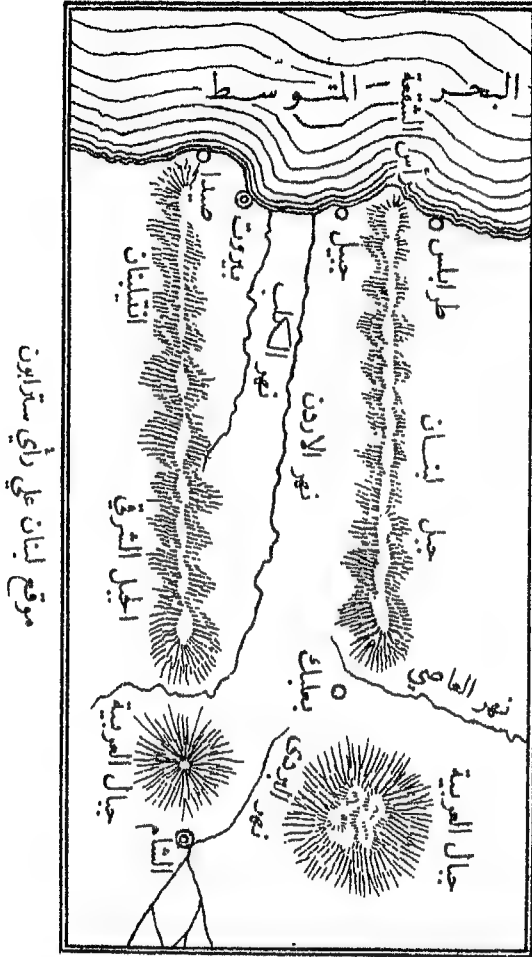
٧

رسم خرائط لبنان

لا يجمل احد فائدة الخرائط في الدروس الجغرافية . فالولاها لضرب المدرس الريح وكتب على صفحات الماء . فيكون مثله مثل استاذ الطبيعيات لا يثبت تعليمه بالعمليات او مثل مدرس الرياضيات لا يقيّد علمه بالتموينات الحسابية ولكن اين هذه الخرائط ؟ فانّ لبنان الذي عليه مدار دروسنا محصور الحدود وليس له خرائط خاصة به الاّ النذر القليل . اما خرائط سورية العامة فان مقياسها قصير حرج فلا تجد فيها للبنان مكاناً يذكر مع انك لو اردت درس هذا الجبل لا ندحة لك من خرائط كبرى ذات مقياس واسع ومثل هذه الخرائط عزيزة الوجود

*

اول من وصف لبنان سترابون الجغرافي العظيم الا انه اخطأ في هذا الوصف وبخطائه كان سبباً لاوهام الذين اتوا بعده . وقد اثبتنا عند ذكرنا لبنان ووجهة امتدادهم وحدوده في كور الاجيال (راجع ص ٦) ما ارتأه هذا الكاتب الشهير في حق لبنان اذ بدل وجهته فظن ان هذا الجبل والجبل الشرقي يتدان من الغرب الى الشرق بدلاً من الجنوب الى الشمال . اعني انه كان يجعل احد طرفي هذين الجبلين عند بحر الشام والطرف الآخر عند دمشق كما ترى في الرسم الذي نثبت في الصفحة التالية فلمعري ان مثل هذا الوهم كان من شأنه ان يشوه صورة لبنان كما نُشِوه صورة الانسان لو جعلت قدماء في رأسه ورأسه في قدميه . ومع سوء هذا التصور للبنان نال رأي سترابون الخطوة لدى كثيرين ولم يقدر بليتيوس الطبيعي وغيره ممن اصابوا المرمى في تعريف موقع لبنان ان يبطاوا هذا المزعوم



موقع لبنان على رأي سترابون

ثم جاء العرب
ووصف كتبهم البلدان
وفي جملتها لبنان ولا
تراهم يجورون عن
طريق الصواب في
رسم وجهته إلا أنهم
لم يحسنوا بيان حدوده
فربما ادخلوا في لبنان
جبالاً ليست منه . ثم
أن تأليفهم بقيت مجهولة
في أوربة الى القرن
الثامن عشر فكان
مصطنعو الخرائط
يستندون الى اقوال
سترابون فيرسمون لبنان
كما تخيله هذا الجغرافي .
منهم العلامة بشارت
في كتابه « الجغرافية
المقدسة » وسلاويوس
صاحب « العالم القديم »
وكلاهما من مشاهير

صورة لبنان على زعم سترابون

الكتاب ازهر في القرن السابع عشر

ومن أول الذين عاكسوا هذا الوهم الهولندي اديان ريلند (Reland) في كتابه
عن فلسطين (١) . وكان أول امره يذهب في ذلك مذهب اسلافه إلا انه لحسن
حظه وقف على رحلة كتبها الانكليزي هنري موندل (Maundrell) كان وصف فيها

سفرًا بأشهره في أواخر القرن السابع عشر من حلب الى اورشليم وأكثر فيه من التفاصيل الجغرافية . فنبه هذا التأليف افكار ريلند واستفاد من خريطة كان رسمها موندل المذكور ولم ينشرها بعد

فكانت هذه أول خريطة للبنان وهي بالنسبة الى معارفنا اليوم محنة من وجود عديدة كانها عمل تلميذ لا يحسن الرسم فلا تكاد تجد فيها سوى بعض اسماء الامكنة الواقعة على ساحل البحر دون مراعاة للمسافات التي بين الانهار ومواقع المحلات . أما جهات لبنان الداخلية فهي خاوية ليس فيها اسم بلد اللهم الا بحيرة الشونة . ومع هذا ترى صاحبها قد اصاب في رسم وجهة لبنان والجبل الشرقي وجعل الجبلين موازيين مع الاشارة الى سهل البقاع المنبسط بينهما . وتلك نتائج حسنة بالنسبة الى ذلك الزمان لاسيما ان ريلند كان مهّد بهذا العمل الطريق لمن يأتي بعده وازال العقبات التي كانت تحول دون الترقى الجغرافي في درس لبنان

هكذا نشأت أول خريطة لجبلنا فكانت مع نقصها اساساً بنى عليه كتبة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فصنوها وكمالوها . وقد اشتهر بينهم الجغرافي الجرماني كرل ريتز (Ritter) الذي افرد لوصف لبنان قسماً كبيراً من المجلد السابع عشر من تأليفه المعنون « الجغرافية المقابلة » وهو اوسع وصف يعرف لهذا الجبل لم يفقد شيئاً من محاسنه وفوائده بعد نصف قرن من عهد ظهوره

الا ان الخرائط اللبنانية في هذه المدة لم تخط كهذه الخطوات في سبيل التقدم بل بقيت على خلكها . وانما كان اصحاب خرائط سورية يخصون لبنان بمكان صغير فيثبتون خريطة ريلند السابق وصفها مع شيء من التحسين في الدلالة على مصب الانهار ونبوءات الارض وقياس المسافات وكذلك ترى زيادة في اسماء القرى وذكرها لاقيسة عاو الآكام والقمم . وقد امتازت بين هذه الخرائط خريطة فلسطين للرسم الالاماني الشهير هنري كيبرت (H. Kiepert) التي نشرت في سنة ١٨٥٦ ادرج فيها صورة جبل لبنان ولكن هذه الخريطة كانت على مقياس فلم يكن صاحبها لضيق المكان ان يتسع في ذكر هذا الجبل واعماله . ثم اعاد كيبرت رسم خرائط سورية غير مرّة دون ان ينال لبنان حظاً اوفى من المرّة الاولى وبعد سنتين لظهور خريطة كيبرت ابرز سنة ١٨٥٨ الضابط الهولندي فان دي فلد

(Van de Velde) خريطة حسنة للاراضي المقدسة جعل حدودها الشمالية لبنان الى النهر الكبير . وكان مقياس هذه الخارطة $\frac{1}{110,000}$ اعني انها كانت نحو ضعف خارطة كيبرت فنال لبنان حظاً منها وهي تستحق ذكراً خصوصياً ليس فقط لِسَعَتِها لكن ايضاً لسير صاحبها على طريقة علمية . فان راسمي الخرائط السابقة كانوا بنوا رسومهم على اقوال اهل الرّحل والمسافرين الذين دونوا ملاحظاتهم بدون آلات رصدية او بلا تدقيق كافٍ في الرسوم او الحسابات التريغونومترية . فاراد فان دي قلد ان يسد هذا الخلل فطاف جهات فلسطين لهذه الغاية امّا لبنان فانه لم يُجْر فيه غير رصد قليلة بنفسه لكنّه وجد في بعض زملائه ما اغناه نوعاً عن ذلك فانّ الاميركي روينسن وقنصل بروسية في دمشق العلامة وتشتين كانا باشرا بعض هذه الرصد . وكذلك كان ضباط البحارة الانكليزية قاسوا سواحل لبنان والجهات المجاورة لها . فانتفع فان دي قلد من هذه المساعي العلمية الجليّة ورسم خارطته وفقاً لها فجاء عمله محكماً واثياً يُعدّ بروزه كنقطة مهمّة في تاريخ خرائط لبنان (١) . ثم زار فان دي قلد ثانية جبل لبنان وطبع خريطته بعد مدّة فزاد في تحسينها وتلافي شوائبها

هذا ومع فوائد الخرائط المذكورة لم يتفرّغ الى ذلك العهد احد من العلماء لرسم خارطة خاصّة بلبنان دون سواه حتى نهض لهذا العمل الجليل قومٌ من ضباط البعثة الفرنسيّة الى سورّيّة فرسموا بعد الرصد اقيسة مواقع الامكنة خارطةً للبنان تُعرّف باسمهم مقياسها $\frac{1}{110,000}$ طولها ٨٩ سنتيمتراً في عرض ٦٧ اودعوها من اعلام الامكنة ما لم يسبقهم اليه غيرهم وهي تحتوي ليس فقط اسماء معاملات لبنان بل تمتد ايضاً الى الجبل الشرقي والبقاع وبلاد بشارة

ومن محسّنات هذه الخارطة ان اصحابها كروا اقيسة الارتفاعات التي قام بها سابقاً القنصل برتون الانكليزي مع غيره من العلماء الاميركان والانكليز والالمان وكتبوها . واصلحوا ايضاً اغلاطاً اخرى عديدة كما انهم اتقنوا تصوير لبنان في سلسلته الكبرى وفي الفروع المتشعبة منه مع حسن رسم انجاده ومشارفه ومنعطافه ووجهة أوديته وكل حزونيه وبطونه فضلاً عن طرقه وعقباته . وكانت هذه الفوائد مدوّنة في الخارطة

على احسن هيئة واجود نظر
ولما ظهرت هذه الخارطة الفرنسية في غضون سنة ١٨٦٢ استحسنها فان دي
قد لکنه ودّ لو ألحقها اصحابها بشرح يرشد القراء الى بيان طرائقها والادوات
الستعملة لرسمها ومركز اقيسة مثلثاتها الى غير ذلك من الفوائد اللازمة لضبط الرسوم
وتحقيق صحتها. وقد انتقد غيره على هذه الخارطة فاحذوا عليها بعض المآخذ منها ان
اقيسة السواحل لا توافق الخرائط البحرية التي كان الانكليز يقومون برسمها آنسدر
تحت نظارة انكومندان منسيل . فمن اين يأتى هذا الاختلاف واي الفريقين هو
المحقّ او المحقوق ؟ فانّ الرسّام ديشرد كيبرت بن هنري كيبرت الشهير اعلن ان
اقيسة الضباط الانكليز لا تتخلو من الخلل (١) وكذلك نرى كتبة الانكليز قد اثنوا
اطيب الثناء على الخارطة الفرنسية للبنان (٢) التي يرجّح كون اصحابها استفادوا من
اعمال الضابط الفرنسي ديولين (Desmolins) في اقيسته الساحلية . وزد على ذلك
انّ العلامة النمساوي دينر (Diener) من علماء الجيولوجية قد استصوب عمل
الخارطة نفسها

ومتّحّن لم يستحسنها السيّد ايزابل برتون امرأة السائح الانكليزي الشهير (٣) بيد
انّ رأيها ضعيف في رسوم الخرائط ولعلّها ارادت بهذا الانتقاد ان تبين فضل خارطة
زوجها التي ليست بشي . على رأي كيبرت . وكذلك الدكتور پوست من اساتذة
الكلية الاميركية في بيروت فانه «وجد الخارطة الفرنسية قليلة الضبط في تعيين مواقع
الامكنة كثيرة الاغلاط في تدوين الاعلام العربية (٤) » ونحن وان كنّا نسلّم بما فرط
في خارطة الضباط الفرنسيين من الاوهام في تعريف بعض مواقع الامكنة نرى انّ
اغلاط الانكليز والاميركيين في الاعلام العربية اكثر وافظع كما اشار الى ذلك العلماء
الالمان كالعلامة سوسين (٥) فيصحّ فيهم المثل « ايها الطبيب اسفّر نفسك »

(١) راجع ملاحظاته في ملحق رحلة البارون فون اوبنيم الى خليج المعجم ج ٢
ص ٣٩٦ و ٤٠٥

(٢) راجع المجلّة ٧٥، ١٨٦٥، PEF

(٣) راجع الكتاب ١، ٩٥، Unexplored Syria

(٤) راجع ٢١٩، ١٨٩٢، PEF

(٥) راجع المجلّة الفلسطينية الالمانية ٤٥، XIII، ٢٤٣، V، ٢٤٢، IV، ١٧٩، ZDPV، III،

والرأي الارجح عندنا في خارطة لبنان التي رسمها الضباط الفرنسيون ما قاله فيها ريشرد كيبرت ابن الموما إليه « ان خارطة لبنان حسنة الرسم يروق العين النظر فيها ولكن الواصفين قد بالغوا في وصفها (١) » . فكأنه اراد بذلك ان هذه الخارطة مع ما فيها من المحاسن ليست تامة كاملة . وهو حكم صائب الا انها لما كانت الخارطة الوحيدة للبنان انما المرجع اليها في تقويم هذا الجبل . وعندنا ان اصحاب هذه الخارطة لم يطوفوا كل ناحية عكار . اما جبل اكروم فقد تحققتنا في رحلتنا اليه سنة ١٨٩٩ ان الضباط الفرنسيين لم يدخاوه مطلقاً (٢) . على ان هذه الملاحظات عرضية لا تمس جوهر العمل الذي ادى للعلم ولا يزال خدماً مشكورة . ولا بد من الرجوع اليها والاستناد الى معلوماتها الفريدة في بابها حتى يقوم قوم من اهل الصلاعة والخبرة فيتداركوا الخلل

ولهذه الخريطة رسم مصغر الحقله المسيورينان بكتابه « بعثة فينيقية » مقياسه اصطنعه اصحاب الخارطة السابقة انفسهم الا ان الاعلام فيها قليلة لان المقصود منها انما كان فقط الدلالة على العاديات في لبنان

هذا وقد ورد آنفاً ذكر خارطة الانكليزيّ مُنسل البحرية . وهي مفيدة لتعريف اقيسة عدّة مواقع كما انها تصلح لبيان علو مشارف لبنان الداخلية . وعلى رأي ريشرد كيمبرت لا يُمكن الى تعريفات هذه الخارطة الا في الخطّ الساحليّ . اما جهات لبنان الداخلية وتحديد مواقع القرى واسماؤها ووصف الانهار والطرق ومنعطفات الجبل فانّ مُنسل تصرّف فيها على حسب محيّاته (٣) . وقد اثنى الجغرافيّ دينر (٤) على ضبط اقيسة الانكليز في تعريف اعالي لبنان بينما توى غيره كريشرد كيمبرت وبلنكنهورن قد انتقدوا عليها في صحّة ضبطها

*

- (١) راجع رحلة اوبنيم السابق ذكرها
(٢) راجع مقالاتنا Notes topographiques sur l'Emésène
(٣) راجع رحلة البارون اوبنيم السابق ذكرها ج ٢ ص ٣٩٦ و ٤٠٥
(٤) راجع كتابه Libanon Grundlinien einer phys. Goegr. von Mittel-Syrien, ٩

وفي سنة ١٨٨٤ نشر الدكتور لورته متقدّم المكتب الطبي في ليون كتاباً اسمه «سورية كما هي اليوم» اتقن طبعه وزينه بالتصاوير البديعة وهو يحتوي على فوائد جمة في شأن الجغرافية وخصوصاً تاريخ بلادنا الطبيعي وقد اضاف اليه خريطة فلسطين ولبنان مقياسها استند فيها (على ما جاء في صدر الخارطة) الى اصدق الموارد واحدها عهداً دون ان يُطلعنا على طريقته في اصطنائها غير ان الذي يتصفحها لا يجد فيها شيئاً جديداً والاحرى ان يقال انها دون خارطة البعثة الفرنسية فمن ذلك ان ثنّوات الجبل ليست بواضحة فضلاً عن كونها غير صحيحة . ثم ان في اسماء الامكنة اغلاطاً عديدة . مثال ذلك انه يدعو بحيرة زينية «الجبية» وكذا دعاه مراراً في الكتاب . اما اقيسة العلوفلا توافق في الغالب اقيسة غيره من الكتب . معن يوثق بهم . والظاهر من كلام المؤلف انه دون هذه الاقيسة نقلاً عن بعض الادوات الصغرى غير المضبوطة . وخلاصة القول يلوح من درس هذه الخارطة ان صاحبها لم يزد شيئاً على معلوماتنا السابقة وانما نقل ما اتى به الكتب المتقدّمون دون تروء كاف وبلا اجهاد ذهن . وهذه الخارطة مع قلّة ضبطها متقنة الطبع تُفيد الذين لا يطلبون الدقّة في التفاصيل ويكتفون بنظر عام وهي بالخصوص تساعد على مطالعة كتابه

وهذا الانتقاد والتنقيح احقّ بخارطة الاميركان المطبوعة بالعربية على الحبر سنة ١٨٨٩ . فانّها ليست فقط كثيرة الخلل لكنّها ايضاً مبهمه لا تقرّ لنضارتها العين ولا يأنس بفوائدها العقل . والدليل على قلّة ضبطها ان اصحابها لم يذكروا لها مقياساً وانما يقيسون المسافات على مشية الخيل وهي لعمري دلالة تناسب مجاهل افريقية وما شاكلها من الاقطار اما بلاد متمدّنة كسورية فلا ترضى بها

ومن معايب هذه الخارطة ان ثنّوات الجبل وسلسلته الوسطى مدلول عليها ببعض الخطوط المخرشبة العمل اما تفرّعاته وانجاده ومعاطفه واديتسه فكل ذلك مُهمّل لا ذكر له . وقد أُشير فقط الى مجاري الانهار بعض الاشارة . وعندنا ان هذه الخارطة لا تصلح للمدارس ولعلّها تؤدّي بالاحداث الى الوهم والغلط . وزد على ذلك ان اسماء امكنة عديدة في هذه الخارطة لم تذكر لضيق المحل . اما صورة الاسماء فهي مضبوطة في الغالب لجبل لبنان لكنّها محلّة لبقيّة النحاء الشام كما لحظ الامر العلامة المستشرق

فإن برقم في المجلة الاسيوية (JA, 1895, 490) وأننا السبب في هذا النقص ان اصحاب هذه الخارطة لم يرسموها رسماً مستقلاً بل اتبعوا فيها الخرائط الانكليزية التي تكثر فيها مثل هذه الاغلاط ومن اوهامهم انهم جعلوا مديرية هرمل ملاصقة لبنان مع ان موقعها في ولاية سورية وان كانت تخص متصرفية الجبل . وكل هذه الشواذب تنزع عن الخارطة الاميركية صفتها العلمية ولذلك لا ترى احداً من المستشرقين يرجع اليها في اوصافه . وحكمنا هذا مختص في قسمها اللبناني اما رسم بقية الخلاء الشام فقد تعددت فيه الاغلاط وتوفرت اسباب الزلات وتشوهت الاعلام لكننا نجترى بالاشارة لتلا نخرج عن دائرة موضوعنا

ولا ندحه لنا من ذكر خارطة الدكتور النمسي ديزر التي ترى في آخر كتابه عن لبنان المطبوع سنة ١٨٨٦ . والغاية من كليهما جيولوجية لبنان اي تعريف طبقات ارضه ويدخله ايضاً فوائد عديدة جغرافية كوصف ارتفاع الجبال ووجهتها وانعطاف وديانها واقيسة معاليها . الا ان الاستاذ ريشرد كيپرت مراتب في صحة هذه الاقيسة الاخيرة لعدم وقوفه على اسلوب ديزر في تدوينها . وكذلك تراه يذكر بالتحفظ اقيسة الارتفاع التي اجاها احد معلمي كلية بيروت الاميركية المعلم روبرت وست ونشرها في مجلة فلسطين الانكليزية (PEF) سنة ١٨٩١ (ص ١٤٧) و ١٨٩٢ (ص ٢١٩) و ١٨٩٦ (ص ١٦٥) . ولا غرو فان هذه الاقيسة لا تراعي درجات الحرارة وذلك امر واجب لضبط قياسات البارومتر . ثم انه اهمل في تدوين هذه الاقيسة رسم خارطة لبنان فيبقى القارئ متضعضعاً لا يميز النقط المقيسة من سواها . اما قياسات الدكتور پست الاميركي فيرتأي ريشرد كيپرت (ص ٤٠٧) انما ليست ذات شأن . ومجمل القول ان العلماء حتى اليوم لم يضبطوا ضبطاً تاماً اقيسة مشارف لبنان فلا تزال على شك من صحتها هذا ولا يجهل احد من السياح دليل فلسطين وسورية المنسوب الى بيديكرو وهو كتاب كثير الفوائد وضعه عالمان المانيان شهيران سوتسين وبسنغر واصحابه بخريطة للبنان مقياسها ١:١٠٠,٠٠٠ وهي قسمان يحتوي احدهما شمالي لبنان والاخر جنوبه الا انهما شمالاً لا تتجاوز خط طرابلس فلا تتضمن جبل عكار . وهذه الخريطة قد قام بعملها رجل واسع الخبرة في فن رسم الخرائط ألا وهو هنري كيپرت . ومع شهرة هذا العمل وكثرة محاسنه لا يسعنا السكوت عن بعض نقائصه منها ان اعلام القرى اقل

عدداً من الخريطة الفرنسية . ولعلهُ اقتصر صاحبهُ على هذه الاسماء رغبةً في توفير المكان ثم انَّ الغاية من رسم هذه الخارطة ليست التعليم المدرسيّ فاكتفى الراسم بذكر الاعلام التي فيها ما تهتمُّ المسافرين معرفته . أمّا ضبط الاسماء فيحتاج ايضاً الى اصلاح لئلا تزلَّ به قدم المطالعين لاسيَّما ان دليل بيديكرك قد اتبع في نقل الاعلام العربية طريقة الحروف المفردة المنقطة الشائعة عند كبار العلماء الاجاب . ولو قصد بيديكرك لا مكنه سدّ هذا الخلل . ولعلهُ فعل في طبعته الاخيرة التي لم نطلع عليها . لكن الطبعة الرابعة التي في يدنا تاريخها سنة ١٨٩٧ وهي غير مصححة ومع هذه النقائص نرى خريطة بيديكرك حسنة يُستفاد من مراجعتها وان لم تُعن عن الخريطة الفرنسية

وفي الدليل عينه خريطة اخرى مقياسها كخريطة البعثة الفرنسية تتضمّن جهات بيروت على مسافة ٢٩ كيلومتراً طولاً في ١٩ ك عرضاً فيها كل ما يُوجب اليه من وصف الامكنة . وهي في هذا القسم أغنى من خريطة الضباط الفرنسيين

أمّا احسن ما وُضع من الخرائط للبنان فهي خريطة حديثة رسمها ريشرد كيمبرت الذي تكرر الشناء على براعته في هذا الفن وألحقها بكتاب في جزئين ألفه البارون فون اوپنهم عنوانه : Vom Mittelmeer zum persischen Golf. Berlin, 1900 . فالخريطة تاريخها ١٨٩٣ غير انّها لم تتمّ الا بعد تلك السنة والدليل على قولنا انها تتضمّن عدّة فوائد من تاريخ سنة ١٨٩٨ . وهذه الخريطة مقياسها وحدودها شمالاً مرعش الى خطّ الناصرة فبُصرى ومن ثم لا ترى فيها لبنان الا مصغراً . وهي مع ذلك غاية الاتقان ومثال يُقتدى به من حيث رسم الجبل وتعريف عطفاته واوديته ومجاري انهاره وحسن ضبط اعلامه . وخلاصة القول لا نجد في هذه الخارطة غير محاسن اللهم الا اقيسة قِمم لبنان فأننا في ريب من صحتّها لاختلافها عن الاقيسة المعهودة . مثال ذلك جبل صّتين فانّ العلماء يحسبون علوّه عادة ٢٦٠٨ م وقياسه في هذه الخريطة ٢٧٥٠ متراً وكذلك اجمع العلماء سابقاً انّ اعلى قمم لبنان تتراوح بين ٣٠٦٠ متراً الى ٣١٠٠ م والعلامة كيمبرت في خريطته يزعم ان المشارف التي تطلّ على وادي الارز يبلغ بعضها ٣٢١٥ متراً وغيرها

٣٣٦٠ م . ولم نعهد احداً من العلماء ذهب الى ذلك الا بُوتن الذي لا يوثق بكلامه من هذا القبيل

على ان العلامة كيبرت يفيدنا في ملحقه انه اخذ هذه الاعداد عن خريطة مخطوطة المخوجا عبدالله طعجه . وعندنا ان العلماء لا يكتفون بهذا السند الوحيد وفي الحتام ان طلب احد رأينا في الخرائط اللبانية اشرفنا اليه ان يقتني خريطة البعثة الفرنسية سنة ١٨٦٠ مع خريطة ريشرد كيبرت وبها غني عن غيرهما الى ان يرسم لنا احد العلماء قريباً ان شاء الله خارطة جديدة تستوفي كل الشروط المرغوبة مستنداً الى الاعمال السابقة مع اصلاح شوائبها

٩

لبنان : بحث في انجاء واغواره

قد اظهرت ابجاثنا السابقة غير مرة خطر لبنان وعظم شأنه في سورية . فان كان قول الكتاب الكريم عن بلاد الشام « بانها تدر لبناً وعسلأ » لا يزال صحيحاً في عهدنا كما صح سالفاً فليس ذلك الا من فضل الائم التي تتولد في بطون لبنان ومن تأثير الجبال الشاهقة المكلفة بالثاوج الفراء في الهواء واحوال الجو . وعليه فانه من الواجب اللالزب ان نبين خواص لبنان في وضعه وهيئته وبطونه وحزونه فنشرحه تشريحاً لنقف على دقائقه وخفاياه . وذلك اقوى عامل لبسان مجاري مياهه وتفرع الانهار على جوانبه كما سيأتي بعيد هذا

*

قال اليزاي روكلو (E. Reclus : *Asie Antérieure*) في وصفه للبنان : « اذا ما أقيتَ ببصرك من البحر الى سلسلة لبنان المستطية رأيت من هذا الجبل نظراً مهيئاً فيلوح لك ازرق او وردياً في الصيف ومشتلاً في الشتاء والربيع بجلباب ثلجه أفضي . واذا تصاعدت الامجرة في الجو البست قمة النازحة ثوباً شفافاً هوائياً غاية في اللطف . وتراه مع عذوبة منظره لا يخلو من سطوة الصلابة والسَّم فتري ذاك الجبار يتمطى بضلوعه الشديدة وينطح برأسه الشامخ لا يقوم في وجه قائم . على ان النظر الى محاسن هذا الجبل عن كسب هي دون جماله عن بعد . فتري ظهره على طول ١٥٠

كيلومتراً (والاصح ١٨٠ كيلومتراً) اقهب اجد لا تكسوه الخصرة تجدد وديانه متشابهة ومشارفه كأنها قُذت على قالب واحد»

هذا هو الوصف الذي خصّه ذاك الجغرافي الشهير بلبنان . وان دققنا من بعده في تعريف هذا الجبل قلنا : ان لبنان اشبه بجدار عظيم من الصخور وجهته من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي . ومن الجهة الشرقية تراه ينقطع بغتةً أما من جهة الغرب فهو يتفرّع فروعاً متعددة على هياكل شتى من آكام وبطن وسهول ورُبى متسلسلة يدخل بعضها في بعض . واذا استئثنت هذه التفرعات الثانوية والتجعدات غير المنتسقة تحققت ان سلسلة لبنان العظمى قد وضعها الخالق على صورة نظامية وجانب كبير من البساطة . ولذلك قلّما ترى في لبنان تلك المناظر المتباينة التي تقرأ لها العين في سواه من الجبال وانما البصر يقع على حاجز كبير في حدود الافق يتواصل على خط مستقيم لا تكاد قمة العليا تمتاز عن بقية اقسامه

ومن درس جغرافية سريرية ورأى تنوّاتها وأفرد لبنان ببصحه لا يرى فيه تلك الأطوار العجيبة التي تقوم في السهول المنبسطة او في وسط الأنجاد المرتفعة فتخلب النظر بمشارفها وقرونها السامية كجبل فنّتو (Ventoux) في فرنسة وجبل اتنا في ايطالية وبركان تناريف في جزائر كناري وجبل الاقزع في جهات انطاكية او الالپ في بروسة فان مثل هذه الجبال تأخذ بمجامع القلب لتخليقها رؤوسها في الجو . أما لبنان فلا اثر فيه لمثل هذه القرون الباسقة التي تنصب ضلوعها المهشمة بالاودية فوق فقراتها الاصلية . وكذلك ليس في لبنان مثال لتلك القنن المروسة المدعوة في بعض البلاد الجبلية كبلاد الالپ والپيريناي بالمسلات والاير والاسنان كما انه خال من القسم المخروطة الشكل او ذات المقاطيع المخروطية . ومجمل القول انّ ظهر لبنان ينسبط انبساطاً متساوياً على خط سوي يبلغ معدّل علوه ٢١٢٠ متراً تركب فوقه اهاضيب وروابٍ محدّبة تختلط في هيئتها مع السلسلة الوسطى الاصلية

الا انّ للبنان خواص أخرى تجعله من الجبال الممتازة بينها فمن ذلك تقاطيعه التي ترى في المنعطف الموازي للساحل . فهناك عددٌ وافر من الاودية والمهاوي والشعاب والأهّاب الصعبة المرتقى والوهاد التي تفصل الجبل الى نشوز مختلفة كأنها القلاع الحريزة . وذلك ما سهل لاهل لبنان ان يعيشوا في جبلهم في الامن والراحة .

وكذلك تعددت فيه الامم المختلفة التي التجأت اليه وتوطنته فاختلطت الانساب وتوفرت المشاكل في تعريف اصولها الشقي

١ اودية لبنان

وان انتقلنا الآن الى وصف اودية لبنان التي تنحدر بها المجاري المائية وجدنا ان وضع هذه المنهضات والبطون هو على خط عمودي بالنسبة الى ظهر الجبل بالعرض منه . ولما كان الجبل موازياً للبحر مجارياً لساحله تحدرت منه السيول الى هذه الاودية فانصبّت في بحر الشام على اقرب طريق . والمياه قد فتحت لها مسيلاً على خط مستقيم بعد نفوذها في اعطاف الجبل وخرقها لفروعه الثانوية . ولو اردنا ذكر الاودية التي هي في لبنان على شكل خط عمودي معترض لتعددت الاسماء . فمن ذلك اكثر مجاري السيول كنهري بيروت ونهر الكلب ونهر ابراهيم وامثالها . واكثر وجود هذه الاودية المعترضة في شمالي لبنان اي في مشارفه العليا حيث تبلغ معظم قوتها

الآن ظهر الجبل عند بلوغه شمالاً رأس الشقعة يميل ميلاً ظاهراً الى الشرق وتنسبع فروعه الغربية وتنحرف منحدراته فترى الاودية اللاحقة به يميل معه فتتجه الى الشمال الغربي وهي لا تزال مع ذلك تابعة للخطوط العمودية الا ان زواياها بالنسبة الى الساحل اقل انفراجاً فتجري الى البحر من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي . واذا بلغت منتهى لبنان في الشمال الغربي رأيت ضلوع الجبل تنسبع فيها الوديان على شكل المروحة نصابها ظهر لبنان المركزي

وفي لبنان ما خلا هذا الاودية العمومية او المعترضة اودية اخرى توازي طول الجبل وتجري معه على خط مستقيم مثال ذلك شمالي لبنان في جبل عكار نهر خالد وما ينصب فيه من الجداول والسيول . ومثل هذه الاودية الموازية للجبل كثير في لبنان الجنوبي على جهة طريق الشام الجنوبية فترى مسايل المياه تجري في سيرها ظهر الجبل في اعاليه حتى اذا بلغت اسافله عطفت بغتة واعوجت على شكل الزاوية المنفرجة . وان اعتبرت اغلب الانهار الواقعة في تلك الجهات كالليطاني والزهراني والاولي والدامور وجلتها على هذا المثال فأنها تجري اولاً من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ثم تغيرت على فور وجهتها وتنفذ في مضائق تسيل منها الى البحر على خط عمودي معترض

وليس بين هذه الانهار ما يقطع ظهر لبنان الا الليطاني وحده فان رأسه على منعطف لبنان الشرقي وهو يصب في البحر منحدرًا الى منعطفه الغربي وذلك من عجائب الامور اذا اعتبرت عمق وادي هذا النهر وقابلت بينه وبين ضيق الجبل الذي تحترقه مياهه . ولعل ما ارتأه في هذا الامر العلامة ت . فيشر لا يخلو من الصواب وهو قوله بان الليطاني كان قديماً في اسفل مجراه نهراً متسرباً الى باطن الجبل فلم تزل مياهه تعمل في الصخور التي تخفيه عن النظر الى ان اخترقها وعليه فيكون الجسر الطبيعي الذي يرى حتى الآن في يحجور اثرًا لحالة النهر السابقة وبقيّة من القناطر الصخرية الطبيعية التي جرى تحتها النهر مدة احقاب عديدة

ومما يجدر بنا قوله ان الاودية اللبنانية وتغيرها الجسيم انما هو من فعل العوامل الطبيعية التي انجزتها . ألا وهي الثلوج والجليد والامطار والمياه الجارية وكلها قد تسلطت على صخور الجبل فنقرتها وحفرتها على شكل الوديان . وذلك امرٌ يسهل الوقوف عليه في الامكنة التي ينهبط المسيل بين جدران الجبل المركبة من طبقات صخور نظامية فهذه الطبقات ترى على الجهتين مناسبة لبعضها . وكلما ترى في لبنان وادياً الا وتنظر آثار المياه على جانبيه فتتعمق علو مجراها سابقاً ثم هبوطها على مدى الاعصار وهذا عمل المياه وجوفها للصخور يبدو للعيان في اخوار هلالية تختلف سعة وعمقاً حُفرت في اواسط الجبل وتتكون من مجموع شعابه ومن الخسافات وتهوراته . واجمل ما يرى من هذه البطائح بطيحتان الواحدة في لحف صنين والاخرى تَحْتِ المنيطرة . وعند افقا ابطح آخر قليل الاتساع ككنة غاية في الحسن لما يُجَدَّق به من المناظر البهيّة الآخذة بجماع الابصار

وهي المياه ايضاً حُفرت الألفاب اعني الصدوع التي تقوم في الجبل تجاه الناظر اليها كالحائط لا يُرتقى . فان السيول بقوتها قد تخللت الصخور ولم تزل تناصبها الحرب حتى غلبت صلابتها ودخلت في قلبها . فمن ذلك وادي نهر ابراهيم في مسيله الاعلى نازلاً عن قرطبة ومضيق نهر الكلب وما يفضي اليه من الاودية كنهر صليب . كذلك نهر باروك الاعلى مع ملحقاته ونهر الاولي بقرب جزين . واعظم هذه الالفاب نهر قاديشا فان عمقه لا يقل عن ٥٠٠ متر فيمثل نوعاً مضائق بلاد كولورادو في اميركة فترى فيه المياه تهبط من اعطافه الى اعماقه مزبدة فتسيل متلوية في تلك القناة الطبيعية التي

خرقتها رغماً عن صخورها الصخاء . وهو لعمرى منظر مهيب يزيد روعاً اذا قوبل بما يحفُّ به على جانبي الوادي من الاشجار المتسقة على شكل الدرج ومن الصخور المختلفة الالوان وللبنان شعابٌ تصل بين منعطفيه منها المناقب يتوقَّلهـا المسافر فيجتاز وسط الجبلين او الربونين متّبِعاً للمعرجات الوادي ومنهـا الشنايا والعقبات تسير بين الجبلين المنتصبين على متون مرتفعة . مثال ذلك العقبة التي بين العاقورة وأفقا التي تُدعى ثنية المنيطرة وتعدّ من اقدم مسالك لبنان ومنافذهم بيد ان مثل هذه الشنايا قليلة في لبنان لاستواء خطّ قسمه الاوسط في الارتفاع . فانّ السائر لا يتبطّن الغور بل كثيراً ما يجري على جانب الوادي او على ظهر الجبل . وفي بعض المجازات كجهاز الباروك وصتين وجبل الارز الذي يبلغ علوه ٢٦٠٠ متر ليس فرقٌ يذكر بين الجبل وطريق السابلة

٢ منطقة الثلوج المخلدة في لبنان

ان اسم لبنان يُشعر بيباض قمه فانه مشتق من اصل سامي « لبن » ومعناه الجبل الابيض ليس كما زعم البعض لاجل صخوره الكلسية التي يتركّب منها بل لما يتوج رأسه من الثلوج الغراء . فانّ هذا المنظر في بلاد تنقذ فيها وغرات القميط كان من شأنه ان يؤثر في حيّلة الالمم البائدة

ومع هذا ليس في لبنان رأس يبلغ منطقة الثلوج المخلدة . وكذلك المناجح الجليدية المتجمدة فلا اثر لها اليوم . وغاية ما يلقاه المسافر في اعالي جبل الارز مدى احواض في أمن من الشمس تترامك فيها كميات وافرة من الثلج تبقى فيها حتى في معظم حرارة الصيف . وهذه المستودعات لا تُرى في قمة جبل المكمل الذي يبلغ ٣٠٠٠ متر لكن في منعطفاته المعتزلة عن اشعة الشمس . وكذلك في صتين وفي جبل المنيطرة بعض احواض مستديرة لا تعمل فيها الشمس لا لارتفاع الجبل لكن لكثافة الثلوج المتراكمة . وعلى رأي علماء الطبقات الارضية لا ينقص لبنان الا مئة متر ليبلغ علو الجبال الخالدة الثلوج التي لا يذوب ثلجها صيفاً مع شتاء لارتفاعها وقلّة حرارتها

ومن تفرّع الجبل من الجنوب الى الشمال وجد الجبل يتزايد علواً وكذلك يتسع عرضاً . ولوتأمل الناظر من علو الجوّ عرض لبنان بين صيداء ومشغرة لوجده لا يزيد عن ٢٩ كيلومتراً وهو يبلغ بين بيروت وقبّ الياس ٣١ ك وم معظم اتساعه بين طرابلس وهرمل ٤٦ ك . فيكون لبنان على شكل مربع منفرج عن زاويتيهِ العليويّين

٣ وصف قُصَم لبنان

ليس بوسعنا ان نصف كل قمم لبنان المختلفة وتفرعاته المتعددة وانما نذكر منها
اخصها ليكون القراء على بصيرة من امرها

يبتدى لبنان جنوباً عند الوادي العميق الذي فيه يسيل الليطاني وعليه تشرف
قلعة الشقيف في علو ٦٧٠ متر من سطح البحر. ثم لا يزال في تصاعد حتى يبلغ ١٠٣٠
متراً عند جبل جرمق ثم يتصل بجبل ريجان الذي به دُعيت احدى مديريات لبنان.
واعلى قممه هناك ١٦٤٣ متراً. ثم يزيد علواً عند قرنين محددين يدعيان توامات نيعا
(١٨٥٠ متراً) يراهما البحارة عن بعد وكانوا الى القرن الثامن عشر يستدلوا بهما على
موقع صيدا (١)

ثم يرتص الجبل وينضم الى بعضه متواصلاً فيسير قطبهُ المركزي على خطٍ متساوٍ
كأنه جدار احمود لا نبت عليه فذاك جبل باروك وفي آخره وهدة ظهر اليبدر
(١٥٤٢ م) تقطع لبنان الى نصفين وهي نقطة مهمة للمواصلات بين النحاء الشام
وفيهما تمر طريقي دمشق والسكة الحديدية التي جعلت لبيروت مقاماً راجحاً في سورية
على انه اذا كان هذا المضيق يقسم لبنان الى قسمين متساويين على التقريب
فان بين القسمين اختلافاً كبيراً في الهيئة فان القسم الشمالي يأخذ في الانبساط وتتسع
انجاده حتى تبلغ عدة اميال. منها نجد جبل الكنيسة (٢٠٣٢ م) ونجد صنين
(٢٦٠٨ م) الذي على شكل مثلث عظيم فيه الشرفات والاغوار والادوية يلوح لمن
يرقبه من سهل البقاع كأنه بحر عجّاج. اما من جهة بيروت فينتصب هذا الجبل مع
قرنيه الشاهقين فيخالب الابصار بجاسمه ووفرة مناظره

وصيّين في علوه ثالث جبال لبنان بعد جبل المنيطرة وجبال الارز. ويبعد عن
هذه الاخيرة ٢٠ كيلومتراً بينهما جبل المنيطرة المتنازع بشعبته المستطيلة (٢٩١١ م)
وفي منتهاها مجاز ظهر القضيبي يمر به السفّر من وادي قاديشا الى بعلبك

ثم تبتدى اعلى قمم لبنان ومجموع جبال الارز الذي يلوح للناظر من طرابلس او
من البقاع كأنه سور منيع قائم كالعمود. وهو في الحقيقة نجد واسع مساحته ١٠٠
كيلومتر مربع وفيه سلسلتان متوازيتان مختلفتان وجهتهما من الشمال الشرقي الى الجنوب

الغربي طولها نحو ١٥ كيلو.تراً فيها شعوف ورؤوس متعددة لم يضبط حتى اليوم قياس علوها رأس ظهر القضيبي وجبل المكمل والقرنة السوداء وتيارون فتري الجغرافيين يحددون هذه الشرفات حدساً فلا يتفقون بالقياسات كما ذكرنا سابقاً في بحثنا عن خرائط لبنان (راجع الصفحة ١٠٦) . وبيننا هناك سبب هذا الاختلاف كان القائد منسل والضباط الانكليزي اقتاسوا علو هذه المشارف بطريقة الرسوم المثثة . وتبعهم الضباط الفرنسيون سنة ١٨٦٠ في خارطة البعثة الفرنسية دون ان يفيدونا عن طريقة اقيستهم . ثم اورد الجغرافي ر . كيبرت في خارطته قياسات مخالفة للاقيسة الشائعة قبله اخذها عن خارطة الخواجاع . طعمه وافادنا عن سبب استناده اليه في رحلة البارون فون اوپنيم (٤٠٦ : ٤٠٧) قال : « انه فضل هذه الاقيسة لان صاحبها نالها بواسطة ميزان البارومتر الزبقي وهي توافق اضبط الاقيسة دون ان نتحقق ما بينهما من العلاقة » . وهو قول بين المدح والانتقاد يجعلنا في ريب عن صحة هذه الاقيسة واستتلاها . والحق يقال ان في خارطة المسويكيوت اوضاعاً غريبة كجعلها مثلاً حماناً فوق عين صوفر . وعليه فائنا نفضل مقاييس المهندسين الانكليزي والفرنسيين اذ كانوا مجهزين بالادوات المضبوطة لاتخاذ هذه الاقيسة وهم يجيدون استعمالها فدونك بعض امثلة لهذه القياسات لتعرف ما بين الجغرافيين من التباين : ١ تؤمات نيجا . الحساب الشائع ان علوها ١٨٥٠ متراً اما دينر فانه يحسب علوها ١٧٨٠ م = ٢ المضيق بين جبل الكنيسة وصتين . تتراوح الاقيسة بين ١٧٥٧ م وهو عندنا الاصح و ١٥٠٠ م = ٣ صتين يجعل برتون علوه ٢٧١٢ م وكيبرت ٢٧٥٠ م . والباقيون ٢٦٠٨ م وهو الارجح = ٤ جبل الارز اعلى شرفاته القرنة السوداء ٣٣٦٠ م (عن ر . كيبرت) ثم تيارون ٣٢١٥ (عنه) وهي اقيسة بالغة لم تجدها في غير خارطة كيبرت . وقد سبق ذكر سندده في روايته اما اصحاب الخرائط الاخرى فائهم جعلوا ٣٠٦٦ متراً لقياس أعلى مشارف الارز وهي ايضاً ارفع قمم لبنان . الا ان برتون قد زاد شيئاً على قياس اسلافه وهو مع ذلك لم يبلغ قياس كيبرت وليس لدينا داعي لجعلنا على بند قياسات الأولين . وبعد هذه الملاحظة في اقيسة مشارف لبنان فلنواصل وصف الجبل . فان جبل الارز شمالاً يهبط نحو ٨٠٠ م فتتصل به سلسلة جبل عكار (٢١٣٩ م) وطولها ٤٠ كيلومتراً تنتهي شعبها الاخيرة عند وادي النهر الكبير الذي يحد لبنان في شماله كما

يحدهُ الليطاني في شرقيه وجنوبه والعاصي في شماله الغربي والبحر في غربيته
ولوادي النهر الكبير شأن خطير في التاريخ والاقتصاد . فإن الطبيعة نفسها قد
اختطت هذه الطريق فأنها الوحيدة من الاسكندرونة الى حيفا حيث يمكن قطع
الجبل بسهولة . لأن النهر وبقية العوامل الطبيعية قد بسطت في هذا المكان وادياً
منسهماً قليل الانحناء لا يتجاوز اعلاه ٥١٠ امتار . وفي طرفيه سهلان احدهما شرقي وهو
وادي العاصي ينفذ من شمال سورية الى دمشق اوسهل البقاع والآخر غربي ينفذ الى
البحر . ولذلك قد اسرعت الاهم فابنت المدن العامرة على طرفي هذه الطريق الطبيعية
فشيبت شرقاً حمص او مدينة قدس القديمة التي خلقتها لاذقية لبنان . ومن جهة البحر
بُنيت سيمرة التي تعدد ذكرها في مراسلات قل العارنة ثم عرقة وارواد في الجزيرة
المعروفة باسمها واخيراً طرابلس . وقد نالت كل هذه المدن من الحضارة سهماً فاثراً
لأن طريق التجارة كانت تمر بها منذ العصور الحالية . وان كانت طرابلس لم تزل حتى
يوماً هذا مدينة معتبرة وتريد كل يوم ترقياً فإن الفضل في ذلك لموتها في طرف هذه
الطريق التجارية واذا ما اوصلتها يوماً السكة الحديدية بداخل البلاد وهو امر قريب
المثال كما رأيت اضحت مجارية اميروت تبارتها في تجارتها ونفوذها

*

هذا وما يستحق اعتباراً في درس هيثة لبنان واحواله الجغرافية صخوره التي
يتركب منها . فإن هذه الصخور كما سبق القول اغلبها من المركبات الكلسية . والمعلوم
ان الحجارة الكلسية كثيرة التفتت تعمل فيها العوامل الجوية فتحللها ولذلك تراها
منخورة متقطعة ذات نخاريب وثقوب عديدة كأنها الغرابل . وبعض هذه الصخور
متراكمة بعضها فوق البعض فيها الشقوق والتخاريم والشرافات يظنها الناظر من بعيد أنها
بقايا ابنية قديمة . واذا رقيت اعالي لبنان من علو ١٠٠٠ متر الى ١٥٠٠ م وجدت من
هذه الصخور الغريبة ذات التخاريم والشرافات ما يزيدك اندهالاً خصوصاً قرب افقا
وريفون وعجلتون ومزرعة كفرديان وتثورين . وهي قليلة تحت علو ١٠٠٠ م واذا فرمت
الجبل فوق علو ٢٠٠٠ متر لا تجد منها شيئاً لأن البرد الذي لا يزال في اكثر السنة
قياسه تحت الصفر لا يحلل الصخر بل ينفذ في قايها ويشقها شقاً قديراً قطرها تعمر كل
قمم الجبل حتى انها في بعض الامكنة تتراكم كأن السائر في وسطها يجري في مقطع .

من الحجارة

وكذلك للصاعدة في هذه الثمن فعل انوار الانواء في اعالي الجبل . والصاعدة فضلاً عن ضرباتها وسحقها للصخور تحرك الرياح والهواء بتوجاتها فتدوي لها الاودية وتتأثر منها جروف الجبال فتتخسف او تنساقط . واذا اضفت الى عمل الصواعق فعل الزلازل وفعل المياه في سيلانها فهت كيف يندك الجبل اندكاً كما ويتقوّض فتتحدّر جنادله الى الاعماق جارفه في مسيرها التربة والنبات

فكل هذه العوامل للخراب تقرب الى الفهم رأي العلامة ديزر في تركيب لبنان (١) حيث يقول انّ علو لبنان كان في الاعصار السامة السابقة لعهد التاريخ اعلى منه اليوم بنحو ٣٠٠ متر فلم تزل دواعي الدمار تسجوه وتجرف تربته الى السهول حتى صار على ما هو اليوم . وهذا امر محتمل فافترض انّ في كل جبل تجرف عوامل الطبيعة خمسة امتار من رأس الجبال فلا يثبت ان يصحّ حساب ديزر . وان كان هذا القول صواباً ادركنا صحة قول الأقدمين بان جبلنا كان سابقاً متوجاً بشلح مخلدة فدعي لهذا السبب بلبنان اي الجبل الابيض

ومن مفاهيم هذه الجروف المائنة المغاور والكهوف التي يمتاز بها لبنان . فان الطبقات الكلسية الاقنية الشكل او المنحرفة انحرافاً خفيفاً كثيرة في الجبل يعترض بينها شقوق او اقسام مختلفة التركيب والصلابة بينها قطع سريعة التفتت وشبكة الانحلال . فاذا جاءت العوامل الخارجية جرفت الاقسام الضعيفة الباطنية وتركزت الطبقة الكلسية العليا فاضحت الصخور على شبه السقف . وهكذا كانت قديماً تلك المآوي الاولى التي كان يسكن تحت ظلها السكان الاقدمون . وبعض هذه المغاور قد احتقرتها عوامل الجو والمياه معاً اذ تسرّت الى باطن الصخر فأتسكّلت قسماً منها وتركزت وسطها خلواً على صور اغوار واسعة وكان للبعض منها مداخل طبيعية ضيقة فنبتت المياه من داخلها فوسّعته وجعلت لها دهاليز . كما ترى مغارة انطلياس العليا المعروفة بمغارة البلاقي ومغادرتي نهر الكلب اللتين نضبت اليوم مياههما ولا يزال حتى الآن يظهر فيهما اثر الماء

وكثرة هذه المغاور القديمة مكن قبائل عديدة من سكنى لبنان في الاعصار الحالية

كما اثبت ذلك الاب زموئن في المشرق (١ : ٦٧ و ٣٥٣) . ومن هذه الكهوف الطبيعية ما اصلحه الناس وزادوا في توسيعه أما ليتخذوه مدافن لموتاهم وأما لياووا اليه مع قطعانهم او ليسكنوه زهداً كما ترى في مغاور الفرزل وعدلون وهرمل (راجع ج ١ ص ١٠٩) . وربما اضافوا اليه البنايات العظيمة فصارت هذه المغاور كقسم من اديار الرهبان كما ترى في قزحياً وقنوبين . ومنها ما زيد في تحصينه فاضحى كالتقلاع المنبوعة مثل قلعة نيجا الشهيرة في تاريخ القرون المتوسطة باسم شقيف تديون . وهي عبارة عن صخر قائم عمودياً على علو ٣٠٠ متر . وفي وسطه كانت عدة كهوف وسعها البناؤون فسكنها الجند ولا يبلغ الصاعد هذه المغاور الا بمرق صعب الارتقاء . وفي هذه القلعة تحصن الامير فخر الدين المعني في القرن السابع عشر كما ورد في تاريخ لبنان . وقد وجدنا في هذا المكان كتابة على اسم الملك الظاهر بيبرس بعد ان انتزعه من ايدي الفرنج

وكذلك تُنسب الى جرف المياه الجسور الطبيعية التي في لبنان . فان للمياه المتجمعة سورة تمكّنها من كل الحواجز التي تلقاها في سبيلها ما لم تجد طريقاً اخرى لتتجيد عنها . فتراها تصدم الصخور وتنخرها في اقسامها الاقل صلابة فتفتح لها مجرى يتسع يوماً بعد يوم حتى تجري في مسيل واسع وتبقى الصخور الصلبة فوقها على شبه جسر طبيعي . وطبقات هذه الجسور التحتائية كثيراً ما تسقط لضعف دعائمها التي تجرفها المياه ولتسلط العوامل الجوية عليها . وهكذا ذهب الزمان بقسم من تلك المعابر الطبيعية التي كانت تجمع بين معاطف اودية لبنان وتجري فيها السيول الجارفة . وانما بقي منها بعضها الآخر

فمن هذه الجسور معبر طبيعي ليس بمعتبر عند العاقورة وهو عبارة عن صخور ثقتها سيول المياه على شبه القبة . واعظم منه شأناً الجسر القريب من نبع اللبن المعروف بجسر الحجر تراه فوق الميل كالقوس العظيمة وهو يمتد على علو ٦٠ متراً وطوله ٣٠ م في عرض خمسة امتار . ومن نظر اليه عدّه طرفة من طرف الدهر قد شادته الطبيعة وجعلته كآية من آياتها التي تسبي القلب بعظمها وحسن صنعها . وفيه من التناسب والاحكام ما حمل بعض الكتبة على ان يزعموا بان ايدي البشر ساعدت على تركيبه . وهو قول بعيد

ثم يوجد جسر طبيعي ثالث على منعطف لبنان الشرقي يمتد فوق وادي الليطاني الزهبي وموقعه على بعد نصف الساعة غرباً من قرية يحمر في وسط الطريق بين جزين وحصياً. وهو حتى اليوم معبر للسابلة بين القريتين. يدعونه جسر القوة. ونهر الليطاني يسيل تحتها على عمق نحو ١٠٠ قدم وطولها ٢٢ قدماً ومعظم عرضه ٦٨ قدماً ثم يضيق الى تسعة اقدام. وتعلو هذا الجسر طبقة من التربة تنبت فيها الاعشاب والدغل ولنختم هذا الباب بذكر النقطة التي عندها تنتهي المساكن. وهو خط يصعب تحديده لقلّة الاقيسة القانونية الدالة على علو الضياع والقرى. ثم انّ هذا الخط يختلف مع اختلاف احوال الجو فانّ لبعض الامكنة موقعاً حسناً يصونها من هبوب الرياح فيمكنها ان تشاد في معالي الجبل ولولا احسن موقعها لما امكن الاهلين سكناها. وفي اوربة قائمة السكّان الذين يبيتون في القرى فوق ١٢٠٠ متر لا تتجاوز ٣٠,٠٠٠ نسمة. أمّا لبنان فان القرى التي فوق هذا العلو متعددة كبسكنتا مثلاً (علوها ١٤٣٠ متر) وعين صوفر (١٣٠٠ م) والعاقورة (١٤٠٠ م) واقل منها الضياع التي فوق ١٥٠٠ م وهي عيناتا (نحو ١٧٥٠ م) واليمنية (نحو ١٥٤٠ م) وعزرتة قرية صغيرة شمالي غربي زحلة (١٥٤٠ م) (١). وفي الجبّة قرى عديدة علوها قريب من ١٥٠٠ م كاهدن وبشري والحدث. أمّا فوق علو ١٨٠٠ متر فلا تجد الا أكواخاً ومآوي للرعاة وربما تختلف الكتابة في تعيين العلو لاختلاف مواقع اقيستهم في القرية نفسها. ومن المعلوم انّ بعض القرى تشغل في الجبل نحو ١٠٠ م بين اسفل دورها واعلاها. أمّا النقطة التي ينبت فيها النبات فهي كما لا يخفى اعلى من نقطة المساكن البشرية فانّ بعض مزارع لبثان موقعها على علو ١٨٠٠ م بل ٢٠٠٠ م الا انّ هذه المزدراعات الاخيرة لا تكون الا في الاودية والاغوار التي هي بمزّل عن الرياح. وتري في هذا الارتفاع شجر البلوط العادي الكبير الاثمار وشجر البطم البرّي والشوح والخوخ البرّي. ولبعض شجر العرعر ضخّم عظيم وطول باسق. واشهر اشجار لبنان الارز الذي موقعه على علو ١٩٢٥ م

(١) يزعم لورته في كتابه سورية الحالية (ص ٦٣٤) انّ علو عيناتا ١٨٠٠ م وعلو اليمنية ١٦٥٠ م لكنّ هذه اقوال تخمينية لا يُستند اليها. ويجعل كبيرت علو عيناتا ١٦٨٠ م واليمنية ١٤٤٠ م وهذا دون القياسات المقبولة. (راجع مقالة للاستاذ الاميركي وست PEF, l. c., West)

١٠

مياه لبنان ورسم مجاريها

ليس هذه المرة الاولى نبعث عن مجاري المياه في لبنان . فأننا في كلامنا عن عين افقا (راجع ج ١ ص ٥٠) ألمنا الى هذا الامر . لكن خطر الموضوع يحدو بنا الى ان نخصص له فصلاً اوسع مهد اليه العقول رُسُننا لأنجاد لبنان واغواره . وليس بجشنا الحاضر جغرافياً محضاً بل عملياً ايضاً واقتصادياً . فان المياه في البلاد الحارة من اعظم عوامل الاقتصاد كما سترى . ودرُسنا هذا لِمَا يساعد على بيان النظام العجيب الذي وضعه تعالى في الطبيعة لموازنة قواها . ولولا ذلك لظنَّ الناس ان هذه الجبال المشاهقة رُبَّما كانت كحاجز يعوق المواصلات بين الاهلين او اعتبروا هذه مجاري المياه التي تندفع احياناً كسيول جارفة طامية حدوداً لنشاطهم ودماراً لاعمالهم . ولو تروّوا لأدركوا ان الجبال والمياه معاً أخرى بان تُنظّم بين العوامل المساعدة للحرء اللهم اذا عرف ان يستخدمها لصالحه

وبجشنا هذا يتناول ثلاثة فصول : أولاً رسم عيون لبنان ثم رسم انهاره واخيراً رسم المياه والشواطىء البحرية

١ رسم عيون لبنان

نقسم هذا الفصل ايضاً الى ثلاثة ابواب فنبيّن كيف تكوّنّت هذه العيون في لبنان ثم نعدّد صنوفها المختلفة ونختتم بذكر الجداول السارية في اسراب الجبل

١

كيف تكوّنّت عيون لبنان

تصدر عيون لبنان من مياه السماء التي تجود بها الطبيعة على بلادنا فتغمرها بها امماً بهيرط الامطار الغزيرة واماً بنجرائن الثلوج المكتنزة في اعالي الجبل كما سبق . والارض ترتوي من هذه المياه الغائرة في كبدها فتتشرّبها لقابلية ترشّحها ولولا ذلك لانحدرت هذه المياه زاحرة كالسيول الجاحفة في اَبان العواصف والامطار الغائضة ودفعت في مسيرها التربة بل سحفت الحصى واقتلعت الحجارة فقلبت البلاد ظهراً لبطن حتى انها

في بعض الاحيان تميّز بزمان قليل صورة الامكنة ووضعها الجيولوجي . وليس كذلك والحمد لله عمل المياه الداخلة الى قلب الارض فانها اذا نفذت في باطن التربة صفت وتتخلّصت من كل الاجسام الغريبة التي اجتذبتها ثم تروق بالتدرّج وتأخذ من الطبقات التي تجتازها حرارتها وتخلّل ما تجد فيها من الاملاح القابلة التحليل ولا تزال تتحدّر وتنضب الى ان تبلغ طبقات الارض التي لا تخرقها المياه فتسبح فوقها حتى اذا وجدت لها منفذاً تبجّست منه عيوناً

ونفوذ الامطار في بطن الارض يجري على طرائق شتى على اختلاف طبيعة التربة فاذا كانت الارض نباتية لا يبلغ الماء اعماقها لاسيما اذا سحّ الطر وتزل شآبيب وكان وجه الارض مع ذلك مائلاً بحيث يسهل السيالان . ومن عادة التربة الزراعية المتركة من بقايا النبات والحيوان ان تمتص كمية عظيمة من المياه لتغذي بها النبات . فترى من ثم عظم شأن التربة الزراعية في الفلاحة . ومما تغور فيه المياه بسهولة الطبقات الرملية المختلطة بالحصى . وليس الحواري والصلصال كذلك فان الماء لا يخرقهما للزوجتهما وانضمام اقسامهما فيجتمع فوقهما امّا في الاسراب او في المستنقعات على وجه الارض ويلحق بالنبات ضرراً لتراكمه في بعض الامكنة ونقصانه في أخرى

امّا النبات فقد دلّ المسير الذي روكلو على عماء بالنسبة الى الندوة . فانه بعد اخذ نصيبه من الماء المتحدّر من الغمام يساعد على نفوذ ما فضل عنه الى اعماق الارض . فاوراق الاشجار مثلاً تخفف وطأة سقوطه بان تصبّه نقطة نقطة على الارض فتبتل به وتتسرّب شيئاً فشيئاً بينا ينحدر قسم آخر من ماء المطر على ساق الشجرة وجذورها فيدخل توّاً في اعماق الارض . وقد لحظ الطبيعيون ان الحلي واصناف النبات التي تنمو فوق الجبال اذا سقطت عليها الامطار او الثلوج رويت ندوة وانتفخت كالاسفنج فحزنت في مطاوي تجعّداتها ماء كثيراً تنال منه التربة حظّها بعد نزوب طراوتها . وفي بعض جبال اسكوسية وارلندة عدد لا يحصى من هذه النباتات يبلغ الماء المخزون في خلال اوراقها واغصانها آلاف الوف من طنّات الماء (١) . ومن هنا تعلم سوء عتي رعية العز في الجبال فانها آفة للنبات وهي ليس فقط تجرّدها من خضرتها التي تزينا ولكن تحرمها من الندى والرطوبة التي تحتاج اليها بلادنا الحارة

هذا والصخور عنها تتمصُّ كالتربة العادية كميات من الماء تختلف على اختلاف شقوقها وتباعد دقائقتها. لا يخرج عن هذا الحكم إلا حجر الصوان المانع وليس منه شيء في لبنان. وجبلنا على عكس ذلك يتركب أجماً من حجارة كلسية كثيرة الصخور والثقوب تنفذ فيها الأمطار كما في غربال. وتحت هذه الصخور عادة طبقات من الصلصال لا ينفذ فيها الماء سهلاً فإذا اجاز إليها الماء نضاً قليلاً ونشأ منه جداول تجري على حسب ميل طبقات الصلصال واختلاف هيئتها بعمل المياه إلى



أن تجد منفذاً تسيل منه إلى الخارج. والمياه التي تنحدر هكذا فوق الصخور الكلسية ومنها إلى الأراضي الصلصالية هي أوفر بالأجمال من سواها لطول مسيرها في باطن الأرض الذي ربما بلغ مئات من الأميال فتدّرها على مدى سيرها المياه المتجلّبة إليها. ومثال هذه الينابيع عين انطلياس وعين نهر الكلب في جبعيتا فإن أكثر مياه مديونية القاطع تجري من الأولى كما أن معظم مياه كسروان الأسفل تجري من الثانية. ومن هذا الوجه يصحّ قول الجيولوجيين عن وفرة هاتين العينين وعن يَبوسة المعاملات الواقعة تحتهما

٢

اختلاف ميون لبنان

يختلف موقع هذه العيون حسب اختلاف الصخور التي تهبط عليها مياه الأمطار. فتري بعضها بعيدة جداً من مهبط الغيوث والبعض الآخر ينبع تُحييت الأمكنة التي نزلت فيها هذه المياه. ففي لبنان عيون لا تبعد سوى بضعة أمطار من قمة الجبل أو نجوده. وهي نِزرة المياه لقلة المساحة التي تجمع ماءها وقصر مسيلها في بطن الأرض أما العيون الغزيرة المياه فإنها تلتبس خصوصاً في الأودية عند لُحف الجبال أو في وسط الأباطح الواقعة تحت سلسلة جبلية فتثال الأولى عيون العاصي الفاضة في سفح جبل هرمل وعيون نهر بيروت ونهر انطلياس ونهر الكلب السائلة في لُحف لبنان أما مثال الثانية التي تتفجّر في وسط السلسلة الجبلية عند وطيّ المشارف الثانوية فالأنهار الجارية في اوسط لبنان كنهر قديشا تحت جبل الارز ونهر ابراهيم تحت جبل منيطرة

ونهر دامور تحت عين زحلتا وكنهري الأولى والزهرانيّ فإنّ كل هذه العيون تتبجّس في سفوح الجبال اللاحقة بالسلسلة الاصلية التي يرتوي سطحها الكلسي من مياه الثلوج والامطار الشتوية فتضحي كخزان لا تنفذ منه المياه التي تسيل الى ان تبلغ طبقة من الصخر الرملي الصلب يُدعى بُرْقة (grès) لا يمكنها اجتيازها فتفتح لها سبيلاً وتسيح على ظهر الارض (١٠) ومن اعتبر مساحة الجبل الذي يُخزن في صخورهِ وارضهِ القاحلة كلّ هذه الكمية من الندوة وهو اشبه بمصفاة واسعة الجوانب بعيدة الغور لا يكاد يمتعّب من وفرة المياه التي تجري بالعيون اللبنانية

فترى من هذا الوصف صدق ما كرّناه غير مرّة وهو انّ لبنان كحوض يكثر في احشائه تلك الانهار الكبيرة وخصوصاً العاصي التي تحيي مياههُ بلاد سورية وتغنيها بما تجديها من المرافق المتنوعة . ومع صحّة هذا القول تجد انحاء عديدة من لبنان في حاجة ماسة الى المياه كجهات البترون والشوف مثلاً . وخصوصاً بعض المعاملات السفلى التي تقتقر الى الماء لا يشرب اهلها الا من الآبار . والعيون في بعض هذه الايلات لا تتجاوز عدد الاصابع كما في جهات البترون والغرب التي لم تحظ بنصيب صالح منها

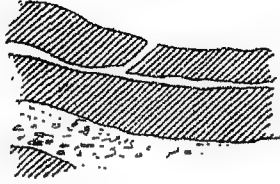
وان سأل القارئ وما سبب هذا الاختلاف اجبناه انه ناشىء عن تركيب لبنان الاصيلي فانّ بين نواحي ثورين وحصرين وبشريّ واهدن المتركة من الصخور الكلسية وبين بقية القائمة المتركة من الصخور عينها قطعة مستطيلة من البرقة ذات الصخور الرملية الصلبة التي لا ينفذ فيها الماء فاذا بلغت المجاري فوجدت امامها هذا الحاجز اندحرت الى الجهات التي تعلوها فتنفجر فيها او نفذت في باطن الارض فتجري في اسرارها وتنصب في البحر كما سيأتي . وما نقوله عن هذه الجهات قد تحقّق بالبحث الجيولوجي وتراءى مثبتاً بالمقابلة في نواحي الشوف حيث تجد ايضاً تحت قشرة الارض العليا طبقة من الصلصال والحواري لا تخرقها المياه (٢٠) وهي حالة يصعب اصلاحها ومن ثمّ فعلى اهل تلك النواحي ان لا يصدّقوا بسهولة اقوال بعض القناقن او بالاحرى المشعوذين الذين يدّعون بمعرفة المياه التي تحت الارض

(١) راجع كتاب العلامة دينر (Diener, p. 129) وخارطته الجيولوجية للبنان

(٢) راجع الخارطة الجيولوجية التي رسمها الاب زموغن اليسوعي في كتابه المعنون « صفة

لبنان الجيولوجية » (Esquisse géologique du Liban)

واعلم ان ما يمكن قوله اجمالاً ان كمية المياه الجارية من العيون تختلف على اختلاف غزارة الامطار . بل ترى بعضها لا يظهر الا في فصول السنين الكثيرة الامطار
اما العيون الثابت جريها فان كمية مائها ليس بثابت . وكل يعلم ان بعض



هذه العيون منافذ ثانوية (estavelles) متعددة هي فوق المنبع الاصلي بل تبعد عنه احياناً مسافة تُذكر وتنفّث عند تواتر الامطار واذا صار الصيف بقي المنبع الاصلي وحده فتكون هذه المنافذ كمصارع

تخفف سورة المياه على العين الاصلية كما ترى ذلك شتاء في وادي نهر انطلياس بين العين الحالية ومغارة البلاي

وما نقوله عن هذه المنافذ يمكن قوله عن بعض المغاور التي كانت المياه تجري فيها سابقاً كمغارة انطلياس مثلاً المعروفة بالبلاي التي موقعها نحو عشر دقائق فوق المنبع الكبير فان هذه المغارة راقية الى الطور السابق للتاريخ وآثار المياه فيها ظاهرة على حضيضها وجدرانها وبما يرى في وسطها من الحصى المصقولة باحتكاك المياه . والمراجع ان قسماً من الصخور في باطن المغارة انخسفت فسدت مؤخر الفوهة القديمة التي كانت تسيل منها المياه . وذلك في اعصار قديمة جداً لان هذه المغارة صارت بعدئذ مأوى لاهل لبنان الاولين كما اثبت ذلك حضرة الاب زموفن في المشرق (١ : ٩٧) . وكذلك مغارة نهر الكلب العلويين . ولعل اجمل هذه الاغوار المائية مغارة نهر بيروت وهي على مسافة ساعة من منبع النهر الحالي . وعلو موقعها يصد عن التوقّل اليها ولكن ترى عند مدخلها آثار المياه القديمة . والتقليد الشائع عند اهل تلك الجهات ان هذه قناة اوسرب يتصل بدير القلعة وهو زعم مردود . وكذلك اخيراً مغارة افقا العليا فانها منفذ ثانوي تسيل منه المياه في وقت الفصول الكثيرة الامطار

هذا وإنه ليصعب احياناً بيان العلاقة الموجودة بين العين الاصلية والمنافذ الثانوية التي تجري على مسافات تختلف عن بعضها بعداً . كما انه لا يسهل ادراك سر اتصال عيين احدهما متواصلة الماء والاخرى متقطعة

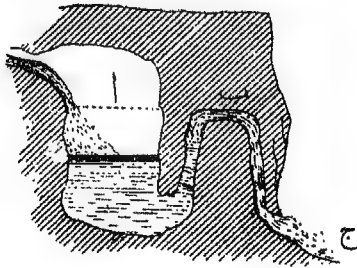
وقد ظهر في ما سبق ان كمية الماء التي تجري مع عيون لبنان لعظيمة جداً وقد قاس منها الجيولوجي فراس (Fraas) ما يبلغ في الثانية اربعين قدماً مكعباً . فعين

جزين التي يتجاوزها غيرها في غزارتها تصب في الثانية ٣٩٠ ليترًا . ومن الامور المقررة ان بعض ينابيع لبنان كانت سابقاً اغزر منها اليوم . فالتاريخ يخبر عن عين العرعر قرب بعبداً انها في عهد الرومان كانت تغني بحاجات مباني دير القلعة وهيكله ولذلك قد ابتنوا لها قناة ترى آثارها الى زماننا مع انها في الوقت الحاضر نزره المياه لا تحتاج الى قناة . امّا في القرون الوسطى فلم تزل كثيرة المياه حتى ان الدويهي يدعوها نهرًا في تاريخ الطائفة المارونية (ص ٩٨) . وزعم صالح بن يحيى في تاريخ بيروت (ص ١٢) انها كانت تجري الى بيروت في قناة . وهو امر لا يمكن اثباته لكنه يبين غزارة هذه العين التي لا تكاد اليوم تحصى في عداد الينابيع اللبنانية

وان سأت الآن عن درجة حرارة العين في لبنان اجبتك ان العلماء لم يبحثوا في ذلك الا قليلاً . وما يقال اجمالاً ان حرارة المياه الجارية فوق علو الف متر هي دون حرارة الهواء المحقق بها (١) . والمياه على قدر طول مجراها تزيد درجة حرارتها الاصلية عند انبجاسها لانها في مسيرها في الاسراب الباطنة الدافئة تأخذ من حرارتها . ولذلك ترى بعض العينون الغزيرة كنسج انطلياس ونسج نهر بيروت قليلة البرودة . فهذه الينابيع وان كانت تتركب من ثلج ثلوج لبنان تنقص برودتها لطول جريانها في بطن الارض تحت سلسلة الجبل الى ان تنفذ الى الهواء فوق سطح البحر بقليل فتصب فيه . وهذا معدّل درجات الحرارة لبعض عيون لبنان بالنسبة الى المقياس المتوي : نسج جزين ١٣ . وكذلك نهر الكلب ١٣ . نسج الباروك ١٠ . نسج افقا ٨ . نسج اللبن ٥ . نسج العسل ٤ .

وفي لبنان عيون كثيرة دورية كما مرّ في

وصفنا لافقا وبحيرة اليثونة (راجع ج ١ ص ٤٦ و ٤٩) . ومثلها نسج عرمتا في جبل الريحان ينقطع مراراً في السنة لاسيما في الربيع فتري مياهه تزيد وتنقص كل نصف الساعة وربما انقطع تماماً ثم عاد الى جريه وسبب انقطاع



المياه على هذه الصورة: ان المياه بعد نضوبها واجتيازها في طبقات الجبل تبلغ الى حوض داخلي ينفذ الى الخارج بمجرى على شكل المص (انظر الصورة ص ١٢٣) فاذا توقفت امتلا الحوض حتى يساوي سطح مائه الخط (١) ثم يزيد ارتفاعه في المجرى المعقف على حسب قاعدة مساواة المائعات في الاوعية المتصلة الى ان يبلغ اعلى نقطة من المص في (ب) فتجري الى (ج) وهو النبع وتسيل حتى تنقص المياه فيهبط سطحها الى فم المص الداخلي وينقطع الماء بعتة ويدوم انقطاعه طول المدة اللازمة لارتفاع سطح الماء في الحوض الى (١) فتعود الى الجري وهلم جرا

ومن الينابيع ما يفور عند تفجره كالنوفرة فيبلغ علواً مختلفاً في الهواء ونظن ان لبنان لا يخلو من مثل هذه العيون وان لم يحضرنا الآن مثل على ذلك . وفي نبع انطلياس تخرج المياه مزيدة بينها شبه فوارات تعلو نحو قدم فوق جملة المياه . وهذا يرى ايضاً في عيون نهر العاصي في لحف جبل هرمل

اما العيون الحارة والمعدنية فان العلماء حتى اليوم لم يفردوا للبنان بحثاً فيها . وجملة ما يقال ان تركيبه الجيولوجي يدل على انها قليلة اللهم الا بعض العيون الداخل فيها كميات مختلفة من الحديد يمكن تمييزها بتلوين مجاريها لان المياه الحديديّة تسود مسيلها عند سيلانها بدقائق الحديد الداخل في تركيبها . اما الينابيع الكلسية فكثيرة يرسب كلسمها حولها او في مسيلها فيتججر ولا يزال يزيد حجماً حتى انه في بعض الامكنة يسد المجرى تماماً

وهو السبب عينه الذي كوّن في بعض الكهوف والمغاور تلك الرسوبات الحجرية التي ترى على شبه العمود . فان المياه بتحبها من سقف المغارة تترك بعض دقائقها الكلسية في الصخر فاذا توات هذه القطرات زمناً مديداً زاد التججر على شبه اساطين (stalactites) ثم ان قطرات المياه بسقوطها على الحضيض تترك قسماً آخر من كلسمها الباقي فيتججر الكلس ويرتفع على شبه الشموع (stalagmites) وربما بلغ الاسطوان المتحد من عل الشموع المرتفعة من اسفل فصار كلاهما كعمد متواصلة (١) . وفي مغارة نهر الكلب من هذه المتججرات كثير ترى في النور الذي يدخله عادة الزوار

الأنها ابهى واجمل في قلب الجبل . وقد اخبر المهندسون الانكليز الذين نفذوا الى باطن مغارة جعيتا في ايلول من سنة ١٨٧٣ ثم سنة ١٨٩٦ أنهم عبروا مجازاً حرجاً طوله عشرون متراً فُضي عليهم اضيق الممر أن يبطحوا على بطونهم ثم اجتازوا في احواضٍ ومجارٍ متوالية حتى بلغوا شبه غرفة واسعة وجدوا سقفاً مزينا بهذه الاساطين المتحجرة البديعة المنظر اما الحضيض فكان مرصعاً بأشكال العمدة الغريبة الصورة

٣

مجري المياه في الاسراب

تتمتةً لكلامنا السابق في عيون لبنان نذكر هنا شيئاً عن جداول المياه في اسراب لبنان لما بين الباحثين من العلاقة اذ ان العيون لا تنبجس عادةً الا بعد قطعها مسافةً في بطن الارض

سبق لنا القول عن وفرة مياه عيون لبنان . فان بعضها اذا برزت من مكانها جرت كأنهار قادرة على حمل القوارب . ويكون تفجرها غالباً في امكنة قاحلة وادوية كثيرة الصخور لا ترى حولها سوى الجنادل العالية والحجارة الصلدة فيؤثر منظر مياهها الرائقة كالزلال في قلب الناظر اذا قابل بين صفاتها ووحشة المكان فتراها تنفجر عيوناً كأنها اسير حلت قيوده فتنشط بحركاته وبرز من محبسهِ الى النور مسرعاً الى الشمس ليتجلبلب بضياؤها . واذا سارت من منبعها اخصبت ضفتيها واحيت ما تمسه من التربة فينبت النبات وينور الزهر وتمتد الاشجار باغصانها النضرة

فهذا رأس النبع في بيروت ومياهه الغزيرة الا ان هذه المياه كما لا يخفى ليست بنات هذه الصخور الجامدة فلا بُدَّ اذاً من البحث عن اصلها في اغوار الجبل الباطنة حيث تنفذ المياه المتجلبلبة من الاعالي فتجتاز في الطبقات الكلسية كما بيئنا ثم تتجمع في الاحواض جارية . ومن الانهار ما يمد مسيله في قلب الجبال مسافات بعيدة تبلغ نيفاً و ٢٥ كيلومتراً منها مثلاً نهر سورغ (Sorgues) في فرنسا الذي ينفذ من حوض فوكلويز . وهكذا ايضاً جبل لبنان فان مياهه تسيل في المجاري الداخلية قبل بروزها الى النور كما ترى في نهري اقفا والكلب المتفجرين من كهفهما

وما قلناه عن طول مجرى نهر الكلب يجوز تأويله أيضاً عن مغارة اققا التي منها خاصة يسيل نهر ابراهيم فان مدخلها في حلف صخور يبلغ ارتفاعها ٦٠٠ او ٧٠٠ متر لها منظر مهيب قل وجود مثله في العالم على قول ريثان والدكتور لورته . وللمغارة شعب عديدة ودهاليز فرعية يصعب عبورها لسعة أحواضها وكثرة مياهها . ولا يبعد يكون اتصال بين هذه المغارة وبحيرة اليثونة وليس بمستحيل وجود سرب طبيعي كهذا طوله اثنا عشر كيلومتراً

ويلحق بقولنا عن المياه الجارية في بطن الجبل مظهر آخر وهو غور بعض المياه في لبنان دون ان يبقى لها اثر والرجح ان هذه المياه تتصل بالبحر فتنفذ فيه جارية بجوار باطنة ومنها ما هو على قدر انهار غزيرة . وهذا امر طالما لحظه الجيولوجيون في السواحل البحرية لاسيما التي تتدكّب من صخور كلسية

ومن تتبّع ساحلنا الفينيقي وجد في بعض مواقع عيوناً تلعب على سواحل سطح البحر وقرب بيروت منها عين غربية موقعها تحت كلية الاميركان لا يكتفي البعض من ان يشربوا من مائها بل يكرمونها ويوقدون فيها الشمع تدنياً وينسبون اليها القوات العجيبة وهي تُدعى عين المُرَيْسَة . ومنها عيون أخرى فوق الجبل الصغير المعروف بالدور حيث تلعب المياه ولا تزال تحفر الكائنات التي اقامها المهندسون لسند السكة الحديدية المتصلة بالمرافأ

وبعض هذه العيون تُرى آثارها في وسط البحر كعين ارواد الشهيرة التي تُرى قريباً من جزيرة ارواد . واهل تلك البلدة اذا صعب عليهم الوصول الى البر استقوا منها لشربهم . ولا ريب ان مياهها جارية اليها من جبل النصيرية . ولو بحثنا لوجدنا غيرها في جوارنا اكثر منها عدداً لان مياه لبنان اغزر من مياه جبل النصيرية . ولدينا مثال قريب منّا عند محطة المعاملتين نريد العين المدعوة نبع مار يعقوب تُرى في البحر على بعد ٢٠٠ او ٣٠٠ متر من الساحل . واذا كان البحر هادياً لاحت فائرة في وسط النمر وتبقى مياهها مدة دون ان تمتزج بمياه البحر . ولو بحث المهندسون على وجهه هذه المياه لامكنهم ان يفتحوا لها منفذاً في البر فيغفوا بها الساحل ويسقوا بها المزروعات حيث تقل المياه

ان قولنا السابق عن عيون لبنان ليس بمستوفٍ الا انه ينبّه القراء ويستدعي

نظرهم الى البحث في هذا الامر الخطير فيجدون فيه كفهرس لمباحث عديدة جديدة بهمتهم . وليست هذه الابحاث نظرية فقط بل عملية ايضاً كما رأيت في قولنا عن الينابيع البحرية . ولو تفرغ اصحاب المروءة الى هذا الامر لوجدوا وسائل متعددة تمكنهم من مقاومة عدو بلادنا العظيم اعني جذب الارض والقحولة . فان حياة سورية متوقفة على كثرة مياهها وحسن تقسيمها . وهذا امر غاية في الخطر لترقي الاقطار في اسباب العمران والاقتصاد والثروة . ولو وجد الاهلون مياهاً غزيرة لزادت همتهم ونالوا من الغلال ضعف ما يحصلون عليه اليوم

لكننا نتأسف على قلّة العلماء الذين يتفرغون لدرس المياه اللبنانية . ولا ترى في اوربة بلدًا الا وفيه كثير من الجيولوجيين الذين يخصصون المياه بنظرهم . وهذا عذرنا لديهم ان وجدوا كلامنا قصيراً في هذه المادة . وانما املنا ان مقالنا تستلفت انظار بعض الخواص فيعيرون بالآ هذا الامر الخطير بدلاً من سعيهم وراء امور اخرى لا طائل تحتها

١١

رسم المجاري النهرية في لبنان

١

افادات عمومية

باي اسم ندعو مجاري المياه في لبنان أندعوها انهاراً او جداول او سيولاً فقط . ذلك ليس بامر سهل لولا ان العادة قد غلبت على السن القوم فيدعون بالنهر مسيل المياه عموماً فيقولون نهر بيروت بل يقولون نهر انطلياس مع ان مجراه لا يكاد يبلغ خمسة كيلومترات وسبب ذلك ان العرب لم يعرفوا في جزيرتهم الا المياه الجارية في بعض فصول السنة وخصوا اسم النهر بتلك الادوية والمياه الجارية جرياً متواصلاً بلا انقطاع سواء قبلت البحر او تنصب في نهر آخر (١) فما يبقى لنا سوى ان نجاري العادة المألوفة التي لا تخو من سند كما اشار الى ذلك

(١) وقد افرز كتبة الصليبيين بين هذين الصنفين فان غليوس الصوري يدعو باسم « rivus » كوايدي المثلثين وسمى الانهار كنهر الكلب « fluvius »

اليزاي روكلو في كتابه عن الارض حيث قال (ص ٣٥١) : ان كمية المياه التي تجري في مسيل دون آخر لا مرّ عرضي يختلف في قارة دون أخرى وفي بلد دون بلد على مقتضى خطر مجمل المجاري المائية فلو اعتبرت مثلاً بعض انهار اوربة وعارضتها بانهار اميركة كالامازون وما ينصب فيه من الاودية لما استحقت بان تُدعى جداول . ثم ان كمية المياه ليست بثابتة بل تختلف على مدار السنة . وبعض الانهار التي كانت في سالف الازمنة على سعة نهر الميسيسيبي قد صارت بعد التقلبات الطارئة على سيارتنا « انهاراً بلا ماء » لانّ للانهار كما للانسان حياة فتنشأ وتزخر ثم تنقص وتتلأشى . اه ولا ريب في انّ الانهار اللبنانية كانت في سالف الاعصار وعلى الاقل في الاطوار السابقة للتاريخ اعظم منها اليوم واكثر ماء . وكفى دليلاً على قولنا ان ننظر احواض هذه الانهر الفسيحة وسعة مسايلها القديمة . فانها تنهي صريحاً باقتصار مجاري مياهها . وربما وجدت في اعالي الاودية مغاور يعلو بعضها البعض كانت المياه تتنجس منها فمن فحص هذه الاغوار وسعتها وآثارها الباقية تحقّق ان كمية المياه كانت اوفر منها اليوم وما يقال عن نقصان مياه الانهار اللبنانية في الزمن السابق التاريخ يرجح ايضاً اثباته على رأينا للقرون التاريخية . والشاهد على صحة قولنا ما تراه من الحواجز وسدود الانهار التي تكونت عند مصابها في العهد التاريخي وكذلك السهول المجاورة لهذه المصاب فانها تاريخية العهد . وكانت هذه الانهر قديماً بعد خروجها من الوديان التي منها نبتت تبلغ البحر تواء . وكان لا بدّ لها لبلوغ البحر من كمية عظيمة من المياه ليسكنها ان تظفر بما تلقاه في وجهها من العوائق كمقاومة الامواج البحرية ومهبّ الرياح ورُكام الرمل الذي تنقله السواقي

ولدينا ادلة اوضح على كثرة مياه بعض المجاري المائية . ان قناة الرومانيين عند نبع نهر بيروت تدلّ صريحاً على ان اصل هذا النبع كان ثمة في الاعصار الاولى لتاريخنا . وكذلك قد قاس العلماء كمية المياه التي كانت تجري منها فقدروها بمرّ مكعب في الثانية وذلك دون ان يصيب المزدروعات اذى من قلّة السقي . اما اليوم فلو استقى البيروتيون كمية كهذه من ذاك النبع لفقدت السهول المجاورة ريفها وجفت فلا بدّ اذن من القول بان مياه نهر ماغوراس وهو لقب نهر بيروت قديماً كانت اغزر منها اليوم

هذا ثم انّا اوردنا سابقاً (راجع ص ٩٨) قول اسطرابون بخصوص لبنان والجبل
الشرقي ويُنَبِّئنا انّ هذا الجغرافي الشهير وَهَمَ في تعيينه وَجْهَهُ هذين الجبلين اذ زعم
انهما يسيران من الغرب الى الشرق بدلاً من الشمال الى الجنوب وبينهما سهول البقاع
التي أوصَلها بالبحر وكان يحسب ان الاردن ونهر الكلب يجريان فيها . وأدّى به وهمه
هذا الى ان ظنَّ بإمكان خوض نهر الكلب والسير عليه بالمركب . ولعلّه يوجد حَجَّة
لندافع بها عن قول اسطرابون وهي انّ مياه نهر الكلب كانت في سالف الاعصار
اوفر منها في زماننا . وهذا ممّا يابح من الطرق التي تُرى في مضيق نهر الكلب راكبة
بعضها فوق البعض واقدمها طريق المصريين والاشوريين تعاو فوق الطريق الحالية نحو
ثلاثين متراً . ثم جاء الرومان ففتحو طريقاً اخرى تحت الاولى ببضعة امتار كان السابِلة
يجرون فيها الى زمن ترشيد العربات وهي ايضاً فوق سطح البحر بنحو عشرين متراً كما
ترى في صورتنا . فليت شعري كيف يقال انّ القدماء اختاروا لهم طريقاً في هذا العلوّ
لينقلوا اليها عددهم الحربيّة وامتعهم بعد العناء لولا ان يقال انّ مياه النهر كانت
اغزر منها اليوم . وعليه فان كُنّا لا نوافق اسطرابون في قوله عن خوض نهر الكلب (١)
فلا بأس من القول بأنّ طبقة مياه هذا النهر كانت اعلى منها في عهدنا وكميّتها اوفر .
وزد على ذلك انّ سطح البحر قد انخفض بتأدي الاجيال كما سترى

و خلاصة الكلام انّا لا نخالف الجمهور في تسمية مجاري المياه اللبنانية بالانهار
وان شاء القراء امكنّا ان نقسمها قسمين الانهار الساحليّة والانهار البريّة . فالساحليّة ما
كانت اوديتها محصورة قليلة الاتساع واكثر انهار لبنان من هذا الصنف الا النهر
الليطاني والنهر الكبير فيدخلان في حيز الانهار البريّة وهما ينبعان في اواسط البلاد ما
وراء سلسلة لبنان العليا . ومن عاين خارطة لبنان تحقّق لأوّل وهلة ان هذا الجبل لا
يحتل لسيّر مياهه مجاري كثيرة الاتساع طويلة المسافة . ولو نظر الناظر من علّ لما
قاس بين ضلع لبنان المركزي وساحل البحر اكثر من ثلاثين كيلومتراً وكذلك في
حلف الجبل لا ترى سهولاً فسيحة رحبة الارحاء يمكن الانهار ان تنساب فيها وتأخذ
مداها في التعريج والتوريب كما انّ الاودية اللبنانية وكلها على خطّ متسار قائمة على

قطب الجبل لا تتحتمل اتساعاً كبيراً . وفي الواقع ان أكثر انهار لبنان سيول لا يتجاوز طولها بعض الاميال تندفع من اعالي الجبال دفعة واحدة الى البحر . وليس بينهما نهر واحد يمكن القوارب فضلاً عن المراكب الجري عليه . وذلك لكثرة انحدار مسيلها او لما يتوسطها من الصخور وهذا ما منع الملاحين ان يؤوضوا نهري الكبير والليطاني وكلاهما طويل المسير كثير الاثواء كان الطبيعة اعدتهما ليوصلا بين جهات قاصية (١)

*

رُبما اعتاص على الجغرافيين في وصف مجاري مياه البلاد ان يعينوا لكل حوض النهر الاصل الذي فيه تنصب بقية المجاري المائية كأنهار ثانوية . وليس في وصف انهار لبنان مشكل كهذا لما عرفنا من تركيب هذا الجبل ووجهته . والانهار اللبنانية تشبه اجهزة عصبية قليلة الاشتباك تجمع كما في قناة مركزية الرطوبة التي تاتيها بها في فصول الشتاء الجدول الصغيرة الواقعة على جانبيها . اما النهر الكبير الذي يسيل في وادي متسع لا في مضيق كغيره من الانهار اللبنانية فله سواعد تنصب فيه اكبرها وادي خالد يكاد يساري النهر الكبير بكثرة مياهه حتى يبقى الناظر في ريب اي منهما هو الشعب الاعظم وعلى كل حال لا يُنكر ان ينبع وادي خالد اقصى سواعد النهر الكبير جنوباً وبعدها من مصب هذا النهر في البحر . وكذلك نهر الليطاني فلانه يسيل في وادي البقاع المتسع تجدد سواعده الجارية اليه فسيحة لجراها وهي كلها بالنسبة اليه كمجاري ثانوية اذ تنضم اليه في المسيل المركزي . غير ان بعض كتبة العرب قد جعلوا عين جاد كشعب نهر الليطاني . وما لا يُنكر ان مياه نهر الزاعر الذي يجري من هذه العين اوفر من مياه الليطاني التي ينصب فيها . ولكن قد وهم هؤلاء الكتبة بجعلهم عين جاد كاصل الليطاني لوفرة مياهها بدلاً من النبع الأقصى . فان الانهار لا تُجدد بما ياتيها من السواعد بل ينابيعها الاصلية القاصية . ولولا ذلك لعد نهر اليرموك كاصل نهر الاردن لغزارة مياهه وهو يصب فيه . وهذا مذهب لا يسلم به احد

واذا اعتبرنا هيئة مجاري الانهار في مسيرها وجدنا ايضاً ان هذا منوط بتركيب

الجبل فإنّ المياه تجري حسب وجهة الادرية وتركيب الصخور . فلمّا كانت هذه الادرية متساوية ومركّبة من صخور كلسية لا تقوى على سورة المياه سارت الانهار فيها على خط مستقيم . واذا وجدت النهر يعرج في سيره فذلك دليل على اختلاف طبقات المكان الجيولوجية كما ترى في اكواع انهار لبنان الجنوبية كالدامور والاولي والزهراني فانّها بعد خروجها من بين الصخور الصلبة (grès cénomaniien) تبلغ الجهات المركّبة من الصخور الكلسية السهلة الانحلال فتعدل عن الجنوب مائلة الى البحر . وهذا يظهر خصوصاً في نهر الاولى كما ستري

وهنا لا بدّ لنا من الفسات الانظار الى النتائج الوخيمة التي ادّى اليها تجريد لبنان من غاباته بحيث صار هذا الجبل اهلاً بالبوادي القاحلة المجذبة وهو حيّ بان يكون في سورية بمنزلة جبال الالب في سويسرة . وذلك انّ مياه الامطار والثلوج بدلاً من ان تغور في التربة وتنفذ في جذور الشجر صارت تنحدر مسرعة الى اسفل البلاد وهي تجرف في سيرها ما امكنا من التربة والحجارة والصخور وربما هبطت الى الادرية قطع كبيرة من الروابي والجبال بقوة السيول والاعاصرات . ثمّ توالى على الجبل آفة أخرى وهي آفة المعزى والمواشي التي تقطع النبات او تقلع جذوره ففقد الجبل كل تربته الزراعية وانتصبت صخوره المتجرّدة وانفتحت فيه الوهاد العميقة المحجرة التي صارت مجازاً لسيول جاحقة لم تُر سابقاً . واضحى الماء آفة للخراب بعد ان كان نعمة يخصب التربة ويغذي جذور الاشجار بالأملح النافعة التي يحملها . وهكذا تُعلّل تلك الاعاصير الهائلة التي تصيب في كل شتاء بعض اقسام الجبل فتفسد المزروعات وتهدم البيوت والطواحين وتخرّب في يوم ما يُحصّل عليه بعد سنين من التعب . وذلك لانّ اصحاب الارزاق لم يحافظوا في جهلهم على الغابات وقطعوا اشجارها الشينة بغية في الربح فعاد عليهم طعمهم وبالأ

فلملافة هذه البوائق ليس من وسيلة النجوع من نصب الاشجار فانه قد ثبت بالتجربة ان مياه الامطار الساقطة على الغابات لا يسيل منها الا ستة اعشارها فينفذ في الارض ويسيل منها سيلاً منظماً . وكذلك من الوسائط المستعملة للملافة اضرار الاعاصير ومياه الفيضان الاحواض والقنوات لسقي الاراضي وتجرّبك الرياح

والآلات . فيصير بين الطبيعة والاعمال البشرية كتبادل في الخدم . وأنما كل ذلك يذهب سدًى بخراب الغابات والأشجار وكذلك يجب ان ننسب لتجريد لبنان من شجره اتساع مسيل بعض الانهار لاسيما في الجهات القريبة من السهول كما ترى في نهر بيروت ونهر الجوز . فان المياه عند خروجها من مضيق واديها اذا قوبلت باتساع مسيل النهر لا تكاد تبلغ القسم العشرين منه فلا ترى منها الا جدولا صغيرا يجري بين الصخور المحطمة وركام الحصى والرمل . وإن ذلك الا ما جرفته النهر من اعالي الجبل في أيام السيول الشتوية . ولو كان الجبل مغروسا بالغابات لما سجا بهذه التربة ولا زحف امام هذه الصخور بل لبقى في حدوده

وفي الانهار صخور قليلة الارتفاع تعترض المياه فتتحدّر هذه منها مزبدة فتلك الجنادل . والظاهر ان هذه الصخور شلالات قديمة عملت فيها المياه حتى انتقصت بالاحتكاك . وفي انهار لبنان منها كثير لتحدّر الادوية وميلها . امّا الشلالات العالية فقليلة اشهرها شلالة جزين علوها من سبعين الى ثمانين مترا . وتقل مياهها في الصيف حتى لا يبقى نسبة بين ارتفاعها وقلة مائها . وفي نبع اللبن شلالة أخرى ومن خواصها القريبة ان المياه باحتكاك سطحها الذي تهبط منه قد تقهقرت نوعا الى نبعها (١) . وعلى جانبي المياه جدران خرقتها المياه فيمكن بتقدير ارتفاعها قياس عمل المياه وتقهرها مدّة كزور الاعصار . وهذا شبه ما جرى لشلالات نياغارا الشهيرة في اميركة

٢

المصاب والسدود النهرية

وانّ الانهار كما لا يخفى بقدر اقترابها من مصبها تنقص مياهها إما بالتبخر وإما بغيضها في قلب الارض فتبلغ البحر وكمية مياهها عنده اقل منها في مسيرها . وهذا الغالب على انهار لبنان لاسيما نهر بيروت ونهر الجوز والزهراني . وما ينقص مياه نهر بيروت ما يؤخذ منها لسقي المزروعات في السهل . اما نهر الجوز فانه في الصيف ينقطع جريته الى البحر

(١) راجع صورها في كتاب ابرس وغوته (Ebers et Guthe : Palaestina, II, 20)

والانهار اللبنانية كلها اذا صبّت في البحر لا تتسع ضفافها عند مصبها بحيث يتركّب منها خلجان أو جُون بل لا ترى لها اخواراً صغيرة مستديرة . والسبب لذلك أولاً قلة مياهها ثم خصوصاً خلوّ البحر المتوسط من المدّ والجزر . والجون الواسعة تتكوّن بعمل الانهار والبحار معاً وذلك في البحار المفتوحة والسواحل المتعرّضة لقوّة المدّ والانواء فهي نادرة على سواحل سورية لا تثور الا عند مهبّ الريح الشمالية . ومعروف ان كلّ مجاري مياه لبنان تصبّ في البحر غرباً فلا تجد الامواج البحرية قوّة كافية لتوسيع مصبها وحفر قاعها

وليس عمل امواج البحر كعمل المجاري والمدّ في مصبّ الانهار فان هذه الامواج تأتي من غمر البحر منفرجة وتضدم الساحل على شكل زاوية حادة فتقتلع منه حطامه ثم تنقله الى مصبّ الانهار مع ما تأتي به الامواج من الرمل بسيرها الموازي للساحل . فالمجرى النهرى يميل بازاء هذه القوّة العجيبة وينعطف شيئاً فشيئاً ثم يترامك في عرض مسيله حاجز من الرمل مواز للمجرى البحرى . وبعد مدة تتكوّن عند الساحل شبه جزيرة ترى في احد جوانبها الساحل البحرى وفي الجانب الآخر ضفة النهر يفصلان الماء المالح عن الماء الحلو على مسافة عدّة اميال وهي تارة تمتدّ وبارة تتشعب على حسب اختلاف الارياح والمجاري ومدّ البحر

وهذا اصل الحواجز المختلفة العظم من الحصى والرمل التي ترى عند مصبّ الانهار اللبنانية . والنيل عند مصبه في البحر ينقل اليه الوف الوف من طنّات الرمل والطين فاذا صار فصل الشتاء نقلت الريح الغربية هذا المحمول الى السواحل فيتراكم عندها وتزيد بها فرجتها . امّا الباقي فينتقل الى جهات الشمال وتستبدل ما رسب منها في طريقها بما تقتلعه الامواج من السواحل ثم تثور الريح الغربية التي تهبّ على سواحلنا نحو منتهي يوم في كل سنة فتنتقل هذه المواد الى مصابّ الانهار وتدحرجها فيها ولولا معاكسة قوّة النهر المنحدر من مشارف الجبل لسدّها تماماً . على انّ هذه القوّة العاكسة هي دى قوّة البحر الذي لا يزال يقيم سوره الربليّ في وجه النهر ويقويه . وقد لحظ القدماء هذه المظاهر فحسبوها نتيجة القتال الذي انتشب بين اله النهر واله

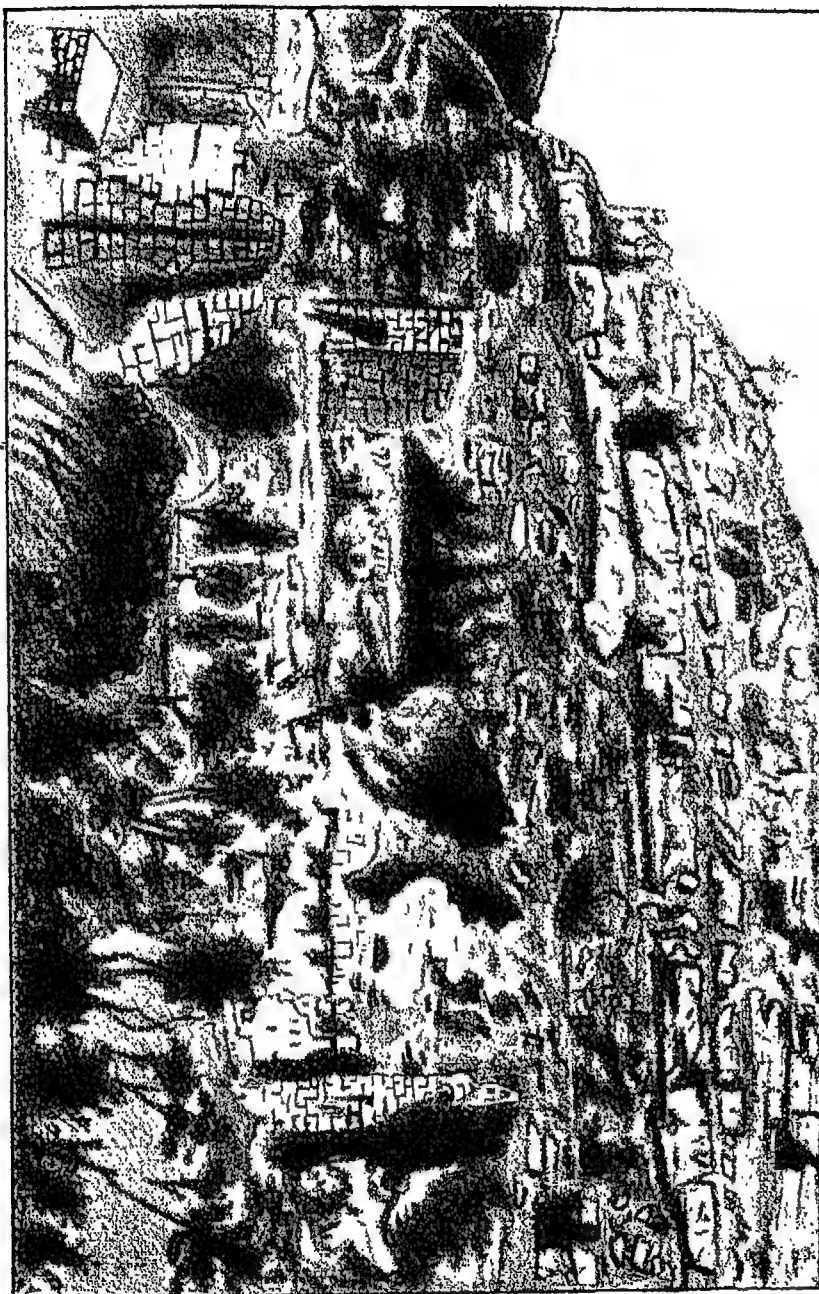
البحر المدعو يوسيدون اذ تراجعا بالحجارة . ويذهبون الى ان الحصى المتكوى عند مصب النهر هو كشاف على هذا القتال المزعوم . وكانوا يجملون خصوصاً موقع هذه الحرب عند مصب نهر الدامور حيث يرى سد غريب الشكل من صخر الحجارة . وربما ساعد البحر في عمله النهر نفسه بما يحرقه من الجبل من الطين وغيره . نعم ان هذه الحواجز غالباً لينة رخوة قليلة الثبات تغير هياكلها السيول الشتوية وتقسمها الى اقسام متعددة الا ان البحر الذي لا يزال سطحه ثابت العلو يقوي هذه السدود ويرصها حتى يحصل من اجتماعها جزائر مثلثة الزوايا كما ترى في الليطاني

واكثر ما يظهر عمل البحر على مصب الانهار عند نهر ابراهيم . فانك تجد بين ساحل البحر والجسر القديم مسافة ٥٠٠ متر وفي هذه الفسحة آكام رملية عليها بعض نباتات من القصب وشجيرات نخيفة ضاوية تدل على ان الفسحة تريد متانة وثباتاً . ومن اعتبار تركيبها وقف على عمل البحر كما انه يتبين فعل النهر في معاكسته . وعندنا انه لمن المرجح كون البحر كان سابقاً يغمر الصخور التي فوقها بني الجسر العربي القديم . وبقية السهل التي بين الجسر المذكور والبحر تتركب من جرف مجاري النهر والبحر المتعاكسة ولا ريب عندنا ان مياه النهر كانت بعد خروجها من مضيق الوادي تنصب في البحر على خط مستقيم على مقتضى ميلها . اذ ليس ثمة حواجز صخرية او غير ذلك مما يعدل بها عن مسيرها والفسحة كلها مركبة من رمل وطين يسهل قطعها . الا ان الرياح الغربية حملت هناك كمية وافرة من الرمل اقامتها كربوة وعدلت بمياه النهر نحو الجنوب فزاد مجرى نهر ابراهيم بتوالي الاعصار نحو الف متر . ولعله كان اطال مسيره جنوباً لولا ما يقوم في وجهه من الصخور المنتصبة على البحر التي تضطره ان يصب في الجون الذي هناك

اماً نهر الدامور فان جرف الرمال البحرية والطين النهري قد تكوّن عند سده الجنوبي وارتفع هذا السد وتمكّن حتى مال بالنهر الى الشمال

ووجود هذه الحواجز يعم كل الانهار اللبنانية حتى ان نهر الكلب نفسه لا يخلو منها رغماً عن موقعه بين الصخور . وهذا النهر يصبّ توّاً في البحر عند رأس شمالي . امّا الضفة الاخرى فلا تتسع اكثر من مئة متر لمجرى المياه . فكان ينبغي للنهر ان يبلغ الساحل بكل قوته بعد خروجه من مسيله الحرج فلا يميل يمينا او شمالاً ومع ذلك ترى

آثار القناة الرومانية عند نهر ابراهيم.



عند مصبه سدًا من الرمل متحدبًا من جهة البحر قائمًا تحت الصخور الشمالية متكربًا من رسوب البحر وجوف النهر

٣

الانهار العاملة

انّ ما سبق وصفه عن نهر ابراهيم والسهل المتكوّن عند مصبه يقودنا الى الكلام عن « الانهار العاملة » كما سمّاها المؤرّخ هيرودوت متلطّفًا . ولا مشاحة فان للمياه الجارية عملاً متضاعفًا فانّها اذا ما اخربت من جانب عمّرت من جانب آخر وما سحّته من احد الامكنة نقلته الى محلّ غيره حيث يرسب ويتراكم بقدر ما حفر وجرف في مسيره . وانّما جرف الانهار ودمارها اظهر للعيان ووقع في القلوب لانّ قسماً كبيراً من المواد الراسبة يخفى عن النظر في عمق البحار

والانهار اللبنانية من الانهار العاملة فانها استحقّت هذا الاسم بما واصلته من العمل منذ قرون متعددة . كان البحر في الاجيال الغابرة يبلغ حلف الجبال فينطحها بامواجه المتلاطمة دون ان يتوسّط بينهما شيء من السهول بل لم يفصل بينهما حاجز من الرمل . فان تغيّرت هذه الحال فانما ذلك من فعل الانهار فهي هي التي اقتلعت من اعطاف الجبل ومنحدر الاودية تربتها وصخورها فدحرتها الى الخليجان والاقوار البحرية التي كانت تُرى سابقاً عند حلف الرؤوس الجبلية الداخلة في البحر فلم تزل تنقلها اليها حتى امتلأ قاعها . وكانت الرياح الغربية تهبّ في تلك الاثناء من جهة البحر فتهميج امواجه فكانت الامواج تندفع الى السواحل وهي حاملة موادّ ترابية وطيناً من النيل المصري ورملاً فتلقّي احمالها في مدخل هذه الخليجان فاجتمع عمل الانهار والبحر معاً وتكوّنت بذلك بعد مئات من الاجيال تلك السدود المجدبة والاكّام القليلة الارتفاع التي قامت بعدئذٍ في وجه البحر وردّت صدماته كما ترى في صورة نهر ابراهيم (انظر الصورة) الذي سبق عنه الكلام . ومن درس سهله الذي لا يزال على مرأى منا يتّسع يوماً بعد يوم ادرك بالنظر ما جرى في سالف الزمان اذ كانت القوى الطبيعية مع العوامل الجوية اشدّ فعلاً منها اليوم . امّا الانهار فجعلت هذه

السدود كميجنّ تعمل من ورائه عملاً متواصلًا ساجبةً من اعالي الجبال ما امكنها من الصخور والطين والحصى والتربة الزراعية مغنيةً بها السهول . فليت شعري أليس هذا عملاً متوازيًا يقوم مقام الخراب والعمران

فعلى هذا المتوال تكوّنت شيئاً فشيئاً تلك المثلثات الساحلية التي ترى عند مصبّ انهارنا والحقول الخصبة التي تمتدّ على ضفاف الانهار في جوار البحر . وهذا تاريخ السهول والحدائق التي تزين الساحل عند جوبيه وصيداء والدامور . والتي في صحنها قامت قديماً المدن الفينيقية العاصرة مع ما يجذب بها من البساتين . وعلى الخصوص ساحل بيروت فأنه ثمة الانهار والسيول التي تجتاز في اوديتها كوادي الشويفات ووادي شحور ونهر الموت ولاسيما نهر بيروت فأنها كلها اجتمعت فأنت بموادها ووجدت في ضعف عملها ما يساعد على اتمامه . امّا سهل طرابلس فأنه لسمته ورحب جوانبه كان يقتضي عملاً انشط واقدر تواطأوا على الشغل واحسنوا العمل نخسّ بالذكر وادي بطران ونهر ابي علي والنهر البارد ونهر عكار والنهر الكبير وهو اعظمها . وكذلك الصخور حيث اليوم اسكلة طرابلس المعروفة بالينا ومسا حولها من الاراضي فإنّ هي الا سهل ترّكب من مجرفات نهر قاديشا وصار لاحقاً بالبر وانما كان في سالف الدهر جزيرة منفصلة عن سلسلة الجزر البحرية التي تسدّ اليوم مرفأ البلدة جنوباً (١)

وباجتماع هذه العوامل المائية ومواصلة عملها على مدى الاجيال نشأت هذه الواحة العجيبة المجاورة لطرابلس . ومن اعتبر تركيبها من الصلصال والمواد الكلسية المنحدرة من الجبل ودقّق النظر في تربتها السوداء اللزجة وما تعالّه تلك الانحاء من الحبوب مع مزروعاتها الخصبة من الزيتون والنخل والتوت وقصب السكر ادرك عظم شأن هذه المدينة وحسن موقعها الاقتصادي كما انه لا يتعجّب ممّا كتبه في شأنها الكتبة الفرنج في القرون المتوسطة اذا اعتدوها كجنّات عدن

(١) راجع وصف لبنان لدينيّر Diener : *Libanon*, p. 110 ثمّ مقالة الاستاذ هول Ed. Hull في المجلة الفلسطينية الانكليزية (PEF, 1885, p. 175) راجع ايضاً H. Prutz of the physical Geology of Palestine, p. 75 وكتاب هـ. برونس : *Aus Phœnizien*, IX

وهي العوامل عينها التي شددت ساعدها واحسنت العمل في جوار بيروت . فإن هذه المدينة كانت كطرابلس وصور وصيدا . جزيرة صخرية تعوم فوق المياه وكان البحر العجاج يبسط ملكه فوق البر الذي ترى فيه اليوم غابة الصنوبر . فلما تحدرت السيول اللبنانية وملاّت هذا الغور بما سحّته من لبنان وساقط مجاري البحر قسماً من تربة مصر الى سواحلنا امتلأ البوغاص الذي كان جنوبي غربي المدينة واتّصلت الجزيرة بالبر . ولنا شاهد حسي على فعل البحر اعني التلّعات الرملية التي جاءتنا من القارة الافريقية فنقلت على قول الشاعر لامرئين « الى لفح لبنان قطعة من صحراء مصر »

وهذه الظواهر الطبيعية انما هي نواميس مقررة استلّفت اليها الانظار ارباب وصف البلدان منذ زمن مديد . وليس ما حدث في سواحلنا الفينيقية سوى مثال مصر لما حدث في الاصقاع المصرية . فان مصر السفلى الى الثلث العظيم المعروف بالدلتا لم يكن في عالم الوجود في غابر الايام اذ كان بحرنا المتوسط يد مياهاه وسيطرته على اسافل تلك البلاد الى سفل جبل المقطم حيث شهدت بعدئذ القاهرة على تركيب شط العرب مثال آخر اقرب عهداً في ازممنتنا التاريخية . فان العلماء بالآثار الاشورية يتفقون على ان اجتماع النهرين دجلة والفرات عند شط العرب انما هو حدث جرى على الأقل بعد الطور الاول من تاريخ بابل وان النهرين كانا يصبان في بحر العجم كل بمفرده لكن مياهما لم تزل تنقل الواسب التي تراكمت فالت بسيرها الى أن التقيا في المسير وجريا في مسيل واحد قبل ان ينصبأ في البحر (١) . وحتى اليوم اذا نظرت الى الطين المنقول بياهما تحمّقت ان ساحلها يزداد كيلومتريّن اتساعاً بعد ثلاثة ارباع القرن . وقد ذكر اليزاي روكلو (الارض ج ١ ص ٤٧٧) خلجاناً من الماء المالح صارت سهولاً بعد مدّة لا تتجاوز حياة الانسان وكذلك مسايل كان يثبت فيه الطحلب اضحت غابات فنوا .

أجل ان سيول لبنان لا تشبه الا عن البعد انهار افريقية وما بين النهرين لكن عملها ايضاً على قدر قوتها فتتألف سهولاً قليلة الاتساع بالنسبة الى وادي النيل وسهول

بلاد العراق (١) بيد أن العوامل واحدة والعمل واحد مع اختلاف سعتيه وعظمه بحيث
يكننا تكرر ما سبق قوله بأن لبنان افاد سوريتة كما افاد النيل ارض مصر
ولذلك ترى كتبة الاسفار المقدسة اذا ذكروا لبنان انطلق لسانهم على مدحه .
قال ريتز (٢) : ان بلاد فلسطين كلها تشخص بالنظر الى مشارف لبنان وجرمون
المكالة بالثلوج الغراء لان منها تأتيها البركة والخصب واذا سمعت الفلاح كما الراعي
والقوال كما النبي والمعلم كما الشاعر رأيتهم جميعاً يستهرون من هذه الجبال المباركة
ابعد ما لديهم من التشاييه واجمل ما عندهم من الرموز «

*

وقبل ختامنا هذا الفصل في انهيار لبنان لا بُدَّ ان نبين بوجيز الكلام ما لبعضها
من الخواص بصفة حدود المعاملات والايالات . فان منها وهو النادر ما يكون
كثير المياه طويل المجرى كالنهر الكبير الذي يحده فينيقية ويفصلها عن سوريتة بمعناها
الحصري اعني بين سوريتة بطالسة مصر وسوريتة السلوقيين (٣) ومثله الليطاني الذي
يحده شمالاً بلاد فلسطين ويفصل بين نواحي صور وصيدا

ولكن اغلب الانهار اللبنانية التي تحده المعاملات انما هي مجاري قليلة المياه وتجري
في اودية عميقة تنتهي عند البحر بمضيق او رأس يقوم مقام القلعة . واحسن مثال على
ذلك نهر الكلب فانه لم يكن حرياً بان يجعل من الحدود لقصر مجراه وقلة عرضه
الا ان مصبة عند رأس تدافع عنه بسهولة شرذمة من الجند فتزدج جيشاً عرمرماً
جعل له خطراً عظيماً في كل الازمنة . وقد كان هذا النهر على عهد الفينيقيين حداً
لاملاك بيروت في الشمال كما كان الدامور جنوباً يفصلها عن املاك صيدا (٤) . واليوم

(١) راجع ايضاً ما كتبه العلامة كلرمون غانو عن تقدّم نهر الاردن الى الجنوب واتساع
مصبه في بحيرة لوط (RAO, V, 277-280)

(٢) Erdkunde, XV, 16

(٣) اطاب بثنان وهولشر . Palaestina in der persischen und hellen Zeit, p.8
Pietschmann, l. c. 40 ; Hoelscher :

(٤) وكذا كان على عهد الصليبيين يفصل الدامور ولاية بيروت عن ولاية صيدا (راجع
كتاب راي في المستعمرات الفرنجية 509 : Rey)

ايضاً نهر انكلب من حدود لبنان يفصل قائمقامية المتن عن كسروان . وقد كان على عهد رمسيس الثاني فاصلاً بين املاك المصريين في الشام واملاك الحثيين . والتَّصَبُّب الذي اقامه هذا الملك عند نهر الكلب انما هو ذكرٌ ودليلٌ معاً على حدود دولته (١) ويوجد مجرى آخر اصغر من الانهار السابقة مسيلاً واقل شأناً يزيد به جدول المعاملتين الذي اتَّخذه القدماء ايضاً كاحد حدود البلاد . وفي عهد القرنين كان الفاصل بين ايلة اورشليم وايلة طرابلس (٢) والسبب ان ضفَّة الشَّالَّة عند رأس حرج ضيق المجاز لم يكن السير فيه الا بنقر الصخر لجواز الطريق الساحلية . وهناك اليوم برجٌ قديم دلالة على ما كان له من الاهمية العسكرية . وشمالى هذا الجدول تبتدى بلاد طرابلس امّا جنوبه فيلحق ببيروت او بصيدا على حسب تقبُّلات الدهر اذ ينتقل مركز الولاية الى بيروت او الى صيدا . ومن هذا اشتق اسم المعاملتين اللذين هو قديم في التاريخ كما يشهد على ذلك الكتبة العرب والرحالون (٣)

ولنا هنا ملاحظة أخرى وهو انك لا ترى على ضفَّة الانهار البنائية لا مدينة ولا قرية مهمّة (ZDPV, XXVII, 114) مثال ذلك حواضر فينيقية كصور وصيدا وبيروت وجبيل والبترون فكان حقيقاً بها ألا تبعد عن هذه الانهار . ولعلَّ السبب في ذلك ان في جوار هذه الانهار وعند مصبها تكثُر الامراض الويدية والحُميات ويفسد الهواء . ثم ان الفينيقيين كانوا تجاراً لا يُعْتَوْنَ بالفلاحة والزراعة ومن ثم لم يُحْتاروا لمدنهم السهول ومجاورة الانهار بل كانوا يفضّلون الرؤوس الداخلة في البحر والخلجان التي تصلح لمرافي سفنهم حيث يسهل عليهم في حصونهم البحرية رد هجمات العدو وركوب البحر وتأمين سفنهم من الرياح وتراكم الرمل ويسهل وسقها بالبضائع . وكل ذلك اوفى بالمرام عند الرؤوس الصخرية . وما يدل على انهم احسنوا اختيار مواقع هذه المدن انها لا تزال في مراكزها القديمة مع ما طرأ عليها من التقلُّبات العديدة وصروف الدهر . بل ترى بعضها تتقدّم كل يوم في معارج الفلاح

W. M. Müller, *Asien u. Europa*, 222 ; Schrader - Winckler, *Keilin-*

schriften, 184

(٢) راجع المجلة الاسيوية (١٩٠٣ ج ١ ص ٢٩٧)

(٣) راجع اخبار الاعيان (ص ١٨)

مياه لبنان البحرية

كان يحمل بنا بعد ذكرنا ينابيع لبنان وإنهاره ان نفرد بحثاً ببحيراته . إلا ان البحيرات في لبنان غاية في الندرة . وقد سبق لنا وصف ما يرى منها اعني بركة اليثونة وبركة ثانية اصغر منها وهي بركة الزينية (١) وقد اطلعنا منذ زمن قريب على بركة ثالثة قريبة من الزينية لم نجد لها ذكراً في الخرائط اللبنانية تدعى رام الزينية ولعلها فاتت الجغرافيين لقربها منها او لتشابه اسميها وان اردت ان ترووها فسر من بركة الزينية متوغلاً في الجبل نحو الجنوب فبعد ثلثي الساعة تبلغ الى وادي حرج لا منفذ له الا من شماله تحيط به الجبال العالية فهناك رام الزينية وهي على شكل دائرة اهليجية طولها ١٢٠٠ متر في عرض ٤٠٠ م ومياهها كدرة متوحلة تتكون من ذوبان الثلوج المتوجّه للجبال التي تسكنها فلا تسيل منها لعدم وجود منحدر تجري منه لان الجهة الشمالية المنفرجة تملو قليلاً عن سطح المياه فتسرع من السيلان . اما قعر البحيرة فيتركب من حجارة كلسية نخرة كطبقات لبنان العليا ولذلك لا يمكك المياه . فاذا وافي شهر تموز نضبت البحيرة ونشفت تماماً . وليس سمك في هذه المياه وانما ترى فيها الضفادع الناقّة وبعض الحيات المائية

*

وتستتد لدروسنا السابقة في مياه لبنان بقي علينا ان نبحت في مياه البحرية التي تمتد الى لطف هذا الجبل ونقسم كلامنا الى باين مدار الاول على المياه الساحلية وما يغلب عليها من الظواهر الطبيعية اما الثاني فنخصه بالساحل عينه وهيئاته اعلم ان البحار في كرتنا الارضية شأنًا عظيمًا لا يكاد يفي به الوصف وان

قصرنا النظر على مياه البحر وحدها وجدنا ما لها من الدور المهم في حياة سيّارتنا فإنّ الاوقيانوس كحوضها العظيم وينبوعها الاول تتصاعد منه الابجرة فتربط البرور وتستقيها بمياه تنعشها وتحيا وتجعل سكناها محتملاً بل لذيذاً ناعماً

كذلك سبق لنا وصف العوامل الجوية من انواء ورياح وامطار التي تصدم اطوادنا وقيم جبالنا فتحتك بها وتقطع صخورها وتعرف تربتها الى السهول والى مصب الانهار واعماق البحار . فكل ذلك من اعمال البحر ومن نتائج تحولات مياهه بالحرارة . فان السحب اذا تصاعدت من الاوقيانوس انعدت في اعالي الجو وتساقطت على هيئة ثلوج تجمد فوق مشارف الجبل وفي اوديته وتعمل في صخورها فتحللها ثم تندفع تلك المثالي والصخور الى اسافل البلاد فتتحول الى تربة زراعية . ومن هذه المياه ما ينفذ في قلب الجبل فينخره وتتكوّن بذلك المغاور او تجري المياه فائرة بمد ان اجتذبت بسيرها المواد المعدنية التي كانت مكونة فتذبحس عيوناً معدنية ذات خواص عجيبة . وما قولنا الان بالانهار التي تتدفق في كل انحاء العالم وتنقل في جسم الارض الحصب والثروة كأنها الشرايين في جسم الانسان تحيي كل اعضائه . أليست هذه من افضال البحار الراجعة الى اصلها بعد دوران عجيب وسقي الارض العطشى

نعم ان ما يرى على الارض من ظواهر الحياة في المواليد النباتية والحوائية بل في حياة البشر كل ذلك مصدره البحار وحركتها المتواصلة . وكذلك لا يشك احد في ما لنتوء الجبال وارتفاعها من التأثير في احوال الجو الا ان هذا الاختلاف الطارئ عليها بقوة سنن العناية الالهية انما تجريه بجانب عظيم حركات البحر ومظاهره . فان كان الشتاء على وجه الارض ألطف وحرارة الصيف اخف وحالات الجو من طرف الى آخر تجري بتدرج لئلا يهلك الاحياء بثقلها على فور فذلك الا لان المياه البحرية تخزن الحرارة فتتشرها في الشتاء كما انها تلتف شدة القيظ في فصل الصيف . وكذلك في الاوقيانوس بحار تثقل المياه القطبية الى خط الاستواء ومياه خط الاستواء الى القطبين فتعتدل بذلك احوال الجو ولا ينتقل الهواء من حالة الى اخرى الا تدريجاً . ومثله الهواء فانه لولا البحار لكان ناشفاً لا يمكن استنشاقه وانما تربط المياه البحرية التي تنتشر رطوبتها حتى اقاصي الارض مع الرياح . فالاوقيانوس اذن يدمج الأهوية

ويجعل توازنًا بين انحاء الارض المختلفة ويبعث الحياة على الارض ويحفظها بعد ان غني
بتوكيدها اذ يهتم بربيتها بواسطة الحجرات وعيونهم وانهاره

١

المظاهر البحرية العمومية

تحت هذا العنوان نجمع كل المظاهر التي تلوح في البحر المجاور لسواحلنا اللبنانية
فندون ما يختص به وان كانت هذه الملحوظات قليلة ليست ذات بال . والسبب ان
بحرنا المتوسط احد الابحار الداخلية المغفلة لا يتصل بالاقيانوس الا ببوغاص حرج طوله
بضعة اميال زيد بوغاص جبل طارق . ومن المعلوم ان البحار الداخلية لا تشارك
الاقيانوس الكبير باختلاف مظاهره ووفرة حركاته بل ترى كل شيء فيها على نظام
واحد وسداجة عظيمة . وكذلك ليس مجال للكلام عما يحدث في البحار القطبية من
قطع الجليد الطافية على وجه الماء بعد مجرنا عن القطب كما انه ليس من اثر لجاري
المياه الحارة (Gulf-stream) . اما المد والجزر فلا يكاد يشعر بها
وزد على ذلك ان العلماء الذين درسوا خواص مياه مجرنا المتوسط انما اكتفوا
بمحطاته الغربية المجاورة لاطالية وفرنسة اما الجهات الشرقية منه اي الانحاء القريبة
مننا فان ابحاثهم عنها جرت بتسرع فهي لذلك قليلة التدقيق . وهذا هو السبب الذي
يصدنا عن تدوين النتائج المقررة والاعلامات الراهنة بهذا الخصوص . فان الاعداد
التي وجدناها من هذا القبيل غير مضبوطة اكثرها مبني على التخمين وربما كانت
غير موجودة

*

اعلم ان اول ما يخطر على ذهن العامة اذا نظروا الى البحر انه كهواية ليس لها
قعر ولا حد يحصرها . ثم يعقب التفكير فيؤدي بصاحبه الى ان يجعل لهذا القعر قياساً
على التقريب لكن الاسباب المذكورة آنفاً تحول دون هذا التحقيق ولا سيما في جهات
البحر الذي تهتمنا معرفته المجاور لسواحلنا . وانما يجوز القول بالاجمال ان اقصى اعماق
هذا البحر المتوسط او بالجرى هذه البحيرة الداخلية ليست هي الانحاء القريبة مننا .
والذين سجدوا الغور في النواحي المصرية وجدوا فيه أعماقاً تليق عن القبي مبستر

والاقيسة المنادرة التي اجراها العلماء في سواحل بلاد الشام بعيدة عن مثل هذا القعر العميق

ثم ان الاعماق القاصية تكون عادةً عند النقط البحرية المجاورة للصخور العمودية التي تنغمس تواء في البحر لاسيما عند الرؤوس الساحلية والمشارف الصخرية التي تطل على شج المياه فان الرياح الزعازع والانواء تثير الامواج وتعمل بلا انقطاع في اركان الصخور واصولها . اما اذا كانت السواحل تتركب من الرمال فتري قعر البحر لا يتحدّر الا تدريجاً حتى ان عمق المياه لا يزيد عن عشرين او خمسة وعشرين متراً على مسافة تختلف بين كيلومتريّن الى ثلاثة كيلومترات . وليس السبب خلوّ هذه الاماكن من الرياح والانواء التي تحفر اعماقها . انما يتلى الحفر بما تأتية المجاري والرياح من الرمل اما من السواحل عند مهبّ الريح واما مجرّوف الانهار من اعالي الجبل

والذين فحصوا عن اعماق الخور المنسوب للخضر بقرب بيروت وجدوا ان معدّل قعر البحر في الكيلومتر الاول بين ثمانية ابواع الى عشرين باعاً انكليزياً (١) . والباع الانكليزي متر و ٨٢ سنتيمتراً اعني من ١٦ متراً الى ٣٦ م . اما غور جونية فأعمق فان قاع البحر على مسافة خمسمائة متر من الساحل يبلغ عشرة ابواع اي نحو ١٨ متراً كما ورد في خارطة الكومندان الانكليزي مؤنسل التي سبق تعريفها في مقالنا عن خرائط لبنان وبازاء هذا الخليج عينه على مسافة نحو ثلاث ساعات من الشاطئ قد وُجد أقصى غور سُبر بالمقياس في الساحل الفينيقي وهو يبلغ ١٠٨٤ متراً . واذا تقربت من الساحل بازاء برج حاش جنوبي جبيل كانت نتيجة السبر ٤٣٠ باعاً انكليزياً . وكذلك الجهة التي هي بازاء مصبّ نهر الكلب فانها بعيدة القعر . ونذكر اننا قبل بضع سنوات اذ كنّا نتجول على الطرّاد الافرنسي سَنزي لم يكنه ان يرسو هناك لقصر سلاسله التي لم تبلغ القعر . وفي الواقع ترى الخرائط البحرية تجعل عمق هذا المكان ٢٧٠ باعاً انكليزياً . وبخلاف ذلك مينا طرابلس وخورها المتسع فان عمقها قليل يتراوح بين ستة وثمانية ابواع . ما لم تيسر الى بُعد كيلومتريّن او ثلاثة

(١) راجع خارطة لبنان البحرية والارقام فيها بالابواع الانكليزية وهي تدلّ على اعماق

البحر

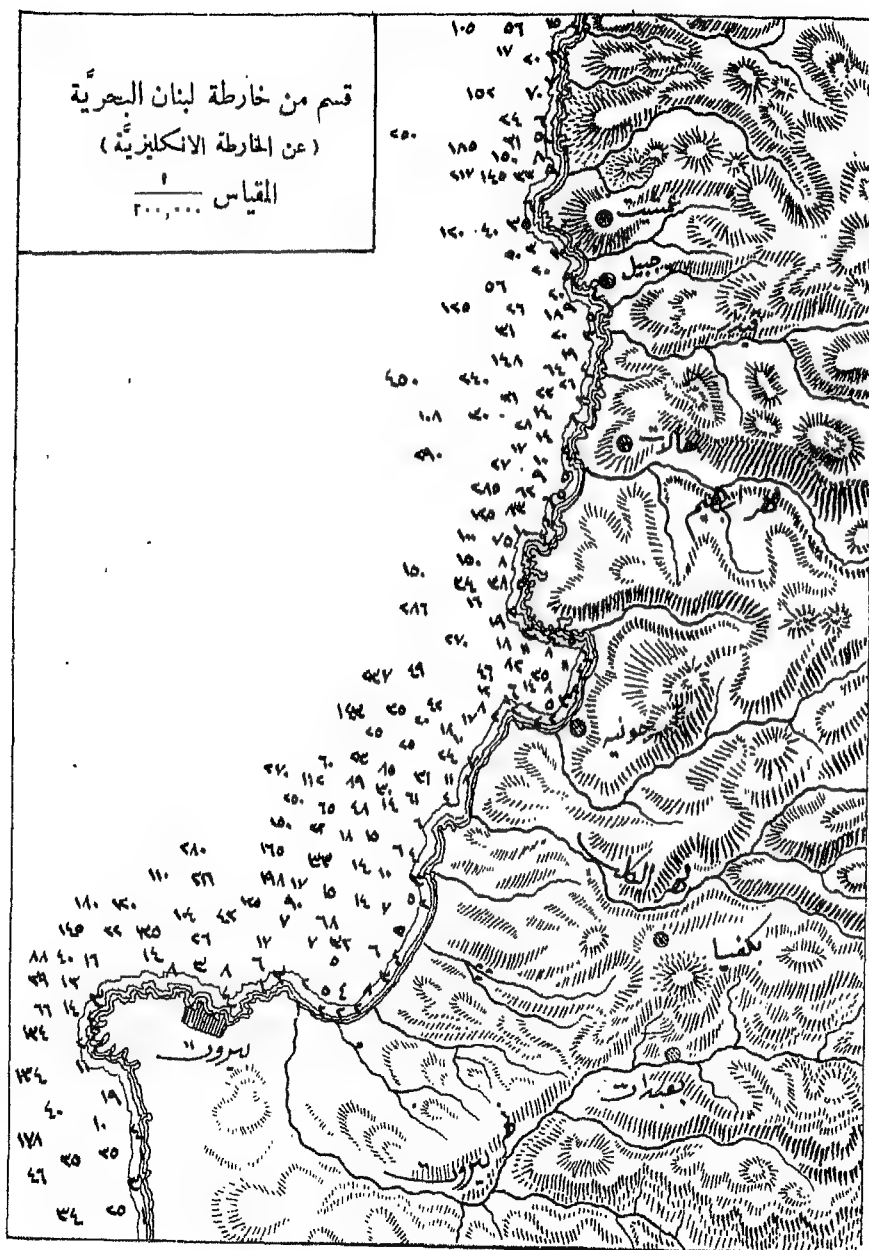
كيلومترات من الساحل وهذا ما يضطر السفن البخارية بان تبعد عن الشاطئ وإذا ما اراد اهل الامر ان يحتفروا مرسى لهذه المدينة فلا بدّ لهذا المشروع من نفقات طائلة لقلة هذا العمق كما سبق

أما مدخل ميناء بيروت فقاع مياهه ١٥ متراً . وهذا العمق لا يرى وراء السدّ الكبير إلا على نحو مئة متر منه وان سرت شمالاً الى مسافة كياومستر وجدت غرر البحر بالغاً ٢٩٠ باعاً بينا العمق في جون الحضر على الخط نفسه وعلى مثل بعده من الساحل لا يزيد على ٢٥ باعاً الى ٣٣ . وفي ذلك تأييد لقولنا عن الاعماق المختلفة التي تروى عند الصخور الساحلية وعند السواحل الرملية

*

واعلم ان تبخر المياه في كل البحر المتوسط سريع جداً . وهو على سواحل فرنسة وساحل جنوة لا يقلّ عن سنتيمتر كل يوم في فصل الصيف ومجمل ما يتبخر منه في اشهر الصيف الثلاثة ٦٠ سنتيمتراً . أما سواحل الشام فلا مراة بان تبخر مياهها اعظم لارتفاع ميزان حرارتها . وقسم من هذا الماء الذي يفقده بحرنا يُعاد اليه بالامطار النادرة التي يُجاد بها وبالانهار التي تجري اليه وهي بالنسبة الى ما يحسره ثلث كميتة . ولولا اتصال بحرنا ببوغاص جبل طارق ومنه بالاقيانوس لقلت مياهه الطلوة وزادت ملوخته واضحى كبحر لوط في طعمه إلا ان الاوقيانوس يمدّه بمياهه وهي اقل منه ملحاً ويعوض له خسائره فيتوازن البحران

واعلم ان مياه الاوقيانوس تأتي بحرنا بمجرى عظيم يمتد على وجه البحر المتوسط الى مسافات بعيدة . وكذلك يحدث على طول السواحل مجار اخرى منها المجرى الذي ينقل الى سورية رمل مصر وطين نيلها (١) . وحتى الآن لم يُحسن العلماء معرفة خواص هذا المجرى ووجهته وقوته كما انهم يجولون اموراً كثيرة منوطة بالمجري البحريّ وعلاقات الاوقيانوس ببحرنا المتوسط . ومما افادنا بمضهم بخصوص المجرى الموازي لساحلنا ان قوته تبلغ في كل ٢٤ ساعة عشرين كيلومتراً سيره من الجنوب الى الشمال . وهي افادة زويها



على علّاتها اذ لم يمكننا تصحيحها . والمجاري البحرية في البحر المتوسط من الظواهر التي ليست ذات شأن عظيم كما هو الواقع في البحار الواسعة وذلك لحلوله من المد والجزر ومن الانهار الزاخرة والأخوار العميقة المتّصلة بالبواغيس الضيّقة (١)

ومن يفحص مياه بحرنا لم يجد فقط بثقلها النوعي اعظم من المياه العذبة بل تحقّق أيضاً أنّ ثقلها وهو (١,٠٢٩) فوق ثقل الاوقيانوس (١,٠٢٨) بلمتر. والظاهر أنّ سبب ذلك حرارة الشمس التي تمتصّ من مياه بحرنا أكثر ممّا تأتي به الانهار. فباقي من الماء يزيد ثقلاً لوفرة املاحه التي لا تتبخر. والامر في جهاتنا السورية اوضح لأنّ انهارنا لا تغني البحر بوادها لندرة مياهها. وعليه فإنّنا نظنّ أنّ مالوحة بحر الشام تتجاوز ٣٨ مأمّتراً وهو معدل بقيّة البحر المتوسط. وتعليقه قلّة المياه النهرية العذبة كما سبق ثمّ ابتعاد جهاتنا عن بوغاص جبل طارق حيث يأتي من الاوقيانوس مجرى من المياه اقلّ مالوحة. ولعلّ قوّة هذا المجرى لا يظهر اثرها في جهاتنا السورية. ولنا على ذلك بعض التعويض بالكميّات الوفرة من الماء العذب التي يصبّها النيل في بحرنا فتأتينا بمجرى ساحليّ مع ما يأتي من الرمل

قلنا أنّ المدّ والجزر قليلان لا يكاد يحسّ بهما الناظر. وسعتهما في سواحل الشام تختلف بين ثمانية وعشرة سنتيمترات. وحلقة المدّ والجزر نتيجة اشرا إليها في مقالاتنا عن مجاري الانهار في لبنان وهي انسداد هذه الانهار بما يترآك في مصبها. من الرومال فيضطرّ الاهلون بان ينقلوا مراسي مدنهم الى مسافة ابعد على الساحل كما ترى في مرسيلية بالنسبة الى نهر الرّون وفي الاسكندرية بالنسبة الى النيل. وهذا ممّا حدا بالفينيقيين ان يبنوا مدنهم على مسافة من الانهار

*

قد قيل أنّ الحياة تظهر خصوصاً بالحركة. وليس في الطبيعة كائنٌ احياء من البحر. وحياته هذه تلوح بعلم غير منقطع لاسيّاً بتأثيره في البرور التي لا يزال يتغيّر هيئاتها وذلك على نظر منّا. ويذكر القاريّ ما قناه سابقاً عن اعمال الانهار التي نسبنا

(١) راجع ما كتبه في المجاري الساحلية كلتبرونر - *Munuel du Voya* (Kaltbrunner :

لها خراباً وعمراً وهذا يصح أيضاً في البحار . ثم تشهد بعض النصوص التاريخية التي أُلْعِنَا إليها على وجود جُزُرٍ صغيرة بازاء بيروت او على مقربة منها . والدليل على ذلك ما ورد في القرن الحُفْثَس المِسيح في قصائد الشاعر نونس المعروف بالديونيزياك (Dionysiaques) فإنه وصف بيروت وصفاً يدلُّ على نظر العيان وينعتها بالمدينة الجميلة الجزائر (Εὐνησος) . وكذلك جاء في توارينخ الفرنج ان ديراً أُقيم في احدى جزائر بيروت (ZDPV, X, 310) فوجود بناء كهذا لا يكون الا اذا اتّسعت الجزيرة بعض الاتساع . ثم ان خرائط مرسومة في ذلك العهد تشهد ايضاً على وجود جزائر مجاورة لبيروت (ZDPV, XXI, 116) . فكلُّ هذه الادلة تبين صِلَة الامر بلا محال . فثَرَى كيف توارت هذه الجزائر ؟ اَبَانَحْصافٍ في الارض او زلزلة ؟ هذا ليس بمحال . ولعلها خربت فيما خرب في الزلزال الذي ذكره القريزي في تاريخ الممالك (Ed. Quatremère, I, 1^{re} partie, 145) حيث قال « ان سبع جزائر من بلاد الفرنج في الساحل خُسفت وتوارت في غمر البحار » . وقد بقي من هذه الجزائر صخور تعلو سطح البحر اعظمها شأنًا جزائر الحمام في رأس بيروت وآثار المياه فيها ظاهرة وهناك معبر خرقته الامواج في وسط صخورها وهي لا تزال تعمل فيه ريثما يتم بها عمل المياه فتتوارى بقايا هذه الجزيرة في قاع البحر وما يقال في تدمير المياه أظهر للعيان في الرووس الصخرية فان اسافلها عرضة للمجاري المائية التي لا تزال تنخرها . وانما عمل البحر فيها يختلف في السرعة على حسب وجهة الامواج وتركيب الصخور وصلابتها . وبذلك يُعَالُ نتو الصخور الساحلية وهيبتها المتقوسة كما ترى في رأس بيروت . وكذلك الاغوار والكهوف والخابيا المستديرة التي تُحْكَم صنعها مياه البحر فيقضى بحسنها العجب

٢

أكثبة الرمل

ومما ينوط بدرس المياه الساحلية في لبنان أكثبة الرمل التي تتراكم على الشواطئ بفعل البحر . وتُرى هذه الكثبان على سيف مجرنا المتوسط وهي قليلة الارتفاع لضيق دائرته وقلة ما يجري فيه من المد والجزر فلا تستطيع الرمال ان تجد مداها

من الحركة والانتشار . أمّا تكونها فيحدث عادةً في الشواطئ الرملية القليلة الانحناء فتتسبب الرياح دقائقها وتنقلها من مكان الى آخر حتى اذا وجدت في طريقها حاجزاً من صخر او نبات تجتمعت حوله ولا تزال تنمو شيئاً فشيئاً الى ان تصير على شبه ربوة . ثمّ تهب الرياح وتلعب السواقي في اعالي هذا الكثيب التي لا تمسها امواج البحر فتندري رمالها اليابسة وتنقلها الى ما وراء هذا التلّ فيتكوّن منها تلّ آخر وهلمّ جرّاً . أمّا الامواج فتتأطح سفح الكثيب الأوّل وتنقل اليه رمالاً جديدة تعلو وتتكوّم فتعمل الرياح فيها كما فعلت سابقاً . وهكذا لا تزال هذه الهضاب الرملية في حركة دائمة تتقدّم الى الامام دون انقطاع . ويكون امتدادها بأن تجري الى حيث تجد نتوءاً من الارض او عائناً فتتجمّع حوله رُبى جديدة مستندة الى اعطاف الاكشبة السابقة . وهي لا تلبث بعد حين ان تولّد آكاماً اخرى فتتصب على شبه سلسلة من التلال المتحركة يفصل بينها ألهاب واودية ضيّقة مستطيلة (١)

على أنّ الآكام الرملية التي تُرى في سواحل بحرنا المُتقلّ الحالي من الجُزر والمد ليست كأكشبة البحار الواسعة . كما انه لا اثر لهذه التلال في السواحل الوطنية المتحركة من المواد الصلصالية او الصلبة التي لا تحركها الرياح والامواج بسهولة كفعلمها بالرمال وأنما تتكوّن فيها سدود من الحصى التي تقلبها الامواج على بعضها الى ان تُصقل بالاحتكاك وربما تكوّمّت اكواماً دون التلال الرملية علواً واتساعاً

وان سرحنا البصر في سواحل بلادنا وجدنا مصداقاً على قولنا اذ لا يوجد من هذه النشور الرملية الا في بعض نقطٍ معلومة ترح فيها الامواج والرياح معاً كمثل اشباه جزائر صور وبيروت وطرابلس . وكثبان الرمل لا تتكوّن في كل هذه الجهات من جهة الشمال بل من الغرب حيث الشواطئ السفلى الرملية فتتسببها الرياح الغربية المتواصلة فتتراكم بفعلها . وهذا ممّا يلاحظ خصوصاً في نواحي بيروت فتتّ توارّد الرمل الذي يوحف بجبله ورجله ويعطي سهولاً مخضبة تغوص في وسطها بيوت واشجار لم ينظر الناظر غير اعاليها . وكذلك طرق العجالات فان الرمال تملوها بحيث لا تعود تصلح للسير

(١) راجع ما كتبه روكلو في كيفية تكوّن هذه الاكشبة في كتابه « الارض » (ج ٢

على أن لهذا الداء دواءً إذ يمكن أن يُجمل حدٌ لعمل الرمال بالزراعة ونصب الأشجار التي وحدها تقوم بازاء هذا العدو الزاحف فتقوى على ذرّاته ودقائمه . ومن العجيب العُجاب أن في هذه الرمال مع يبوستها قوّة مخبئة ومائيّة كافية لغذاء بعض النباتات التي لا تؤذيها الرياح البحرية الشبّعة ملحاً بل تمتد جذورها الى اعماق بالغة لتمتص الرطوبة التي تحتاج اليها لحياتها . فمن ذلك بعض النباتات الزاحفة الطويلة الاغصان على شبه الجبال كاللوب قراها تمتد على وجه الارض كشبكة تزيئها يزهورها واوراقها . ومن النباتات الرملية اشجار الميموزا والصبيّر وبعض الشجيرات المشوكة وكلها يرد غارات الرمل وينمّعه عن ان يتعدى طوره

لكن هذه الوسائط ربّما قصرت عن ادراك الغاية او بطلت منافعها كما يجري كثير من النسات الفض الذي يأكله الماعز . فلا بُدّ من اتخاذ احتياطات اعظم بنصب اشجار تقوى على السواقي وتسد الطريق في وجه الرمال . وهذا ما قامت به الدولة الفرنسية في احدى مقاطعاتها التي كثرت فيها الرمال وهي مقاطعة غسكونية المجاورة للالوقيانوس فان الرياح مع الامواج البحرية كانت تسفي عليها كمية من الرمال كادت تسجّتها كالكنف بعد ان غمرت قسماً من قراها . فارادت الحكومة تلافي هذا الامر فباشرت بنصب غابات الشجر منذ نصف قرن وهي لا تزال جارية في العمل وحتى تنجزه عملاً قليل فصارت كثمان الرمل في بلاد غسكونية مودداً للثروة بعد ان كانت آفة متلفة . فان غابات تلك المعاملة الواقعة جنوبي غربي فرنسا تُعتبر اليوم كغنى لها لما يُستثمر منها من الحشب وما يُستخلص من الموائع الاليتنجيّة وهي تساوي في السنة مئآت الوف من الفرنكات . أما الغابات نفسها فيشتملها العارفون بخمسة وعشرين الى ثلاثين مليوناً . ومن الفوائد التي احزتها تلك الجهات بفضل الغابات اعشاب وافرة ينبت الرمال الرطب وهي تصلح للمواشي . وكذلك قد تبالشت المستنقعات التي كانت في تلك الانحاء لان جذور الشجر امتصتها شيئاً فشيئاً الى ان يابست وصار الهواء بقائها نقياً طيباً واضحت الغابات على هذا النمط زينة وشفاء معاً

وهنا فليسبح لنا ارباب الامران نستلفت انظارهم الى رمال بيروت التي يمكنها ان تُحصب مدينتنا وتزينها اذا ما عملوا فيها ايدي الزراعة . واول ما ينبغي فعله ان لا يُرخص للبدوان وللرعيان ان يروا فيها مواشيهم . فان رمال بيروت في الربيع تأتي

بشيء من الكلام وببعض الانبئة التي يمكنها ان تنمو وتزكو لولا يتجول فيها هؤلاء الرعاة بقطاعاتهم فيجولونها الى رمال جرداء تتلاعب بها الرياح وتنشرها على انحاء المدينة في بعض فصول السنة بدلاً من ان تكون بقعة خضراء غبراء تروق العين بنضارتها وتخصبها بثروتها

وانفع من ذلك ان تعرس انصاب الصنوبر فان هذا الشجر كما حَقَّقَتْهُ الاختبارات المتوالية شرقاً وغرباً انجع دواء لهذا الداء واغوى عامل على رد غارات الرمال . ومن ثم لا يؤاخذن الانسان غير نفسه ان تغاضى في استعمال هذه الوسطة القريبة المثل التي من شأنها ان تصلح تها ملة وهو السبب الاوحد في ما يجري من الخلل في توازن قوى الطبيعة المتسمة وفقاً لنظام العناية الصمدانية

ويؤيد قوائنا ما كتبه في هذا الصدد كل الذين يحشوا عن تكوّن الأكتيبة الرملية فانهم يتفقون في القول بان هذه التلال حديثة النشأة وان في مكانها كانت سابقاً تمتد الاحراج والغابات فلما قُطعت اشجارها استولت عليها الرمال . وهذا قول عمومي يصح في السواحل الاوربية كما في شواطئ بحرنا . ومن تصفح التواريخ اليونانية او اللاتينية لا يجد ذكراً لهذه الروابي الرملية الى عهد القرون الوسطى بل تراهم على عكس ذلك يشيرون الى الغابات القائمة مكانها او في عمارتها

ان في نصف الطريق الجارية بين صيدا وبيروت في المحل المعروف بني يونس بناية قديمة تراكت عليها الرمال فلم ير منها الا قبّتها البيضاء . وهي بناية اسلامية بلا شك تدل هيتها على اصلها وزمنها . فتكون الرمال تواردت عليها حتى كادت تعمرها بظرف بضع مئات من السنين . وكذلك اذا سرت شمالاً الى شهر القسدير على مسافة نصف ساعة جنوبي خلدة بلغت موضعاً يدعى القصر كان بقربه محلة تغطيها الرمال في عهدنا . والمرجح ان ذلك حدث بعد الاسلام فيكون عمل الرمل فيها حديثاً . وفي نقط اخرى من الساحل عند رمال بيروت آثار تدل على عمران سابق وحداثة عهد الرمال

وقد زعم بعض الكتبة ان اصل بيروت من غابة صنوبرها وان معنى اسمها الصنوبر . وهو قول ضعيف والرأي الأسد ان اشتقاق اسمها من البئر ومعناها مدينة الآبار . لكن في هذا الزعم نفسه دليلاً على قدم غابات صنوبر بيروت وقد افردنا لذلك مقالة مستقلة (راجع المشرق ١ [١٨٩٨] : ٩٣٩-٩٤١) حيث اوردنا عدة شواهد على قولنا

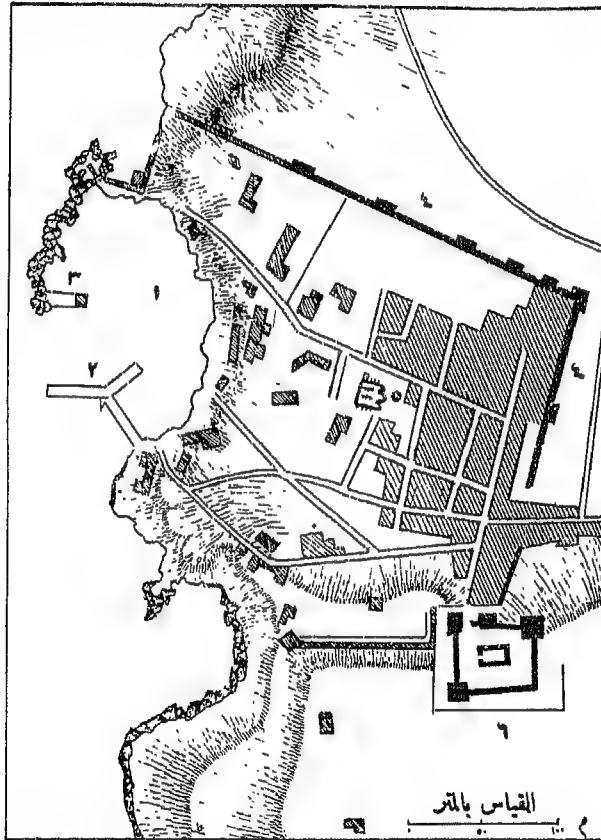
فلترأجع فانها تثبت انّ قسماً من شبه جزيرة بيروت كان مزداناً بغابة من الصنوبر وبقيت هذه الحال الى القرن الثالث عشر كما يشهد على ذلك الشريف الادريسيّ اذ قال ان « غابة صنوبر بيروت اثنا عشر ميلاً في التفسير تتصل الى تحت لبنان » وهذه المسافة الواسعة لا تدع مكاناً للرمال كما تُرى اليوم ما لم يُقَلَّ انّ هذه الغابة كانت تشغل السهول التي فيها اليوم مزارع الزيتون وهي المعروفة بصحراء الشويفات . وهو قول بعيد لانّ هذه المزارع كما يظهر قديمة ايضاً ورد ذكرها فيا لديننا من سجلات وتواريخ القرون المتوسطة . ويكفي لردّ هذا المزعم ان القناة الرومانية المعروفة اليوم بقناطر زبيدة لم تُتخذ غالباً الا لستي هذه المزارع الواقعة في ارباض البلدة . وبقيت غابة بيروت زاهرة غيباء بعد الادريسيّ فان صاحب تاريخ بيروت (ص ٥٢) ليس فقط يذكر ما كانت عليه سهول بيروت من الحُصْب والرَّيع بل يروي انّ اصحاب الامر ابتنوا من صنوبر المدينة عمارةً لمحاربة اسطول صاحب قبرس وقد وصفها بما حرقه : « قيل انه لم يُعهد قط عمارة مثلها عظماً وسرعةً وكثرة صنّاع وقوة عزم » . ومع هذا الوصف البالغ للعمارة لم تنفذ الغابة لانّ المسافرين الذين زاروا بلاد الشام في القرنين الخامس عشر والسادس عشر يذكرونها بيد انهم لم يجدوها في اتساعها السابق . وعندنا انّ الرمال اخذت منذ ذلك الحين اعني بعد تجهيز عمارة بيروت في اواخر القرن الرابع عشر ان تتعدّى طورها . لانّ ما قُطع من الصنوبر لم يُعوّض عنه بفرس اشجار غيرها وربما قطعوا منها غيرها بعد ذلك كما فعل محمّد الجزار (١) . ومن ثمّ لم تجد الرمال ما يتعرّض لها في سيرها فتراكمت الى ان وصلت الى حدها المعروف في زماننا وهو امرٌ يؤسف له ونتمنى ان اصحاب المروّة يتلافون الامر وقد بينّا لهم ما وراء هذا الاصلاح من الفوائد والارباح الطائلة مع ما ينجم منه من الزينة للبلد والتنظيف للهواء

٣

ارتفاع الساحل البحري

انّ ساحل فينيقية منذ ابتداء طرد العالم الرابع لم يزل يرتفع شيئاً فشيئاً الى الازمنة

المعروفة بالتاريخية . وهذه نتيجة البحوث جيولوجية مقررة اثبتتها حضرة الاب زموون في كتابه رسم لبنان الجيولوجي (١) نلخص هنا ادلته مع اضافة معلوماتنا الشخصية قد اتسعتنا في مقالتنا عن مجاري لبنان النهرية في وصف السدود التي ترى في مصب كل انهار لبنان واثبتنا اصلها بفعل مياه البحر والانهار معا . وهنا لا نرى بدا



رسم جبيل نقلاً عن المسيو راي

١ المرفأ ٢ بناية المرسى ٣ بقايا برج ٤ سور البلد ٥ كنيسة مار يوحنا ٦ القلعة

من زيادة عامل ثالث لظهور هذه الحواجز ألا وهو اندحار المياه البحرية عند ارتفاع

الساحل الذي يتوالي الاعصار تتأ تدريجاً وتساعد . ومن الشواهد على ذلك انك ترى على طول الساحل سلسلة من الصخور تطفو الآن فوق المياه البحرية طفواً يختلف تحديد ارتفاعه وهذه الصخور في اعلاها مسطحة دلالة على فعل الامواج فيها اذ كانت غائصة في المياه . وفي امكنة اخرى ترى كميات من الحصى المصقول باحتكاك المياه على بُعد من الامواج او على نشرز لا تبلغها حتى في الانواء الشديدة . فوقها دليل على ارتفاع السواحل مع ما يصعبه من تقهقر المياه

وزد على هذه البينات العمومية دلائل اخرى تُستفاد من فحص بعض السواحل اللبنانية . فن ذلك ان الصخور التي بُليت عليها صيداء في سالف الاعصار قد ارتفعت كما يلوح ذلك من قلّة المياه في مرسى تلك المدينة . وكذلك امام المدينة عينها جزائر وصخور يُرى مثلها امام صور وطرابلس وكلها حديثة العهد متركة من الرمل المتلاصق المتصلب والمعجون بالاصداف البحرية وهي كانت سابقاً في قعر المياه فلما تحدرت المياه ظهرت هذه الصخور متصاعدة فوق سطح البحر

وانا شاهد آخر على قولنا في المراسي الفينيقية فان ما يُرى فيها اليوم من الصخور ثم من تراكم الرمال انما سببه الاول ارتفاع الساحل . وان اعترض احد علينا بقوله ان السفن الفينيقية القديمة لم تكن لتحتاج الى غور عميق من المياه اذ يفيدنا التاريخ بانها كانت اشبه بقوارب كبيرة مسطحة كذهبيات مصر التي يكتنن ان تصعد النيل الى حدود الاقصر . اجبنا بأن الامر معلوم ولكن هيهات ان تصدق اليوم اوصاف المؤرخين للمراسي الفينيقية القديمة وهم يبالغون في ذكر رحبها وأمنها للسفن انما اليوم فلا تكاد هذه المراسي تشمل اكثر من احدى سفننا التجارية كما انها لا تقى المراكب من الرياح وانواء البحر . وانما تلتجئ اليها فقط بعض السفن الشراعية الخفيفة . فلولا ارتفاع الساحل لما أمكن تعديل هذا الامر . وان قيل ان هذه المراسي مُلئت بالصخور والاطلال على عهد الامير فخر الدين المعني . قلنا ان هذا الواقع قد تناقله قوم من الكتبة المحدثين ولم يسندوه الى مؤرخ ثقة . فلو صح لما سكنت عنه كتبة زمانه او احد القناصل والتجار الاجانب الذين كانوا يتاجرون في بلادنا على عهد . والارجح عندنا ما قلنا وهو سبب طبيعي ثبت اليوم بالبحث الصحيح ومن ثم لا نرى سنداً لما ترويه العامة عن فخر الدين انه غمر مرسى صيداء بالاطلال والصخور

هذا وقد اشرنا غير مرة الى قول الجيولوجيين بان بيروت كانت في الاعصار الغامرة جزيرة تحيط بها المياه بحيث كانت هذه المياه توصل خليج الحضر بوادي شحرور . أما اليوم فبين هذين الطرفين سهول محصبة ليس لوجودها تعليل آخر إلا ارتفاع تلك الامكنة . وكذلك قد وجدت في امكنة شتّى صُبْر من الحصى البحري المصقول والصدف منها على طريق الشام عند المطعم المعروف بلوكندة المطران ومثلها على منعطف الاشرفيّة عند مار ديتري وهذه الامكنة تتراوح بين عشرة امتار الى ٤٠ متراً فوق سطح البحر فلا شك ان وجود هذه الآثار البحرية دليل على ان المياه كانت تغمر تلك المجالات ثم تحدرت بارتفاع تلك المواقع

ومما سبق لنا قوله في مقالاتنا عن مجاري لبنان النهرية ان سطح المياه عند مصب نهر الكلب كان سابقاً اعلى منه اليوم وأيدنا رأينا بآثار السكك المصرية والاشورية والرومانية وكلها تثرى في نقط تعلو الطريق الحالية . ولانظن ان الامم القديمة فتحت هذه الطرق في تلك المشارف الصعبة لولا انها كانت مضطرة الى ذلك بما وجدته من العوائق الطبيعية في سيرها ولاسيما ارتفاع المياه البحرية والنهرية معاً . وهكذا يجوز شرح نص اسطرابون حيث قال ان نهر الكلب يمكن خوضه بالسفن وقد مرّ . وزد على ذلك ان في الطريق الرومانية التي هنالك بقايا اصداق بحرية وحصى مدلوكة ملتصحة ببعضها . وهو دليل على بلوغ البحر الى تلك النشور في الازمنة السابقة للتاريخ . وعليه فتتفق الأدلة على الطورين معاً . أما كون الطريقة المصرية فوق الطريق الرومانية والطريق الرومانية اعلى من الحالية ففي ذلك دليل ظاهر على ان تحدر المياه وارتفاع الساحل كان تدريجياً بمرور الدهور

وكذلك ترى بين نهر ابراهيم وجبيل وبين جبيل والبتون جُثى من الاصداف البحرية على علو عشرة امتار من سطح البحر حالياً . وذلك مما يُثبت ايضاً قولنا عن ارتفاع الساحل

ثم اننا في مطاوي كلامنا عن أنفة (راجع الجزء الاول ص ١٤٦) ذكرنا لها خندقين عظيمين بُقرا في رأسها الذي بقربه موقع البلدة . واليوم اذا اعتبرت قعر هذين الخندقين اللذين يفصلان رأس انفة عن البر وجدته يابساً لا تتصل اليه البحر . وعندنا ان الامر كان على خلاف ذلك في عهد الفينيقيين وهم الذين قاموا بهذا العمل

العظيم ونحتوا الحندقين ليملاًهما ماء البحر ويردّوا بهما غارات العدو من الجهة الشرقية عن المدينة التي كانت حصناً حصيناً فان يبوستها اليوم تدلّ على أنّ الساحل ارتفع فلم تعد المياه البحرية تتصل بهذين الحندقين وكلّ هذه الأدلّة والآثار التي ذكرناها قد جمعناها من امكنة شتّى على الساحل الفينيقيّ مباشرة من مصبّ نهر القاسميّة الى نهر ابي علي . وهي تبرهن على أنّ الساحل الفينيقيّ ليس فقط في الازمنة السابقة للتاريخ لكن بعدها ايضاً لم يزل على تصاعد متوالٍ والبحر على تقهقر وتحدّر . وفي كل ذلك تتحقّق السُنّة التي وضعها الخالق عزّ وجلّ فانّ البحر لما كان يطغي ويبغي فيدمر بياحه الساحل صار لذلك فعل انعكاس من جهة الساحل بأن ارتفع واعتلى فظهرت الحكمة الصعدانيّة التي جعلت للطبيعة سنّة توازن القوى لا تتعدّها . وفي درس الجغرافية ما يكشف لنا القناع عن هذه الحقائق والسّنن التي فيها نظام الخلق كلها

١٣

السواحل اللبنانية

ألعنا في خلال درسنا لرسم الجبال اللبنانية الى السواحل الفينيقيّة فقلنا انّ من خواصّها وحدة سياقتها وجريها على خطّ موازٍ لجبل لبنان اللهمّ ألا رؤوس قليلة كراس بيروت ورأس الشقعة التي تشدّ نوعاً عن هذه الخطّة العموميّة . وهذا فصل نفردّه لدرس تلك السواحل مباشرة بالشمال

*

فان اطلقنا رائد الطرف الى هذا القسم الشمالي وهو الواقع بين مصبّ النهر الكبير ورأس الشقعة وجدناه بالمقابلة أنّه يخالف بقيّة الساحل في خطّه المتساوي . وما ذلك ألا لسبب اختلاف يطرأ على وجهة الجبل كما سبقت اليه الاشارة في بحثنا عن رسم لبنان فترى الساحل يستدير على صورة هلال من حدّ مصبّ النهر الكبير الى الصخور المتواصلة التي تطفو فوق سطح البحر عند ميناء طرابلس وهو الجون المعروف بجون عكّار . ولا غرو انّ هذا الجون كان اضحى خليجاً كبيراً بعيد الغور بين جبل

النصيرية ولبنان لولا انّ مياه النهر الكبير مع نهر عكار والنهر البارد حالت دون ذلك بما جرفته من التربة التي ملأت تلك البطحاء. فلما لم تجد هذه العوامل القويّة كفوءاً يتصدّى لها كبعض المجاري البحريّة او مدّ البحر وجزّره فعلت فعلها وكوّمت جروفها في تلك الوهاد التي كانت جديرة بان تكون خليجاً ذات شأن اثير وفوائد اقتصادية جيّة . اذ انّ البحر كان يستطيع ان يمتدّ الى داخل سوريّة ويصير لها بمثابة قناة بحريّة او كخليج قورنتس يقرب البلاد الداخليّة لاسيّما وادي العاصي المخصب الى المعاملات التجارية . وما أدراك انّ هذا الخليج لو وجد لم يؤثر في تجارة بلاد آسيّة الغربيّة (١) فيحوّل الى طرابلس كل الحركة التجارية وينزع عن صيداء وصور سيطرتها البحرية

وجنوبيّ هذا الجون بين ميناء طرابلس وسفح الجبل سهولٌ خصبة تكوّنت بما جرفته اليها من التربة نهر قاديشا على طول ممرّ الاجيال جاريّاً بذلك مجرى الانهار الثلاثة السابق ذكرها . وبفعله اتصلت بالبرّ الصخور التي بُنيت فوقها ميناء طرابلس وتحوّلت البقعة الى شبه جزيرة على شكل مربع غير متساوي الزوايا . والرمال قد سطت على الجانب الغربيّ من هذا المربع كفعلها في غربيّ بيروت والسبب واحد غير انّ رمال بيروت اوسع منها مجالاً واوفر كميةً

وان سرت جنوبي هذه شبه الجزيرة رأيت الساحل يقترب من الجبل مستديراً على شكل جون آخر يحده جنوباً رأس الناطور . والدائرة الساحليّة كلّها جبال متواصلة لا يفصلها عن البحر سوى قطعة ضيّقة من الرمال التي قذفتها الامواج . ثم يأتي ما وراء رأس الناطور خور صغير يليه رأس أنفة وهو دون رأس الناطور كبيراً لكنّه اغرب منه صورة . وهو عبارة عن قطعة ارض مستطيلة طولها ٤٠٠ متر في عرض عشرة امتار فقط يفصلها عن البرّ خندق نقره في الصخر الاصم على ما يظهر قدماء الفينيقيين . وذلك انّ الفينيقيين كما لا يخفى كانوا من ارباب البحر فوجدوا في هذا الرأس ما يرغبون فيه لتقاربهم البحريّة اعني مرفأين تلتجى اليهما جنوباً وشمالاً سفنهم فتأمن من الانواء مع قربهما من الجون الشمالي ومن الخليج الجنوبي الذي بدؤه عند رأس أنفة منتهياً الى رأس الشقعة

وفي وسط هذا الخليج الجنوبي المستدير على شكل نصف دائرة غير منتظمة سهول تكوَّنت من جرف الانهار لا يقل عرضها عن كيلومترين إلا أن المياه المنحدرة من الاودية المجاورة قد استنقعت في قسم منها لما تجده في مصبها من الرمال المتركة الحاجزة بينها وبين البحر . وأنما ترقى الفلاحة في تلك الانحاء قد زاحم منذ امد قريب تلك المستنقعات فحصرها ولعلَّه يبيدها ويلاشيها لأن الزراعة تجد في تلك التربة المتركة من المواد الصلصالية والكلسية ما يصلح لنموها ووفرة مائها . وعلى ظننا أن ناحية شكَّا سوف تُضحى من اخصب جهات لبنان وقد فُتحت لها حديثاً طريق مسلوكة تصلها بناحية البترون والقائمات الجنوبية ريثما تبلغها السكك الحديدية ويحدُّ هذا السهل في جنوبيه ذاك الرأس المستطيل المرتفع على شبه جدار هائل يزيد رأس الشقعة الذي يشرف على البحر بعلو ٢٠٠ متر ونيّف . ومن نظر الى هذا الجبل الشاهق من جهته الشمالية اخذه الانذهال من غرابة صورته فيحسبه كدائرة عظيمة راسية في المرفأ مجهزة في مقدمها بعها ضخمة كأنها على وشك الخروج لتسخر عباب البحر . وعند جنوبي غربي هذه الدائرة الغربية من جهة نهر الجوز سهل حشوش يفصلها عن البحر بمسافة لا يتجاوز عرضها نصف كيلومتر وتربة هذا السهل جيدة لولا أن قلّة الماء لا تسمح بتوفير مزرعاتها كسهل شكَّا . أما من جهة الجنوب فإن رأس الشقعة يشرف على وادي نهر الجوز ولا يفصله عن هضاب لبنان الشرقية إلا اخاديد عميقة خُدت في تربة متركة من الحواري وقطع الصوان شأن الجبال التي تتوسط بين ناحية الكورة والبحر . وبين تلك الاخاديد مسلك يُعد من اصعب مسالك لبنان واشدها خطراً لأنه كثير التراب تغوص الرجل في ارضه الوعثة صيفاً وتزليج في طينهِ اللزج شتاءً

فترى ممّا تقدّم أن رأس الشقعة كمكعب مرتفع معتزل من كل جهاته قريب من الشكل المربع المستطيل طوله مسير ساعة وعرضه نصف ساعة ومعدل علوه ٢٥٠ متراً تُرى في قمته قرية حامات البالغة ٣٠٠ م . ومساحته في اعلاه مستوية ذات آكام قليلة الارتفاع وهو ينحني انحناء خفيفاً من الشرق الى الغرب مع بعض الاودية غير العميقة من تلك الجهة يُعرف اكبرها بوادي العرب . ومياه الشتاء تجري في فصل الامطار منحدره من تلك الاودية الى البحر . وليس ثمة ينابيع ماء والتربة قليلة

الخصب كثيرة الحجارة اللهمَّ ألا بعض البطائح قريباً من دير النورية حيث الثرى قد خصب بما تساقط فيه من اوراق الشجر وبقايا النبات وليس رأس الشقعة متفرداً بما خُصَّ به من الهيئة الغريبة فقط بل به تنوط مسألة أخرى تاريخية يُقتضى حلُّ مشكلها نريد تعيين الطريق الرومانية التي كانت تمرُّ هناك وتتصل بطرابلس . وهي طريق لاشك في وجودها وقد وجدنا منها آثاراً باقية فوق حُشوش على رأس الشقعة . فترى من أي جهة كانت هذه الطريق تنحدر الى سهل شكاً ؟ وممّا لا يُنكر ان منعطف هذا الرأس من جهتيه الشمالية والجنوبية لا يحتمل طرقات مساوكة لوعورتها . أمّا عقبة المسيلحة فانها كما سبق غير مطروقة شتاء وصعبة المسلك في بقية فصول السنة . فهل يأتى قد درست آثار الطريق القديمة بطورى الحدثنان لاسيما بفعل الزلزلة التي حدثت على عهد يوستينانوس فذلك . رأي نوتيه ولا نعلم ما فيه من الصحة . وانما عرضناه لنظر العلماء دون بت الحكم فيه

أما اسم رأس الشقعة عند الاقدمين فهو كما ألعنا اليه سابقاً « ثيوروسويون » ومعناه باليونانية وجه الله . ودُعي ايضاً « لثيوروسويون » اي « وجه الحجر » وفي هذين الاسمين على المرحح اشارة الى اسم الاله الفينيقي القديم . وفي جنوبيه الغربي قرية صغيرة تدعى حتى الان وجه الحجر وثاهيك به اشارة الى اسمها السابق . والحجارة كما لا يُخفى كانت من معبودات الاقدمين . ولنا في صور مثال على ذلك لان معنى الصور الصخرة كما هو معلوم وصور ايضاً من آلهة السوريين (١) وما هو اصرح من ذلك ان عرب الجاهلية كانوا يعبدون الها باسم الحجر . فيكون مدلول ثيوروسويون وليثوروسويون ووجه الحجر اعني الاله الحجري . وقد كنّا في ما مرَّ ارتأينا ان هذا الرأس هو ما دعاه الاشوريون « بعل الرأس » أمّا فنكار فقد زعم ان بعل الرأس هو مضيق نهر الكلب ولا نعلم على أي سند يؤيد زعمه . وابعد من ذلك زعم حضرة الاب لا كرنج في كتابه عن الديانات السامية ان بعل الرأس هو رأس الدامور . والوطنيون يدعونه رأس الشقعة وكان بخّارة الفرنج يعرفونه باسم « رأس وجه » فصنّفوه ودعوه كابوج (Capouge) وكابوني (Capponie) وكاب كُنْج

(١) راجع كتاب فنكار في الكتابات الاشورية ص ٣٥٨ و ٤٧٧

(Cap ponge) وكاب دوج (Cap rouge) كما اشرنا الى ذلك سابقاً . وزعم رينان انه دُعي باسم كاب مادون (Cap-Madonne) . فيكون في هذا الاسم اشارة الى دير سيّدة النوريّة . وكان المسّاحون يهابون هذا الجبل يتخوفون الرياح التي تهبّ في جوارحه . ولذلك ترى في دير النوريّة نذوراً للملاحين نذروا بها عند الانواء وقاموا بوفائها . وقد اختبرنا نحن ايضاً غير مرّة في اسفارنا قوّة الرياح في هذه الجهات بحيث كانت مراكبنا البخاريّة نهسها تشعر بفعلها فاذا ما اقتربت منها تحركت بحركة غير مألوفة

*

ووجهة الساحل من مصبّ نهر الخوز وناحية البترون تعود الى خطّ الجنوب الغربيّ تابعة في سيرها وجهة قطب الجبل الاصليّ بكلّ دقّة كما يتحصّل من مجرد النظر الى خارطة جبل لبنان . أمّا تركيب الساحل فيتراوح بين الصخور والقطّيع الرملية المختلفة السعة

واذا جاوز الساحل مدينة جبيل استدار على صورة خليج واسع قريب القعر مركّزه عند نهر ابراهيم ونهاية استدارته عند رأس المعاملتين (١) وهذه استدارة الساحل توازي استدارة قطب الجبل الاصلي وتقعيره عند جبل المنيطرة وذلك بمقتضى قاعدة راهنة اثبتناها سابقاً في رسم جبل لبنان . وكذلك خور جونية فإنّ استدارته توازي ما حصل لقطب الجبل من الانواء بين المنيطرة وصنين شرقاً . وصنين يبرز هناك على صورة مثلث له على الساحل زاويتان وهما رأس صربا ورأس نهر الكلب . وهو يؤثر في وجهة الساحل الذي يعدل عن الجنوب مائلاً الى الجنوب الغربيّ

ورأس نهر الكلب احرى به ان يُعدّ كدعامة للبنان وهو يحدّد النهر جنوباً ويدخل في البحر . وان اعتبرته في جهته الغربيّة من جهة البحر وفي جهته الشماليّة من صوب النهر وجدته منتصباً كجدار قطع عمودياً والامواج تلاطم اسفله . وصخوره تلامس البحر وهي كثيرة النحاريب متقطعة منخرقة مقعرة وذلك بلا شك من عمل

(١) وهناك ما دعاه الشريف الادريسي بطفة السلام والصواب مطفة سلان

البحر فيها في الازمنة الغابرة اذ كانت مياه البحر المتوسط تغمرها لعلو سطحه فوقها . ولما هبطت المياه وصارت الصخور بارزة عملت فيها العوامل الجوية مواصلة لعمل المياه . ثم كان لا بد من نحت هذه الصخور لتسير فيها طرق الساحل فنُقرت طرق متعددة . منها طريق العجلات التي تجري قريباً من البحر وهي تدور حول رأس النهر وفوقها السكة اللبنانية الحديدية تجري على خط مواز لطريق العجلات . واذا رقيت الى نحو ٣٠ متراً فوق سطح البحر وجدت الطريق الرومانية منقورة في الصخر على عهد مرقس اوريليوس تشهد عليها كتابة جميلة تُرى حتى يومنا عند الجسر الحديث وهذه الطريق يوصل اليها بدرج منحوت في الصخر وهي تستدير مع عطفات الجبل . وفي ذروة هذه الصخور اقدم الطرقات الساحلية وهي التي سلكها الاشوريون والصربون بجنودهم تدلُّ عليها أنصاب عديدة فيها كتابات سمارية وهيروغليفية . وقد مر ذكرها

ثم تجد في لبنان وادياً مئسماً بين جبلي صنين وانكنيسة يوازيه خليج مار جرجس او خور الحضر . وبُعيد هذا الوادي حدة مستديرة شرقاً يجاريها اكبر الرووس الفينيقية وارجبها اعني رأس بيروت . وقياس جهة هذا الرأس الشمالية مباشرة بالصخور القائم فوقها المسلخ الى الربوة التي تعلوها المنارة لا يقل عن ستة كيلومترات وثلاثا هذه المسافة تشغلها البنايات البيروتية . فيكون مقام هذا الرأس ممّا يجدي خصوصاً بيروتنا حسناً ويجعل وضعها من ابداع مواقع المدن الساحلية . وطبقات هذا الرأس السفلى تتراكم من صنف من الطباشير كثير التفتت يجمع اقسامها ملاط من الظران . وامواج البحر قد نفذت الى هذه الصخور واتكملت اوساطها وتركزت سقوفها بلا دعائم تسندها . ولذلك ربما تداعت هذه الصخور وهبطت وانخسفت بفعل تلك العوامل انخسافاً لا يكاد يصدق به من لم يعاينه . ومما يشهد على ذلك صخور ترى في وسط البحر وليست هي الأبقايا جزائر فصلتها هذه العوامل الشديدة عن الساحل . ولنا شاهد حسي على قولنا في جزيرة الحمام جنوبي رأس بيروت . وهناك ايضاً كهفان شهيران تكوّنًا على هذا النمط عينه . ولا شك ان سقفاً يسقط عمّا قليل كما جرى للكهوف المجاورة التي تُرى اليوم على شكل نصف دوائر على صورة جسور طبيعية الى غير ذلك من الهياكل الغريبة التي سبق لنا الكلام فيها

وفي جنوبي غربي هذا الرأس تمتد رمال بيروت التي يباع معظم طولها سبعة كيلومترات في عرض كيلومتر ونصف . وقد بيّنا في ما مرّ تركيبها واصلها البحري وهي ترحف على بيروت من الجهة التي تنتهي عندها الصخور ولعلّها تغمر بفاراتها حدائق المدينة لولا أنّ غابة الصنوبر تردّ قسماً منها

وجنوبي شبه جزيرة بيروت يعود الخطّ الساحلي الى استقامته المملّة لا يخالفها سوى بعض ركام الصخور لتتصب من مسافة الى اخرى اخضها رأس الدامور عند نهر الدامور ثم رأس جدره في وسط الطريق بين نهري الدامور والأولي ثم رأس الريميلة بمقربة من الأولى وهذه الرؤوس الثلاثة جُرن تجاورها وفي اثرها أخيراً رأس صرفند بين صيداء والديطاني على نحو نصف الطريق بينهما وبعد هذا الرأس لا يخالف الساحل الخطّ المستوي الى نهر القاسمية

*

قد لحظ قرأونا في ما سبق لما من وصف الساحل الفينيقيّ أنّنا لم نأتِ بذكر الجزر وعدم وجودها ثمّ يزيد في وحدة اتساق هذا الساحل . على أنّه في مرفأ طرابلس من جهتها الجنوبية الغربية عدّة جزر تدعى أكبرها النخلة وهي تبلغ نحو مئتي متر بلّيف وقد فكرت الحكومة السيئة غير مرّة بنقل الجزر الصحي والبضائع المبوّاة اليها ومع قلّة الجزر في سواحلنا قد توفرت الصخور البحرية وهي كانت سابقاً متصلة بالساحل لاسيّاً بالرؤوس البحرية . وكثير منها لا تطفو فوق المياه وفي مصادمتها خطر متواصل للسفن التي تلامس نواحينها وخصوصاً اذا جرت قريباً من الرؤوس المذكورة

ومسّاً سبق يلوح جهاراً بأنّ السواحل الفينيقيّة لم تعدّها الطبيعة لتجارة السلاط ولسكنى قوم من البحّارين اذ لا تكاد تجد عندها مرفأً صالحاً كما أنّه ليس فيها نهر داخليّ يمكن خوضه . هذا فضلاً الى استقامة خطّها الساحلي الذي تكثّر فيه الرؤوس والصخور دون خلجان او اخوار تأوي اليها المراكب ودون جزيرة تستلفت اليها انظار البحّارين

ومع كل ذلك ترى التاريخ يشهد لعظم تجارة الفينيقيين واتساع نفوذهم ووفرة مقايضاتهم . أفليست مناقضة بين هذين الامرين ؟ لا لعمري لأنّ لفينيقية موقعاً خصّت

به دون غيرها وذلك لتوسطها بين جهات الممالك الشاهانية ووقوعها في طرف آسية غرباً فتجتمع بين الشرق والغرب . وان قيل انّ جبل لبنان حاجز شاهق يحول دونها اجبنا انّ لهذا الجبل في شماليه وادياً عميقاً وهو وادي النهر الكبير يمكن القوافل ان تسيّر في بطائحه فلم يسهُ الفينيقيون عن طريقه مع ما طُبعوا عليه من التفنن في ترويض الصنائع التجارية . فان اهل فينيقية ادركوا ما خصّ الله به من حسن الموقع موطنهم فكدّوا وجدّوا لتحسين شؤونها والتعويض عما ينقصها . ولذلك جروا في مسالكها الطبيعية وفتحوا لها مرافئاً صناعية كافية لسفن تلك الاعصار وهي زوارق مسطحة قليلة العمق كان يكفيها ما لا يكفي في زماننا للسفن المتوسطة الكبر

ومن فحص المدن الفينيقيّة وتبحّر في وضعها السابق استدلّ على انّ اصحابها كانوا من مهرة البحّارين كما نعرف قوّة اجنحة الطائر بعائو طيرانه وسرعة جريه . وما لاريب فيه انّ البحر كان موطن الفينيقيّ وكان لا يرى في البرّ الا مقاماً مؤقتاً يبني فيه كالطائر عشّه لتأوي اليه حيناً فراخه ثم يعود ذاك البحّار فيخوض بحاري البحر بارتياح كما تجد السمكة راحتها في غمر المياه

وهذا ما حمل الفينيقيين على ان يستخيروا لسكناهم الرؤوس والالسنه والرووس الداخلة في البحر وان قلّ ماؤها الشّروب او بعدت عن مصبّ الانهار اللهمّ الا بعض مستعمراتهم كبيروت التي توفّرت المياه في آبارها فاشتتّت منها اسمها . واستوطنوا بعضُ جُزُر كصور وصيداء اللّتين كانتا سابقاً في جزيرتين . امّا الغالب على المدن الفينيقيّة فبنائوها على الرؤوس البحريّة وذلك لسببين يهمان البحّارة عادةً الاول انّ السّفن تكون وراء هذه الرؤوس في مأمن من تراكم الرمال الذي يحصل قريباً من مصبّ الانهار والثاني انّ المياه تكون ثمة ابعد غوراً من امكنة سواها . والدليل على حسن اختيارهم لهذه المواقع انّ مقام المدن الساحلية لم يتغيّر منذ نحو اربعة آلاف سنة ولم تنشأ الشعوب التي خلفت الفينيقيين مدناً غير ما سبقهم اليها الفينيقيون وان كان بعض المدن القديمة قد انحطّ شأنها انحطاطاً كبيراً

*

هذا وقد بقي علينا البحث عن امر آخر له علاقة مع وصفنا السابق لسواحل

لبنان . نريد الكلام عن المرفأ التي تفتح للمدن الساحلية مسالك تجارية مع باطن البلاد وتتقرب الوسائل لمواصلة الاطراف القاصية والجمع بين الاهلين وان اعتبرنا اول مدينة من فينيقية الشمالية اعني طرابلس الشام وجدناها خالية من المرفأ مع ان الطبيعة قد خصت طرابلس بما يجعلها من امهات المدن . فان موقعها قريباً من وادي نهر الكبير ومركزها المتوسط بالنسبة الى جهات سورية لاسيما قربها من وادي العاصي واتصالها بالبقاع والحاء دمشق لما يمتد بينهما من السهول الجامعة بين اقصيها فان بُني لها مرفأ واتصلت بها اسلاك السكك الحديدية اضحت احدى حواضر بلاد الشام بل جاز ان تكون مرفأ حلب وهي اخرى بذلك من بيروت والحائل الكبير دون ابتناء ذلك المرفأ في طرابلس لا لكون الامر مستحيلاً بل لما يقتضيه من النفقات الباهظة . ومأ لا ينكر ان الصخور الطافية على وجه البحر من جهة الغرب يسهل استخدامها لصيانة هذا المرفأ من الريح الغربية التي يكثر هبوبها في سواحلنا . وكذلك يمكن ان يُسند الى هذه الصخور شمالاً حاجز يقوم في وجه الامواج الشمالية . لولا ان ابتناءه يقتضي مبالغ عظيمة لبعد قعر البحر من جهة الشمال وهو يبلغ ضعف عمق بيروت اعني ثلاثين متراً ثم ان شاطئ البحر على طول كياومتر بنيف قليل الماء فيستلزم لاصطناع مرفأ اعمالات مالية مهمة . وقد فكرت الحكومة السنية غير مرة باصلاح مرفأ طرابلس . فمن ذلك ان صاحب الدولة فحجي حسن باشا وزير الخارجية وضع للحكومة السنية تقريراً يبين فيه ضرورة ابتناء مرفأ طرابلس وقدّر النفقات لهذا المشروع بنحو ١,٥٠٠,٠٠٠ فرنك . وعادت احدى الشركات الوطنية الى النظر في هذا الامر سنة ١٨٨٩ وبجث عنه وعن السكة الحديدية بين طرابلس وحمص لما بين المشروعين من العلاقة اللازمة فكانت نتيجة البحث انه يلزم لذلك ١٤ مليوناً من الفرنكات ولعل ضعف هذا المبلغ لا يفي بالمرغوب وان نظرنا الى البترون وجدنا ان وضعها الجغرافي لا يناسب فتح مرفأ فيها لوقوعها قريباً من رأس الشقعة وفي سفح مشارف لبنان الشاهقة . وزد على ذلك ان شطها كثير الصخور . وان صح قول المؤرخ مالالا ان الزلولة التي حدثت على عهد يستينان أجدت البترون مرفأ فذلك قول لا يمكن بيان صحته اذ لا نجد اليوم له اثرًا بل تستحيل الدلالة على مكانه

ولجبل مرفأ صغير طوله مئتا متر في عرض مئة متر (١) وليس من حاجة الى توسيع نطاقه لقلّة الحركة التجارية فيه ولعدم اتصاله بالاراضي الداخلية امّا جونية فقد مرّ الكلام عنها سابقاً فلا نعود اليه . وكذلك نضرب الصفح عن بيروت ولها المرفأ المعروف الحديث النشأة الكافي لتجارتها الحالية . فلم يبق لنا لتأم هذا الفصل سوى البحث عن مرفأ لصيداء

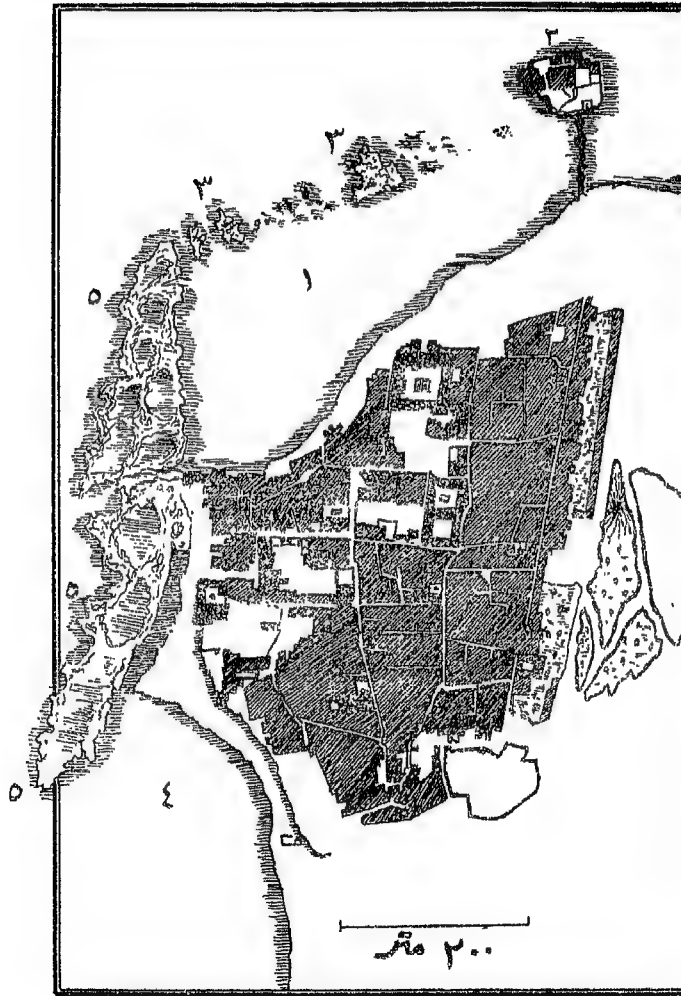
يلوح انّ مدينة صيداء القديمة كانت جزيرة كما كانت صور رصيفتها وكان لها مرفأان احدهما في جنوبها والآخر في شمالها . وكان الاول يُدعى بالمرفأ المصري وقد تراكمت فيه الرمال التي سقّتها الرياح الجنوبية الغربية من جوف النيل فانسدّت بحيث لا يمكن استعماله . امّا المرفأ الشمالي فاحسن وضعاً تصونه صيانة كافية الصخور التي تمتدّ حوله . الا انه صغير طوله ٦٠٠ متر وعرضه مئتان ولا تدخله الا المراكب الشراعية ولما عاد الى صيداء قسم من حياتها التجارية في القرن السادس عشر كانت السفن ترسو شماليّ هذا المرفأ في نوع من الميناء مفتوح من الطرفين ووراء جزيرة صغيرة من الصخور التي فوقها كان بُني قصر قديم . وكانت السفن في مأمن من الريح الصرصر التي تهبّ من الجنوب الغربي الا انها كانت معرضة للرياح الشمالية وليست هي دونها خطراً . والرسو في هذا المكان صعبٌ جداً لانّ قعر البحر هناك صخري لا تنشب فيه المراسي فضلاً عن انّ القلوس كانت تغنى بالاحتكاك . الا انّ هذا المرفأ كانت تحميه قلعةٌ مبنية على صخر مجريّ بازاء البلدة وهي متصلة بالبرّ بجسر متعدّد القناطر (٢) . امّا اليوم فليس هذا المرفأ بكافٍ للسفن البخارية لقلّة عمقه ولذلك ترسو بعيداً من الشاطئ

وبقي هذا المرفأ مع خله الى غاية القرن الثامن عشر مورداً تتقاطر اليه السفن التجارية . وكانت تجارة دمشق تنصرف اليه . ثم بطل بفعل الزمان وعندنا ان هذا المرفأ قد سدّته العوامل الطبيعية . وان قيل انّ لصيداء مرفأً داخلياً يمكن اصلاحه

(١) راجع رسمه ص ١٥١

(٢) راجع كتاب المسيو ماسون (Masson) عن التجارة الفرنسية في البلاد الشرقية

اجبتنا ان الامر ليس بسهل مهما قاله الميسر لورته في كتابه عن سورية (ص ٩٨) .
امّا المرفأ الشمالي السابق وصفه والمصون بقلعة البحر والجسر ذي القناطر فان اراد احد
اصلاحه عجز عن ذلك ان لم يضع حجروية موازية للشاطئ يبلغ عرضها ٦٠٠ متر ليكون



صورة مرفأ صيدا

١ المرفأ الشمالي ٢ قلعة البحر ٣ بقايا الرصيف القديم ٤ المرفأ الجنوبي ٥ جزر صخرية

ثمة عمق المياه ستة أمتار ثم يقتضي إنشاء سد يستند الى القلعة ومع كل ذلك يكون هذا المرفأ عرضة للرياح الشمالية . وعليه فإننا نرى مع الانكليزي لوفت كامرون (Lovett Cameron) ان هذا المرفأ لا يكون موافقاً للتجارة ما لم تُنفق عليه النفقات الطائلة (١) . اما البلاد الداخلية المتصلة بصيداء فقليلة الخصب . ولا أمل في جعل هذا المرفأ فرصة لدمشق اذ ان بين صيداء ودمشق حواجز من الجبال كما بين دمشق وبيروت . وعندنا ان هذه النفقات لو صرفت على طرابلس لكان الريح اوسع والنفع اعم والله اعلم

١٤

لمحة اقتصادية

في مجاري المياه اللبنانية

قد ذكرنا غير مرة في ما سبق من كتابنا ان مجاري المياه في لبنان عوائد جمة ودوراً مهماً في اقتصاد الاهلين . الا ان كلامنا هذا كان منبثاً في مطاوي ابحاثنا السابقة وامله لم يستلقت اليه انظار القراء فرأينا العود الى هذا الموضوع احمد لعظم شأنه ولذلك افردنا له فصلاً مفرداً نبين فيه ما تحويه هذه المياه من الكنوز الدفينة التي جعلتها العناية الالهية في ايدي الوطنيين ومن ثم نبحت اولاً عن المبادئ العمومية التي يستند اليها هذا البحث ثم نتبع مجاري المياه فرداً فرداً لنرى ما يستفاد من كل منها وذلك خصوصاً على ثلاثة وجوه : إماماً بالري لتسقي الزدراعات التي تبيس دون الماء . وإماماً بتحريك ادوات المامل بدلاً من الفحم واصناف الوقود . وإماماً بنقل الماء الشروب الى المدن الكبرى المحتاجة الى مناهل يستقي منها السكان

١

المبادئ العمومية

قد اتاح الله لبلاد سورية قوى طبيعية عجيبة لو استفاد منها الاهلون لوجدوا فيها موارد ربح لا تفتنى لولا ان هذه القوى تذهب سدًى وتتلاشى دون فائدة بحيث يصح القول انه ليست الطبيعة تقصر عن خدمة الانسان وانما الانسان هو المقصر في استخدام قوى الطبيعة مع قرب مناهلها . والحق يقال ان مجاري المياه اللبنانية كافية لان تحول بلادنا الى بقع زاهية بسمعي شركات زراعية او تغنيها بالمعامل الصناعية فيقتات من ارباحها الوف من السكان الا انها تنحدر في الغالب الى البحر بلا فائدة او تستنقع في البطاح الموبسة لا يُستثنى من هذا الحكم الا نهر او نهران يستنزف اللبنانيون مياههما لري المزدروعات . اما نتيجة هذا التهامل فبنست النتيجة اذ ترى الارض في فصل الشتاء مغمورة بالمياه المفرطة المضرة بالزراعة وبالصحة العمومية معاً وفي الصيف تنقص المياه وتنضب الى ان تيس البقول ويتلف اهل بعض المعاملات عطشاً مع قطعانهم

وفائدة المياه ظاهرة في الزراعة لا يجمل ضرورتها احد . بيد ان قليلين يدركون عملة ذلك وباي طريقة تعمل المياه في النبات

ان عمل المياه في الفلاحة يكون خاصة على وجهين مختلفين : الاول يزودته والثاني بتركيبه الكيموي . وذلك ان الماء اذا نفذ في الارض لطف حرارتها وابطأ نمو النبات ولولا السقي لركا قبل اوانه ويبس دون ان ينال من الغذاء ما هو ضروري لنموه الثانوي . ويصيبه ما يصيب الولد اذا نشأ وكبر قبل السن الطبيعي فربما اذاه نموه الى ان يمته . فكذلك النبات لا يأتي بشمره او يكون ثمره قليلاً تافهاً . وقد ادرك العامة هذه الحقيقة في بعض امثالهم الشائعة فقالوا عن البذور النامية بسرعة وافراط « طويل بلا غلة » لعلمهم بان الزكاء الظاهر ليس بدليل على كثرة الامثار

اما كون الماء يفيد النبات بتركيبه الكيموي وجوهره فذلك لانه يساعد النبات على تحليل المواد المغذية وتركيبها منها اجزاء الكربونية وعلى امتصاص الاملاح المعدنية من الارض بما يجديده للنبات من الرطوبة . ولعل فعلة اشد واقوى بما يحرقه في

سيده من التربة ويسحب من بقايا النبات والاحرام المختلفة، وهذه المواد المجروفة تحتوي عناصر مخصبة اذا ما رسبت واختلطت بالتربة الزراعية اصلحتها وصارت لها بمنزلة السماد وربما بلغت كمية هذه التربة التي تجرفها الانهار الوف الوف من الطنات . قال اليزاي روكلو في جغرافيته (ج ٢ ص ٦٧٨) : ان نهر دورنس احد انهار فرنسا الجنوبية يجري في السنة نحو ١٨,٠٠٠,٠٠٠ طن من التربة المجروفة وذلك ما يساوي مكعباً جهاته ٢٢٠ متراً رسبت على سطح متساو في طبقة سمكها سنتيمتر واحد لكان متسع الارض التي يخصبها في السنة مئة الف هكتار . وهذه التربة المجروفة معدة احسن اعداد لنمو النبات تستخلص جذوره منها كمية من الازوت المغذي اكثر من كمية ١٠٠,٠٠٠ طن من سماد الغوانو المعروف بخصبه . فلا غرو اذا كررنا مع الطبيعي الشهير طوريشلي : « ان الطين الذي تجرفه المياه اثن من رمل الذهب » . واعل ذلك ما دعا قداماء السورين بان يسئوا « نهر الذهب » (*Xpυσσόροζ*) بعض الانهار التي تجري في بلادهم كنهر بردى في دمشق ونهر جوش ما وراء الاردن والنهر الذي كان يجري بجوار مدينة لوقاس (وهي مدينة لم يُحدد موقعها حتى اليوم) فليت شعري من يمكنه ان يشتم ما اتت به كل هذه المياه من الكنوز الزراعية منذ مئتين من السنين . أفليست هي حقيقة اثن من معادن الذهب التي تفتى كنوزها بعد مدة قليلة ؟

ولنا في النيل مثال قريب عن منافع هذه الجروف التي تسحبها الانهار فان هذا النهر العظيم في فصل الفيضان يدحو كل يوم ما ينسف عن الف الف كيلومتر من المواد النطرونية ويصبها في البحر وهو مع ذلك يُخصب في طريقه مسافات قدرها ملايين من الفدادين . ومع اننا لا نعلم بالضبط بطريق التحليل الكيماوي ما تحتويه المياه السورية من الثروة المعدنية الا انه لا مَرَّراً اننا غنية بها وكفاك دليلاً ما يُستفاد بالمقابلة . فان الاختبارات الجيولوجية في اوربة بينت ان معدل ما يدخل من نترات البوطاس في متر مكعب من مياه العيون والانهار الجارية في الجبال المركبة من الطبشير يساوي ١٣ غراماً اما النسبة فتختلف بين ستة غرامات الى ستين غراماً ومعلوم ان عنصر الطبشير هو الغالب على جبالنا فلا بد ان تكون نسبة نترات البوطاس في مياهنا اقرب الى ستين غراماً لارتفاع درجة الحرارة عندنا فتري من ذلك ما تكسبه السهول المركبة عادة من الصلصال اذا اختلطت فيها هذه المواد الطبشيرية لان الصلصال

أما تخصبها العناصر الكلسية التي تحللها المياه . ومن ثم ينبغي على الاهلين ألا يفقدوا شيئاً من هذه الكنوز ولا يدعوها تستنقع في البطائح او تنصب في البحر دون فائدة هذا واننا نعلم ان كل المياه لا تصلح لتدسيم التربة لأن ذلك منوط بتركيبها ألا انها كلها تلطف الحرارة بطراوتها وتنفيدها نداوة وتريدها خفة وتسهل فلاحتها للناس وللبهائم ثم تحلل العناصر المخصبة فتنفذها في بطن الارض وتنقسمها اقساماً متساوية وتزيد مرافقها وغلاتها على قدر ارتفاع درجة الحرارة حتى ان التربة يمكنها ان تأتي في السنة الواحدة بغلتين متواليتين بدلاً من غلة واحدة غير مستوفاة في الاراضي اليابسة وذلك رغماً عما يطرأ على الهواء من التقلبات الجوية . فهذا لعمرى نفع جليل لا يوازيه آخر فكم رأينا من الزروع المفقودة أما لقلة الامطار او لتأخر وقوعها بعد ان امتصت حرارة الصيف نداوة الثرى . خلاصة القول ان السقي المنظم هو الذي يؤتي المزدروعات ويبرد لظى القيظ بطراوة مناسبة لكل قطر ويعني التربة بالسماد مجاًناً ويخلط العناصر فيخصبها بلا نفقات ويكثر غلاتها بلا تعب ويأتي اخيراً بالثروة والراحة (١)

ولهذه الانهار في غير بلادنا نفع آخر لم نحصل نحن عليه وهو خوض هذه الانهار وركوبها بحيث تصير كطريقة للمواصلات التجارية . وقد حرمانا ذلك لاسباب منها قلة مياه هذه الانهار او بالاحرى هذه الجداول واختلاف كميتها في فصول السنة . اجل ان بعض هذه المجاري كالنهر الكبير والليطاني كثيرة المياه في ينايرها ورووس عيونها ألا انها تجري في المضائق وبين الجنادل والصخور التي تعيق مسيرها فلا يمكن ان تتحول الى مجاري مستقيمة السير متساوية العمق مستوفية لشروط الملاحة وقد شبهها الاقدمون بضواري السباع الشرسة الطباع من اسد وذئب (٢) اشدّة جريها واندفاع مياهها

فبعد هذه المقدمة هلمّ نبحث عن كل نهر بانفراده لنستدل بوضعه عن الفوائد التي يمكن نوالها من مياهه من حيث الوجوه الثلاثة التي سبق ذكرها اعني الري وتحويل الماء وتزويد المدن بالمياه

(١) راجع كتاب الاديب وديع مدور المنون سورية الزراعية (La Syrie agricole, P. 74, 84-85)

(٢) دعا الاقدمون نهر (الكلب باسم نهر الذئب) (Λύκος) والليطاني نهر (الاسد) (Λέωντος) ποταμός راجع كلامنا السابق (ص ٢١)

كيفية الانتفاع من الانهار اللبنانية

فلنباشرن بالانهار الجنوبية واولها (الليطاني) وبما ان هذا النهر يجري باديء
 بده في السهل فلنبحثن عن جريه في البقاع وخصوصاً عن ضفته الغربية لان الضفة
 الشرقية لاحقة بالجبل الشرقي ثم ننبهه الى مصبه في البحر
 ليس نهر الليطاني قبل بلوغه المعلقة الا مسيلاً قليل المياه بطيء السير لا يفيد
 الزراعة افادة تذكر فيستتفع في السهل وانما يضيحي مجراه حيثما وراء معلقة زحلة
 حيث ينصب فيه البردوني والبردوني نهر غزير لا تنقطع مياهه صيفاً وشتاءً تده الثلوج
 الغراء المتجمعة في قم صئين وهو كافٍ ليس فقط لان يحرك الطواحين التي ترى اليوم



منظر الليطاني قريباً من قرية برغش

في طريقه ولكن يمكنه اذا بُفيت له قناة حسنة ان يزود بالماء الشروب كل مدينة زحلة ومعلّتها اعني ٢٥,٠٠٠ نفس . وهو على خلاف ذلك لا يُستعمل الا كمجرى لاوساخ المدينة فترى مياهه الزلالية عند معينها تنصب متعكّرة سرداء في الليطاني . فيا ليت شعري أهكذا تُنفق كنوز هذا النهر الذي لا يقل طول مسيره عن ٢٤ كيلومتراً ؟

واذا سرت ونهر الليطاني جنوباً وجدته يزداد ويقوى بما يجري اليه على ضفتيه من السواعد كشتوراً ونهر عين جار ومياه قبّ الياس وعين قلعة المضيق الى غير ذلك من الجداول الصافية المتحدرة من لبنان ومن الجبل الشرقي الغنية بالمواد الكاسية . وهذه المياه لو اتُخذت لسقي سهل البقاع لنفعت تربته الصلصالية واصلحته لولا ان هذا النهر يبالغ حينئذ في طرف السهل الجنوبي الغربي مضيقاً بعيد الغور مرتفع الضفتين بحيث لا يمكن الاستفادة منه لا للزراعة ولا للصناعة . وبعد اجتيازه في هذا الغور العميق يندفع بقوة عظيمة وهو عند مخرجه يُدعى بالقاسية ثم لا يزال جارياً حتى ينفذ في البحر . ولو سعى بعض اهل المهمة لأمكنهم ان يستفيدوا من مجراه فيسقوا الضواحي القاحلة التي بين صور ومصب هذا النهر فيكسبوا الزراعة مساحةً تبلغ ستة كيلومترات طولاً في عرض كيلومتر بنيف ويجولوها الى بقعة كثيرة المرافق طيبة الاثمار كبقعة صيداء المشهورة بخصبها وهي اوسع منها خمسة او ستة اضعاف . وما خلا السقي يجوز ايضاً استعمال هذه المياه للمعامل الصناعية بان تُحصر وتُجعل على شبه شلالات متحدرة

*

(الزهراني) هو من اطول الانهار اللبنانية مسيلاً ومياهه قليلة لاسيما في فصل الصيف . واذا بلغ الجهات السفلى اذار نحو ثلاثين طاحوناً وسقى بعض الحقول . لكن كثيراً من مياهه لا تأتي بفائدة فلو استُعملت لسقي السهل المنبسطة عند مصبه لأضحت حدائق صيداء ثلاثة اضعاف ما هي اليوم وزادت ارض الفلاحة نحو الف هكتار بدلاً من الارض البوار التي ترى هنالك قاحلة يابسة لا يزكو فيها زرع اللهم الاً بقعاً قليلة السعة تأتي بغلات ضاوية واعلم ان مسيل الزهراني عند اقترابه من البحر هو دون سهل صيداء فاذا عول

الاهلون على استخدام مياهه ينبغي لهم ان يبتنوا لها قناة في علو الوادي فيتسمنوها على مقتضى حاجات ارباب الفلاحة . وحري بهذه المياه وان كانت اقل من مياه الاولى ألا تُترك سدّى ولا تُهمل فتتجمع في مستنقعات وبيئة . وكان الرومان قد ادركوا نفعها فوضعوا للزهراي قناة عند عينه تراها متفورة في الصخر وهي تتصل بقناة أخرى مبنية بالحجارة المبلطة تتبع الوادي وتدور حول الجبل متواصلة بصيداء . ومن المرجح ان اهل صيداء قديماً كانوا يشربون من مياه هذا النهر فيفضاوتها على مياه الاولى ولذلك لم يأنفوا من كثرة النفقات جلبها من معينها (١)

(الاولي) من الانهار التي يقدر نفعها الاهلون . كيف لا وهو غزير المياه يستلقت اليه الانظار بوفرة مادته . وقد عرف الشيخ بشير جنبلاط في اوائل القرن التاسع عشر ما لهذا النهر من الجدوى فاتخذ له قناة جعلها عند نبعه الباروك فجلب الماء الى المختارة وقسمها من ثم بين القرى المجاورة فاحالها الى جنات غناء تشبه غور دمشق الشهير بخصبها . وفي وادي بسري قناة اخرى قديمة تجمع المياه لمنفعة اهل صيداء فيستخدمونها لسقي البساتين وشرب السكان . ثم تنفذ في قناة تحت الارض وتسيل الى البلد حيث يستفيد منها الصيادون لخدمة نحو ٨٠ بناية عمومية من مساجد وكائنات وحنّامات وتُقسم الى ٩٢ مأسورة فتسقي كل احياء البلدة . واذا اُضفت الى ذلك عدّة طواحين تدبرها المياه عرفت غاية ما يناله الاهلون من الاولى . ألا ان هذه المنافع بالنسبة الى غزارة النهر قليلة اذ لا يستفيدون الا من ثلث مياهه فيضيع منه ثلثان في البحر . ولو شاء الصيادون ان يربحوا من هذا النهر فوائد جمة بنفقات قليلة فيتخذوا المياه المفقودة لمعامل شتى وتوسيع نطاق بساتينهم التي هي مورد ثروتهم

(الدامر) يصح فيه قولنا عن الاولى . فان هذا النهر كثير المياه غير ان معظم مياهه تنصب في البحر بلا نفع . وان اُمنعت النظر في الخدم التي يوذيها وجدها قليلة بالنسبة الى وفرة مادته فانه في سيره الاعلى وعلى مقربة من مصبه يدير عدداً من الطواحين . اما بين هذين الطرفين اي من جسر القاضي الى السهل فانه يسير في وادٍ

عميق ضيق لا يمكن تجهيز الطواحين عنده . وقد كان الامير بشير عمر الشهابي ابتني قناة من نهر الصفا احد سواعد الدامور وجرّ ماءه الى بيت الدين فانتفع به اهلها واهل دير القمر . وهذه القناة لا تزال حتى اليوم تواصل خدماتها لسكان تلك الناحية . ثم ان مياه الدامور تسقي ايضاً مزارع التوت في جهات المعلقة وتجعل أرباضها كرياض فيحاء . وحدائق غناء يندر مثلها في بلاد الشام . على ان كل ذلك قليل بالنسبة الى ما يمكن تحصيله من هذا النهر فلو وسّعت قنواته لاستطاع اصحاب المعامل (الكراخين) ان يولدوا من تحدر مياهه قوة كهربائية كافية لتدوير دواليبهم وان يستقوا السهول الرحبة التي بين المعلقة وخذلة . وقد زادت اليوم منافع المياه منذ نُجِزَ طريق العجلات بين بيروت وصيداء فاخذ عدد السكان ينمو وهم يحاولون الارتقاء بالزراعة الا ان مساعيهم سوف تجبّط اذا لم تتوفر كمية المياه التي يحتاجون اليها

(نهر بيروت) يأتي بالمنافع المنتظرة منه فانه يحرك الطواحين العديدة ويسقي السهل كله ولذلك ترى مسيله يابساً في وقت الصيف من الجسر الذي بناه المرحوم رستم باشا . واذا بلغ الى البحر منه شيء فذلك من فضلات القني بعد سقي المزروعات وهذه القنوات غير محكمة تسيل منها المياه وتنسبط في سهل بيروت وانطلياس ولا تلبث ان تتحوّل الى مستنقعات تنبعث منها الجراثيم الوبيئة المسببة للحُمّيات المalarية . ولو بُليت هذه القني بيلة كافية لتحدّرت الى البحر . هذا ولا يُنكر ان المزارع في هذه السنين الاخيرة قد اتسعت فتحسّنت بذلك احوال الجوّ وقلّت الحُمّيات نوعاً . وأملنا ان المزارعين يفرغون الجهد ويضاعفون العناية في اصلاح ما بقي من الحقل لتزيد بذلك ارباحهم ويتلاشى كل خطر على الصحة العمومية

وفي القسم الاول من كتابنا « تسريح الابصار » (ص ٢٨ - ٢٩) وصفنا القناة التي عُني ببنائها القدماء لسقي سهل بيروت وجلب المياه العذبة للبلدة . ومن اعتبر مشروعهم هذا اخذه العجب من حسن نظرهم واصابة رأيهم وكفاهم فضلاً ان مياههم كانت تجري الى بيروت بقناة مغطاة بصفائح الحجارة فتأتيها صافية باردة يتهنأ بشربها السكان دون خطر من الجراثيم المعدية

(نهر انطلياس) استفاد منه مدة احد افاضل الوطنيين لانشاء معمل ورق اضطرته الظروف الى تركه ومياهه تدبر بعض الطواحين الا ان تسعة اعشارها لا

تجدي نفعاً فتذهب سدًى وتنصب في البحر بعد قطعها مسافة قليلة

*

(نهر الكلب) ان مياه هذا النهر تؤدي خدماً عديدة كسقي المزرعات وتدوير الطواحين. إلا أن فائدتها العظمى ربي بيروت وتزويد أهلها بالمياه الطيبة بفضل شركة المياه المعروفة التي ذكرناها غير مرة في مطاوي أبحاثنا السابقة. ومياه نهر الكلب تُخزن ليس بعيداً من منبعها فتجري في قناة مكشوفة فتتبع تعريج الوادي وتوريبه حتى تقرب الى نحو عشر دقائق من مصب النهر في البحر فتتفد في القلعة التي يعلوها دير مار يوسف البرج وتجري المياه في سرب يؤدي بها الى الضيعة. وقد جعلت من مسافة اخرى كوي نُقرت في عطف الجبل لرحض القناة اذا دعت اليه الحاجة ومن الضيعة ترى القناة مكشوفة حتى تبلغ أخيراً معمل الشركة حيث ادواتها الدافعة ومصافيها قريباً من محطة الضيعة وفي المعمل رُفاس مائي يدفع الماء في القساطل التي تجلبه الى بيروت. واذا قلت المياه في فصل الصيف اتخذوا آلة بخارية جهازها منذ بضع سنوات لوقت الحاجة. ولهذه المياه احواض عديدة في تلّ مار مري تتجمع قبل ان تُقسم على احياء المدينة. وامتياز هذه الشركة كانت الدولة العلية منحة للمهندس الفرنسي المسيو تفتين الذي نال ايضاً من تعطّفات امتياز ابنية الرفا سنة ١٨٨٢ ثمّ شكّلت شركة المياه كما هي اليوم سنة ١٨٧٦ وأنجرت بعد مدّة الاعمال التي بوشر بها قبل ذلك العهد بسنة وعُرفت منذ ذاك بشركة مياه بيروت - Beyrouth Water works Company limited ولما انتهى حديثاً زمن الامتياز الممنوح لهذه الشركة جددته على شروط اشترطتها عليها الحكومة السنية منها ان تخفض اجورها وان تمنح مجاناً كل يوم ٢٥٠ متراً مكعباً من الماء وان تنقص قسط البلدية الى ١٥٠٠٠ فرنك واذا استهلكت ديونها مع دفع الفائدة يكون ثلث الارباح لبلدية بيروت هذا وان الاطلاع على احوال هذه الشركة لأمر صعب جداً فلا يمكننا ان نعلم عن مدخولاتها ومصاريها الا شيئاً قليلاً استفدناه من تقرير بعض الانكاي. من ذاك ان الشركة كانت ربحت في سنة ١٨٨٤ ١٤٣٢٨٧ فرنكاً وان عدد المشتركين كان ١٥٦٣ وليس لدينا تفاصيل لما قبل هذه السنة. ودونك جدولاً اخذناه ايضاً من مصادر انكليزية يبين اجمالاً حالة اعمال الشركة من السنة ١٨٩٠ الى ١٨٩٦

السنة	المدخول	المصروف	الربح الخالص	الاشتراكات	اشتراكات السقي
١٨٩٠	٣٠٢,٦١٥ ف	٠٧٨,٦٧٤ ف	٢٢٤,٠١٧ ف	١٩٨٣	١٣٧
١٨٩١	٣١٢,٤١١	٠٨١,٧٥١	٢٣٠,٦٩٠	٢١٣٠	١٢٥
١٨٩٢	٣١٤,٨٦١	٠٨٧,٨٠٤	٢٢٧,٠٥٧	٢١٤٦	١٤٣
١٨٩٣	٣٢٢,١٦١	٠٩٦,٥٤٤	٢٢٥,٦٢٦	٢٢٢٣	١٤٢
١٨٩٤	٣٤٣,٠٦٣	٠٩٦,٢٩٣	٢٤٦,٨٦٩	٢٤٨٠	١٥٠
١٨٩٥	٣٥٢,٣٤٧	١٢١,٥٦٤	٢٣٠,٨٨٣	٢٨١١	١٣٧
١٨٩٦	٣٥٠,٢٨٠	١٢٠,٩٦٠	٢٢٩,٣٢٠	٢٨٩٦	١٥١

والشركة رأس مال قدره ١٤٤٠٠٠ ليرة انكليزية ويظهر من ترقّي اعمالها وزيادة عدد مشرّكيها واسراعها في تجديد الامتياز الممنوح لها ان امورها على قدم من النجاح هذا فضلاً عن ارتفاع اسعار الاقساط . على ان الشركة قد تحمّلت نفقات في جلب المياه خصوصاً لاجرة العمّلة التي حُسبت في اليوم كما تُحسب للعامل في لندن (٦ شلّينات) ولثمن السرب في تلّ دير مار يوسف البرج الذي بلغ الاربعين في المئة من مجموع النفقات . وزد على ذلك ما صرفته في عدّة دعاوي

والشركة تستطيع ان تسلّم في بيروت متراً مكعباً من الماء في الثانية والاشتراكات تتزايد يوماً فيوماً إلا ان كثيراً منها لا تتجاوز ربع المتر المكعب فليس من ورائها ربح يُذكر . وفي بيروت الان ثلاثة احواض قريباً من تلّ مار مقري اقدمها الحوض الاسفل محتواه ٢٨٠٠ متر مكعب وقد بُني حوض آخر قريباً منه مضمونة ٣٠٠٠ متر مكعب والحوض الثالث هو الاعلى مسمولة ٢١٠٠ متر والشركة تفكّر في ابتناء حوض رابع فيكون للشركة عند قطع المياه ما يكفي لتسوين البلد مدّة ٤٨ ساعة . واعلم ان الآلة البخارية التي جُهّزت في الضيعة وكثرت نفقاتها يبلغ معدل شغلها في السنة نحو ٢٠ يوماً فقط عند نقص المياه

وفي الضيعة ثلاثة ارباع الماء الذي يحرك الرقّاس تنصبّ في البحر . أما الماء المستعمل لريّ السهول المجاورة فريجه لا يُعبأ به لانّ الزراعة هناك ليست بغصبة وذلك انّ الريح البحرية لا توافق زراعة التوت والليمون فلا يبقى الاقص السكّر والبقول . واعلم ان المياه في الضيعة تسقط من علو ١٨ متراً فقوتها كافية لتحريك الآلات اللازمة لتزويد بيروت بالكهرباء

ومجمل القول ان مياه نهر الكلب تنفع خصوصاً اهل بيروت وهي ايضاً تُدير طواحين عديدة وتسقي بقنيها البساتين الواقعة شمالي النهر . ومع ذلك ينصب منها في البحر نحو نصفها فتذهب فائدتُهُ

*

(نهر ابراهيم) هو نهر غزير المياه ومع ذلك ما كنّا نراه يفيد شيئاً الا انّه يدير بعض الطواحين ويستقي بعض الحقول . ومن ثمّ اتجهت الافكار الى عقد شركة لاستخدام هذه القوة الضائعة . وقصدها ان تسقي البقع الواقعة شمالي النهر وجنوبه وان تجلب الماء الشروب لجبيل وعشيت وما يليهما والمأمول انهما تنجز العمل قريباً . وكان في حسابنا اتخاذ القناة القديمة التي كان الرومان يجلبون بها مياه النهر الى جبيل . الا ان هذه القناة التي تُعدّ من اعمال الهندسة الخطيرة كقناة بيروت قد استولت عليها يدُ الخراب بحيث يصعب الانتفاع منها

ويؤخذ من بحث سابق للمشروع المارّ ذكره ان مياه النهر في معظم فصل القيظ لا تقلّ عن ٢٤,٠٠٠ متر مكعب في اليوم اعني مترين واربعة سنتيمترات في الثانية . ومما تقصده الشركة فتح قناة كافية لجلب ٢١٥,٠٠٠ متر مكعب كل يوم لتسقي بها ما بيانه :

المجموع

- ١ ٦٠٠ هكتار من التوت يتقضي لكل هكتار في اليوم ٤٨ متراً مكعباً من الماء ٢٨,٨٠٠
- ٢ ١٥٠ هكتاراً اخرى لسقي حقول من التوت ومزروعات يلزمها في اليوم لكل هكتار ٩٠ متراً مكعباً ١٣,٥٠٠
- ٣ ١٠٠ هـ. لسقي مزروعات البقول والخضرة تحتاج في كل يوم لكل هكتار ١٣٢ متراً مكعباً ١٤,٥٢٠
- ٤ ٤٠ هـ. من مزروعات قصب السكر ينبغي لها لكل هكتار ١٨٠ م مكعباً ٧,٢٠٠
- ٥ تموين جبيل وعشيت بالماء وقطعتات آخر ٥٥,٩٨٠
- ٦ استخدام كمية من الماء لتوليد القوة المحركة عند مصب النهر ١٤٥,٠٠٠

٢١٥,٠٠٠
وصاحب البحث الذي اخذنا عنه هذا الحساب يرى انّ مدخول السقي في السنة يبلغ نحو ٢٠٠,٠٠٠ فرنك . ومأمله ان يكون مهبط المياه عند مصب النهر من علوّ ستين متراً فتتساقط قوة كافية لدفع ١٤٥,٠٠٠ متر مكعب من الماء كل يوم وهي قوة

توازي الف حصان بخاري. وزد على ذلك شكلاً آخر غير متواصل يُستعمل في اوان السقي تكون قوة المحدار ٢٥٠ حصاناً بخارياً. فاذا بيع محصول كل حصان بخاري متداوم بمبلغ ١٥٠ فرنكاً ومحصول الحصان البخاري غير المتواصل بشمن ٧٥ فرنكاً اناف الربح على ١٥٠,٠٠٠ ف. ومن ثمّ يزيد مدخول هذا المشروع اجمالاً على ٤٥٠,٠٠٠ ف وذلك فضلاً عن مدخول الماء المجلوب لجبل وعمشيت وهو مبلغ زهيد لا يُعبأ به.

اما نفقات هذا العمل فيشتتها المشتنون نحواً من ١,٧٠٠,٠٠٠ فرنك ولعلها تبلغ ٢,٠٠٠,٠٠٠ اذا حُسبت المصاريف الطارئة. اما النفقات السنوية لاستثمار هذا العمل فتكون بالتقريب ٥٠,٠٠٠ ف في السنة. فلو افترض ان الربح لا يتجاوز نصف المؤمل اعني ٢٠٠,٠٠٠ فقط بدلاً من ٤٥٠,٠٠٠ فيكون الربح الخالص عشرة في المئة (١) لكن هذا التقرير نظري. افتراه ينطبق مع الواقع؟ لا نظنّ وذلك لاسباب اولها ما سبق الاشارة اليه ان جلب المياه الى جبيل وعمشيت ليس من ورائه ربح يُذكر لقلة سكّان تلك النواحي. فيبقى سقي المزروعات المصاحبة لمصبّ النهر. فان صاحب التقرير المذكور آنفاً يحسب نحو الف هكتار من التربة الحديدة المقصود سقيها فلعمري هذه مساحة كبيرة لا نعلم اين رآها. فاذا ابتعدت قليلاً عن ضفتي النهر وجدت الاراضي لا تصلح للزراعة وهي محجرة متقطعة بالاودية وليس ثمة بقعة منبسطة ولا سهل ذو تربة زراعية وانما تُلقى فقط قطعاً منها متفرقة قليلة السعة. فاذا أنشئت قناة في تلك الجهات ذات الحزون والبطن بلغت النفقات مبالغ جسيمة. وعلاوة على ذلك ان كثيراً من ارباب الفلاحة يأبون الاشتراك ويستقلون مصروفه. وعندنا ان الاولى ان تُتخذ القني البسيطة القليلة النفقات فتُجلب المياه الى البقع اليابسة الواقعة جنوبي النهر. وقد بلغنا ان الشركة الجديدة المعقودة مهمة حثاً افندي البويري وامين افندي عبد الثور مهندس لبنان جرت على هذه الطريقة فانشأت قناة عرضها متر واحد في عمق ٥٠ سنتيمتراً وقد نُحز منها الى جهة بيروت ٨٠٠ متر ولا ننكر ان القوة المحركة البالغة ١٢٥٠ حصاناً بخارياً ذات بال جدرة بالاعتبار

(١) راجع تقريراً في استخدام نهر ابراهيم تاريخه ٢١ ك ١ سنة ١٨٩٢ وضعه المهندس كوايه (Ed. Coignet)

ألا أنّها لسوء الطالع لا تأتي بفائدة كبيرة لبعدها مقامها ولو كانت هذه القوة على جوار مدينة كبيرة مثل بيروت لا يمكن استخدامها للتزوير الكهربائي . وكذلك تصلح هذه القوة لتسيير عجلات الترامواي اللبناني بالكهرباء . إلا أنّ شركة الترامواي لم تفكر في هذا الأمر حتى الآن ولعلّها إن تفعل قبل سنين طويلة . وخلاصة القول يصعب الآن الاستفادة من نهر ابراهيم لما يحول دون ذلك من العقبات

وقد اتّسعنا قليلاً في البحث عن نهري الكلب و ابراهيم لنبيّن بئس الاول ما فازت به المصمم وبئس الثاني ما يمكن فعله قلماً يكون للانهار التي هي احسن موقعاً من نهر ابراهيم فان للمياه شروطه جغرافية لا بدّ ان تستوفيها لفائدة الانتفاع بها ولذلك ترى عيوننا غزيرة في لبنان تجري دون عائدة لوقوعها في وسط الجبال وبعيداً عن المراكز المأهولة . وهذا ما علّل الاضراب عن ذكرها في هذه العجالة عن مجاري لبنان (نهر الجوز) هذا النهر ربّما نضبت مياهه صيفاً عند مصبه . وعليه فلا نلظنّ

انه يمكن استعماله في غير سقي البساتين وتحريك الطواحين كما يفعل به اليوم وليس الامر كذلك في نهر قاديشا (ابو علي) فانه كافٍ ليس لسقي سهل طرابلس فقط بل لتشغيل عدّة معامل صناعية لو اراد ذلك ارباب الصناعة . وبما يسهل هذا المشروع قرب النهر من مدينة كبيرة غنيّة بالمحاصيل الاولى ولديها الوسائط الكفافة بتصرف بضائعها ومحصولاتها

ثم يأتي بعد نهر قاديشا (نهر البارد) و (نهر عكار) ولا يُدنى عليهما أمل كبير وذلك لقلة مياه الاول ولوقوع الثاني في مسيل عميق ضيق . أمّا النهر (الكبير) فانه خطير الشأن كما رأينا . فان تحقّقت امانتنا وعاد لواديّه مكانه من الاقتصاد ازدهرت تلك السهول المخصبة واغنى السكّان بارباحه الطائلة

واعلم انّ السواحل الفينيقيّة لم تكن فقط في القرون العاربة مراكز لتجارة العالم بل ايضاً مواقع مهمّة لمرافق الزراعة واعمال الصناعة . فبالقدماء بهذه الموارد الثلاثة ارباحاً طائلة . وعندنا انّ هذه الثروة لا تعود الى ايدي ابنائهم اذا حاولوا احياء الزراعة والفنون الّلا بشرط استخدام القوى الطبيعية التي قسمها الخالق على بلادهم لاسيّما الكنوز المائيّة المخزونة في جبالهم . ويا حبّذا لو استطعنا بهذه السطور ان نستلقت الخواطر الى هذه الامور النافعة او حرّكنا الهمم لمباشرة بعض هذه الاعمال الشريفة

الاحوال الجوية في لبنان

هذا بحثٌ يصعب الخوض في غماره على طريقة علمية بالضبط والتدقيق وسببه أنه ليس لدينا أرصاد تفني بالمرام . أجل اننا لعالمون بأن ميازين الحرارة ومقاييس ثقل الهواء صارت شائعة في بعض انحاء لبنان لكن اصحابها يكتفون في الغالب بالنظر اليها عند الحاجة وليس من احد يفكر في تدوين درجات الترمومتر او البارومتر واذا باشر احد في ذلك لم يُعَنَ بضبط العمل او يمهله بعد حين بحيث تضع الفائدة العلمية . وغاية ما لدينا من ذلك قوائم رصدية دُرنت في بعض الاماكن وهي لا تتجاوز السنتين او الثلاث سنوات وكلها مقصورة على رصد واحد في اليوم بدلاً من ثلاثة رصد فضلًا عن انها لا تدل على معظم درجات الحرارة او اقصى درجات هبوط الميزان (١) فينتج من ذلك انه لمستحيل تعريف معدل الحركات الجوية وبيان درجاتها مضبوطة

وعلاوة على ذلك ان احوال الهواء في لبنان تختلف اختلافًا عظيمًا لما في تركيبه وموقعه من التباين . فانه من حيث العلو يُقسم الى ثلاثة اقسام الساحل والوسط والجرد . فالساحل يشبه في آثاره الجوية البلاد الحارة . وهواء الوسط معتدل . أما الجرد فاشبه بجبال الالب وبرده كبردها . ويُقسم لبنان من حيث وجهته الى منعطف شرقي يتحدّر الى البقاع والى منعطف غربي يوازي بحر الشام فان هواء المنعطف البحري ثابت في الغالب معتدل نوعاً . أما الوجهة الشرقية فعلى خلاف ذلك فانها في تقلبات هوائها من حرارة ورطوبة اقرب الى داخلية البلاد في آسية المتقدمة .

(١) لو اراد احد قراءنا ان يدّ هذا الخال ويدون على طريقة نظامية رصد حركات الجو لخدم العلم بذلك خدمة طيبة . ونحن نوكد له ان « المشرق » ينشر قوائمه شاكراً وأكثر ما تفيد هذه الارصاد في بشري مثلاً لبلاد الجرد وفي بكفياً لمنطقة لبنان الوسطى وفي زحلة والمنعطف الشرقي . ولا بدّ هنا ان نذكر بالشكر مرصدين في البقاع المنشأ في كسار منذ سبع سنين فنشر لمحوطاته الجوية شهراً بعد شهر بكل تدقيق في مطبعتنا . أما ساحل لبنان فلا تختلف درجات حرارته عن بيروت حيث تدون هذه الملاحظات

فترى من ثمَّ صَحَّة قول القائل بان المسافر الذي يرتقي في سورِيَّة من ساحل البحر الى غابات الارز في مشارف لبنان يلقى في يوم واحد من اختلاف حالات الجوَّ ما يلقاهُ مسافر آخر يرحل من ضَفَّة النيل الى شواطئ البحر الشمالي المعروف بالايض واذا استلينا حمارَةً قيظ بلاد خطِّ الاستواء وصبارَةً اقاصي الانحاء الشماليَّة وجدنا في جهاتنا ما يتوسَّط بين هذين الطرفين من المظاهر الجويَّة

وعليه ليس بامر سهل مع هذا التفاوت البعيد ان تُخصَّص الوجوه التي تشمل كل جهات لبنان فحسبنا ان ثبت هنا بعض ماحفوظات عموميَّة مؤجلين التفاصيل الى فرصة اخرى عند ما نبحث عن احوال الجوَّ في سورِيَّة فنضيف اليها ما يُختصُّ بلبنان

*

سواء تعتبر طبقات لبنان الثلاث او منعطفيه الشرقي والغربي لا تكاد تجد له في حصر المعنى الا فصلين وهما الشتاء والصيف او قُل بالحري فصل الامطار وفصل اليبوسة . ولعلَّ الراقي الى مشارف الجبل يشعر بالفصلين الاوسطين اعني الحريف والربيع شعوراً اوفر على قدر توقُّله في الطبقات العليا وذلك لتخلُّف زمن الحرارة وتأخر غزو الزروع . الا ان هذه الاختلافات ليست بكافية لتمنع لبنان ذينك الفصلين المعروفين بالربيع والحريف . وعليه يمكننا القول اجمالاً بان احوال لبنان فيما يخص فصول السنة متساوية ومتشابهة في كل طبقاته

اما اذا صرفت النظر الى الامطار فتجد اختلافاً يُذكر بين اقسام الجبل من حيث طول الشتاء فانَّ الوجه البحري يُجدد قبل المنعطف الشرقي الذي تتأخر فيه الامطار وهو في ذلك اشبه بجهات سورِيَّة الداخلية فيبتدى زمن امطاره بعد المنعطف البحري وينتهي قبله . ولكن هل تكون مياه المطر اوفر في الجبل منها في السواحل ذلك امرٌ ذهب اليه البعض ولا يبعد قولهم من الصواب فانَّ السماء ربما امطرت لبنان دون ان تخصَّ الساحل بقطرة من سحبها . وقد يجري الامر على عكس ذلك الا انه اندر وقوعاً . اما معدَّل المطر فاننا لا نظنَّ انه يختلف كثيراً بين لبنان والساحل ولعلَّ هذا الفرق لا يتجاوز عشرة سنتيمترات الى خمسة عشر س . وما قولنا الا على الحدس والتخمين اذ ليست لدينا قائمة نستند اليها

ومّا ثبت بالامتحان ان الامطار تتقسّم بين شهور السنة على قدر ابتعاد البلدان عن خط الاستواء فيتقارب فصلا اليبوسة والرطوبة . فانّ معدّل الامطار من ايار الى ايلول (وهو فصل اليبوسة في سورّية) يبلغ :

في رومية	٢٥	في المئة بالنسبة الى مجمل مطر السنة
في برلين	٥٢	≈ ≈
في بطرسبرج	٦٧	≈ ≈

وهو امرٌ مقررٌ ايضاً في نواحي الشام . ففي اسكندرونة مثلاً حيث الحرارة اشدّ من بيروت بكثير ليست الامطار نادرةً في شهري تموز وآب . وكذلك بلاد قيليقية المجاورة اسكندرونة فانّ حرارتها فوق حرارة سواحل الشام ومع ذلك تهطل في صيفها الامطار بمعدّل ستة في المئة فان قابلت ذلك بالشام وفلسطين وجدت من هذا القبيل فرقاً عظيماً اذ لا يبلغ معدّل المطر الصيفي عندنا الا سُدس المئة فقط . وكذلك قد لحظ الاهاون في شمالي غربي الشام من السنة ١٨٩١ الى السنة ١٩٠٠ ثلاثة اطوار فقط من اليبوسة دام كلّ منها مئة يوم . امّا لبنان فايّ طبقة رقيت منه تجد انقطاع المياه في صيفه يدوم اربعة اشهر بل خمسة وكذا قلّ عن بقية بلاد الشام وفلسطين

وكذلك اذا اعتبرنا جبل لبنان بين الليطاني جنوباً ونهر الكبير شمالاً وهو طول يبلغ ١٨٠ كيلومتراً نجد فرقاً بين امطار الجهة الشماليّة والجهة الجنوبيّة صيفاً . والمياه المنهضة في جبال عكّار ووادي النهر الكبير من ايار الى ايلول تقلّ عن مطر بلاد الشقيف وعلى ضفّتي القاسميّة (١) . فيمكن اذن القول عموماً بان كمية الامطار في المنعطف البحري على طول متساوية كما ان الزمن الفاصل بين اشهر القحولة واشهر المطر لا يكاد يختلف

وليس الامر كذلك في الضباب فانه في لبنان اوفر جداً منه في الساحل وهذا يصحّ ايضاً في البرد . امّا تعليل كثرة الضباب فن طبيعة الجبل اذ انّ لبنان كجدار صخري عظيم يقوم كحاجز في وجه الانجرة المتصاعدة في البحر مدفوعة الى داخل البلاد

بقوة الرياح الغربية . وعند هذا الجدار تنكاثف الغيوم التي ترى في اعالي الجبل بين ٨٠٠ متر و ٢٠٠٠ م علواً وفي بعض جهات لبنان يتكاثر الضباب حتى انه يتصاعد اليها كل يوم مدة ثمانية اشهر من السنة وليس سببها علوها فقط بل موقعا ايضاً بالنسبة الى الجبل والى الاودية المجاورة بها فان كل ذلك لمّا يساعد على تراكم الضباب ولا نرى هنا داعياً للكلام عن حرارة لبنان فانه غني عن القول بان الحرارة تختلف مع اختلاف علو الامكنة ثم اننا ذكرنا سابقاً ما يختص بالثلوج اللبنانية (١) امّا نقاوة الهواء وصالحيته للصحة في لبنان فذلك امر مشهور لا يحتاج الى وصف فان كل هذا الجبل قد خص بهواء جيد منعش للقوى اللهم الا الامكنة الواقعة بجوار مصب الانهار وفيها الحمايات . وكذلك لبعض القرى سمعة سيئة من هذا القليل وهو امر مستغرب لاسيما ان اكثرها واقع في بلاد يابسة لا تستنقع فيها المياه . فطلب الى الاطباء الذين في تلك الجهات ان يفيّدونا عن سبب تفتي الامراض في الامكنة المذكورة . امّا بقاء لبنان فان صفاء جوه وجوده مياهه يقويان هيكل الجسم ويعملان سكاّنه اشداء . واللبنانيون في الغالب متوسطو القامة مقتولوا الاعصاب محكمو البنية والفضل في ذلك لعيشتهم في الهواء الطيب ولعدم ارتراقتهم بالصناعات المضكة ولهذا ايضاً لا تجد بينهم الا امراضاً بسيطة . واذا علوت المشارف ربّما وجدت منهم من هو ناصع اللون ابيضه . وقد مرّ لنا كلام في ما يخص الشعوب اللبنانية واختلافها في الصورة والهئية الى غير ذلك ممّا لا فائدة في تكراره

١٦

الفلاحة والاحراج اللبنانية

لا يستطيع اهل لبنان ان يرتزقوا بالصناعة وحدها فهذا حكم راهن ابرزناه غير مرّة في ابجائنا السابقة والسبب ظاهر لان الصناعة تحتاج الى المعادن ولا سيما الى مناجم الفحم وكل ذلك نزر قليل في لبنان . ومن ثمّ ينبغي لاهل لبنان ان يسعوا في فلاحة الجبل وزراعته وعليهما يتوقف مستقبل لبنان لتفي غلاته بمعاشهم . وممّا

يضطربهم الى السعي وراء ذلك وفرة السكّان ونموهم سنة بعد سنة فانهم يجدون في ارضهم موارد رزق اوفر ممّا يظنون . وها نحن ذانين لهم ذلك في الاسطر التالية وليست غایتنا ان نكتب كتاباً مسهباً في احوال الزراعة اللبنانية وانّا ندون فقط ما يثبتنا به تاريخ الجبل فان الماضي عبرة للمستقبل . ونقسم كلامنا في هذا الباب الى قسمين نخصّ القسم الاول بالغابات والثاني بانواع المزدروعات التي يمكن اللبنانيين ان يستدروا منها ارباحاً جزية

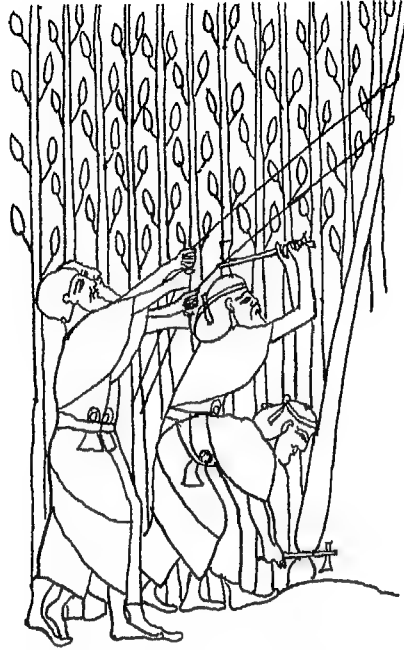
١

الغابات اللبنانية سابقاً وحاضراً

قد اطرا الكتبة لبنان وأفاضوا في مدح غاباته الباسقة منذ الاجيال الغابرة العريقة في القدم . كما اثبتنا الامر في مقالتنا المعنونة جبال الالب ولبنان (المشرق ١ : ٢٢١) وشفعنا ذلك بمقالة ثانية (١) عن ارز لبنان فروينا ما كان لغاباته من الشأن الخطير حتى ان كل الشعوب القديمة في الشرق لاسيما البابليين والفراعنة كانوا يجدون فيها حاجتهم من الخشب لابتليتهم الفاخرة . ومن الآثار الهيروغليفية ادلة واضحة على ان المصريين كانوا يعتبرون جبل لبنان كغابة منسمة كثيرة الاشجار متكاثفة الاغصان لا يري السائر فيها اديم السماء اظلمها الوارف (٢) وكان الغريب لا يتجولون في هذه الاحراج لانهم يتوجسون منها خوفاً لما يروى فيها من ضواري الوحوش كالاسود والنمورة والديبسة . وكان الاهلون قليلين وهم يرتقون بما يقطعونه من الاخشاب كما ترى في صورتنا المنقولة عن بعض الآثار المصرية القديمة . اما الاشوريون والبابليون فلم يشاؤوا ان تبقى هذه الكنوز في ايدي اخصامهم المصريين فلذلك ننظر اصحاب المعاديات البابلية يفتخرون بما جلبوه من اخشاب لبنان لمبانيهم العظيمة كما ان نقوشهم المنقورة في الصخور تنطق

(١) راجع الجزء الاول (ص ١٢٩)

(٢) اطلب : Chabas : Voyage d'un Egyptien en Syrie, p. 312 — W. M. Müller : Asien und Europa, p. 197-198 — Joret : Les Plantes dans l'antiquité.



قدماء اللبنانيين يقطعون الشجر

بآثرهم في صيد كواسر لبنان. مثال ذلك صورة توفّقنا باكتشافها في جبل اكروم شمالي
هرمل فوصفتها في بعض تأليفنا (١)
أمّا قدماء اليونان فلم يجسروا ان يترغّلوا في هذه الغابات التي كان البابليّون
والفراعنة نالوا من اطرافها فقط حتى قام الرومان تحت امرة يومبيوس فتعقّبوا فيها
المتلصّصين من الايطوريين (٢) وضربوا على ايديهم ومذ ذاك العهد ساد الامن واتخذ
السكّان لهم منازل ثابتة فجعلوا يقطعون تلك الاحراج لحاجتهم الى المزدروعات (٣)
وصار عدد القرى ينمو شيئاً فشيئاً وغرس الاهلون الكروم واهتسّوا بزراعة الزيتون
فتوقّرت وانتشرت وتحوّلت اصحاب الامر من ان تتلف الغابات فوضعوا الرسوم لقطعها

(١) راجع ٥٠ p. Notes épigraphiques et topographiques sur l'Emésène,

(٢) راجع (ص ٤٩) والمشرق (٥ : ٨٢٥)

(٣) راجع (ص ٢٥)

واستثنوا منها بعضها . غير انَّ لبنان لم يُسَرَّ جبلاً حافلاً بالسكَّان إلا عند انتشار الموارنة كما اثبتنا ذلك سابقاً (١) فكانت الغابات تنقص على قدر ما كان ينمو عدد القطين . وفي ذلك العهد احتاج الخليفة معاوية الى عمارة فجهَّز سفنها من خشب لبنان في عكاً وصور وطرابلس كما ورد في فتوح البلدان للبلاذري (ص ١٥٣) وفي تاريخ تافانوس وتاريخ البطريك ميخائيل الكبير (ed. Chabot. II, 445) . وكانت هذه الاساطيل تتركَّب من عدد وافر من السفن بلغ مجموع بعضها ١٧٠٠ سفينة شراعية . وكان اذا ذهب الانواء بقسم منها اسرع فجهَّز غيرها بدلاً منها لانه لم يشاء ان يكون اسطولُه اقل من ٥٠٠ مركب . وهو امر ي عدد بالغ يشهد بلسان حاله على غنى لبنان بالاحراج والغابات كما انه دليل واضح على ما فقده بتوالي الاعصار من هذه الكتور الحشبية . ودونك اسباباً اخرى قد سوت انتقاص هذه هذه الغابات ما عدا توفر السكَّان الذي سبق ذكرهم

سيأتي الكلام في فصل آخر عن معادن لبنان في القرون الوسطى . وهناك ترى ان استخراج الحديد كان شائعاً في لبنان وكانوا يعدُّون هذا المعدن على الطريقة المنسوبة للكتيلان وهي طريقة تقتضي احراق الخشب الكثير . وكذلك استحضار الكلس فقد اتسع نطاقه في لبنان لكثرة حجارته الكلسية والكاس لا يتيهاً الا بايقاد نار شديدة فذهب بذلك قسم من غابات الجبل

ثم انتشرت في لبنان تربية القُر فشغلت اشجار التوت قسماً من مكان الغابات . وزد على ذلك رعية المعزى واصططاع الفحيم الحشبي وقلة اكرات الاهلين لنصب اغراس جديدة فكانت هذه الاسباب كلها داعية الى تلف الغابات فاصبح الجبل اليوم اجرد اصابع لا تقر لناظره عين بما كان يزينه سابقاً من خضرة احواجه وارزه الشهيد الذي انشدت في محاسنه الاسفار الالهية

وان قيل انَّ اهل لبنان اصابوا بدلاً من هذه الغابات مرافق اخرى استعاضوا بها اجبنا انَّ هذه الخيرات التي حظي بها القوم انما كانت مقصورة على منافع وقيية ولو فطنوا وادركوا كنه الامور لامكنهم ان ينالوا هذه الخيور دون ان يحسروا هذه

الحسائر الجسيمة . ومن المعلوم ان اعمال الحشَب تترقّى يوماً بعد يوم مع ترقي المدنية فتتعدّد منافعه لغايات لا يضبطها احصاء وكلّها فوائد جائلة . لأنّ منه يتّخذ الاثاث وامتعة البيت وادواته المختلفة ومنه يُستحضر اليوم ورق الكتابة وثمنه يتصاعد كل يوم . حتى ان بعض المتولين اعمال السكك الحديدية يرون ان الحديد اخص منه في عوارض هذه السكك . وكذلك ترى الكهرباء بترقيها وانتشار استعمالها تقوم اليوم بمقام الفحم كما ان غاز البترول ينوب ايضاً عنه في اعمال صناعية عديدة فيستخدم في تحريك الآلات في المعامل والمراكب والسكك الحديدية بل في طبخ الاطعمة . وبينما ترى بقية المواد تنقص قيمتها او يتهاود سعرها تجد الحشَب بخلاف ذلك يرقى سلم الصناعات ولا يُستغنى عنه بحيث يمكن القول ان حرفة الحطّاب كحرفة الفلاح اقدم ما عني به المرء في بداية كونه وستبقى الى آخر الكون . فترى من ثمّ جهل الذين عيشوا بهذه الثروة فضحّوها مع انّ قسماً من لبنان لا يصلح في الغالب لما سوى ذلك . وقد جرّ خراب هذه الغابات آفات اخرى نشأت عن قطعها . فمن ذلك فقد قسم كبير من التربة الزراعية التي تجرفها كلّ عام امطار الشتاء . ومنها نضوب عيون معينة انقطعت مياهها او قلّت . وكذلك تافت الحواجز التي كانت كسدود في وجوه الانهار عند طغيانها واستنقعت المياه في البطائح فانبعثت منها الجراثيم الويئة وذلك بدلاً من الروائح العطرة التي تفوح من اشجار الارز والصنوبر والشربين . فانّ الخالق كان اقام لبنان ليجعل كجيارستان للمرضى وكستشفى يعالج به اهل العاهات اسقامهم ويجددون فيه كما في جبال سويسرة صحتهم بعد ان انهكتها الالاعاب او ثققلت عليها اعباء القبط فينعشوا قواهم بصفاء جوّه وطيب هوائه وشذا عطره وازهاره . ولا غرو انّ الزوار كانوا يتواردون اليه ليرى ليسرّحوا انظارهم في مشاهد الفئانة وآثاره الفريدة المجتملة بمناظر الطبيعة كما انّ المرضى منهم كانوا يستطيعون ان يتعالجوا بالمعالجات الطبيعية التي اخبر نفعها اطباء زماننا كالعلاج بالهواء والاستحمام بالماء والنور والتطبيب باللبن والعنب وترويض الجسم بالرياضات المقتوية . ففي لبنان صلاحية لكل هذه الاسباب الصحية التي لا ينالها الاوربيون في جبال سويسرة مع كثرة ضبابها وكدورة سمائها الا بان يتعرضوا لامراض شتّى كوجع المفاصل والصداع . وكان امكن اهل لبنان مع هذه الخيرات العظيمة ان يوسعوا مصادر ارتقايم ببناء الفنادق

للمغرياء وانشاء الشركات لنقل المسافرين وغير ذلك مما يجلب لسويسرة ارباحاً فاحشة .
وقد فُقدت هذه العوائد كلها وخسر لبنان كل هذه المكاسب منذ جرد الاهلون قمه
عن غاباته بل قل عن موارد سعادتهم

*

اعلم ان تجارة الحشب قد صارت اليوم في ايدي اهل اوربة فيكسبون منها
مبالغ طائلة . مع ان تربة تلك البلاد لا تصلح كثرة لبنان انمو الشجر وذلك ان
شجرة من الصنوبر مثلاً لا تبلغ في بلاد اسوج وزوج عشرين متراً طولاً في دائرة متر
ونصف الا بعد ١٥٠ الى ٢٠٠ سنة أما في جنوبي فرنسا فان نمو هذه الاشجار
اسرع من ذلك باربعة اضعاف ولا نشك انها في لبنان تنمو بزمن اقل من ذلك
بسته اضعاف لحسن موقع هذا الجبل واعتدال هوائه . فتري من ثم ان اللبنانيين
او ارادوا امكنهم ان يراحوا اهل شمالي اوربة في هذه التجارة الواجبة بدلاً من ان
يدفعوا لهم ما لهم جلب اخشابهم

وهذا وان تغافل السكّان والحمد لله لم يفن تماماً هذه الغابات فان في لبنان حتى
الان امكنة تظلها الاحراج وتشهد على غناها القديم . وقد تكلمنا في خلال بحثنا
عن ارض لبنان في المراكز الثلاثة التي ترهوا فيها غابات هذا الشجر الثمين واستلفتنا
انظار اللبنانيين الى ما يتهدد غابة الباروك من عوامل الفساد

أما بقية الاشجار غير الارز فان طلبنا لها غابات كبيرة ليس غياضاً صغيرة لا نكاد
نجد منها الا في بعض الالكمة السحيقة كجبل اكروم شمالي شرقي لبنان وهذا الجبل من
ماحقات جبل عكار تراه موازياً لبحيرة حمص وهو قليل السكّان وفيه غابة واسعة من
السنديان الباسق الافنان . بيد ان اهل تلك الانحاء يقطعون منها العجم فلا تلبث
بعد مدة ان تتلف كما تلفت اخواتها في لبنان . وياليت هؤلاء الخطايين يكتفون بقطعها
فيبقى امل لان تعود فتسمر بعد سنين الا انهم تخفيفاً للعمل يلقون النار في اصول اكبر
اشجارها فتجف مايتها وتلف دون ان يرجى لها اخضرار فيضحي مثل هؤلاء كمثّل
المرأة التي لم تنفع ببيضة من ذهب كانت تبيضها لها كل يوم دجاجتها فلمّا طعمت بما
هو اوفر فقدت رزقها . وكان قدما اللبنانيين اوفر عتلاً كما ترى في الصورة التي اثبتناها
آنفاً (ص ١٨٣) فانهم كانوا ينتفعون بخشب غاباتهم دون ان يتأصلوا شأفتها

وكذلك مقاطعة الهرمل فانها كثيرة الاحراج ينمو فيها خصوصاً ناعم الشجر وذلك على مساحة نحو ٢٥٠٠٠ هكتار . ومع كثرة النبات ترى ايضاً امكنة عديدة خالية منه . واشجار معاملة الهرمل دون جبل اكروم في بسوقها وحسنها وهذا مما يبغض شيئاً من قدرها . والفخّامون يعيشون ايضاً في هذه الاحراج كهيث رصفائهم في احراج اكروم غير انهم لا يحرقون الشجر من اصله كما يفعل اولئك

وترى في مقاطعة الضنية وفي منطف لبنان الشرقي بين الهرمل وعيناثا بعض الغابات الحسنة واشجارها في الغالب متوسطة الكبر ليست متواصلة . ومن اشجارها الحاصّة بها الشوح (abies cilicia) وهو شجر جبلي نادر الوجود في الاصقاع الشامية لا يُعرف في غير جبال اسكندرونة ومديرية الضنية ويستحقّ ان يُغرس في نواحي لبنان لحسنه فانه ينمو الى علو ١٥ متراً وينبت في مشارف الجبال بين ١٥٠٠ الى ٢٠٠٠ متر وفي غير هذه المحال لا تجد الغابات الا في بعض الادوية المعتلة او على جوانب بعض السيول ومنحدرات الغياض يمتاز بينها الصنوبر والسرو . اما غابات السنديان التي كانت تزين منطف جبال جزين عند تومات نيجا فانها صارت اثرًا بعد عين . وترى بدلاً منها بقعاً سوداء تشهد على مساوي الفخّامين . ونذكر هنا بعض الغياض لا لاتساعها بل تناسيطاً لمن غرسها واستلفاتها لنظر الاهلين منها احراج بيت مري وعين زحلتا وبكاسين وبكفياً . فياليت اللبنانيين يأتسون بهذه الامثال فيعيدون لبلهم زينته السابقة

ومما يجدر بنا ذكره مزارع الزيتون . وهي كثيرة في بعض الجهات حتى ان الذي يراها يحسبها اجاماً وغبابات . منها مزارع الكورة التي تمتد على طول خمسة كيلومترات في عرض الف متر . واوسع منها مغارس المختارة وعمّا طور الا ان بينها صنوفاً اخرى كالتوت والاشجار المشمرة وقد استوقفنا ابصار قرأنا على تلك الغياض البديعة المنظر التي تجاري في خصبها غوطة دمشق واجمل مواقع سورية . الا ان السهم الافوز بين مزارع الزيتون هو للشويفات فان صحراءها تبلغ سبعة كيلومترات طولاً في عرض يختلف بين كيلومتر وثلاثة كيلومترات وهي دون اغراس المختارة طولاً لكنها مرصوفة متواصلة لا يدخل فيها صنف آخر من الاشجار . ومن نظر اليها من علّ خالها بحيرة كبيرة من الخضرة لتلاحم اشجارها وكلها في علو واحد نصب اكثرها

قبل ستين سنة . وكذلك مزارع قصبه زغرنا العامرة فانها واسعة جميلة وان تكن اصغر من المغارس السابق ذكرها وتختلط بما سوى الزيتون
ويهم اللبنانيين ان يوسعوا نطاق هذه المزارع لما وراءها من الارباح التي تبلغ اربعة اضعاف ربح الغلات . لأنَّ معدّل ما يُستغلّ من زيتونة واحدة يساوي في السنة بين ١٥ الى ٢٠ فرنكاً ولو بيع الزيت في الخارج لاتي بمكاسب طيبة لحاجة كثير من البلاد الاجنبية اليه فانّ فرنسا مثلاً تحتاج الى ٢٥,٠٠٠ طن من الزيت فضلاً عما تجده في مقاطعاتها . فيأتيها من مستعمراتها ٨٠٠٠ طن لسدّ هذا النقص فيبقى ١٧,٠٠٠ طن يمكن اللبنانيين ان يزودوها بها . وانما ذلك على شرط واحد وهو ان يتخذ الزارعون الطرائق المستحدثة لعصر الزيتون فان الزيت الطيب المستحب لا يُنال الاً بالادوات الحصريّة التي شاعت اليوم في اوربة (١)

٢

مزروعات شتّى

نكرّر هنا ما سبق لنا قوله انّ الغاية من بحثنا الحاضر ليست تأليفاً في الفلاحة او في ضروب النبات التي تزين لبنان . والمواليد النباتيّة متوفرة فيه لما اُخصّ به هذا الجبل من الدوائر المنطقيّة والطبقات المتباينة واختلاف التركيب الجيولوجي والمواقع من قمم وادوية وغير ذلك (٢) . والقصد من هذه النبذة ان ندور، بعض الملحوظات المفيدة نسندھا الى تعاليم التاريخ والى نتائج علم الجغرافية
اننا لا ننكر ما اصاب لبنان من الخسائر بتجرّده عن غاباته القديمة الا انه لا يجوز القول بان الجبل فقدّ خصه وثروته الارضية بدعوى ان الزراعة اليوم لا تأتي بالارباح المأمولة . والحق يُقال انّ بعض العيون قد نضبت وان السيول وغيرها من دواعي الخراب سحّت بقسم كبير من التربة الزراعية وبرزت صخوراً جرداء لا يمكن فلاحتها .

(١) اطلب كتاب الفاضل ودیع افندي مدور في الفلاحة السورية (Syrie agricole, pp.

206, 212)

(٢) فراجع كتاب المسيو جوره في النباتات القديمة وله فصل في نبات بلاد الشام عموماً ونبات لبنان خصوصاً (ص ٢٣٤-٢٣٦)

لكنَّ الجبل في ما سوى هذه الامكنة لا يزال طيب الثرى صالحاً للزراعة . ألا ترى مثلاً ما يناله لبنان من حاصلات الكرم والتوت والتبغ الذي تعود على اهله بالكاسب الطائلة وقد كانت مدة من مرافق الجبل الخاصّة به . وان كانت هذه موارد الثروة قد خفّت فلا تثريب على الارض اللبنانية وأنما تغيّرت فقط احوال سوقها التجاريّة ولعلّ ارباب الزراعة في لبنان لم يصرفوا نظرهم الى تحسين طرق زراعتها على الاساليب المستحدثة . مثال ذلك زراعة الكرم فإنّ لبنان يوافقها اي موافقة وترى اليوم اصحاب الشركات الاسرائيليّة والالمانيّة في جهات فلسطين قد سبّغت اللبنانيين في استثمارها

ولا غرو فانّ عصرنا هذا عصر التقدّم وقد اصاب الفلاحة من ذلك نصيب كبير فلا بدّ اذن من استعمال الاساليب التي اختبر العلماء منافعها لنلا يذهب شغلنا سدى بزعامة الغير . فما قولك مثلاً في جند اليابان لو نزّلوا ميدان الوغى وفي ايديهم القوس والنشاب لمحاربة الروس المتسلحين بالبنادق وهم يطلقون عليهم المدافع . فكذلك الفلاحة فإنّ لها اليوم ادوات تسهل طرائقها وتوفّر غلاتها اضعافاً كثيرة ومع هذا ترى الاهلين لا يسعون في اتحاذها ويجرون على آثار اجدادهم في اساليبهم المخلّة التي شاعت بينهم قبل الفين او ثلاثة الاف سنة . مثال ذلك عصر الزيت فإنّ اللبنانيين يستخرجونها في معاصرهم كما فعل الفيلقيون . أليس هذا شططاً وكيف يستطيع الاهلون بعد ذلك ان يلوموا الزراعة ويشكوا قلّة أرباحها

هذا ويؤخذ من دروسنا السابقة انّ لبنان منذ الطور التاريخي لم يختلف في هوائه اختلافاً يذكر وان امطاره لم تكن اذ ذاك باوفر منها في عهدنا مهما زعم الزاعم ليثبت خلاف ذلك

وغاية ما يمكن التسليم به انّ الامطار مع اتساع الاحراج قديماً كانت مقسمة على كل انحاء لبنان تقسيماً نظامياً يعمّ فصول السنة فيدوم زمانها اكثر دون ان تتوفر بذلك كمّيّة مياها . وهذا ايضاً ضرب من الحُدس لا يمكن ان نحكم بصحّته قطعاً . وعليه يسوغ القول بان النبات اللبناني هو اليوم كما كان سابقاً الاجناساً قليلة . فمن ذلك البردي (papyrus) الذي ينبت بوفرة حتى اليوم على مقربة من بحيرة الحولة . وعلى رأينا انه كان ينبت في الاجيال الغابرة في اودية الجبل الحارة الكثيرة

المياه وعلى ضفاف الانهار ومصباتها وذلك لما كانت غابات لبنان باسقة تسرح فيها سباع الحيوان كالأسود والفيلة وتترجح في انهارها التماسيح كما سيأتي (١) ومن النباتات المنسوبة الى لبنان شجرة اللبان او الكندر وهذا الرأي تراه مكرراً في اسفار الكتبة من اهل القرون الوسطى لكنه بلا سند وانما هو مبني على وهم لغوي فزعموا ان لبنان معناه اللبان لتوافق اسمها في اليونانية (Λιβανός) كلاً لم ينبت لبنان قط شجيرة اللبان التي هي من خواص اليمن وضواحيه . على ان هذا الجبل غني بغروس أخرى واشجار نقلت اليه فصائلها بعد تاريخ الميلاد على ما نظن . منها الشمس المعروف بالبرقوق (٢) والبرتقال وقصب السكر . وبما جاءنا من امركة التبغ والصببر . وقد دخل ايضاً لبنان نباتات حديثة العهد مختلفة الاجناس الا ان كثيراً منها بعد برهة من الدسر تضعف وتفقد خواصها الاصلية لاختلاف التربة عايتها او بالحري لجمل الاهلين بتربيتها . وما يصح قوله اجمالاً ان لبنان يصلح لنمو اكثر النباتات والاشجار بحيث يضحى كجذائق غناء وبساتين فيحاء جامعة لشتات نبات المعمور . والسبب في ذلك اختلاف طبقات الجبل وتباين مواقعها . وهذه لعمرى منحة فريدة تكرم بها الخالق على لبنان فلو انتفع بها الاهلون لأغتهم عن شكواهم من عقم الجبل وضوالة غلاته

✱

وقد ذكرنا آنفاً الصببر او التين الشوكي . وغاية ما ينتفع به الناس انهم يتخذونه كسياج لبيوتهم او ياكلون ثمره التّفه . ولو دروا لامكنهم ان يستعملوه لقوائد أخرى اعظم واجل . وما نقولُه عن هذه الشجرة يصح في كثير غيرها . فمن ذلك انه يؤخذ على الفلاحة اللبنانية قلة اهتمام اصحابها بتربية المواشي ومن المعلوم ان الجبال انصب الى ذلك من سواها لاسيما انه يلحق برعية المواشي اعمال اخرى يرتقون بها كبيع اللحم واصطناع الجبن والحليب والزبدة واللبن . وما السبب في قلة تهامل اهل لبنان لتربية المواشي الا قلة المراعي والاعشاب فان بعض

(١) راجع الكتاب (السابق ذكره) ص ٣٩٠

(٢) ويدل على ذلك اشتقاقه من اللاتينية

الامكنة قاحلة جدا لا تجد فيها الطرش لما طأ طول السنة وفي غيرها تمحل التربة في فصل القيظ وتيبس المراعي . فلاي سبب لا يُزرع الصبّير الذي ينبت في اي تربة كانت وهو يثبت على اشتداد الحر

ولكي يمكن الانتفاع بهذا النبات لا بُدَّ من نزع شوكة عنه . والاولى ان يُغرس ضرب آخر منه لا شوك له . واعلم ان ثمره ولاسيا اوراقه (الواحه) الضخمة المكتنزة من احسن ما يُعرف به الحيوان . وبعض الزراعين يرونه شديها بالجزر بسل افضل منه لقوت المواشي . والجزر كما لا يخفى يُتخذ في اوربة كملوفة الانعام . والصبّير اذا غرس وطلع يقضّب في سنته الثالثة او في الرابعة وهو انسب . فاذا آتى على غرسه ست سنوات اتى بشمره وبقي ناميا الى السنة الاربعين فحينئذ تشدّب ساقه فيعود وينمو جديداً . وجموع ما يستغل منه كل سنتين بين ٣٠,٠٠٠ الى ٣٥,٠٠٠ كياوغرام من العلف في كل هكتار

وليس الرأي هنا ان تزرع الاراضي الطيبة بالتين الشوكي بل الاراضي البور فقط التي لا تصلح لغير ذلك من المزرعات وان يُغرس منه ثلاثة او اربعة صفوف حول البساتين والاملاك الواسعة بدلا من اكوام الحجارة التي تقوم في وجه السابلة واذا احتاج الناس الى علف للماشية في بعض السنين التجأوا الى هذه المونة القريبة النال (١)

ويوجد غير ذلك من الاشجار التي تؤدي لاصحابها خدماً مشكورة منها شجرة الخروب الذي ينبت من نفسه في لبنان (٢) وكان هذا الشجر كثيراً في لبنان حتى ان اقليم الخروب دُعي به (٣) امّا اليوم فلا يرى منه في لبنان الا اشجار متفرقة قليلة البسوق مع انه شجر كثير المنافع في تلك الجهات . وما يقال عن اقليم الخروب يصح في بقية اقاليم لبنان فان مديرية البترون كما يشهد على ذلك المعمرون من الشيوخ كانت غنية بهذا الشجر قبل نصف القرن واكثره اليوم قد قطع وتلف فلم يسع الاهلين ان يستبدلوا تلك الاراضي البائرة باغراس غيره . وهذا المثل يبين للقراء ان الفلاحة

(١) راجع كتاب الاديب وديع مدوّر في فلاحة سورية (ص ٢٦٤)

(٢) كتاب جوره (ص ٢٥١)

(٣) وهو اسم قديم ورد ذكره في كتاب شمس الدين الدمشقي (ص ٢٠٠) وفي تاريخ

بيروت لصالح بن يحيى (ص ٨٨)

اللبنانية اذا ما قصرت في بعض الاحيان عن الترتي والتجسين ربما سهت ايضاً عن امثال الاقدمين وعدلت عن آثارهم المصودة . وكان اجدادنا يعرفون فضل الخرنوب ويقدرونه قدره كما يؤخذ من هذا النص الذي سطره الشريف الادريسي في كتابه عن الناعمة التي هي اليوم قرية حقيرة قال (١) :

« والناعمة مدينة حسنة وأكثر نبات ارضها الخرنوب الذي لا يعرف في معبر الارض مثله قدراً ولا طيباً ومنها يُجهز به الى الشام والى ديار مصر واليهما يُنسب الخرنوب الشامي امّا وان كان في الشام كثيراً وطيباً فهو بالناعمة أكثر واطيب »

فهذا الكلام شاهد لامع على ان الخرنوب كان متوفراً في الاقليم الذي دُعي باسمه وان زراعته كانت معدودة كاحد مرافق لبنان الجنوبي . فيا رعاك الله ماذا يمنع من ان يعود الاهلون الى توفير اغراسه لاسيما انه يأتي عفواً في كل الامكنة القاحلة ولا يحتاج الى عناية خاصة كما ان قلة الامطار او كثرتها لا تؤثر فيه واللبنانيون بفرس هذا الشجر لا يعيدون فقط لجلبهم بعض نضارته بل يرتقون ايضاً بمحاصيله كما كان الامر في عهد الادريسي

ومما يزيد الخرنوب نفعا ان ثمره سكري وقد اثبت الذين يعمشون بنظارة المواشي ان العلف انفع للانعام اذا دخل فيه السكر . وقد عرف قدماء العبرانيين منفعة فاطعموه الخنازير (راجع النجيل القديس لوقا ١٥ : ٦ وكتاب التلمود) وغيرها من الراعية . وبه ايضاً علف اليونان والرومان مواشيتهم . واليوم يدخل فرنسة في كل سنة ١٩,٠٠٠ طن من الخرنوب لحاجتها وهذه الكمية تتسوّق فرنسة من بلاد شتى ولا تفيدها الجزائر منه سوى الف الى الفين طن . ومحمول الخرنوب يختلف على حسب عمر الشجرة وحسنها ومداراتها فيجني من الشجرة سنوياً بين ٢٥٠ كيلوغراماً الى ١٠٠٠ ك من الشمر يساوي ثمنها من ١٠ فرنكات الى ٤٠ ف . وفي هذه الاعداد دليل ظاهر على فوائد غرس هذه الشجرة التي لا تتطلب عناء كبيراً . وان لم يقصد الاهلون منها الربح ببيع ثمرها الا انهم يجدون فيها منافع غيرها كرية المواشي . وثمرها كما سبق افضل عُلف الدواب يقوم مقام غيره من النجوع الذي يندر في بعض المواطن . وقد لحظ الاجانب فضله فصاروا

(١) راجع وصف بلاد الشام للادريسي (ص ١٦ ed. Gildemeister)

يقبلون عليه اقبالاً يزيد مع الاعوام وهم يستعملونه في الصباغة وفي عمل السكر ويملفون به انعامهم . والبعض منهم يختصون حبوبه فيجعلونها بدلاً من القهوة (١) . وكذلك خشبه صلب مسط يصبر على الزمان دهرًا طويلاً فيُرب فيه لذلك . وغاية ما يؤخذ على الحرنوب انه كالزيتون لا يأتي بثمره قبل سنه العاشرة . لكن هذه الصعوبة ليس من شأنها ان تمنع من غرسه . ومن نظر الى الربح العاجل فقد المكسب الطائفة الآجلة (٢)

ويوجد غير ذلك من النباتات التي تصلح للاراضي اليابسة نذكر منها شجر التين واللوز . ومن المعلوم ان ١٠٠ كيلو من التين اليابس ربما يبعث بمائة فرنك اللهم اذا كان التين من الجنس الحسن وجعل في غلب مكبوساً كما يصنع اهل ازمير وهو من اكبر موارد الرزق لديهم (راجع المشرق ٧ : ١٠٦٠) فلو صرفنا النظر الى اثارنا لتحسين اجناسها وتهيئتها لزادت الرغبة فيها وأجدت باعها نفماً عظيماً

اماً اللوز فهو من الاشجار الوطنية (٣) التي لا يُنكر فضلها . وزراعتها اسهل من سواها في لبنان لان شجر اللوز كالزيتون واكثر منه ينمو في الاراضي القاحلة والتربة الكلسية ومعظم لبنان تركيبة من هذا الصنف . ثم ان الشجر لا يقتضي عناية خصوصية وثمره يبالغ في الشجرة من ١٥ كيلوغراماً الى ١٠٠ ك ويُباع بأسعار حسنة فان مئة كيلو منه يُدفع فيها من ٤٠ الى ١٢٠ فرنكاً على حسب اختلاف الاجناس فيكون معدل محصول الشجرة بين ستة فرنكات وستين فرنكاً . وهذا ما ساق الشركات الاسرائيلية في سواحل يافا الى ان تُكثر من اُصناف اللوز فيقوم منه غابات في بعض حدائقها . ومن خواص ثمر اللوز ان تهيشته لا تستدعي شغلاً لنقله وهو يبتلى زمناً طويلاً

وليس الامر كذلك في زراعة اشجار غيرها التي تسارع بعض الاهلين الى غرسها كالليمون مثلاً (٤) فكل يعرف فضل ليمون صيداء على البرتقال الياقوي وكثرة ماثباته

(١) راجع معجم (توراة للاب فيكتور على لفظة « حرنوب » (ج ٢ ص ٣٠٨)
(٢) ومن اراد غير ذلك في هذا الصدد فليدرك كتاب الاديب ودع مدور (ص ٢١٣)

و ٢٦٥ و ٤٢٣)

(٣) طالع كتاب جوريه (ص ٣٩٥)

(٤) راجع في المشرق (٦ : ٢٨٩) مقالة الاديب توما اندي كيال في برنقال صيداء

وطيب طعمه إلا أن يرتقال يافا اروج سوقاً عند الانكليز . والسبب أن ثمر يافا اغلظ قشرة فيبلغ انكاثرة وهو على حسن حالته بخلاف الليمون الصيداوي الذي يفسد في الطريق فيذهب رونقه . ولعل لهذا الداء دواء وهو ان يختص الصيداويون قسماً من جثاتهم الغناء للشكل اليافوي فيصدرون هذا الصنف للبلاد الاجنبية . أما البلاد المجاورة او المتصلة بخطوط نظامية كمصر وسواحل الشام والاستانة العليّة وجنوبي روسية فيزودونها بأشكالهم الوطنية الطيبة لاسيما ان تربة صيدا تصلح لكل ضرب البرتقال ولأجناسه المختلفة . والمهم أن لا يجري الاهلون على مألوف عاداتهم المحلة لأن ملازمة الطريقة الواحدة تؤدي بهم الى خسائر جسيمة . ألا ترى مثلاً ان بعض المراكب قطعت سيرها الى صيدا . وكانت قبل اربع سنوات في فصل الاثمار تمر بها لنقل محصولاتها . فلما رأت كساد سوق ليمونها كثت عن المجيء اليها

ومن الزراعات النافعة الخطيرة الشأن شجر المشمش واشهر اصنافه صنفان معتبران هما المشمس الكلاي تكون نواته مرة والمشمس اللوزي حلو النواة . وهذا الصنف هو الافضل والالذ والفرق بينهما من حيث الثمن بعيد جداً إلا ان رغبة الفلاحين في الصنف الاول اعظم . وما هو ياترى سبب ذلك ؟ قلّة انتشار المشمس اللوزي . ولو اراد الزّراع لامكنهم توفير الجلس الفاخر بعملية صغيرة سهلة جداً

✱

ومجمل القول ان الفلاحة اللبنانية لم تنهض حتى الآن من خمولها . وكثيراً ما نحمل الشكاوى على الطبيعة او تركيب التربة او العناية الصمدانية ولو كنّا من ذوي الانصاف لشكونا سهوفا وغفلتنا . نعم انه لا يمكن استئلال الحبوب والبزور من اراض محجرة او ماحلة . ولكن ما لنا لا نوجه همّتنا الى اصناف شتى . ترى أكثر اهل لبنان لا يهتمون إلا بالتوت ويكتفون بغرسه فقط كأنهم لا يجدون في سواه من الاشجار ما يقوم بجاجاتهم او لا يرغبون ارباحاً مثله واوفر منه لاسيما ان بعضها لا يقتضي كالتوت فلاحه كبيرة ولا ابتناء سافات وسطوح تراب فاذا كان لدى الاهلين اصناف مختلفة زادت ايضاً مآتيهم وآمالهم . وعلى فرض ان صنفاً منها في بعض السنين لم يأت بالارباح المأمولة استمضوا عنها بما يجدونه في غيره . وعلى هذه الصورة يقيّم الفلاحون شغلهم على كل فصول السنة ولا يدعون قطعة من اراضيهم دون فائدة

هذا وان قولنا السابق مبني كلاً على العلوم التاريخية والجغرافية والاقتصادية وذلك لا يمنع صرف النظر الى خبرة ارباب الزراعة ومراجعة الكتب الخاصة التي صنفها العلماء في هذا الشأن مكررين الشناء خصوصاً على التأليف الذي وضعه الكتاب الضليع وديع افندي مدور وقد استفدنا منه لتسطير هذا النظر في الفلاحة السورية . وننتهي ان يعرب قريباً لفوائده

١٧

ما فُقد في لبنان من قديم الحيوان

قد لحظ العلماء الباحثون عن طبائع الحيوان في الشرق ان البلاد السورية غنية باصناف الحيوان بحيث ترى في القطر السوري مع قلّة اتساعه من سباع الحيوان والمواشي والدواب ما تجده متفرقاً في اقطار عديدة ومناطق مختلفة من العلو . وهذا لعمرى من المشاهد النادرة التي لا تكاد ترى لها شبيهاً اللهم الا في المنعطف الجنوبي من جبل حملايا اعظم جبال الهند بل اعظم اطواد المعمور . وانما نجد تعليلاً لهذا الامر في موقع سورية وتركيبها الجغرافي فانك اذا استئنيت غور نهر الشريعة الذي هو اسفل من سطح البحر المتوسط باربعائة متر (وذلك امرٌ فريد ليس لمثلِه ثاني في الارض) ثم نظرت فقط الى هيئة لبنان تذكرت ما سبق لنا بيانه من ان هذا الجبل جامع الخواص بلدان شتى متباينة كلّ تباين ومن ثم يصلح لان يكون مأوى لمواليد الحيوان المختلفة

على ان غاييتنا في هذه المقالة ان نقتصر على حيوان لبنان فقط وفي كثرة حيوانه ما يغنيانا عن ذكر بقية البلاد الشامية . لاسيما اذا اعتبرنا لبنان في ايامه القديمة اذ كانت تزين قمم غاباته الكثيفة قبل ان تُقطع اشجاره وتُستبدل بالمزارع . فرائنا من ثم ان نبسط الكلام في قديم حيوان لبنان فنستقري الاصناف الحيوانية التي خلا منها الجبل مستنديين في ذلك الى شواهد التاريخ الصادقة

*

الاسد ملك السباع فله السبق وبه نفتتح كلامنا . لم ينكر احد وجوده في بلاد

الشام وأما ادعى المسيو ستايفر في كتابه المعنون «فلسطين في زمن المسيح» (ص ٢٢٥) انه لم يبقَ له من اثر في اوائل تاريخ الميلاد . وكذلك الدكتور . هـ . بروتس (H. Prutz) قد زعم ان روايات كتبة الفرنج في القرون الوسطى عن الاسود من الاساطير التي لا يوثق بها (١) ويوافقه في هذا رأي الرحالة الشهير سيتسن (Seetzen II, 228) فان اعتبرنا بلاد الشام اجمالاً عثرنا على نصوص تثبت وجود الاسد فيها حتى في اوائل القرن السابق (٢) بل لا يُستبعد وجوده حتى اليوم في بادية تدمر (٣)

أما لبنان الذي يهتئنا الآن باعتباره فإن الشواهد على وجود الاسد فيه عديدة على اختلاف اطوار تاريخه . لابل قد وجدت قبل طور التاريخ في آثار هياكل اسود كانت تأوي الى الكهوف (٤) . ومن شواهد الازمان التاريخية ١٠ ورد ذكره في سفر نشيد الاناشيد حيث أشير الى أسد لبنان عموماً وحمون خصوصاً قال (٨ : ٤) : « انظري من رأس امانة من رأس سنير وحمون من مرايض الاسود من جبال النمر » وحيثما جاء في الكتابات الهيروغليفية قبل ذلك العهد ذكر « لبنانا » وهو جبل لبنان فإن كاتبها يثله كجبل ذي احراج متكاثفة لم تُمتن بالقطع تتجول فيها الضباع والدبة والاسود . وكان الفراعنة اذا خرجوا الى مضاد سباع البهائم والاسد قصدوا لبنان او لحفه في سهول البقاع او سهول حمص ووادي العاصي حيثما كانوا يتصيدون الفيلة كما ستري

وكذلك ملوك بابل واشور فاتهم بعد الفراعنة بقرون كانوا يحاولون قنص الاسود في لبنان . لنا على ذلك دليل محسوس في نصب اكتشفناه قبل بضع سنوات جنوبي غربي حمص على مسافة نحو عشر ساعات منها في سلسلة جبال متفرعة من لبنان يفصل بينها وادي خالد واسم الجبل أكروم . والنصب في وادٍ خرج حيث يسيل جدول ماء

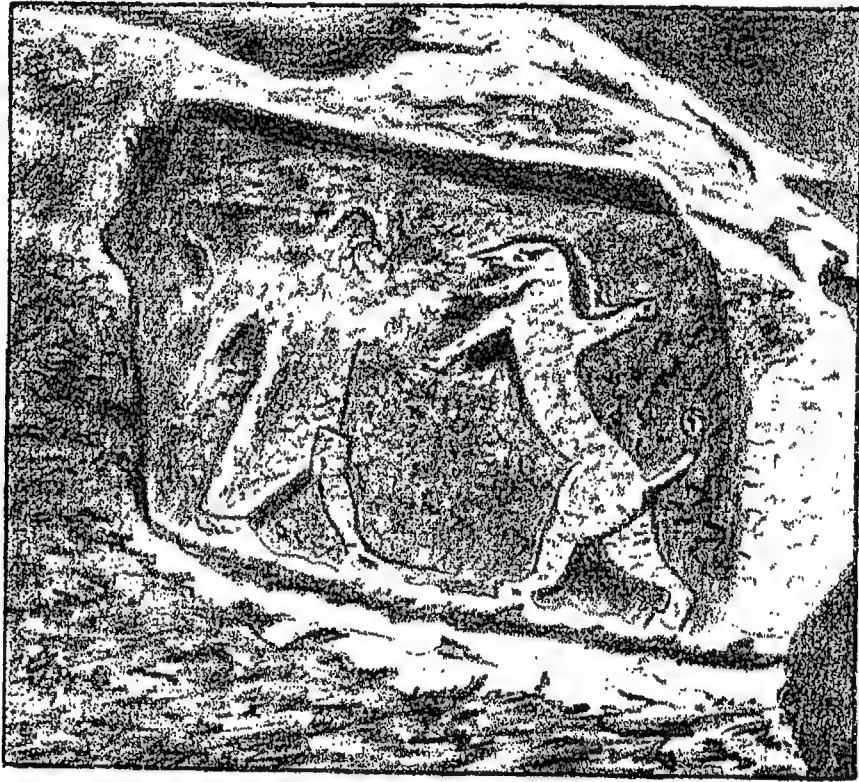
(١) راجع كتابه Kulturgeschichte der Kreuzzüge, p. 332

(٢) راجع الكتاب The City and the Land, 83 - وكذلك ورد في كتاب صبح الاعشى للقلقشندي ان الاسد كان موجوداً في القطر الشامي في عهد المؤلف اي في اوائل القرن الخامس عشر (راجع النسخة المخطوطة التي في خزانة كتبنا الشرقية (ص ١١٣٢)

(٣) راجع مجلة الملمين 1897, p. 403 11 Juillet

(٤) راجع كتاب الاب زموغن اليسوعي (Esquisse géolog. du Liban, p. 65)

يُدعى نهر السبع شكله مربع تقريباً يبلغ قياس كل جانب من جوانبه مترين ونصف ترى فيه صورة أسد يصارعه رجل^١ (انظر الصورة) والمصارع منتصب^٢ حافي الرجلين تراه يقبض بيده شديدة فك الأسد الواسع المفعر بينما هذا ينصب قائمته ليهجم عليه . وصورة الرجل مهشمة ولا يرى السلاح الذي كان في يده والمرجح أنه كان يسكه باليمنى ومع خلوه هذا الاثر من كتابة لا شك في أنه من مآثر الاشوريين ١)



صورة نصب أكروم

وقد اكتشف ليس بعيداً من هذا النصب اثر آخر يبين معناه والواقف عليه

(١) راجع كتابنا الذي عنوانه Notes épigraph. et topogr. sur l'Emésène, p.

etc. 49 ولاب س. رتزال بحث في هذا الاثر الجليل نشره في المجلة الكتابية, (R. B.

1903, p. 600-604)

هو المسيو يونيون قنصل فرنسة سابقاً في حلب وجده منذ نحو عشرين سنة في وادي بريسة على مسافة نحو ساعتين من الهرمل في شمالها اعني في وسط لبنان . هذا الاثر عبارة عن صفيحتين نصبهما ملك بابل نبوكدنصر الثاني وعليهما كتابات مسمارية وضمن احدى هاتين الصفيحتين صورة كصورة نصب جبل اكروم تمثل صراع رجل واسد . وليس الرجل سوى ملك اشور بعينه كما يلوح من مضمون الكتابة . وذلك ان نبوكدنصر سكن برهة من الدهر في ربة وهي قريبة من الهرمل ومن جبل اكروم فلا عجب ان تكون الآثار المكتشفة في تلك الجهات ممثلة لبعض وقائع الصيد التي تولأها الملك الاشوري على مقربة من مقام عسكره . وهذا دليل باهر على وجود الاسد في لبنان في القرن السادس قبل المسيح

وان تتبعنا سياق الاجيال من بعد نبوكدنصر لا نجد شواهد واضحة على صدق مقالنا والسبب ان الكتبة اليرنان والرومان لم يرووا عن لبنان الا النثر القليل فلا غرو ان سكتوا عن مثل هذه الحقائق . ولا يتقنا مع هذا بعض الدلائل المشيرة اليها فن ذلك اسم «البوبة» وهي قرية شمالي بعلبك على مسافة اربع ساعات منها واسمها القديم كما في العربية لبوا (Liboa) يشبه اسم قرية بيت لبوت (بيت ذبذوا) في فلسطين (١) وناهيك بهذا الاسم شاهداً على وجود الاسد في تلك الجهات عند سفح لبنان . ومثل هذا اسم مدينة ليونتوبوليس (Léontopolis) اي مدينة الاسود واسم نهر الاسد (Λέοντος ποταμός) وكلاهما على سواحل لبنان وان لم يتبين العلماء بضبط نقطة موقعهما . ولا بأس اذا قيل بان في اسميهما دليلاً على وجود الاسد بجوارهما في لبنان

وزد على ذلك نصوصاً وردت في كتاب فتوح البلدان (ص ١٦٧) للبلاذري تنبئ بوجود الاسد قريباً من انطاكية . وكذلك جاء في كتاب الاعتبار ان اسامة ابن منقذ كان يصيد الاسود في نواحي شيزر . ومن غريب الشواهد ما اثبتته فرسان الهيكل في قانونهم انه لا يجوز لهم الخروج الى الصيد ما خلا الاسود . وكان لهؤلاء الرهبان كما هو معلوم مراكز عديدة في لبنان (٢)

وما لا يترك شبهة في الامر خبر رواء صالح بن يحيى في كتابه تاريخ بيروت عن

(١) راجع معجم الكتاب المقدم في باب الاسد

(٢) راجع 46 n° p. 146 G. Schnürer: Die ursprüngliche Templerregel,

بعض امراء الغرب في القرن الرابع عشر للميلاد في قرية عرمون الداخلة اليوم في مديرية الغرب الاقصى من عمل الشوف. قال ما حرفة (ص ١١٣ من طبعتنا) :
« ومن جملة مكايدهم معه (١) ان احدثهم رأى اسداً قد تطرّق ارب بعض الاماكن القريبة فحضر عند زين الدين بن علي وقال له ان دباً مجاوراً للمكان الغلاني (يريد مكان الاسد . وكان قومه بالذب عن الاسد غروراً بزین الدين وطعماً ان يُحدث له الاسد حادثاً) فتوجه زين الدين ليلاً الى المكان الذي قيل له عنه ولم يصحب معه احداً ومعه قوسه فكن هناك فلماً مرّ به الاسد علم انه مغرور بالقول الذي قيل له ورى الاسد بسهم واحد متمداً على بيت القلب فمات الاسد منه . وعاد زين الدين الى منزله وعند الصبح ارسل الى من اخبره انه دب يقول له : اذهب واثب بالذب الذي قتل عنه فانه مقتول بالمكان الذي ذكرته . قال ذلك متهمكاً »

وهذه بيّنة واضحة تدل على وجود الاسود في جهات الغرب في القرن الرابع عشر وعلى الاقل بعض الافراد منها ، وانما توارت اللبث بقطع الاحراج من الجبل وانتشار زرع التوت لصناعة الحرير
اماً الاسد السوري فكان جنسه قائماً بذاته وكان اصغر قامة من اسد افريقية واضعف منه قوّة وكانت لبده صهباء يخالطها شعر ارم (٢) وهو كالنوع الفارسي (*leo persicus*)

*

قال حضرة الاب زموفن (٣) : ليس لفيلية انهار وسهول كافية لمراعي كبار الحيوان ذوي الجلد الغليظ (*pachydermes*) ومن ثم لا يُتظّر وجود هياكل حيوانات خروطيّة قديمة « . لكن الكاتب عينه قد اردف هذه الاسطر بقوله انه وجدت في الكهوف السابقة اطوار التاريخ في لبنان بقايا عديدة من هياكل الكركدن (*rhinoceros*) الذي يجانس نوعاً آخر قديماً يدعى تيكورينوس (*tichorhinus*) كان يرافق جبّار الحيوانات المعروف بالتموث «
وفي مقالاتنا السابقة عن مياه لبنان (راجع ص ١٢٣ و ١٢٥ و ١٢٨) اثبتنا

(١) يريد بني ابي الجيش المعادين لزين الدين بن علي امير الغرب
(٢) طالع Nowack : *Hebraeische Archeologie*, 78 ; *Dictionnaire de la Bible*, art. Lion
(٣) راجع كتابه *Esquisse géologique*, 65

بعض الدلائل التي يمكن ان يُستدل بها على وفرة المياه الجارية سابقاً من عيون لبنان وانهارها. وكان ينتج عن هذه المياه البخرية تساعداً على نموّ الزراع وخصب المراعي التي تحتاج اليها هذه الحيوانات لاسباب معاشها

ووجود الفيل في لبنان امرٌ ليس تحت ريب تُقرّر صحته الدروس الشرقية. روى المسيو مسيرو في تاريخ الشعوب الشرقية القديمة (ك ٢ ص ٢٦٥) انّ الفرعون تحوتس الثالث لما عاد ظافراً من ضفة الفرات نزل في نيّ (Ni) التي نظنها اقامية المرافقة لقلعة للضيق حيث تستمتع مياه العاصي في سهول واسعة كثيرة الادغال كثيفة الاعشاب. وكان هناك فيكة عديدة فاراد الفرعون ان يلتهم بصيدها فوكل الى جنوده بان يحدقوا بالسهل لئلا تفلت الفيلة من الصيد فكان عدد القتلى ١٢٠ فيلاً نقل عاجها الى مصر (١) فكفى بهذا العدد دليلاً على وفرة ذوي الخرطوم في سورية

ثم انّ في الآثار الاشورية ما يزيد على هذا دليلاً. قيل انّ العاج كان من جملة الجزية التي اداها الملوك نينوى اهل بيت عديني وباطناي وهو يوصف كمحصول بلدي. اما موقع هذين البلدين فانه كان في شمالي سورية في ما يوافق حالياً ولاية حلب. وكذلك يفخر الملكان الاشوريان تغلات فلاسر الاول واشور بانيبال بانها قتلا في تلك الجهات عدداً عديداً من الفيلة واسرا منها بعضها فنقلها الى حاضرة ملكها وكل ذلك دليل لامع على وجود الفيلة مهلة وحشية في بلاد سورية (٢)

اما داخل لبنان فليس لدينا شهادة جلية على كيان الفيلة فيه اللهم الا بعض الاسماء كسنّ الفيل لقرية بجوار بيروت وخرطوم لضيفة في بلاد الشقيف لكنّ اشتقاق هذين الاسمين يمكن شرحه على غير طريقة. وعلى كل حال لما كان وادي «ني» اي اقامية السابق ذكره ملاصقاً للبنان يمكن القول بانّ فيلته كانت تصعد الى رأس العاصي في البقاع. فانه لمعلوم انّ الفيل الوحشي يقطع المسافات البعيدة انتجاعاً المراعي. وكانت حالة بلاد البقاع في ذلك العصر كحالة بلاد اقامية. وكانت السهول المتوسطة بين لبنان والجبل الشرقي تغلب عليها البحيرات والمستنقعات وتكثر فيها

(١) راجع ايضاً تاريخ مسيرو في (الصفحة ١٨) ومعجم الكتاب المقدس في مادة «فيل»

(٢) راجع كتاب حضرة الاب ديلاتر اليسوعي L'Asie occidentale dans les

inscriptions assyriennes, 25, 74

المرجح الحُصبة . ولا شك أن بعض هذه الحيوانات كانت تتردّد الى جهات بحيرة حمص وعيون العاصي المنبعة قريباً من هرمل فكانت تتوغّل في الغابات الكثيفة النامية في منعطف لبنان الشرقي لا سيّما عندما اخذ عدد السكّان ينمو في وادي العاصي فاضطّرت الفيلة ان تهرب وتطلب لها مأوى هادئة امينة

اما منعطف لبنان الغربي فلتوفّر سكّانه كانت احواله قليلة المناسبة لمعاش هذه الحيوانات المحبّة للعزلة ألا في القرون الغابرة قبل منشأ المدن الفينيقيّة الكبرى كطرابلس وبيروت وصيدا اذ كانت السواحل مقاماً لبعض اكواخ الصيادين . فلا بأس ان يقال انّ الفيلة كانت تطوف وتتنزّل غابات لبنان الساحليّة قريباً من الاسود والدبّية وانّ بعضاً منها قدمت من وادي العاصي فتبعّت وادي النهر الكبير وجاءت ترعى عند شواطئ البحر وقرح في نهر ادونيس وفي نهر بيروت والدامور اذ كانت مياه هذه الانهار اوفر منها في عهدنا تتدفّق في السهول القريبة من مصبها وتخصبها بمستقعاتها . بيد انّ غو السكّان لم يلبث ان يلجأ الى الهرب من وجه الانسان طلباً للامكنة المفرة في شمالي سورّيّة او بلادها المتوسطة

ثم زادت عليها المخاطر في تلك الاقفار ايضاً كما رأيت في ذكر صيد تحوتس الثالث ومنه يستنتج ان الفيلة توارت بزمن قليل وباد جنسها في بلاد الشام . واذا تصفّحنا تاريخ ملوك اسرائيل في عهد سليمان لم نجد ذكراً للفيلة الوحشيّة . واعلمها كانت تناءت الى جهات الشمال حتى بلغت وادي الفرات وسواعده وهنالك كان يتصيّدها ملوك اشور اذا ارادوا صيد الفيلة كما أولعوا بصيد اسود لبنان وفقاً للشواهد الواردة في انصاب وادي نهر السبع ووادي بريسا

وتما وُجد ايضاً في لبنان من الوحوش المفقودة البقر الوحشي (aurochs) تعييدهُ الملك الاشوري تغلات فلاسر الاول في القرن السابق لعهد داود (١) كما ورد في الكتابات السامريّة . ووجوده في لبنان مقرر ثابت . لانه لا احد ينكر وجوده في بقيّة جهات سورّيّة وعيشته بين احراج لبنان انسب لطبائه

انّ وجود حيوانات كبيرة كالاسد والفيل في لبنان كان من شأنه ان يجعل لغاباته

هيئة غير مألوفة ولا أنوسة ومن ثم نفهم لماذا كان يشمل الرعب عند قطعها قدماء المصريين الذين كان يسوقهم الدهر أو طلب الارتقاء إلى المروءة بها. فكان الرجل من وادي النيل أليف الأماكن المنبسطة والمناظر المكشوفة في بلاده إذا قصد الاقطار الشامية يوصي بآله لاهليه لحرفه من السباع (١) فلم تكن سوربة في عينه سوى غابة سوداء اجتمعت بها افواجاً وزرافات اصناف الحيوان الضارية كالاسد والنمر والفيل واشباهها

✱

ولم يكن مشهد الحيوان في مياه الانهر والبحيرات باضعف حركة منها في الصحراء والجبال فكان يلعب فيها فرس الماء ويعبث التمساح وقد وُصف ذلك في سفر ايوب وصفاً بديعاً فائضاً في الشعر بالغاً في التأثير فنها بهموت ولويانان في نص المؤلف الالهي (٢) وقد ارتأى قوم من مفسري الكتاب المقدس ان واضع سفر ايوب اخذ معلوماته عن مصادر مصرية في وصف هذه الحيوانات المشتركة العيشة بين البر والماء. وأما نحن فعندنا وجه اسهل لحل هذه المسألة فلم يكن من حاجة لأيوب ان يعتمد عن سوربة لوصفها اذ كانت هذه الحيوانات موجودة فيها منذ ذلك الحين البعيد العهد واعلم ان وادي الاردن من غريب ما شوهد على سطح الكرة بوضعه الطبيعي وتركيبه الجغرافي بحيث يتشكل للعين انخفاض يبلغ عمقه عند منتهاه (عند بحر لوط) زهاء ٤٠٠ متر دون البحر المتوسط ففي هذا الغور الذي لا مثيل له في الدنيا يسود حر شديد ابتداءه في اوائل ايار فيتراوح وقتئذ ميزان الحرارة في النهار بين ٤٠ و ٥٠ درجة من ميزان سنتغراد وينشأ في تربة ذلك الوادي الحارة نبات اشبه بنبات خط الاستواء في افريقية لا يشبه نبات سوربة وفلسطين بشيء

فعلى شواطئ بحيرة الحولة تنمو طاقات البردي الحضر حتى يومنا والبردي نبات كان قديماً زينة مصر ومجدها ولا يرى منه الآن في كل وادي النيل اللهم الا في بلاد السودان الجنوبية . واي عجب اذا وجدنا بارض تشبه ارض افريقية بترتها الحارة

(١) راجع Maspéro : *Histoire ancienne*, II. ١٧

(٢) سفر ايوب (ف ٤٠ و ٤٢)

ونباتها الخاصّ ما نجده من الحيوان في قارة افريقية . وهذا ما كان بلا ريب في عهد ايوب فنتخيل عهدئذ بحيرة الحولة تحرك مياهها التماسيح والافراس النهرية وهي ترح بين غياض البردي . فايوب حسب التقليد قطن حوران وسكن ناحية جولان فلا غرو اذا ما شاهد من اعالي شرفات هذا النجد المطل على الحولة والاردن حيوانات البر والبحر العظيمة ووقف على احوالها دون ان ينحدر الى مصر . على ان فرس الماء في الوقت الحاضر قد خلت منه نواحي الشام ولم يزل فيها التماسح وهالك البرهان :

ذكر بطليموس وبلين واسطرابون مدينة بجانب الكرمل اسمها مدينة التماسح (Crocodilopolis) (١) وقد اتى باين (٢) فوق ذلك على ذكر نهر بهذا الاسم في تلك الحدود وهذا النهر العميق الماء الحامد الحركة يُظن به عموماً انه نهر الزرقاء المجاور قيصرية شمالي هذه المدينة وهناك يتكوّن منه مستنقع غريب المنظر ويدهى حتى اليوم باسم يعبر عن حقيقة حاله اي مستنقع التماسح وعلى حافته تنمو بكثرة غياض البردي وغيره من الشجيرات فاسم المدينة واسم النهر يسوّغان لنا ان نحكم بوجود تلك الزخافات فيهما في غابر الزمن على الاقل فضلاً عما لدينا من الشهادات الحجة قديمة وحديثة تبين نفس الشيء باستفاضة لا تبقي في العقل شكاً . . .

ففي الجليل الحادي عشر ذكر الجوّالة الفارسي نصري خسرو جنوبي الكرمل وادي التماسيح (٣) . وشهد على مثل ذلك في الجليلين الثالث عشر والرابع عشر مارين سانوتو وجاك دي فيتري . فاثاني يقول : التماسح موجود في نهر قيصرية وهو يفتس الانسان والحيوان وطوائه في الغالب قدر عشرين ذراعاً (٤) ولأ تزل ريكاردوس قلب الاسد ملك انكلاطرة عند نهر الزرقاء افتس التماسح اثنين من جنوده (٥) . ويقول برخارد الصهيوني المنتهي الى رهبنة مار عبد الاحد والذي تجوّل في سورية في اواخر الجليل الثالث عشر : ان التماسيح كثيرة في بحيرة قيصرية وانه لم يفلت هو من شرها الا باعجوبة

(١) راجع Strabon : *Geogr.* XVI

(٢) Plin. : *Hist. natur.* V, XVII

(٣) راجع الترجمة الفرنسية لشيفر (Schefer)

(٤) راجع Gesta Dei per Francos (ص ١١٠٣)

(٥) راجع Hstoire de la guerre sainte (éd. Paris) ص ٥٢٦

وقد قال قوله من بعده كثير غيره من زوّار الارض المقدّسة غير أنّنا لا نورد اسماءهم لانهم رُواة يرون ما سمعوا وليسوا شهود عين يحكون ما نظروا اللهمّ ألا بوكوك الانكليزي سنة ١٧٧٣

*

هذه شواهد الماضي وأما في الحاضر فلدينا اصرح الادلة واصدق الشهود عن وجود التماسح في الزرقاء بل وفي غيره من مياه فلسطين
فلاحاديث المقولة والاسانيد المروية عن نهر الزرقاء يبلغ عددها الى ما لا يكاد ينتهي واولهم المرسل الاميركاني تومسون الذي كتب سنة ١٨٥٧ (١) ثم العلامة بياروتي (Pierotti) مهندس ولاية القدس وقد عثر في سيره نحو منبع الزرقاء على بقايا سلع تمساح اخضها بقايا الرأس (٢) وفي سنة ١٨٧٧ قبض الالمانيون في حيفا بالموضع نفسه على انثى التماسح (٣) وقد تعدّد مثل هذه الاكتشافات في السنين الخمس والعشرين الاخيرة . وفي سنة ١٨٩٣ وجدوا فيه هيكل تمساح وست بيضات فضي الهيكل بالتين وأرسل الى القدس
وأما البيض ففُقسّت واحدة منها وأُرسلت واحدة الى العلامة صموئيل ميريل فنصل اميركة في اورشليم وبعث بالأخر الى باريس (٤) فهذه الاكتشافات المتعددة تدلّ على أنّ التماسح يعيش ويتناسل في بطاح نهر الزرقاء وغدرانهِ إلا انه ليس بكثير التناسل لأن سطح الارض الذي تغمره الاغدر لا يبالغ عشرة هكتارات
وهذه الزخافات موجودة في غير اماكن من فلسطين ففي السهل الكثير الرمل المدقع ذي الكثبان المتعددة الممتد بين حيفا وعكا مصب نهر المقطع المعروف عند الاقدمين باسم قيسون فهذا النهر تغزر مياهه عند آخر حدوده على مسافة ثلاثة الاف

- (١) راجع The Land and the Book (ص ٤٩٧) . ث ٣٤٠ ، XIII ، ZDPV
- (٢) راجع مقالة التماسيح في فلسطين للاب دي سنت اignan (ص ١٠)
- (٣) اطلب دليل يدكر الطبعة الرابعة الالمانية (ص ٣٦٥) ولورته - Syrie d'aujourd'hui (ص ١٧٤)
- (٤) راجع المجلة الفلسطينية الانكليزية (P E F) سنة ١٨٩٣ (ص ١٨٣ و ٣٦٠)

متر عن البحر لانه لا يصادف هناك الخدّاراً كافياً وتتنصب في وجهه الرمال المتكونة عند محبته فتحول الحواجز بينه وبين البحر فيستقع السهل وتتسع مستنقعاته وينبت فيها النباتات وتنمو فتتشبك سبلها ففي سنة ١٨٦٩ ارتاد الجوّالة الانكليزي مالك كريكور على زورق غدران نهر المقطّع ومجره الاوطأ فطلع عليه بغتة من الماء تمساح وكاد يقلب الزورق فاذهله ما اتفق له مما لم يكن في الحسبان فرغاً بقاربه الى الشاطئ فابصر عليه آثار تماسيح متعدّدة - وقد التقى مرة ثانية في تلك النواحي بهذا الحيوان الهائل الذي لم يعد من سبيل للارتياح بوجوده في نهر المقطّع (١) وحتى اليوم لم يكتشفوا على شيء منه في بحيرة الحولة ولا في بحيرة طبرية وفي حكمنا انه كان فيهما قديماً ونزجج وجوده في نهر الشريعة اليوم

ومما يحملنا على هذا الترجيح ما جاء في رحل الزوّار الاقدمين من القصص والاختبار عن نكبات بعض السواح ممّن ذهب بهم التماسح عند استجمامهم في الاردن

وبعض حوادث اقرب عهداً تريدنا في الامر صدقاً الى اليوم ليس من حادث او اكتشاف في الاردن كما في الزرقاء والمقطّع مما ينزه الحقيقة عن كل ريب وذلك متأتّ من عصر سبب الاردن في مجراه الاسفل (٢) ولعلّ التماسح موجود في النهر الاخضر جنوبي قيصارية كما وفي غيره من مياه تلك الناحية . وفي رأي العلامة لورته الذي فحص تمساحاً محشواً (مصبراً) انّ تمساح فلسطين يختلف نوعاً عن تمساح النيل (٣) ومن المقرر الثابت ان تماسيح فلسطين اصغر جداً ولا يزيد طولها على متر ونصف ولا بأس منها الا على المواشي فتفتك بها احياناً

*

وانما الصعب في هذا بيان طريق وصول هذه الزخافات الى الاقطار الشاميّة . وهي اصيليّة ووطنيّة ام نُقلت من خارج . فالرأي الاول قريب من الصحة على ما نرى

(١) راجع كتاب « ماك كريكور » المعنون (The Rob Roy on the Jordan, 398)

(٢) راجع مقالة الاب دي سنت انيان (السابق ذكرها

(٣) راجع كتاب الدكتور لورته (Syrie d'aujourd'hui)

وهو رأي العلامة لورته الذي يذكر كون اصلها من مصر . فالمواضع التي ثبت بها وجود هذا الحيوان في فلسطين تشبه مصر بنوع نباتها فان كانت الوردات واحوال الجو والهواء واحدة في القطرين فلم لا يتشابهان ايضاً بنوع الحيوان . فلا شيء اذن يحول دون وجود التماسح بل كل شيء يدعو اليه . على ان بعض العلماء يستصوبون القول بنقل هذا الحيوان الى فلسطين ورأيهم ان المصريين نقلوه اليها . ونحن نعلم ان فلسطين كانت جيلاً طويلاً في حكم الفراعنة فلا يبعد ان يكون من اقام في هذه البلاد من المصريين قد احبوا جوار هذا الحيوان الذي هو من معبوداتهم فاستصحبوه

وبما نعلمه ايضاً ان رمسيس الثالث بعث بالتامسح وافراس الماء هدية الى تغلات فلاسر ملك اشور (١) وربما وصل التماسح الى فلسطين لحادث نظير هذا وهما يكتن من امر هذه التأويلات والايضاحات فقد تقرر لدينا وجود هذه الزخافات في كثير من مياه فلسطين الشمالية وكل شيء يحلمانا على التسليم بانها كانت اوفر عدداً في الازمنة العريقة في القدم وسواء كانت اصلية ام منقولة فقد تولدت وانتشرت على وجه القطر

ولا يصعب علينا القول انه في عهد ما كان الفيل محبوب احراج لبنان كان التماسح يعبث في مياه الجبل ومستنقعاته كاليطاني القريب من بحيرة الحولة والاردن وقد كان بلا ريب وافر العدد فيهما قديماً على عهد ايوب البار . انما غو العمران واتساع الزراعة وامتداد المساكن اصبحت بعد ذلك ضربة قاضية على وجودها في تلك النواحي الندية . ولم يكن للفيلينييين حاجة في عبادتها كالمصريين ولا بد انهم بذلوا المجهود في استئصال شأفة تلك الجيرة المؤذية او في حملها على المهاجرة الى جهات اعرق في الجنوب حيث نجد منها بقايا في أيامنا

المعادن في لبنان

نقسم كلامنا في المعادن المبنائية الى تسمين . فاننا نبحت أولاً عن احوالها الحاضرة ثم نستقري الشواهد التاريخية

١

حالة المعادن حاضراً

كلامنا في هذا القسم عن ثلاثة امور : اصناف الوقود ثم المناجم المعدنية ثم الحجارة وانواعها

اولاً الوقود

١ فلنباشرن بالفحم الحجري الذي نال في علم المعادن واعمال الصناعة مقاماً راجحاً لا يحتاج الى بيان . ان الذين بحثوا في بلادنا عن طبقات الارض وتركيبها مجمعون بان سورديّة خالية من الفحم الحجري (houille) ولا يخرج لبنان عن هذا الحكم العمومي . على ان في هذا الجبل طبقات من القصة (grès) تختزن مستودعات عديدة من الفحم الخشبي المتحجر (lignite) غير كامل التفحم لكنها بلغت في نموها ما هو كافٍ لاستثمارها

وهذه الاخشاب المتحجرة على ضريين . فمنها ما تظهر فيه تقاطيع الخشب وهو الخشب الحجري . ومنها ما استفهم الى ان فقد تماماً أثر النسيج النباتي . وهذا الصنف الثاني يكون فحمه اسود كالقير لامعاً وقريباً من الفحم الحجري . واغلب المناجم التي تُرى فيها هذه الاخشاب المنحجرة ينتج فيها البيريت (pyrites) الابيض (وهو مزيج الكبريت بالحديد) مع الصلصال ويصعب فصلها عنه وهما يعلان هذا الوقود غير صالح لاعمال الصناعة . وزد على ذلك ان فحمها اذا تكتفأ للهواء لا يلبث ان يمتدّد وتعلوه قشرة من عنصر الشب . ومستودعات هذا

الحشب المتحجر في الجبل هي في الغالب قليلة الاتساع لا يتجاوز عمقها مترين . أما مواقعها في لبنان فدونك ما يستحق منها الذكر مباشرة بنواحي الجبل الشماليّة
شاع أنّ في قائمتاميّة البترون قريباً من بشرّي منجماً من المستحجرات الحشبيّة .
وليس لدينا شيء من الاعلامات المدققة في هذا الخصوص فنكتفي بالإشارة . أمّا
جهات لبنان الجنوبيّة فعندنا من الايضاحات ما هو اوفى بالمرام فإنّ في المقاطعة
الكسروانيّة في قرطبة وميروبا والنيطرة مناجم متعدّدة من الحجر الحشبي كان
يهتمّ باستخراجها اصحاب المعامل الحريريّة ولعلّهم يستثمرونها حتّى اليوم . أمّا
منجم ميروبا فالولا بعده عن المراكز الكبرى لصلح للحاجات البيتيّة وناب مناب
ضروب الوقود

واشهر طبقات الفحم الحشبي المتحجر في قرنايل من مقاطعة المتن وقد صار
الاعتناء باستخراجه من سنة ١٨٣٥ الى ١٨٣٨ لكنّ قيمة هذا الفحم كانت ارفع
من فحم انكاثرة بعد نقله الى بيروت . وكانت علّة هذه الاسعار الفاحشة قلّة وجود
اسباب المواصلات فيحتاج الى الدواب لنقل ما يُستخرج من المناجم . ولولا هذه
الصعوبة لاضحى هذا العمل رابحاً لأنّ اربعين معدناً فقط كانوا يستخرجون من هذا
المنجم مئة قطار في اليوم . والفحم جيّد رغمًا عن انقطاع طبقاته وتبعّداتها . وهذا
المنجم قليل السعة وسكّه لا يتجاوز متراً

وفي المتن الاعلى مناجم فحميّة أخرى متعدّدة يستفيد من بعضها ارباب المعامل
الحريريّة المجاورة . منها منجم مار يوحنا الا ان اختلاط فحمه بالكبريت والحديد
يصدّ عن استعماله . وفي فالوغا منجم آخر يوجد فيه جذور شجر تحوّلت الى هذه
العناصر الغريسة فاذا انكشفت للهواء صارت فتاتاً بعد قليل . وفي بزبدين منجم
ثالث ليس بندي شأن

وهذه المناجم الفحمية يصعب استثمارها لقلة اسباب المواصلّة ولبعدها عن المراكز
الكبيرة فضلاً عن كونها قليلة العمق ضيقة النطاق تكثر فيها المواد الغريسة التي لا
يمكن إفرازها الا بعد النفقات البالغة . فهذه العوائق كلّها تقوم في وجه العمل وتزيد
في صعوبته وتقلّل ارباحه المأمولة

وخلاصة القول أنّ طبقات الفحم المتحجر السابق وصفها لا يمكن تعدينها وأنما

يجوز استخدامها للمعامل الصناعية الصغيرة والحاجات البيئية بشرط ان يُختار منها أجودها وتُنقى تنقية حسنة من موادها الغريبة

*

وان اعتبرنا قائمة جزين وجدنا مناجمها الفخمية في حالة اصلح وان عدت أيضاً الوسائل الجامعة بينها وبين المراكز الكبرى حيث يمكن بيدها . نعم ان صيداء اقرب الى جزين من قرنايل الى بيروت ببعض كيلومترات لكن صيداء مركز قليل الشأن فتكون قطعيتها لهذا الفحم زهيدة

وهاك ما يُعرف من طبقات الفحم الخشبي المتحجر في قائمة جزين :

اذا خرجت من صيداء في وجهة الجبل رأيت بازانك على حدود الافق من جهة الشرق جبلين تلتصّب قمتها على شبه المخروط مع استدارة قليلة كان ارباب البحر لغرابة شكلهما يستدلون بهما الى موقع صيداء قبل شيوع السفن البخارية . والقمتان قريبتان لا يفصل بينهما إلا مهبط قليل العمق فدعيتا لهذا السبب بتومات نيجا او بالتوامات . وكان الاولى بان تُدعى بتومات جزين لوقوع جزين عند سفحها . فان غلب اسم نيجا فذلك على رأينا دليل على خطر قرية نيجا قديماً . ومن زار هذه القرية تحقّق صحة هذا القول لاسيما اذا رأى على مقربة منها تلك القلعة المنقورة في الصخر الشهيرة بشقيف طيرون او بقلعة نيجا وقد سبق لنا وصفها (١)

ويتشعب من تومات نيجا غرباً من جهة البحر شعبٌ يُرى فوقها جنوبي جزين مناجم من مستحجرات الفحم الخشبي يزيد هنا وصفها . ولا يخرج من دائرة الجبل الغربي سوى منجم واحد يُرى على وجه الارض طوله ٥٠٠ متر وارتفاعه ٨٠٠ م بين قريتي مشعرة ونيجا اعني في منجدر تومات نيجا الشرقي

فان اعتبرنا اذن المنعطف البحري وجدنا موقع أوّل منجم فحجي على مسافة ١٣ كيلومتراً فقط من صيداء . وفحمه شديد الحلاكة لامع ذو قطع جامدة يُكسر كسراً ولا يتفتّت وهو على وجه الارض يعاينه الناظر في وادٍ صغير قرب المراح في علوّ يختلف بين ٧٥٠ الى ٨٠٠ م وهو يتصل بعين التنغرا فوق الوادي الى حد ٩٠٠ متر . وان سرت

من ثم إلى جهة الجنوب امكنك ان تتبّع آثاره متواصلةً بين قريتي خرخياً وزحلتا على طول ١٢٠٠ متر وهناك لا يعود يُرى على وجه الارض غير ان الصالصال المختلط بمواد فحميّة ويشتية (schiste) يدل على وجوده في مسافة نحو كيلومتر . وفي بعض الانحاء قد استخرج منه الياهوون بعض القناطير ولم يحفروا في عمق يتجاوز سبعة امتار . اما سمك هذه المناجم فيتراوح بين ٥٠ سنتيمتراً و ١,٦٠ . وهذا ممّا يدل على قلّتها وعلى مسافة نحو ٣٠٠ متر شمالاً من عين التفرح حجارة من الشست حمرية تمتد بين طبقتين من الحجارة الكلسية وتحتهما طبقة من الفحم الخشبي المتحجّر . سمكها يختلف بين ٧٠ سنتيمتراً الى ثلاثة امتار ونصف وامتدادها يبلغ زهاء الف متر وكذلك قرب الطريق المؤدية من حيطورة الى جزين طبقات أخرى من الشست المزوج بالحمر يراها الرائي على طول امتدادها تقريباً ثم تتوارى تحت قرية زحلتا وعمقها في بعض المواقع يبلغ من اربعة الى خمسة امتار . ومعدّل ثخانتها اربعة امتار واستخراجها لا يستدعي شغلاً كبيراً . وهذا المنجم لا يغطيه سوى غشاء خفيف من التراب ويمكن تعدينه من الخارج دون فتح اسراب . وصلاحيته في الغالب استخراج غاز التنوير منه

من المزمّر ان اهمّ مستودعات الفحم الخشبي المتحجّر في قائمقامية جزين واقع جنوبي غربي حيطورة على مسافة عشرين دقيقة منها وصاحب امتياز المنجم سعادة المركيز موسى دي فريج ومسافة ارض الامتياز زهاء مائتي هكتار فمن التفاصيل التي نوردها والمجاثنا السابقة تعرف ما يمكن استجاره من مستحجرات لبنان الخشبية . فالمنجم القريب من حيطورة لا تظهر آثاره على وجه الارض الا في بعض الانحاء . ومستودع الفحم محصور فيه عادةً بين طبقتين من صالصال صلب خشن قليل السمك ويختلف سمكه بين ٦٠ سنتيمتراً وثلاثة امتار فيلزم قبل تعدينه إزالة ربع التربة او ثلثها لاحتوائها على مواد غريبة غير صالحة كقطايع الشست الاسود الصالصال المزوج بالحديد والمحتوي على قليل من الفحم وبعد هذا العمل الاستعدادي يتوصل الى الفحم الخشبي الحقيقي وهذا الفحم يختلف نوع تركيبه فهو سريع العطب في بعض الانحاء فيتفتت بسهولة وفي غيرها حالك لامع كثيف وكلا النوعين من الوقود الجيد

أما طبقة الناحية الغربية فأنها تتخذ خواص الپيريت لقربها من مستودعات هذا المعدن وفحصها مخطط بنقاط طبع الپيريت الذي يبلغ سمكه بعض ملليمترات ولهذا السبب لا بد من تنقيته تنقية حسنة وأطراح كمية وافرة منه مع أنه من نوع الوقود الجيد - فكل ما أوردناه يستلزم زيادة النفقة في استخراجه

ومما يلزم تلافيه في هذه الناحية تطاير روح الزاج المتكاثر والسبب عن ضغط طبقات الودم المعرضة لحرارة الشمس ألا أنه يمكن ملافاة الامر ذلك بتشديد الاتاتين في معامل التعدين

على أن مناجم حيطورة بل أكثر مستودعات الفحم الخشبي المتحجر في لبنان تتضمن شيئاً من العنبر المعدني الذي يتولد من صمغ الصنوبر والسرو واشباهها . فهذا العنبر اصفر كالشمس لامع ومكسره زجاجي شفاف واذا تكشفت كسره للهواء تفتتت

أما طرق استثماره فالطريقة المستعملة الى اليوم في منجم حيطورة هي الحفيرة ولا بد من فتح اسراب معها فهذه الطريقة تمكن مع بعض ضربات في اللغم من البلوغ الى عمق ٥ امتار وفي استعمالها ربح لان نفقة الاستخراج لا تتجاوز فرنكاً و ٥٠ س في الطن . ولولا ارتفاع اجرة النقل لكانت زيادة التعميق في الحفر تزيد في الربح

غير أن المنجم في الجملة يسهل طرق الاستثمار بواسطة الاسراب او الدهاليز فالمعدن بالاجمال قليل الانحاء فتتصب منه المياه اذ ذاك في الدهاليز وهذه تصبها في المسيل المجاور ولا يحتاج لتجديد الهواء وجلبه الى القوآت المحركة وبما ان ليس فيه من الصخور الصماء الصلدة فلا حاجة الى استعمال قوة خارقة كالديناميت . فبعض دفعات من البارود في اللغم تكفي لرفع الطبقة الحزفية الموجود فيها الفحم المطاوب ولا يلزم لهذا الفحم إلا استعمال الآلات المعتادة كالحفر والمول فلا يقتضي اذن لهذا العمل نقابون مخصوصون وكل هذا ممّا يخفف النفقة في استخراجه

*

فبقي علينا ان نبحث عن المحصول . فبحساب بسيط يمكننا ان نقدّر بالتقريب مقدار المنجم جملة أعني مقدار المحصول الصالح للوقود الممكن الانتفاع منه مباشرة وهذا امر ذو اهمية كبرى وبدونه لا يكون لتفاصيلنا السابقة الأ فائدة نظرية . فتحت

موقع المنجم مباشرةً ببعض امتار عن سطح الارض ترى طبقة بسمك ثلاثة امتار ونحن نكتفي بتعديل مترين وتزيد على ذلك بان نطرح مسترًا آخر وهذا كثير — بسبب الكثيب العقيم والفحم المزوج بالمواد الغريبة التي تقلل صلاحيتها للاستعمال ومن بعد تنقية المستخرجات الحجرية وطرح العناصر الغريبة اذا قدّرنا مساحة المنجم الصالح للتعدين ١٠٠ متر فقط يمكن استخراج حجم من الفحم قدره ١,٠٠٣,٩١٦ مترًا مكعب والحال قد شوهد في العمل ان المتر المكعب من الفحم الحشبي المتحجر وزنه زهاء الطن فتكون كامل الكمية بوزن ١,٠٠٣,٩١٦ طنًا فلو فرضنا استخلاص ١٠,٠٠٠ طن في السنة فيدوم عمل التعدين ٨٠٠ سنة

فاذا كان الى الان لم يُبذل الجهد في استخراج منجم حيطورة مع وجود الظروف الموافقة فسبب ذلك بلا شك العوائق التي اتينا على ذكرها مرارًا والتي تحول زمانًا طويلًا دون الانتفاع من كنوز لبنان المعدنية التي على قلّتها لا يسوغ لنا ان نستخف بها.

وزد على ما ذكرنا المباراة الاجنبية التي يبتقى اثرها الى اجيال عديدة فيلزم ان نضيف الى مناجم اوربة والعالم الجديد التي كانت دائمًا وتبقى زمانًا طويلًا في الاستعمال مناجم الفحم الحجري الصينية التي لم تُعدنْ لحد الآن وهي وحدها تكفي وقودًا للعالم بأسره مدّة الوف من الدهور وفي الممالك المحروسة سيّما في برّ الاناضول (١) مناجم حسنة لا بدّ من استثمارها مع اكتشاف غيرها من المستودعات المرجع وجودها (٢)

فلو فرضنا ان الفحم اللبناني يعادل مجودته الفحم الانكليزي وفحم هيرقلة العثماني فانه يقصر عنهما بالرواج في السوق السوري . فمناجم هيرقلة وبلاد الغال يجديها قريبًا من البحر فائدة كبرى فانهما تُنقل توًا من المنجم الى مراكب الشحن ولا يجهل احدٌ رخص اجرة النقل في البحر (٣) فمن هيرقلة ومن كديف (انكلترة) الى بيروت

(١) قد اكتشفوا في بلجيكة على مناجم فحم حجري عظيمة وقد حُسب دخلها لالوف من (السنين ٢) راجع كتاب (Verney et Dallmann) والمشرق ١٩٠٢ ص ٧٧٢
(٣) حقيقة ذلك تظهر بثل نوردّه — فطريقة اِصال الحنطة من روسية الى سويسرة على وجهين الاول على طريق مرسيليا او جنوا ومنهما بالسكة الحديدية والثاني على طريق انقرس او روتردام ومنهما بالهر . فبالطريق البحري وهو اطول من طريق البر بثلاثة اضعاف يبلغ الاقتصاد نحو خمسين فرنكًا في كل عجلة من القطار فهناك السنّة المتبوعة في التجارة الحاضرة : اكثر ما يمكن على طريق البحر واقلّ ما يمكن على طريق البر

لا تزيد نفقات النقل على نفقات الفحم المنقول اليها من داخل لبنان على متن البغال والجمال . فتأمل

٢ الحُمر

يُستدلّ عند اول وهلة على ان هذا المعدن كثيرٌ في لبنان . ففي الشرق والجنوب تحيط بالجبل اراضٍ يُشاهد فيها الحُمر بكثرة ففي بلاد بِشارة يُرى الحمر في عينبل وحرّيقة وفي غير مواضع من قائمقامية صور . غير ان اشهر مستودعات الحُمر في قضاء مرجعيون واغناها منجم حاصبيا الذي هو من املاك الحضرة السلطانية . وكفاه وصفاً ان يُقال انه قد كان يُستخرج منه في اليوم ٨٠ صندوقاً وزن كل منها ١٠٠ كيلو فمع ذلك ليس لبنان على شيء من غنى الاقضية المجاورة له ولا نعرف في الجبل الاً منجماً واحداً وهو منجم مليمخ في قائمقامية جزين غير انه قليل المادّة . ولذلك عدلوا عنه بعد ان باشروا باستثماره لقلّة دخله لان نفقات الاستخراج باهظة والمحصول طفيف لذلك لا سبيل للمباراة مع منجم حاصبيا . أمّا في قضاء البترون فأثار الحمر دون ذلك فلا يُعتدُّ بها ولا نتيجة لها ترغب باستثمارها . أمّا غير ما ذكر من اصناف الوقود المعدنية كالبتروك فلا اثر له في تربة لبنان

*

ثانياً المواد والمناجم المعدنية

ليس للبحث في هذا الموضوع مجالٌ واسع وما نوردّه في هذا الفصل دون ما قدّمناه في فصل الوقود

فلنباشرنّ بالحديد ولولا مخافة الالتباس لسمّيناهُ سيّد المعادن بدلاً من الذهب الذي خُصّ بهذه التسمية على غير حق . نعم ان الحديد من حيث اللعان الظاهر والقيمة المجردة اقلّ قدرًا من بقية المعادن كالذهب والفضة والنحاس والزئبق وغيرها لكنه اكثر منها انتشاراً في الكون واعظم منها فائدة للانسانية ولا يضاهاه في ذلك الاً الفحم الحجري الذي يشبهه بسواد لونه وقلة نصارته ولقد يتبادر الى الذهن ان اغنى البلاد مالا واوسعها تجاراً واقدرها صناعةً هي

البلاد التي توفرت فيها معادن الذهب ومناجم الالماس والصحيح ان اغنى بلاد الله هي ما كثرت فيها معادن الحديد ومناجم الفحم الحجري فالمعادن الثمينة انما ينتفع منها بعض الخاصة المنعم بها عليهم فتفيدهم زهواً وتريدهم لهواً وان توارت عن وجه المعمور فلا يلتحق بالانسان ضررٌ كبيرٌ بل يتخلص من اكبر مُهَيِّج للاهواء البشرية . اما فقد الحديد فيحدث في الهيئة الاجتماعية اضطراباً شديداً وفي اعمال الصناعة اختلالاً عظيماً ويكفي لاثبات ذلك ان الزراعة التي هي اهم الحرف واوجب الصناعات لا قيام لها بدونه

فان كان حقُّ التقدُّم مستحقه بما يؤثرون من الخدم الجليلة فليس بين المعادن من يستحقُّ التقدُّم والسيادة نظير الحديد

ولقد اعتاد شعراء اليونان واللاتين الاقدمين ان يختصروا تاريخ العالم ويقسمونه الى ثلاثة اطوار ملتبين كل طور باسم معدن فيدعون الاول والاقدم بالعصر الذهبي والثاني بالفضي والثالث بالحديدي فلم يؤيد الاختبار تمام التأييد اعتقاد الشعراء ولا حقُّ التاريخ امانيتهم لاسترسالهم الى مخيلتهم الساعية وراء الصور اللامعة والتشابه الساطعة غير مبالين بتطبيقها تطبيقاً كاملاً على الحقيقة الراهنة

على اننا لو نظرنا الى استعمال الحديد المتعدد وقوة المتواصل الى حد انه كاد يقوم مقام كثير من المواد كالخشب والحجر لتجرأنا ان نسمي عصرنا العصر الحديدي ومن هذا الوجه يكون قد سبق الشعراء فعرفوا المستقبل وهم لا يدرون . لكنهم لم يدركوا ان الحديد عيشي مع التمدن قدماً على قدم ويسير كثفاً كثف مع النجاح الذي لا يكون بسواه . وما لا يُنكر ان اكثر الاشياء استعمالاً واعظمها نجاحاً الحديد والورق فالورق وهو ارق الاشياء والحديد وهو اصلها كانا العالمين العظيمين المساعدين على التقدُّم والنجاح ادبياً ومادياً — نعي النجاح بالنسبة والتقييد لا على الاطلاق زبد النجاح الذي احتج عليه الشعراء الاقدمون كما يفعل اليوم اصحاب الفنون الجميلة وطالبو الحسن المعقول . ثم ان للحديد شهماً بالعصر العملي الذي نما به نموه الغريب اي كثرة الفوائد على قلة المحاسن . فحيثما اعتدى الحديد على الخشب والحجر وحدهما حقهما ما امكنه ان يقوم مقامهما في مقامات الفنون الجميلة فهو الخادم الذي لا بُدَّ منه وان قلت ظرافته بازاء الجاذب الفتان وهو انما يُحب لغائده لا للملاحة

على أنَّ في عصرنا الحاضر لا يحلَّ شيء محلَّ الفائدة . فحبَّ الانتفاع عمل على انتشار الحديد ونمو الصناعة والتجارة وهذان الفرعان قد أصبحا من أعظم العوامل في انفاذ الحديد . فمن قبل مائة سنة لم تكن المراكب والآلات والسكك الحديدية ولوازم الطوبجية فان كل هذه لم يكن يُعتدُّ بها بالنسبة الى العصر الحاضر ثمَّ اضحت آخرًا الزراعة وصناعة البناء من أعظم « آكلة » هذا المعدن . وقصارى الكلام انه ليسر علينا ان نعدّد حاجاتنا الى الحديد من ان نبين الحد الذي تقف عنده تلك الحاجات . فهذه التفاصيل توضح لنا على الأقلَّ عظم شأنه فتري اننا لم نُعرِّها التفاتنا عبثاً

*

امّا معدن الحديد فهو لحسن الحظ كثيرٌ في قَصَص لبنان وأثر بته ويشاهد في طبقات تتركَّب من حَبَّات متازجة كبيض السمك أو كالعُص أو الحَصص المتحجّر . وقد يُرى أحياناً مختلطاً ومحصوراً في كتل كلسية ملبّدة أو في مواد معدنية معروفة باسم سپاث (Spath) . وهذه المواد غنيّة بمعدنها غزيرة (١) لأنَّ كمية الحديد فيها من ٥٠ الى ٦٠ بالمائة ومن هذا الوجه لا يدانيه إلا معدن « مقطع الحديد » في جزائر الغرب اذ تصل كمية الحديد فيه الى ٦٥ بالمائة

وهذا المعدن منتشر في اكثر انحاء لبنان وعلى سطح الجبال وفي بطن الوديان سيما في اقصية البترون وكسروان والمثّن وقد استُثمر منذ الازمنة العريقة في القدم كما ثبتته فيما بعد وكما يلوح من عُرْم الحُبثِ والفُسالة المنتثرة في كثير من انحاء الجبل . ونخصُّ بالذكر جهات عكَّار ودوما وبيت شباب والمشغرة والفوزل وادوية المجاري النهرية مثل نهر الكلب ونهر ابراهيم . فمن هذه المعادن كانت تؤخذ مواد المسابك والمعامل الحديدية المقامة في تلك الانحاء ولبثت هذه المعامل مستعملة الى اوائل العصر المنصرم ونمّا يزيد اهمية المعادن اللبنانية فضلاً عن غزارتها وغنائها جودة مادتها فانها تعطي اجود الحديد الذي يُتخذ منه افضل الفولاذ واصلحه لادق الاعمال وارتقا كالآلات والمدافع وتصفيح المراكب وقد اشتهر حديد لبنان بلدونته ومرونته ولا يبعد انَّ منه كانت تُعمل اسلحة دمشق الطائفة الشهرة كالسيوف الشامية التي طالما

(١) ان معدن الحديد يُعتبر غنياً اذا كانت كمية الحديد فيه تتجاوز ٤٠ في المائة

أُغرم بها العارفون واثني عليها المولعون وقد فُقد اليوم سرّ اصطنائها . ولما دخل الحديد الغريب الى لبنان في الجيل الماضي كانت الافضلية للحديد اللبناني في عمل أنعال الدوابّ وصناعة المسامير وما شاكل ذلك

على ان معادن لبنان مع غزارة مادّتها وجودتها لا تُجدي نفعا معتبرا لقلة الذرائع في استثمارها اذ ليس من وقود لتشغيل المسابك وقد مرّ بك آنفاً ان لا وجود للفحم الحجري في لبنان غير أنّه يمكن الاستعاضة عنه بالخشب كما كانوا يصنعون قديماً وذلك كان من اعظم البواعث على اتلاف الاحراج في لبنان وهالك بيمانه :

فقدماً وقبل اكتشاف الفحم الحجري كانت تُعالج معادن الحديد بالخطب في لبنان كما في اوربة . فانهم كانوا يوقدون الخطب في المواقد المعدة لتذويب الحديد وصبة . وبعد الحساب وجدوا انه يلزم مائة كيلو من الخطب للحصول على ١٧ كيلو من فحم الخطب ويجب احراق مائة كيلو من الفحم لسبك ٣٤ كيلو من الحديد وذلك كذاتية عن ائتلاف ١٧٠٠ كيلو من الخطب لاستغلال ١٠٠ كيلو من الحديد . وكان المسبك الواحد يستغرق من الخطب ما تغلّه سنوياً مساحة ٢٠٠٠ هكتار من الاحراج (١) فعلى ذلك لم تكن لتكفي اوسع الاملاك . الا ان حركة المعامل كانت اذ ذاك خفيفة لان الحاجة الى الحديد لم تكن شيئاً بالنسبة الى العصر الحاضر فالكور القديم كان يصبّ من ١٠٠٠ الى ١,٥٠٠ كيلو يومياً امّا الان فانه يُسبك في اليوم زهاء ١٢٥,٠٠٠ كيلو وفي بعض المعامل ثمانية او تسعة اكوار . فاذا اتّضح ذلك ظهر جلياً الضرر الجسيم اللاحق بشجر لبنان والناجم عن مسابك الحديد القديمة وعرفت ان لا سبيل للانتفاع من معادن الجبل الحديدية على كثرتها ووفرة مادّتها

ولا سبيل ايضاً لصّب هذه المعادن والاعتناء بها بنفقات قليلة الا باستحضار الذرائع الموجودة في اعظم البلاد الصناعية نظير انكلترا وبلجيكا . اعني بوجود مناجم فحم حجري قريباً من معادن الحديد وقد عرفت بما مرّ بك أن لا وجود لهذه المناجم في لبنان ولا يسدّ هذا الخلل استغلال الفحم الحجري من الخارج لما يستلزم من النفقات الباهظة

(١) راجع كتاب Vicomte G. d'Avenel : Le mécanisme de la vie moderne

فعلية لا يستطيع لبنان مباداة البلاد الاجنبية في معادن الحديد مع سهولة استخراجها وجودة صفتها . لذلك نرى مسبك لبنان الوحيد في بيت شباب مضطراً الى استعمال الحديد الاجنبي . ولا مناص من هذا الاضطراب الا باستعمال المياه كقوة محرّكة في معالجة المعادن ولا يمكن ذلك الا حيث المعادن قريبة من مجاري المياه والنيابيع القوية كما في وادي نهر الكلب وفي جوار ميروبا فهناك المعادن الجيدة ومما يزيد الاسف أنّ لبنان لا يمكن ان يستعاض عن استثمار الحديد باستخراج غيره من المعادن اذ لا وجود لها . فاننا لانتكلم عن الذهب والفضة اللذين ذكرهما بعض الكتبة منّين لا يتروون في الامور ولا يثقون في المباحث فقد اكّدوا وجودهما في لبنان بجانب غيرهما من المعادن كالنحاس والتوتيا (١)

فلا حاجة لنا بنقض هذه الزاعم التي لا صحة لها ولا سند . ولقد تباهى غيرهم باكتشاف مناجم الزيبق في لبنان (٢) فازيبق معدن ثمين (٣) واستثماره يعود على الجبل بفائدة عظيمة الا انّ هنا ايضاً تغلب الوهم على الحقيقة فبُهرت الاعين بدلائل وهمية كاذبة . فازيبق المكتشف وجد بكمية زهيدة في موضعين بجانب السكة الحديدية من بيروت الى الشام اعني في عين صوفر وعين مشرح فقد كان ذلك بلا ريب مروض المعامل القديمة ايام مسد السكة وما الزيبق المكتشف الا كيميّات وقعت من آلات المهندسين . ولقد سمعنا باكتشاف معدن نحاس في المتن الاعلى فهذه الاكتشافات لا تستلقت الانظار لعدم كفاءة اصحابها فعلمنا ان ننتظر حكم رجال الخبرة وفحص المساطر . ونحن نسمّي ان يكون ذلك صحيحاً وليتنا نستطيع تكذيب الدكتور لورته (٤) القائل ان ليس في لبنان من المعادن ما يُعوّل عليه

*

ثالثاً الحجارة ولوازم البناء

ان الحجارة كثيرة في لبنان ويمكن استثمارها طويلاً ونقلها الى البلاد الاجنبية

(١) راجع كتاب فضل الله فارس ابي حلقه : جغرافية سوريا وفلسطين (ص ٢٣١)

(٢) راجع الرسالة المبعوث الى البشير (في ٢٣ ايلول سنة ١٩٠١)

(٣) راجع المشرق (٤ : ٨٨٧-٨٩١)

(٤) راجع كتاب - الدول الاجنبية - المقدمة ص ١٩

ولقد تأخذ الدهشة الغريب اذ يطوف لبنان ويسرّح نظره في حجارة ابنيته فهذه الحجارة الجميلة سواء كانت منحوتة او غير منحوتة تجمل لأبسط المساكن هيئة جليلة لا يألّفها السائح الا في قصور وطنه . فباعثاء قليل يستحكم البناء ويحصل له هيئة صلابة ومكانة تزدري بمرور الاجيال . ولحسن الحظ ليست الصلابة بالظاهر فقط بل بالحقيقة ايضاً فقلّما نرى على سطح المعبور بلداً فيه ما في لبنان من لوازم البناء بكثرتها وحسنها وصلابتها . فلا طاقة للرطوبة ولعوامل الجو الاخرى على إتلافها . فهذه الحجارة الكاسية لها تقاطيع زجاجية في المواضع المنحوتة حديثاً ولونها ايضاً كامد وقد يتحوّل على مرور الزمان بفعل اشعة الشمس الى شيء من الصفرة الذهبية أما في منحدرات الجبل السفلى وعلى الشواطىء البحرية فتكثر مقالع الحجارة الرملية وهذا الصنف لونه اصفر وحجره جيّد صالح للبنان وكل المحلّات العامرة والاماكن الآهلة بالسكان من صور الى طرابلس مبنية بحجره . ومن خواصه انه سريع التفتت سهل النحت لدى خروجه من المقلع فيتصّب في الهواء ويصلح للعلاط اكثر من الحجارة الكاسية الجميلة المقتلعة داخل الجبل

والحجر الرملي مشقوب غالباً بشقب طويلة اسطوانية ضيقة على شكل لولب كانها صنع المخرز وربما كان ذلك من قرض الهوام الحجرية (١) مدّة الاطوار الاولى الجيولوجية . وقد فات هذا الشرح فهم رينان فذهب فيه مذهباً غريباً فان اكثر مدافن جبيل محفورة في هذا الحجر ففيما كان رينان يفحصها شاهد ثقباً اسطوانية في قبة القبور القديمة فتوهم تعليلاً لوجودها أن الاقدمين كانوا يلجأون قبل حفر المدافن الى سبر الحجر اقصد امتحانه (٢)

على انه ليس بوسعنا ان نعدّد بالتفاصيل كلّ ما في لبنان من مواد البناء على وفرة اصنافها ولا يسعنا الا ان نذكر انواع الحجارة الجميلة المتأزّة بكثافتها وصلابتها فانها تستعمل للاعمدة وللدرج وعتبات الابواب واسكفاتها الى غير ذلك من الاعمال المعتبرة كصيف المرافيئ اذ ان امتداد طرق العربات في لبنان يسهل نقلها الى البحر . ومن اصناف الحجر الجيّد ما يستخرج من القالع الموجودة في اسفل

(١) Dawson : *Egypt and Syria*, 79 راجع

(٢) راجع الجزء الاول ص ٦٥ و ٦٦

قرنة شهوان وبيت مري بالقرب من دير مار روكس وفي غير مواضع وايناسرت من الجبل ترى من الحجارة الصالحة للتبليط والتلبس وحجارة لعمل الكلس والرحى أمّا البلّور فهو كثير في لبنان . وبمعكس ذلك الرخام فهو نادر الوجود في الجبل وليس من الصنف الجيد اللهمّ اذا استثنينا بلاد الجبّة فإنّ فيها مقالع رخام صالحة للصقل والحلي الحسن ونذكر اننا شاهدنا امثلة منها في بعض بيوت اهدن القديمة وكذلك في الديمان في الكرسي البطريركي الجديد . ومما يستحقّ الذكر مقالع الرخام الموجودة في جمهور ودير القلعة فرخامها ذو عروق حمراء (١) وفي دير القلعة ايضاً حجر صلب معتبر وفي تحوم في قضاء البترون وبعض انحاء البقاع مقالع حجرها صلب لونه ابيض يجعله الصقل لامعاً كالرخام ويؤخذ منه البلاط المصقول والاعمدة الصغيرة اللامعة (شععات) . أمّا الرخام الابيض الجميل من صنف رخام ايطالية والرخام السماقي وحجر الصوان فلا وجود لها في لبنان . وما يشاهد في المدن القينقية القديمة من اعمدة الصوان مثل جبيل الحاوية على عدد وافر منها فانها منقولة من مصر

على أنّ حجارة لبنان لم تكن تستعمل الى السنين الاخيرة إلا في محلهما والمدن المجاورة نظير بيروت وقد راجت السوق فيها دواجاً عظيماً ومن بضعة سنوات باشرت مصر بأخذ لوازم البناء من لبنان لندرة الحجر فيها وقلة صلاحيته كما ان الامر جارٍ في مقالع لبنان القريبة من البحر مثل نهر الكلب والمعاملتين فإنّ المراكب تستطيع ان تصل اليها وتشحنها بأقل نفقة أمّا المقالع البعيدة فالوسيلة لنقل صادراتها ان تكون من الصنف الاعلى كمقالع قرنة شهوان ومار روكس ودير القلعة وغيرها فانها تُطلب الى البلاد الاجنبية وما من مانع يحول دون اتساع تجارتها اذ ان امتداد طرقات العربات في لبنان يسهل كثيراً طرائق ايصالها الى البحر . وقد أخذت شركة ترعة السويس على ما نظنّ حجارة من لبنان لتوسيع احواض بورسعيد فكان العمل مرضياً والاقتصاد حسناً

فهذا كلّ يدعو الى التنشيط ويجمل على مواصلة العمل اللاتنازع من حجارة

(١) فمن مقلع دير القلعة اعمدة الكاتدرائية المارونية وكنيسة كليتنا

لبنان ولا يخامرنا ريب أنَّ مقالع لبنان لم تُكتشف جميعها سيّما مقالع الحجر الحسني والرخام العادي فإذا اتّسع نطاق هذه الصّناعة عادت بالفائدة على الكثيرين من الفعالة كعمّلة المقالع والنجّارين فتسمّد مسدّ المعادن المفقودة من لبنان

٢

معادن لبنان القديمة

لقد انجزنا الكلام عن غنى لبنان المعدني والحقُّ اولى ان يُقال ليس لبنان من هذا الوجه ذا ثروة طائلة وغنى وافر . فلو ازم البناء متوقّفة فيه إلّا أنها ليست من اعلى درجة في الجودة . ومعادن الحديد كثيرة الانتشار في الجبل إلّا أنّها قليلة لعدم وجود الوقود لتشغيل المسابك والمعامل . وكذلك الفحم الحشبي المتججّر فإنّ في لبنان منه شيئاً . فإذا شئنا ان نعرف ما لهذا الوقود من الشأن والاعتبار في نفس مركزه يكفي ان نردّد في ذهننا ان اصحاب المعامل الحريّة المجاورة لمستودعاته عدت عنه تباعاً الى الفحم الاجنبي . فوالحالة هذه ليس لاهل لبنان ان يبنوا الآمال على استحضار المعادن ولا يمتنّوا النفس بتحسين مستقبل البلاد بسببها

لكن هنا يجئ آخر ترى هل كانت هذه الحال حال لبنان القديمة ؟ ألم يتفق للبنان ما اتفق لاراض كثيرة كانت محصية غنيّة ففرغت على تولي الاجيال واصبحت عقيمة ؟ أو لم تنزع من اعماق لبنان كنوزه المعدنية القديمة ؟ فهذا السؤال محلّ ومجال لأنّ ارباب البحث والاقتصاديين منذ الان قد وجدوا بعد الحساب ان اغنى مناجم الفحم الحجري في اوربة لا بدّ ان تنفذ يوماً ولا يمرّ على بعضها جيلان او ثلاثة حتى تكون قد نفذت فلم لا يصحّ ذلك في لبنان وقد ظهرت فيه آثار العمران وحركة الاشغال من نحو ٤٠٠٠ سنة والادّلة على ذلك صحيحة راهنة فهذه المدّة الطويلة تكفي كل الكفاءة لتعليل ما حدث في حال معادنها من التغير والانقلاب

ومأ يزيد في ارجحية هذا الرأي كون لبنان قسماً من فينيقية والحال ان بلاد

فينيقية كانت من اقدم الازمان كنقطة للاشغال المعدنية وكمحور الاعمال الصناعية (١) فقد وجدوا الوفاء من آثار هذه الصناعة القديمة وضروبها المتنوعة كآنية فضة ونحاس وقلز وحلي من كل الاصناف واشكال الاسلحة وادوات زجاجية وغيرها . فهذه التحف ملأت المتاحف التي غصت بها وضاعت عن ان تسعها ومع ذلك لم تُصرف العناية الى جمعها ووضعها في المتاحف إلا من نحو نصف قرن ولم من تحفر غيرها بادت او لم تزل مدفونة في بطون المدن الفينيقية وهي تتوقع يوماً من الدهر لتظهر للعيان

على ان هذه الحال من نمو الصنائع وانتشار الاشغال المعدنية لم تكن خاصة بعهد الفينيقيين بل بقيت بعدهم اجيالاً عديدة واستمرت الى اواخر الاعصر المتوسطة . ولم تبطل هذه الاشغال في المدن المحتلة على طول الشواطىء البحرية من عكا الى اللاذقية فكانت العمال من نحو خمسة او ستة اجيال منكبة على العمل وكانت تصنع مصنوعات عظيمة وتصدر صادرات وافرة . ففي واسط الجليل الرابع للميلاد يذكر يونيور (Junior) الفياسوف اللاتيني « مدينتي طرابلس وجبيل الصناعيتين ومدين صيدا وصرند وعكا الزاهرات وخص من بين هذه المدن اللاذقية وجبيل وصور وبيروت بانها ترسل انسجتها الى جميع الارض وتلشر صرند فوق ذلك ارجوانها » (٢) ولنا في الجيل العاشر شهادة المقدسي الجغرافي العربي وبما انه سوري النشأة فتكون اشهادته قوة كبرى فانه يعدد بين صادرات سورية المحمولة الى الخارج عن مرافئ البحر من قيصرية الى السويدية انسجة الحرير والصابون والمرايا والزجاج والابر والسُرُج وآنية النحاس والحُرُض او الأسنان والحديد والكبريت والملح والرخام (٣) وفي الاعصر التابعة يصف الادريسي والدمشقي وابن بطوطة حركة الاشغال الصناعية

(١) راجع كتاب بيرار 367; 307-306 I, *Les Phéniciens et l'Odyssée*, Bérard

376; 409, 414, etc. Benzinger: *Hebraeische Archeologie*, 253

(٢) وهذا نصه بحرفه: Tripolis et Byblus, ipsae civitates industriosae sunt: iterum optimae civitates Sidon, Sarepta, Ptolemais... Laodicia, Byblus, Tyrus, Beritus omni mundo linteamen emittunt, Sarepta vero purpuram praestat.

(٣) راجع في تأليفه « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » وصف سورية (ص ١٥١-١٨١)

في مدن سورّية والسيّاح الغربيّون الذين ساحوا في سورّية في ذلك العصر يؤدّون الشهادة نفسها (١)

*

والحال هل يخطر على بال ان هذه الصناعة وفيها المعادن حظّ صالح تتخذ لوازمها الاولية وموادّها الضرورية من الخارج لا غير. أمّا نحن فلا نخال ذلك لان في مثل هذه الحال لا تأتي المصنوعات بآرباح طائلة الى حدّ أنها تُحمل الى جميع الجهات. فالاعمال المعدنية في فرنسة مع ما هي عليه من جودة الطرق وكمال الاساليب لا تستطيع مجازاة اشغال البلاد المجاورة لها وعلة ذلك انها مضطّرة الى ان تستجلب من الخارج قسماً من معادنها. فنستنتج اذن ان الصناعة الفينيقية وهي اقدم الصنائع كانت تتخذ مواد اشغالها من محليها وجبال بلادها وبغير عبارة تقول انه يلزم التسليم بان مستودعات معادن لبنان كانت قديماً اوفر عدداً واغزر مادةً واكثر نوعاً ممّا هي اليوم. وليت شعري هل يمكن اثبات هذه النتيجة بشواهد تاريخية

أمّا ايضاح ذلك عن الحديد فايسر شي. عندنا بل لا حاجة الى ذلك وقد اثبتنا وجوده في ايامنا فهذا لا نفيض في ايراد الشهادات بل نقتصر على بعضها. على ان بين هذه الشهادات شهادة هي اعظمها اهمية واشدها اعتباراً تدلّ على ما كان لتجارة الحديد من الشيوع والشان في قديم الزمن. ففي الجيل السابع قبل الميلاد كانت العبارة «با ان برت» تستعمل في اللغة المصرية للدلالة على الحديد (٢) ومعنى هذه الكلمة حرفياً «بضاعة بيروت» فيُستنتج اذن من استعمال هذه الكلمة ان شغل الحديد كان شائعاً في بيروت وانه كان يجوار هذه المدينة معادن يُستخرج منها الحديد بكثرة وكما انه من لفظة «بضائع باريس» سوف يستدلّ المؤرخون في المستقبل أن بضائع الزينة والتبرّج كانت تُصنع في باريس. فهكذا قلّ عن الكلمة المصرية التي اوردها فانها تشير الى أنّ وادي النيل وذلك لا اقلّ من ٨٠٠ سنة قبل المسيح

(١) راجع كتاب راي (Rey: Colonies franques, 211) واما عن بيروت فراجع هيد (Heyd) تاريخ تجارة المشرق. الترجمة الفرنسية ص ٤٥٦ و ٤٥٩ و ٤٣٠ و ٤٨٨ الخ
(٢) راجع المجلة الاسيوية (6 - 155, I, 1904. Journal asiatique)

ألف الحديد اللبناني المحمول اليه من مرفأ بيروت الى حد أن أهله لم يميزوا بين اللفظين اعني « الحديد » و « صناعة بيروت » . وكمثل ذلك جرى في اللغة العربية الفصحى للهندي والمشرقي فانها اصبحا مرادفين للسيف وقد كانا في الاصل يدلان على السيوف المصنوعة في الهند وفي « مشارف » البلقاء شرقي بحيرة لوط . وقد كان زمام تجارة الادوات البيتية وآنية الحديد والقناز والنحاس في الجيل التاسع قبل المسيح بأيدي الفينيقيين في سوق مصر عتيه (١) . والمقدسي (٢) يأتي على ذكر معادن الحديد في بيروت الموجودة في عصره . وبعده بجيلين يقول الشريف الادريسي اثناء كلامه عن بيروت : « وبقرية منها جبل فيه معدن حديد طيب جيد القطع يستخرج منه الكثير ويحمل الى بلاد الشام (٣) » . وقال ابن بطوطة (٤) : « ان الحديد يحمل من بيروت الى مصر » فهذه الشهادات معتبرة فانها تدلنا على نمو صناعة الحديد في لبنان حتى اواخر الجيل الرابع عشر . وأما ما قدمنا من تفاصيل نقل الحديد وحمله الى الخارج فيدل ليس فقط على رواجه في سوق مصر بل يرجح ايضاً على ان اسلحة دمشق كانت تُصنع من معادن لبنان كما اوردنا آنفاً

والقد يُشتَف من وراء هذه الشهادات ما التحق باحراج لبنان من الضرر الجسيم بسبب تلك الصناعة التي نستطيع ان نتبع حركتها مدة الف سنة . فمواقد المسابك كانت بمثابة لجة التهمت غابات الارز العظيمة

✱

على انه ليس بعد الحديد معدن شاع ذكره بين صادرات الصناعة الفينيقية القديمة نظير النحاس . والعجب في ذلك ان هذا المعدن لم يبق له اليوم أقل اثر في لبنان كما سبق لنا ذكره ففي هذا سر غامض على المؤرخين ويستلقت أنظار الجيولوجيين الذين يحولون ابصارهم عن كل شهادة لا يجدونها مسطرة في بطون الارض فلنباشر بايراد الترواة شهادة أولاً : فانه مذكور في سفر الملوك الثاني (٨ : ٥-٨)

(١) راجع كتاب مولر (W. M. Müller : Asien und Europa, 306)

(٢) في كتابه السابق ذكره (ص ١٧٤)

(٣) I. 133, (٢)

(٤) طبعة جيلديستر

ان داود اخذ من ملك صوبة نحاساً كثيراً جداً . فاين محلُّ صوبة المذكورة ؟ من المرجَّح انها كانت قائمة في سهل البقاع وذهب بعض علماء عصرنا على انها نفس المدينة المدعوَّة « مات نحاسي » في كتابات تلّ العمارنة (١٥٠٠ قبل المسيح) ثم سماها اليونان (١) فيما بعد كلسيس . فما اغرب هذا الاتفاق فلغظة كلسيس معناها في اليوناني نحاس وفي مات نحاسي كلُّ يرى كلمة نحاس . وعليه اذا صحَّ ان صوبة وكلسيس ومات نحاسي ما هي الا ثلاثة اسماء لمسعى واحد فيكون المقصود بها المحل المشهور بمعادنه القائم في جوار لبنان

غير ان الآراء متضاربة في تعيين موضع كلسيس فقال بعضهم انها معلّقة — زحلة ورجّح غيرهم ونحن من رأيهم (٢) انها عين جار في اسفل الجبل الشرقي المقابل للبنان (٣) — فعلى كل حال ليست المسافة بين الموقعين بعيدةً انما على حلّ هذا المشكل الجغرافي يتوقّف تخصيص معادن النحاس القديمة بلبنان او بالجبل الشرقي الذي يقابله

ثم اننا نرى الكتابات المصرية والكتابات الاشورية قبل التوراة تشير الى وجود كميات عظيمة من النحاس في لبنان او في ما يجاوره ومنها ٨٤,٠٠٠ كياو من النحاس اخذها رمانيار الثالث ملك الاشوريين من ملك دمشق فهذه الكمية الوافرة الموجودة في محلّ واحد تدلّ على انها من صادرات المحلّ وليست من الخارج وانما نجد فضلاً عن ذلك في كتابة تحوتس الثالث ذكر « نحاس اسوي اتي به فرعون مصر من بلاد راتانو بعزّ وانتصار (٤) » وراتانو كما هو الشائع في كتابتها الان هي الناحية التي يسقيها الليطاني وقد سبق لنا تفصيل ذلك (٥)

على ان هذا النهر ينبغي ان يُعتبر تابعاً للبنان لانه يجري على شواطئه او يمرّ في اراضيهِ — اما العلامة ينسن (Jensen) فانه لا يقف عند هذا الحد بل يزعم ان

(١) راجع كتاب Buhl : *Geogr. des alt. Palaestina*, p. ١١٥

(٢) راجع (الصفحة ٤٠)

(٣) Pauly - Wissowa. *Encyclop.*, III 2091

(٤) Müller : *Asien und Europa*. ١26, ١27 راجع كتاب

(٥) راجع (ص ٢٢ و ٢٣)

راتانو او لاتانو من اسامي لبنان نفسه او لا اقل من ان تدلّ على ناحية الليطاني (١)
وفضلاً عن ذلك فالكتابات المصرية تسمي عادةً فينيقية باسم « ذاهي » وتجعل
بين صادرات هذه البلاد ليس فقط الزيت والعسل والحمر ممّا لا يندهل له انسان بل
ايضاً النحاس والرصاص واصناف الحجارة المتنوعة الخ (٢) وفي غير موضع تذكر
آنية الحديد والنحاس كصناعة مختصة بفينيقيّة (٣) ومن المعلوم انها كانت مملاً منها
اسواق اشور وبابل (٤) واسواق بلاد اليونان في اوربّة واسيّة . افلا يسوغ لنا بعد هذا
كله ان نستنتج وجود معادن النحاس في جبال فينيقية ؟ وريدك ايها القارئ فلا
تعجلنّ باستنتاج النتائج لأنّ تبدي حكماً عن غير تروّ كافٍ . ومن المحتمل ان الفينيقيين
كانوا يستخرجون النحاس من املاكهم في جزيرة قبرس او من « الاسيا » (٥)
الشهيرة بمعادنها النحاسية والمظنون موقعها على مصبّ نهر العاصي ولعلّ اسم النحاس
العربي مأخوذ عن اللفظة الاشوريّة « الاسيا » كما ترى . وزعم غيرهم انها قبرس استناداً
على وجود معادن النحاس فيها وعلى رأيهم أنّ منها كان يؤخذ النحاس لتشغيل معامل
فينيقيّة . فليست المسألة اذن جليّة كما يُظنّ . أمّا نحن فنرجح رأياً متوسطاً
فاننا نعلم مع كثير من العلماء الذين اوردنا شهاداتهم وغيرهم نظير كيپرت (٦)
ويئسن وغيرهما (٧) بوجود معادن نحاس في لبنان لكنها قليلة . لذلك اضطرّ
الفينيقيون ان يستجلبوا من الخارج ما كان ينقصهم في لبنان . ولهذا السبب نفسه نفدت
هذه المعادن وفرغت بجملتها حتى لم يبق لها اثر على حدّ ما زاه في جزيرة لبالا في
البحر المتوسط فمعادنها الحديدية التي لا يكاد يُصدّق غناها الغريب لا يزال

(١) Zeitsch. f. Assyriologie, 1895, 345-346

(٢) راجع مولر (ص ١٨٢)

(٣) مولر (ص ٣٠٦)

(٤) Zeitsch. für Assyriologie, 1887, p. 36, 37 ومنها هذه العبارة الواردة مراراً في شعر

هو مبروس « صيدا الغنيّة بالنحاس »

(٥) وكانت تسمى ايضاً اصيا Zeitsch. f. Assyriologie, 1895, 262

(٦) راجع تأليفه 167 H. Kiepert : *Alte Geographie*

(٧) Zeitsch. für Assyriologie, 1895, 363

يُستخرج حديدها منذ الفي عام (١٠٠٠) أما النحاس الذي كان من اعظم صادرات هذه الجزيرة في اقدم الازمان فان ذكره قد باد منها فيما بعد
فعليه إما ان نعد الشهادات المختلفة التي اوردناها اوهاماً محتالمة وإما ان نسلّم بوجود معادن غير الحديد في لبنان ومنها النحاس فلولا هذه المعادن لما كانت وجدت صنائع الفينية بين المعدنيّة ولما كانت انتشرت انتشارها الغريب
فهولادة مع ما هي عليه من النشاط والاستعداد الفطري للتجارة والملاحة لا تنال الفوز بشغل المعادن نظير انكلازة وذلك لخلوها من المعادن لان نجاح الملة يتوقف على النواميس الطبيعّية التي مع كل قوتها تعجز عن مقاومة النفوذ الخارجي . وهذا مما يزيد فضل الجغرافية التاريخية فانها تطلعننا على بعض هذه النواميس
فاذا اتينا درس لبنان وطبقاته الجيولوجية سوف نجد بلا محالة براهين طبيعّية وادلة مادية تثبت غنى لبنان الاعظم في قديم الزمان (٢)

أما الحجارة ولوازم البناء فاننا لا نعلم عنها شيئاً الا ان غوديا ملك بابل كان يستجلب لابنيته من لبنان قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة ليس فقط اخشاب الارز بل ايضاً الرخام الابيض وغيره من الحجارة وما زالت ملوك اشور تحذو حذوه الى الجبل الثامن قبل الميلاد . على انه لم يذكر شيء عن صنف الحجارة المنقولة مع الرخام ولا عن طبيعتها الا ان ما يقتضيه نقلها الى البلاد البابلية من المشقة والنقطة بعد المسافة يسوغ لنا ان نستنتج انها لم تكن من الحجارة العادية بل من اصناف الرخام الجيد وانواع الحجر العالي الثمن . فعلى هذا يتضح ان لبنان كان من هذا القبيل ايضاً اغنى مما هو اليوم

لكن لا بد من ابداء ملاحظة هنا كما فعلنا اثناء كلامنا عن النحاس : ان الكتابات الاشورية والبابلية البالغة حد الانحياز والمتصلة باقدم الازمان ليست بغاية الضبط والتدقيق بنوع انه لا يتيسر لنا الحكم الفصل فيما اذا كان الكلام عن لبنان

(١) Elisée Reclus : *Europe Méridionale* 432 - 433

(٢) ففي سنة ١٢٣٦ يؤكد السائح كرانجه الفرنسي وجود معادن نحاس يشوها فليل من الفضة بين عجالتون والعاقورة . . فهذه التعليمات المبهمة تدل على ان السائح نقل ما سمعه ولم يفحص بنفسه . وإلا لكان حدّد موضع هذه المعادن

الشرقي او الغربي وبعبارة اخرى عن لبنان الحقيقي او عن الجبل الذي يقابله .
فبخصوص هذه المباحثة الثانوية فلترجع التأليف التي اوردنا ذكرها في هذا العدد .
فيستطيع القارئ ان يتمّ اجاؤه الشخصية ويقابل بين التعليقات التاريخية التي جمعناها
عن غنى لبنان المعدي في الزمن القديم

١٩

النتائج التاريخية

من درس اعلام الاماكن اللبنانية

ليس بين المطلعين على اساليب علم التاريخ في عصرنا من يجهل فائدة البحث عن
درس اسماء الامكنة فنستأذن قبل الخوض في الموضوع بتعداد منافعها بما امكن . من
الايجاز لنذكر معناه الحقيقي وارتباطه الجوهري بتاريخ لبنان وجغرافيته . فبوصفنا
لهذه الفوائد نستدرك ما لعله يطرأ على بال القارئ من سوء التفاهم . ليس غرضنا
في هذه المقالة لغوياً لكن تاريخياً محضاً وجغرافياً صرفاً اذ لا نقصد البحث عن اسماء
المواضع اللبنانية من حيث تركيبها اللغوي ومعناها الاصلي بل جلّ ما نتوخاه ان
نستنتج من درس هذه الاسماء ومن سياقها وتقسّمها على سطح الجبل نتائج تؤدي
بنا الى معرفة ماضي لبنان

١

١ اعلم ان درس اصل الاسماء المكانية اعظم ظهير واكبر نصير للتاريخ لان
اعلام المكان ترجع الى اقدم اصول اللغة اذ المتبادر الى الذهن ان الرجل اول ما
يبدأ به تسمية محل اقامته باسم يعرفه ويميّزه . لذلك نرى اعلام المواضع ابقت لنا
ذكر حوادث ومواقع لا نجد لها اثرًا في اعظم التواريخ اسهاباً واكثرها

تفصيلاً ١١ . وقد يتفق ان اعلام المكان وحدها تذكرنا بما جرى لبعض الشعوب من الحروب وما طرأ عليها من الحوادث السياسية والدينية . فهكذا كل موضع دخل في تركيبه اسم دير وقصر وبرج ومجدل (٢) يدلُّ على انه كان ثمة دير او قلعة ولو كانت غير الدهر قد درست ذلك البناء ولم يُبقَ له لا طلالاً ولا رسماً وربما كنا لا ندري اصل الاماكن اللبنانية ولا نعرف قدم عهدها فاذا ما عثرنا على اعلام فينيقية او آرامية استطعنا ان نستدلَّ على ان اصل تلك المواضع يتصل بالعهد الذي كانت فيه تلك اللغة شائعة في لبنان . واذا وجدنا موضعاً مدعواً باسم احد الآلهة القديمة كنعانية كانت او بابلية فلنا ان نستنتج انه سبق التاريخ المسيحي وانه وُجد في عهدٍ كان الاهلون يعبدون تلك الالهة . وعليه فدرس اعلام المكان يقوم مقام ما اغفلته الأدلة الكتابية ويدعم التقاليد المحلية وبدونه لا نستطيع سبيلاً الى تحقُّق المنصوصات المبهمة الحالية من الحجة والعارية عن البرهان فضلاً عن انه يجدينا علماً عن اقدم الآثار التاريخية وافضل الاسانيد ويسوغ لنا ان ننسب تلك الدلائل الى قرون سبقت اختراع الكتابة وتحديد اللغات على خطٍ علمي منظم . فمن المعلوم ان الانسان سبق الى تطلق قبل الكتابة واول ما استعمل في كلامه تسمية المواضع التي تكتنفها باسماء النابقيها . وقد فُقد شيء كثير من تلك الاسماء الاولى وهذا مما يحثنا على بذل الجهد وصرف العناية الى جمع ما بقي من تلك الاعلام والاستفادة منها ما امكن فسواء كانت تلك الاسماء لمستيات دائرة او وضعية فانها تعين على احياء الحوادث الجغرافية التي باد ذكرها

٢ . وتساعد اعلام المكان على معرفة آثار الشعوب الذين عدروا البلاد وخلفوا اسماءهم في بعض الاماكن . ومما بينا في ابجاثنا المتقدمة عن اصل الامم اللبنانية القديمة ان اللغة التي تسمت بها الامكنة هي اشدُّ دلالةً وواضح برهاناً على الاحوال السالفة من الكتابات عينها . فالكتابات باللغة اللاتينية وقس عليها اليونانية انما تدلُّ على ان تلك اللغة التي كانت هي الموعول عليها في الاحكام الشرعية وليست اللغة الشائعة

(١) ان پروتر (Prutz : *Kulturgesch. der Kreuzzüge*, 397) يبدي مثل هذه الملاحظة عند الكلام على الالفاظ العربية الداخلة في اللغات الاوروبية اثناء القرون المتوسطة

(٢) مع فروعه « مجدل ومجدليون ومجدليا »

بين الشعب. وعلى عكس ذلك اسماء المراضع فان الشعب لا يضعها الا في لغة يفهم معناها. فينتقي في لغته اسماً يطابق المسمى بدلالاته على مميزات ذلك المكان المأهول حديثاً. وقد يتفق ان يخلف شعباً آخر فيغير الاسم القديم باسم احدث يدرك معناه. مثال ذلك جبل قريب من جزين يسمى «جبل طورا» وهو مركب من اسمين عربي فرياني وكلاهما الجبل فمثل هذه التسمية المكررة تدل على وجود شعبين (١)

٣ تطالعنا اعلام المكان على نظمات الشعوب وعباداتها وعوائدها القديمة كالاسماء التي تضاف مثلاً الى سوق وجسر. وذلك بعد ان تكون السنون والدهور طوت الحوادث التي دعت الى تلك التسمية مثل «سوق الغرب» في قضاء الشوف وليس الآن هناك سوق

٤ تسوغ لنا ان نقف على حالة الارض السالفة ونطلع على العوارض الجغرافية من مناجم وغابات وغدران بادت حتى لم يبق لها اثر لما طرأ عليها من التقلبات الجيولوجية والاقتصادية والاجتماعية. ولسنا نرى حاجة الى ايراد امثلة على ذلك
٥ وبما ان جميع الاعلام المكانية إلا ما قل كانت في الاصل اسماء جنس لا اسماء علم فيكون درسها جزءاً مكتملاً لمعجم اللغات القديمة ومساعداً على احيائها فمن هذا القبيل تكون اسماء المراضع احسن طريقة في دراسة اللغات وافضل وسيلة للتوصل الى ابعاد اصولها

٦ تبين لنا ما كان في اقدم الازمان للاحوال الجغرافية والطبيعية من التأثير في عقول اجدادنا (٢) وتكفي وحدها للدلالة على اهمية الينابيع والانهر لا سيما في الشرق حيث الماء من الشروط التي لا بد منها لترقي العمران. فاول ما استوطن البشر بجوار الينابيع وضواحي الانهر واقدم المدن عهداً مدينة نشأت على مجرى المياه. فما مدينتنا بيروت الا مدينة الينابيع والآبار كما يتخذ من مدلول اسمها الفينيقي
٧ تظهر لنا ما كان للجبال من التأثير في الرجال الارلين حتى عبدوها في الاصل

(١) وفي صفة جبل إتنا (Etna) بدعى احياناً «جبل جبل» (mont Gibel) بشكرار اسمين اعجمي فكري ومعنى كليهما الجبل
(٢) راجع مجلة الشركة الألمانية في فلسطين (ZDPV, 1904, p. 95)

كآلهة على حد ما حدث في لبنان وجبل حرمون (جبل الشيخ) ورأس الشقعة والكرمل والجبل الاقرع كما سبق لنا بياؤه
بقي علينا ان نكرّر التنبيه بان بحثنا الحالي يكون جغرافياً محضاً اي اننا نقتصر على ان نتخذ من اسماء الاماكن في لبنان أدلةً تكشف لنا عن جغرافية لبنان التاريخية في الزمن القديم . وإمّا ما تعلّق بالمباحث اللغوية كالتغيرات التي توالى على اسماء الامكنة فاننا نحيل القراء الى الكتاب الذي ألفه الدكتور كيمفير (Kampf) (meyer) في هذا الموضوع وعنوانه « الاسماء القديمة في سورية وفلسطين الحالية » (١) حيث يبحث عن هذه المشاكل بدقّة وحذاقة وسعة اطلاع كما هو دأبه في كل تأليفه

*

ولكي يمكننا ان نجني من هذا البحث جميع الثمار التي نستفيد منها ونحصل على جميع الفوائد التي يتضمّنهما كان لابدّ ان نحصل على لوائح كاملة لجميع اسماء الامكنة الموجودة الان في لبنان مع الردوم وتقاسيم المقاطعات والاحراج والينابيع والودية . وفوق ذلك كان ينبغي لنا ان نبحث في الكتابات القديمة عن الاسماء المكانية التي فُقدت وقصارى الكلام كان يلزم ان يكون لدينا فهرس تتضمّن اسماء المواضع فقط كاللائحة التي وردت في مجلّة الحفريات الفلسطينية (PEF) (٢) لبلاد فلسطين بل مجموع شامل لوصاف لبنان ورسومه على نمط المجموعات الكتابية المؤلفة لجمع الكتابات القديمة (٣) فلا حاجة الى القول انه لا يوجد نظير هذه اللوائح والفهارس للبنان لما لائحة روبنسون وعالي سميث فلا تخافوا من فائدة (٤) إلا انها غير مُحكمة الوضع فضلاً عن انها ناقصة . فالذي يسعى بعمل لائحة تقي بالمطلوب يُخدم العلم خدمة جليلة ويمكنه ان يبني جداول على تقسيم قائمات الجبل ومديرياته مُتبعاً التعليمات التي أَلفنا اليها قبل الآن ثم يجمع التقاليد والاسانيد المحلية التي تتعلّق باسماء الامكنة . والمشرق مستعدّ

(١) راجع المجلة ذاتها (ZDPV, XV et XVI)

(٢) المشروع حسن الا انه غير كامل ولا يمكن ان نتمد دائماً على روايات المؤلفين الانكليز

(٣) راجع مقالة العلامة جوليان التي عنوانها « الحاجة الى مجموع الاعلام المكانية في العالم

القديم » (Beitraege z. alt. Gesch. 1902, II, p. 1)

(٤) وهي منشورة في (Biblical researches in Palestine, vol. III)

لنشر هذه اللائحة مع الشكر لمن يتفضل عليه بها . وكنا نودّ لو نُشرت سالامة لجبل لبنان تودع فيها اسماء الاعلام المكنانية . فيُتخذ لهذه الغاية كمثل « دليل لبنان » المنشور في ادارة جريدة لبنان فانّ فيه لائحة لمجلات الجبل الحالية الا انه ينبغي ان يكتمل ما فيه من النقص مع التمييز والتفريق بين القرى والمزارع واطراف بعض دلائل ونحن لم نقف على كتاب في هذا الموضوع جامع للفوائد نظير تاريخ بيروت الذي نشره في المشرق حضرة الاب لويس شيخو ثم طبعه على حدة . فهذا التأليف الجليل لم يقابل اداء الجبل بالمقابلة التي هو حقيق بها لاسيما من يهتم تاريخ لبنان وجغرافيته . فانه قد يسدّ خلل اللوائح الوصفية الى حد ما . وأخص فوائد هذا الكتاب بل اهم ما يتضمّنه من الايضاحات قائمة في وفرة اسماء لبنان الجغرافية المذكورة فيه كاسماء القرى والاملاك وايضاحات عن حدود المقاطعات القديمة وغير ذلك ممّا لم يرد ذكره الا في هذا الكتاب . فاننا لا نجد التواريخ الكبيرة تكررت كثيراً للبنان كما اهملته تأليف الجغرافيين الكبار فاذا اتوا على ذكر هذا الجبل فانهم يذكرونه عرضاً دون اسهاب ولا تفصيل . ثم ان كثيراً من المجلات القديمة بادت برمتها ولم يبق من آثارها الا اسمها الذي لم يزل منسوباً الى حقل او خربة لا شأن لها ولا اعتبار . ففي تاريخ بيروت نجد كثيراً من هذه الاسماء المندثرة كاسم « رمطون » مثلاً . وكأنه الصك الاول الشاهد لوجود عدد من قرى لبنان إن لم يُجز القول بانّ فيه قد دون تاريخ ميلادها . فيجدر بنا اذ ذلك ان نثني اطيب الثناء على تاسره ولا يسعنا الا ان نحضّ طلاب العلوم التاريخية والجغرافية على الامعان في مطالعته ونجنّ نتعهد لهم باللذة والفائدة معاً فقد جئنا منه فوائد شتى ولا نزال نواظب على مطالعته استزادة لجدواه

٢

واول ما نجد في بحثنا عن اسماء المواضع في لبنان تغلب اللغتين السريانية والعربية عليهما . امّا العربية فانها تدلّ على حداثة عهد المساكن والمنازل لانّ هذه اللغة خلفت اللغة الآرامية من عهد قريب كما اشرنا اليه في بحثنا عن لغات لبنان القديمة (١)

وفي أوّل وهلة تستحوذ علينا الدهشة ويشملنا العجب لقلة ما نشاهد من الاسماء الكنعانية او الفينيقية البحتة مع ان اهمّ الامم التي استوطنت لبنان واقدمها كانت تنطق بهذه اللغة . وليس الكلام عن اسماء مدن الساحل نظير صيدا وبيروت وجبيل وغيرها اذ لا مشاحة في ان اصلها بالفينيقية وتسميتها كافتة لان تظاعفا على حالة الفينيقيين الاولى (١) وأمّا ما كان منها في داخل لبنان فمثل مجدل وفروعها مجيدل ومجدليا (٢) ثم البيرة (٣) وعرامون (٤) وغيرها ممّا يأتي ذكره

فهذه الاسماء لقدم عهدا عانت مشقة عظيمة في صبرها على صروف الدهر . ولو امكنّا تجريدنا من قشرتها الارامية او العربية التي تحجب صورتها فتجعلها مجهولة لوجدناها اوفر عدداً واقرب الى المعرفة ومثال ذلك البيرة التي مرّ ذكرها فانها تظهر لأول وهلة انها كلمة عربية لشبهها بالفظ البشر وهكذا قل عن كثير من الاسماء التي اولّها عين او بيت او كفر . فهذه الالفاظ لا تختلف بالبرانية والارامية والفينيقية وقد نقلت كما هي الى العربية (٥) . فلشدة الشبه بين اللغات الثلاث يحصل غالباً القلب والتبديل في صيغ الكلمات فيصعب اذ ذاك معرفة الصيغة الفينيقية الاصلية كما في كفر تبنيث بجانب النبطية حيث نجد اسم تبنيث الطائر الشهيرة في تاريخ فينيقية . وفي شمالي بيروت جدول ماء كان يدعى باسم الاله «موت» وهو اله الجحيم بلوتون (Pluton) عند الفينيقين . فلما أُلغيت فيما بعد الديانة الفينيقية وأُهملت اساطيرها وأُغفلت اسماء آلهتها أُبدل موت بموت وأُضيف اليها اداة التعريف فقالوا «نهر الموت» وزاد الشعب على ذلك فاختلفت حكاية حرب هائلة جرت فيها الدماء مدراراً . فهذه سنة العوام في اشتقاق الكلمات فانهم يُفسدون صورها شيئاً فشيئاً ثم يجدون لها معنى في لغتهم فيخدعون انفسهم ويختلقون قصصاً وحكايات لتفسير الوهم الذي توهموه وسوف نورد امثلة جديدة في سياق كلامنا على هذا النحو . لكننا نأسف على ان بعض المؤرخين

(١) راجع تاريخ الفينيقين (Pietschmann: *Geschichte der Phönizier*, 129)

(٢) اطلب المجلة الاسيوية الالمانية (ZDMG; 1875, p. 442)

(٣) راجع Kampfmeier, ZDPV, XVI, 20

(٤) راجع كتاب العلامة كلرمون غانو Recueil d'Arch. Or., VI, 70

(٥) راجع كتاب الآثار العبرية للعلامة نواك (Nowack)

ينخدعون لهذه الترهات فيقدّمون لنا كأدلة حقيقة اختلافات الشعب الوهميّة
اما بقيّة اللغات كاليونانيّة واللاتينيّة فانها قليلة في اسماء المواضع اللبنانية فليس
في هذا ما يُدهشنا بعد النتائج التي توصّلنا اليها بالبحثنا عن اشتقاق الالفاظ في لبنان
ولا يصعب التسليم بهذه الملاحظات اذا سرّحنا الطرف في خريطة لبنان شمالاً ووسطاً
وجنوباً في المنحنيات البحريّة والمنحدرات الجبلية فيستقرّنا الانذهال لما نرى من كثرة
الاسماء السريانيّة صرفاً مثل كُفْر وكُفُور وشير وتصغيرها العربي سُور بمعنى الصخر
وغيرها لما لا يحصى عدده مثل نبحا وشقيف وكُفْرَحْتا ودارياً ورشعين وكل كلمة
تألفت من « راش » كناية عن راس ومن « طور » اي الجبل الخ . والاسماء التي
تنتهي بصيغ اواخر الكلمات السريانيّة مثل آيا (آيلا) وآتا (آتلا) واو (اوا)
علامات الجمع والتصغير . وكفى بهذا المجموع وحده شاهداً على ان لبنان ارض
اراميّة ان لم يشهد بذلك التاريخ . فهذا الموضوع لا يكاد يُبلّغ كنهه او يُسرّ
غوره اذا اردنا التوغل فيه . فهناك بعض امثلة زيادة على ما اوردنا فعين طوراً هي
حَمْلُ لَهْوَا (عين الجبل) ورشماً وَلَعْلُ (راس الماء) ودير قرقنة وهو
اليوم دير للملكيين هو دير الجمجمة (مَنْصُفَا) وبيت مري (حَمْلُ حَنْب)
بيت السيّد وترعون (مَلُوقْلا) الابواب وجزين (كَلْلا) انكروز
وبين هذه الاسماء السريانيّة ما يستلفت نظراً خاصاً وهي الاسماء الكثيرة في
لبنان المبتدئة بحرف ب (ح) اختصار (حَمْلُ) بيت وهو اختصار قديم مختص
بلغات سورّيّة . وقد ورد نظير هذا الاختصار في اللغة الفينيقيّة وفي التلمود وفي اسماء
قريباً من الفلسطينية المذكورة في التوراة ومنها بيشان בִּישָׁן = בִּישָׁן التي تُرى
حتى اليوم قريباً من نهر الاردن جنوبي بحيرة طبريّة ١)

وذكر كتبة اليونان مدينسة في جزيرة العرب قريبة من البحر الاحمر باسم
(Balaurapora) وغني عن البيان انها بيت شمس حَمْلُ حَمْلُ ويكتبونها ايضاً ٢)

١) راجع المجلة الاسيويّة الالمانية (ZDMG, 1860, 651 ; 1873, 325) ثم كتاب بعثة
فينيقيّة (Mission de Phénicie, 853) ومقالة الدكتور كمبفير (G. Kampffmeyer)
(ZDPV, XV, 87, 111) ورحلة فتشيتين الى حوران (Wetzstein : Reisebericht
über Hauran, 110) راجع (ZDMG, XXVII, 325) ٢)

(Balsamum) وهذا يؤيد كلامنا. اما امثال ذلك في لبنان فكثيرة نورد منها بكفياً (حَمْلُ حُلُفُل) اي البيت الصخري وهي مركبة من حَمْل و حُلُفُل صخر ومثلها بكيفا في اقليم الحروب وبجمدون وبياقوت اي بيت حمدون وبيت ياقوت (١) وقس على ذلك برمانا ويزمار وبتاتر وغيرها مما سوف يرد ذكره

وقد يسوغ لنا ان نحكم على الفور والبديهي ان بلدنا نظير لبنان غزير الينابيع ومناخه يقتضي وجود المياه لا بد من ان يكون لعنصر الماء دخل في تركيب اعلامه. وصحة هذا الحكم تظهر بالمشاهدة فقد استمال افكارنا اسم قرية ميومية (وليس « ميه وميه » كما يكتبها دليل لبنان) قريباً من صيداء في اقليم التفاح فاعتقدنا ان الكلمة الفينيقية الدالة على الماء داخلة في تركيب هذا الاسم ويقابلها في العبراني « מים » فحكمنا بقدم عهد القرية وبوجود ينبوع ماء مشهور كان سبب تسميتها بهذا الاسم . غير ان الاعلام كانت في اول الامر سلبية . فلما جئنا متأخرًا في نواحي صيدا لم نعثر على عين ماء في وسط ميومية اكننا شاهدنا في سفح القرية ينبوعاً من اجود ينابيع تلك الاطراف القاحلة واعندنا . ففي حين مرورنا كان جميع الاهلين في قلق واضطراب لان بعض اصحاب المطاعم سعوا بحكر المياه التي يستقي منها الناس والحدائق المجاورة فعند تأملنا تلك المياه الحسنة الخارجة من بطن الارض

ادركنا سبب تسمية ميومية بهذا الاسم الفينيقي

ثم في لفظة ميروبا الماء الغزير ورشياً رأس الماء تظهر للعيان كلمة حَمْل السريانية اما الاسماء التي تبدأ بكلمة عين فهي اكثر من ان تُختصر (٢) وهذا دليل آخر على تأثير المياه وفضلها في تعبير المساكن والاماكن . وهنا تُبدي نفس الملاحظة التي ابدتها على الباء المختصرة من « بيت » وذلك ان عين تُختصر احياناً فتألفظ عَن فعين طوراً تُلفظ « عنطورا » وعين دارا « عندارا » واليونان يسمونها اندريس (Andaris) . وهذا مما يدل على أن عادة ابدال عَيْن بعَن هي قديمة وأما هل ان عندريس من لبنان فراجع الجزء الاول (١١٢) وكذلك قرية عنبال (٣) في ناحية الشوفين فاصلها عين بال .

(١) نسبة الى حمدون وياقوت ولا يعلمنا التاريخ من اخبارها شيئاً

(٢) اتنا نضم ذكر الاسماء التي تبدأ بساقية وغدير

(٣) يظهر ان عنبال وعينبل في بلاد بشاره من اصل واحد وفي البشير ١٢ كانون الاول

وقس عليها مواضع اخرى من سورّة نوح عِنجار « عين جار » في البقاع وعندقت « عين دقت » في عكار وعين دُور في فلسطين وهي تُلفظ وتُكتب اليوم « اندور » (١) . وقد تُدغم النون بالحرف الذي يليه نحو عماطور واصلها « عين ماطور » (٢)

*

أما الاسماء العربية المحضة فهي كثيرة ومعروفة ولا حاجة الى ايراد امثلة عليها ويكفيها ايراد اسم « الجُدَيْدَة » لكثرة انتشاره . والاسماء التي تتألف من « واس وظهر ووادي ودير ودوير » واشباهها وكثيراً ما يتفق ان اللغتين تشتركان بالاسماء اللبنانية كما رأينا في الامثلة المتقدمة فتختلطان وتمتزجان امتزاج الماء بالراح بحيث تشترك الكلمة العربية بالسريانية او تلتصق صيغة الجمع والتصغير العربية بكلمة من صيغة ارامية ويسهل تحقّق ذلك من الامثلة التي سبق لنا ايرادها . وفي بعض الاسماء كما في « انفه » يتعدّد الفصل بين اللغتين فلا نعرف أسريانية هي ام عربية وقد اقبلت لما اعلام الاماكن آثاراً شتّى تدلّ على مرور العرب والآراميين بلبنان بخلاف بقية الشعوب التي ورد ذكرها في الفصل الذي بحثنا فيه عن سكن لبنان من الادم القديمة فنردّ اليه القراء ليطالعوا خاصة المقالة التي دار الكلام فيها على الحثيين فاننا اتينا فيها على ذكر اسمين جغرافيين يتصل عهدهما بهذا الشعب على ما نظن . أما الفراعنة فمع طول عهد استيلائهم على فينيقية لم يهتّموا باستعمارها ولم يُعِنُوا باقامة الآثار فيها لكنهم كانوا يعهدون تدبير شؤونها الى عمّال وطنيين مكثفين بوضع مراقبين عليها (٣) . أما جنودهم فيها فكانت قليلة وكانوا من المتطوعين (٤) فضلاً عن انّ قسماً كبيراً من لبنان لم يدخل تحت حكمهم زمناً طويلاً . لاننا نعلم ان املاك الفراعنة في فينيقية ايام رمسيس الثاني كانت تنتهي عند نهر الكلب أما الرومان فلا نستطيع ان نعزو الى لغتهم إلا اسم غوسطيا التي عورضت

١٩٠٤ يذكر مراسل من عنبيل ان الرسائل المبعوثة الى قريته ترسلها ادارة البريد غالباً الى عنبال

(١) راجع Kampffmeyer, ZDPV, XVI, ٩٥

(٢) راجع تاريخ بيروت (ص ٨٨) والمجلة الفلسطينية ZDPV, XV, ١١١

(٣) راجع الجزء الاول (ص ٧١) كتابات تلّ العمارنة

(٤) راجع كتاب مكس مولر W. Max Müller, : Die Aegyptier als Eroberer

بأغوستا (Augusta) نسبة إلى أغوستس ونحن نسلم بهذا الاشتقاق لكن باحتراز. وبين غسطا وميروبا مزرعة صغيرة تُدعى طبرية فهل يا ترى تشتق من اسم طيباريوس نظير طبرية الجليل الشهيرة؟ وان صحَّ هذا التأويل فمن يكون طيباريوس هذا؟ قد زعم حضرة الخوري غبريل صاحب تاريخ الموارنة (ص ٥٧٦) أنه الامبراطور طيباريوس البيزنطي لكن هذه الشهادة ليست بكافية اذ لم يذكر ذلك احد من المؤرخين الاقدمين

ثم اننا لا نعدُّ من اصل لاتيني اسم «اسطبل» في اقليم التفاح ولا المحلات العديدة التي تبدأ بقصر وبرج فان هذه الاسماء وان كانت في الاصل مشتقة من اللاتيني الا انها قد دخلت في اللغة العربية من عهد بعيد حتى اصبحت كأنها اصلية ومثلها الكورة اسم احد الاقضية في لبنان فأصلها يوناني «χώρα» اي الناحية. والهري قريباً من شكاً فلا يبعد من انها تشتق من الكلمة اليونانية «ὄρεον» ومثلها اللاتينية horreum وكلاهما بمعنى الهري والمخزن ومن الاسماء التي يمكن نسبتها الى اللغة اليونانية طبرجا وجربتا (١٠). أما طاميش فلمعها من ارطاميش «Ἀρταμῖς» وهي إلهة الوثنيين كما ان جونيه يُحتمل اشتقاقها من اليوناني «γυνή» اي الزاوية. وأما البترون والقلمون جنوبي طرابلس فانهما من الاسماء السامية صحفهما اليونان في لغتهم وجعلوهما منها كما صيروا جبيل «بيلوس» وكذلك دفنه في كسروان يشبه لفظها «δαφνη» وهي شجرة الغار كما ان ناووس (قريباً من كسبا وسبطين) هي «ναός». لكن رنان يتساهل كثيراً فيرى الاصل اليوناني في عدة اعلام لبنانية نظير دلبتسا وريفون وعجلتون مع أن اصلها السرياني لا شبهة فيه. وفي رأيه ان كل الاسماء اللبنانية المنتهية في «ين» وأون وأوش مثل غرفين وريفون وحنوش هي يونانية الاصل (٢) فهذا الزعم لا يستحق ان نعيده التفتاً. وبالجملة ليس في لبنان اكثر من عشرة أعلام

(١) راجع الجزء الاول (ص ٢ و ٨ و ٦٩) ما قلناه عن انطيلس فان اشتقاقها من اليوناني هو من الامور المشككة. وقد ذكر الشريف الادريسي ثماليا صيداء بلدة باسم قلمون لم نعرف من امرها شيئاً ولماها تعريف «علمان» القريبية من نهر الالوي. وكذلك قلمون المرسومة على الخريطة الفرنسية شرق البترون هي تصحيف قزنون

(٢) راجع كتابه بعثة فينيقية (Mission de Phénicie 141, 246, 229 238)

مكانية يمكن ردها الى اصل يوناني فهذا العدد اليسير لا يكاد يُسبأ له بالنسبة الى الاعلام اللبنانية المتعددة التي ثبتت ساميتها
اما اكثر الاسماء توغلاً في الابهام فهو اسم كسروان فمن المعلوم اننا نستخلص منه بلاغاً اسم العلم كسرى ولكن كيف نفتره؟ ومن هو كسرى هذا؟ وكيف وقع اسمه على هذه المقاطعة اللبنانية؟ يقول قائل انه اسم احد متقدمي المردة وليس ذلك جواباً شافياً لأن المردة كما افاد التاريخ نزحوا عن لبنان ولم يخافوا فيه سلاطهم . وكذلك لا نسلم بالتقليد الذي يرد « قب لياس » (في البقاع) الى قبر لياس . وهو زعيم اخر من زعماء المردة في قوهم . وليس قب لياس في رأينا اشد وضوحاً او بحري اقل ابهاماً من انطلياس (١) والمسيو غورناتيس في تأليف حديثه (٢) يسلم برأى من يرجع هذه الاسماء الى المردة ويضع بانهم اتوا الى لبنان من بلاد الفرس لكن قبل العهد الذي يذكره تاوفان المؤرخ اليوناني وهم الذين دعوا كسروان باسمه اتوا به من بلادهم . لكن التاريخ لا يذكر شيئاً من امرهم ما خلا تاوفان وهذا المؤرخ اليوناني يخالف كل المخالفة رأي غورناتيس في عهد دخولهم لبنان . امّا نحن فلا يسعنا الا ان نشاطر سيادة المطران يوسف دريان رأيه ويأوح لنا انه دحض بسديد براهينه زعم العالم الايطالي دحضاً مفجعاً . وعندنا ان اشتقاق اسم كسروان مشكل لم يحأه احد الى الان

امّا اللغة الفرنجية فلم يبق منها في لبنان الا ما قلّ ونذر فكانوا يسمّون المنيطرة (Le Monestre) ويطلقون اسم (Franche-garde) على قلعة يُقال لها الان المنطرة وهي بجوار صيدا . ويدعون قلعة نيجا التريسة من جزين (Cavea de Tiron) ويسمّون قلعة الشقيف جنوبي النبطية (Beaufort) . ولم يبق من هذه الاسماء الا الاسم الاول الذي صحّفوه ونقلوه الى اللغة الفرنسية وكذلك اسم دير

(١) قرأنا في ذخائر لبنان لجنا براهيم بك الاسود: « كلمة اخياس لا تخلو ان تكون منحوتة اما من انطون وايلياس واما من انطس ايلياس واما من ايقونة لياس وهذا الاخير هو الاربع » (كذا)

(٢) راجع Gubernatis : *Rassegna Nazionale, Mardaiti e Maroniti*,

البلند فهو منقول عن كلمة (Belmont) كما اثبتنا ذلك في موضعه (١) وقد رأى حضرة الاب ابراهيم حرفوش في «خربة السويس» تلميحاً الى الشعب السويسري (٢) فنحن لا نخال التسليم بهذا التفسير ممكناً لان السويسريين لم يعرفوا في اقطارنا فضلاً عن ان اطلاق اسم السويس على الشعب السويسري كان بعد ذلك العهد . ومن المحتمل ان اسم «روس الفرنج» (في قضاء جزين) و «جرف الفرنج» بجوار تنورين من آثار ذلك العصر غير اننا لا نستطيع ان نبت بهذا المعنى حكماً جازماً

واماً اسم جرمق (بناحية جبل الريحان) الذي ورد ذكره اثناء كلامنا عن الجرامة فانه يخلد اسم الجرامة وهو شعب ارامي (٣) تذكره كتبة العرب وهم لا يفرقون احياناً بين الجرامة والجرامة فهؤلاء الجرامة ليس لهم اثر في اسماء المواضع اللبنانية وذلك دليل على انهم اجتازوا لبنان اجتيازاً ولم ترسخ فيه اقدامهم ومن الاسماء التركية اسم الزوق وهذا الاسم من الاعلام المكنية الموجودة معاً في كسروان وفي عكا (٤)

اما النتيجة التي نستمدّها مما قدّمناه في هذا الفصل فهي عجز اللغات غير السامية وقصورها عن التأثير في تسمية الامكنة اللبنانية العجيبة بوحدة نوعها . وهذا مما لا نشاهده الاًفياً قل من البلاد اما اوروبة فانك تجد في اسماء مساكنها اشكالاً والواناً

(١) تسيح الابصار (١: ١٤٩)

(٢) المشرق (٥: ٢٩٨)

(٣) او فرقة من الاشوريين الاقدمين او «هم اهل الموصل في الزمان القديم» (القلشندي ١: ٢٣٠) راجع Chwolson: Die Ssabier, II. 697 وياقوت في معجم البلدان (٣: ٦٤) يومئ الى وادي جرمق على مقربة من صيدا وهو وادي جبل الريحان . ثم قابل بين نصي ابن الفقيه الهذلي قال الاول (ص ٧٧ سطر ٢٠) : «الروم ملكانية يقرأون الانجيل بالجرمقانية» وقال الثاني (ص ١٣٦ سطر ١٦) وشرح قوله اصعب لان الكلام فيه من روم اوروبة : «الروم كلهم ملكانية يقرأون الانجيل بالجرمقانية» . فمن يتقدّم لنا يشرح معنى الجرمقانية يقلدنا فضلاً وجسلاً ومن المقرّر انه ليس المراد بها السريانية اذ ان الجرمقانية على قول ابن الفقيه لغة روم اوروبة الطقسية

(٤) Robinson : op. cit. 183

*

اننا قد بينّا في سياق الكلام عن دخول النصرانية الى لبنان قبل الهجرة بثلاثمائة سنة ما عانت من المكاره ولاقت من المصاعب حتى استتب لها الامر وتوطدت دعائها (١) ولم يتم انتصار النصرانية على الوثنية قبل اواخر القرن السادس واول السبع وذلك بفضل الشعب الماروني واسماء المساكن تؤيد هذه النتيجة التي لا سند لها الا الادلة التاريخية

انه لامر شائع في جميع البلاد النصرانية ان تُسمى المساكن باسماء القديسين فشيوع هذه العادة يظهر ما لعبادة القديسين من الشأن والاعتبار عند بني جلدتهم ويبين لنا اهمية الابنية الدينية التي نشأت حولها المدن الحاضرة. فن هذه المدن سانت اتيان في فرنسة وسان لويس في الممالك المتحدة وسان باولو في البرازيل. فمما يقضي بالعجب ان الاسماء المكانية التي تنسب الى اسم قديس قليلة جداً في لبنان نعرف منها مار شينا في الزاوية ومار ماما في بلاد البترون اما في بلاد عكار فان روبنسن يذكر في لوائحه (٢) مار ليا وهو اليوم خربة. وتزيد عليه اسم مزرعة مار توما (٣)

اما الاسماء التي تتألف من دير ودوير فهي اكثر شيوعاً لكنّها اقل مما ينبغي ان تكون في بلد اغلب سكانه نصارى. وعلة ذلك على ما نظنّ انحصار الطائفة المارونية زمنّاً طويلاً في شمال لبنان فانها لم تجاوز حدود نهر ابراهيم كما اثبتنا في جملة مراضع الآ في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ونحن نعلم ان كثيرين يرفضون حتى الان التسليم برأينا. فما علينا الا ان نوضح للمُناظر انّ تسمية الاعلام الموضعية لا تقتضي لهم ولا تتناول رأيهم. فقد ظهر من الابحاث التي نشرها حضرة الاب ابراهيم حفوش في المشرق عن اديرة كسروان القديمة انها متأخرة عن الجيل الخامس عشر. فاي تفسير لهذا الشذوذ غير تفسيرنا. ثم علينا ان نعتبر انّ الاديرة الكبيرة كانت قديماً

(١) تسيريح الابصار (٩٧: ١-١١٢)

(٢) راجع تأليفه (ص ١٨٣)

(٣) وهذا الاسم مذكور في لائحة تفعل علينا بها حضرة الخوري بولس طعمه وقال ان اهلها اليوم مسلمون

نادرة في لبنان لأن العيشة الرهبانية فيه كانت في بادئ امرها تقوم في الخلوة والعزلة شأن النساء والزهاد فأكثر الاديعة الكبيرة سيما جنوبي نهر ابراهيم بُنيت بعد تأسيس الرهبنة البلدية . وهذه بعض الاسماء التي تبدأ بدير : دير القمر ودير قوبل ودير بابا ودير دوريت وقد ورد ذكر جميعها في تواريخ الفرنج في القرون الوسطى (١) وفي تاريخ بيروت (١٩٢-٢٨٢) . فهذه القرى سبقت عهد القرن الحادي عشر وأماها قامت على انقاض اديعة مبنية قبل الاسلام . وما يحملنا على هذا الاستدلال وجود تلك الاديعة بناحية لم يستوطنها غير الدروز قبل القرن السابع عشر . وقد يعن لنا أن في هذه الناحية موضع الدير الذي اقامه في لبنان القديس ربولا وقد ورد ذكر هذا القديس في كلامنا عن ابتداء النصرانية في الجبل (٢) . وهما نحن نورد بعض اسماء مما يبدأ بدير غير ما ذكرنا . ففي منحنى لبنان الشرقي دير الاحمر (شمال غربي بعلبك) ودير طحنيش على منحدر جبل الباروك المشرف على البقاع ودير دالوم ودير جانين في بلاد عكار (٣) ودير الزهراني في وادي النهر المذكور

ولقد تبين لنا من ابحاثنا المتقدمة عن العاديات اللبنانية أن لبنان بلد تأصلت فيه العبادات الوثنية ورسخت اصولها وانتشرت فيها الهياكل والابنية التي تحيي ذكر الديانات السامية . فاسماء الاماكن تدعهم شهادة العاديات وتوضحها على منوالها (٤) فبفضلها ندرك جلياً امر تلك الانقراض الدارسة وغايتها وبفضلها نكمل نقص التاريخ ولايضاح ذلك نتخذ بعض امثلة مما يحضر الحاطر على سبيل الاتفاق :

فان كنا نجعل انتشار عبادة الالهة الفينيقية تازيت في لبنان فالاعلام المكانية تطلعنا عليها فمن تلك الاعلام كفر تانث الواردة في تاريخ بيروت (٥) وعقنتيت جنوبي

(١) راجع المجلة الفلسطينية (ZDPV, X, 276, 277) اما تفسير اسم دير القمر في كتاب اخبار الايمان (ص ٢٩) فهو الى القرابة اقرب منه الى المكائنة والسداد على ما لاح لنا

(٢) راجع الجزء الاول (ص ١١٢-١١٤)

(٣) وغيرها في تلك الناحية . راجع روبنسون (١٨٣-١٩٠)

(٤) راجع ابحاث غلدتسير (Goldziher : Mohamm, Studien, II 334 336)

(٥) لصالح بن يحيى (ص ٢٢٩)

النتائج التاريخية من درس اعلام الاماكن اللبنانية ٢٤١

شرقي صيدا ١٦ وعيتيت على منحني لبنان الشرقي على سفح تومات نيجا الى الشرق .
 وليست تانيت وحدها الالهة السامية التي عاش ذكرها في الجبل
 كُنّا الى اليوم نشته بوجود إلهة كان الاراميون يؤدون لها اكراما خصوصا
 ويدعوها شيئا . وقد استلقت اليها الانظار بمقالاته حضرة الاب سبستيان رتزال (٢) فقد
 اكتشف بجذقه المعروف اسم هذه الالهة في « كفرشيا » قريبا من بيروت « وبيت
 شاما » (على طريق زحلة الى بعلبك) « وشامات » في بلاد جبيل ونحن نضيف الى ما
 تقدم اسم « بعلشميه » (في المتن الاعلى) فهذا الاسم الذي يبدأ بعل هو عندنا من
 اغرب الاسماء الاولية والاصلية في لبنان (٣) . فكل يعلم أنّ الالهة كانت تُعبد في
 الهياكل السامية ازواجاً فكل من الالهة كان بازائه ما يقابله ذكراً كان او أنثى وحتى
 اليوم لم يكن مقابل شيئا الهاً معروفاً وان كان يسوغ الاستدلال على وجوده بالاستقراء .
 اما الان فقد اكتشفت حديثاً كتابة يونانية شمالي سورية فيها ذكر الاله (Σέμιος) (٤)
 فهذا الاله لا نحاله الا زوج شيئا الذكور لان بعلشميه لا تعني الا بعل شيئا اعني
 مقابلها الذكر لان لفظ البعل عند الساميين اذا جاء منفرداً كان يدل على كبير الالهة
 ويشير الى اله محلي او خصوصي اذا اضيفت اليه صفة كما نراه واقعا
 ثم ان قرية درب السين (وعلى الاصح دربسين (٥) شرقي صيدا بقربة منها
 تذكرنا باله آخر هو الاله سين او القمر المكرم خاصة في بلاد بابل ومابين النهرين
 وكان له في حران هيكل مشهور ومنها امتدت عبادته الى سورية لان حران كانت
 مبنية على طريق القوافل التي كانت تتعاطى الاتجار في تلك الاصقاع
 وفي سورية الشمالية مواضع يدل اسمها على انتشار عبادة القمر . فمن ذلك
 كفر باسين في جبل سمعان (غربي حلب) ويجوار افامية القديمة موضع آخر يدعى بهذا
 الاسم . فلفظة باسين تتركب من با وسين : والتأويل بيت سين اي مسكن او هيكل

- (١) راجع Guérin, Galilée, II, 516 وقد أهملت هذه البادة في الخريطة الفرنسية
 للبنان وهي غير كاملة في الجنوب (٢) راجع المشرق (٧: ٢٣١ - ٢٣٥)
 (٣) وقد ظن بعضهم انه تصحيف « بعل شمين » اي بعل السماوات وهذه التسمية شائعة
 عند بني سام راجع اخبار الاعيان (ص ٢٦)
 (٤) راجع 182, p. 1902, Bullet. corresp. hellénique,
 (٥) ZDPV, VII, 115

الاله سين . وكان العرب في الجاهلية يعبدونه أيضاً (١) وأهل هذه العبادة نقلتها عنهم الى لبنان قبياة الايطوريين وهي عشيرة من عشائر العرب سكنت قديماً في لبنان كما سبق لنا اثباته

ونرى أيضاً في لفظة «كفر قاهل» شمالي الكورة اسم قاهل ومعناه القدير وهو من اسماء الجلالة عند العرب الاقدمين (٢)

وما نبهنا اليه في بعشميه ودرسين ينطبق أيضاً على اسم دار بعشتار. فهذه اللفظة كما سبق شرحها في غير موضع (الجزء الاول ص ١٣٧) ما هي الا بيت عشطار اي هيكل عشتروت . وعشتروت هذه من معبودات اللبنانيين الخاصة ولذلك كان اليونان ينسبونها الى لبنان فدعوها « Διβαύτις » (٣) فالجزء الاول من الكلمة جرى عليه من الإبدال ما جرى في لفظة درسين التي كانت في الاصل دارسين فحوّلها الشعب الى درب السين (٤) ولم ينتبه الى أنّ الباء الابتدائية هي اختصار بيت ثم قدّم على بعشتار لفظة دار ومدلولها البيت ولا عجب في هذا اذا أنّ في العامة ميلاً فطرياً يحلّهم على وضع معنى للالفاظ القديمة التي يفوتهم ادراك سرّها . وبناء على هذا المبدأ كتب العامة « مجد البعنا » (٥) (ضيعة في الجرد الشمالي) وكان حقها ان تُكتب مجدل بعنا، وهكذا قُل عن « مجد المعوش » والصحيح « مجدل معوش » وجرى الشعب على هذه الطريقة لانه لم يكن يعرف ان مجدل هي لفظة كنعانية قديمة ومعناها قلعة فنقلها الى لفظ عربي متشابه

ومن المرجح ان اسم بزيّا المجاورة لدار بعشتار هو ادغام بيت عزيزو. وعزيز هذا كان الها عند الساميين تتصل عبادته بعبادة الشمس (٦) وكان له مزيد الاكرام في

(١) قابل أيضاً اسم جبل طورينا 29-31 Grimme :

(٢) راجع 39, op. cit. Grimme :

(٣) (راجع الجزء الاول ص ٤٥ وتجد هناك صورة عشتروت ص ٤٦) Clermont-

Ganneau : Rec. Archéol. Orient., III, 188

(٤) اما رنان (12, Mission de Phénicie) فيريد ان تحذف الباء ويكتب الاسم دير السين. غير انه من الضرورة ابقاء الباء كما يستدل من اسم كفر باسين الشائع في شمال سورية

(٥) وهكذا كتبها صاحب دليل لبنان

(٦) راجع (129-130, p. 1903, Revue Archéol.)

الرها وفي حمص كما يُستدلّ من الكتابات اليونانية العديدة التي قرأنا فيها اسم «Aḡios» ١)

امّا الاعلام المركبة التي اول جزءها «عبد» فثانيها اسم الهي عادةً ولذلك لقبوا هذه الطائفة من الالفاظ بالاسماء الالهية . وعندنا ان عبدالي (من بلاد البترون) تتضمّن اسم الله ولعلّه بصيغته المملوطة ايلو في اللغة البابلية او في العبرانية بدلًا من الصيغة السريانية او العربية المشبعة والمفحمة . ومما يؤيد هذا التأويل هو انها لا تلفظ عبد الله بالتفخيم والاشباع بل عبدالي **ححب** بكسر الدال المملوطة او بالاشمام

واقد اطلعنا كتابات تلّ العمارنة على شدة نفوذ بلاد بابل في اقطارنا الشامية . فلا عجب اذن ان وجدنا شيئاً من آثار الديانة البابلية في سورية وقد شاهدنا مثلاً على ذلك في ادخال عبادة الاله سين . وقس عليه الاله البابلي نبو (وفي العربي نبا) فاننا نجد اسمه في «قصر نبا» شمالي زحلة على منحى لبنان الشرقي (٢) . ولا بدع ان اوردنا كتنكار بابلي اسم «كفر غرود» في بلاد جبيل وهي خربة وقد ذكرها عدّة من علماء الافرنج (٣) ونحن لم نشاهد هذا المحلّ كما اننا لم نشاهد «قلعة تدمر» . فلذلك نكتفي بالاشارة اليها ولا نزيد على اسميها تأويلاً . على اننا نرى قري كثيرة ومزارع عديدة تسمّى باسماء الالهة القديمة فمن هذه القرى بدادون (في الغرب الشمالي) فانها تتركّب من ب = يت والصيغة السريانية أون المزيّدة في اواخر الاسماء . امّا داد فإله قديم لبني سام ونجده في لفظة دده (الكورة الشمالية) كما نجد في عفسديق (الكورة الوسطى) اسم الاله صدق (٤) . وفي «مراح كيون» في اقليم التفاح يظهر اسم زحل احد معبودات الشعوب السامية وقد كان معروفاً عندهم باسم كيون (٥) . قال ابو العلاء المعري: اذا عظّموا كيوناً عظّستُ واحداً فكان له كيونٌ أوّلُ ساجدٍ

(١) راجع تأليفنا في آثار حمص *Notes sur l'Emèse*, passim

(٢) ومثلها «كفر نبا» في جبل سمعان غربي حلب . وجاء في «دخائر لبنان» (ص

١٣٥) ان نبا اسم امير عربي . وهو تفسير قصصي

(٣) راجع بمئة فينيقية (ص ٢٠٢)

(٤) راجع Winckler, *op. cit.* 473, 483

(٥) راجع Winckler, *op. cit.* 409

الآن أكثر الالهة شيوعاً عند الكنعانيين والفينيقيين هو البعل فلم يكن ممكناً ان يُعفل اسمه في تسمية الاماكن اللبنانية ولنا دليل في اسم بعلاشميه ومثله شَابَعْل في بلاد الشقيف (١) . وكبعل قريباً من الغينة (كسروان) . وكفربعال في وادي فيدار . وسبعل وبسبعل (٢) شمالي قضاء البترون . وعَنبَال بدلاً من عين بعل (٣) في الشوف . فهذه الاسماء لا تزال محافظة على اسم زعيم آلهة الفينيقيين
اماً صالماً فلعلها الكلمة الكنعانية « صال » وهذه الكلمة ليس معناها صورة وصنم فقط بل هي اسم احد الالهة السامية المسمى صاليم (٤) فيكون اذن معنى بصاليم (في المتن) بيت صاليم اي بيت الصنم او هيكل الاله صاليم
ومن العبادات التي شاعت كثيراً في سورية هي عبادة الشمس والى هذه العبادة ينسب اسم « عين الاسد والشمس » في اقليم الحروب . وما يزيد هذا الاسم اهمية هو تضمينه لاسم له آخر وهو الاله الاسد الذي اظهرت وجوده للعيان كتابة اكتشفت حديثاً في جبل سمعان (٥) يُقرأ منها اسم الاله الاسد باليوناني (Λέων) . وفي بعليك كان الاله جنابوس « Γενναῖος » يُعبد بصورة اسد . وتمثيل الآلهة بصورة اسد كانت عادة شائعة في سورية (٦) . وقد تحدثنا النفس بان نعزو الى تلك العبادة الاسدية (٧) اسم مدينة الاسد (Λεοντόπολις) ونهر الاسد (Λέοντος ποταμός) وكلاهما على منحدر لبنان الشرقي (٨) بين نهر الليطاني ونهر الكلب لكن مركزهما لم يُعرف تماماً (٩)

- (١) V. Guérin, *Galilée*, II, 530, 541 راجع
- (٢) ولغظها الحالي لا يناقض رأينا في شيء فالمادة جارية في جميع البلدان على الاعلام التي لا يفهم معناها الوضعي بان يحدث تبديل في لفظها أولاً ثم في كتابتها
- (٣) راجع اخبار الاعيان (ص ٢١)
- (٤) Winckler, 473 راجع
- (٥) Bullet. corresp. hellénique, 1902, p. 182 راجع
- (٦) راجع مجموع الآباء اليونان لمن (Migne, PP. GG., CIII, c. 1292)
- (٧) راجع مقالة الاب روتزفال بهذا الخصوص : (١٩٠٥, 48 - ٥٣) *Revue Archéol.*
- (٨) وكان اللبنانيون الوثنيون يذرون لآلهتهم صور الاسد (Mission de Phénicie, 397)
- (٩) راجع مقالنا عن اسماء انحر لبنان القديمة

واماً ما يتعلق بعبادة الشمس فقابل « بيت شمس » وهو من الاعلام الكثيرة الشيوع في فلسطين (١)

ومثلها العبادة للاله رمّان (٢) التي شاعت في طرّفي العالم السامي في بلاد اشور كما في بلاد العرب وفي جميع البلدان المتوسطة بينهما . فمن تلك العبادة دُعيت اماكن عديدة باسماء تدخل في تركيبها لفظة رمّان نحو عين الرّانة وبرمانا ولعلها بيت الاله رمّان ، ولما أغفل على مدى الزمان اسم هذا الاله حُسبت هذه التسمية نسبة الى شجر الرمان وايس له وجود في تلك القصبة وقد يتفق ان يكون ذلك في بعض الاماكن بشرط ان لا تكون في مواقع باردة لا يعيش فيها الرّمان . وليس لنا ان نهمل اسم « كفر عمي » الغريب وقد يمكن ان يكون اسماً هياً لان « عم » من صفات الالهة عند بني سام الاقدمين (٣)

فهذه هي الآثار المهمة التي ابقتها العبادات الوثنية في اعلام المساكن اللبنانية وهي كلها عبادات سامية وهذا طبيعي في اراض سكاها ساميون . واما ما اختص بالعبادات اليونانية والرومانية فيدل عليها اسماء بلوني وطاميش ولعلها مشتقة من اسمي ابلون وارتاميس او ديانة (Diane) . لكن هذا الاشتقاق لا يتجاوز حدود التخمين وقد يمكننا ان نقابل بطاميش دير ارتاميس (ومنه وافر صمد) في حوران وهو مذكور في كتابة سريانية من الجيل السادس (٤) . وظن البعض انه ورد لابلون ذكر آخر في لبنان وهو اسم مغارة بالقرب من صيدا يدعونها مغارة « ابلون » وهذا الاسم مصحف والصواب « مغارة طبلون » وهو اسم مكاني نجهل اصله اكتنا لا نظنه متعلقاً بعبادة ابلون اله الرومان . واقد اوردنا في الجزء الاول (ص ١٤١) اسماً غريباً في باب « وجه الله » الذي كانت تسمي به اليونان رأس الشقعة وكذلك اسم ضبعة « وجه الحجر » القائمة على ذلك الرأس فاسم وجه الحجر من آثار عبادة قديمة والمكان يدعى باليونانية (Θεοπρόσωπον) او (Λιθοπρόσωπον)

- (١) راجع معاجم التوراة و Winckler, 369
- (٢) راجع كتاب حضرة الاب لاكرايج (Lagrange) في الديانات السامية (ص ٩٢-٩٣)
- (٣) Winckler, 480
- (٤) ZDMG, 1875, 436

وكلاهما ترجمة الاسم العربي فقد كان بين طواغيت العرب صنم اسمه حجر وكان للايطوريين مركز على هذا الرأس من اهم مراكزهم يقال له جيجارتا فلعلهم هم الذين ادخلوا تلك العبادة الى لبنان (١)

وفي بعض كتابات دير القاعة ذكر اله يدعى (Ἀρεμθηνος) وقد استلقت هذه الكتابة انظار المستشرقين اي استلغات فتساءلوا عما عساه ان يكون ذلك الاله المجهول الى هذا الحين واين هيكله . فاذا حذفنا آخر الكلمة « ηνος » الدالة في اللغة اليونانية على النسبة بقي « Ἀρεμθ » وبهذه الطريقة نحصل على اسم المحل المنسوب اليه هذا الاله . وقد بحثنا عن حقيقة هذا العلم فعن على فكرنا بادى بدء اسم رمطون التي ورد ذكرها مراراً في تاريخ بيروت (٢) لصالح بن يحيى وهي قرية من كفرمتى بينها وبين نهر الدامور . فرمطون هي اليوم خربة ولا ريب انها كانت قديماً ذات بال وشأن كما يستدل من نسبة الرمطوني الذي عرف به كثيرون من امرأ العرب فهذا الاسم يشابه الاسم اليوناني ولا فرق بينهما سوى ان ال التعريف داخلة على الاسم اليوناني بخلاف العلم العربي الحالي منه

الآن في الاسماء اللبنانية المكانية اسماً آخر يوافق كل الموافقة حل هذا الشكل وهو اسم القرية عرمتى او عرمتى في ناحية جبل الريحان (٣) وبقرية منها مزار ابي ركاب الذي تبالغ في اكرامه وتاولة الناحية وما هو الا الاله المعبود قديماً في عرمتى والاله (Ἀρεμθηνος) المذكور في كتابة دير القاعة

فمنّا مرّة بك من التفاصيل يتبين عظم قدر العبادات الوثنية في لبنان والمصاعب الكثيرة التي ناصبتها النصرانية حتى توصلت الى نصر الحق على الباطل وبها تدرك معنى كثرة الابنية الوثنية في لبنان . فدرس الاعلام المكانية يطلعنا على ان العبادات الوثنية كانت مع الابنية المختصة بها اوفر عدداً في قديم الزمن وانه لم يبق من اثرها الا اساء بعض المواضع فاذا ما حصلنا على لوائح وصفية وافية بالمطلوب امكننا ان نضيف زيادات كثيرة على ما قدمنا

(١) اطلب بعثة فينيقية لربان (Mission, 402)

(٢) راجع مثلاً الصفحات ٧٦ و ٨١ و ١٢٢ و ١٢٧ و ١٢٩ و ١٨٠ و ١٨٥

(٣) ويوجد موضع آخر يدعى عرمتى في جبل النصيرية

*

واعلم انَّ فائدة درس اعلام الاماكن لا تنحصر في معرفة عبادات المشركين فقط فانَّ الجغرافية والتاريخ يجنيان منه اعظم جدوى . فمثال ذلك « خربة صيدون » في قائمقامية جزين نحوي وتحفظ ذكر صيدون وهي صيدا وتدلّ على انَّ نفوذ ام المدن الفينيقية امتدّ الى داخل الجبل

وقد نبّه بعضهم الى أنَّ فريدس وهي كلمة فارسية شائعة الاستعمال في سورية تدلّ عموماً على حظائر صيد قديمة للملك الفرس (١) وهي عادةً مواضع تكثر فيها المياه ومن ثمّ الغابات والطرائد شيثان يستلزم احدهما الآخر . وما من موضع احقّ بهذا الاسم من فريدس الباروك فهناك سهل بهيج تسقيه ينابيع الباروك الغزيرة يشبه في تنظيمه وترصيفه حظيرة صيد كبيرة وعلى اكفافه ارز الباروك (٢) هو بقيّة من الغابات القديمة التي كانت تختلف اليها حيوانات متنوعة

وفي بطرآن من قضاء الكورة آثار عديدة من قبور واحواض كبيرة كلها منحوتة بالصخر قد وجدنا بينها اخربة تدعى اشمونيت نرجح كونها انقراض هيكل اشمون الاله الفينيقي (٣) الذي ينطبق على الاله اسكولاب اله الطب عند اليونان . وكان النصارى القدماء ارادوا تقديس ذلك المكان فاقاموا هناك معبداً باسم القديسة اشموني اضحى اليوم خراباً والاهل يكرمونه وقد اعتادت النساء اللواتي يشعرنّ بألم في الصدر ان يسجنّ موضع الوجع بناء مصبوب على حجر من حجارة المعبد القديم . واشموني عند الشرقيين ام السبعة الفتية الشهداء المذكورين في سفر المكابيين لكنّ الكتاب المقدس لا يذكر لها اسماً ولعلّ الشرقيين اشتقوا اسمها اشموني من العبرانية נשמוני اي الثامنة لانها قُتلت بعد اولادها السبعة

*

قد ابناً غير مرّة أنَّ لبنان يمتاز بنباته الزاخر وغاباته الملتفة . امّا اليوم فمن يسرح الطرف في ذرى هذا الجبل ويواه اجرد في اكثر اماكنه قليل الاسراج والاشجار نسب

(١) راجع الجزء الاول (ص ١٣٤)

(٢) اطلب المشرق (١ : ٢٧٧)

(٣) راجع المجلة الاسيوية الالمانية (ZDMG, 1905, 459 etc.)

الينا التّحمّس والمبالغة وارتاب بصدق ما رويناه من الأدلّة القديمة . غير أنّ تسمية الاماكن تشهد بكثرة الاشجار والنبات في لبنان قديماً . ومن ذلك المساكن المسماة « غابة » او « غابات » والتي يدخل في تركيبها اسم شجرة كالاعلام الآتي ذكرها : « سنديانة وبُلوّط وصفصافة وجوز وحوور ودلبة ودلبتا وزغرور ورمّانة وخرّوب ولوز ولويّزة وبُطم ومشحش وزيتون » مع اشتقاق هذه الاسماء وفروعها وتصغيرها واضافتها الخ . فاسم نهر الدامور او كما يدعوّه اليونان تاميراس يتضمّن اسم النخل الذي يقال له بالفينيقية تامير (تمر) ويدلّ على قدم هذا الشجر في لبنان (١) . وبعض هذه الاشجار كانت بالنة في الكثرة حتى سمّيت بها المقاطعات والاقاليم على نحو : « جبل الريحان واقام التفاح واقليم الخروب » كما بيّنا ذلك فيما سبق من مقالاتنا عن الزراعة والاحراج في لبنان

ومما يّضي بالعجب هو اننا لا نرى في جملة النباتات الداخلة في الاعلام اللبنانيّة اسم الارز سيّد الاشجار في لبنان . فعلة ذلك أنّ الاهلين بادروا في أوّل امرهم الى قطع غابات الارز واستثمار اخشابها باثمان غالية حتى تجاوزوا في عملهم كل حدود التروّي والنفطة كما سبق لنا ايضاحه (٢) فالارباح الفاحشة هي التي عرّضت اشجار الارز الى الغيث بها وخرابها حتى لم يبقَ منها الا القليل وهذا القليل لم يسلم من تعدي الانسان الا بفضل القمم المنبئة التي نبت عليها مع أنّ الارز يُؤثر الموضع العالية المعتدلة الهواء فلا يكاد ينبت في موضع ينقص ارتفاعه عن ثمانائة او سبعمائة متر والمراكز المأهولة نجد اكثراً قائماً في الوسط . على أنّ الشرائع الرومانيّة (٣) المختصة بالاحراج كانت تلاشت او كادت حينما شرع العمران يتأصل حقيقة في لبنان اي في عهد وصول الموارنة اليه وقد كان اقتلاع الاشجار بلغ مبلغاً عظيماً حتى لم تبقَ احراج تستحق الاعتبار الا في الصرود العالية . فمجرّد وجود هذه الشرائع والكتابات

(١) راجع غرامطيق اللغة الفينيقية للعلامة شرودر قنصل عام الدولة الالمانية سابقاً في بيروت (P. Schröder : *Phœnix. Sprache*, 135) وكتاب جورده (Ch. Joret : *Les*) (Clermont-Ganneau : *Rec. arch. orient.*, ٧, ٣28 ثم *Plantes dans l'antiquité*, 369)

(٢) راجع الجزء الاول (ص ١٢٩)

(٣) راجع الجزء الاول (٢٢-٢٣)

العديدة المنصوصة فيها وهي تُربي على المائدة أماً يوضح لنا جلياً الحاجة الماسة الى تلك الوسائل لوقاية الاشجار وبما ان هذه الكتابات ليس لها وجود الا في لبنان فيسوغ لنا ان نستنتج ان غايتها انما كانت حماية ارز ذلك الجبل

ومهما كان من الامر فكثرة المواضع اللبنانية التي تُسمّى باسماء الاشجار او بما يُرجع اليها من الحرف والمهن كمعصرة ومعاصر دليل على ان لبنان كان ارضاً سادت فيها الزراعة بخلاف سواها من الصنائع كشغل المعادن مثلاً . فالاسماء العلمية لها اهمية كبرى من هذا القبيل فانها تؤيد نتائج بحثنا السابق . فاننا لانكاد نصادف في جميع لبنان اسماً يلمح الى تلك الصنائع الا اسم « معادن » في ناحية المنيطرة و « الفرزل » على السفح الشرقي وهي لفظة سريانية معناها مسبك او معمل حديد وهذه الملاحظة نفسها تناول الينابيع المعدنية او الحارّة فكثيراً ما نجد في اسماء الاماكن لفظة عين . امّا اسم حمام او ما هو بمعناها فلا وجود له البتة . ويؤيد ذلك علم طبقات الارض فانه يبين لنا ان الطبيعة لم تجد على لبنان بوفرة المعادن كما ضنت عليه بالينابيع المعدنية والمياه الحمة اذ ليس فيه صخور بركانية

واما ما يدل على وجود الحيوان من اسماء المواضع اللبنانية . فليس بالواضح الصريح فلعن استمي « مدينة الاسد » و « نهر الاسد » المار ذكرهما يثيران عند جغرافي اليونان الى وجود الاسد قديماً . واليوم لا نعرف من الاعلام الحاضرة المشتقة من اسم الحيوان الا اسم بنمرة اي بيت غرة وكفرنيس : اما سن الفيل قريباً من بيروت وخرطوم في بلاد الشقيف فلا يكفيان للدلالة على ان الفيل وجد قديماً في لبنان لو لم تكن عندنا غير ذلك من الادلة التي اوردناها في ابجاثنا السابقة (١)

ولعلماء يُنظر على بال كثيرين من القراء اننا اسهبنا في هذا الموضوع . ويقول قائل : ما الفائدة من جميع هذه الافتراضات الوهمية ومن هذا التشرّيح اللغوي وما المنفعة من هذا الدرس بالمكروسكوب والتنقيب عن البقايا المتحجرة في بطن الامة

والتاريخ التي لا سبيل الى احيائها ؟ فلقد اجبنا على هذا الاعتراض في افتتاح مقالتنا وفي سياق كلامنا ونجيب عليه الان لآخر مرة

ان كل من تروى في مطالعة المقالات التي ادرجناها منذ ظهور المشرق عن احوال لبنان القديمة وتاريخه وجغرافيته لا بد له من ان يكون لاحظ ما لاحظناه نحن انفسنا وهو اننا نعرف ماضي لبنان بشس المعرفة اذا لم نعتمد إلا على الشهادات والادلة الكتابية التي تومى اليه لاسيما اذا كان مدار الكلام على ما تقدم عهده . فبالحقيقة ان هذه الشهادات جميعها من كتابات مرسومة على الحجارة وادلة في كتب المؤرخين والجغرافيين وآيات من مؤلفي الكتب المقدسة او غيرهم من الكتبة بلغات الشرق والغرب لا تتناول الا بعض صفحات

لكن ما قولنا عن بقايا الابنية القديمة المتفرقة على سطح الجبل ؟ فانها عجايب يكما لا تنطق ببنت شفة ومن النادر ان نجد بين انقاضها جزءا من كتابة او عبارة ضائعة في كتاب تفصح عن تاريخ بنائها واسمها والغرض منها . ومن طالع الجزء الاول من « تسريح الابصار » عرف ذلك حق المعرفة

فماذا ندرى وماذا نعلم عن مساكن لبنان القديمة ؟ لعمرى ان ذلك يكاد ان لا يكون شيئا . فلو استثنينا مدن الساحل فاننا لانجد ذكرا لموضع مأهول في لبنان قبل التاريخ المسيحي . ومن بعد التاريخ المسيحي لا نصادف كتابا يصف اماكن لبنان قبل القرنين الحادي عشر والثاني عشر . فجل قصدنا كان اذن ان نعوض بعض التعويض عن سكوت التاريخ ونسد بملاحظاتنا المتقدمة ذلك الخلل فاذا لم نتوفى الى سبده جميعه فلا اقل من ان نسد بعضه وما لا يعلم كانه لا يترك جلته فان العلم بالبعض خير من الجهل بالكثرة

فكم من موضع في الجبل ليس له ذكر في كتاب وليس فيه شيء من العاديات حتى ولا لحد منقور في صخر يدل على مرور الانسان فيه . فهذا مما يحضنا على ان نلتبس من اشتقاق اسمه اثرا لماضي وان نستمد من دراسة اصول اللغات النوائد التي ضن علينا بها التاريخ والنصوص المكتوبة . فان كان العلم يونانيا او لاتينيا فيسوغ لنا ان نستدل من ذلك على ان الموضع الذي يدعى بهذا الاسم يتصل تاريخه لعهد شيوع هاتين اللغتين في سورية وان كان الاسم يدل على عبادة وثنية فترجح انه

من عهد انتشار تلك العبادات في الجبل اعني في الاربعة الاجيال الاولى للمسيح او قبل ذلك لاسيما ان كانت تلك الاسماء ترجع الى عبادة فينيقية او آرامية او اشورية . فتلك نتيجة ابحاثنا وهي على ما نظن من الاهمية بمكان اذ تمهد طريقا لمعرفة تاريخ نشأة المساكن وهي في بيان الحقيقة بمثابة لا تقبل كثيرا عن الادلة الكتابية

اما اولئك الذين لا يعولون الا على الآثار المكتوبة فيعتق عليهم ان يستنتجوا انه لم يكن في داخل الجبل من مراكز مأهولة قبل التاريخ المسيحي الا ما ندر لان التواريخ لا تذكر قبل الجبل العاشر الا ثلاثة اسماء مسماة صريحا باسمائها اوردها اسطرابون ١) وهي جيجارتا وبوروما وصنان

فلا ننكر ان العمران لم يبدأ حقيقة في لبنان قبل عهد الرومانيين غير انه من المعلوم ايضا انه كان في لبنان اكثر من ثلاث قرى قبل التاريخ المسيحي فمن اراد الوقوف على الحقيقة فليطالع ما كتبناه في مقالاتنا عن كيفية استعمار لبنان وعن سكانه الاقدمين الا اننا في عرض هذه الابحاث لم نتوصل حينئذ الا الى نتائج بعيدة وادلة غير وافية بالمرام . اما الدليل الصريح على ان لبنان لم يكن خاليا من السكان في قديم الزمان كما يوهمه سكوت التاريخ والكتابات فاننا نجد خاصة في اعلام المواضع التي لحصناها وبيئنا ان بعضها فينيقية وبالتالي متقدمة على التاريخ المسيحي بزمان طويل

على ان هذه النتائج وغيرها من الدلائل التي لا حاجة الى العود اليها تحتج عنا ان كان من حاجة وتعذرنا فيما اذا كنا توقفنا طويلا واسهبنا كثيرا في مثل هذا الموضوع الذي مع اهميته له فضل الحداثة والابتكار فيما يختص بلبنان على الاقل وغاية ما نتمناه ان يستنهض ببحثنا هذا الضعيف المهتم العالمية لاجاث حديثة فنهئ اذ ذلك نفسنا لاننا باستلنا السابقة مهذنا السبيل الى ذلك وفتحنا بابا يطرقة بعدنا من هو اقدر منا

خاتمة الكتاب

فهنّا وعند هذه الامنية نقف بعد استئناف القراء الافاضل الذين بكل لطف
وبجاملة رافقونا في سياحاتنا الطويلة في ماضي لبنان . على اننا لا ندعي اننا في مقالاتنا
المتقدمة وفينا بالاطلوب او استنفدنا المادة واستفردنا الموضوع فاننا نؤادر لبنان ونحن
نعلم ان مسائل كثيرة فالتقنا دون ان نتعرض لها ومشاكل شتى تركناها او لم نحلّها
حلاً مرضياً

وعسى ان يأتي بعدنا من هو اسعد منا فيستخذها ويحكم فيها حكماً نهائياً او
يوضحها احسن ممّا اوضحنا — ونحن نتمنى في الختام ان ما بذلناه من الجهد والكد
يرفع طرفاً من النقاب الذي يجيب عنّا ماضي لبنان ويبحث ذوي الفضل واهل العلم
على ان يحذوا حذونا ويكملوا ما بدأنا به فيُظهروا للعيان فضل هذا الجبل الشهير
الذي اذاعت مديحه الكتب المقدسة وهو لا يزال من ابداع محاسن واجمل مشاعد
سورية الحالية .

فهرس

تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار

الجزء الثاني

صفحة		
٣	اسم لبنان وسعة نطاقه في التاريخ	الفصل الاول
٤	في التوراة	
٧	عند اليونان والرومان	
٨	كتب العرب	
١٠	ما تستفيد سورية من لبنان	الفصل الثاني
١١	المنافع الهيدروغرافية	
١٢	في الملك النباني	
١٣	اعتدال الجو	
١٥	انهار لبنان : منافعها واسماؤها	الفصل الثالث
١٦	منافع انهار لبنان جغرافياً واقتصادياً	
١٩	اسماء انهار لبنان قديماً وحديثاً	
٢٣	سكنى لبنان في قديم الزمان	الفصل الرابع
٢٩	الأهم البائدة في لبنان	الفصل الخامس
٣٠	الحيثيون	
٣٤	اليونان	
٣٩	الايطوريون	
٤٠	الرومانيون	
٤١	المردة	
٤٥	الجراجمة	
٤٨	العجم	
٤٩	انتشار الامة المارونية في لبنان	الفصل السادس
٥٠	الموارنة قبل دخولهم لبنان	

صفحة

٥٣	مهاجرة الموارنة الى لبنان	
٥٧	الموارنة في لبنان بعد الحيل الخامس عشر	
٥٨	بحث جغرافي في سيرة القديس مارون الناسك	الفصل السابع
٥٩	وصف مقاطعة كوجاينة والقورسية	
٦٣	مدينة قورس	
٨٠	دير مار مارون	
٩٣	في لغات لبنان القديمة	الفصل الثامن
٩٨	رسم خرائط لبنان	الفصل التاسع
١٠٧	بحث في أنجاد وأغوار لبنان	الفصل العاشر
١٠٩	اودية لبنان	
١١١	منطقة النالوج المخلدة في لبنان	
١١٢	وصف قسم لبنان	
١١٥	الغاور والجسور الطبيعية	
١١٧	النقطة التي عندها تنتهي المساكن ولبنات	
١١٨	مياه لبنان ورسم مجاريها	الفصل الحادي عشر
≈	رسم عيون لبنان	
≈	كيف تكونت عيون لبنان	
١٢٠	اختلاف عيون لبنان	
١٢٥	مجاري المياه في الاسراب	
١٢٧	رسم المجاري النهرية في لبنان	الفصل الثاني عشر
≈	افادات عمومية	
١٣٢	المصائب والسدود النهرية	
١٣٥	الانهار العاملة	
١٣٨	الانهار وحدود المقاطعات	
١٤٠	مياه لبنان البحرية	الفصل الثالث عشر
١٤٢	المظاهر البحرية العمومية	
١٤٣	اعماق البحر في الشواطئ اللبنانية	
١٤٦	جزر قديمة بازاء بيروت	
≈	اكثبة الرمل	
١٥٠	ارتفاع الساحل البحري	

صفحة	
١٥٤	الفصل الرابع عشر السواحل اللبنانية
١٥٧	سهل شكّا
≈	وصف رأس الشقعة
١٥٨	رأس نهر الكلب
١٦٠	حسن مركز المدن الفينيقية
١٦٢	المرافئ الفينيقية : طرابلس والبترون وجبيل وصيدا
١٦٥	الفصل الخامس عشر لمحة اقتصادية في مجاري المياه اللبنانية
١٦٦	المبادئ العمومية
	كيفية الانتفاع من الانهار اللبنانية : اللطاني والزهراني
	والاولي والدامور ونهر بيروت ونهر الكلب ونهر ابراهيم
١٦٩	ونهر الجوز واني عليّ والبارد ونهر عكار والنهر الكبير
١٧٣	شركة مياه نهر الكلب
١٧٥	مشروع مياه نهر ابراهيم
١٧٨	الفصل السادس عشر الاحوال الجوية في لبنان
١٨١	الفصل السابع عشر الفلاحة والارياح اللبنانية
١٨٣	الغابات اللبنانية سابقاً وحاضراً
١٨٨	مزروعات شتى
١٩٥	الفصل الثامن عشر ما يُقد في لبنان من قديم الحيوان
١٩٦	السميع في لبنان
١٩٩	الفيل ≈ ≈
٢٠٢	التمساح ≈ ≈
٢٠٧	الفصل التاسع عشر المعادن في لبنان
≈	حالة المعادن حاضراً
≈	اولاً : الوقود . الفحم الحجري
٢١٣	الحُسّر
≈	ثانياً : المواد والمناجم المعدنية
≈	الحديد
٢١٧	ثالثاً : الحجارة ولوازم البناء
٢٢٠	معادن لبنان القديمة
٢٢٢	الحديد

صفحة	
٢٢٣	النحاس
٢٢٧	النتائج التاريخية من درس اعلام الاماكن اللبنانية
⌘	منافع هذا البحث
٢٣١	الاعلام السريانية
٢٣٣	تفسير حرف الباء الداخلة على الاعلام اللبنانية
٢٣٥	الاعلام العربية
٢٣٦	⌘ اليونانية واللاتينية
٢٣٧	⌘ الفرنجية
٢٣٩	⌘ النصرانية
٢٤٠	⌘ وشيوع العبادات الوثنية في لبنان
٢٤٧	⌘ والملك النبطي في لبنان
٢٤٩	⌘ المعدني في لبنان
٢٥٢	خاتمة الكتاب

فهرس الاعلام والمواد

التي وردت في جزئي كتاب تسريح الابصار على ترتيب حروف المعجم .
فالخروف الرفيعة تدل على صفحات الجزء الاول ما لم يتقدمها عدد ٢ الاسود الدال
على الجزء الثاني مع ما يتبعه من الاعداد الرفيعة

- اسكندر ساويروس ومآثره في لبنان ١٠٢
اشجار لبنان ٢: ١٨٣-١٩٥
الاشوريون وآثارهم في لبنان ١٠-١٢ لفهم
٧٣-٨١ ; ٢: ٩٣-٩٤
الاعلام المكانية في لبنان وفوائدها التاريخية
٢: ٢٢٧-٢٥١ الاعلام الآرامية ٢٢٣-٢٣٥
العربية ٢٣٥ اللاتينية واليونانية ٢٣٥-٢٣٦
الفرنجية ٢٣٧ الاعلام النصرانية ٢٣٩-٢٤٠
الاعلام الدالة على الوثنية وألفتها ٢٤٠-٢٤٧
اغريبا ومآثره في بيروت ٣٥-٣٦
أفتا وهيكلها وآثارها ٤٩-٥١، ١٠٨، ١١٣-١١٣
٢٨: ٢ ; ١١٣
افيان أو آمفيان الشهيد احد طلبة بيروت ١٠٧
أكويلينا شهيدة جيل ١٠٥
الأمم البائدة في لبنان ٢: ٢٩-٤٩
امونير البيروني في دهد الفراغة ٧٩
اميا الفينيقية ٧٦ ; ٢: ٥٣
امينوفيس الثالث وامينوفيس الرابع وعائلها في
لبنان ٧٣-٨١
اميون ٧٦ آثارها ١٤٤
انطلياس ٤-٥ نهر انطلياس ٤ ; ٢: ١٧٢
أنفة ١٥١-١٥٣
اهدن وكنيستها مسار جرجس ٨٣، ٨٥، ٩٣
- * ١ *—
الآراميون في لبنان ٢: ٢٩، ٣٨ في القورسية
٦٠-٦١، ٦٧-٧١ لفهم ٣٨، ٩٤-٩٦
١١٥ الاعلام الآرامية في لبنان ٢٣٢-٢٣٥
ابراهيم (نهر) نهر ادونيس ٦-٧ ; ٥٨-
٥٩ ; ٢: ١٧٥-١٧٧
اينودورس القديس في بيروت ١٠٦
الاجراس والنواقيس في لبنان ٩١
الاحراج والغابات اللبنانية ٢: ١٨١-١٩٥
الاحوال الجوية في لبنان ٢: ١٧٨-١٨٣
ادريانوس القصر وآثاره في لبنان ١٧
١٠٢،
اده (البغرون) وكنيستها ٨٤ و ٨٨
اده (جيل) وآثارها ٦٨-٦٩ و ٨٤
كنيستها ٩٠
ادونيس او غوز وعبادته في لبنان ٣٨-٤١، ٤٣
و ٤٩، ٥٥، ٥٨-٥٩، ١١٢
ارز لبنان ١٣، ١٣٤-١٤٢
إرسنس العابد اللبناني ١٠٦، ١٠٩
الاسد في لبنان ٢: ١٩٥-١٩٩
الأسراب اللبنانية ومياهها ٢: ١٢٥-١٢٧
اساء الاسكنة اللبنانية وفوائدها التاريخية ٢:
٢٢٧-٢٥١

فهرس الاعلام والمواد

٢٥٨

- كنيسة مار ماما ٩٣، ٩٧ آثارها ١٢٣ - ١٢٣
- الاولي (نهر صيدا) ٢: ١٨، ١٩، ١٧١
- الايطوريون في لبنان ٢٢ - ٢٢: ٢؛ ٤٠ - ٢٩
- ب * *
- البابليون وآثارهم في لبنان ١٠-١٢ لغتهم في لبنان ٧٢-٧٤؛ ٢: ٩٤-٩٣
- بيلوس (اطلب جميل)
- البثرون وآثارها ١٢١-١٢٣
- بجديدات وآثارها ٧٠ كنيسة ٨٤، ٨٧-٨٨
- البحر: مياه لبنان البحرية ٢: ١٤٠-١٥٤
- مظاهر البحر السموية ١٤٣ اكشبة الرسل البحرية ١٤٦ ارتفاع الساحل البحري ١٥٠-١٥٤
- برجا او طبرجا وآثارها ٥٧-٥٨، ١١٩
- برومة او بورومة (القلعة اللبنانية) ٢٤، ٢٣؛ ٢: ٢٥
- البردي في لبنان ٢: ١٨٩-١٩٠
- بزبزا وآثارها ١٤٣؛ ٢: ٢٤٣
- بسكننا ٢: ١١٧
- بشارة (بلاد) وحضرها ٢١٣
- بشرأي وكنائسها ٩٢، ٩٤، ٩٦، ٩٧ جبسة بشرأي ١٣١-١٣٣
- بشلي ١٢٦
- بطرس الرسول في بيروت ١٠٣
- البعل وعبادته في لبنان ١٥ - ١٦، ٤٢ - ٤٦ و ٦٨
- بلشيه واسمها ٢: ٢٤١
- البقاع وموقعها ٢: ٤
- بقر الوحش في لبنان ٢: ٢٠١
- بقسمية وآثارها ١٢٨
- بكفيا وكنيسة مار عبدا ٨٩ اسمها ٢: ٢٤٣
- بلاط وآثارها ٦٨
- البكسند (دير) وآثاره ١٥٤ - ١٥٦؛ ٢: ٢٣٨
- بلونة ١٢، ٢٩
- بمبيوس فاتح سورية ولبنان ٢٢، ٢٣؛ ٢: ٢٥، ٢٩-٤٠
- بمفيل (البيروتي) اسقف قيسارية الشهيد ١٠٧
- بوركنو (الاب اليسوعي) وكتابات عن آثار لبنان ٢٨-٢٩
- بيت خشبو ٢٩
- بيت شاما ٢: ٢٤١
- بيت مري ودير القلعة ١٢ - ٢١
- بيروت: فخرها ٤ بيروت العتيقة ١٤ (اسمها القديم ١٦-١٧، ٢٦، تركيها في عهد الرومان ومدرستها ٢٦-٢٨، ١٠٦-١٠٧ في عهد الفراعنة ٧٤ - ٨١ دخول النصرانية فيها ١٠١، ١٠٢، ١١٢، ١٢٠ مشاهيرها ١٠٦ - ١٠٧ قناخا ٢٩ - ٣٠ ضواحي بيروت وجزارها قديما ٢: ١٧-١٨
- ت * *
- تاريخ بيروت لصالح بن يحيى وفوائده ٢: ٢٣١
- تائيت الالهة اللبنانية ٢: ٢٤٠
- تاودوريطوس مترجم حياة القديس مارون ٢: ٥٨-٥٩ ترجمة حياته واعماله في قورس ٦٤-٧٠
- تداوس الرسول في بيروت ١٠٣
- ترنج ١٢٦
- التركان في لبنان ٢: ٥٧
- تريارس (اطلب الله)
- تل العارنة ومعلومات آثارها عن لبنان في القرن الرابع عشر قبل المسيح ٣١؛ ٧٢-٨١
- التمساح في سورية وفلسطين ٢: ٢٠٢-٢٠٦

- تموز (اطلب ادونيس)
توفيل الماروني ٣ : ٥٥
تولا وكنيستها ٩٠، ٩١، ٩٢
تومات ليحا وقلعتها ٢ : ٢٠٩، ٢٢٧
- ث
- الثالوث الوثني في لبنان ٤٥
ثاودوسيوس الكبير ولبنان ١١١، ١١٢
- ج
- جبة بشرى ١٣١ : ٥٢
الجبل الشرقي او جبل الشيخ وجبل حرمون
٢ : ٥٠-٧، ٢٣٠
جبيل وآثارها القديمة ٢٨، ٦٠-٦٣ مدافنها
٦٣-٦٦ نواويسها ٦٦-٦٧ بلاد جبيل ٦٧-
٧٢ جبيل في عهد الفراعنة ٧٤-٧٩ دخول
النصرانية فيها ١٠١-١٠٢، ١٠٥ جبيل
المتيقة او باليبيلوس ٧-٨، ١٤
الجراجمة اصلهم وسكنهم في لبنان وحروجه
٢ : ٤٥-٤٨
جربتا وآثارها ٧٠
جرجس (القديس) وكرامته في لبنان ٨
جرمق والجرامقة ٢ : ٢٢٨
جزين ومناجم فحمها ٢ : ٢١٠
جون عكار ٢ : ١٥٤-١٥٥
جونييه وصربا ٥-٨ اقوال العرب في جونييه ٦
جيجرتا او جيجرتا (القلعة اللبنانية) ٢٣
١٤٩-١٥١ : ٢ : ٢٥
- ح
- حاصبيا وحسنها ٢ : ٢١٣
الحثيون في لبنان ٢ : ٢٢٩-٢٣٠
الحجارة اللبنانية ومقاطعها ٢ : ٢١٧-٢٢٠
٢٢٦،
- حدتون وكنيستها وآثارها ٨٦-٨٧، ٨٩-
٩٠، ٩٥
حدث الجبة وكنيستها ٨٤، ١٣٣
الحديد ومناجمه في لبنان ٢ : ٢١٢-٢١٧
٢٢٢، ٢٢٣
حرمون (جبل) ٢٤ : ٢ : ٢٣٠،
حصن سليمان ١٥
حما وآثارها الحثية ٣٠-٣١
الحمر ومناجمه اللبنانية ٢ : ٢١٣
حشوش ١٤٩-١٥٠
حيطورة ومنجم فحمها ٢ : ٢١٠-٢١٢
الحيوان وما فُقد منه في لبنان ٢ : ١٩٥-
٢٠٦
- خ
- خرايط لبنان واتقادها ٣ : ٩٨-١٠٧
الخروب في لبنان ٢ : ١٩١-١٩٣
الحشب المتحجر ومناجم الفحم في لبنان ٢ :
٢٠٧-٢١٣
- د
- دار بمشتار وآثارها ١٤٢ اسمها ٢ : ٢٤٢
داعل وكنيستها ٨٤
الدامور ونصرها ٢ : ٢٠، ١٧١-١٧٢
درب السين واسمها ٢ : ٢٤١
دفنة ٢٨
دوما وآثارها ١٠٧، ١٢٧-١٢٨
دير القلعة وآثاره وهياكله ١٣-٢١
دير مار مارون ١١٠ شهداؤه ١١٨-١١٩
- ر
- رأس الشقمة (جبل) ١٤٥-١٤٨ : ٢ : ١٥٦-
١٥٨
رشكيدا وكنيستها القديمة ٨٥، ٩١
رشميا واسمها القديم ٢ : ٢٣٤

ش

شامات وذكرها ٢ : ٢٤١
شبطين وكنيستها ٨٨
شط العرب ٢ : ١٣٧
شنور وشاغور ٢ : ٢٣
الشقيق (قلعة) ٢ : ٢٣٧
شككا ٢ : ١٥٦
الشمس ومبادتها في لبنان ٢ : ٢٤٤

ص

الصبيير او اللين الشوكي ٢ : ١٩٠-١٩١
صربا وجونية ٥-٨
صغار وكنيستها ٨٥, ٩٠
الصليبيون وآثارهم في لبنان ١٢, ١٧, ١٢٣
و ١٤٤, ١٥٣, ١٥٤ - ١٥٦
صنبن (جبل) ٣٤ - ٣٥
صور وصيداء في عهد الفراعنة ٧٥-٨١
صوّر : مغارة ونبع انطلياس ٤ مدخل مغارة
انطلياس ٦ جسر الماملتين ٨ مدخل مغارة
جميعتا ومنبع نهر الكلب ١٠ باطن مغارة
جميعتا ١٣ رسم هيكل البعل في دير القلعة
وآثاره ١٦ قناة نهر بديوت ٢٨ قلعة
معراپ ٣٧ اثار غنية والمشنقة ٣٨ الزهرة
اللبنانية ٤٤ قلعة فقرا ٥٤ برجا ٥٩
مسكوكات بويند السابع ١٥٥ صورة احد
غزاة الحثيين ٢ : ٣٢ صورة المشتري
البعلبي في دير القلعة ٣٧ خارطة اسطرابون
٩٩ رسوم لمجاري المياه ١٢٠ - ١٢٣ السد
عند مصب نهر ابراهيم ١٣٤ خارطة لبنان
البحرية ١٤٤ رسم جبيل ١٥٠ صورة مرفأ
صيدا ١٦٤ منظر اللطاني قريبا من قرية
برغش ١٦٩ صورة نصب اكروم ١٩٧

الرهانية واول ظهورها في لبنان ١٠٩ في
القرسية ٧٤-٧٨
الرومان : سكنتهم الساحلية ٥, ٩ آثارهم
في لبنان ١٠, ١٥, ١٨, ٢١-٢٤, ٤٩,
٥٦, ٦٥, ١٢٣, ١٤٩ ; ٢ : ٢٦-٢٨
و ٤٠-٤١
رب ادى وابنه ازيرو الفينيقيان في عهد
الفراعنة ٧٥-٧٩

ز

زبيدة (قناطرها) ٢٩
زغرتا ١٥٠
الزهراني (نصر) ٢ : ١٧٠-١٧١
الزهرة ومبادتها في لبنان (اطلب عشوت) (م)
هيكل الزهرة في افقا ٥٠-٥١ و ١٠٨
التيوت ومزارعه في لبنان ٢ : ١٨٧-١٨٨
الزينة (بحيرة) ٤٨

س

ساحل علما ٣٦
ساحل لبنان البحري ٢ : ١٥٠-١٥٤ السواحل
اللبنانية ١٥٤-١٦٥
ستراب الااله في لبنان ٧١-٧٢
السرانية (اللغة) في لبنان ١١٥ في بلاد قورس
٢ : ٦٧-٧١ ; ٩٤ ٩٨
سلماتا ١٤٧
السلوقيون وآثارهم في لبنان ١٠, ١٢, ٢٢
; ٢ : ٣٤, ٦٠
سمّر جبيل وكنيستها ٩١ آثارها ١٢٣-١٢٥
سمعان العمودي القديس ولبنان ١١٦
سنّ القيل ٤ ; ٢ : ٢٠٠
سنان (القلعة اللبنانية) ٢٣, ٣٤ ; ٢ : ٢٥
سنيد (جبل) ٢٤-٣٥
سورية : فتح الرومان لها ٢٢-٢٦ ما تستفيده
من لبنان ٢ : ١٠-١٥

الفحم ومناجمه في لبنان ٢ : ٢٠٧-٢١٤
الفرنسيون : خارطة ضباطهم للبنان ٢ :
١٠١-١٠٣
فقرا وقلمتها او هيكلها ٥٢-٥٧
الفلاحة والاحراج اللبنانيه ٢ : ١٨١-١٩٥
الفيل في لبنان ٢ : ٢٠٠-٢٠١
فينيقية واحوالها في عهد الفراعنة ٧٥-٨١
الفينقيون وآثارهم في لبنان ١٥ لقمهم ٢٥
ديانتهم ٤١-٤٦، ١٤٦ بشارهم ومتجرهم
٧٦-٧٧ : ٢ : ١٥٠-١٦١
* ق *

القاسميّة (نهر) ٩ : ٢ : ٢١
قربايل ومناجم فحمها ٤ : ٢٠٨
قزحيّا ورهبانه القدماء ٩٢، ١١١
القطّين وكنيستها ٩٢
القلعة (اطلب دير القلعة)
قلعة الحصن ١٢٥-١٢٦
قلمون ١٥٣-١٥٥
قناطر زبيدة ٢٩
قشوين وكنيستها وديرها القديم ٩٢، ١١١
القورسيّة ووصفها ٢ : ٦٢-٦٣ اهلبا ولقتمهم
٦٧-٧٠ انتشار النصرانيّة فيها ٧٣-٧٤
العيشة الرهبانيّة في القورسيّة ٧٤-٧٨
قورس قاعدة القورسيّة ٦٣-٦٦
القياصرة في لبنان ٩، ٢٥، ٣٢
قيس الماروني المؤرخ ٢ : ٥٥
* ك *

الكركدن في لبنان ٢ : ١٩٩
كمروان وسكّانه ٢ : ٥٧ - ٥٨ اسمه
٢٢٧
كفر باسين واسمها ٢ : ٢٤١
كفرتينيت ٢ : ٢٢٢
كفرحاتا ٢ : ٢٣

* ط *

طاميش (دير) ١٣ اسمه ٢ : ٢٢٦
طرابلس والنصرانيّة فيها ١٠٣-١٠٤، ١٠٦
مقامها ٢ : ٢٤ ساحابها وانهارها ١٣٦
طليلوس الشهيد اللبناني ١٠٤
* ع *

عاديّات نهر الكلب ١٠-١٣
العاقورة وكنيستها مار بطرس ١٢
مبادات وآثارها ٦٩-٧٠
مبدله وكنيستها ٨٤، ٨٧، ٩١
المعجم في لبنان ٢ : ٤٨-٤٩
العرب في لبنان ٢٢ : ٢ : ٩٥
عزرتة ٢ : ١١٧
عشّعروت او الزهرة الإلهة اللبنانيّة ١٧، ٣٨
- ٣٩، ٤٤-٤٥، ٥٠-٥١ : ٢ : ٣٩
مكّا في مراسلات تلّ المارّة ٧٥
عشيت ٦٩
عنطورا ٢ : ٢٢٣، ٢٣٤
عيناتا ٢ : ١١٧
عين صوفر ٢ : ١١٧
عيون لبنان وتكوّنها ٢ : ١١٨-١٢٠ اختلافها
في جرجها وكمياتها ودرجات حرارتها
١٢٠-١٢٥
* غ *

الغابات والاحراج اللبنانيّة سابقا وحاضرا ٢ :
١٨١-١٩٥
غريغوريوس العجائي في بيروت ١٠٦
غزير ٣٦
غوسطا ٢٨ اسمها ٢ : ٢٣٥
غينة وآثارها ٢٨-٣٩
* ف *

فتنقا وقلمتها ٣٦

انصار لبنان جغرافياً واقتصادياً ١٥-١٩
سكنى لبنان في قديم الزمان ٢٢-٢٩ الامم
البائدة في لبنان ٢٩-٤٩ الحثيون ٢٩
البونان ٣٤ الايطوريون ٣٩ الرومانيون ٤٠
المردة ٤١ الجراجمة ٤٥ المعجم ٤٨ الموارد
٤٩-٥٨ لغات لبنان القديمة ٩٣-٩٨ رسم
خرائط لبنان ٩٨-١٠٧ بحث في انجاده
واغواره ١٠٧-١١٧ اوديته ١٠٩-١١١
منطقة تلوجه القراء ١١١ اقبسه واقبسة علوها
١١٢-١١٣ مغاوره ١١٥-١١٦ جسوره
الطبيعية ١١٦-١١٧ مياه لبنان ومجارها
١١٨-١٢٩ مجاري مياه لبنان في الاسراب
١٢٥-١٣٧ مياهه البحرية ١٤٠-١٥٤ لمحة
اقتصادية في مجاري المياه اللبنانية ١٦٢
الاحوال الجوية في لبنان ١٧٨-١٨١
الفلاحة والاحراج اللبنانية ١٨١-١٩٥ ما
فقد لبنان من قديم الحيوان ١٩٥-٢٠٦
المعادن في لبنان حاضراً وسابقاً ٢٠٧-
٢٢٦ النتائج التاريخية من درس اعلام

الاماكن اللبنانية ٢٢٧-٢٥١

لغات لبنان القديمة ٩٣: ٢-٩٨

لمحة اقتصادية في مجاري المياه اللبنانية ٢ :

١٦٥-١٧٧

اللوز اللبناني ٢: ١٩٣

لوسبوس الشهيد في لبنان ١٠٥-١٠٦

الليطاني (نهر) ٩: ١٨: ٢-١٩، ٢١-٢٢
١٣٠ و

الليسون في لبنان ٢: ١٩٣-١٩٤

✱ م ✱

ماحوز (عين) ٥٨

مارون (مار) (ناسك: بحث جغرافي في سيرته

٢: ٥٨-٩٣ مولده ونشأته ومكان تنسكه

وموته ٧٦-٧٩ مقام دير الشهيد وما جرى

كفرحي وكنيستها ٨٤ آثارها ومدرستها

١٢٨-١٣١

كفرشليمان وآثارها ٨٨-٨٩، ٩٢، ٩٧،

١١٩ و

كفرشيشا واسمها ٢: ٢٤١

الكلب (نهر لوكوس) ٨-١٢، ٥٢: ٢:

١٢٨-١٣٩ جسور نهر الكلب وعاديانه

١: ٨-١٣ رأسه ٢: ١٥٨-١٥٩، ١٧٣-

١٧٥

كليبيكس (جبل لبنان) ٧

كنائس لبنان القديمة وخرابها الهندسية ٨١-

٩٩ تنظيم الكنائس في لبنان ١١٥

الكنعانيون في فينيقية ٧٤: ٢: ٩٤

الكورة وآثارها ١٤٢ اسمها ٢: ٢٣٦

كوماجينة وموقعها في سورية ٥٩-٦٢

كبيهرت (هنري ورشرد): خريطتها

لبنان ١٠٠، ١٠٦، ١١٣

✱ ل ✱

(اللاتينية (اللغة) في بلاد الشام ٢٤-٢٥، ٢٧

لاونتبوليس (مدينة فينيقية) ٥

لبنان واحواله في القرن الرابع عشر قبل المسيح

وفقاً لمراسلات تلّ العارنة ١٢-٨١ كنائس

لبنان القديمة ٨١-٩٩ دخول النصرانية فيه

١٠٠ اول مبشريه ١٠٠ تراخ النصرانية

والوثنية في لبنان ١٠٤ مبادئ العيشة

الرهانية في لبنان ١٠٩ ترقى النصرانية في

القرن الرابع ١١٢ تنظيم الكنائس في لبنان

١١٤ انتصار النصرانية خاتماً على الوثنية

في لبنان ١١٦ لبنان وارزله ١٣ و ١٣٤-١٤٢

اسم لبنان وسعة نطاقه في التاريخ ٢: ٣-

١٠ لبنان الشرقي ولبنان الغربي ٥-٧

فوائد لبنان لبلاد الشام ١٠-١٥ منافع

✱ ن ✱

ناوس وهيكلها ١٤٢ اسمها ٣ : ٢٣٥
النحاس في لبنان ٢ : ٢٢٣-٢٢٦
النصيرية في لبنان ٢ : ٤٨ - ٤٩ ; ٥٧ جبل
النصيرية (برجيلوس) ٢ : ٨-٩
النورية (السيدة في رأس الشقة) ١٤٥-١٤٦
نورها (الشهيد) ١٠٥ - ١٠٦
نهر - انهار لبنان : نهر بيروت (ماغوراس)
٥٢ و ٤ : ٢ و ٣ و ١٧٢ نهر انطلياس ٤ : ١
١٧٢ نهر الكلب (اطلب الكلب) . نهر
ادونيس او نهر ابراهيم (اطلب ابراهيم) . نهر
الاسد او الليطاني (اطلب الليطاني) . نهر
القاسمية ٩ : ٣ : ٢١ و ٤١ نهر العاصي ونبعه
٥٢ نهر الاولي (اطلب الاولي) . منافع انهار
لبنان جغرافياً واقتصادياً ٢ : ١٥-١٩ رسم
المجاري النهرية في لبنان ١٢٧ - ١٢٢
المصايب والسدود النهرية ١٢٢ انهار لبنان
العالمية ١٣٥-١٤٢ لمحة اقتصادية في الانهار
اللبنانية ١٦٥ - ١٧٧ الزهراني ١٧٠ الاولي
١٧١ الدامور ١٧١ نهر بيروت ١٧٢ نهر
الموت ٢٢٢ نهر انطلياس ١٧٢ نهر الكلب
١٧٢ نهر ابراهيم ١٧٥ نهر الجوز ١٧٧ نهر
قاديشا (ابو علي) ١٧٧
نيحا وقلمتها ٢ : ٢٣٧

✱ ه ✱

الهرمل ٢ : ٢٦
هيرودس الكبير في بيروت ٢٨
هيلانة (القديسة) وماثرها ١٠٨

✱ و ✱

وادي جرمق ٢ : ٢٣٨
وادي قزحياً ٩٢ و ١١١

في ٨٠-٩٢ مزارعات اليعاقبة والموارنة ٢ :

٥١-٥٢

ماغوراس (نهر بيروت) ٢ : ٤ , ٢٠ , ١٧٢
المتولة في لبنان ٢ : ٤٨ - ٥٢ , ٤٩
المرافق اللبنانية ٢ : ١٦٢-١٦٥
المردة في لبنان واصولهم ٢ : ٤١-٤٥
مسرح وكنيستها ٨٩ آثارها ١٢٢
المسيح (السيد) في لبنان ١٠١-١٠٠
المسيحة وآثارها ١٤٤
المشعري (الاله) في لبنان ١٦ , ١٨ و ٧٠
المشعري البعلبكي في لبنان ٣٧-٣٨
المشعش في لبنان ٢ : ١٩٠ و ١٩٤
المشقة وآثارها ٣٩-٤١
المصايب والسدود النهرية في لبنان ٢ : ١٢٢
المصريون وآثارهم في لبنان ١١-١٢
معاد وآثارها ٧١-٧٢ كنيستها ٨٥, ٨٧
المعالمتين ٢٨, ٧ و ٢ : ١٢٩
معرب وقلمتها ٣٧-٣٨
مغارة الراهب عند العاصي ١١٠-١١١
الملكيون في لبنان ٢ : ٥٤
مسيح ٢ : ٦٢ , ٧١
المنيطرة ٢ : ٢٣٧
الموارنة اصلهم وانتشار امثهم في لبنان ٢ :
٤٩-٥٨ مناصبتهم لليعاقبة ٥١ - ٥٢ الموارنة
والصليبيون ٥٥-٥٦
موسى الحبشي ١١٢-١١٣
المونثليون في وادي العاصي ١٢٠
المياه اللبنانية ومجاريها ٥١-٥٣ ; ٢ : ١١٨ -
١٢٩ منافعها ٨ , ١٥ - ١٩ مياه لبنان
البحرية ١٤٠ - ١٥٤ لمحة اقتصادية في
مجاري المياه اللبنانية ١٦٥-١٧٧
ميروبا واسمها ٢ : ٢٣٤
مينه وميه ٢ : ٢٣٤

فهرس الاعلام والمواد

٢٦٤

يوجنا فم الذهب ولبنان ١١٥	وادي فميق ١٤٧ و ١٥٠
يوقيان الملك واثره ١١٢	وادي النهر الكبير ٢ : ١١٣-١١٤، ١٣٠
يوليوس قيصر في الشام ٣٥	وجه الحجر وقلعتها ٢٣، ١٤٦؛ ٢ : ١٥٧
اليونان وآثارهم في لبنان ١١، ٦٥، ٦٨، ٧١	ي ي
١٢٧، ١٤٧؛ ٢ : ٣٤-٣٩	اليعقوبية (البدعة) في لبنان ١١٧-١١٨؛ ٢ :
اليونانية (اللغة) في الشام ٣٤-٣٥؛ ٢ :	٥١-٥٢
١١٥	اليسيرة بحيرتها وآثارها ٤٦-٤٩؛ ٢ :
	١١٧

